

فَصُولٌ مِنْ

تاريخ العراق القديم

كتاب يبحث عن العراق في عهد الاحتلال البريطاني

بين سنتي ١٩١٤ و ١٩٢٠

كتبه بالانكليزية

المس بيل

نقله الى العربية وكتب حواشيه

جعفر الحنيّاط

B. Se. , M. Se. (كاليفورنية)

طبع بمساعدة من وزارة التربية والتعليم

الطبعة الثانية منقحة ومزادة

١٩٧١

فِصُولٌ مِنْ

تاريخ العراق القريب

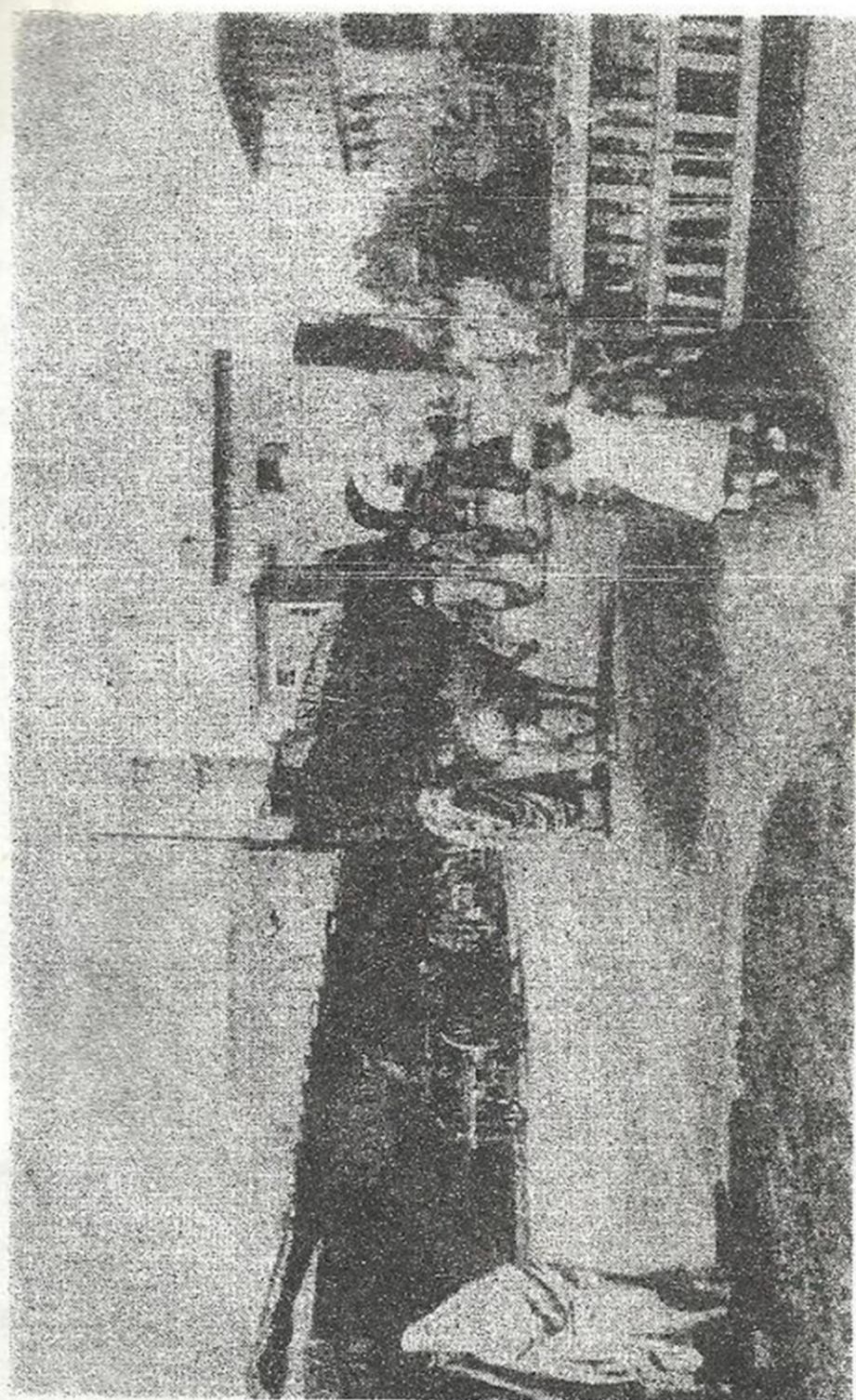
كتاب يبحث عن العراق في عهد الاحتلال البريطاني
بين سنتي ١٩١٤ و ١٩٢٠

كتبته بالانكليزية
المس بيل

نقله الى العربية وكتب حواشيه

جعفر الخنيساط

B. Se. , M. Se. (كاليفورنية)



باب المعظم قبل الحرب العامة الأولى

مقدمة المترجم

في ساعة متأخرة من يوم ٦ تشرين الثاني ١٩١٤ نزل الى البر في الفاو جنود الحملة البريطانية المرسلة من الهند ، فكانت تلك العملية أول خطوة اتخذتها بريطانيا العظمى لتحقيق أطماعها التقليدية في هذه البلاد . فقد كان ساستها المنتمون الى « المدرسة الهندية » الاستعمارية يرون أن العراق يجب أن يكون تابعاً من توابع الهند ، ونقطة أمامية تحافظ منها هذه الامبراطورية الكبيرة على درة تاجها . وكانت الحرب العظمى التي انحازت فيها الدولة العثمانية « الرجل المريض » الى ألمانيا والدول المركزية فرصة سانحة لبريطانية تحقق فيها ما كانت تصبو اليه في مسابقة الدول الأخرى ، ومنافستها ، على هذه الفريسة الدسمة التي ظلت ترمقها بعين أطماعها وتحيك الدسائس من أجل الاجهاز عليها مدة قرون ثلاثة .

وشاءت الظروف ، والسنن الكونية ، ان يؤدي ضعف الدولة العثمانية وعدم استعدادها لحرب ضروس طويلة الأمد الى اندحارها وتشتيت شملها ، فتقاسمت أوصالها دول الحلفاء المنتصرة . وكان العراق بنتيجة هذا الاقتسام من نصيب بريطانيا العظمى وقد خرجت من الحرب العالمية الأولى وهي أول دولة معظمة بين دول الأرض .

وكان من الطبيعي ان تبادر بريطانيا العظمى ، على أيدي رجالها الاستعماريين ، الى ترسيخ أقدامها في هذه البلاد المعطاء المباركة ، ذات الثروة الكامنة والموقع

الجزافي الممتاز ، وتعد العدة للاحتفاظ بها وتنفيذ الخطط الموضوعة لاستثمارها والاستفادة منها . فأُسست فيها « إدارة ملكية » تحت إشراف السلطات العسكرية المحتلة ، وظلت تلك الإدارة منذ خريف ١٩١٤ إلى صيف ١٩٣٠ تسيّر مؤون العراق وسكانه وتجدد في تحقيق ما كانت تصبو إليه بأسلوب عسكري يستهدف مصلحة الدولة المعظمة في الدرجة الأولى ، انتظاراً لما يقرره مؤتمر الصلح ولما تأمر به عصبة الأمم ، حتى تم في الأخير الانعام على بريطانية بالانتداب على العراق وفلسطين .

وقد وقعت خلال هذه الفترة ثورات موضعية في مختلف أنحاء البلاد ، وثورة كبرى في البلاد بأجمعها . وحدثت فيها حوادث جسام كانت تدل بوضوح على روحية هذه البلاد المتوثبة ، التي أهابت بها الأحوال العالمية والاتجاهات الفكرية والسياسية إلى النهوض والمطالبة بحق تقرير المصير .

وحينما قبلت بريطانية العظمى في صيف ١٩٢٠ الاضطلاع بأعباء الانتداب الذي أُلقي على عاتقها ، أو طالبت به هي ، طلبت الحكومة البريطانية من وكيل الحاكم الملكي العام في العراق (أي . تي . ويلسن) أن يوافيها بتقرير مفصل عن الوضع العام في العراق وما وقع فيه خلال هذه المدة الصعبة الحافلة بالوقائع . فعهد باحضار هذا التقرير إلى سكرتيرته المقتدرة المس غير ترود بيل . فقامت المس بيل بذلك خير قيام لما عرف عنها من مقدرة وسعة اطلاع على شؤون هذه البلاد وأحوال سكانها ، ووضعت تقريراً شاملاً بعشرة فصول سمته « استعراض الإدارة الملكية في ما بين النهرين »^١ . فرفع إلى الجهات المختصة ، وطبعته « وزارة الهند » في ٣ كانون الأول ١٩٢٠^٢ ، فقدم بأمر من صاحب الجلالة البريطانية إلى مجلسي البرلمان البريطاني . وقد رقمته « دائرة قرطاسية قرطاسية صاحب الجلالة » برقم (سي أيم دي ١٠٦١) .

Review of the Civil Administration of Mesopotamia. (١)

(٢) تنحصر المدة التي يتناولها التقرير بين ٦ تشرين الأول ١٩١٤ ، وهو يوم نزول الحملة البريطانية في الفاو ، ويوم ١٥ آب ١٩٢٠ .

وفهم مما جاء في إحدى رسائل المس بيل نفسها (الرسالة المؤرخة في ١٧ / ١٩٢١) ان هذا التقرير ، الذي سُمي يومذاك بالكتاب الأبيض ، قد قوبل في صحافة لندن في وقت عرضه على البرلمان الانكليزي بكثير من الثناء والاستحسان . وعلقت بعض الجرائد على كاتبته بقولها أن امرأة قد أصبح بوسعها في الأخير ان تدبج براعتها كتاباً أبيض مثل هذا . وتقول المس بيل بالمناسبة ان حكومة الهند ، التي كانت مسؤولة عن الادارة الملكية في العراق آنذاك ، هي التي طلبت ان تقوم المس بيل نفسها بكتابته ، وليس المستر ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام ، وانها خلافاً لرغبته أصرت على ان تكتبه بطريقتها الخاصة فكان لها أرادت .

ونظراً لما في هذا التقرير القيم من معلومات تاريخية مهمة عن فترة مرتبكة لم يعن مؤرخو العربية بتدوين وقائعها بصورة تجلو الكثير من الغموض الذي يكتنفها ، وبالنظر لأن الوقائع تستند في هذا التقرير الى أحدث المصادر ، التي تعد فريدة في بابها ، لأنها تبين اتجاه الحوادث التي أدت الى تكوين الدولة العراقية الحديثة ووضع أسسها فيما بعد ، بادرت الى نقله الى العربية ليستفيد منه القراء والباحثون ولتتعظ به أجيالنا الناشئة . على أننا يجب ان لا ننسى ان التقرير تسود فيه وجهة النظر البريطانية الخالصة ، وان وضعه بهذه الصورة قد يزيد من قيمته التاريخية ، لدرجة ما ، لأنه يعطينا فكرة لا بأس بها عن آراء واتجاهات الانكليز في تلك الأيام ، ويدلنا على ما كانت تبيته السياسة البريطانية للبلاد من خطط وأحاييل مهلكة لولا ان هب نائرة فتنزع من السلطات المحتلة الغاشمة استقلالها ، انتزاعاً ظلت تشعر بتأثيره رديحاً طويلاً من الزمن .

فالملاحظ مثلاً ان المس بيل تؤكد في كل فرصة أو مناسبة على وجود اختلاف بارز بين السنة والشيعية من أبناء هذه البلاد ، ثم تكرر ذلك وتبالغ فيما تذكره عن هذا الاختلاف بشكل يستشف منه القارئ الغرض السيئ والفساد المقصود . وتؤكد كذلك على وجود اختلاف وتباين كبير بين أبناء العشائر وأهل المدن ، وعلى تخوف الفريقين أحدهما من الآخر . ويلاحظ أيضاً

أنها كثيراً ما تتعرض بزعماء البلاد وقادتها الذين اشتغلوا في الحركة الوطنية ، وتذكر علماء الدين الأعلام بلهجة نابية في كثير من الأحيان ، حتى أنها كثيراً ما تشير الى إيرانية هذا الفريق منهم أو تركية الآخر في أصله وأعماله . كما أنها تبالغ فيما تتعمد ذكره عن وضع الأقليات المسيحية واليهودية تجاه الأكثرية المسلمة ، وتؤكد على تخوف هذه الأقليات من تشكيل الحكم الوطني في العراق . ويلاحظ هذا باستمرار فيما تكتبه المس بيل ، حتى في رسائلها المعروفة التي كانت تبعث بها الى والديها وتطلب اليهما الاحتفاظ بها ، لأنها تعتبرها بمثابة مذكرات خاصة لها .

ولذلك وجدت من الضروري ان أعلق على الكثير مما جاء في صلب التقرير من معلومات وحوادث على قدر ما يمكن لأجل ان تم الفائدة منه ، مستنداً الى عدد غير يسير من المراجع التي أوردت قائمة بها في آخر الكتاب ، وعلى المعلومات المستقاة من الناس الذين عاصروا الوقائع وشهدوا قسماً منها .

ويحتوي أصل التقرير على عشرة فصول كنت قد اكتفيت بترجمة ستة منها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب (طبعة بيروت ١٩٤٩) ، غير انني وجدت من المناسب في هذه الطبعة أن أضيف الى تلك الفصول الستة ترجمة الفصول الأربعة الأخرى ، لما فيها من فائدة وأهمية ، وبذلك يصبح التقرير مترجماً كله . أضيف الى ذلك أنني وجدت بين ملاحق كتاب السر أرنولد ويلسن عن العراق مذكرتين مهمتين كتبتهما المس بيل نفسها أيضاً ، وهما مذكورة عن « الحكم الذاتي في العراق » ومذكورة عن « آراء نقيب بغداد السياسية » ، فعربتُهما ايضاً وجعلتهما آخر فصلين في الكتاب بعد الفصول العشرة العائدة الى صلب التقرير . ولا شك أنني أقدمت على نشرهما لقيمتيهما التاريخية .

وكاتبة هذه الفصول ، المس غير ترود لوثيران بيل^١ سي . بي . أي ، غنية عن التعريف للجيل العراقي الذي شهد الحوادث وعرف سيرها في بداية تشكيل الحكم الوطني في العراق . فأنها بعد ان تلقت ثقافتها العالية في جامعة اوكسفورد وتعلمت مبادئ العربية ، أظهرت شغفاً عظيماً في الترحال والتجوال في البلاد العربية ، فأدى ذلك الى اتقانها اللغة العربية وتوسع اطلاعها على شؤون البلاد العربية وأحوالها من جميع الوجوه تقريباً . وقد تجولت قبل الحرب العامة في سورية ونجد والعراق وغيرها ، فدونت أخبارها في كتابيها المشهورين : « مراد الى مراد »^٢ و « رسائل المس بيسل »^٣ ، وفي كتاب « سورية - البادية المعمورة »^٤ . وفي هذا الكتاب معلومات تاريخية وجغرافية ، وعشائرية قيّمة . كما كتبت كثيراً من المقالات والتقارير والمذكرات ، ومن جملتها فصول كتابنا هذا ، التي تعتبر مراجع هامة عن العراق على الأخص . وعند نشوب الحرب العالمية الأولى ألحقت بالحملة العسكرية التي فتحت العراق ، فعينت لأول مرة في البصرة بتاريخ ٢٦/٦/١٩١٦ ثم انتقلت مع دائرة المكتب السياسي في معية السير بيرسي كوكس ، رئيس الحكام السياسيين للحملة ، الى بغداد حيث بقيت تقوم بمهمة خاصة في « دائرة الشؤون العربية » حتى تأسست دائرة المندوب السامي البريطاني فعينت بها بوظيفة « السكرتير الشرطي » . وظلت تعمل هناك حتى وافاها الأجل المحتوم في العراق يوم ١٢ تموز ١٩٢٦ ، فدفنت في مقبرة المسيحيين بالقرب من ساحة الطيران اليوم ببغداد . والحقيقة أنها خدمت أمتها في العراق خدمة جلي وروجت مصالحها فيه ، كما أنها كانت من أنصار تأسيس

Miss Gertrude Lothian Bell C. B. E. (١)

Amurath to Amurath (٢)

the Lettery of Gertrude Bell (٣)

Syria, the Desert and the Sown (٤)

نوع من الحكم الوطني في العراق . وهي مؤسسة دائرة الآثار القديمة والمتحف العراقي ، الذي كان يضم في مبناه القديم نصباً تذكاريّاً خاصاً بها .

هذا وأرجو ان يلاحظ ان تجزئة البحث ، ووضع العناوين ، في كل فصلٍ من الفصول قد أجريته أنا تسهيلاً للمطالعة والرجوع الى المباحث المختلفة فيها . كما ان الصور المنشورة في الكتاب بأجمعها قد جمعها مترجم الكتاب من مختلف المصادر ونشرها توثيقاً للفائدة ، حيث ان التقرير غفل من الصور .

وأني آمل ان أكون قد قمت ، بنقل هذه الفصول الى العربية ، بقسطٍ يسير من الواجب الذي تحتمه خدمة البلاد ، ومن الله العون والتوفيق .

جعفر الخياط

بيروت } ٢٠ أيلول ١٩٧١
 } ٣٠ رجب ١٣٩١



المس غيرتروود بيل كاتبة الفصول

الفصل الأول

احتلال البصرة

العراق والخليج قبل الحرب

في ربيع سنة ١٩١٠ وصف الحكم العثماني في العراق ، وصفاً موجزاً متفرداً ، مراقب ذوأهلية هو المستر ج. لوريمر المقيم البريطاني في بغداد ، بكلمات لا يمكن أن يكتب أحسن منها . فقد كتب في « يومياته » السياسية لشهر مارت بأن « جهاز الادارة التركي العام لا يلائم العراق من جميع الوجوه تقريباً . وعلى الترك أنفسهم ان يعترفوا بأنه جهاز فاشل هنا ، وبرغم ان فشله هذا يتضح وضوحاً كافياً فهناك قليل منهم من يدرك الأسباب التي أدت اليه . فليس العراق جزءاً متمماً من الامبراطورية العثمانية ، لكنه تابع أجنبي من توابعها تقريباً ، وان حكومته التي يديرها موظفون اعتادوا الجلوس بموجب تعليمات وانظمة دقيقة وضعت في أستانبول لتطبق على بلاد العرب التركية لا يمكن ان تكون حكومة وافية بالمرام على الاطلاق . فلم اكن أتصور قبل مجيئي الى بغداد مقدار ما في البلاد التركية من المحافظة على الأصول الرسمية محافظة عمياء ضياء ، ولا مقدار الضعف العسكري الذي يغتور موقف الأتراك في العراق . على ان المرء لا يسعه هنا الا ان يقدر ما في البروقراطية التركية من عزم لا يشوبه تدمير

في الحكم بموجب القوانين حكماً حرفياً، كما يقدر الجيش الهزبل لمحافظة على مظاهر الأمن والطمأنينة في البلاد .

ان هذا الوصف يلخص الأحوال التي كانت سائدة في البلاد عند اندلاع نيران الحرب ، عدا فترة الأربع سنين والنصف التي كان الحكم فيها بعهدة «جمعية الاتحاد والترقي» يميل الى استفحال المساوىء السابقة ، بينما يثير في النفوس آمال تحسن الأحوال التي لم يمكن تحقيقها . فبدافع الكلمات المعسولة والوعود المغرية بالحرية والمساواة ، أخذت الأقوام الخاضعة للأمبراطورية العثمانية تكون لها آمالاً وأمان تناقض برمتها الروحية المركزية التي كانت تتمسك بها «جمعية الاتحاد والترقي» حتى أكثر مما كان يفعل العهد الذي حلت في محله . وصيغت مطالب الحكم الذاتي المحلي ، وقد عرفت لأول مرة في سورية ، بمزيد من اللهجة الخازمة هناك . فتردد صداها في ما بين النهرين ، ليس بين السكان العرب وحدهم بل بين الأكراد ايضاً ، ولم يكونوا أقل من العرب نفوراً وابتعاداً عن الفرض المتقطع للسلطة التي كانت الحكومة العثمانية عاجزة عن أدامتها . وليس كثيراً ان يقال ان ولايات البصرة وبغداد والموصل العراقية كانت قد وصلت الى حدود الفوضى المنسجمة مع وجود الادارة المستقرة ، حتى بالاسم . فقد كان موظفو القنصليات البريطانية منذ سنين خلت متعودين على تلقي طلبات مورطة من وجهاء محليين وشيوخ عشائريين يطلبون فيها ان تقوم الحكومة البريطانية بوضع حد للفوضى التي لا تطاق ، عن طريق تسلم الحكم في البلاد .

وقد فرضت علينا المصالح البحرية والتجارية في الخليج العربي ، وأهميته السياسية لحكومة الهند ، مسؤوليات لم يكن بوسعنا ان نتحاشاها . فكان موقفنا تجاه شيوخ العرب المقيمين على سواحلهم قد تعزز بصورة تدريجية ، ونظمنا علاقاتنا بسلطان مسقط وشيوخ الساحل المهادن^١ وجزيرة البحرين بمعاهدات .

(١) الساحل المهادن أو الساحل المتصالح هو جزء من سواحل الخليج الغربية ، ويمتد الى مسافة =

وكان ابن سعود^١ ، عاهل نجد ، الذي مد رواق سلطانه في ١٩١٣ الى البحر ، متلهفاً للحصول على مؤازرتنا له واعترافنا به . كما طمّنا شيخ الكويت^٢ ، الذي كان يوجس خيفة على الدوام من تجاوزات العثمانيين عليه ، ووعدهنا بحمايتنا له ، وكان شيخ^٣ المحمرة العربي بعنصريته الايراني بتابعيته يتطلع الى مساعدتنا في المحافظة على وضعه تجاه الشاه والسلطان معاً .

وكانت هذه المحالفات ذات نفع بالغ الأهمية عندما أعلنت الحرب على تركية في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٤ ، كما كان من الأهمية في الدرجة الأولى أن توضّح لشيخوخ الخليج أسباب القطيعة مع الأمبراطورية العثمانية ومدى حالة العدوان التي نتجت عن الحرب . وعلى هذا الأساس أصدر المقيم السياسي في ٣١ تشرين الأول ، بايعاز من حكومة صاحب الجلالة ، بياناً الى شيخوخ العرب في الخليج العربي والى رعاياهم يشرح فيه بأن تركية دخلت الحرب بتحريض من ألمانية فسعت بذلك الى حتفها ، وأنه يظهر ان الامبراطورية العثمانية قد أخذت شمسها بالأفول . ووعدهنا الشيخوخ الذين كانوا يتمتعون بحماية بريطانية العظمى

= ١٣٠ ميلا من رمس في الشمال الشرقي الى ما وراء أبي ظبي في الجنوب الغربي ، حيث يدور الساحل الى الغرب ويتجه نحو شبه جزيرة قطر . ويحد هذه المنطقة من الشرق سفوح جبال هجر الواطئة ، ومن الجنوب واحة البريمي . ويخترق الخط الساحلي هذا عدد من الخلجان الصغيرة والتهيرات والبرك ، التي تنتشر ما بينها القبائل العربية التي ظلت تعيش عدة قرون على المنتجات البحرية . اما سبب التسمية بهذا الاسم فيعود الى سنة ١٨٣٤ حينما كان النزاع محتدماً بين قبائل الجواسم (القواسم) بزعامة شيخ مشايخهم سلطان بن صقر وبني ياس بزعامة الشيخ شخبوط بن ذياب . وقد استطاع الكابتن هنيل المقيم البريطاني يومذاك ان يعقد مصالحة مؤقتة ، أو مهادنة ، بين الطرفين يسري مفعولها في المنطقة المذكورة . لكن تلك المهادنة استقامت مدة طويلة من الزمن وصار المعنيون من الانكليز في الهند والخليج يطلقون على المنطقة هذا الاسم . وكان عرب تلك المنطقة يسمونها « الشمال » أو « السير » بالكسر . ويسمونها الانكليز « ساحل القرصنة » كذلك ، لأن القبائل المذكورة ولا سيما الجواسم كانت تهاجم السفن منها . وتشغل هذا الساحل اليوم مشيخات الخليج السبع الآتية : أبو ظبي ، دبي ، الشارقة ، العجمان ، أم القوين ، رأس الخيمة ، الفجيرة .

(١) اي السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود .

(٢) اي الشيخ مبارك الصباح .

(٣) أي الشيخ خزعل .

المُحْسِنَةُ بأننا سوف لا نقوم بعمل يهدد حريتهم أو شؤونهم الدينية ، كما طلبنا منهم أن يقوموا بدورهم في المحافظة على حالة الأمن والسلام في مناطقهم ، وأن لا يسمحوا للحمقى من رعاياهم بتعكير صفو الأمن في ممتلكاتهم والأضرار بالمصالح البريطانية . وأخبروا بأنهم اذا ما سلكوا هذا المسلك سوف يخرجون من معمعان الحرب التي تحيط بهم أقوى وأكثر حرية من قبل . وفي غرة تشرين الثاني صدر بيان ثانٍ ، أوسع مدى في تطبيقه ، يتعلق بالأماكن المقدسة في العراق .

فاقتنع شيوخ الخليج بهذه التطمينات . ولم يصدر منهم خلال مدة الحرب كلها ما يدل على وقوفهم موقفاً معادياً لنا ، وأثبتت الصداقة الراسخة بيننا وبين البارزين من الأمراء ، مثل شيخ المحمرة وشيخ الكويت وأمير نجد ، أنها شيء لا يثمن ليس للحكومة البريطانية فقط بل للقضية العربية أيضاً .

النزول إلى البر واحتلال البصرة

وفي ٦ تشرين الثاني (١٩١٤) نزلت إلى البر في مصب شط العرب القوة البريطانية الهندية التي كانت محتشدة في البحرين ومتأهبة للعمل بقيادة الجنرال ديلامين ، فاستولت على قلعة الفاو بحماية قصف المدفعية البحرية . وفي اليوم نفسه أصدر السير بيرسي كوكس ، الذي كان يرافق الحملة من الهند بصفته رئيساً للحكام السياسيين ، بياناً كرر فيه أسف الحكومة البريطانية لاضطرارها إلى معسادة الحكومة التركية وإعلان الحرب عليها بعد أن أبدت عدواناً لا مسوغ له . ومما جاء في البيان ما يأتي : « ليكون معلوماً للجميع بأن الحكومة البريطانية لا تناصم السكان العرب المقيمين على ضفتي الشط ، وعليهم ان لا يتخوفوا من شيء لأننا سوف لا نتعرض لهم ولا لأموالهم اذا وقفوا معنا موقفاً ودياً لا يؤاؤون فيه الجنود الاتراك او يحملون فيه السلاح علناً » .

وكان الاتراك خلال شهر تشرين الأول يخلون سطوح مراكزهم المثقلة

بالمعوقات تمهيداً للعمل . فلم يكن يقلق هدوء البصرة من قبل ، ويتغصص على ولائها المتعاقبين غفواتهم ، خلال خمسة وعشرين سنة سوى نشاط السيد طالب الذي ينتمي الى اسرة سنية من الأسر البارزة في المنطقة ، والابن الأكبر للنقيب فيها . اذ كانت تركز اطماع السيد طالب ، عضو جمعية الاتحاد والترقي وخصمها الحزب الحر بعد ذلك ، في أمل قلب ولاية البصرة الى إمارة عربية مستقلة يكون هو نفسه أميراً على رأسها . وقد سيطر هو واتباعه مدة سنين عديدة على مدينة البصرة وتحذوا السلطات العثمانية المحلية تحدياً واضحاً . وكان السيد طالب يدرك تمام الادراك المجازفة التي كان قائماً بها ، وعلى هذا اتصل بنا بواسطة شيخ المحمرة عندما ألح عليه أنور باشا في تشرين الأول ١٩١٤ بالذهاب الى استانبول ، وهي أحسن طريقة يتخلص منه بواسطتها . وقد تعهد



السيد طالب باشا النقيب

لنا ان يقوم بثورة عربية لقاء اعترافنا به أميراً في منطقته . فأرسل اليه الرد بواسطة الشيخ خزعل ، شيخ المحمرة ، يشار فيه عليه ان يبقى في البصرة ويتعاون لترويج مصالحنا مع شيخ المحمرة وشيخ الكويت ومع ابن سعود . وقد وعد باعفائه من الرسوم الحكومية عن بساين نخيله ، وب حمايته من الاتراك ، والمحافظة على الامتيازات الوراثية له ولوالده النقيب . وهنا توقفت المفاوضات وقبل ان تصل قواتنا الى البصرة تخرج موقف السيد طالب فقر الى الكويت ومن هناك الى ابن سعود الذي توسطه عندنا .

وانتهى الامر بأن يذهب الى الهند^١ بنفي اختياري ، ثم سمح له في ١٩١٧ بأن ينتقل الى مصر حيث مكث الى شباط ١٩٢٠ وعاد الى البصرة .

وقد كانت سيرة السيد طالب شيئاً غير مضمٍ من وجهة نظرنا نحن . ولا يمكننا ان ندلي بالقول نفسه بالنسبة لعجمي السعدون . فقد كان ، وهو اشد الرجال حيوية بين رجال اسرة معروفة من الأسر السنية العشائرية الملاكة في ولاية البصرة ، عدواً لدوداً للسيد طالب الذي أوقع والده (والد عجمي) في أحبولة في ١٩١١ وسلمه للاتراك . إذ نقل سعدون^٢ باشا الى حلب وخارت

(١) أقام مدة نفيه هذا في جزيرة سيلان .

(٢) هو سعدون بن منصور باشا ابن راشد بن ثامر بن الشيخ سعدون الكبير الذي تسمت الأسرة بأسمه . وقد ولد في حوالي سنة ١٨٥٣ . أما الأسباب التي أدت الى إلقاء القبض عليه بهذه الطريقة ، فهي أسباب تعود في أصلها الى تطور الوضع العشائري في ولاية البصرة يومذاك ، ولا سيما في جهات المنتفك . إذ يبدو من النبد المدونة عنها هنا وهناك ان نجم آل البسعدون أخذ بالأقول بعد الإصلاحات التي أدخلها الوالي مدحت باشا . فقد أخذت عشائر المنتفك تنازعها السلطة بالتدريج ، وتقف في وجهها في كل فرصة أو مناسبة . وسينما تول المشيخة سعدون باشا أخذ يقلل جهده في استعادة نفوذ آبائه واجداده بالقوة ، وحياء عهدهم في السيطرة على العشائر كلها من جديد . ولذلك اصطدم بها واحدة بعد أخرى ، وكان آخر الذين اصطدم بهم قبائل الضفير بعد ان ظلت حليفته ونصيرته ردحاً طويلاً من الزمن . وقد أدى ذلك الى قيام رؤساء القبائل كلها بتنظيم مضبطة عنه ، وقع عليها ١٤ رئيساً من الرؤساء (نشرتها جريدة مصباح الشرق في عددها ٤٧) ، فتدتمت الى ولايتي بغداد والبصرة . وقد شرحوا فيها واقع الأمر بالنسبة لسعدون باشا وطلبوا فيها انقاذهم منه لتستقر الأحوال في تلك الجهات .

ولما كانت الحكومة العثمانية قد ملت من وضع القبائل غير المستقر في تلك الانحاء فقد فكرت في إلقاء القبض عليه وسوقه الى المحاكمة بعدة تهم ، تدور كلها حول إقلاق حالة الأمن في البلاد وشق عصا الطاعة على الحكومة .

وحينما جاء الى بلدة الزبير في يوم من أيام أوائل تموز ١٩١١ سمع بعودة صديقه الحميم السيد طالب باشا النقيب من الأستانة ، وكان يومئذ عضواً في (مجلس المبعوثين) العثماني . فكتب اليه يطلب زيارته ويسأله فيما اذا كان هناك مانع يحول دون ذلك . فأجابه السيد طالب بعدم وجود مانع من مجيئه الى البصرة . وعند ذاك توجه اليه ونزل ضيفاً عنده . وحالما علم الوالي بدخول سعدون الى المدينة كتب برقية الى (لجنة التحقيق والاجراء) بموافقة سعدون الى البصرة ، فورده الجواب بالقبض عليه وسوقه مخفوراً الى بغداد . فجاءه قومندان الجندرية الى بيت السيد طالب وقت القيلولة ، =

قواه في جو السجن العثماني هناك ففضى نحيبه . وبانقلاب غريب ، ارتدى عجمي بدافع كرهه للسيد طالب في أحضان الترك ، فاعتمدوا عليه في تحشيد العرب وقيادتهم في الحرب المقدسة ضد الكفار . فقد بذلت جهود حثيثة في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية لاثارة العصبية الاسلامية باعلان الجهاد ، فأصاب تلك بعض النجاح في العراق . ثم عيشت قوات الاسلام الدينية والحق رؤساء الدين البارزون من الشيعة في النجف وكربلاء على شيخ المحمرة بأن يساهم في مقاتلتنا . فأجاب انه يعتقد بأن المجتهدين كانوا يعملون تحت ضغط من الحكومة ، وان التزاماته بصفته رجلاً من رعايا الدولة الايرانية تجعله يقف على الحياد . غير ان رجال القبائل في الفرات ودجلة ، التي استثارها الأمل في كسب الغنائم الوفيرة اكثر مما استثارها ثواب الآخرة ، تواردوا بطريق النهرين ليصدوا تقدمنا على شط العرب - فكانوا جمعاً متوحشاً غير مسؤول تفرق شمله في اول اشتباك وقع لهم معنا . وقد صرح احد الذين قاتلوا ضدنا من هؤلاء بعد ذلك الى بريطاني مقيم في البصرة قائلاً « اما مدافع الانكليز فقد ملأت الجو بقصفها ، وحفرت الارض فاقتلعت النخيل . ان هذه ليست حرباً ايها الصاحب » . وبعد ان جرب هذه المربعات غير المألوفة رجع راوي هذه الرواية الى فلاحه بستانه راضياً بحكمنا .

وفي ١١ تشرين الثاني اشتبكت مقدمتنا بقوة تركية متألفة من عدة مئات من حامية البصرة في سيحان فصدها . وفي يومي ١٦ و ١٧ جرت اشتباكات في الساحل وكوت الزين . وكان عجمي السعدون في معية القوة التركية العشائرية

= وطلب اليه مواجهة الوالي . فلبى الطلب مسرعاً ، وحينما وصل الى دار الحكومة قيل له ان الوالي في العشار ، فركب العجلة الى هناك وحينما وصل الى العشار قيل له انه في المركب الراسي في شط العرب . وما كادت اقدامه تخطى المركب المسمى (مسعودي) الا وشعر بأنه محاط بالحقير ، وانه ينقل الى بغداد فوصلها في ٢٧ تموز . وهناك أنزل في دار خاصة به عينها له الحكومة . وفي ٣ آب نقل الى قلعة المدفعية الواقعة على دجلة (أي القمم الجنوبي من القلعة الحالية التي بنيت فيها وزارة الدفاع) ، وفي ليل ٢٠ آب ١٩١١ سيق إلى حلب عن طريق الموصل لمحاكمته . وهناك قضى نحيبه في السجن . (مجلة لغة العرب ، ج ١ ، الص ١١١ - ١١٩) .

العربية الاجيرة ، كمان كان يقود مئتين وخمسين من الخيالة غير النظاميين الا انه كان يحوم حول ميدان المعركة من دون ان يساهم فيها ، وقد انقض عنه قسم كبير من رجال القبائل قبل بدء العمليات . فأصبح مصفى النفط في عبادان العائد لشركة النفط الانكليزية الايرانية في مأمن من الخطر منذ ذلك الوقت فصاعداً ، ولم يعد من النقاط التي كانت أولى واجبات الحملة حمايتها وإنما غدت عبادان على طول ما تبقى من مدة الحرب تقوم بدور المجهز للزيت الخام والنفط لكل فرع من فروع مصالح صاحب الخلافة البريطانية . وإن سجل اشتغال المصفى وجميع من كان فيه ، وفي حقول النفط البعيدة التي يعتمد عليها ، ليعد سجلاً رائعاً نعتز به ونفخر . وقد تأمنت بهذا كذلك وضعية صديقنا الحميم شيخ المحمرة بعد ان كانت مدعاة لشئ غير يسير من القلق .

وبعد الاندحار الذي مني به الاتراك في يوم ١٧ تشرين الثاني تراجعوا مسرعين إلى القرنة تاركين البصرة وراءهم ، بينما انسحب عجمي إلى الزبير . وتركت البصرة إلى رحمة العشائر الفارة ، وإلى الكثير ممن كان حراً فيها من القتلة الذين انهمكوا بقبالية محلية معهودة في نهب الكمرك والاسواق . فأرسلت رسائل مستعجلة إلى الجيش المتقدم من الوجوه المحليين والقنصل البريطاني تناشده الاسراع في التقدم ، فدخلنا المدينة في ٢٢ تشرين الثاني لنجد النيران تشتعل في بناية الكمرك والسكان في قلق متزايد . وفي يوم الاحتلال أصدر السر بيرسي كوكس باسم القائد العام بياناً يطمئن فيه السكان بأننا لا نكن لهم خصومة أو سوء قصد ، وأننا نأمل ان نشب أنفسنا أصدقاء أوفياء وحماة لهم . ثم استطرد البيان يقول : « ... ولم يبق من الادارة التركية شيء الآن في هذه المنطقة . فقد رفع في محلها العلم البريطاني الذي سوف تتمتعون في ظلّه بمنافع الحرية والعدالة بالنسبة لشؤونكم الدينية والدنيوية معاً . وأصدرت الأوامر المشددة لجنودي المظفرة بأن يعاملوا السكان بوجه عام بصداقة وتقدير تامين عند قيامهم بالواجبات الملقاة على عاتقهم . وعليكم انتم ان تعاملوهم بالمعاملة نفسها » .

الشيخ المحليون

وقد وضعت المدينة بعهد حاكم عسكري عُن له بعد مدة وجيزة نائبان ، يشتغل احدهما في البصرة ويشغل الآخر في العشار . وبرغم ان القبائل النازلة على طول شط العرب قد ساعدت القوات التركية بشيء من المساعدة ، اذا لم تكن قد عملت شيئاً آخر ايضاً ، فانها اخذت تتقرب منا . وكان اول من اتصل بنا الشيخ ابراهيم شيخ الزبير ، الواحة الصغيرة الكائنة على حافة البادية بمسافة ثمانية أميال عن غرب البصرة ، التي تقوم في موقع ميناء السندباد البحري . وكان الاتراك يسمحون لشيخ الزبير بأن يتخذ موقفاً شبه مستقل على الدوام ، فكانت قريته التي يسكنها في الغالب سنيون من نجد ، تظهر بمظاهر الجزيرة العربية وجوها وليس بمظهر العراق وجوه . وتعد الزبير من اسواق البدو المنتشرة على طول حدود البلاد المعصورة ، وعلى هذا كثيراً ما تردد فيها أحاديث عشائر البادية وشؤونها السياسية . ولما كانت الشؤون العليا هذه تناقش حول موقد القهوة في مضيف الشيخ ، فانه يعد احسن الثقافات المحليين فيما يختص بشؤون البدو ، ولذلك صار بمقام عيون رئيس الحكام السياسيين وأذانه . وكانت صداقته مفيدة لنا على الاخص عندما تحشد الاتراك وقت الربيع في الشعبية الواقعة الى شماله بمسافة ثلاثة او اربعة أميال .

وفي ٩ كانون الاول استولينا على القرنة الواقعة على ملتقى دجلة ومجرى الفرات القديم . وكان شيخها^١ قد بعث بعدد من الرسائل اليها في البصرة ،

(١) كان شيخ القرنة الشيخ گباشي السعد المقيم في قرية النهيرات بالقرب من القرنة . ويذكر ارنولد ويلسن عنه قوله : وما ان تم الاستيلاء على البصرة حتى تسلمنا رسائل الاخلاص والولاء منه . وحينما تم احتلال القرنة صادقنا على مشيخته وأقربائه فيها ، وعندما زار نائب الملك في الهند ذلك المكان خلع على الشيخ كباشي بزة الشرف التي يستحقها . وبرغم التقلبات الكثيرة فقد استمر على الاحتفاظ بمنصبه واكتساب الجدارة التي تجلب الاحترام له . فقد كان على شيء من الثقافة ، والمعرفة الجيدة بالتاريخ المحلي والتقاليد الدارجة ، وشيء من الفصاحة غير المهذبة . ولذلك كان يقدم شيئاً غير قليل من المعرفة والمعلومات للحكام السياسيين الذين تعاقبوا على الاشتغال =

وظل منذ ان تم احتلال القرنة غير متردد في موقفه تجاهنا - فأصبح شخصية مألوفة في دائرة الحاكم السياسي في البصرة بنظراته المتيقظة غير المستقرة ولحيته الحمراء المصبوغة بالحناء، وبسبيل عباراته وجملته الفصيحة . ولما كان متعلماً بعض الشيء فقد كانت له مكتبة



الشيخ غباشي المديش القرنة

صغيرة ، وكان يعتز بمعرفته للتاريخ الممتد الى ايام آدم فيما عدا بعض الفترات . وكان شيخ الهارثة^١ ، الواقعة بين البصرة والقرنة ، يعد من اصدقائنا منذ السابق . فكان من اوائل وجوه الريف الذين دخلوا في خدمة الحكومة البريطانية : وكانت علاقتنا به قد بدأت منذ أن عثر عليه مجروحاً في ساحة المعركة التي وقعت في كوت الزين حينما كان يقاتل ضدنا . فعُفي عنه بتوسط شيخ المحمرة ، وكسبنا بالمعاملة التي عاملناه بها امتنانه الدائم وعرفانه المستمر بجميلنا .

موقعة الشعبية

وفي شباط ١٩١٥ زار اللورد هاردينج ، نائب الملك في الهند ، البصرة فأعرب ، في خطاب رد فيه على خطاب القي في حضوره باسم الجالية البريطانية فيها ، عن أمله في أن يسمح لنا بأن نتمادي في تطمين الناس وتوثيقهم بأن حكماً

في القرنة ، كما كان لسانه الذرب وبديته السريعة يجعلان منه زائراً محبوباً لدى كبار الموظفين الذين يخرجون للتفتيش ، وفي الدائرة السياسية في البصرة ..

(١) اما شيخ الهارثة فهو الحاج عذار ، كما يفهم مما جاء في كتاب أرفولد ويلسن . وهو يقول عنه انه كان الوحيد من بين وجهاء الانحاء الريفية في منجق البصرة الذي انخرط في سلك الإدارة المدنية ، وبقي فيها لوحده مدة طويلة من الزمن . فقد جرح وقبض عليه أسيراً في كوت الزين من قبلنا ، لكنه استطاع ان يوسط شيخ المحمرة عندنا فأطلق سراحه وشجعنا على توظيفه .

أكثر ترفقاً ورأفة سوف يؤدي من الآن فصاعداً الى ان يعاد فيه للعراق الرخاء الذي يتناسب مع امكانياته الوفيرة وثرواته الكامنة ، هذا برغم عدم تمكننا الآن من الجزم بما نقول قبل ان نتبادل الرأي مع حلفائنا ونضع الخطة للمستقبل. وقد تسلم صاحب الجلالة في اول كانون الثاني برقيسة وقع عليها ستة من وجهاء البصرة يظهرون فيها امتنانهم بادخالهم في ضمن رعاية الراية البريطانية . لكن رعية الراية هذه قد تهددت بصورة خطيرة في ربيع ١٩١٥ ، فان جموعاً من رجال القبائل كانت تتحشد في الغرب ، في البادية بين الزبير والناصرية . لان الاتراك دعوا جميع الرؤساء في دجلة والفرات الى الاسهام في الهجوم على الشعبية من دون ان يعأوا بعدم كفاءة القوات العشائرية الاجيرة من الوجهة العسكرية . وكثيراً ما كان الحكام السياسيون يسمعون القصص عن هذه الحملة من الشيوخ والسادة الذين أشغل الكثير منهم بعد ذلك مراكز مهمة تحت ادارتنا وكان احدهم يقول : « ماذا كان بوسعنا ان نفعل ؟ فقد طلب منا الاتراك ان نقاتل ، وكنا نحن في قبضة أيديهم ، لكننا لم نقاتل ايها الصاحب . حيث اننا لم نتقدم الى ابعد من النخيلة (الكائنة على بعد عشرة اميال من الشعبية) . وبقينا هناك لان القائد التركي تجاوز علينا . وحينما وجدنا الاتراك يفرون عجلنا بالرحيل وعدنا بالزوارق مسرعين الى بيوتنا » . ولم يسهموا اسهاماً فعالاً في الحرب العالمية بعد هذا .

وقد كان الجيش التركي يتألف من عدد يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف من الجنود النظاميين ، كما كان عدد العشائر العربية الاجيرة حوالي تسعة آلاف مقاتل بقيادة عجمي وابن عمه عبد الله الفالح ، فضلاً عن ألف مقاتل من الأكراد . فكانت القوة العشائرية بأجمعها تبلغ (١٨,٠٠٠) يعود حوالي النصف منها للسعدونيين . على ان قيمتها الحربية كانت في حكم العدم . وكان الشيخ عجمي قد بعث الى السير بيرسي كوكس بعد احتلال البصرة عدة رسائل مشوشة بواسطة بعض الاصدقاء مألها انه يرغب في ان يدخل في علاقات مع الحكومة البريطانية ، كما يرغب في ملاقات السير بيرسي . فرد عليه السير بيرسي

بأننا لم نتخاصم مع عرب العراق او مع الشيوخ الذين كنا نبغي تحريرهم من تعسف الاتراك . ثم أعرب عن استعداده لملاقاة عجمي كذلك في أي مكان يعينه بالنظر لأنه يصعب عليه تحاشي الاتراك والمجيء الى البصرة . الا ان عجمي لم يرد على هذا المعروض المعين . وبعد مدة وجيزة جدد عجمي المفاوضات بارسال أحد اتباعه محمد العصيمي لمواجهة السير بيرسي كوكس . فاستقبل بكل ود وبشاشة ثم أعيد المعروض السابق نفسه . وفي الأخير كتب رئيس الحكام السياسيين في ٣٠ كانون الاول كتاباً الى عجمي بشكل انداز . فقد لخص فيه ما حدث في السابق وأخبره بأنه راغب في ملاقاته عجمي والبحث معه في الشؤون التي تهم الطرفين ، كما عرض عليه إيصاله بسلام الى أي مكان يختاره مقترحاً الشعبية مثلاً . لكنه اضاف الى ذلك قوله ان الوقت يمر مر السحاب وان عجمي يجب ان يرد عليه خلال ثلاثة أيام . فكان الرد الوحيد على ذلك ان عجمي كان يخشى ان تنحط سمعته اذا تخلى عن الاتراك من غير سبب ، وانه سوف يجد سبباً يبرر تركه لهم . وكانت مشكلته بلا شك انه لم يستطع ان يقرر اي الطرفين سوف يخصه بامتيازات شخصية اكثر . حيث انه كان لا يثق بالاتراك ، لكنهم كانوا وعدوه بأن يكافئوه بجميع أملاك السنية الموجودة في ولاية البصرة ، وهي الاراضي الاميرية التي أبدى عبد الحميد كثيراً من الفطنة عندما وضع يده عليها في أيام عزه ، وكانت الحكومة البريطانية من جهة أخرى عبارة عن كمية مجهولة ذات استقرار غير معلوم بالنسبة اليه . ولذلك تردد في موقفه هذا ، بينما كانت الجموع العشائرية المحتشدة أمام الشعبية تزيد في إقناعه بأن الوقت الذي يتخلى فيه عن الاتراك لم يحن بعد .

ولم تكن مجموعة قبائل المنتفك وحدها هي التي وجه اليها العلماء أقصى جهدهم في دفعها الى الحرب المقدسة . فقد وصل ابن المجتهد الاكبر في

(١) بعد ان احتل الانكليز البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ ، واصلوا تقدمهم نحو القرنة فاحتلوها كذلك في يوم ٩ كانون الأول . فاضطرت الحكومة العثمانية الى عزل جاويد باشا قائد الجيش العثماني وتعيين سليمان عسكري بدلا منه . فوصل الى بغداد في العشرة الأخيرة من كانون =

النجف السيد محمد كاظم اليزدي الى العمارة في كانون الثاني ليدعو

= الأول .

وشرع حال وصوله بتنظيم حملة دعائية بين الشعب العراقي لتأييد الحكومة في مسعاها الحربي ضد الانكليز ، ثم استعان برجال الدين الاسلامي لأصدار الفتاوى اللازمة بالجهاد في صفوف الجيش التركي . وكانت قد وصلت الى العتبات المقدسة في ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٢ برقية من وجوه البصرة تقول « ثغر البصرة الكفار يحيطون به . الجميع تحت السلاح . نخشى على باقي بلاد الإسلام . ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع . » فكسان لهذا تأثير فعال في نفوس المسلمين ، ولا سيما العلماء في بغداد والكاظمية والنجف وكر بلا . فقد افتوا بالجهاد وكتبوا الى العشائر بذلك أيضاً . وتشكلت في الكاظمية جمعية تسمى (الجمعية الرشادية) برئاسة القائم مقام محمد أمين افندي لجمع التبرعات . وكان أبرز المهتمين بحركة الجهاد في الكاظمية العلامة السيد مهدي السيد حيدر ، الذي خرج الى الجهاد في ١٢ محرم ١٣٣٣ وفي صحبته الشيخ عبد الحميد الكليدار والشيخ مهدي الخالصي وحشد كبير من المجاهدين ، بينهم عدد كبير من أقارب العلامة الحيدري نفسه . فقد خرج أبناءه الثلاثة ، وأبناء أخيه الأربعة ، واثنان من أبناء عمه استشهد أحدهما في الجهاد . ولبت النجف نداء هذا الواجب كذلك ، فتوارد على الكاظمية من علمائها بقصد السير تحت راية الإمام الحيدري عدد منهم مثل : شيخ الشريعة الأصفهاني ، والسيد علي الداماد ، والسيد مصطفى الكاشاني ، والشيخ جعفر الشيخ عبد الحسن النجفي ، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ عبد الكريم الجزائري ، والشيخ حسن علي القطيفي ، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي ، والمرزا مهدي نجل الآخوند الخراساني . اما العلامة محمد تقي الشيرازي فقد بعث من سامراء بابنه الشيخ محمد رضا لينضوي تحت لواء السيد الحيدري كذلك ، وفعل مثله العلامة اليزدي الذي بعث بابنه الأكبر السيد محمد .

هذا وقد خرج من النجف كذلك حشد كبير من المجاهدين يقوده الامام العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ عبد الرزاق الخلو ، وكان ممن خرج معها من العلماء الامام السيد محسن الحكيم والشيخ باقر حيدر وغيرها ، فضلاً عن عدد غير يسير من شبان ذلك الوقت مثل الشيخ محمد رضا الشيباني والشيخ باقر الشيباني وغيرها .

واستجابت بغداد لفتاوي العلماء بالجهاد كذلك فانضم عدد غير يسير من أهلها الى صفوف المجاهدين . وكان أبرز المنبرين لهذا الواجب المقدس الحاج داود أبو الثمن ، جد جعفر جلبي أبي الثمن ، فقد جهز حملة خاصة ترأسها بنفسه قوامها أربع مئة مجاهد ، وصرف عليها من كيسه الخاص . وسار بها الى القرنة فاشترك في موقعة مزيرة ، وفيها أسره الانكليز فنقل الى البصرة وظل محجوزاً فيها حتى وافاه الأجل المحتوم .

وقد كانت الخطة التي وضعها سليمان عسكري بك تستهدف مهاجمة البصرة من قاعدة الناصرية لاسترجاعها ، واشغال العدو المربط في القرنة في الوقت نفسه ، مع التعرض بالعدو في جهات =

عشائرها الى الجهاد . وسرت عدوى تلك الدعوة عن طريق العشائر الى أهوار الحويزة في منطقة شيخ المحمرة ، الذي بدأ يعرب عن قلقه . لكن التحشيدات بقرب البصرة بلغت أوجها واستلقت جميع انتباهنا . وفي ٩ نيسان نزل الفريق السر جون نيكسون الى البر في البصرة وتسلم قيادة حملة القوة الهندية ، المسماة بالقوة « دي » ، وبعد أيام ثلاثة بدأت موقعة الشعبية . وكان الجنرال التركي سليمان عسكري قد جرح في القرنة فحمل بالنقالة الى خارج الميدان . فوضع خلفه علي بك رجال عجمي في الجناح الأيمن كما وضع القوات العشائريسة الأخرى في الجناح الأيسر . على ان اولئك لم يسهموا في المعركة ، أو أسهموا قليلاً فيها . وحدث فيضان غير اعتيادي فغمرت مياهه نطاقاً من الارض يمتد

= الحويزة وعربستان . ولذلك وزع المجاهدون والقوات العشائرية على هذه الجبهات الثلاث . فقد أقلت المراكب والسفن العلامة الحيدري وقواته الى العمارة ، ومن هناك اشترك المجاهدون بقيادته في جبهة القرنة ، وانتصروا في موقعة الروطة يوم الأربعاء المصادف ٥ ربيع الأول ١٣٣٣ . وكان على رأس المجاهدين في جبهة الحويزة العلامة الشيخ مهدي الخالصي وفي صحبته ابنه الكبير الشيخ محمد ، والشيخ جعفر الشيخ راضي ، والسيد محمد اليزدي ، والسيد عيسى كمال الدين . وقد وفق هؤلاء في اشغال الانكليز واغلاقهم رداً من الزمن لانهم قطعوا خط النفط وهددوا مؤسساته في عبادان . وكان هؤلاء يتبعون لقيادة محمد فاضل باشا الداغستاني الذي عهدت اليه قيادة العشائر والمجاهدين المدنيين .

اما الجبهة الرئيسية ، وهي جبهة الشعبية ، فقد اشتركت فيها قوة العلامة محمد سعيد الحبوبى والعشائر التي كان على رأسها الشيخ عجمي البسدون وابن عمه عبد الله الفالح البسدون . وانتدبت القيادة التركية لقيادة المجاهدين الأهليين (المليين) هؤلاء نائب أمير ضياء بك .

وقد قدر عدد المجاهدين ورجال العشائر ، الذين أصبحوا تحت تصرف سليمان عسكري بك بوجه عام ، بحوالي (١٣٠٠٠) مقاتل كان من ضمنهم حوالي (١٥٠٠) مجاهد من الأكراد الذين كانت تدفع لهم أجور من الحكومة . لكنه يبدو ان القيادة التركية لم تستطع تسليح هذه القوات تسليحاً جيداً فعلاً . كما أن حملات المجاهدين التي خرجت من النجف والكاظمية كان يصرف عليها الأمانان الحبوبى والحيدري من مواردهما الخاصة ، وقد رفضا تسلم أي شيء من القيادة العامة . هذا وقد عاد من الجهاد بعد انكسار الجيش العثماني الإمام الحيدري وجاعته الى الكاظمية يوم ٢٨ ذي الحجة ١٣٣٣ ، اما الإمام الحبوبى فقد توفي في الناصرية متأثراً بالنكسة التي أصيب بها جيش المسلمين في الشعبية .

بين موضعنا في الشعبية وقاعدتنا في البصرة . فاشتغلت نقلياتنا عبر هذه البحيرة بأقصى ما كان يمكنها ان تفعله ، لكن خط المواصلات هذا كان على درجة عظيمة من الصعوبة لا يمكن تصورها ، وكان الاندحار هنا ، يعني الانهيار التام ، فاستقامت المعركة مدة (٧٢) ساعة . وفي مساء اليوم الثالث بدأ الجنود النظاميون بالتقهقر ، وسبق ذلك انهزام القبائل فاسترحم علي بك من سليمان عسكري ان يأمر بالتهقر العام . فوافق القائد باشمئزاز كثير على ذلك ، لكن علي بك ما ابتعد عنه مسافة مائتي ياردة حتى سمع صوت إطلاقه تنطلق . فقد اطلق سليمان عسكري على نفسه رصاصة وهو في النقالة ، ودفن في النخيلة . لكن العرب كانوا ما يزالون ينتظرون اسهامهم في المعركة . لان الجنود التركية المنهزمة بينما كانت تشق طريقها بمشقة على طول السواحل الجنوبية لبحيرة الحمار ، حيث وجد مهنوسو سكة حديد الناصرية آثار عجلات نقلياتهم العميقة بعد اشهر ، صادفت عدواً غير مترقب . فقد انقض عليهم العرب ذبحاً وسلباً ، ولم يستطع علي بك الوصول الى الناصرية الا ببقايا قوته الضئيلة فقط .

بعد موقعة الشعبية

وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه معركة الشعبية ، ١٢ نيسان ، هاجمت قوة مختلطة من العرب والترك مفرزتنا الصغيرة في الاهواز فصدت . وكان أقصى ما أصابه العدو من النجاح في هذه الجبهة توقفه الموقت في قطع خط النفط الممتد من حقوله على يد القبائل التي اثارها الدعوة الى الجهاد . لكن موقف شيخ المحمرة الراسخ ، المقترن بتأثير النصر في معركة الشعبية ، قد أوقفهم عن احراز موفقيات اخرى . فقد طرد الاتراك الى الورا عبر نهر الكرخة امير اللواء غورينج الذي دفع تقدمه شمالاً نحو العمارة ، بينما كان امير اللواء طاوونزند يتقدم في الوقت نفسه شمالاً على طول خط دجلة . فاحتلت العمارة في يوم ٢٣ حزيران ، وسر بذلك سروراً تاماً شيخا قبيلة ابو محمد القوية عريبي باشا ومجيد الخليفة اللذان كانا قد رجعا الى بيوتهما قبل سقوط القرنة واغتتما اول فرصة

لمراسلة رئيس الحكام السياسيين ، برغم اجبارهما على الالتحاق بالاتراك عند اول وقوفهم في وجهنا في جهة شط العرب .

وكانت الخطوة الاخرى ان نؤمن على البصرة ضد أي هجوم آخر قد يشن عليها مثل هجوم الشعبية ، وذلك باحتلال رأس مثلث البصرة - القورنة - الناصرية . فكان تقدم الجنرال غورينج على طول الفرات في منتصف تموز عملاً فريداً في بابه بالنسبة للتحمل والجلد اللذين ابداهما الجنود . وفي معركة عوان جرت على ضفاف النهر المكسوة بالنخيل شنت شمل القوة التركية المتألفة من (٦٠٠٠) مقاتل ، فخسرت مدافعها كلها وقتل وجرح وأسر ربع رجالها . وهنا ايضاً لم يستفد الاتراك من مساعدة القبائل العربية ، وافلت من بين ايديهم قلب بلاد المنتفك .

وباحتلال العمارة والناصرية انتهت اول مرحلة من مراحل حملة العراق . وصار جميع ولاية البصرة تقريباً في قبضة البريطانيين ، فأصبحت اخبارها في في عداد اخبار السلم لا اخبار الحرب .

الفصل الثاني

تنظيم الإدارة

كانت أولى الصعوبات التي واجهناها في تشكيل الادارة المدنية في المناطق المحتلة ، قد ازداد تأثيرها الى حد كبير بفرار جميع موظفي العهد التركي السابق ، عدا بعض الموظفين الصغار من العرب ، الى الخارج مستصحبين معهم أحدث السجلات والوثائق الحكومية . ومع هذا فقد بدأنا بما كان موجوداً منها بعد وصولنا الى البصرة مباشرة ، فأسسنا نظاماً حكومياً يتفق وما تنطوي عليه روحية البيانات التي أصدرناها ، ولم يكن الوقت يتسع في البداية للسلطات البريطانية العسكرية بأن تتخذ الترتيبات اللازمة لتنظيم الشؤون المالية وأمرور الواردات ، الا فيما يختص بشؤون الكمارك منها ، غير أنه وصل الى البصرة من الهند في أواسط كانون الثاني المستر هنري دوبس^١ آي . سي . أيس ،

(١) إنه المستر هنري دوبس (بعد ذلك) الذي عين مندوباً سامياً في بغداد بعد احالة المندوب السامي الأول المستر بيرسي كوكس على التقاعد سنة ١٩٢٣ . وفي أيامه اجتمع المجلس التأسيسي العراقي الأول سنة ١٩٢٤ فصادق على أول معاهدة عقدها العراق مع بريطانيا العظمى ، وعلى أول دستور عراقي يسر في البلاد . ويروي أنه كان خشناً في طباعه ، ولذلك لم يكن على وفاق مع الملك فيصل الأول حتى نقل من وظيفته . ويقول المؤلف الأمريكي فيليب ايرلاند صاحب كتاب (العراق - دراسة في تطوره السياسي) في حاشية له عن المستر دوبس هذا : ان هنري روبرت كونوي دوبس =

ناظر الواردات ، فأخذ يدرس ما تركه الأتراك من سجلات ، وكان معظمها قديماً بالياً ، وقد وجد متروكاً مع أكوام من الخشب واللوح في افنية الدوائر التركية ، وكانت السجلات الوحيدة التي لوحظ فيها شيء من النظام والترتيب سجلات سندات الطابو العائدة للأراضي والأموال المسجلة . وكان إفلات هذه السجلات من التلف يعد ضرباً من حسن الحظ ، لأن ضياعها يمكن أن يعتبر ضربة قاضية على ملاكي الولاية وتجارها ، وقد واجهت الإدارة الحكومية في الحال واجباً شاقاً في إقامة نظام اداري غريب كامل بالسرعة الممكنة ، من دون ان يسهل مهمتها تيسر أحدث السجلات أو أكثر الموظفين خبرةً ومراعاةً ، بينما استغرق تنظيم السجلات التي عثر عليها عدة أسابيع . كما سبب قرب المنطقة المحتلة من قوات العدو شعوراً بعدم الامان ما بين الناس ، وجعل كثيراً منهم يترددون في تكييف أنفسهم للوضع الجديد بمساعدة السلطات المحتلة ، ويحجمون عن دفع الضرائب . يضاف الى ذلك ان جباية الأتراك للضرائب والرسوم قبل الرحيل ، والفوضى التي انغمرت فيها ادارة البلاد منذ عدة أشهر ، وارتباك الأسواق بتوقف المتاجرة مع بغداد من جهة ومع الهند وأوربة من جهة أخرى ، وما رافق ذلك من حلول موسم للتمور سيء للغاية ، قد حرم السكان وقتياً من تيسر النقد وامكان الائتمان والبيع بالنسيئة . وكانت ادارة الشؤون القضائية معطلة بحيث كان استيفاء الديون وبدلات الايجار بغير الانفاق

= (١٨٧١ - ١٩٣٤) يمكن أن يسمى بحق أحد منشئي العراق الحديث . فقد تقلد مناصب مختلفة مهمة في الهند ويران وأفغانستان . وتعرف بنظام ساندمان حينما كان ناظراً للواردات والعدلية في بلوچستان سنة ١٩٠٩ و ١٩١١ و ١٩١٧ . وقد كان « مقيماً » في بلاد العرب التركية عندما أعلنت الحرب في ١٩١٤ ، ولكنه في العراق أشرف على تنظيم الادارة في ١٩١٥ - ١٦ حينما كان ناظراً للواردات بينما كان السر پيرسي كوكس رئيس الحكام السياسيين يوسع مجال علاقاته مع العرب . ولما كان كثير المواهب وادارياً من الدرجة الأولى جيء به في الفترة الشاقة ، ١٩٢٣ - ١٩٢٩ ، حيث خدم كندوب سام في العراق . فأظهر قابلية عظيمة في تفكيره الواقعي وشعوره الرفيع في الخدمة ، واخلصاً متناهياً للإمبراطورية كان يظن على جميع علاقاته بالعرب .

الشخصي يعد شيئاً مستحيلاً . ولذلك كان من الضروري ان يقام بصورة مؤقتة نوع من الادارة المالية . فتقرر تحقيقاً لهذه الغاية ان نبقي على حالة النظام المالي التركي الذي تعود الناس عليه من قبل ، بعد أن يظهر من الفساد وسوء الاستعمال وتزاد كفاءته . وقد روعي عن قصد ان يقلل عدد الموظفين الأجانب في الجهاز الى آخر حد ممكن ، فملئت الوظائف بأنزله الموظفين السابقين من أهل البلاد ، وغالبيتهم الكبيرة من المسلمين . وكان هذا شيئاً لامناص منه على كل حال ، لأن سجلات الدوائر الحكومية كلها كانت تكتب باللغة التركية . على ان السجلات التي كانت لها علاقة بالناس ، والايصالات ، مع سائر المعاملات الرسمية قد أُبدلت لغتها من التركية الى العربية ، فكان ذلك من التدابير المطمنة لشعور الناس وأحاسيسهم . وكان من سيئات الجهاز الحكومي التركي كثرة الموظفين الذين يشتغلون فيه ، لأن المعاملات كانت تدقق ثم يعاد تدقيقها ، ويؤخر سيرها في مراحل مختلفة لتتخذ من ذلك وسيلة لخلق « المأموريات » او الوظائف واملاؤها بموظفين جدد . فأدى الامر الى استيلاء الكسل ، وانعدام النشاط ، على كل دائرة من الدوائر بحيث لم يعد كل موظف من الموظفين يقوم بنصف ما كان يترتب عليه القيام به من أعمال في اليوم الواحد . اما في ظل الادارة البريطانية فقد أعيد استخدام الحد الأدنى من عدد الموظفين المطلوبين . وقد كيّف جميع الناس أنفسهم للعهد الجديد بخفة وحيوية تدعوان الى التعجب . ففي خلال الأشهر الأربعة المتقضية بين احتلال القرنة ونشوب معركة الشعبية الحاسمة سارت الحياة في البصرة سيراً لا يقلقه شيء ، وظلت الأسواق ممتلئة والشوارع آمنة ، برغم أن قسماً كبيراً من القوات كان ما يزال مرابطاً على أبوابها تقريباً . فكان ذلك أحسن ما يمكن أن يرد به على الدعاية التركية ، وخير ما يعكس فضل السكان المحليين في هذا الشأن .

وقد أزال انتصار الشعبية ضغط الخطر المباشر على البصرة ، وأدى تقدم الجيوش البريطانية على طول النهرين في خلال أشهر ثلاثة فقط الى مضاعفة المساحة الخاضعة لسيطرتنا من البلاد الى أكثر من ثلاثة أضعاف . فعُين الحكام العسكريون ، التابعون للحاكم العسكري الأقدم المحلي ، في العمارة والناصرية ،

كما عين مساعدو الحكام السياسيين في الدوائر السياسية ودوائر الواردات الموجودة في هاتين المنطقتين ، وكان مساعدو الحكام السياسيين بوجه عام يتبعون الى رئيس الحكام السياسيين في شؤون الادارة المدنية ، ويشغلون في معية السلطات العسكرية المحلية مباشرة من أجل شراء الأقوات والتجهيزات ، وفي الشؤون التي لها علاقة بالمحافظة على خطوط المواصلات وسلامتها .

الشؤون المالية

وكان الارتباك المستفحل في شؤون الادارة العثمانية يُعزى الى جهاز الادارة العثماني السيء بقدر ما يُعزى الى عدم كفاءة الموظفين الأتراك أنفسهم . فقد كانت ميزانية ولايتي البصرة وبغداد ، ما قبل الاحتلال البريطاني بستين أو ثلاثة ، تظهر على الدوام عجزاً مالياً انقلب في الأخير الى فضلة طفيفة قد يكون سببها إعادة النظر بالنظم المالية وتزويد الضرائب ، وليس إدخال تحسين ما على الاساليب والطرق المتبعة فيها . أما مقدار الارتباك والتعقيد في الترتيبات المالية التي كانت قائمة ، فيمكن الحكم عليه من وجود ما لا يقل عن خمس دوائر حكومية ، بجانب دائرة الواردات المختصة ، تقوم كل منها بحماية الأموال على حدة وتحولها الى استانبول . وأول هذه الدوائر دائرة « انحصار التبغ » - الريجي - وهي دائرة تعود للامتيازات الأجنبية ، وتأتي بعدها دائرة الأوقاف ، وثالثاً دائرة « السنية » أو أملاك التاج التي أصبحت تدار منذ ان شرع دستور ١٩٠٨ باعتبارها أراضٍ أميرية ، ورابعاً دائرة « الديون العثمانية » التي كانت تسخر لخدمتها اثنتا عشرة ضريبة زهيدة عدا تخصيص ٣٪ من واردات الكمارك لها ، وخامساً دائرة « لجنة الصحة الدولية » التي كانت تجبي ما يسمى بأجور الحجر الصحي « الكرنتينة » من الأموات^١ والأحياء على السواء . وكانت النتيجة الخالصة لهذه « الدمامل » الخمس أن حياة السكان الاعتيادية كانت تعاق وتقاطع في كل خطوة من الخطوات تقريباً ، وان أي توحيد للضرائب ، أو الأجهزة

(١) لعل المؤلفه تقصد الرسوم التي كانت تفرض على نقل الجناز ودفعها في العتبات المقدسة .

الحكومية ، لم يكن شيئاً ممكناً . ولذلك كان الاتصال باستانبول عن القضايا الادارية الطفيفة شيئاً مستديماً غير منقطع ، كما لم يكن هناك أمل في الحصول على الحكم الذاتي المحلي ، وكان قد بزغ فجره في الولايات العربية الخاضعة للامبراطورية التركية بعد ثورة ١٩٠٨ ، وينتقل الى حيز العمل حتى فيما لو لقي مصادقة رسمية عليه .

وكانت هناك شقة متباعدة بين ناحية الادارة في الواردات وناحية التنفيذ . فقد كان الموظفون التنفيذيون يهيئون القوات اللازمة لحماية الضرائب ، لكنهم لم يكونوا يعنون بأي ناحية أخرى من نواحي جهاز الواردات نفسه . فقد كانت الضرائب تجبي في العادة بطريقة الالتزام ، أو بتفويض موظفين صغار يعينون مساهمةً بحماية ضريبة خاصة من الضرائب . كما كانت التحقيقات غير ثابتة الا في النادر ، حيث كانت تعين بالتقدير في كل سنة أو بتعداد الأشياء التي تجبي الضرائب عنها كالأغنام والجاموس والابل والنخيل وسائر الأشجار المثمرة ، أو بتخمين الغلة كما في المحاصيل الحقلية . وقد كان القسم الأعظم من هذا العمل يقوم به موظف موقت لا يعبأ بمأمراته هذه أكثر من بذل ما يستطيع بذله من جهد خلال مدة العمل القصيرة . ولم يكن هناك موظف دائم مسؤول عن نزاهة الخبايا في كل منطقة من المناطق أو استقامته في العمل ، بينما كان الجهاز يغري المشتغلين فيه بالاختلاس والفساد . ونادراً ما كان يُرد مثل هذا الاغراء .

وهكذا كان الجهاز التركي الاداري جهازاً متجزئاً الى اجزاء مستقل بعضها عن بعض ، ويتصل بمخابرات مستقلة مع دائرة رئيسية في استانبول . وقد جعلت ظروف الحرب ، وانقطاع العلاقة بالعاصمة التركية ، من السهل ان ينتهي أمر نظام كان عدم ائتلافه مع الكفاءة المطلوبة يعد شيئاً واضحاً . فدُمجت « السنية » أو دائرة أراضي التاج بدائرة الواردات . اما دائرة انحصار التبغ ، وهي مؤسسة تجارية معادية^١ فلم يعد لها وجود في البلد ، وشؤون تنظيم تجارة

(١) باعتبارها كانت دائرة تعود للامتيازات الأجنبية التي لها علاقة بدول ضد الحلفاء .

التبوع التي بقيت محصورة في نطاق ضيق الى حد احتلال بغداد ، فقد وقعت مع بعض الواردات المتفرقة الأخرى تحت اشراف الدائرة نفسها . وكان عدد من هذه الواردات المتفرقة مخصصاً للديون العمومية ، فكان يضطلع بجبايتها موظفو الديون أنفسهم ، ولذلك أنيط أمر الديون بدائرة الواردات كذلك حتى ألغيت مؤسستها في سنة ١٩١٧ . أما دائرة الحجز الصحي ، وربما كانت لها بعض الفوائد في أيام الأتراك حينما كان الزوار يتقاطرون على البلاد بكثرة ولا سيما من ايران ، فلم تعد بها حاجة لأن الزوار قد انقطع تواردهم بسبب الحرب ، وأخذت سلطات الميناء تعالج شؤون من يصل منهم بطريق البحر . وقد أدخلت ، علاوة على ذلك ، شؤون الأوقاف والمعارف ، كما أدخلت شؤون الكمارك ، في نطاق دائرة الواردات أيضاً . وكان مثل هذا الدمج شيئاً لا بد منه في البداية بالنظر لقلّة وجود الضباط البريطانيين ومساعدتهم من العرب المؤهلين للخدمة ، لكنه لم يكن يقصد به ان يكون ترتيباً مستديماً على كل حال . وحينما ازداد عدد الموظفين المؤهلين للعمل جعلت إدارات الكمارك والأوقاف والمعارف وحدات ادارية مستقلة . وكانت دائرة الواردات في مقراتها الادارية تعمل محلياً عن طريق الحكام السياسيين الموجودين في المناطق ، وبذلك انتهى أمر الانقسام الذي كان موجوداً بين دوائر الواردات الاصلية وجهاتها التنفيذية . اما بالنسبة لطرق جمع الضرائب وجبايتها فقد كان الهدف المطلوب فيها إلغاء الملزمين بالتدريج ، مع استبدالها بتعيين تحقيقات ثابتة بدلاً من التحقيقات المتبدلة ، لكن الهدفين معاً لم يكن من الممكن ادراكهما في الحال .

وقد يكون الاسم « دائرة الواردات » شيئاً مضللاً . فان انطباعاً أصبح لهذا الفرع من فروع الادارة يمكن ان يحصل عند ما تعتبر هذه الدائرة وكيلاً للأراضي العائدة لمقاطعة من المقاطعات ، مثل العراق ، وحينما يكون المالك هو الحكومة . وكانت هذه في الحقيقة هي المفهومة السائدة على عهد العثمانيين ، وينطوي فيها نفس النظام الزراعي للاتراك يومذاك . فقد كانوا يعتبرون بلاد بين النهرين بلاداً محتلة ، ويعتبرون جميع الأراضي التي لم تخصصها الحكومة

الى أفراد من الناس تابعة الى الحكومة نظرياً . وكانت الأراضي الأميرية تنظم شؤونها الدائرة المالية المحلية التي يشرف عليها الدفتردار ، وهو أكبر الموظفين الماليين في الولاية . وكان الدفتردار يشرف على الأراضي المخصصة للأفراد من الناس لأغراض مالية فقط ، بينما كانت هناك دائرة أخرى تسمى « الطابو » كان يعهد اليها أمر تسجيل سندات التملك وتدقيقها . ولم يكن من الضروري أن ترسل مقرراتها الى الدائرة المالية . أما املاك السلطان عبد الحميد الخاصة ، وهي أراضي السنية ، فقد كانت تديرها كما بينا سابقاً مؤسسة أخرى أيضاً ، تستقل تمام الاستقلال عن حكومة الولاية . وقد كانت هذه الأراضي موضع الاهتمام والرعاية الخاصة ، وكان فلاحوها يتمتعون ببعض الامتيازات ، مثل امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية . لكنها أصبحت في حكم الأراضي الأميرية بصدر الدستور في ١٩٠٨ ، وصارت تسمى « الأراضي المدورة » . على أنها لم تدمج ادماجاً تاماً بالأراضي الأميرية ، وإنما احتفظت بإدارتها الخاصة مع ان اتصالها باستانبول كان قد انقطع ووضعت تحت اشراف الدفتردار في بغداد . وكان هذا التبديل في غير صالح الأراضي السنية نفسها ، حيث أنها أصبحت في النهاية وهي لا تختلف كثيراً عن سائر المؤسسات التي يديرها الموظفون الأتراك للصالح العام . وقد جمعت ادارة هذه الأنواع جميعها بعد احتلال البصرة ووضعت تحت اشراف الدائرة المختصة بالواردات .

وكانت جميع الواردات غير المتأتية عن الأراضي ، عدا الضرائب المخصصة للديون العمومية ، تقع تحت اشراف الدفتردار المباشر وغير المباشر تقريباً . غير ان بعضها ، مثل بدل الاعفاء من الخدمة العسكرية وضريبة سكة حديد الحجاز ، قد أصبحت شيئاً مهماً . فقد كان مما يدل على ما تعرف به أساليب الحكم التركية ان ضريبة الاشتراك في انشاء سكة حديد الحجاز^١ ، التي

(١) سكة حديد الحجاز هي سكة تربط بين دمشق والمدينة المنورة في الحجاز . وقد فكر في انشائها واخراجها الى حيز التنفيذ السلطان عبد الحميد في بداية القرن العشرين . وكان من فوائدها أنها تسهل وصول الحجاج المسلمين الى الديار المقدسة ، وتقصّر مدة الوصول اليها ، فضلاً عن =

فرضت لاطفاء الديون المستحقة على خط المدينة، قد استمرت الحكومة على استيفائها الى ما بعد إطفاء الدين بمدة طويلة. كما أهملت بعض الواردات الأخرى، مثل ضريبة الدخل التي كانت جبايتها غير مقترنة بكثير من النجاح في ولاية البصرة بحيث أنها لم تحقق ولا قرشاً واحداً في سنة ١٩٠٣. وقد أسست دائرة محاسبات خاصة، غير خاضعة لسلطة الدفتردار، في كل ولاية في بداية العهد الدستوي (١٩٠٨)، بتأثير الضجة التي أثارت على الأخص في الأقسام العربية من الامبراطورية، ضد سياسة استنزاف ماليسة الولايات لمصلحة الحكومة المركزية في استانبول. وتروى في هذه المناسبة قصة مشهورة عن متصرف تركي في سورية اشتهر عند رؤسائه، اذا لم يكن قد اشتهر عند رؤوسيه ايضاً، بأنه كان يتبجح بأن ميزانيته كانت تخلو من أي نوع من النفقات. فقد كانت تشمل كلها على الواردات والمقبوضات فقط، لأن جميع الموظفين من المتصرف نفسه فما دون لم يكن يتقاضى أحد منهم أي راتب وانما كانوا يعيشون على عائدات مربية، بينما كانت تهمل فقرات الانفاق الأخرى مثل نفقات التعمير والصيانة والأشغال العامة وما أشبه، اهمالاً تاماً. ولا ريب ان عالم الموظفين لم يستطع كله ايصال فن الحكم التركي الى مثل هذه الدرجة من الثقافة والتهذيب، لكن معظم المنتمين اليه كانوا طلاباً أصحاب رغبة وحذق. فقد كان تأسيس دائرة محاسبات خاصة تدبيراً من التدابير المعجبة، لكنه كان من الناحية العملية عديم الفائدة والتأثير لان هذه الدائرة كانت تخضع للوالي الذي كان بوسعه ان «يستقرض» مبالغ طائلة ليسد العجز الموجود في واردات ولايته، وكثيراً ما كان يفعل ذلك بالفعل. فألغيت هذه الدائرة بعد الاحتلال.

= اخراج الحجاز عن عزلتها وإمكان سوق القوات العسكرية اليها بسرعة عند الحاجة. وقد أنشئت من تبرعات المسلمين في انحاء العالم كله، بفرض ضريبة خاصة باسمها. فبدى بتشيدتها في ربيع سنة ١٩٠٠ على يد مهندسين ألمان، فوصل خطها الى المدينة في خريف سنة ١٩٠٨، ويبلغ طولها مسافة (٩٠٠) ميل تقريباً.

ومن المناسب هنا ان نأتي على وصف التقدم الحاصل في شؤون الكمارك والأوقاف والمعارف عندما كانت تخضع لاشراف دائرة الواردات ، وفي ادارة الديون العمومية الى حين إلغائها في سنة ١٩١٧ .

الكمارك

كان تقدير الرسوم الكمركية واستيفائها يتولاها عند احتلال البصرة السادة^١ « غري مكنزي وشركاهم » ، لكن حركة الاستيراد ازدادت بعد احتلال العمارة ازدياداً كبيراً بحيث طلبت الشركة اعفاءها من هذه المهمة . فانتدب ضابط من مصلحة الكمارك الهندية الامبراطورية يدعى المستر واتكينز ، ليشغل وظيفة محصل^٢ لرسوم الكمارك في البصرة ، وهي الوظيفة التي ظل يشغلها حتى أصبح رئيساً^٣ لمحصلي الكمارك التابعين للقوات البريطانية في العراق ، وسكرتيراً لشؤونها التجارية أيضاً فيما بعد ، وقد أخذ على عاتقه تنظيم شؤون الدائرة بكثير من الحماسة والكفاءة . وأبقيت الكمارك تحت اشراف^٤ ناظر الواردات ، ثم انتقلت لاشراف « لجنة الواردات »^٥ التي حلت في محل الناظر المذكور في شباط ١٩١٧ .

وهناك فرق بين الكمارك البرية والكمارك البحرية ، لانها تجبي بطرق وأساليب مختلفة . فقد كانت تجبي رسوم الكمارك البحرية في البصرة ، حيث كان محصل الكمارك يشتغل تحت اشراف لجنة الواردات مباشرة . اما في العمارة وعلى الغربي ، وبعد التقدم الى بغداد في المحطات الأخرى ، التي كانت

(١) اي شركة غري مكنزي الانكليزية التي استمر وجودها في البلاد ولا سيما في البصرة الى ما قبل سنوات معدودة .

Collector of Customs (٢)

Chief Collector of Customs (٣)

Revenue Commissioner (٤)

Revenue Board (٥)

تجبي فيها رسوم الكمارك على السلع والبضائع الواصلة بطريق البر ، فقد كان يجبي هذه الرسوم موظفون يشتغلون بإشراف الحكام السياسيين ومعاونيهم . وتدخل في ضمن الكمارك البحرية رسوم التصدير التي كانت تستحصل في ميناء البصرة . وقد كان الأتراك يأخذون رسوم استيراد بنسبة ١١٪ من سعر البيع ، وكانت تخصم ٣٪ من هذه للدين العثماني . وفي تشرين الأول ١٩١٤ رفع الأتراك الرسوم الى ١٥٪ ، والى ٣٠٪ في مناسبات أخرى خلال الحرب . وقد أجريت هذه الترتيبات من دون مصادقة الدول عليها . وفيما عدا عدداً قليلاً من السلع المستثناة خفضت هذه الرسوم الى ١٠٪ عند الاحتلال ، وألغي تخصيص قسم منها الى الدين العثماني منذ ذلك الوقت . أما رسم التصدير التركي البالغ ١٪ من قيمة السلع المصدرة فقد ألغي في أول الأمر ، لكنه أعيد فرضه في وقت متأخر . وقد ارتفع وارد الكمارك البحرية ارتفاعاً مطرداً حتى بلغت أرقامه في ١٩١٧-١٨ ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في ١٩١٥-١٦ تقريباً . على ان الرسم الكمركي العام البالغ ١٠٪ قد أعيد رفع نسبته الى ١١٪ فيما بعد ، أي الى النسبة التي كان عليها من قبل .

وكانت في بغداد على عهد الأتراك دائرة كمرك مركزية يرأسها مدير عام مسؤول تجاه الدوائر المختصة في استانبول ، وكانت هذه الدائرة تستحصل الرسوم المفروضة على جميع البضائع والسلع التي تصل الى ولاية بغداد من ايران للاستهلاك المحلي أو بقصد المرور ، والبضائع التي تصدر الى ايران . كما كانت هناك دوائر كمرك فرعية في خانقين ، وقزلباط (السعدية) ، وبدره الكائنة على الحدود الايرانية . وكان الغرض من هذه المؤسسات العمل على ضبط البضائع المستوردة من ايران والمصدرة اليها واستيفاء الضمانات عليها الى حد ما يوازي قيمة الرسوم الكمركية المستحقة حتى تصل الى بغداد فتدفع الرسوم المطلوبة فيها بالتمام . وكان من أعمال دوائر الكمرك المحلية المهمة السيطرة على حركة نقل الزوار من ايران الى العتبات المقدسة . فقد كان كل زائر يفتش على الحدود ، ويؤشر ما عنده ، ثم تؤخذ تأمينات معينة منه ، كما كان يفتش ثانية

في طريق العودة ، واذا ما اكتُشف أن شيئاً مما كان عنده قد افتقد فيجبر على دفع الرسم الكمركي المستحق عليه وتعاد له التأمينات .

وحينما استولينا على بغداد لم تكن مناطق الحدود قد خضعت لسيطرتنا الفعالة بعد ، فانقطعت المتاجرة كلها باستثناء تهريب بعض المقادير من التبوغ . وتوقفت حركة الزوار كذلك . وقد كان من غير المنتظر بطبيعة الحال ان نتوقع انتعاش الحالة قبل ان تستقر الأمور في البلاد وتعود حركة النقل مع ايران الى حالتها الطبيعية . على ان تبوغ السكاير و « الزغيلة » كان يسمح بدخولها في الوقت نفسه من ايران ، بشرط ان تخضع الى الرسم الاعتيادي بنسبة ١٠٪ ، ولذلك أسست دائرة كمرك مؤقتة في بغداد تابعة الى « لجنة الواردات » . فتحتم التصريح بكل ما يؤتى به من تبوغ وغيرها من البضائع الى أقرب حاكم سياسي في المنطقة . فاذا اقتنع بأن مثل هذه البضائع قد استوردت للاستهلاك المحلي كان يترتب عليه ان يستوفي الرسوم المفروضة عليه بنفسه ، ولكن البضائع في معظم الحالات كانت تشحن الى بغداد ولذلك كان الحاكم السياسي يمررها الى دائرة الكمرك فيها .

وعندما أخضعت مندلي الى نفوذنا الفعال فتحت فيها دائرة خاصة للكمرك .

هذا وقد انفصلت الكمرك عن الواردات ، ونظمت لها دائرة خاصة بها في مايس ١٩١٨ .

الأوقاف

وقد بقيت دائرة الاوقاف تحت اشراف دائرة الواردات الى منتصف السنة نفسها . إذ يسمح الشرع الاسلامي المقدس لمالك الاملاك غير المنقولة بوقفها الدائم على أي غرض خيري ، سواء أكانت له علاقة بالدين الاسلامي أو لم تكن . لكن السلطات التركية كانت من الناحية العملية لا تعترف بأهلية أية جهة من الجهات بتملك الاملاك الحقيقية غير دائرة الأوقاف التي تدين بالمذهب العثماني الرسمي

وهو المذهب السني . وعلى هذا كانت الأراضي الموقوفة على العتبات الشيعية المقدسة توضع تحت نوع من الوصاية الخاصة ، التي لا ترعى شؤونها الحكومة ولا المحاكم . وقد تأسست دائرة الأوقاف التركية في بلاد ما بين النهرين قبل ما يقرب من ستين سنة . وكانت كل ولاية لها مدير أوقاف خاص يشغل تحت اشراف وزارة الأوقاف في استانبول مباشرة ، ويشرف بصورة مباشرة على جميع موظفي الوقف الآخرين في الولاية . كما كانت واجبات الدائرة الرئيسية تنحصر في ادارة الاملاك الموقوفة وتنظيم شؤون عدد كبير من الجوامع والمساجد والمرابد .

وتصنف هذه الاملاك الى ثلاثة أصناف بوجه عام : الأوقاف المدورة التي تديرها الدائرة مباشرة ، والأوقاف الملحقة التي يديرها باشراف دائرة الأوقاف المتولون والأوصياء لمنفعة الأغراض الموقوفة من أجلها ، والأوقاف الذرية التي تدار بنوع فعال جداً من الارتباط الوقفي الذي يوقف الواقف ممتلكاته بموجبه لمنفعة ذريته المباشرة ، مع فضلة منها لغرض ديني في العادة ، وينحصر هذا الغرض بالحرمين الشريفين مكة والمدينة عادةً عندما تنقطع الذرية المباشرة ، ونادراً ما كان يحصل هذا .

وكانت هناك أيضاً املاك موقوفة على اغراض تعليمية (وقف معارف) ، وتديرها دائرة مختصة بها ، وأوقاف خيرية (وقف افتاء) يتصرف بها المفتي كما يهوى ويشاء .

وكان ما يفعله الأتراك اعتيادياً ان يتجاهلوا الغرض الخاص المذكور في « مضبطة » الوقف . فيجمعون واردات الأراضي الزراعية والاملاك الموجودة في المدن ويخصصون صرفها ، بواسطة نوع من الهيئة الدينية ، لدفع رواتب الأشخاص المستخدمين في الجوامع السنية ، وتعمير جوامع سنية جديدة ، وترميم الجوامع القديمة وأبنية الوقف ، وتلافي مصاريف دائرة الأوقاف . وكانت أية فضلة تبقى من ذلك ترسل الى وزارة الأوقاف في استانبول حيث

يكون مصيرها النهائي مجهولاً ، فيما عدا تحويل مبالغ غير يسيرة منها في كل سنة الى مكة والمدينة . وهناك مساحات كبيرة من أراضي الوقف في ولاية البصرة أوقفت على تعمير الحرم الشريف وغيره في مكة مما لا يخضع لدائرة الأوقاف ، مع ان هذه الدائرة كثيراً ما كانت تسعى للحصول على ادارتها وجعلها بيدها هي . ويدير هذا النوع من الوقف عبيد^١ خصيان ينتسبون خصيصاً من مكة لهذا الغرض .

وقد كانت تظهر في دائرة الاوقاف جميع العيوب الاعتيادية التي كانت تعرف بها الادارة العثمانية في البلاد . فقد كان الهدف الرئيس لموظفي الأوقاف الرسميين ان يحولوا أكثر ما يمكن من المال الى استانبول فيجوع من أجل هذا المستخدمون ، ويهمل اعمار الأراضي الزراعية ، وتترك الجوامع والدور عرضة للخراب والتهدم . ولم تكن هناك في الوقت نفسه سجلات كاملة مضبوطة لأمالك الوقف ، فسمح لهذا السبب بتراكم الكثير من الديون والبقايا المستحقة . ولذلك وجدنا خزانة الأوقاف فارغة ، والمقاطعات الوقفية تعاني الكثير مما سببته سنوات الاهمال .

وكان أول ما وجه ناظر الواردات عنايته له أن يفتش الأملاك الريفية وأمالك المدن ويسجلها ، ليجمع الأموال اللازمة لدفع رواتب الأئمة وغيرهم من رجال الدين في الجوامع منذ بدء الاحتلال ، ويتولى التعميرات والترميمات الضرورية العاجلة - وكانت المرافق الصحية في الجوامع تحتاج الى مثل هذه العناية السريعة على الأخص . وقد تعجب السكان ، وامتنوا ، حينما وجدوا دائرة فعالة للأوقاف تحاول القيام بواجباتها على الوجه الأكمل . ودفعت السلف الصغيرة الى ملتزمي بساتين النخيل ليتسنى لهم اجراء التحسينات المطلوبة منهم ، كما ألغي نظام التزام جباية وارد الاملاك في المدن عند أول سنوح الفرصة لذلك ، فحل محله الاشراف المباشر على ايجار الأبنية ، وكان هذا في مصلحة الدائرة والمستأجر

(١) وهم « أغوات مكة » الذين ما يزالون يعرفون بهذا الاسم في البصرة حتى اليوم .

في الوقت نفسه . ثم بذلت الجهود لاجبار متولي الأوقاف الملحققة على تقديم حسابات مضبوطة عما أنيط بعهدتهم من املاك موقوفة لضمان دفع حصة الدائرة المعادلة لربع الوفورات الصافية ، بعد ان تكون مصاريف العناية بالأملاك الموقوفة قد دفعت كلها . أضيف الى ذلك أن الاوقاف الموقوفة على شؤون المعارف قد استفيد من وارداتها للاغراض التي اوقفت من اجلها ، وسلمت المبالغ المتأتية من الاوقاف الخيرية الى « صندوق اسعاف الفقراء المسلمين » . وأحيلت منذ البداية جميع الامور التي لها مساس بالشعور الديني ، مثل تعيين الخطباء والأئمة أو عزلهم وترميم الجوامع ، الى لجنة من وجهاء السنة . فتألفت لجنة لأوقاف البصرة في نيسان ١٩١٧ ، وصار أعضاؤها يقدمون المشورة المطلوبة منهم بصفة غير رسمية حتى اكتسبت هذه اللجنة صفتها الرسمية في شباط ١٩١٨ .

ومع ان رواتب موظفي الجوامع وخدمها قد زيدت ، فقد أظهرت حسابات البصرة في نهاية ١٩١٨ وجود فضلة تقارب لكن ونصف روبية ، ولم يمكن صرف حتى هذا المبلغ أيضاً في تطوير أبنية الأوقاف وتعميرها بالنظر لقلّة وجود العمال وتعذر الحصول على مواد البناء المطلوبة . ولذلك احتفظ بها على حدة حتى يمكن صرفها على ما يؤمن الفائدة المرجوة والنفع العام .

وكانت حالة أملاك الوقف في بغداد عند الاحتلال اسوأ مما كانت عليه اراضي الوقف في البصرة ، اذا كان من الممكن ان يحصل ذلك . فلم تكن هناك ولا بستان واحدة من بساتين الوقف في منطقة بغداد بحالة جيدة تضاهي بساتين الناس المجاورة لها . وكانت اراضي الوقف في كثير من الحالات عبارة عن قطع جرداء محاطة من جوانبها ببساتين عامرة مثمرة . وكان الاتراك قد أخذوا معهم جميع السجلات الحديثة ، وهرب مدير الدائرة ورئيس كتابها الى الخارج . ولذلك استخدم عدد من الكتاب والموظفين الجدد ، فاستخرجت من السجلات القديمة والمعلومات المتيسرة الأخرى حسابات مضبوطة على قدر الامكان يمكن ان يستدل منها على موجودات دائرة الوقف من الأموال

والديون . وقد دُعي الوجهاء المحليون ، من رجال الدين وغيرهم ، ليسهموا في إعادة انشاء الدائرة . وبرجاء من رئيس الحكام السياسيين . انتخبوا مديراً لها ، وأبدوا تقديرهم للثقة التي وضعت فيهم بانتخاب رجل لا يشك في نزاهته . وعينت لجنة من خمسة علماء ، مطلعين تمام الاطلاع على شؤون الأوقاف ، لمساعدته . ثم أُدمج الجهاز الاداري المذكور بالجهاز الذي كان قد أنشئ في ولاية البصرة . وقد ألغيت الترتيبات التركبية التي كان يقوم بموجبها موظفون ثانويون بتمشية شؤون الأوقاف المحلية تحت اشراف المدير الموجود في بغداد مباشرة ، وتولى كل حاكم من الحكام السياسيين تدوير شؤون الأوقاف الموجودة في منطقته ، ولكن الاشراف العام بقي بيد «لجنة الواردات» .

وتتملك أوقاف بغداد مصادر للدخل تزيد على المصادر الموجودة في ولاية البصرة . فمما تتميز به ولاية بغداد في هذا الشأن وجود حق خاص يسمى «العقر» . وهو تملك للأرض يتألف من حق في نسبة معينة من حاصلها تتراوح ما بين ١/٢٠ و ٣٠/١٠٠ . ومنشأ هذا الحق وهذا التعامل شيء غامض . وإذا كان مدحت باشا قد نظم شؤون هذا الحق في الأرض لا بواسطة لجنة جمعها في سنة ١٨٧٢ ، وهو مسجل في دائرة تسجيل الأراضي . ومن ميزات حق العقر أنه يتقدم على جميع الحقوق الأخرى عدا حقوق الحكومة ، وقد يتقدم حتى على حقوق الحكومة نفسها من الناحية العملية ، ويعفى العقر من مفعول قانون اراضي الملك الصرف الاعتيادي فيتبع القانون الشرعي . وهو لا ينحصر في أراضي الوقت فقط ، وإنما يكثر وجوده حقيقة في الأراضي الأميرية عادة . لكنه ينطوي أينما وجد على ملكية « المالك الغائب » التي لا يسمح لصاحب حق العقد فيها بالتدخل بأي شكل كان في شؤون زراعة الأرض أو إدارة شؤونها . وهناك حالات كثيرة في ولاية بغداد ، من جهة أخرى ، توقف فيها حصّة من حاصل الأرض للأغراض الدينية . فقد ينحصر أحد السلاطين الأتراك الرسوم الحكومية

المتأتية من منطقة معينة للاتفاق على غرض ديني معين ، فتصبح دائرة الأوقاف بذلك مالكةً لذلك الجزء من واردات الدولة .

وأخيراً فإن الأوقاف الشيعية ، التي تتألف في البصرة بالكلية تقريباً من أوقاف شخصية لا تخضع لسلطة الدائرة السنية الرسمية المختصة ، تعتبر ذات مركز مهم في دائرة أوقاف بغداد لأن الرسوم المفروضة على دفن الجناثر في أماكن الشيعة المقدسة الواقعة كلها في هذه الولاية تدفع كلها لخزانتها . ويجب ان يكون مفهوماً ان دائرة الأوقاف في زمن الترك كان يديرها السنة لفائدة السنة بالكلية تقريباً . وكان الامام الشي ، الذي كثيراً ما كان يقتصر المصلون وراءه على الموظفين الموجودين محلياً فقط ، يتقاضى راتباً كاملاً من الأوقاف بينما كان يترتب على الامام الشيعي ، الذي يتألف تابعوه من سكان القرية بأجمعها ، ان يعتمد في معيشته على الصدقة العابرة . وبرغم المبالغ الطائلة التي كانت تستحصل من رسوم الدفنية ، فان مخصصات قليلة جداً كانت تخصص لتنوير العتبات الكبرى في النجف و كربلا والكاظمية وسامرا وتنظيفها . وكانت الرواتب التي تدفع في هذا الشأن تقل في مستواها بكثير عما كان يدفع منها في الجوامع السنية . ولم يكن استياء الناس في المناطق الشيعية من تقاضي السنة لرسوم الدفينة على جناثر الشيعة المتدينين الذين تنقل رفاتهم الى المدافن الموجودة في إحدى العتبات المقدسة ، يعزى لأسباب مالية فقط ، وانما كانت الظلامة الحالية ذات تأثير محض فيهم ، ولذلك قدمت المطالبات بعد الاحتلال مباشرةً بوجوب زيادة الرواتب والمخصصات التي تدفع لمستخدمي الجوامع والعتبات الشيعية من خزانة الأوقاف زيادة كبيرة . وترتب علينا ان نرفض هذه المطالبات ، لأن الرضوخ لها كان معناه التخلي عن القاعدة التي اضطرنا توخي الاقتصاد في النفقات على وضعها . وكانت هذه القاعدة تنص على عدم رفع الرواتب الى ما فوق المستوى الذي كان سائداً في وقت الاحتلال حتى تكون دائرة الأوقاف قادرة على دفع ديونها . على انه كان قد تقرر تفريق حسابات الأوقاف الشيعية عن حسابات الأوقاف السنية بحيث يكون من الممكن تأسيس دائرة وقف شيعية مستقلة عند الحاجة .

وهناك ممتلكات مختلفة موقوفة على شؤون الكنائس المسيحية واليهودية ، والمدارس العائدة لغير المسلمين ، وليس لدائرة الأوقاف أية سلطة عليها وإنما كان يقوم بإدارتها « أمناء » تنص عليهم وثائق الوقفية الأصلية .

المعارف

لقد أدمجت دائرة المعارف ، كما أدمجت الأوقاف ، بدائرة الواردات الكبرى وبقيت على تلك الحالة حتى حل صيف ١٩١٨ . وكانت المعارف في العراق متأخرة عن المعارف في سورية منذ مدة طويلة ، لأن سورية^١ وهي أقرب الى أوربة كانت قد تأثرت بالافكار الغربية ، بينما أدى نشاط الجمعيات التبشيرية الأوربية المختلفة الى تأسيس بعض المدارس فيها ، مثل الكلية الأمريكية^٢ وكلية الخزويت الفرنسية في بيروت . ولم تكن هذه المدارس ذات فائدة كبرى للطلاب الذين درسوا فيها فقط ، وإنما أدى وجودها كذلك الى رفع سوية التعليم العامة في البلاد . وقد كان تأثير العراق العام بهذا التأثير أقل منه في سورية . فان المدارس الأجنبية التي وجدت فيه ، مثل مدارس الآباء اللاتين ومدارس الالينس الاسرائيلية ومدارس جمعية الكنائس التبشيرية ، كانت تنحصر جهودها بالكلية تقريباً في التعليم الابتدائي ، ولم يكن لها شأن من الناحية العملية بغير المسلمين من الطلاب . ولذلك كان تعليم المسلمين في العراق هو التعليم الذي كان يريده الأتراك لهم في الدرجة الأولى ، ونظراً لما كان يبدو من السياسة الموضوعة في هذا الشأن كان يقصد بالتعليم عثماني العرب أو صبغهم بالصبغة العثمانية .

ففيما عدا الكتاتيب ، أو مدارس الملاي ، التي كانت تفتح على العموم في الجوامع والمساجد ولا تعلم أكثر من الكتابة العربية والقرآن ، كانت المدارس الرسمية الوحيدة الموجودة في ولاية البصرة : مدرسة واحدة للمعلمين في مدينة

(١) يلاحظ أن المؤلفه تقصد بسورية الكبرى المتألفة من سورية الحالية ولبنان وفلسطين .

(٢) وهي التي أصبحت فيما بعد « الجامعة الأمريكية في بيروت » .

البصرة ، ومدرسة ثانوية واحدة أيضاً ، مع ثمان مدارس ابتدائية في البصرة نفسها وفي قرى شط العرب والعمارة والناصرية وسوق الشيوخ . وكانت اللغة الرئيسية التي تدرس فيها التركية ، بينما كانت تعتبر العربية لغةً ثانوية . وكان المعلمون من الأتراك في الغالب ، وكان هؤلاء ملّمين أحياناً بشيء بسيط من العربية ، كما كانوا أناساً ذوي اخلاق سيئة^١ تدفع لهم أجور عالية من دون ان تكون لهم الأهلية المطلوبة للتعليم . وكانت أبنية المدارس قدرة غير صحية ، والمدارس نفسها مباءة للشرور والردائل بحيث كان العرب المحترمون يترددون في تسجيل أبنائهم فيها . ولم يكن يعترف بلياقة غير السني للتعليم فيها ، وكان وجود هذه القاعدة بين سكان أغليبيتهم من الشيعة لا يشجع الاقبال عليها . وقد كانت السجلات ملأى بأسماء خيالية كثيرة ، لكن مجموع عدد الطلاب في المدارس الابتدائية كان أقل من خمس مئة طالب في الولاية بأجمعها ، وكانت الكتاتيب تمول في قسم من مصاريفها من الأوقاف ، وفي القسم الآخر من دائرة المعارف . ولم تكن تقدم المنح لهيئات التعليم الأهلية التي كانت من مدارسها مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية^٢ ممتازة تديرها ارسالية التبشير الامريكية ، ومدارس كان يديرها الآباء الكرمليون والكنيسة الكلدانية ، وكان التعليم في المدارس الكرملية يتم باللغة الفرنسية .

وقد استمرت السلطات البريطانية على مساعدة الكتاتيب التي بقي فيها معلموها من أموال الوقف . اما التعليم غير الديني ، فقد كان من غير المرغوب فيه على ما يتضح ابقاء أية واحدة من المدارس الموجودة ، لا من حيث الأبنية ولا المعلمين السابقين ، الذين اختفى معظمهم على كل حال . وكانت هناك من جهة أخرى حاجة عاجلة للعرب المتدربين لخدمة الحكومة ، كما كان من المناسب سياسياً ان لا تكون الادارة البريطانية عرضة للاتهام بكونها تهمل شؤون التعليم وتتخلى عن تشجيعه . على انه كان من الضرورة بمكان ان نسير ببطء بأمل

(١) نعتقد ان هذا تحامل من المؤلفة لا مبرر معقول له .

(٢) لم تكن مدرسة الامريكان المشار اليها مدرسة أهلية ، وانما كانت مدرسة أجنبية تبشيرية .

الحصول على معلمين ذوي مستوى عالٍ ، وان لا نفتح أية مدرسة حتى يمكن
ايجاد المعلمين المناسبين لها . وكانت جميع طبقات الناس ترغب في تعليم
أطفالهم اللغة الانكليزية لأغراض تجارية ، والحقيقة أن الانكليزية لو لم تجعل لغة
ثانية من أوطأ الصفوف الابتدائية ، لما كانت هناك وسيلة فعالة أخرى يمكنها ان تجذب
الأولاد الى مدارس الحكومة الابتدائية لأن تعليم المواضيع العربية البحت بدرجة
تكفي لما يتطلبه معظم أولياء الطلاب كان يمكن ان يتم في الكتايب فقط عند الحاجة .
وقد كان أي مشروع للمراحل الأعلى من التعليم ، ممسا يمكن ان يكون
قد سيطر على أفكار الرأي العام ، يعتبر شيئاً قبل أوانه حتى يمكن تأسيس جهاز
صالح متين للتعليم الابتدائي .

وبالنظر لهذه الاعتبارات تقرر ان تكون اللغة العربية لغة التعليم في المدارس
كلها ، على ان تكون اللغة الانكليزية هي اللغة الأجنبية فيها ، وان لا تفتح
مدارس ابتدائية الا بعدد ما يمكن ايجاده لها من معلمين يتكلمون الانكليزية
بمقدار معلم واحد لكل منها على الأقل ، وان لا نبدأ بفتح أية مدرسة ثانوية
ما لم نضمن نجاح المدارس الابتدائية وسيرها على الوجه الأكمل ، وان لا ينظر
في التعليم الجامعي حتى يمكن تهيئة عدد كافٍ من خريجي الدراسة الثانوية لتغذية
الجامعة بالطلاب . ولضمان الحصول على المعلمين صودق على تخصيص منحة
مالية لمدرسة الأمريكان^١ التبشيرية في البصرة ، وهي مؤسسة تُعنى بتعليم أبناء
المسلمين في الدرجة الأولى . وكان الشرط الرئيسي لهذه المنحة ان تعد المدرسة
في الحال معلمين مدربين لمدرستين ابتدائيتين ، وان تفتح ايضاً صفّاً تدريجياً
للمعلمين تعد فيه ثلاثة معلمين مقتدرين للمدارس الابتدائية كل سنة . وأخذت
مدرسة الأمريكان على عاتقها ان تقوم بالاشراف العام على المدارس الابتدائية
كذلك . وقد انتخبت بعناية كتب الابتدائية المدرسية من بين الكتب الرسمية

(١) وهي مدرسة الأمريكان المعروفة في البصرة ، التي أسسها المبشر الأمريكي المستر فانيس
في سنة ١٩١٠ ، وكان المستر فانيس قد جاء الى البصرة في سنة ١٩٠٣ . وقد ظلت هذه المدرسة
قائمة بعملها منذ ذلك الحين حتى أغلقت بعد قيام ثورة ١٧ تموز ١٩٦٧ .

المستعملة في المدارس الابتدائية في مصر ، ثم ابتيع أثاث الصفوف من خارج البلاد . ففتحت مدرستان ابتدائيتان في تشرين الأول ١٩١٥ : واحدة في البصرة ، وأخرى في أبي الخصيب وهي منطقة مزدهرة على ضفة النهر جنوباً ، فكان الاقبال عليهما ممتازاً منذ البداية .

هذا وقد كان في البصرة عدد غير يسير من المسيحيين ، الكاثوليك الشرقيين في الغالب . فأخذ من بين هؤلاء غالباً الكتاب الذين كان يستخدمهم الأتراك والشركات التجارية ، وسيستمر استخدام أمثالهم على أكثر الاحتمال في المستقبل القريب . وكان هؤلاء يعتمدون في تعليمهم على الآباء الكرملين والكنيسة الكلدانية . وكانت كل واحدة من هاتين المدرستين تتقاضى المنح المالية من الادارة البريطانية بشرط ان تسمح بالتفتيش البريطاني عليها ، وان تكون اللغة الانكليزية اللغة الرئيسية التي تدرس فيها . واستمرت مدرسة الأمريكان على الاضطلاع بالتعليم الثانوي لوحدها .

وفي ربيع ١٩١٦ فتحت مدرسة ثالثة في الزبير فكانت مركزاً تعليمياً يبشر بالخير . فسكانها من طراز حسن ، لأنهم من النجديين المهاجرين الى هذه البلاد في الغالب أي من العرق العربي الخالص . وقد نشأت البلدان الصغيرة الممتدة ، مثل الزبير ، على حدود البادية بفضل العلاقات والاتصالات التجارية مع أواسط الجزيرة العربية . ويعتبر مؤسسوها من الرجال ذوي الشخصيات المستقلة والغرائز التجارية المعروفة ، الذين كثيراً ما يجمعون ثروات غير يسيره بالامتياز لسكان البادية ، التي يكون لهم تأثير كبير فيها اعتيادياً . وهم يحرصون على الانتفاع بكل فرصة للتقدم تسنح لهم ، ولذلك كان الناس في الزبير متشوقين الى تعلم الانكليزية بحيث لم يكن من الغريب ان يشاهد قبل افتتاح المدرسة الصبي ابن العشر سنوات والمتقدم في السن ابن الستين يجلسان سوياً في دائرة البريد ليكافحا في حل معقدات اللسان الأنكليزي بأشرف « البابو »^(١) الكاتب ، غير

(١) البابو كلمة هندية تعني الأفندي أو السيد .

٣٢
العابىء بهما . ولا غرو ، فللعربي قابلية عجيبة في تعلم اللغات ، وقبل ان تكون
المدرسة قد فتحت كان الاطفال يرطنون بالانكليزية مع اعجاب آباءهم واعتزازهم

وفي خلال ١٩١٧ و ١٩١٨ فتحت مدارس ابتدائية في الناصرية وسوق
الشيوخ وقلعة صالح وعلى الغربي والمدينة ، وفي العشار من ضواحي البصرة .
وقد كان أمر تقاضي الأجور في المدارس من النقاط المختلف عليها ، لكن فكرة
استيفاء أجور زهيدة وفائدها كانت هي السائدة بوجه عام ، فتقرر فرض روية
على الطالب الواحد . لكنه سمح بشيء غير يسير من المرونة بحيث اذا ارتأى
الحاكم السياسي ان ولي أمر الطالب على درجة من الفقر لا تسمح له بدفع
الأجور لتعليم ابنه فانه يعفى من دفعها . وكان الناس في أبي الخصيب يطالبون
بفتح مدرسة ثانوية ، ففتح صف ثانوي في أواخر ١٩١٧ . ثم شملت المنهج
المدرسية مدارس الأليانس الأسرائيلية في البصرة ، والمدارس الأخرى التي
فتحتها الآباء الكرمليون والطوائف الكاثوليكية ، الأرمنية والكلدانية ، في
البصرة والعشار ، ومدرسة البنات التي باشرت بفتحها إرسالية التبشير الأمريكية .
وقد تبادت مدرسة البنين التي أسستها في ١٩١٢ إرسالية التبشير العربية ^١ ،
العائدة للكنائس المصلحة في أمريكا ، في كونها أحسن مدرسة في ولاية البصرة
كلها . فقد كان طلابها مؤدبين ومتعلمين بعناية ، وكان الكتاب المقدس يقرأ
يومياً بالعربية في كل صف من صفوفها ، من دون ان يبدي الآباء المسلمون
أي اعتراض ، حتى أن الأبناء أنفسهم كانوا دقيقين أكثر من غيرهم في
الاحترام الذي يكونونه للكتاب المقدس . إذ يروي المدير الأمريكي قصة تدل
على شعور المسلمين في هذا الشأن . فقد غضب أحد الطلاب المسيحيين ذات
يوم في صف الكتاب المقدس ورماه على الأرض ثم رفض ان يتابع القراءة فيه .
فوبخه المدرس على ذلك ، لكن الطلاب المسلمين لم يكتفوا بذلك بل جاءوا الى
المدير يطلبون اخراج الطالب المسيحي من المدرسة لأنه اساء معاملة الانجيل .

أما في ولاية بغداد فقد كان الجهاز التعليمي التركي أكثر شمولاً مما كان عليه في البصرة. فقد كان يشتمل على مدرسة للحقوق، ومدرسة ثانوية^١ (السلطاني)، ودار للمعلمين^٢، ومدرسة صناعة، وإحدى وسبعين مدرسة ابتدائية. وهذا

(١) و (٢) كانت الدراسة الثانوية في العهد العثماني تنقسم إلى مرحلتين: مرحلة الدراسة في المدارس الرشدية وتستغرق ثلاث سنوات بعد الدراسة الابتدائية، فتقابل بهذا مرحلة الدراسة المتوسطة الحالية تقريباً، ومرحلة الدراسة الإعدادية وتستغرق أربع سنوات بعد الدراسة في المدارس الرشدية، وبذلك كانت مرحلة الدراسة الثانوية (الرشدية والإعدادية) تستغرق كلها سبع سنوات بعد الدراسة الابتدائية التي كانت تستغرق أربع سنوات فقط.

وقد بدأ تأسيس المدارس الرشدية في العراق سنة ١٨٧٠ على عهد الوالي المشهور مدحت باشا. وفي عام ١٨٧٣ تأسست أول مدرسة إعدادية في بغداد في أيام الوالي رديف باشا، وكان اسمها (المكتب الإعدادي الملكي). وكانت هذه المدرسة تضم بين جدرانها الصفوف الرشدية كذلك بحيث كان يبلغ عدد سني الدراسة فيها سبع سنوات. وكانت الدراسة في الإعدادي ملكي رصينة تشتمل على تدريس الرياضيات والعلوم والاقتصاد واللغات والاجتماعيات والميكانيك والرسم والدين. وكان اهتمام الحكومة بها غير قليل، ولذلك كان مدرسوها من المستوى الجيد. وظلت على هذه الحال إلى تشرين الثاني ١٩١٣ حين قررت الحكومة تسمية المدرسة باسم (المكتب السلطاني) بعد أن ألحقت صفوف الدراسة الابتدائية فيها أيضاً عندما جعلتها خمسة بدلاً من أربعة. وعلى هذا الأساس أصبحت الدراسة في السلطاني تنقسم إلى قسمين: القسم الابتدائي ويتألف من خمسة صفوف، والقسم العالي ويتألف من سبعة صفوف.

وحينما انصرفت النية إلى التوسع في التعليم الابتدائي ونشره تقرر في أيام الوالي نامق باشا الصغير فتح ثلاث دور للمعلمين (١٨٩٩ أو ١٩٠٠): واحدة في بغداد، والثانية في الموصل، والثالثة في البصرة. وقد تحسن شأن الدراسة فيها بعد الانقلاب العثماني المعروف (١٩٠٨) فأصبحت تستغرق ٤ سنوات. وكان أول مدير لدار المعلمين في بغداد رجلاً يدعى عبد الله أفندي، ثم حل محله الشيخ نوري أفندي الشيرواني (والد اللواء بهاء الدين نوري). وأعقب الشيخ نوري رجل تركي يدعى عادل بك، فنظمها ورتب الدراسة فيها على الطراز الحديث. وكان أديباً شاعراً ذا شخصية محبوبة محترمة على ما يروى. وقد بقي هذا في المدرسة حتى تطوع للقتال في الحرب العامة الأولى. وما يذكر عن الدار أنها كانت مدرسة داخلية، ولها مدرسة ابتدائية ملحقة بها للتطبيقات، وأنها كانت تشغل في أول تأسيسها دار (الحاج حسين خيوكة) التي اندمجت أخيراً في بناية محافظيصة (متصرفية) بغداد الحالية، كما كان عدد طلابها في ١٩١٣ حوالي (٢٠٠) طالب. وكان من مدرسيها العراقيين في أواخر أيام العهد العثماني السيد يحيى الورتري، ومحمد فهمي (والد عبد الجبار فهمي)، ورؤوف العطار، وجميل المدرس (شقيق الاستاذ فهمي المدرس)، وصالح شميل (تاريخ التعليم في العراق الهلالي).

الجهاز ، كما هو مدرج في الكتاب السنوي للمعارف التركية ، الممتليء بالخرائط والاحصاءات ، كان يمكن ان يثير حسد السلطات البريطانية في المناطق المحتلة ويأسها ، لو كان كل ما نقرأه يدل على الحقيقة والواقع ، لكن المعروف ان الأتراك لم يكونوا يهتمون بالسؤال حتى عن دوام الطلاب المسجلين او عدم دوامهم ، وان كان النظام التعليمي يتبع هذه الخطة او تلك في التدريس .

ولم تكن مدارس الحكومة هذه المدارس الوحيدة الموجودة في المنطقة بأي حال من الأحوال . فقد كانت تقرر في أفكار الناس بالتعاليم الاسلامية السنية (وكان ذلك طبيعياً لأنها كانت تستهدف بتعمد نشر النفوذ التركي بين الطلاب ، ولأن ما يدرس من شؤون الدين كان سنياً) ولم يتسجل فيها الا الطلاب السنة . وكان الشيعة ، والمسيحيون واليهود يفتحون المدارس على حسابهم ، لكن دائرة « الحسابات الخاصة » كانت تعطي كلاً من هذه المدارس ، بصفة نظرية على الأقل ، منحة مالية بشرط ان تصرف على تعليم اللغة التركية . فكانت لكل من الطوائف السريانية والكلدانية والأرمنية والبروتستانتية والكاثوليكية اللاتينية مدرسة أهلية ، كما كانت هناك « مدرسة جعفرية »^١

(١) كانت المدرسة الجعفرية قد تأسست في عهد الأتراك وتم افتتاحها في يوم السبت المصادف ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٢٦ (١٩٠٩ - ١٩١٠) . وقد حصل ذلك بعد أن دعا المرحوم الحاج سلمان أبو التمن جماعة من أعيان الشيعة في بغداد الى اجتماع خاص في دار والده الحاج داود للمذاكرة في الموضوع . وعلى أثر هذا الاجتماع قدم طلب رسمي الى السلطات العثمانية لله واقفة على فتح المدرسة ، فوافقت السلطات المختصة على ذلك بشرط ان تسمى المدرسة باسم (مكتب الترقى الجعفري العثماني) . وقد عين لادارتها العلامة المرحوم الشيخ شكر ، كما عين لمعاونته الاستاذ علي البازرگان الذي كانت له مساع مشكورة في تأسيس المدرسة . وانتخبت أول هيئة من وجوه بغداد وأعيانها للإشراف على سيرها . وكان اعضاؤها الحاج سلمان أبو التمن ، والعلامة الشيخ شكر الله ، وسماحة السيد عبد الكريم الحيدري ، والسيد جعفر السيد هاشم ، والحاج مصطفى كبة ، والحاج محمد حسن الجواهر ، والحاج أمين الجرججي ، والسيد علي البغدادي ، والحاج عبد المجيد العطار ، والحاج مهدي الخاصكي ، والحاج عبد الحسين البهراني ، والأوسطة علي العينة جي ، والحاج جوادي قنبر أغا .

وفي سنة ١٩١٧ قررت الهيئة المذكورة تبديل اسم المدرسة الى (المدرسة الجعفرية) ، ثم سعت =

لأبناء الشيعة . وكان عند اليهود عدد من المدارس للبنين والبنات ، تشرف على بعضها مؤسسة الأليانس الاسرائيلية ، ويشرف على الباقية اليهود المحليون . وبرحيل السلطات التركية عن البلاد في مارت ١٩١٧ لم يعد لمدرسة الحقوق ، والمكتب السلطاني ، ومدرسة الصناعة ، وجود كمؤسسات تعليمية لأن معظم مدرسيها تقريباً كانوا من الأتراك الأناضوليين فتركوا البلاد مع سائر الموظفين الاستانبوليين ، وبالنسبة لمدرسة الصناعة^١ فقد نسف الأتراك

= في جمع التبرعات لإنشاء بناية خاصة لها ، وتم انشاؤها فنقلت المدرسة اليها في سنة ١٩١٨ . وما يذكر بالاضافة الى ذلك ان المدرسة بدأت أول مرة في الدار التي كان يسكنها الدكتور أرسطو ، في جوار مسجد الحاج داود ابي التمن وقد استقرت بعشرين ليلة عثمانية ذهب . وقد فتحت صفوفاً مسائية أيضاً لتعليم الأميين ، وتدرّس إمساك الدفاتر ، وبذلك تكون أول مدرسة في العراق تكافح الأمية وتفتح صفوفاً مسائية لها .

(١) كانت أول مدرسة للصناعة في بغداد قد تأسست في عهد الوالي المصلح مدحت باشا (١٨٦٩ - ٧٢) . وكان الغرض من تأسيسها أعداد الأيدي الماهرة للمعامل التي كان يزمع تأسيسها في بغداد ، وهيئة العدد الكافي من المرتبين للمطبعة التي تأسست في عهده . والمعروف ان مدحت باشا قام بإنشاء معامل عدة في بغداد ، واستورد لها المكائن والمعدات من البلاد الأوروبية ، ثم أصلح القليل الذي كان موجوداً منها قبل مجيئه . وكذلك توسع في مشروع النقل النهري والبحري ، فاشترى البواخر الكبيرة والصغيرة ، ومسحت الطرق النهرية ، ثم أسست ادارة نهريّة وأخرى بحرية له . وقد شن حملة واسعة النطاق لجمع التبرعات التي يتطلبها تأسيس مدرسة فنية مثل هذه . فجمعت مبالغ طائلة لهذا الغرض ، وكان من بين المتبرعين عدد من شخصيات البلد المرموقة مثل ناصر باشا السعدون ومحمد جلي زاده واقبال الدولة وسليمان فائق والحواجة يوسف كوكوكلي وغيرهم .

واستملك مدحت باشا لمدرسة الصناعة إحدى المدارس الدينية التي كان عددها كثيراً يومذاك ، وهي المدرسة العلية التي بناها علي باشا أحد ولادة المماليك ، وكانت تطل على دجلة بالقرب من « دار الضباط » الحالية . والمعروف أن هذه البناية ظلت تشغلها مدرسة الصناعة الى سنة ١٩١٧ ، حين سقطت بغداد في أيدي الإنكليز خلال الحرب العامة الأولى . ثم أصبحت بعد ذلك مقراً للبرلمان العراقي في أيام العهد الملكي الزائل وبقيت كذلك الى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ . ويشغل هذه البناية اليوم متحف الأسلحة .

وقد جعل القبول في هذه المدرسة مقتصرأ على أبناء الفقراء والايتام في بداية الأمر ، وجمع لها من هؤلاء عدد يبلغ ١٤٤ طالباً ، ولذلك ظلت المدرسة تسمى (دار الايتام) مدة من الزمن . =

جميع عددها ومكائنها وأحرقوا بنايتها . اما المدارس الابتدائية فقد نهبها الرعاع جميعها تقريباً . واذا ما استغرق أمر فتح المدارس في بغداد وقتاً أطول فان ذلك يمكن ان يعزى الى الناس أنفسهم ، الذين نهبوا جميع الأثاث وسائر تجهيزات المدارس كلها وخلعوا الأبواب والشبابيك وكل ما أمكن حمله . وكان معظم من بقي من معلمي المدارس من النوع السيء ، كما لم يكن هناك أي نوع من الكتب عدا القليل منها عند الناس ، وهي كلها باللغة التركية .
وكان من الممكن أن تسبب لنا هذه المشاكل ازعاجاً أقل لو كان بوسعنا أن نتبع الخطة المتخذة في البصرة . وهي خطة عدم فتح أية مدرسة قبل

وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات بعد الدراسة الابتدائية او ما يعادلها ، وصارت التدريسات فيها على نوعين : نظري وعملي . وكان التدريس العملي يجري في الفروع الصناعية التالية : الميكانيك والحداثة والبرادة ، وصناعة النسيج القطني والصوفي والحيري ، وصناعة السجاد والكتبار ، والنجارة ، والأحذية ، والطباعة . وقد استطاعت الأقسام العملية هذه أن تنتج مصنوعات متقنة ، كانت تعرض في أماكن خاصة بها في بعض المخازن الموجودة في سوق بغداد يومذاك . لكن العناية بهذه المدرسة أخذت تقل بالتدريج بعد ان رحل مدحت باشا عن بغداد بحيث انخفض عدد طلابها ، فوصل الى الأربعين فقط . ثم قيس الله لها في عام ١٨٩٩ من أحيائها من جديد وهو الوالي نامق باشا الذي كان له ولع خاص بالصناعات ، لأنه كان يحسن صنعة النجارة . فارتفع عدد طلابها في أيامه الى مئة وخمسين ، ومن ثم تقدم شأنها وأصبحت لها أهمية في المجتمع المتجدد ، وصارت تشرف عليها في أوائل هذا القرن لجنة خاصة مكونة من موظفي الولاية المعروفين . وفي ١٩٠٦ كان يرأس هذه اللجنة مصطفى فهمي بك ناظر الديون العمومية ، وكان من جملة أعضائها محمد فهمي المدرس مديرها ، وفؤاد بك مفتش الصحة ، ومهندس البلدية المسير موجيل ، ومهندس الولاية المسير شوانيس ، وعبد الجبار أفندي باشكاتب الأوقاف ، ومن الأهلين سليمان أفندي المحامي .

(١) جاء في (معجم العراق للهلال) ان الحكومة العثمانية أصدرت في خريف ١٩١٣ أمراً يقضي بان تكون الدراسة في دار المعلمين والاعدادي ومدرسة الحقوق باللغة العربية ، باستثناء بعض الدروس التي طلب أن تدرس بالتركية . لكن الاستاذ سليمان فيضي يقول في مذكراته (في غمرة النضال) ان وزارة المعارف التركية أصدرت نظاماً جديداً يميز التدريس في المدارس الابتدائية في الأقطار العربية باللغة العربية . فتألفت في كل ولاية لجنة لانتخاب الكتب المناسبة ، وانتخب هو عضواً في لجنة ولاية البصرة في شباط ١٩١٢ . غير ان الوزارة المذكورة لم تلبث بعد وقت قصير ان نكثت عهدها فأمرت بلزوم تدريس الجغرافية والتاريخ بالتركية .

الحصول على معلمين مقتدرين لها ، غير أنه بينما كانت البصرة تهتم بالتمور أكثر من اهتمامها بالتعليم ، فإن بغداد كانت فيها نسبة غير قليلة من الناس الذين يقدرون التعليم للتعليم -- وقد يكون ذلك من بقايا الزمن الذي كانت بغداد فيه مركزاً عظيماً للعلم والتعليم . فبعد الاحتلال بأيام قليلة عرض علينا مدير المدرسة الابتدائية الوحيدة التي سلمت من النهب ان يستأنف عمله فيها بهيأة تعليمية تتألف كلية من مديري المدارس الابتدائية ، فقبل هذا الترتيب باعتباره إجراءً وقتياً . وقد أوفد المعلمون أيضاً لاستئناف عمل المدارس الحكومية في مراكز مناطق ثلاث أخرى .

ولأجل تطمين الرأي العام في هذا الشأن تشكلت « لجنة معارف » في الحال . وكانت هذه مؤلفة من خمسة من رجال المعارف أصحاب النفوذ ، وكانت لها صفة استشارية فقط ولا دخل لها في رسم الخطط ، لكن تقاريرها عن القضايا التي كانت تعرضها عليها « لجنة الواردات » كانت مفيدة ^١ .

وقد كانت أكثر الحاجات إلحاحاً في هذا الشأن الحاجة الى معلمين للمدارس الابتدائية ، ولما لم تكن ثمة مدرسة مثل مدرسة الامريكان في البصرة ، تضمن تخريج عدد قليل مطرد من الشبان المدربين تدريباً حسناً للمدارس الحكومية في ولاية البصرة ، فقد تقرر في نيسان ان تفتح دار للمعلمين يمكن ان يدرّب فيها المعلمون السابقون ، ومن يرغب في تقديم الطلب لذلك من الشبان الذين يحملون ثقافة عامة لا بأس بها ، لمدة ثلاثة أشهر ^٢ في المواضيع العامة وأصول

(١) كانت « لجنة المعارف » التي تذكرها المؤلفة هذه تسمى « مجلس المعارف » ، على ما يذكره أرنولد ويلسن في كتابه ، وكان هذا المجلس قد عُين أعضاؤه الآتية أسماؤهم في ١٧/١ : ١٩١٩ :

الحاج علي أفندي الألوسي ، وحلمي بك بابان ، والأب أنستاس ماري الكرمل ، وجعفر جليلي الحاج داود أبو الثمن ، وشكري أفندي الألوسي ، وجميل صديقي أفندي الزهاوي . ويلاحظ أن عدد الأعضاء هو ستة وليس خمسة كما تذكر المؤلفة هنا .

(٢) كان من طلاب هذه الدورة ، والدورة الثانية التي فتحت بعدها على ما نعلم : الأساتذة طه الراوي ، ومثير القاضي ، وسلمان الشيخ داود ، وهاشم الألوسي ، وعبد المجيد زيدان ، وأحمد أمين .

التدريس . وكان لا بد لهذه المدة ان تكون كافية بالنسبة لحالة الطوارئ التي كنا فيها لنجعل من المتعلمين تعليماً جزئياً أناساً مؤهلين لمتابعة العمل التعليمي في المدارس الابتدائية حتى يمكن الحصول على أناس أحسن منهم . ولم يكن من السهل إيجاد المدرسين لدار المعلمين هذه ، لكنه أمكن إيجاد أربعة مدرسين أخيراً - ثلاثة سوريين وواحد من أهالي بغداد . ثم استعير مدرس آخر من مدرسة الأمريكان في البصرة عدة أسابيع ليحاضر في أصول التدريس . وقد بدأت الدار بواحد وثمانين طالباً يتألفون من المعلمين السابقين الذين كانوا راغبين في البقاء في المهنة ، لأنهم أخبروا بأننا سيصعب علينا ان نعين اي معلم في مدارس الحكومة في المستقبل ممن لا يكون قد درس في دار المعلمين هذه . وكان حوالي ثلث الطلاب ممن يؤمل منهم خير في المهنة ، اما الباقون ومعظمهم من المعلمين السابقين في مدارس القرى الصغيرة ، فقد كانوا ضعيفين جداً مع الأسف . وقد بقي عدد قليل من هؤلاء في المدرسة الى النهاية ، ونجحوا في الامتحان فعينوا معلمين ، لكن الأكثرية تركوا المدرسة ووجدوا مجالاً للاستخدام في الكتاتيب الملحقة بالجوامع ، وغيرها . وكان بين المسجلين في الدار عدد من الشبان الشيعة^١ ، وهذه ظاهرة لم يكن لها وجود في أيام الترك .

وكان من حسن حظ الحكومة أن تحصل على خدمات رجل سوري نشط ليعين مديراً^٢ لدار المعلمين . وحينما ترك البلاد ليلتحق بجيش الشريف في

(١) علمنا ان الاستاذين المرحومين سعد صالح ومحمد علي كمال الدين كانا من بين هؤلاء ، وهما من النجف كما لا يخفى .

(٢) كان اسمه حسين رفقي . هذا وقد لاحظنا في (تاريخ التعليم - في العراق للهلال) ان رجلاً اسمه (حسين رفقي افندي) قد عُين مديراً للمعارف في ولاية بغداد سنة ١٩٠٨ ، وبقي في وظيفته هذه الى سنة ١٩١٣ (١٣٢٩ هـ) . وكان هذا على ما يبدو غير أهل لوظيفته ، وقد نظم الشاعر الرصافي الأبيات الآتية فيه :

معارف بغداد قد جاءها	مدير من الطيش في مسرح
حمار ولكنه ناطق	صبي ولكنه ملتص
فيا أيها العلم فيها ارتحل	ويا أيها الجهل فيها اسلح

الحجاز حل محله سوري آخر ، لا يقل عن الاول في قابليته ونشاطه ، وكان قد خدم في وظائف رسمية عديدة في عهد الأتراك منها وظيفة مدير للمعارف . وبعد أن فتحت المدارس الابتدائية اشتغل مديراً للمعارف^١ بإشراف « لجنة الواردات » .

وبالطلاب السبعة والعشرين الذين نجحوا في امتحان التأهيل عند انتهاء دورة الأشهر الثلاثة ، صار بوسعنا أن نفتتح خمس^٢ مدارس ابتدائية في بغداد وضواحيها ومدرستين في المناطق الأخرى . على أن هؤلاء الطلاب الناجحين كانوا أقل مما يكفي لسد حاجة المدارس الى المعلمين بالتمام ، فانتخب عدد قليل من أحسن الطلاب المتخلفين في الدورة وعينوا برواتب أقل لسد الشواغر الموجودة . وقد صنفت هذه المدارس واعتبرت مدارس ابتدائية رسمية تسدد

(١) انه الاستاذ حسني بك عبد الهادي الذي أصبح مديراً للمعارف بعد ذلك ، أي في ١٠/١/١٩ وكان فلسطينياً . وفي ١٩/١/١٩ عُين مديراً لدار المعلمين الاستاذ محمد عبد العزيز سعيد ، وكان مصرياً ثم خلفه محمد سيد خليل الذي كان مدرساً للقرية فيها ، وكان من مصر أيضاً . وكان من المحاضرين في الدار كذلك الاساتذة الحاج حمدي الاعظمي ، والشيخ قاسم القيسي ، وداود السعدي ، وصالح شميل .

اما مديرو المعارف في ولاية بغداد على عهد العثمانيين فكان أول مدير منهم يدعى (سامي بك) وقد عُين سنة ١٨٨٤ ، ثم تعين بعده خالص افندي سنة ١٨٨٧ ، وخلفه في السنة نفسها (محمد افندي الجميل) الذي بقي في الوظيفة هذه حتى تعين بعده (عيسى روهي) سنة ١٨٩٣ ، وفي سنة ١٨٩٦ حل في محله (عيسى غياث الدين) الذي أشغل الوظيفة حتى عام ١٨٩٨ ، وتوكل من بعده محاسب الدائرة حتى تعين حسين رفيق افندي في ١٩٠٨ . وفي ١٩١٣ عُين (عبد الله فيضي بك) ثم حل في محله (رفعت بك) بعد عدة أشهر . وفي سنة ١٩١٤ أشغل مديرية المعارف هذه وكالة المرحوم حكمت سليمان ، ثم ثبت في الوظيفة وظل فيها الى وقت احتلال بغداد من قبل الانكليز .

(٢) كانت المدارس الابتدائية الآتية أسماؤها أدناه موجودة في بغداد سنة ١٩١٩ : (١) المدرسة الحيدرية ومديرها داود نيازي ، (٢) ومدرسة البارودية ومديرها منير القاضي ، (٣) ومدرسة الفضل ومديرها سلمان الشيخ أحمد الداود ، و (٤) مدرسة الكرخ ومديرها طه الراوي ، و (٥) مدرسة باب الشيخ ومديرها هاشم الألوسي ، و (٦) مدرسة رأس القرية ومديرها عبد الحميد زيدان ، و (٧) مدرسة الكاظمية ومديرها نوري البرزنجي ، و (٨) مدرسة الأعظمية ومديرها فائق أفندي .

نفقاتها بالكلية من واردات الحكومة العامة . ثم رفضنا الاتفاق من الخزانة العامة على المدارس التي لم يكن معلموها مؤهلين للتعليم ، لكن جهود الأهلين في هذا الشأن قد شجعت بتخصيص المنح المالية لهم . وعلى الشاكلة نفسها قدمت المنح الى المدارس الطائفية في بغداد ، الشيعية أو المسيحية او اليهودية .

وكان النقص في الأثاث المدرسي يعد مشكلة من المشاكل الخطيرة . اما بالنسبة للكتب فقد تقدمنا بطلب المساعدة من الحكومة المصرية ، فاستجابت بتقديم هدية ثمينة من الكتب المدرسية التي تكفي لتجهيز عشرين مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية واحدة .

وقد بدأنا كذلك بداية متواضعة في طريق التعليم الفني . ففيما عدا بعض الضباط السابقين في الجيش التركي لم يكن في بغداد أحد بوسعه القيام بأعمال المساحة أو التسوية . ولسد هذا النقص فتحت مدرسة خاصة للمساحة ، وكانت المؤهلات الوحيدة المطلوبة من الداخلين اليها معلومات عامة عن الحساب والمقاييس . فقدمت عرائض كثيرة لذلك ، وبالنظر للأشغال العملية التي كان سيتدرب عليها الطلاب كان لا بد من تحديد عددهم في الصف بستة وثلاثين طالباً . ووضعت الخطة لدورة تستغرق عشرة أسابيع ، وألحق الطلاب الذين نجحوا في امتحان التأهيل الذي أجري في نهايتها بمهندسي الري للعمل معهم ولمتابعة التدريب .

وكان الفقر في بغداد ، المتأثي عن سنوات الحرب الثلاث ، علاوة على كون التدريس في أيام الترك كان تدريساً مجانياً في المدارس الفنية وغير الفنية ، قد جعل من غير المستحسن استيفاء أجور مدرسية في المدارس الابتدائية منذ البداية . ولم تقرر الأجور الا في سنة ١٩١٩ .

الدين العثماني

اما بالنسبة للدين العثماني العمومي فقد ضمنت مصالح أصحاب الحصص الأوربيين بتخصيص الواردات المستحصلة من لا يقل عن اثني عشرة ضريبة معروفة إلى إدارته . وقد بحث في بادئ الأمر عما اذا كانت هذه الضرائب يمكن أن يحتفظ بها كاملة غير منقوصة لإدارة الدين نفسه ، بعد أن تخضع لبعض التعديلات في نهاية الحرب . على أن هذا وجد شيئاً غير ممكن . فقد توقف بواسطة الحرب العمل في « مصلحة انحصار التبغ » أولاً ، وهي شركة معادية كان الدين العثماني يملك حصة كبيرة فيها ، وكان يبدو من الناحية الثانية أنه من الضروري تنقيص الرسوم الكمركية . كما كانت من الناحية الثالثة ضريبة الطوابع التركية ، التي كان يخصص معظم وارداتها الى هذا الدين ، متوقفة بالمرّة بينما كانت السلطات البريطانية على كل حال محجمة عن تنفيذ مثل هذا القانون المغيظ المعقد . وحينما شرع من جديد في النهاية شرع بشكل معدل جديد . ولذلك تقرر أن يتحم على السلطات العسكرية الاحتفاظ بالحرية التنفيذية التامة في العمل تجاه هذه الضرائب المخصصة . وكان موظفو هذه الدائرة قد فروا من البصرة قبل وصولنا إليها ، اما في ولاية بغداد فقد بقوا في أماكنهم واستمروا في مبدأ الأمر على الاضطلاع بأعمالهم بمقياس أصغر ، على أن بعض المشاكل نشأت بعد ذلك فاستدعت إلغاء بعض الضرائب المخصصة وتغيير الطرق التي تجب بموجبها الأخرى . وأخيراً ، صار يبدو أن الاحتفاظ بإدارة مستقلة للدين يعتبر اسرافاً في نظر أصحاب الحصص ، وشيئاً ثقيلاً في نظر الناس . ولذلك تقرر في حزيران ١٩١٧ أن تسد دائرة الدين العمومي بالشكل الذي كانت عليه ، لكن أوامر صدرت بأن تدار مصادر الواردات المخصصة للدين على حدة بأمل تقديم حساب مضبوط عنها عندما تدعو الحاجة له . فصارت جباية الواردات المخصصة لهذا الدين في معظم المناطق الإدارية تتم بواسطة موظفي الواردات أنفسهم . غير أنه وجد من الضروري في البصرة وبغداد والموصل فقط أن يحتفظ بمؤسسة مستقلة لهذا الغرض . وقد

قدمت فرص الخدمة اللازمة لموظفي الدين العمومي هذا ، الذين كانوا يتقاضون رواتب أعلى من رواتب موظفي الحكومة ويحتفظون بمستوى للكفاءة والنزاهة أعلى بكثير من مستوى موظفي الأتراك الاعتياديين . وبذلت العناية في تعيينهم في مناصب تقارب جداً المناصب التي كانوا يشغلونها قبل الاحتلال ، على قدر قدر ما صار يسمح به تبدل الظروف .

القضاء

لقد تعرضت عملية تأسيس الادارة القضائية من جديد الى نفس المشكلة التي أعاققت عمل السلطات المدنية في الدوائر الأخرى ، وهي ان جميع موظفي القضاء التركي تقريباً كانوا قد تركوا وظائفهم قبل احتلال البصرة . وكان اولئك الذين بقوا منهم في البلاد غير راغبين في ان يستمروا على العمل فيها ، ولم يكن هناك موظفون غيرهم من أصحاب الخبرة في القانون التركي . ولما كان الأترك قد ألغوا الامتيازات الأجنبية عندما نشبت الحرب فقد تقرر ان لا يفسح المجال لاعادة العمل فيها خلال الحرب في جميع الأحوال . فقد توقفت عن العمل حينما تم احتلال البلدة الشركات الأجنبية المعادية في البصرة ، وبقيت الشركات الأهلية التي اعتبرت موالية لنا ، فتولت شؤونها (اي شؤون الشركات الأجنبية) « دائرة الشركات الأجنبية المعادية » التي كانت مسؤولة تجاه رئيس الحكام السياسيين .

ولأجل أن يتخذ ما يلزم لتمشية ادارة القضاء الجنائي والمدني للسكان المدنيين شرع القائد العام في آب ١٩١٥ قانوناً يعرف بـ « قانون الأراضي المحتلة العثماني » بعد أن بناه على غرار « القانون الجنائي والمدني الهندي » . فقد أخذت الصلاحيات المطلوبة فيه لتطبيق أي قانون من القوانين الهندية وادخال أي تعديل عليه تقتضيه الأحوال المحلية ، ثم شرع بفتح المحاكم في البصرة .

وقد كان السير في هذا الطريق مثاراً للنقد والاعتراض ، لكن مزيته الكبيرة

كانت أنه سهّل لنا من دون تأخير ان نصب جهازاً لم يكن يمكن إعداده بطريقة أخرى ، ولولا اتخاذ مثل هذا التدبير لتوقفت أعمال الناس في كثير من المجالات .

وكانت مزاولة العمل في المحاكم الجديدة أحسن بكثير من مزاولته في المحاكم التي حلت محلها ، كما كانت القوانين الهندية أحسن وأبسط من القوانين التركية بحيث لم يحصل أي اعتراض على إحلال الجهاز القضائي الهندي في محل الجهاز التركي . وقد تعجب الناس ، المتعودون على أساليب الأتراك البطيئة ، واندعشوا من السرعة التي كانت تسير فيها عملية تطبيق العدالة .

فقد اتخذ ما يلزم في « القانون العراقي » هذا لأحالة أية دعوى يكون فيها أي الفرقاء على الأقل من المسلمين الى المحاكم الشرعية . وكان الفرقاء المعنيون ينتخبون محكماً وطنياً يتم الحكم على يديه ، من بين الأشخاص الذين يعترف بهم الناس أنفسهم بأنهم من رجال الدين . اما الدعاوى التي كانت تحال الى المحاكم عادة فهي الدعاوى التي كانت تحال في أيام الترك الى القاضي في المحكمة الشرعية ، أي انها كانت دعاوى شخصية تتعلق بالزواج والطلاق ، والاختلاف بين الأزواج ، والأرث وما أشبه . وكان لا بد للحكم الذي يصدره المحكم من ان تصادق عليه المحاكم البريطانية . كما كان المحكمون يأخذون أجورهم بمقدار نصف رسوم المحكمة ، ولذلك كانوا يشتغلون على أحسن ما يكون . اما المشتكون او المتقاضون فقد كانوا يذهبون اليهم برغبة ويتقبلون أحكامهم باحترام . ومن الصحيح ان السنين ظلوا محرومين لمدة ما من محاكم الشرع الاعتيادية التي يحكم فيها القاضي ، لكن الشيعة من جهة ثانية قد انتفعوا ، وهم يؤلفون تسعين بالمئة من السكان ، بالترتيبات الجديدة لأن محكميهم من رجال الدين قد منحوا الاعتراف الرسمي المطلوب بهم . فقد كان القاضي تحت الحكم العثماني من السنة على الدوام ، وكان يحكم في الدعاوى التي ترد اليه بموجب الشرع السني أيضاً ، بحيث ان ذلك كان يؤدي الى عدم مراجعة الشيعة للمحاكم ، ولذلك كانوا يأخذون دعاواهم الى رؤسائهم الدينيين الذين لم يكن

لأحكامهم أي وزن من الناحية الرسمية .

هذا وقد كانت معظم القضايا الجزائية لا يؤتى بها الى المحاكم . فقد كانت « الهيئات العسكرية » تنظر في الدعاوى الخطيرة ، لكنه كان هناك اجماع في الرأي على ان الجرائم الخطيرة كانت نادرة الوقوع بدرجة تلفت النظر ، اما الجرائم التي كانت تقع فكانت جرائم سرقة أو سلب بقوة السلاح . وكان نواب المحاكم العسكري في البصرة والعشار يبتون في معظم الدعاوى الجزائية . ولم تفتح في ولاية البصرة اية محكمة خارج مدينة البصرة الى ما بعد ان تم احتلال بغداد . فكانت المنازعات من جميع الأنواع يبت فيها في العمارة والناصرية الحكام العسكريون ، بينما كان الحكام السياسيون يمارسون الصلاحية نفسها في المناطق الريفية . وفي جميع هذه القضايا كانت هناك قيود على الأحكام التي يمكن ان تصدر .

على أن سكان العراق ليسوا مشاكسين وميالين لاقامة الدعاوى في المحاكم مثل الهنود ، وان الناس ، او الطبقات الدنيا منهم على الاقل ، يظهرون من الاستقامة والصدق أكثر مما تظهره هذه الطبقات في البلاد الأخرى . فالقاعدة العامة هي ان المدعى عليه يعترف بمضمون الدعوى وحيثياتها ، وان البينة باليمين يعتمد عليها تمام الاعتماد بين الطبقات الأحسن من الناس ، وان شهادة اليمين التي يقدمها المدعى عليه يعترف بها المدعى . وقد تعود الناس على تسوية الدعاوى بالتحكيم ولذلك فسان حوالي ١٠٪ من الدعاوى صارت تحسم بهذه الطريقة . والمحكمون في البصرة هم من التجار والملاكين الأغنياء في الدرجة الأولى . ومن الممكن الاعتماد عليهم في بذل أقصى جهدهم للتوصل الى قرار منصف .

دعاوى العشائر

وكان السكان العشائريون في خارج المدن غير ميالين الى مراجعة المحاكم العثمانية ، برغم جميع الجهود التي كانت تبذلها الحكومة العثمانية في اقناعهم أو اجبارهم على ان يفعلوا ذلك . والحقيقة ان سلطات القضاء التركية فيما بين

النهرين لم تكن هي التي تنظم العلاقات بين الانسان والانسان ، أو تعيين العقوبات المطلوبة عن المخالفات والانتهاكات التي كانت تحصل على مرأى منها . فقد كانت فيما وراء الشكل القانوني الخارجي كله الحدود والعقوبات القديمة ، التي يفهمها الناس ويحترمونها لأنها كانت نتيجة طبيعية للحاجات الاجتماعية . وكان الشيخ في خيمته يستمع الى شكاوى المشتكين وهو جالس حول موقد القهوة ، ويصدر الحكم بما يمكن ان يكون عنده من فطنة او لودعية ، مسترشداً بالتقدير المطلوب للعرف العشائري . كما كان « السيد » الموجود محلياً ، القوي بسمعته المستمدة من تعرفه على سنن الاله الشرعية أكثر من غيره من الناس ، والأقوى في الحكمة التي اكتسبها بالمران الطويل في شؤون التحكيم ، يصدر أحكامه في المنازعات الخطيرة أو الطفيفة ، فكانت الاحكام التي تصدر على هذه الشاكلة تتفق بوجه عام والعدالة الطبيعية ، وتتطابق على الدوام مع طبيعة ما يفكر فيه الفرقاء المتخاصمون .

وقد تم الاعتراف بجهاز القضاء المحلي هذا ليكون سلاحاً ماضياً في جانب الأمن والسلوك الطيب . فكما كان من عادة الحكام العسكريين ، عند استماع الشكاوى والنظر فيها ، ان يستدعوا المختارين ليسهموا في حسمها ، كان الحكام السياسيون كذلك يلتجئون إلى شيوخ القبيلة والقرية للاستئناس برأيهم . وقد تعمم هذا التعامل ليشمل البلاد كلها بتشريع « نظام دعاوى العشائر »^١ واصداره بمصادقة « قائد الجيش العام » في شباط ١٩١٦ . فوضع نص خاص

(١) انه « نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية » ، الذي وضعت سلطات الاحتلال البريطاني على غرار « نظام جرائم الحدود الهندي » ، المقتبس من « نظام ساندمان » الذي كان مطبقاً في بلوچستان . وقد ظل ساري المفعول في العراق ، بعد اجراء بعض التعديلات فيه ، حتى تم إلغاؤه بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . وهو كما يلاحظ يفرق بين المواطنين ويجعلهم على نوعين أزاء القانون ، مدنيين وعشائرين ، بينما تقضي قواعد الحكم الحقبة والشريعة الاسلامية أن يكون المواطنون جميعهم سواسية أمام القانون . غير ان سلطات الاحتلال البريطانية ، التي ظل الكثير مما أدخلته الى هذه البلاد سارياً فيها حتى بعد زوال عهد الاحتلال ، كان من مصلحتها تثبيت الاقطاع والروح العشائرية في هذه الديار فجاءت بمثل هذا القانون .

فيه يفيد بأن أي نزاع يحدث بين الناس ، ويكون فيه أحد المتخاصمين من أبناء العشائر ، يستطيع الحاكم السياسي أن يحيله إلى مجلس أو محكمة عشائرية تتألف من شيوخ أو محكمين عشائريين يراعى في انتخابهم العرف العشائري . وما لم يكن القرار الذي تتوصل إليه هذه الهيئة غير عادل أو مخالفاً لحقائق الدعوى الأصلية ، يقوم الحاكم السياسي بإصدار الحكم المطلوب بالاستناد إليه .

وحينما طلب إلى الحكام السياسيين في ولاية البصرة ، بعد خبرة من هذا القبيل استدامت ثمانية عشر شهراً ، أن يقدموا تقريراً عن كيفية سير هذا النظام وجدت النتائج مرضية مطمئة . وقد تطورت أحكام هذا النظام في بعض الحالات وأصبحت تعاملاً ثابتاً لم يكن ينتظر حصوله منذ البداية ، مع أنه لم يكن شيئاً يخالف روحية النظام نفسه . فقد تشكل في الناصرية وسوق الشيوخ وقلعة صالح مجلس عشائري يتألف من مواطنين معروفين ، من السنة والشيعة . وكان شيخ من شيوخ الصابئة ، الطائفة التي كانت تهمل كثيراً في عهد الأتراك ، يستدعى للاسهام في أعمال المجلس عندما ينعقد للبت في أية قضية تختص بطائفته . كما كانت تحال على هذا المجلس ، من حين لآخر ، منازعات ذات طبيعة بلدية خالصة بأمر إحالة خاص ، فيكون أعضاؤه بهذه الصلاحية هيئة من الحكام الشرفيين . وكان كل نزاع يحدث خارج حدود البلدية تقريباً يحال في قلعة صالح إلى المجلس فيصدر قراره به في معظم الحالات . غير أن الدعاوى كانت تحال في بعض الحالات ، أي عندما يكون الطرفان من المسلمين ، إلى مفتي محلي ليصدر حكمه فيها ، أو إلى كاهن صابئي عندما يكون الطرفان من الصابئة . وكانت تحال الدعاوى العشائرية في العمارة عادةً على شيخ المشايخ ، الذي كان يستعين بالشيوخ الآخرين ويطلب مشورتهم عند الحاجة ، ويبت في الدعوى بموجب أحكام قانون العشائر وعرفهم ، لكن القضية إذا كانت تختص بأكثر من قبيلة واحدة كان يعقد مجلس عشائري خاص متألف من شيوخ يمثلون القبائل المعنية بالقضية . ولم تكن هذه الاجراءات تستدعي أي تدخل حكومي في هذا العرف العشائري ، كما لم تكن القبائل نفسها ترغب في غيره . وقد عُين في القرنة

مجلس للنظر في الدعاوى المهمة ، لكن المنازعات الطفيفة كانت تحال الى شيخ العشيرة التي تقع فيها ، أو الى رئيس البلدية المحلي اذا ما وقعت في حدود بلديته. وفي المنازعات التي تحدث بين القرى كان ينتخب محكم محلي ، يكون في العادة وجيه الناحية أو القضاء . وحينما كانت واجبات المجلس تشرح لأعضائه بوضوح في بداية المحاكمة ، كانت أحكامهم تصدر بنزاهة وفقاً لما يرونه صائباً في نظرهم . ولذلك كانت أحكامهم ممتعة مفيدة ومعقولة عادة . ولقد كان بوسع المجلس المحلي ، مع وجود الشهود محلياً ، أن ينجز العمل المخصص له بأسرع مما يمكن للمحكمة البعيدة ان تفعله ، كما كان البت العاجل في الأمور شيئاً ذا نفع كبير . وكانت قرارات الحاكم السياسي ، المبنية على ما يتوصل اليه المجلس من أمور ، مقبولة بلا تغيير لدى الفرقاء المعنيين ، الأمر الذي يدل على أنها كانت تظمن مفهوم القبائل للقضاء والعدالة . ولذلك كان الجميع يشعرون بأن نظام دعاوى العشائر كان وسيلة لازالة حمل ثقيل عن عواتق الحكام السياسيين ، الذين لم تكن قراراتهم مطمئة للناس مثل قرارات الشيوخ بأي حال من الأحوال ، وانه كان ينطوي على فائدة أخرى هي فائدة رفع مكانة الشيوخ وزيادة مسؤوليتهم بمنحهم بعض الصلاحيات القضائية .

على ان العرف العشائري ، كما يعمل به المجلس العشائري ، لم يكن من جهة أخرى وافياً بالمرام كلياً في نظرنا . فان افراد القبائل يعتبرون فرض الدية ودفعها الى أقارب القتيل أهم بكثير من معاقبة القاتل ، ويميلون الى الاكتفاء بالغرامة المفروضة عليه من دون ايقاع أية عقوبة أخرى . ولذلك خول نظام دعاوى العشائر الحكام السياسيين أن يزيّدوا الحكم الصادر ضمن حدود معينة ، لكنهم كانوا يرون من الأصوب عدم استخدام هذه الصلاحية الا في النادر وكانوا محقين في ذلك بطبيعة الحال . فان أحكام المجلس لو كانت تخضع للزيادة في التشدد لأصبحت دون المستوى المطلوب للعقوبة . وقد يجد الحاكم السياسي نفسه عند قبوله للعرف العشائري ، مدعواً لفرض عقوبات غريبة عن تقاليد العدالة البريطانية . ولذلك نجد أن القبائل الفراتية كلها كانت تطلب من المذنب في

قضايا الدم ، علاوة على الدية ، تسليم بنت باكر الى أسرة القتيل . وهم يقولون هذه العادة أهمية كبرى لا على سبيل العقوبة فقط بل تحفظاً لما قد يجري في المستقبل بسبب الجريمة ، لان دفع الغرامة ، على ما يقولون وهم محقون ، لا يفعل كثيراً في تخفيف حدة العداء بينما يكون الاختلاط بالزواج سبباً في تقارب المصالح واجتماعها .

اما في المنازعات المختصة بملكية الأرض فقد ترتب على المحاكم ان تنقيد بالقوانين والأنظمة التركية ذات العلاقة بالطابو ، التي وجد من المهم التمسك بها . فقد كانت الحكومة العثمانية ، كما مر ذكره سابقاً ، تعتبر العراق بلاداً مفتوحة ، وتقضي النظرية التركية في هذا الشأن بأن تعتبر جميع الأراضي ، التي لم تخصص بصورة جازمة لتكون ملكاً شخصياً للناس ، ملكاً للفتح . وكان مثل هذا التخصيص في الملكية اما عند الفتح ، او في وقت متأخر ، يتم بصور الفرمانات من السلطان ، أو بمنحها عن طريق دوائر الطابو (منذ ان بدىء بتسوية حقوق الأراضي في زمن مدحت باشا سنة ١٨٧١) ، التي أصبحت تحت الادارة البريطانية فرعاً من فروع « دائرة الواردات » . وقد سجلت تخصيصات الملكية الأصلية ، والمنح الممنوحة بالفرامين ، في الطابو كذلك ، لكن هذا لم يكن سوى اعتراف بملكية كانت قائمة من السابق . فقد نص قانون مدحت باشا المختص بالأراضي على تشكيل هيئة خاصة لتسوية حقوق الأراضي ، وكان عليها ان تدقق جميع الادعاءات والطلبات وتعين ما اذا كانت مبنية على الشراء او التصرف المستديم او التملك بطريقة أخرى ، لكن هذا العمل لم يكمل الا في منطقة البصرة .

الطابو

ولقد اتخذ تسجيل دائرة الطابو للأموال شكل سند للتملك كان من الضروري تجديده بمناسبة أي انتقال من المحول اليه الأصلي . وهذا يعني فنياً ، ان الحكومة تستأنف منح الملك أو إعادة منحه في كل عملية انتقال تطرأ على الملك . وكانت

لهذه الطريقة ، على ما فيها من عراقيل ، مزية كبيرة في منع تعقيدات الملكية والرهونات السرية وما أشبه ، لأنه ليس هناك معاملة مثل هذه المعاملات تعتبر شيئاً ملزماً ما لم يتم تسجيلها رسمياً . لكنه يجب ان يكون مفهوماً ، ان مثل هذه المعاملة تعتبر من الناحية العملية غير أصولية بحيث تصبح شيئاً لا قيمة له . ويرتب على هذا ان المحاكم المدنية لا يحق لها تدقيق أية معاملة تنطوي على انتقال الملكية من شخص إلى آخر ما لم تكن مسجلة في دائرة الطابو . فهي تستطيع الحكم بمنح التعويض عن عدم تنظيم عقد لنقل الملكية ، لكنها لا تستطيع اجبار أحد على تنظيمه . وفي بعض الحالات تستطيع المحاكم المدنية إلغاء سند من سندات الطابو ، أي عندما يمكن البرهنة على كونه سنداً مزيفاً . على أنه يصعب تحديد مجالات العمل ما بين الطابو والمحاكم المدنية ، لان القوانين والأنظمة المختصة غير واضحة على الدوام ويمكن ايجاد سوابق لكل نوع من أنواع الاجراءات . وقد كانت دائرة الطابو مجبرة على احالة قضايا الميراث على المحاكم الشرعية ، والانصياع الى قراراتها بالنسبة لتوزيع الأسهم ، لكنها تستطيع بمحض إرادتها ان ترفض منح أي سند حتى يكون المستدعي قد استحصل على قرار من المحاكم المدنية حول أية نقطة مختلف عليها . وكان هذا يحصل عندما تنشأ مشكلة صعبة معقدة لا يمكن حسمها على ما يرام بالتدقيقات العاجلة التي تجريها دائرة الطابو .

وكان نظام الطابو مع الأسف ، على ما فيه من مزايا واضحة ، مثل غيره من الأشياء التركية جميعها شيئاً نظرياً وليس حقيقة ملموسة . فاننا نجد من الناحية العملية ان نسبة كبيرة من معاملات نقل الملكية لم تكن مسجلة ، أو انها كانت قد سجلت من دون إجراء التدقيق المطلوب فيما يتعلق بها من المعلومات ، أو أنها كانت قد استحصلت بارشاء موظفي الطابو . يضاف إلى ذلك ان المنطقة الصغيرة التي كانت « هيئة تسوية الأراضي » قد أنهت أعمالها فيها هي التي كانت الادعاءات التي قدمت فيها قبل ١٨٧١ يمكن ان يفترض فيها ان تكون قد دقت معاملاتهما على الوجه المطلوب ، فرفضت أو أيدت

بإصدار سند الطابو المطلوب لها ، وحتى مثل هذا الافتراض يمكن ان يكون افتراضاً واسع المدى حينما تؤخذ الأساليب التركية بنظر الاعتبار . وحينما كان من الممكن إبراز سند الطابو المطلوب ، وانتفاء وقوع أي اعتراض عليه ، كان يكتشف ان الحدود قد رسمت بكثير من عدم الدقة والاهمال . فلم تكن تبذل أية عناية في تعيين حدود الملك ، وكثيراً ما كانت تظهر عند تدقيق السندات حالات يذكر « المهور » فيها حدوداً من الجهات الأربع ، وكان هذا بطبيعة الحال خطأ يتعرض للتغيرات الموسمية والدائمة كلما تغير مستوى الطغيان في المياه ...

ومع هذا كله ، فقد كان نظام الطابو حيويّاً للمحافظة على القواعد التي كانت تستند اليها عملية تملك الأرض التركية ، وقد بقيت جزءاً من القانون العراقي السائد . فثبت أن ذلك كان قراراً قيماً . فلا ريب ان ثروة ما بين النهرين كانت في الماضي ، وما تزال مستمدة بالكلية من الزراعة^١ . ولذلك فان أي تغيير فجائي يمس الاجراءات التركية المختصة بشيء له أهمية أساسية مثل ملكية الأرض والحق فيها يجب ان يؤسف عليه . أضف الى ذلك ، أن تسوية مدحت باشا لشؤون الأرض كانت مبنية على أسس مغلوطة كما سيتضح فيما بعد . وكان من المستحيل الأقدام على تحسينها في الحال ، لأن تطبيقها بالطرق القانونية الصرفة ، مثل ما تحتم على المحاكم أن تفعل ، كان لابد من ان يثير اضطرابات سياسية في مناطق كثيرة . وقد أثار الرجوع الى الطابو في بعض القضايا نزاعاً بالنسبة لصلاحيه « دائرة الواردات » ، التي كانت في وضع تتخذ فيه وجهة نظر أوسع تجاه القضايا المعنية بها ، وعندها مزية ممارسة سلطتها محلياً عن طريق الحكام السياسيين الذين كانوا قادرين على الحصول على البيانات المطلوبة من المصدر الأصلي مباشرة ، فتميز الأهمية السياسية لجميع الادعاءات التي يمكن ان تحصل ويحسب لها الحساب .

(١) لا شك ان هذا القول كان يصح قبل استثمار النفط في هذه البلاد .

الصحة العامة

وكانت عملية تهيئة المؤسسات الطبية والصحية للسكان المدنيين في البلاد لها صلة وثيقة بالأرض ، من ناحية واحدة ، أي بقابليتها الانتاجية . فاذا كانت القوى العاملة تعد الثروة الأساسية في الاقتصاد الوطني لكل مجتمع من المجتمعات ، فان المشاكل المتعلقة بالمحافظة عليها فيما بين النهرين لتعرب عن نفسها بشكل خطير . ولا غرو ، فان التطور الواسع الذي يمكن ان يحصل في البلاد يتوقف على التزايد الكبير في النفوس . على ان ادخال مزارعين ومستوطنين أجانب^١ ، لا يمكن ان يمتصهم المجتمع الحالي بسبب اختلاف العرق والعقيدة ، قد يؤدي الى حصول اضطرابات واحتجاجات محلية فعالة . ولا يمكن ان يتكهن المرء مقدماً فيما اذا كان المستوطنون الذين يمكن ان تمتصهم البلاد ، من العرب والاييرانيين او الاكراد ، سيهاجرون الى ما بين النهرين بأعداد كافية يمكن ان تعوض عن النقص الموجود في السكان ، لأن العدد المتيسر الآن من هذا القبيل هو قليل جداً . على ان سكان العراق ، على قلتهم ، منجبون ولودون ، لكن عدم تيسر الخدمات الطبية لهم والجهل العام بقواعد الصحة العامة والشخصية المتفشي بين ظهرائهم ، قد تضافت جهودهما في ابقاء عدد النفوس في حده الواطيء . فاذا ما أوقفت الوفيات في الاطفال وشملهم المزيد من العناية والرعاية حتى يبلغوا سن الرشد فمن المحتمل ان يتضاعف^٢ عدد النفوس في الثلاثين أو الأربعين السنة القادمة . وهنا ينطوي آمن ضمان لتهيأة الوسائل التي تأتي بالتقدم الاقتصادي للبلاد في ظل الظروف المناسبة .

وكانت العناية بالصحة العامة ونظافة المدن والبلدان ، من وجهة النظر العسكرية ، احتياطات ضرورية لابقاء القوات العسكرية في منأى عن الأمراض . ولذلك افتتح مستوصف ملكي في مدينة البصرة بعد الاحتلال مباشرة^٣ ، بينما

(١) هذا ما كان يدور في خلد الكثيرين من رجال الاحتلال البريطاني يومذاك حتى أنهم فكروا في تهجير الهنود وحتى اليهود الى هذه البلاد .

(٢) وهذا ما تم بالفعل ، فقد كان عدد نفوس العراق يومذاك حوالي مليونين ونصف واصبح اليوم أي بعد اربعين سنة ، يزيد على السبعة ملايين .

اتخذ وكلاء الحكام العسكريين الخطوات اللازمة لتأمين نظافة المدينة ، وبوشر بتأسيس مستشفى ملكي في ١٩١٥ ، ثم فتحت مستوصفات اضافية في العشار .
وتعين جراح مدني للاشراف على هذه المؤسسات ، فعهد اليه بشؤون الترتيبات الصحية في البصرة كذلك ، بينما تولى الشؤون الصحية في العشار ضابط من الأطباء العسكريين . وقد أوليت صحة السجن والمساجين عناية خاصة أيضاً .
ولم يكن من الممكن اتخاذ ما يلزم لمعالجة المصابين بالامراض العصبية محلياً ، فأرسلوا الى الهند للمعالجة . فكان عدد المراجعين في المستوصفات والمستشفى اكثر مما كان منتظراً ، وتقبل الناس التطعيم وسائر الاحتياطات المتخذة ضد الطاعون . وبعد ان تم احتلال العمارة فبح مستشفى ومستوصف فيها باشراف طبيب بريطاني من الجيش ، فثبتت فائدتهما للناس واقبالهم عليهما كما حصل في البصرة . وحصل الشيء نفسه في الناصرية حيث أعيرت خدمات أحد الأطباء العسكريين الى المستوصف والمستشفى الملكيين فيها . ومن الصعب التعبير عن الفضل الكبير الذي يعزى الى الضباط الأطباء الذين اضطلعوا بهذه الواجبات ، ليس بالنسبة لما كانوا يبدونه من حماسة ونشاط في العمل فقط بل للشعور الذي كان يبدو منهم تجاه مرضاهم أيضاً . وليس الثناء الذي يستحقه المضمدون والأطباء الهنود بأقل من هذا . فقد كانت زيارة صباحية واحدة الى أحد المستوصفات تكفي لتبين كيف تم التغلب على تهيب أطفال القبائل ونساءها ، وكيف لطفت الريبة واسترضيت الظئنة .

وقد حصل تقدم يلفت النظر في أحوال المدن الصحية خلال سنة ١٩١٦ . فقد صارت تستعمل المبال والمراحيض والمحارق في كل مكان ، وتفتش المجازر والأسواق ، ثم شنت حملة ناجحة على الذباب وكوفحت الأمراض المعدية والفئران فأوقفت عند حدها . وفي كل من القرنة وقلعة صالح وعلى الغربي كان يعمل في المستوصفات الطبيب الضابط الموجود في الحامية ، مع جراح هندي مساعد له . اما في سوق الشيوخ فبالنظر للنقص المتناهي في الأطباء لم يكن من الممكن المباشرة بالعمل الطبي المنتظم الا في ١٩١٧ ، ولذلك كان السكان يعتبرون عدم وجود مستوصف صحي عندهم ظلاماً من الظلمات ،

مع أنهم لم يكونوا يحلمون بوجود مثل هذه المؤسسة في أيام الترك . وقد كانت السهولة التي يخضع بها الناس للمعالجة الطبية شيئاً يثير الدهشة . فانتشرت شهرة الأطباء البريطانيين في كل المناطق وصار المرضى يتواردون عليهم من أماكن بعيدة وهم راغبون في إجراء العمليات عليهم ، وحتى في التوضحية بطرف من أطرافهم إذا ما قيل لهم ان الضرورة تقتضي ذلك . وقد كانت المستشفيات والمستوصفات وسيلة مقنعة من وسائل الدعاية تفوق جميع الوسائل الأخرى التي ابتدعها الخطباء المصقعون أو أبرع الناشرين من الكتاب .

الشبابة^١

ومن الممكن ان يقال بانصاف ان توسع اعمال الادارة وانتشار تأثيرها قد نجح عادة في القيام بواجب مزدوج . فلم تزد الكفاءة في العمل فقط ، بل حل الاتصال الشخصي الوثيق ما بين الحاكمين والمحكومين ، ونشأت الثقة المتقابلة بين الطرفين . وأحسن مثل للنتائج الحسنة التي أفضت اليها العلاقات الودية بين الضباط البريطانيين وأهالي البلاد ، وأثرت تأثيرها الحسن في تمتين هذه العلاقات الشبابة . فقد كان أولئك الحرس العشائريون ينخرطون في هذا السلك ويتقاضون أجورهم من الحاكم السياسي المحلي ليساعدوا في حفظ الأمن والمحافظة على خطوط المواصلات . وكانوا كذلك يحملون الرسائل ، ويبعثون في مهام مختلفة ، ويخدمون كنوع من انواع الحرس . وقد كانوا يتجندون في هذا المسلك عن طريق شيوخهم وينظمون على أيدي صنفين من أصناف ضباط الصف ، لكن تشكيل القوة كان يتوقف على ما تحتاجه المنطقة منهم . ففي منطقة دجلة الكائنة في جنوب العمارة ، حيث تكون المقاطعات التي تفوض إلى الشيوخ كبيرة ومبدأ السلطة المحلية معروفاً تمام المعرفة ، كان كل شيخ يقدم الرجال المطلوبين لقطاعه من النهر . وبالنظر لأن القوة التي تؤلف على هذه الشاكلة تحتوي على

(١) كلمة تطلق على الجنود المرتقة الذين يستخدمون بأجور لأغراض شبه عسكرية ، وعسكرية أحياناً . ويسمى الانكليز Levies او Levy .

عناصر عشائرية مختلفة لم يكن يوضع على رأسها ضابط صف واحد بمفرده . وفي بحيرة الحمار ، ما بين القرنة والناصرية ، حيث كانت الوحدات العشائرية صغيرة ومعروفة بالفوضى السائدة بين ظهرانيها ، وجد من المناسب ان لا يوضع الشبانة في مناطقهم لانهم كانوا عرضة للانشغال باختلافاتهم وحزازاتهم الخاصة بدلاً من التفرغ لواجباتهم الرسمية . ولم يكن الشبانة ينظمون كذلك على المنوال العشائري في منطقة سوق الشيوخ ، حيث كان القسم الرئيس من القوة يربط في المقر ، ولكن وحدات صغيرة ثلاث كانت توضع عند شيوخ موالين بالقرب من البلدة . وكانت سوق الشيوخ والناصرية مجهزة معاً بقوة من الحياطة العشائرية - المجندة من الأساس في الناصرية بإشراف السلطات العسكرية .

ولم يكن أفراد القبائل غير راغبين في الانخراط في مسلک الشبانة ، أو قوة الحياطة غير النظامية ، لأن الخدمة في القوتين معاً كانت تعتبر خدمة شريفة . وكان التسريح أو الطرد من خدمة الحكومة يؤدي إلى فقدان المنزل والاعتبار ، ويعد بصفة عامة عقوبة شديدة . وقد كانت النتائج بوجه عام مرضية ، باستثناء ما يختص بعمليات ضرب الحصار حيث يصعب مقاومة الاغراءات بغض النظر عن مخالفات القانون . ولذلك وجد أن مراقبة طرق السير والمواصلات بهذه الشبانة العشائرية شبه العسكرية يعد ضماناً فعالة للأمن ، وإن الخدمة فيها تعتبر منفذاً للعناصر القليلة .

وفي نهاية ١٩١٦ بلغ عدد الشبانة ما يزيد على خمس مئة نفر ، وبتحسن أحوال هذه القوة عُدت إليها نقاط المراقبة الصغيرة على طول دجلة ، التي كان يربط فيها الجنود البريطانيون . وقد أعيد إليها ضباط الصف البريطانيون لأغراض تدريبية ، وكان من الصعب الحكم على ما إذا كانوا هم أو الرجال الذين تولوا تدريبهم أكثر حرصاً على ظهور الشبانة بمظهر حميد معتبر .



العلامة السيد مهدي السيد حيدر .



العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي



سليمان عسكري بك



الشيخ خزعل

الطباعة والصحافة

كان الاهتمام بتقديم الخدمات الصحية والطبية ، والاتزان في الادارة وبسط المعدلة ، والالغاء التدريجي لطريقة الالتزام في جباية الضرائب ، ووضع الضرائب على أسس ثابتة منصفة ، وترميم مساجد القرى ، مع ادارة شؤون القبائل بالعطف والتعقل - كانت هذه كلها تعتبر وسائل فعالة تقابل بها الدعاية التركية والألمانية المنتشرة في البلاد . لكن الخطوات اللازمة قد اتخذت لتزويد الرأي العام الذي يجيد القراءة ، وهم أقلية صغيرة في المجتمع ، بأخبار مستمدة من مصادر أقل تأثراً بدعايات العدو . فأسست مطبعة^١ للحكومة في البصرة ، وحينما تم التغلب على الصعوبات الأساسية في الحصول على المواد اللازمة للنشر صارت تنشر يومياً جريدة^٢ محلية بالعربية والایرانية معاً . وكانت الأخبار التي

(١) يفهم مما جاء في (التحفة النباهية) أن أول مطبعة استوردت الى البصرة في سنة ١٣٠٦ هـ باسم محمد علي باشكاتب أملاك السينة ومدير ادارتها بعد ذلك . وصارت تلعب فيها جريدة رسمية سميت (البصرة) . ثم اختلف الموما اليه مع والي البصرة حمدي باشا ، فأغلقت المطبعة وتوقفت عن العمل . وقد جاء الوالي على اثر ذلك بمطبعة أخرى باسم الحكومة في سنة ١٣١٢ ، واعاد اصدار جريدة (البصرة) وطبعها فيها سنة ١٣١٣ . وفي سنة ١٣٢٧ استوردت (جمعية الائتلاف) مطبعة ثالثة دفع معظم ثمنها الحاج محمود باشا آل عبد الواحد ، فسميت (المطبعة المحمودية) . وقد آلت هذه المطبعة بعد ذلك الى صاحب جريدة الدستور ، وهذا باعها الى جيش الاحتلال البريطاني سنة ١٣٣٣ . ولعل هذه المطبعة نفسها هي التي تشير اليها المس بيل هنا .

(٢) جاء في (معجم العراق للهلال) ان السلطة البريطانية المحتلة أصدرت جريدة الأوقات البصرية بأربع لغات : العربية والتركية والفارسية والانكليزية (وحرر فيها المستر فيليبي) . وعند انتقال حكومة الاحتلال الى بغداد في ١٩١٧ تولى سليمان الزهير إصدارها بطريقة الالتزام حتى سنة ١٩٢١ حين احتجبت عن الصدور . لكن المستر فيليبي يذكر في كتابه (أيام في بلاد العرب) ان المستر أي بي صون (وهو الميجر صون المشهور الذي كان حاكماً سياسياً في السلجمانية) كان في كانون الأول ١٩١٥ محرراً في هذه الجريدة (بصرة تايمز) ثم كلف للاشتغال في حاكبة سياسية في جنوب إيران فطلب ويلسن الى فيليبي نفسه ان يتولى تحرير الجريدة مؤقتاً ، ففعل ذلك لأيام معدودة حتى تسلمت المهمة منه المسز لوريمر . وكانت الجريدة تصدر في تلك الأيام باللغتين العربية والانكليزية .

تنشر فيها تستمد من رويتر في الدرجة الأولى ، لكن أصحاب النيات الحسنة من الناس المحليين كانوا يشجعون على الاسهام في الكتابة كذلك . فقد وردت للنشر مثلاً مقالات قيمة من سيد محترم عن معاملة الأتراك للعتبات الشيعية المقدسة . ومع ان انتشار الجريدة لم يكن واسعاً جداً فانما كانت تصل الى جمهور من الناس أوسع مما يدل عليه عدد الجرائد المباعة ، لأن من عادة الجمهور الأمي بالكلية تقريباً أن يأتي شخص منه يجيد القراءة بالجريدة فيقرأ منها الأخبار بصوت عالٍ على الناس الملتفين حوله في المقهى ، وبهذا تقوم جريدة واحدة بخدمة مجموعة من المستمعين . وحينما تحسن تجهيز المطبعة صارت تطبع فيها كراسات باللغة المحلية ، ونشرات كبيرة ، وتستنسخ فيها وثائق محلية مهمة مثل العريضة التي رفعها ضد الأتراك شيعة النجف وكربلا الى ايران . والى جنب الجريدتين العربية والانكليزية اللتين كانتا تصدران يومياً كانت المطبعة تطبع شيئاً أكثر فأكثر من المطبوعات الرسمية الجارية ، العسكرية والمدنية ، بحيث تحسنت اعمال الدوائر التي كان كتاب الطابعة فيها قليلين على الدوام ، وكتاب الاختزال غير معروفين بالمرّة تقريباً .

واتخذت التدابير كذلك لنشر إحدى الجرائد المصرية المعروفة ، التي كانت تستورد وتوزع مجاناً في الأعم الأغلب . وكان يقدر ذلك الجمهور الصغير جداً ، الذي كان يقرأ أشياء أخرى الى جانب البرقيات اليومية .

وقد كان يصل من بغداد في بعض الأحيان لاجيء أو هارب فيأتي معه بأخبار عن جريدة « الاوقات البصرية » التي وجد عدداً منها في إحدى القرى ، وحتى في خيمة من خيام الاعراب في البادية ، وهو في طريقه الى الجنوب . وهذا يدل على ان صوت مطبعة الحكومة كان يسمع في بعض الأحيان فيما وراء حدود المناطق المحتلة . وكان القسم الأكبر من هؤلاء اللاجئين يهوداً محليين ، لكن قليلاً من المسلمين المنتسبين الى أسر مرموقة نجحوا في الفرار الى البصرة في ربيع ١٩١٦ حينما عمد الأتراك الى اتخاذ اجراءات صارمة للقضاء على « احرار بغداد » وتشتيتهم . وقد جاءوا بأخبار تدل على الأمل الذي انتعش في صدورهم

وصدور زملائهم حينما وصلت قوات طاووزيد الى « سلمان باك » ، والاستياء الذي ازداد وقعه بتعقب السلطات العثمانية لقواته المنسحبة^١ بعد ذلك. فخصصت لهم مخصصات مناسبة ، وبتقدم الحرب وزحفنا على بغداد عادوا من جديد الى موطنهم .

شؤون الحصار والعمال

ومهما كانت العناية المتخذة لتخفيف الضغط الذي تفرضه أحوال الحرب على سكان المناطق المحتلة ، طالما كانوا متمسكين بخطة الحياد ، فقد كان من المستحيل على السلطات المختصة ان تتجنب إنزال بعض المتاعب بهم . وربما كانت عملية فرض الحصار من بين هذه المتاعب شيئاً أساسياً للحيلولة دون وصول السلع والأقوات الى أيدي العدو من أسواق البصرة والعمارة والناصرية ، التي أصبحت ملأى بها . وقد امتد الحصار الى الكويت ونجد والى ايران ايضاً ، والى جانب المضايقة الشديدة التي كان يسببها فرض الحصار لسكان العراق أنفسهم فانه قارب ان يهددنا في عدة مناسبات بالقاء الشقاق بيننا وبين أصدقائنا الموثوق بهم ، الذين لم يستطع أتباعهم التخلي عما كانت تغريهم به أرباح التجارة المحرمة . وكانت من الظلامات البسيطة ، المزعجة في نفس الوقت ، ظلامه استملاك الدور للأغراض العسكرية والمدنية . لكن الحاجة الى العمال المحليين كانت على درجة اكبر من الخطورة ، وعلى نفس المقدار من الضرورة. فان السدود وسكك الحديد والطرق وأعمال الميناء ، المتوسعة بمقدار غير يسير في كل يوم ، وإنشاء المعسكرات مع سائر الضروريات العسكرية ، كانت تجبرنا على سحب السكان الزراعيين من بساين النخيل والحقول القابلة للزراعة ، حيث كان الفائض منهم أكثر من الحاجة المطلوبة . ولم يكن الكثير من هذه

(١) تشير المؤلفة بهذا الى ان الحملة البريطانية التي اندفعت من العمارة الى الكوت بقيادة طاووزيد استطاع الأتراك أيقافها في سلمان باك ودحرها بعد ذلك بقيادة خليل باشا . وعند ذلك تراجعت الى الكوت فحاصرها الأتراك ستة أشهر فيها حتى استسلم طاووزيد مع (١٣) ألف جندي .

الأشغال ذا نفع عام، كما كان بعضها ضد المصالح المحلية أيضاً، لكن مقتضيات الحملة كانت تتطلبه . ولم ندخر وسعاً في تخفيف هذا العبء على الناس ، بالاشتراط على العمال بوجوب العودة دورياً الى مواطنهم بعد فترات قصيرة من العمل ، وباتخاذ الترتيبات اللازمة لاسكانهم في مخيمات منتظمة ، مع اطعامهم ودفع الأجور الكافية لهم . فقد وجد ان العمال العرب حينما يعاملون معاملة لائقة يتفوقون على أفواج العمال الهنود المستخدمين في هذه البلاد . وقد شكلت أفواج خاصة ومن العمال العرب والاكراد والاييرانيين باشراف الضباط البريطانيين الذين تعلموا بسرعة كيف يجعلون أنفسهم محبوبين بين الناس الذين يشتغلون بأمرتهم ، ليحصلوا على أحسن النتائج من عملهم . وقلبت منظمة العمل ، التي بدأت باشراف الدوائر المدنية ، الى دائرة عسكرية في ١٩١٦ لأن معظم الأشغال المطلوبة كانت أغراضها عسكرية . لكن واجب تقديم العمال عن طريق الشيوخ بالاقناع أو الطلب بقي في أيدي الحكام السياسيين ، فكانوا ينوعون بحمله على اعترافهم بكونه طلباً لا مناص منه .

الفصل الثالث

تهدة القبائل وعلاقتنا بالشيعة

إلى حين سقوط بغداد

نظرة في أحوال القبائل العربية

كان جهاز الحكم التركي معرضاً من الناحية السياسية لاعتراضات تضاهي في خطورتها الاعتراضات التي توجه لكفائه الادارية . فان سكان البلاد بأجمعها في خارج ضواحي المدن والبلدان المهمة هم سكان عشائريون . وتقوم هذه العشائر بوحداتها الكبيرة أو الصغيرة — وهذه تتحد أحياناً لتكون مجموعات أو جمهرات متفككة ، أو توجد متحدة بمحض الصدفة أحياناً أخرى — بفلاحة الأرض المرواة على طول الأنهر ، ورعي قطعانها في البوادي الفاصلة بين البلدان . وكان قسم منها قد استقر في ما بين النهرين منذ مدة موعلة في القدم ، بينما جاء قسم آخر إليها في غضون المئتين أو الثلاث مئة السنة الأخيرة ، لكنهم كلهم كانوا بدواً في الأصل نشأوا في الفلوات الداخلية من الجزيرة العربية . إذ يعد توارد سكانها غير المنقطع على البلاد ، وتوجههم إلى الشمال من أشد العوامل أهمية في تاريخها . وقد تكون العوامل التي تدفع بسكان هذه

الجزيرة الى الهجرة عوامل معقدة ، لكن العوامل الرئيسة منها لا بد من ان تكون منحصرة في التبدل التدريجي الطارىء على أحوال الجزيرة الجوية ، المنظوي على الجفاف المقترن بضغط السكان المتزايد على تربة تزداد جذباً وضعفاً يوماً بعد يوم . فقد كانت مراعي الحدود السورية الممرعة ، وخصوبة ما بين النهرين غير الناضبة ، بالنسبة للبدو المبتلين بالمجاعة مواطن مغرية لا يمكن ان يصدوا أنفسهم عنها . وكانوا يجدون الفرص للتوسع بضعف الولايات الشمالية المجاورة وأعيانها السياسي ، سواء أكانت تركية أو بيزنطية ، أو إيرانية التبعية أو غيرها . وتساعدنا مدونات التاريخ البابلي الطويلة في اقتفاء أثر هذه العملية الى أقدم أدوارها التاريخية ، كما تدلنا دراسة الأحوال الراهنة على أنها كانت ما تزال مجدة في سيرها حتى حقبة متأخرة من الزمن ، ولو كان بوسعنا ان نجازف بالتكهن عن المستقبل لقلنا أنها سوف لا تتوقف برغم ان طبيعة الهجرة قد تتبدل . فقد تجد نفوس الجزيرة العربية الفائضة في العراق ، المتكوّن بالحكم الصالح من جديد ، لا وسائل عيش رخي حسب بل قد تجد أيضاً إمكانات واسعة المدى من التقدم الاجتماعي والعقلي ، بدلاً من أن تكتسح مزارع الحبوب والمراعي على شكل جموع متلفة مدمرة كما يفعل الجراد . وعندئذ يُرحّب بها في بلاد يمكن الانتفاع من خيراتها ومواردها غير المحدودة بقدر ما يتوفر فيها من الأيدي العاملة .

وقد كانت عملية قلب الجمالين ومربي الابل الى فلاحين يزرعون الأرض ويدارون التربة ، كما حصل في ما بين النهرين ، عملية لا مناص منها . إذ وجدت القبائل في تقدمها الى الشمال نفسها في الأخير على حواشي البادية ، ولم تعد الأصقاع الشاسعة الضرورية للوجود البدوي تمتد أمامهم ، بينما كان ضغط القادمين من ورائهم والمقتفين أثرهم في الرحيل يحول دون عودتهم الى مواطنهم الأصلية . وبذلك كانوا مجبرين على الالتفات الى الزراعة واتخاذها وسيلة لمعيشتهم . ولهذا السبب أضاعوا صبغتهم البدوية الخالصة . ومع هذا ، فبرغم أن هؤلاء الأخيرين ظلوا بأنفوسهم يتزوجون مع فالحى الأرض والرعاة

ومربي الخاموس ، فقد بقي نفس الدم يجري في عروقهم ، وظلوا يخضعون لنفس العادات والتقاليد . فكثيراً ما نجد هنا وهناك شراذم من القبائل العربية المشهورة العريقة في القدم منتشرة بين الفلاحين الذين يفلحون الأرض على طريق الهجرة العربية . وهكذا نجد في العراق أن بني تميم ، الذين تفرقوا الى جماعات كبيرة عديدة ، كانوا سادة في أواسط الجزيرة العربية بأجمعها قبل بعث النبي العربي وما زالوا يكونون قسماً كبيراً من سكان الواحات هناك - ويرجع أول ظهورهم في العراق والى بداية الحقبة المحمدية . كما نجد الخزرج ، الذين يوجدون الآن على ضفاف دجلة في شمال بغداد غالباً ، يزودون بمآثرهم العسكرية الخالدة البوادي الجنوبية بكثير من الجليل الرومانيكي من شعراء ما قبل الاسلام .

ويستنتج من الأحوال التي كان يتأثر بها استيطان القبائل ان العشائر السابقة الى الاستيطان كثيراً ما تنتشر انتشاراً واسعاً على حواشي البلاد المزروعة بوحدات كبيرة كانت تمتد في زمن من الأزمان في مساحات شاسعة من البادية ، فتجزأت ودخلت بينها عشائر أخرى . فقبيلة الجبور مثلاً ، التي هي اليوم قبيلة نصف بدوية فقط ، تنتشر على طول دجلة الى شمال الموصل ، كما تنتشر في منطقة الفرات وحدود سورية ، وكذلك تفعل قبيلة زبيد التي تنقسم ما بين العراق والمناطق البركانية الكائنة في شرقي الشام .

والانتقال من الحالة البدوية الى حياة الاستيطان هو عملية بطيئة على الدوام ، ولم يؤد الاطمئنان المشكوك فيه تحت ظل الحكم التركي الى الاسراع به . فأننا نجد فيما عدا المناطق المحيطة بالمدن الكبيرة مباشرة ، كبغداد والبصرة ، ان المجتمعات العشائرية بقيت غير متفككة ، يسود بين ظهرانيها القانون القبلي والعادات العشائرية ، وبقيت خصومات الدم والثأر الى عامين خلياً شيئاً مقلقاً . ويشيع الآن الرجوع الى حياة الخيم بين حين وآخر ، وما زالت حتى القرى القصيبة نصف بدوية لأنها تنقل من مكان الى آخر بين مدة وأخرى من الزمن . وعلى هذا فان راسم الخريطة المتحير قد يجد المكان الذي أضافه الى معرفته

الجغرافية انتقل ، على مرأى منه تقريباً ، من نقطة عينها في مسحه الى موقع آخر . غير ان ارتفاع ثمن الارض قد يؤدي الى استقرار مربّي الحيوانات المتنقلين هؤلاء ، وما يعتمدون ان يستوطنوا مكاناً ما حتى يزداد عددهم بصورة لا تتناسب مطلقاً مع ما يجري عند اخوانهم الجياع الأنثى في الفلوات الذين لا يحرقون الارض ولا يحصدون شيئاً منها .

والسكان العشائريون في ما بين النهرين الآن تبدو بين ظهرانيهم جميع درجات الانتقال من حالة البداوة الى حياة الاستيطان وفلاحة الارض . فهناك قبائل ما زالت بدوية قحّة لم تضع يدها على المحراث بعد ، وغيرها منصرفة الى العناية ببساتين نخيلها وحقول القمح والرز ، وهناك قبائل اخرى تجمع بين الزراعة ورعي الحيوانات فتبعث بنصف عددها عند هطول مطر الشتاء في كل سنة لرعي أغنامها في البادية . وتوجد في الأهوار مجموعات صغيرة تعيش عيشة برمائية تقريباً كما يعيش جاموسها ، فتقتات على صيد الاسماك وحياسة الحصر القصية .

وتكاد المجتمعات العشائرية من رأس الخليج العربي الى القرنة ان تتلاشى ، عدا ان كثيراً من الفلاحين الذين يشتغلون في بساتين النخيل ينتمون الى حليفنا الباسل المقيم على الضفة الايرانية من الشط والذي حافظ في السابق على حقه في تعبثهم من اجل حركاته العشائرية نفسه .

وفيما يقرب من القرنة الى بغداد تقريباً تقطن أراضي دجلة سلسلة من القبائل المهمة : فيقطن الى حد العمارة البو محمد ، ويقطن في شمالهم بنولام فيصل حدهم الى شيخ سعد تقريباً ، ثم تحيط قبائل ربيعة بالكوت فتصل الى ما يقرب من البغيلة (النعمانية) . وتنزل على طول الفرات من بحيرة

(١) لا شك أن المقصود بذلك هو المرحوم الشيخ خزعل أمير عربستان في المحمرة ، ومع انه كان حليفاً باسلاً لبريطانية فانها لم تلتزمه ، ولم تبادر الى نجدة حينما قوض رضا شاه البهلوي امارته العربية فازالها من الوجود وألحقها بيران .

الحمار الى منتصف الطريق بين الناصرية والعمارة على الضفتين مجموعة قبائل المتنك .

والشيوخ على مثل هؤلاء السكان سلطة تتناسب مع مراكزهم الوراثة وقابليتهم الشخصية ، لكن الموظفين العثمانيين لم يكن يوسعهم ان يفرضوا سيطرتهم على القبائل التي سرعان ما كانت تختفي ان أرادت في الأهوار او البادية حيث يستحيل تعقبهم . وبدلاً من ان يستخدم الأتراك سلطة الشيوخ كانوا يتبعون سياستهم التقليدية في محاولة تحسين مركزهم بالقضاء على الموجود من العناصر المحلية التي تحافظ على الأمن والاستقرار . وكانت الحالة في ولاية البصرة تعطي صورة شاملة للقوضى والاضطراب . فقد حوفظ في منطقة دجلة على سيطرة متقطعة بالاستفادة من العداوات الموروثة بين المجموعات القبائلية الكبيرة واللعب بالخصومة الشخصية الموجودة بين أفراد الأسر المالكة فيها . اما معرفة التركي للسلطة الحقيقية الموجودة في كل منطقة ، وتسخيرها في خدمته ، فذلك شيء يقع خارج نطاق تفكيره . وخير ما يمكن ان يقال عن جلوسه غير المريح في وسط الدوامة هو أنه استطاع الجلوس في وسطها . اما في وادي الفرات فيمكن الاعتراف بصراحة بأن التركي قد أزيح عن مقعده المذكور .

واذا كانت المفهومة المضللة التي كانت تربط الامبراطورية بالمتنك السائد تعتبر شيئاً واقعاً في يوم من الايام ، فانما كان ذلك في بلاد مقطعة الأوصال مجزأة إلى عدد كبير من الوحدات الصغيرة المشحونة بالخصومات والعداوات القديمة . فان المنطقة الممتدة من القرنة الى الناصرية ، وما فيها من مستنقعات وأهوار الشلب وبساتين النخيل والبادية ، تسكنها الآن حوالي خمسين قبيلة مختلفة ذات أصل مختلف كانت كل منها تؤلف في وقت من الأوقات جزءاً من مجموعة قبائل المتنك في ظل الأسرة الحجازية الجبارة ، أسرة السعدون^١ ،

(١) جاء في (ذكرى السعدون) نلاحظ على الشرقي ان آل السعدون أسرة شريفة جاءت الى العراق من الحجاز في أوائل القرن العاشر للهجرة وأسست فيه إمارة كبرى دامت . . . سنة تقريباً ، وتولى من أبنائها الزعامة شيوخ كثيرون يبلغ عددهم (٢٢) شيخاً . وهم قوم يرجعون بأنفسهم الى الحجاز =

بينما لا تزال أغلبها تكون في الاسم ذلك الاتحاد المشهور . ويتشعب السعدونيون

وبأنسابهم إلى أشراف الحجاز ، وأكبر دليل على حجازيتهم أنهم على مذهب مالك ولا موالك في العراق . والظاهر أنهم من أشراف المدينة ، بدلالة عدة أمور منها الوسم الذي يسم به آل سعدون أبليهم ويسمونه (شيبية) وهو قريب من الوسم المعروف عند أشراف المدينة . ومنها أيضاً شجرة النسب الموجودة عند آل علي من السعدونيين ، وهو بيت المرحوم عبد المحسن بك السعدون ، ومنها أيضاً شهادة الملك حسين (شريف مكة) بذلك ، ومنها مظاهر هبوطهم إلى العراق التي كانت تدل على أنها مظاهر أشراف علويين ، لأن زعيم بني خالد الذين يتبسون إلى بني مالك لا يمكن أن يزوج ابنته من مستجير بهم مستضعف ما لم يكن عظيماً في نسبه شريفاً في حسبه . ولو لم يكن الرجل شريفاً ونسبه أعلى من كل نسب لما استسلمت المنتفق له . وتوجد في عادات آل سعدون وألقابهم دلالات جلية على أن القوم أشراف علويون ، منها عدم تزويج بناتهم إلا لأبنائهم فلا يزوجون أكبر شريف من أشراف العرب بنتاً من بناتهم ، إذا كانت سعدونية محضة .

وأمر السعدون هي فرع من دوحة كبيرة تعرف باسم (آل شيب) . فالشيخ سعدون آل محمد هو الأب الثاني لهذه العائلة ، وهو من أحفاد شيب . وقد انتقلت المشيخة من آل شيب إلى السعدونيين فبقيت فيهم وحدهم . وصارت تترد في أحفاد محمد بن ثامر السعدون آل محمد وثوئي العبد الله .

وتروى عن كيفية زواج آل شيب إلى العراق القصة التالية : كان من جملة أشراف الحجاز في القرن التاسع الهجري أخوة أربعة ، حسن ومسرور ومهنا وبركات . وكانت للشریف حسن بنت اسمها (نورة) وابن اسمه شيب ، فوقع شجار بين الأخوة الأشراف يقال أن سببه اختلاف حصل بين حسن وأخيه مسرور الذي رغب في تزويج نورة من أحد أولاده . فامتنع الشریف حسن عن ذلك لأن أولاد أخيه كانوا أبناء أمه (عبده) . فأدى هذا إلى تفرق شمل الأخوة الأربعة ، فذهب منها إلى تونس ، وبركات إلى إيران ، وبقي مسرور في الحجاز . أما الشریف حسن فقد غادر المدينة إلى نجد وأنشأ فيها قرية سميت باسم ولده (الشيبية) بالقرب من عنيزة وأخذ يسم أبله بسمه معروفة إلى الآن عند المنتفق وآل سعدون تسمى (الشيبية) كذلك . ومات بعد هذا ولده ، ثم ماتت نورة التي ما يزال نعار قبائل المنتفق باسمها فيقولون (أنا آخر نورة) ، فجزع الأب من الإقامة في نجد ورحل من الشيبية إلى ديار بني مالك إحدى قبائل المنتفق في الباطن . وقد استجار بزعمهم شيخان بن خصيفة فأجاره وأحسن إليه . ثم تزوج الشریف حسن بابنة زعيم بني خالد وهم رهط من بني مالك فولدت له محمداً وعبد الله وشيباً . وبعد أن شب أولاده وحملوا الأبهة والسلاح تجمل بهم . ولكن وقعت معركة بين آل أجود وبني مالك فقتل فيها ولده عبد الله ، وبعد أن هدأت الحال رغب آل أجود في مصالحة بني مالك لكن بني مالك أبوا المصالحة إلا بعد إرضاء الشریف حسن عن ولده القتيل رعاية لدمامه . وحاول آل أجود إرضاء الشریف بكل الوسائل ، لكنه ظل يمتنع ويماطل حتى قال لهم : نحن لا نقبل الدية عن دماننا الكريمة . وأخيراً

من أسرة مكية تقرب في نسبها من الشريف اقتراباً كبيراً ، وقد هاجرت دوحه من تلك الشجرة الى العراق في نهاية العصر العباسي ، اي في بداية القرن الخامس عشر . فثبتت أقدامها وهي سنية المذهب ، بين القبائل الشيعية وسيطرت عليها ثم لعبت دوراً لا يستهان به في تاريخ المنطقة الحافل . حتى ان الباب العالي ، حاول ، بالنسبة لاحد^١ أفراد هذه الاسرة الذي قدّم خدمات ممتازة لها في الجزيرة العربية ، تعيينه والياً في ولاية البصرة لولا ان يثبت خطل ذلك فيترك الامر . وقد تضاعفت سطوة السعدونيين في السنين الاخيرة كأسرة مالكة بالنظر للانشقاق الذي حصل بينها وللخصومات الداخلية التي استفحل أمرها ، فكانت المنتفك بذلك خير حقل تزرع فيه الحكومة العثمانية بذور سياستها الرامية الى تفكيك القبائل . فقد كان كل شيخ منهم يظهر مقدرة فائقة تثير الحسد الرسمي فيقابل بالخصومة والدس . وكانت ثمار مجموعة منهم ضد أخرى و قبيلة على غيرها ، وفريق منهم ضد آخر ، حتى قويت سورة النزاع فغدا من الصعب على جاني الضريبة التركي او على التاجر او السائح ان يحافظوا على سلامتهم في تلك البلاد . فبنى كل رئيس مغمور قلعة من الطين لنفسه وأخذ يتحدى بها كل من كان يدخل في ضمن عالمه ، او يخف مسرعاً في مشحوفه الخفيف لينهب جيرانه والغرباء المستطرقين في الحور وفي النهر .

وتنطوي جذور هذا النزاع والاضطراب القبائلي في الجهاز العثماني الذي

= قبل الترضية بشروط ثقيلة قال فيها :

- ١ - أن لا أنهض احتراماً لكل وارد منكم .
 - ٢ - ان تكون تحية الوارد منكم علي تقبيل يدي .
 - ٣ - أن تكون لي عندكم جباية في كل ربيع شاتان : منيحة وذبيحة على كل بيت .
 - ٤ - ان تكون الشروط نافذة على بني مالك وآل أجود معاً .
 - ٥ - ان تكون هذه الامتيازات لي ولأولادي وأحفادي ما تعاقبوا .
- ومع أن القوم قد تناقلوا عند سماع الشروط فقد رضخوا لها في الأخير ، وقبلوا بها كرامة لحقوق الجار . فذهبت بهذا زعامة ضد مفاء الأحلام ضحية وقائمهم وجهلهم بمغبة الأمور .
- (١) هو ناصر باشا السعدون الذي ساعد العثمانيين في احتلال نجد .

صنع لحل مشاكل الارض ، ذلك الجهاز الذي كان مفهوماً لدى العثمانيين
فهماً لا يقدر تقديرأ كافيأ الحقوق المكتسبة التي كانت موجودة قبل الفتح التركي
للبلاد . فقد جاءت القبائل العربية الى هذه البلاد بموجات متعاقبة يرجع تاريخها
الى حقب تسبق قدوم الاتراك بمدة طويلة من الزمن ، فاستوطنوا في الارض
ومن لم يستوطن فيها منهم حدد له فيها مناطق نفوذ بدأت كل قبيلة تعتبرها
ملكاً لها ، اعتباراً لا يتفق في معناه مع مفهوم الاتراك أنفسهم للملك وانما كان
ملكاً بمعنى انه لا يجوز لغير أفراد تلك القبيلة على الأقل ان ينتجعوا الكلاً فيه
او يفلحوه . فكان الاتراك يتجاهلون على قدر الامكان مثل هذه الادعاءات
التي كانت تتنافى ونظرية الفاتحين العثمانيين التي تعتبر جميع الاراضي المستولى
عليها أملاكاً أميرية .

ومما يطبع العراق بطابع خاص عدم تشابه كل منطقة لأخرى تشابهاً تاماً ،
بالنسبة لالتزام الارض والتصرف بها ، ولحماية الضرائب عن منتجائها التي تكون
المورد الرئيس لواردات الحكومة . فهناك مثلاً اختلافات كثيرة في هذا الشأن
بين العمارة والناصرية . إذ تعتبر معظم أراضي دجلة أراضي « سنية » تملكها
الحكومة الآن ، وتؤجرها بالالتزام بصفة مقاطعات كبيرة لمدة خمس سنوات
في كل مرة . وكان اختيار المستأجر اختياراً لا حدود له من الوجهة النظرية ،
اما عملياً فقد كان من الصعب والمخطر على شيخ من شيوخ قبيلة ما او على
شخص من سكان المدن ان يدير مقاطعة يستأجرها في منطقة تعد خاضعة للاحتلال
التقليدي الذي تفرضه عشيرة اخرى . وعلى هذا كان المستأجرون ، من دون
استثناء تقريباً ، هم كبار الشيوخ المحليين الذين يحكمون تلك القبيلة المسيطرة
على المنطقة . وعلى كل شيخ اذا أراد المحافظة على منزلته ومركزه ان يلتزم
مساحة من الارض تكفي لتشغيل أتباعه والمتعلقين به ، وهو بعمله هذا يجازف
بمشرّعه لانه قد يراهم بأمر رأسه يتخلون عن خدمته ويتركونه ليقدموا خدماتهم
الى سيد آخر . وقد استفاد الاتراك من وضع الشيوخ هذا فوضعوا تأجير الأراضي
بالمزايدة ثم شجعوا الشيوخ على ان يزايد احدهم ضد الآخر حتى يصل بدل

الايجار مبلغاً يفوق قيمة المقاطعة بكثير . وكان الموظفون الاتراك والمليزمون معاً على علم تام بأنهم سوف يتعسر عليهم استحصال حقوقهم ، لكن الموظفين كانوا يُسرون بأن يعرضوا على رؤساء دوائهم في استانبول تحقيقات جسيمة من ولايتهم لأنها تعتبر في نظرهم كأنها واردات جسيمة ايضاً ، كما كانوا في الوقت نفسه يتمتعون بقبض الرشاوى المستمرة من الملتزمين عن اقناعهم بعدم الاصرار على الدفع . يضاف الى ذلك ان الملتزمين كانوا بحاجة الى ان تدعمهم في موقفهم هذا كفالة التجار الذين كانوا يتقاضون منهم مبالغ طائلة . وعندما تراكم ، في الاخير ، البقايا الجسيمة غير المستحصلة من الملتزم ، او عندما يكون ذلك الملتزم قد أصيب بغضب احد الموظفين عليه وعدائه الشخصي له او بعدم رضا الحكومة عنه فان البنيان كله كان ينقلب رأساً على عقب . إذ تبدأ الحكومة بمطالبة الملتزم بتسديد جميع البقايا مرة واحدة ، وعندئذ ينتقل الملتزم اذا كان شيخاً من الثورة الى السجن او المنفى وتصادر الأراضي وأملاك الكفيل ، ثم توضع المقاطعة في المزايدة من جديد وتؤجر ببذل ايجار أعلى وأكثر صعوبة في التحصيل الى خصوم الملتزم المعزول . وعلى هذا كان من النادر ان تمر سنة من دون حدوث تصادم من هذا القبيل . وعند ذاك كان الطريق النهري في دجلة ، وهو الطريق التجاري الرئيس بين بغداد والبحر ، تقطعه شيوخ أبو محمد او بني لام الثائرين ، الذين يعلنون عن ظلاماتهم العادلة بقطع المواصلات واطلاق النار على البواخر النهرية .

وكانت غلطات الحكومة العثمانية في الفرات أعظم شأنًا من الوجهة الاساسية . إذ كانت قبائل المنتفك قد اعترفت بسيادة السعدونيين عليها طالما كان هؤلاء قانعين من السيادة بالجزية والخدمة العسكرية وشرف الرئاسة فقط ، وهي أمور كانت القبائل التي تمتلك الارض منذ مدة موعلة في القدم تعترف بها اعترافاً متفاوتاً . لكن علاقة مالك الارض العشائري ، بموجب تملكه التقليدي المعروف لها ، بسيدته التقليدي لم تتفق مع التعريف العثماني لحقوق التملك ، وفي ١٨٧١ قام مدحت باشا والي بغداد أوأانئذ بتسويتها على الطريقة التركية .

فقسمت أراضي القبائل بين الحكومة والسعدونيين ، ثم سجلت بصورة غير مضبوطة جداً بموجب سندات تملك تركية . فوجدت القبائل نفسها انها قد افقرت وأصبح أفرادها في عداد المستأجرين بعد ان كانوا هم المالكين ، ثم بادل السعدونيون إمتيازاتهم القديمة وحقوقهم الخاصة ، وقد أصبحوا يقومون بدور جديد كمالكين للأرض ، بتعصيد الحكومة لهم تعصيماً مشكوكاً فيه . فلم تعترف القبائل بهذا التغيير ولم تهدأ لها ثائرة . فقد أدامت القلاقل العشائرية الخطيرة في منطقة المنتفك ثورة مضطربة ، وانتهت المحاولات المبذولة لقمع الثوار باخفاق القوات العثمانية كما كان يجري في كثير من الاحيان ، وبعد ان ضعفت الحكومة المركزية بنتيجة الحرب الايطالية والبلغارية لم يتوفق السعدونيون ولا الحكومة في ان يجمعوا من بدلات الايجار الا النزر اليسير .

منطقة العمارة

لقد نقل الاتراك من منطقة العمارة جميع السجلات أو أتلفوها ، ولم نجد في دوائر البصرة الا قطعة ممزقة من الورق ملقاة في احدى الزوايا لتدلنا على واردات المنطقة او بدلات الايجار الاسمية للمقاطعات . وعندما استولينا على العمارة في شهر حزيران كانت حاصلات الربيع قد انتهت جنبها فكانت ملقاة في ساحات الدياسة . وكان الشيوخ والملازمون ، الذين لم يدفع أحد منهم بدل الايجار الى الاتراك عن حاصلات الربيع ، قد أخبرهم رئيس الحكام السياسيين بأن السلطات البريطانية سوف تسمح لهم بالاستمرار على استثمار مقاطعاتهم بشرط ان يسلكوا سلوكاً حسناً . وقد دعوا الى الاجتماع في العمارة لبحثوا مع ناظر الواردات^١ أحوال مقاطعاتهم ، وأقنع أكثرهم بأبراز عقودهم برغم ادعاء بعضهم بضياعها . وكانت حرارة الجو لا تسمح باجراء تفتيش متقن على جميع الاراضي ، لكن تخميناً تقريبياً أمكن إعداده عن مقدار ما يمكن

(١) Revenue Commissioner المستر هنري دويس .

أخذه من المال من كل مقاطعة لمقارنته بالتحقيقات الاسمية التي أعدت في عهد الاتراك . وبعد ان رُفعت الى قائد الجيش جميع المعلومات التي أمكن العثور عليها صادق على التخفيضات التي أوصي بها . فكانت هذه التخفيضات في عدة حالات تخفيضات كثيرة تصل الى حد النصف . وأخبر الشيوخ بأن المبالغ التي عينت تعتبر مبالغ وقتية حتى يمكن اجراء تحقيقات اكثر إتقاناً من قبل . ثم شطبت في الوقت نفسه البقايا الجسيمة التي كانت ما تزال مقيدة . وبعد اجراء تفتيش أدق في خريف ١٩١٥ - ١٦ وشتائه أجريت تخفيضات^١ أخرى ، نزاعات الحدود العنيفة بين الشيوخ ، ثم دقت قضايا تجاوز الملاكين على الاراضي الأميرية . غير ان صد التقدم البريطاني الى بغداد في سلمان باك جعل موقف بعض الشيوخ موقفاً مشكوكاً فيه ، وحالت قلة المواصلات النهرية دون بيعهم حاصلات الخريف الى التجار . وقد ارتوي من السياسة ان يَشدد على قدر الامكان في دفع الرسوم ، لكنه كان من الصعب الضغط بصورة شديدة على الملتزمين ، فكانت النتيجة انه لم يجمع من التحقيقات المخفضة الا ثلثها .

وقد خدم الادارة هنا ، وفي معالجة شؤون منطقة الناصرية ، المسر هنري دوبس ناظر الواردات خدمةً جلي . فقد كان هو الذي قام بأول دراسة للأحوال الزراعية ، فمكّنه نظره الثاقب الممزوج بالمعرفة التامة لاهوال القبائل من التمييز بين مختلف القضايا في الشؤون الزراعية . فكوّنت نتائج دراسته وملاحظاته ، المدونة في سلسلة من المذكرات الشيقة ، أسس أعمال الواردات التي جرت بعد ذلك .

وقد أثبتت النتائج صحة الخطوط الرئيسة للسياسة التي اتخذت في هذا الشأن حيث اننا لم نتمكن بحدوث أي اضطراب خطير في منطقة دجلة اللهم الا ما

(١) يظهر من التقارير والكتب الكثيرة التي كتبت في هذا الشأن ان التخفيضات والاعفاءات الكثيرة التي أجريت كان الباعث عليها عوامل سياسية ترمي الى مصانعة الشيوخ ومجاملتهم في مثل هذا الدور من ادوار الحرب .

كان يحدث بين حين وآخر من قيام سكان بعض الاهوار المشردين وقطعهم خطوط التلغراف او نهبهم للذخائر الحكومية من السفن والزوارق المحلية الراسية في الساحل للمبيت . وقد خضع واحد او اثنان من الشيوخ الصغار لاستمالة العثمانيين واقناعهم ، لكن الشيوخ البارزين ، باستثناء الرؤساء الذين كانوا على اتصال مباشر بالجيش التركي ، ظلوا مقيمين على ولائهم لنا بثبات وصلابة فتقبلوا مسؤولية الامن في الطرق النهرية التي تمر في اراضيهم ، وتحملوا من دون تدمير في غير محله التشديدات التي فرضتها عليهم حالة الحرب ، ثم استجابوا للطلبات الثقيلة التي كانت تجبرنا الظروف العسكرية بموجبها على طلب العمال منهم ولو كان ذلك مضرّاً بزراعتهم . وبازدياد تعرفهم على الحكام السياسيين المشرفين على مناطقهم أخذوا يولونهم ثقتهم ، وصاروا يعتبرون « الحكومة المعظمة » عن طريقهم شيئاً مفيداً يستهدف الخير بوجه عام . وصار بإمكان هذا الشيخ او ذاك ان يخف بمشحوفه في دجلة لمواجهة « كوكس » ، كما صار بالإمكان دعوة من يسوء حظه منهم الى المقر العام ليقبض منه . فكنت تلاحظهم وهم رجال ضخام ، أطعموا بكثرة وألبسوا بغناء ، جاءوا برائحة اراضيهم الحصبة الى الغرف الصغيرة المغبرة التي كان يكافح فيها رئيس الحكام السياسيين وموظفوه النحيفون سيلاً متصاعداً من ملفات الدائرة . وقد كانوا وهم بوضعهم هذا خير دليل على قناعتهم بأولئك الذين أمروا عليهم . فقد قال أحد شيوخ أبو محمد عن حاكمه السياسي في المنطقة بأنه « حاكم جيد ، لم أدخل إلى مكتبه مرة الا ورأيتة يستقبلني استقبالاً حاراً » . واذ شجعتة المعاملة الحسنة التي كان يلقاها من الانكليز أينما ذهب ، جاء بأخيه المريض ، الذي قضى حياته في مناجزة الاتراك مناجزة فعالة ، ليموت أخيراً في أحضان حكومة البصرة البريطانية .

منطقة الناصرية

اما في القرى فلم يكن التقدم بمثل هذه السرعة . فنادر ما كانت الحرب تزيد في الفوضى التي كانت تضرب اطنابها في المنطقة ، لكن تقرب الأتراك

الأكثر من الناصرية جعل الحرب أشد إقلاقاً فيها من العمارة . فقد بقيت المخافر التركية قريبة من الناصرية بحيث يمكن رؤيتها على بعد الى حين زحف الجيش على بغداد في ١٩١٧ ، وكان أحد القواد الاتراك الفعاليين ، مظهر باشا الجركسي ، يقوم باتصال مستمر من الشرطة الكائنة على شط الحي مع القبائل . كما كان عجمي السعدون المرابط في البادية الى الجنوب هدفاً ملائماً تران الى أبصار المتبرمين من بعيد . فظلت بذلك المعارضة العشائرية عاملاً مثيراً لعدة أشهر ، أثر تأثيراً شديداً على صبر السلطات العسكرية . يضاف الى ذلك ان الدسائس التركية ، والاموال التركية والالمانية المدعومة بالوعود المغرية للمستقبل ، قد أدامت كلها ثوراناً مقيماً ، اذا لم يكن عديم الحدود نسبياً ، بين القبائل فأدى ذلك كله الى وقوع غارات صغيرة على خطوط المواصلات ، وقطع الخطوط التلغرافية ، وحصول إزعاجات طفيفة أخرى مماثلة . وقد كانت للقبائل ، بالإضافة الى ذلك ، ظلمات محقة برغم كونها مستحيلة التحاشي . فان حالة الحصار الشديد الضرورية لمنع الاتصال بالعدو كانت شيئاً مزعجاً للسكان ، كما ان الارباح الطائلة التي كان يمكن جنيها بالتهرب من حالة الحصار هذه كانت شيئاً مغرياً على الدوام . وقد قل إنتاج الرز في مزارعه الخاصة المحيطة بسوق الشيوخ بصورة خطيرة لعدم توفر الماء الكافي له ، ذلك الماء الذي قل بسبب الضرورة التي كانت تحم على السلطات إجراء الماء بصورة مستمرة في الطريق المائي الذي يتشعب من بحيرة الحمار لأنه كان الطريق الوحيد الى الناصرية .

ولم يحاول أحد في بداية الأمر جباية الضرائب التي عجز الاتراك عنها منذ سنين خلت . ودفعت ملاكي الارض السعدونيين ، الذين كانوا ينظرون اليها في مساعدتهم على استحصال ما يستحقونه من الرسوم التي كان العهد العثماني عاجزاً عن استحصالها لهم ، مخصصات معيشة عند الحاجة انتظاراً لتسوية الادعاءات المتضاربة بينهم وبين القبائل تسوية عادلة كانت تستدعي اجراء دراسة تفصيلية ومسح زراعي . فقلت الفوضى بين القبائل بالتدريج واستتب في مكانها نوع من أنواع الأمن ، ثم اعترف بالرؤساء المتنفذين وجعلوا

مسؤولين عن أتباعهم لقاء هبة مالية كانت تدفع اليهم . وشجع التحكيم على أساس العرف العشائري ، كما حسمت المنازعات الطفيفة حول الحدود ، وحكم بقضايا الثأر والدم بمعونة الشيوخ والسادة وسويت الخصومات البسيطة تسوية صلحية . على ان معالجة قضايا الخارجين على الحكومة والمعكرين صفو الامن كانت معالجة يقيد بها الخوف من إثارة ما يورط الحركات العسكرية التي كانت تجري في مكان آخر ، لكن بعض المناسبات استدعت تهديم قلعة من القلاع او تسليم بعض العابثين الى العدالة من غير ان يؤازر السلطة المدنية في ذلك سوى عدد قليل من الحراس العشائريين . وقد أتاح لنا تجنيد قطعة صغيرة من خيالة ابناء العشائر باشراف السلطات العسكرية ، وتسليمها بعد ذلك الى السلطات المدنية ، فرصة مناسبة لاستخدام ابناء الشيوخ وأفراد الاسرة السعدونية الذين جعلهم كبرياء نسبهم وتقاليدهم في القتال في معزل عن اي مساهمة اخرى في حكم البلاد . وبعد مرور سنة واحدة بدأ الناس يقدرّون فوائد الحكومة التي كان بوسعها على الاقل ان تقدم لهم شيئاً لقاء تشددها في جباية الضرائب . فنفض عن الاسواق غبار الخراب الذي كان الاتراك يرتضونه لها ، وفتحت المدارس كما شرعت المستوصفات في عملها وشجع بناء السدود الضرورية ، ثم سمح قمع الفوضى للفلاح والتاجر ان يستأنفا عملهما من دون إزعاج . فكان اللصوص المحليون أول من أعجب بالحصافة التي كانت تسيطر الحكام السياسيين في المحافظة على الأمن وفرض النظام ، فأدى هذا بأحد الشيوخ الذين كانوا شوكة في جسم الموظفين العثمانيين الى أن يصرخ قائلاً : « ان بين العرب عدداً كبيراً من النصابين والكذابين ، لكن حاكماً يعرف كيف يفرق بين الخير والشر » . ولما كان العربي سريعاً في استخراج الاستنتاجات فقد بدأ يقارن بين النشاط البريطاني البناء والحمود التركي المعيق . فقد صرح احد شيوخ منطقة سوق الشيوخ في هذا الباب يقول « انهم خربوا لكنكم تعمرون » . فان انشاء سكة الحديد من البصرة قد جاء بالعجائب في تهدئة القبائل . وعندما اقترب رأس الخط من الناصرية أخذ سكان المدن وأبناء القبائل

يقصدونه للتفرج ، وعندما فتح الخط لسير القطار كان الحصول على أذن بالسفر في القطار شيئاً يشتهى .

وقبل ان تبدأ الحركات التي أدت الى استرداد الكوت واحتلال بغداد لم تكن ثمار النصر المقدسة في الفرات الاسفل أقل من تلك الثمار التي تكسبت في دجلة السفلى . فقد تكون المعاملة المنصفة التي عوملت بها القبائل هي التي رجحت لهم نبذ الاحتفاظ بالعلاقات مع العدو ، ولا سيما بعد المعاملة القاسية التي عامل بها الاتراك أهالي الكوت عندما اضطر الجنرال طاوونز ند الى تسليمها في ١٩١٦ . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً اتضح لأبسط الناس اتضاحاً بيناً ان نبذ الانحياز الى الجانب التركي كان يعني الموت لمن تطوح به الاقدار فتوقعه بيد العثمانيين او ، على الاقل ، النفي بحالة تضاهي الحكم بالاعدام في قساوتها . بينما كانت أقصى عقوبة تنزل بمن يحثث بوعوده للبريطانيين إعتقاله في الهند لمدة بضع سنوات في معتقلات مريحة .

لكننا إذا كنا قد اخطأنا فقد اخطأنا ونحن في الجانب المحق . حيث أننا تمسكنا بالنظرية التي أعلنت للملأ في أول بيان أصدرناه عند نزولنا في سواحل شط العرب ، وهي اننا لم نكن في حالة حرب مع العنصر العربي وانما كنا نتعاون معهم من أجل تحريرهم من تعسف الاتراك فأغضنا عيوننا بقدر ما كان ممكناً من حيث سلامة قواتنا ، عن التعديات الطفيفة ووقرنا آذاننا عن أقوال المتجسسين ، فكوفئنا على سياستنا هذه في الأيام السود التي مرت علينا في ١٩١٥ بعد التقهقر الذي بدأ في سلمان باك ، وفي الاشهر الأشد سواداً التي أعقبت تسليمنا للكوت . وبرغم انحياز رؤساء القبائل ، الذين قدموا خضوعهم الينا عندما تقدمنا الى سلمان باك ، الى الاتراك مجدداً عند عودتهم ، وبرغم ان هذه القصة التي لا مناص منها قد تكررت بعد سقوط الكوت ايضاً ، فان القبائل الموجودة في ضمن « المناطق المحتلة » والبعيدة عن الضغط التركي ، لم تتأثر بما وقع تأثراً يذكر . كما لم تتعرض خطوطنا للخطر مطلقاً ، ولم يزعج تقدم الادارة الملكية شيء .

شؤون الجزيرة العربية

وكان ما حافظنا عليه من العلاقات بالقبائل البدوية السُّنية في جزيرة العرب يتصل اتصالاً وثيقاً بتعاملنا مع المجتمعات الشيعية المستوطنة ونصف المستوطنة في منطقة الفرات . فكان أول من اتصل بنا مجموعة قبائل الضفير الصغيرة ، غير البدوية برغم تجوالها وعدم استقرارها ، التي تسكن البوادي المحاذية للجهات الجنوبية من الفرات مباشرة لترعى حيواناتها في المراعي الممتدة على طول ضفافه خلال الصيف . وقد عقد قسم من هذه القبائل في أوائل ١٩١٥ حلفاً في مصلحتنا مع عشيرتين نصف بدويتين من عشائر المنتفك ضد عجمي السعدون ، وعندما أنشئت سكة الحديد عبر مراعيها عهدت اليها مسؤولية المحافظة على السكة . اذ يحتل الضفير سجاد الفلاة القاحلة التي تمتد على طول الجزيرة الغربية برغم ما يتخللها من الواحات القليلة . وهذه الواحات هي المقرات العامة للشيوخ العرب المستقلين الذين يشع سلطانهم منها على البدو المجاورين . وأقرب العشائر الى الحدود العراقية الشعب الشمري القوي الصلب المستظل بظل أميره ابن رشيد الذي يقع مقر حكومته في حائل ، الكائنة على بعد ثلاثمائة ميل من جنوب غربي النجف . وكان أسلافه في حلف مع الحكومة العثمانية التي كانت تعتبر حائل موئل النفوذ التركي في الجزيرة العربية ، كما كان يغذي خصومته الوراثية مع خصمه الجنوبي العظيم ابن سعود . وبعد اندلاع نيران الحرب مباشرة أرسل الكابتن دبليو . أيج . آي . شكسبير ، الذي أقام صداقة شخصية مع ابن سعود خلال وجوده السابق في الكويت كمقيم سياسي ، الى عاهل نجد بمهمة خاصة . وكانت العداوة بين ابن سعود وابن رشيد قد وصلت الى ذروة من ذروتها الدورية ، فهاجم أمير جبل شمر - ربما بتحريض فعال من الترك - عدوه وتقابلا في معركة وقعت في ١٩١٥ . وفيها جرح الكابتن شكسبير ، الذي شهد المعركة كرجل غير محارب ، برصاصة طائشة ثم قتل في الهجوم الذي شنته بعد ذلك خيالة ابن رشيد . فنقل ابن سعود خبر الكارثة الى رئيس الحكام السياسيين بمنتهى الأسى . فقد كتب يقول : « قاتلنا ابن رشيد في

الارطاوي فوقعت معركة حامية ، وأصيب مع الأسف الشديد صديقنا الحميم
ومريد الخير لنا الكابتن شكسير - أصابةً من بُعد ، ثم قضى نحبه . فالرجاء
إنباء الحكومة المرزعة بحزني وأساي . وقد أكدنا عليه لزوم تركنا قبل المعركة ،
لكنه أصر على الحضور قائلاً : « انا مأمور بأن اكون معكم ، فاذا تركتكم
أكون قد خالفت أمر حكومتي وما يحتمه علي شرفي . وعليّ ان ابقى على
كل حال . »

وقد ترك انتصار ابن رشيد ابن سعود في وضع محرج برغم أن الانتصار
لم يُعقّب بشيء آخر . حيث أنه انشغل في السنة التالية بثورة العجمان ، وهم
قبيلة من القبائل التي كان يدعي بخضوعها لنفوذه . وفي ربيع ١٩١٥ تخرج موقفه
بشدة ولم يستطع الخروج من المأزق الذي كان فيه لولا أن يخف لمساعدته مبارك
ابن الصباح شيخ الكويت . وفي تشرين الثاني التالي توفي حليفه الصلب ذاك
الذي كان يتكهن على الدوام بنجاحه في النهاية . فأعقبه ولده جابر ، الذي وإن
يكن قد تتبع خطوات أبيه ، لم يكن بوسع أن يأمل استيراث نفوذه أو سمعته
الواسعة كاستاذ في شؤون الحكم العربي . وعاش جابر مدة تقل عن السنة ،
فخلفه ابن آخر من أبناء مبارك هو الشيخ سالم فكان رجلاً ذا
شخصية أقوى من شخصية جابر ، لكنه كان مسلماً متعصباً ينقصه ما كان في
مبارك من سعة النظر الفريدة .

وبرغم أن ابن رشيد لم يعد يخشى ابن سعود فإنه لم يساعد حلفاءه الأتراك
مساعدة مؤثرة بالنظر للشقاق الذي حصل في ضمن قبيلته . فقد تخلى عنه فريق
من شمر في ربيع ١٩١٦ ، ونقلوا خيامهم وإبلهم الى ما يقارب الحدود العراقية
ثم دخلوا في علاقات ودية مع الإدارة البريطانية . وبعد عدة أسابيع ظهر ابن
رشيد على تخوم ولاية البصرة ، ولم يرد على رسائل رئيس الحكام السياسيين

التي بعثت اليه عن طريق الشيخ ابراهيم^١ في الزبير ، فكون بالاتفاق مع عجمي

(١) كانت مشيخة الزبير في بداية القرن العشرين مسندة الى الشيخ محمد المشري . وفي رجب ١٣٣٢ هـ حدثت حركة مسلحة بتحريض من عجمي السعدون ضد القوات التركية في الزبير ، وانضم الشيخ محمد المشري مع قسم من آل الزهير وغيرهم اليها . لكن الحركة فشلت فهرب متزعموها الى الخارج ، وزار الزبير في أثر ذلك والي البصرة سليمان شفيق يصحبه السيد طسالب النقيب وغيره من وجوه البصرة ، وكان من جملة التدابير المتخذة بهذه المناسبة عزل الشيخ محمد المشري وأسناد مشيخة الزبير الى الشيخ ابراهيم العبد الله هذا .

وقد استطاع الشيخ ابراهيم ان يدير شؤون الزبير على أحسن وجه ، واستقام له الأمر في أيام الترك الأخيرة في البصرة بحيث استطاع ان يحافظ على بلده خلال الحرب العظمى ، ولا سيما حينما كانت تدور رحاها في الشعبية القريبة منها بين الانكليز والأتراك . فبعد ان احتل الانكليز البصرة ، وقبل ان تقع معركة الشعبية المذكورة ، اتصل الانكليز سرّاً بالشيخ ابراهيم وطلبوا اليه بواسطة ضابط من ضباطهم السماح للقوات البريطانية بالدخول الى المدينة والحفاظة عليها ضد الأتراك . لكنه رفض ذلك وأقنعه بخطل الفكرة وخطرها ، ثم اتفق معه على اشارة خاصة ترفع فوق بيوت الزبير عندما تتعرض الزبير الى خطر ما من جانب الأتراك .

ثم زاره في اليوم التالي كذلك القائد سليمان عسكري بك وطلب اليه تجهيز أربع مئة مجاهد من أهالي الزبير لينضموا الى القوات التركية في الشعبية ، فاعتذر عن ذلك . وقد قررت القيادة التركية بنتيجة هذا ائذار الشيخ ابراهيم وتهديده بقصف الزبير . فلم يعر التفاته لهذا التهديد . لكن معركة الشعبية وقعت في اليوم الثاني من توجيه الانذار ، أي في ١٤ نيسان ١٩١٥ ، ومع هذا لم تسلم الزبير من بعض القصف خلال اليومين اللذين كانت تدور فيها المعركة .

وقد أقرت الحكومة البريطانية الشيخ ابراهيم على مشيخته بعد ذلك ، وصار يعامل معاملة حسنة ويؤخذ رأيه في أمور كثيرة تختص بشؤون البادية وشيوخها ، ثم أهدته مقاطعة نخيل في منطقة الكباسي تقديراً لاختلاصه وخدماته لهم .

وحينما عاد السير بيرسي كوكس من ايران سنة ١٩٢٠ للعمل على تشكيل الحكم الوطني في العراق مر بالبصرة ، وبعث يطلب الشيخ ابراهيم ليوافيه في بغداد ويتداول معه . وعندما تمت المواجهة لمح له السير بيرسي كوكس فيها على ما يزعم بأن بريطانية تؤيد تشكيل مشيخة مستقلة في الزبير ، على غرار مشيخة الكويت ، فلم ترق هذه الفكرة للشيخ ابراهيم . ولذلك نظم عريضة ، عند تشكيل الحكومة العراقية وانتخاب الأمير فيصل ملكاً في العراق ، يتنازل فيها عن مشيخة الزبير . ويقال ان السير بيرسي كوكس غضب من عمله هذا فأوعز بابقائه محجوزاً عليه في بغداد الى ٢٥ نيسان ١٩٢٥ (تاريخ الكويت السياسي ، ج ٤) .

لكن السوارنولد ويلسن يذكر في كتابه ، بعد ان يثني على الشيخ ابراهيم ويعترف بالخدمات =

ابن سعدون خطراً طفيفاً . لكنه رجع في تموز من حيث أتى ، ولم تتخذ خصومته لما تبقى من مدة الحرب شكلاً فعالاً بالنسبة للعراق ، ولم تتجاوز هذه الخصومة قيام أتباعه بتهريب البضائع من الكويت وأسواق الفرات الى العدو في المدينة والشام .

وفي أواخر تشرين الأول أنهى السر بيرسي كوكس مع ابن سعود عقد المعاهدة التي كان الكابتن شكسبير قد بعث من أجلها الى نجد . إذ عقد «دربار» في الكويت حضره شيخ المحمرة وعاهل نجد فأنعم فيه على الأخير بوسام كي . سي . آي . أي . ، وفي خطاب ارتجالي غير منتظر أشار ابن سعود الى أنه في الوقت الذي تقوم فيه الحكومة العثمانية بأضعاف الأمة العربية تستهدف السياسة البريطانية توحيد رؤسائها وتقويتهم . ثم تبودلت برقيتان تبريكتان بينه وبين شريف مكة الذي كان في أول مراحل الثورة ضد الترك حينذاك ، مع ان ابن سعود لم يكن يضمّر لملك الحجاز في اي وقت من الاوقات غدير الكره والارتباب ، كما ان ثورته في الحجاز لم يكن لها وقع بارز لدى شيخي المحمرة والكويت ، ولا في الرأي العام العراقي .

وقد حصلت محاولة للاستفادة مما أبداه الرؤساء الثلاثة في «دربار» الكويت من حسن نية تلفت النظر ، وجني ثمارها العاجلة . اذ كتب ابن سعود ، عند زيارته البصرة بعد أيام قلائل ، الى عجمي السعدون كتاباً يناشده فيه ان يكرس جهوده وجهود أتباعه لحرية العرب والمسلمين وتحريرهم من ربقة الاتراك . فاستخرج هذا الكتاب من عجمي جواباً حاسماً . فقد أجابه بما معناه^١ :

= الجلى التي قدمها للانكليز ، انه في خلال خدمته لهم قد أرى ثراء غير يسير وصار يصير على استقلاله وحقه في جباية الضرائب لنفسه ، ومعاملة أهل الزبير والبصريين الذين لهم أملاك فيها بما يريد ويهوى ، فأصبح من الضروري عزله في سنة ١٩٢٠ . ثم يقول ان هذا القرار كان مؤلماً له (أي لويلسن) لأن الشيخ صار يتوسل بشكل يستدر العطف ويناشده بان لا يشفي أعداءه فيه . (١) لم نعر على نص الكتاب الاصل .

« أخى المبجل »

« من المعلوم جيداً عندي بدرجة لا يتطرق إليها الشك أن موقفى هو موقف من يسعى لرضا الله العلي العظيم ولاعلاء اسم العرب باظهار الولاء لهم . واي ولاء أعظم من ان أسارع باخلاص الى ما أمرني به الله في كتابه المجيد بالجهاد ضد الكافرين ، اعداء الله واعداء الدين . ولا يمكن ان تأخذني في الله لومة لائم أنا الذي أسعى لحب الله ونيبته وبلادنا ، ولحمايتها من ان يدنسها الكافرون . وقد كان لي أمل كبير بتدينكم وحميتكم العربية ان توافقوني في رأيي وتؤيدوني في ما أقوم به من أجل إعلاء كلمة العرب ، وليس هذا بفضل الله تمرداً وإنما هو موقف بسيط معروف . واذا كانت الحكومة التركية تذب عن حوزة الاسلام فهي عضيدي وعصيد قبائلي . وانا حقاً حاكم مطلق بأمر الله وأمر الحكومة ، واني مقتنع ومعتقد بأنني سائر في الطريق السوي الذي يرضي الله والعرب ، سيراً مستمراً لا يشيني عنه شيء ، وهذه هي الروح الاسلامية . وهذا هو الوضع ، وانتم ما وجب علي قوله مستشهداً بكلام الله : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » . واذا كنت قد أعطيت أي وعد لهم في الماضي أو بعد ذلك فيجب علي ان اتقيد بتنفيذ ما وعدت به . لكنني أعطيت عهداً بخدمة ديني وحكومي وحميتي . والله تعالى هو أحسن من يكون في عوننا ، واذا حاججتموني بترك الدين جانباً فان الواجب يدعوني الى الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي من قبل لحكومي ، وهذا أول ما تقتضيه شيمة العرب . وهذا ما وجب بيانه » .

واذا كان عجمي يخشى ان تكون خصومته المتطاولة للبريطانيين قد جعلت من المستحيل عليه ان يحصل على شروط نافعة بانضمامه اليهم ، او اذا كان شعوره الشخصي قد تبلور في قناعته التي أظهرها في رسالته فان جوابه لابن سعود لم يترك شكاً بالنسبة للطريق الذي عاهد نفسه ان يسير فيه ، فلم تبدل مساعٍ أخرى لزعزحته عن ذلك . كما لم يفرغ له احد شيئاً من جهده ليكسبه اليأس ، غير انه حتى لو كان في الامكان التعاقد معه في أول أدوار الحرب فان

بقاءه معنا حتى النهاية يمكن ان يعتبر شيئاً مشكوكاً فيه . ولما كان مغروراً مثل « لوسيفر » ، كما هو الحال عند جميع السعدونيين ، ومبالغاً في تقدير أهميته هو نفسه فان أطماعه كانت ستطغى على أي إحسان كان يمكن ان نحسن به اليه . فان موقفه في الصحراء كالرمح الطليق ، وهو متحالف مع الترك وخارج عن نطاق سيطرتهم ، يناسبه تمام المناسبة . فقد كان يسحب مبالغ جسيمة من المال الذي لم يقم الا بعمل ضئيل لتحصيله ، وكانت هيئته وجلال قدره محفوظتين باللقاب مشرفة ووعود هوائية . لكنه ، على كل حال ، يقدر على اختيار الدور الذي كان يلعبه .

وقد برهنت تجاربنا ، كما برهنت تجارب الاتراك من قبل ، على ان مجالقات البادية هي ذات قيمة سلبية لا ايجابية ، فانه من الأمور الأساسية فيها ان يجري تفاهم تام مع الأمراء العرب الذين ترتاد قبائلهم الجوالة أطراف البلاد المعمورة ، وليس هذا شيئاً صعباً في أيام السلم . لانهم يعتمدون في احتياجاتهم المعيشية الضرورية كالمواد الغذائية والملبوسات ولوازم البيت القليلة التي قد يحتاجونها ، على الاسواق الاعتيادية التي يقصدونها لهذا الغرض ، ومن الممكن ان يجعل السماح لهم بالاتصال بهذه الاسواق منوطاً بمسلكهم الحسن . على انهم طالما كانوا يحترمون حدود المدينة التي يتصلون بها وحدها فان التزاماتهم بالنسبة الى المجتمع يمكن ان يقال عنها انها تحققت . فليست هناك أية حكومة يمكنها أن تتوقع السيطرة على ما يفعلونه في ضمن ديارهم ، ولا يمكن أن تكون لتعاونهم العسكري أية قيمة ما لم يشرف عليه ضباط أوروبيون . ومن الصحيح التكهن بأن الهبات المالية والعسكرية نادراً ما يستعملونها للأغراض التي تستهدفها الجهة التي تمنحها لأنها تستخدم عادة في المنازعات الشخصية ، وحتى اذا استطاع الشيخ الخليف ان يسوق قواته فيوجهها ضد عدو حليفه فان أول نصر يتم يعقبه تفرق هذه القوات تفرقاً فعالاً يضاهي أي اندحار يقع بالنظر لان الغنيمة والاسلاب التي تنهبها القوات العشائرية تستدعي التفرق والنجاة بها . فانا مع وجود جميع قبائل الحدود التي ندفع لها المنح والهبات لم ننجح

مطلقاً في إزاحة عجمي عن الميدان برغم تناقص أتباعه في بعض الأحيان ونزول عددهم الى شريحة قليلة ، ولم يكن بوسع الأتراك ، على الشاكلة نفسها ، ان يقنعوا ابن رشيد على ان يطلق ولا إطلاقاً واحدة ضدنا برغم ما كانوا يقدمونه اليه من منح ومساعدات . وبعد عدة سنين قضاهما ابن سعود في الركود زحف على حائل في ١٩١٨ وأشرف على احتلالها لكنه زاغ عن هدفه ، الذي كان في ضمن مدى الرؤية ، فانقلبت الحملة الى الهرج الاعتيادي الذي كثيراً ما يقع في البادية . ومن حسن الحظ ان عقد الصلح لا يحتاج الى ان تعقبه محاولة أخرى للاستفادة من البدو استفادة عسكرية عملية ، وعلى هذا فبوسعنا نحن أن نقنع بالمحالفات التي تنظم علاقاتهم بنا وتركهم أحراراً في تمشية شؤونهم الخاصة بالطريقة المثلى في نظرهم .

الشيعة

لقد أوضحنا ايضاحاً كافياً ، خلال وصفنا لأساليب الإدارة العثمانية ، أن الأتراك لم يبدوا اهتماماً بالسكان الشيعة في العراق . ومع هذا فان جميع سكان الريف تقريباً واكثرية سكان المدن ، من مصب شط العرب الى ما فوق بغداد بقليل ، هم من الشيعة . غير ان العنصر السني ، فضلاً عن المؤازرة التي كانت تبديها له الحكومة السنية ، كان يتمتع بمنزلة اجتماعية لا تتناسب مع عدد نفوسه . وهو يتألف في الغالب من ملاكين كبار للاراضي وتجار أثرياء ويسكنون المدن والبلدان ويمتلكون المقاطعات على طول الأنهر . ويستولي على أسواق البادية أناس سنيون من نجد ، كما يجد المرء في المناطق المحيطة بالحدود والأنهر في قلب المجتمعات الشيعية التاجر اللبق ذا الاصل النجدي ، الذي يسهل تفريقه بتقاطيعه الدقيقة وثقافته المتفوقة عما يحيط به من افراد القبائل ، وهو يترأس السوق الصغيرة التي تتعاطى بحاجات الريف البسيطة . وليس هنالك شيء يفوق الازدراء الشامل الذي يكنه التاجر السني في هذه الاسواق العشائرية الصغيرة لزيائته . وحتى الشيوخ الاغنياء مع كل ما يملكونه من مقاطعات واسعة الارعاء وما يحيط بهم من جماعات الخدام والحراس المسلحين هم بالنسبة اليه

لا شيء سوى كلاب سائبة بجانب النهر لا يحلم هو أو إخوانه في المذهب ،
البدو الجياع ، ان يتصاهروا معهم .

ومع هذا كله ، فليس بوسع الفتور الرسمي الذي تبديه الحكومة ولا ترفع
الارستقراطيين المحليين ان يتحدى الحقائق الواضحة للعيان بأن العراق الجنوبي
هو منطقة شيعة ، وان البلاد المقدسة تقدها هذه الطائفة بالاجماع . وقد
أعلن العراق للملأ بأنه يعترف بالحق الوراثي لسليمان النبي المباشر ، ضد اي خليفة
منتخب ، قبل ان تتخذ الطائفتان الاسلاميتان شكلاً معروفاً واسماً معلوماً .
وعندما حارب علي ، صهر النبي ، جيوش معاوية الاموي في صفين تبعته قواته
العراقية بصفته أقرب الناس الى رسول الله ووالد احفاده . وعندما قتل علي في
الكوفة ورفض ابنه الاكبر الحسن ، حفيد النبي ، المطالبة بميراثه السياسي كان
سكان العراق هم الذين دعوا أخاه الحسين للاعتماد على مؤازرتهم له .

وقد أدخل تسرب الدم الايراني الى البلاد ميولاً فكرية فارسية في ممتلكات
الساسانيين السابقة ، لتغذي الباطنية البعيدة عن الفكر السامي ، التي تستند عليها العقائد
الشيعة ، كما جاءت مستوطنات الايرانيين الدينية للمتوطنين في المدن المقدسة
معها بروحية التمرد والجموح السياسي التي كانت تثير الايراني الاعتيادي على
الدوام وتدفعه الى القيام في وجه السلطة الزمنية القائمة .

هذا ولا بد من أن يكون تقصي انتشار العقائد الشيعة ، وترسم آثارها في ما
بين النهرين ، دراسة تاريخية معجبة فيما لو تيسرت المواد اللازمة لها . فقد
انتشرت هذه العقائد ، على وجه التأكيد ، خلال المائة السنة الاخيرة بدافع
الحماسة التبشيرية التي أظهرها رجال الدين الشيعة . حيث ان مجموعة قبائل
زبيد الكبيرة ، مثلاً ، التي تمتد منازلها ما بين دجلة والفرات من شمال الكوت
بقليل الى منتصف الطريق الى بغداد قد اعتنقت العقيدة الشيعة حوالي سنة ١٨٣٠

(١) ان التاريخ الاسلامي ، بشئ أدواره ، الذي تستشهد به المؤلفة في صدر هذا الفصل يدل
على عكس ما تذكره هنا . ويشير إلى أن الشيعة وجدت في العراق قبل هذا التاريخ بقرون .
ولعلها تقصد بهذه العبارة انتشار الشيعة بين بعض القبائل العراقية .

على يد مجتهد مشهور ما زال المتحدرون^١ من صلبه يسيطرون على شؤون الحياة السياسية . ومن المهم ان نجد أن أقرباء زبيد من القبائل الاخرى النازلة الى الشمال ، الدليم والعبيد ، بعيداً عن تأثير العتبات المقدسة بقيت سنية . وبالنسبة لما نتمكن ان نحكم عليه الآن ان تلك العملية ما زالت سائرة . فمن المرجح ان احدى القبائل البدوية في المنتفك ، وهي قبيلة الشريقات ، قد اعتنقت الشيعة مؤخراً (ان البدو يميلون الى التمسك بالتعاليم السنية اكثر من القبائل المستوطنة التي تحترف الزراعة) ، كما ان قبيلة اخرى ، قبيلة سحيم ، ما زال قسم منها سنياً حتى الآن ، وهناك أمثلة عن هذا الانقلاب الى الشيعة في أسرة السعدون السنية التي تنتسب للأشراف من أقرباء شريف مكة وهم من دوحسة سنية خالصة .

العلماء والمدن المقدسة

والمدن المقدسة في العراق أربع في عددها ، وهي : النجف وكربلا والكاظمية وسامرا . ويوجد في النجف ضريح الامام علي المشهور ، كما يوجد بالقرب منها في الكوفة المسجد الذي قتل فيه الخليفة نفسه . وقد بنيت كربلا في موقع الحومة التي قاتل فيها الحسين ، وفيها ضريحه مع قبور عدد من اتباعه . وترجع قدسية الكاظمية الى تاريخ متأخر عن ذلك ، وقدسيتها هذه سببها دفن الامامين السابع والتاسع (وهما من نسل علي مباشرة) فيها . وقد دفن في سامرا ، في تاريخ اكثر تأخراً ، الامامان العاشر والحادي عشر ، بينما اختفى الامام الثاني عشر في غار^٢ تقع بعيدة عن الضريحين ببضع عشرات من الياردات . ومع أن سكان الكاظمية هم ايرانيون في الغالب^٣ فان قربها الى بغداد المركز السني

(١) آل القزويني المعروفون في الحلة ، اما المجتهد المشار اليه فهو ساحة المرحوم السيد مهدي القزويني المتوفي سنة (١٣٠٠ هـ) ، وكان يلقب بالامام .

(٢) انها تقصد سرداب الغيبة الذي يزار بطبيعة الحال .

(٣) ان عدم صحة هذا القول واضح للعيان ، حيث ان الكاظمية عربية النجار برغم وجود بعض الاجانب او بعض الاسر التي تنتمي الى اصل ايراني فيها .

العربي العظيم كان عاملاً مسيطراً عليها . الا ان النجف وكربلا ، والنجف على
الاخص ، كانتا في جميع الاوقات مركزي التعصب الديني ذي الصبغة الفارسية
وكذلك مركزي العداء للسلطة القائمة ، وسببها كذلك مهما كان نوع الحكومة
التي تحكم بقية العراق .

والنجف وكربلا وسامرا هي الاماكن التي يقيم فيها عادة علماء العالم الشيعي
المجتهدون ، وقد كان اكبر المجتهدين في زمانه وما زال يعيش على الدوام في
إحدى هذه المدن ، ولا سيما النجف . والمجتهد الشيعي هو الذي يفسر الشرع
وفي تضاعيف هذا ينطوي الفرق الاساسي بين السنة والشيعة في الاسلام .
وتتبع السنة تفسير الشرع الاسلامي الذي وضعه مؤسسو المذاهب السنية
الاربعة ، الحنيلي والشافعي والحنفي والمالكي . وهذا التفسير غير قابل للتبديل .
وتتبع الشيعة ، من جهة أخرى ، تعاليم القرآن كما فسرهما الأئمة ، وهذا
التفسير أو بعضه على الأقل يمكن ان يحوره المجتهدون بحسب ما يرونه مناسباً
برغم انهم نادراً ما يفعلون ذلك . وللمجتهد صلاحية إصدار الفتاوى ، سواء
أكان ذلك من أجل الدعوة الى الجهاد أو التجويز للمريض باستعمال الكحول
بمقام الدواء اذا لم يكن هناك دواء شاف آخر . كما انه يستطيع ، وقد صنع
ذلك بالفعل ، ان يجبر الحكومة الايرانية الشيعية على إلغاء القوانين وابطالها .
وهناك حادثة^١ مشهورة من هذا القبيل جرت بشأن منح لإنحصر التبغ في ايران

(١) لقد نشطت المصالح الاستعمارية في ايران خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر نشاطاً
ملحوظاً ، كان لبريطانية العظمى فيه حصة الأسد . وكان هذا على عهد ناصر الدين شاه القاجاري
الذي ظل يحكم ايران مدة تناهز الخمسين عاماً . وكان من جملة ما حصل في فترة النشاط الاستعماري
هذه أن شركة بريطانية تسمى (شركة انحصار الدخان) تمكنت في سنة ١٨٩٠ من الحصول على
امتياز تسيطر وحدها بموجبه على زراعة التبغ (التوتون) ، وبيعه ، وتصديره ، في ايران
بأكملها . وكان عليها ان تدفع لقاء ذلك مبلغاً زهيداً قدره (١٥٠,٠٠٠) باون استرليني في السنة
الى الشاه ، مع تخصيص ربع الأرباح له . وكان هذا الامتياز يؤثر تأثيراً سيئاً على زراعي التبغ
وباعته ومدخنيه على السواء ، ولا سيما اذا ما علم أن الرجال والنساء في ايران كانوا يدخنون التبغ
بصورة منتظمة في تلك الأيام .

الى شركة انكليزية ، فقد حرم مجتهد زمانه الاكبر على الشيعة التدخين على أساس انه من المحرم منح حق الانحصار الى غير المسلمين .

والمجتهدون بأجمعهم على درجة واحدة من الوجهة النظرية ، الا انهم عملياً يصنفون الى أصناف ثلاثة معترف بها تبعاً للنفوذ الذي يمتلكونه وعدد الناس الذين يقلدونهم . وليس هناك منهج معين للدراسة يتمكن تلميذ الشرع والفقه من دراسته ليصبح مجتهداً او ليرتقي من صنف الى آخر ، كما لا يوجد أي فحص رسمي للمؤهلات المطلوبة . ولأجل أن يُعترف بطالب الاجتهاد كمجتهد يجب عليه ان يُحصل الاعتراف هذا من أعظم مجتهدى زمانه الذين يشهدون له بقبليته للانضمام الى زمرة وأهليته لاصدار الفتاوى . وتُعطي هذه الشهادة عادةً تقديرًا لدراسة دينية قد تستغرق خمساً وعشرين سنة في النجف على المجتهدين الكبار فقط . وعلى طالب الاجتهاد ان تكون أخلاقه خلال هذه المدة شيئاً مثالياً ، ولذلك يلاحظ أن الوحدة والاعتزال بعدان من ضرورات الحصول على السمعة المطلوبة . وهذا يعني أوتوماتيكياً ان رجلاً ينتمي الى أسرة ناهية ليس بوسعه ان يصبح مجتهداً يوماً ما ، والخطوة الأخرى التي يجب ان يخطوها المجتهد المنجز هي ان يجمع حوله اناساً متعلمين ينتدبهم الى مختلف أرجاء العالم لبشروا بشهرته . فيتعاظم نفوذه . ان كان محظوظاً ،

= ولذلك ازداد السخط وعم الاستياء بين الناس ، واستثير التعصب ضد الأجانب الى آخر حد . فأصدر المجتهد الأكبر العلامة الحاج مرزا حسن الشيرازي فتوى يومذاك بتحريم التدخين وعدم تعاطي التبغ ، فأطاع الناس هذه الفتوى بجميع طبقاتهم . ولم يشذ عن ذلك حتى موظفو القصر الملكي ورجاله . وبعد حصول اضطرابات وحركات معادية للأوربيين في البلاد اضطّر الشاه الى إلغاء الامتياز برمته سنة ١٨٩٢ ، ودفع تمويضات الى الشركة قدرها نصف مليون بسان استرليني استقرضها من البنك الشاهي في إيران . ويعتبر هذا القرض النواة الأولى التي تكون منها الدين الوطني الإيراني فيما بعد (تاريخ إيران للسربيرس سايكس) .

(١) ان هذا غير صحيح بطبيعة الحال ، فقد كان وما يزال عدد من المجتهدين ينتمي الى أسرة ناهية معروفة .

كما يتعاضم حجم كرة الوفر حتى يعترف به الرأي العام أخيراً ويعيدونه من المجتهدين الكبار . وعند ذاك يتوافد الطلاب على حضور حلقات دروسه ، ويحول اليه جميع الشيعة المتدينين في كل مكان مبالغ طائلة ليوزعها على طلبته ، وعلى فقراء البلدة المقدسة التي يقيم فيها . ولا يكون أبناء المجتهدين مجتهدين هم أنفسهم في كثير من الاحيان مع أنهم قد يحصلون على نفوذٍ غير يسير ومنزلة محترمة بالنظر لمنزلة أسرهم .

وتوجد في العراق على الدوام مجموعة صغيرة من المجتهدين المعدودين من أعلى طبقة ، فيعترف بأحدهم كمرجع أعلى للفقهاء الشيعي . ومن الضروري أن يكون المجتهد الأكبر متقدماً في السن ، وعندما ينتقل الى رحمة ربه يحل في محله بصورة اوتوماتيكية من يليه من المجتهدين في الفضل والمنزلة وهو في الغالب متقدم في السن ايضاً . وعلى المجتهدين الكبار ، المنهمكين في الشؤون الدينية ، ان لا يساهموا في الشؤون الدنيوية . فاذا ما تدخلوا في السياسة ، عدا ما يتعلق منها بما يؤثر على الدين ، فقد يجازفون بضيايع نفوذهم . وقد كان المجتهد الاكبر في وقت الاحتلال السيد محمد كاظم اليزدي : وكان الاتراك قد ألحوا عليه بان يفتي بالجهاد ولكنه امتنع عن ذلك مدة من الزمن ، ثم أفتى به بعد ذلك لاجل ان يكون معلوماً لدى الجميع بانه لا يرى ان الظروف تستدعي الجهاد . على ان ابنه الاكبر نشط في الدعوة الى الجهاد خلال شتاء ١٩١٤ - ١٥ ، لكن المعاملة التي عوملت بها المدن المقدسة بعد ذلك من قبل الاتراك آيدت موقف الاب وعدلت من موقف الابن .

وقد بدأت علاقاتنا بمجتهدي كربلا والنجف قبل الحرب بمدة طويلة . فقد كانت للحكومة الهندية في ١٨٤٩ علاقة بهاتين المدينتين تختص بوقف إوده ، لأن غازي الدين حيدر ، ملك إوده ، كان قد أوقف مبلغاً قدره (١٢١,٠٠٠) روبية في السنة لتصرف صدقات الى مستحقيها في المدينتين المقدستين فوجدت حكومة الهند ، التي ورثت مسؤوليات شركة الهند الشرقية ، نفسها في موقف الناظر على هذا الوقف . وكان توزيع هذا المبلغ في كل سنة

يشير عدة مشاكل ، لكنه انتظم في ١٩١٠ على أثر ترتيبات خاصة أجريت فأصبح التوزيع يجري بواسطة لختين خيريتين ، واحدة في كل مدينة ، تتألف كل منهما من مجتهدين وأناس محترمين آخرين بعد ان يحول المقيم البريطاني في بغداد المبلغ لهما^١.

وكانت الحكومة العثمانية قبل دستور ١٩٠٨ تعترف بأن المدينة المقدسة تختلف اختلافاً بيناً عن سائر ممتلكاتها ، ولذلك فقد منحتها بعض الامتيازات

(١) ونورد هنا علاوة على ذلك ما يذكره عن وقف إوده هذا كل من جون هولستر مؤلف كتاب (شيعية الهند) والسر أرنولد ويلسن في كتابه (بين النهرين ١٩١٧ - ١٩٢٠) . فيقول الأول : ان ملوك إوده الشيعية في الهند كانوا قد وضعوا للاستثمار في قروض حكومية مبلغاً يقدر بثلاثة ملايين ونصف المليون باون استرليني ، ليصرف على أفراد أسرهم ومتعلقيهم . وظل نسل هؤلاء لا يتقاضون ربح ذلك المبلغ بالنسبة الأصلية ، بحيث كان يبلغ مجموع ذلك كل سنة شيئاً يزيد على أربعة عشر لكاً من الروبيات . وقد كان البعض من مستحقي هذا الوقف متعودين على توزيع بعض المبالغ في العتبات المقدسة الموجودة في مكة والمدينة وكر بلا والنجف ، ونظراً لأن قسماً منهم لم يخلف وريثاً أو وصية خاصة فقد ظل ما يستحقونه يبعث كله الى العتبات .

اما السر أرنولد ويلسن فيقول : ما ان دخل الانكليز الى بغداد في اذار ١٩١٧ حتى لفت نظر السر بيرسي كوكس من جهات ذات تأثير ونفوذ في النجف وكر بلا الى ان واردات وقف إوده لم توزع منذ أن أعلنت الحرب العامة ، وطلب منه ان يتخذ الاجراءات العاجلة ليستأنف تحويل المبالغ التي كانت تحول في أثناء السلم عن طريق القنصل العام البريطاني في بغداد . وكان منشأ هذا الوقف ان اللورد أمهرست ، حاكم الهند العام ، كان قد استقرض مبلغاً جسيماً من ملك إوده بمناسبة الضائقة المالية التي حصلت بنشوب الحرب في بورما سنة ١٨٢٥ . وكان القرض بقيمة عشرة ملايين روبية ، لكن ملك إوده اشترط بدلا من تسديده اليه ان تقوم حكومة الهند بصرف الربح المستحق عليه الى الأبد بنسبة ٥ ٪ على جهات خاصة منها بعض الناس والطبقات في النجف وكر بلا . وقد حصلت بعد ذلك تعقيدات كثيرة بسبب غموض الوقفية والشروط المدرجة فيها ، وخشي الأتراك من ان تتخذ مدفوعات هذا الوقف لأغراض تخريبية تتجاوز حدود الوقفية . ثم نشأت صعوبات أخرى في كيفية توزيع هذه المبالغ التي كانت تثير الضغائن والأحقاد في كثير من الأحيان . على أن واجب اتخاذ ترتيبات مناسبة وقع على عاتق النواب محمد حسين خان في الغالب ، فبرهن في هذا الشأن على كونه رجلاً حكيماً كثير التعاون مع الموظفين الإداريين المتعاقبين ، ودبر توزيع هذه الهبات بأقل ما يمكن من الاحتكاك والتصادم .

التي كان أهمها إعفاء سكانها من الخدمة العسكرية . فكان من المعقول ان لا ينتمي الايرانيون الى الجيش التركي ، وكان السكان العرب يفلتون من هذا التجنيد بالتوسع في تطبيق هذا المبدأ . لكن مبدأ المساواة الذي كانت تنادي به جمعية الاتحاد والترقي كان يعني زوال الامتيازات التي كانت تتمتع بها الرعايا غير العثمانية في البلاد ، حتى كان يبدو ان الحكومة التركية قبل الحرب قد أظهرت تجاهلاً لوضع كربلا والنجف الخاص . وبعد موقعة الشعبة التجأ عدد من الفارين من الخدمة العسكرية الى النجف . فأعلن الاتراك عن عزيمتهم على إعادتهم الى الخدمة وهددوا بفرض التجنيد على السكان الأصليين فيها . وقد علم ايضاً بانهم كانوا يعزمون استملاك « الخزان » الموجودة في العتبة المقدسة لتمويل شؤون الجهاد منها . وطفقوا يجبرون الشبان على الخدمة العسكرية ، ففتشوا البيوت في الليل ، وتعرضوا بالنساء بحجة ان الرجال كانوا يتخفون بزي النساء تهرباً من الجندية ، ثم فرضوا « بدلات باهظة » للاعفاء منها . فذهب الناس واستحكموا في الشوارع واللمور ثم وضعوا الحاميات في صحن العتبة . وعند ذاك وجه الاتراك مدافعهم نحو الثوار وانزلوا اضراراً بالمنازل ، اما سهواً او على سبيل التقصد . ولهذا طير السيد محمد كاظم اليردي برقية احتجاج الى استانبول ، فأجيب رداً عليها بانه يجب ان ينصرف الى مهنته كدرويش ، وان لا يتعرض لشؤون الحكومة . فتلى ذلك قتال دام ثلاثة ايام استسلم بعده الجنود الاتراك وجردهم الرعاع من سلاحهم . ثم نهبت بنايات الحكومة وحرقت ، وهُدم بيت القائم مقام التركي وطرده هو نفسه ^١ .

(١) يفهم مما جاء في (ماضي النجف وحاضرها) ان الحكومة العثمانية برغم ما قدمته النجف من خدمات في الجهاد ضد الانكليز في الشعبية والقرنة وعربستان واشراك العلماء فيه ، ساقط عليها بعد موقعة الشعبة بشهرين قوة من المشاة والفرسان يقودها عزت بك للقبض على الفارين من الجندية . وبتدبير من قائم مقام النجف بهجت بك ، المشهور بخشونته وسوء سيرته وعدم نوره عن عمل اي شيء ، اضطهدت هذه القوة الناس وضغطت على جميع الطبقات في النجف . وعند ذاك اجتمع الفارون من الجندية في فجر يوم السبت المصادف ٨ رجب ١٣٣٣ ودخلوا البلدة من ثقب كبير ثقبوه في السور ، وانضم اليهم عدد غير قليل من النجفيين ، فحاصروا الحامية التركية =

ويقسم سكان النجف الى فريقين عشائريين ، عربي العنصر ، وهما الزغرت والشمريت ، وقد كان من رؤساء الزغرت في ١٩١٦ سيد مهدي السيد سلمان الذي كان والده يشغل نفس المنصب ، والحاج عطية ابو كلال ، وكاظم الصبي ، وهما رجلان عصاميان ، كما كان الحاج عطية مهرباً سابقاً وقاطع طرق ، اما كاظم الصبي فقد كان يصنع القهوة للحاج عطية في ايام رخائه الاولى . وكان الشمريت يتبعون الحاج سعد بن الحاج راضي الذي كان قد بدأ حياته قصاباً ثم أظهر في شخصيته وسلوكه إمارات غير قابلة للخطأ عن منشئه المنحط . وكان هؤلاء الرجال الاربعة سلطة على المحلات الاربع التي تنقسم اليها النجف ، حيث كان السيد مهدي يحكم محلة الخويش والحاج عطية يحكم محلة العمارة وكاظم الصبي يحكم محلة البراق والحاج سعد يحكم محلة المشراق . وبعد حوادث نيسان أخذ الشيوخ الاربعة يحكمون البلد بأنفسهم ، وبمشورة السيد محمد كاظم اليزدي الذي كان يمثله ابنه السيد محمد علي .

وبعد شهر واحد ، حزيران ١٩١٥ ، بدأت الفتن والنزاعات العلنية في كربلا . ويبدو ان منشأها كان هجوماً شنته على البلدة قبيلة بني حسن المجاورة ، التي كان بينها وبين سكان كربلا عداء مستديم لم تعمل الحكومة العثمانية شيئاً لتسكينه جرياً على سياسة « فرق تسد » التي كانت تلتجىء اليها . وفي هذه المناسبة لم تجن الحكومة شيئاً من المشاحنات التي ربما تكون قد أثارها هي نفسها . لان بني حسن أحرقوا السراي ونهبوه ، ثم هبت الغوغاء وطردت الحكومة

= وظلوا يقاتلون ببسالة ثلاثة أيام متتالية حتى استسلمت . فاستولى الثائرون على دوائر الحكومة ومراكزها ، واضرموا النار فيها ، ثم نهبوا امتعة الموظفين وقتلوا بعض الجند والضباط ، وأسر الباقون فسيقوا الى دار السيد مهدي السيد سلمان . فأخرجهم السيد مع القاءهم في ظلمة الليل الى خارج النجف ، وبذلك انتهى امر الأتراك في النجف منذ ذلك اليوم . ثم تولى حكم النجف زعماء المحلات الأربع ، وأنفوا حكومة وطنية استقامت ستين .

وتولى شيوخ البلدة برئاسة آل كمونة تصريف شؤونه^١. ووقعت حوادث مماثلة في الكوفة والحلة وطويريج ، وفي كل من هذه البلدان أجبر موظفو الحكومة والحاميات التركية على الفرار .

فأصبحت الحالة في الفرات خطيرة بحيث غيرت السلطات التركية سياستها والتجأت الى المسالمة والصلح . فألفت لجنة من الوجهاء لتسوية الأمور في النجف ، وتوصلت الى اتفاقية سمح للقائمقام بموجبها ان يعود لمكانه مع حرس هزيل . فبقيت الهيبة بيد الثوار . وغدا القائمقام ألغوبة في أيدي شيوخ البلد وأخذ الناس يهزأون بحراسه علناً في الشوارع . اما في كربلا فقد دبر الاتراك وسيلة لاستعادتها وتثبيت مركزهم فيها . ورفض سكان الحلة دفع الضرائب حتى تمكنت الحكومة العثمانية من جلب المدد فأجبرتهم على الخضوع .

(١) يظهر من مقارنة ما تذكره المس بيل هنا بما جاء في المراجع المحلية انها تخلط بين واقعتين هم واقعة خان الحاد التي وقعت بين الكورلائين العائدين من زيارة النجف والحوادث التي وقعت بين القبائل بني حسن ، وواقعة حمزة بك . لكننا لاحظنا من التاريخ الذي تشير اليه ، حزيران ١٩١٥ ، والتفصيلات الأخرى التي توردها ، ان المقصود هو ما سمي بواقعة حمزة بك . وتفصيل الحادث ان أهالي كربلا شعروا بضعف الحكومة وهي تعقب الفارين من الجندية ، وعللوا بدنو الانكليز من بغداد ، ولاحظوا هذا الضعف على الأخص مما وقع في النجف قبل شهر واحد . فهاجم حشد من الناس والعشائر والفارين من الجندية دوائر الحكومة ، بما فيها المستشفى والبلدية ، فاحتلوها بعد أن أحرقوا دار البلدية وأخرجوا المساجين من السجن . ثم استولى الثوار على البلدة مدة من الزمن . غير أن العلماء والأشراف ، وفي مقدمتهم الحاج عبد المهدي الحافظ عضو مجلس المبعوثين العثماني ، توسطوا في الأمر فعادت الحكومة الى المدينة . وتعين فيها متصرف جديد كردي الأصل يدعى حمزة بك ، جاء معه بقوة من الجيش يقودها ضابط اسمه (دلي علي) وثلة من الخيالة يرأسها ضابط آخر يدعى (ثريابك) . وسرعان ما تجدد القتال بين هذه الحكومة والأهالي . وانقسمت البلدة الى قسمين ، استولى الأهالي على القسم الغربي منها بالكلية . وظل القتال مستمراً عدة أيام فقتل خلق كثير من الجانبين . فعاد العلماء والأشراف إلى التوسط بين الطرفين حتى هدأت الأمور بعد شق الأنفس ، فمينت الحكومة متصرفاً جديداً يدعى أسعد رؤوف . وكان من رؤساء هذه الحركة البارزين الشيخ فخري كوفة ، وعبد الرحمن العواد ، وعبد الجليل العواد (بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ، تراث كربلا) .

غير ان التهدة كانت نصراً أجوف للأتراك . فما عثمت أن جرت حتى أخذ الحاج عطية في النجف ، يوازره السيد محمد كاظم اليزدي ، بالاتصال برئيس الحكام السياسيين . فقد اقترح بان تلتحق بنا النجف والقبائل المحيطة بها لقاء احترامنا للعتبة المقدسة وعدم التعرض لها . فرد رئيس الحكام السياسيين على ذلك مشيراً الى البيانات التي كنا قد اصدرناها عند اول نشوب الحرب كدليل باننا لم نكن في خصام مع العرب ولا مع الاسلام . وأشار الى ان بريطانية العظمى لم تتوقف عن دفع أوقاف إودة على قدر ما كان بوسعها ان تفعل برغم وقوع الحرب ، وان السلطات العسكرية عاملت رجال الدين أو أتباعهم الذين وقعوا في أيدينا بكل تسامح ورأفة . ثم سئل الرسول عما اذا كانت النجف تعاني الضيق والضغط وعن الخطوات التي يمكننا اتخاذها لاسعافها .

وبعد ذلك بمدة وجيزة ، اي في ايلول ١٩١٥ ، تم الاتصال بنا بشأن كربلا . وبعد شهر أوجد الشيخ محمد علي ، رئيس أسرة كمونة زادة ، علاقات بالسر بيرسي كوكس وكسان في الكوت حيثذاك ، وبعد تبادل الرسائل التمهيدية اقترح علينا بأن نتعهد بتنصيبه حاكماً وراثياً مستقلاً في ولاية مقدسة تمتد من سامرا الى النجف . وكنا في تلك الآونة منشغلين بالزحف الذي سبق معركة سلمان باك . وكان يبدو محتملاً باننا سرعان ما سوف نتصل اتصالاً وثيقاً بكربلا . فأرسل السر بيرسي الى محمد علي رداً ودياً لا لون له مع هدية مالية صغيرة أثارت امتنانه الفياض . وترك الامر مؤقتاً على هذه الحال لان انسحابنا من سلمان باك بدّل الموقف السياسي بأجمعه . على اننا بقينا على اتصال بمحمد علي وواصلنا ارسال المال له من وقت لآخر ليساعده على الاحتفاظ بأتباعه والتمسك بموقفه في كربلا .

ثم اتخذت السلطات العسكرية سياسة حرة في السماح بمرور المواد الغذائية في الفرات لرفع الضيق والضغط . وبذلنا ما بوسعنا لارسال حوالات صغيرة من المال ، وكان كل وكيل يعتمد عليه ويمكن ارساله الى الناصرية يدفع له شيء من أموال إودة الوقفية .

وفي نيسان ١٩١٦ بذل الاتراك جهداً ثانياً بمزيد من العزم والشدة لاختضاع كربلا . فقد اتهموا فخر الدين كمونة ، أخا محمد علي ، بتحريضه شيوخ اليسار على مساعدة أهالي كربلا ضد بني حسن فأحاطوا بداره واعتقلوه . فثارت البلدة ، وبعد اصطدام عنيف جرب الترك أثناءه مدافعهم ضد كربلا وأنزلوا بعض الاضرار في العتبات - طردوا من البلدة وأسست إدارة محلية ثانية برئاسة الاخوين من آل كمونة . وحذت حذو كربلا النجف والحلة فأقلت الفرات من أيدي الترك مرة ثانية . وأوفد الرسل من النجف الى البصرة يحملون طلباً الى القبائل ، والى الدولة الايرانية يشرحون فيه ما كانت تعانيه كربلا . وكان بين الموقعين عليه عدد من المجتهدين المعروفين . فلم يقصر رئيس الحكام السياسيين في نشر هذه الوثيقة بنطاق واسع .

وكان محمد علي كمونة ، المستمر على تبادل الرسائل معنا ، يكرر إعرابه عن مخاوفه من عودة الاتراك ، وازداد قلق المدن المقدسة ازدياداً حاداً من الاعمال الفظيعة التي وقعت في الحلة في تشرين الثاني ١٩١٦ . حيث ان جنوداً أتراك كانوا يحملون عتاداً الى عجمي اقتربوا من الحلة وطلبوا المرور . وعندما ذهبت جماعة من الوجهاء للاتفاق على الشروط ألقي القبض عليهم ، وشنق في اليوم التالي عدد منهم . فنجى السيد محمد علي القزويني أقدم رجال الدين في الحلة من مثل هذا المصير بأعجوبة . ثم دخل الجنود البلدة فهدموا وأحرقوا ، ونهبوا وقتلوا ، وتحلوا شعور المسلمين اكثر من ذلك بسبي نساء الأسر المحترمة وارسالهن الى بغداد وغيرها ليوزعن على الجنود .

(١) وهذه ما تسمى بوقعة عاكف ، نسبة الى عاكف بك الضابط التركي الذي نكل بالحلة الفتيحاء وسبهاها بأمر من قائده العام . وقد كانت لوقعة عاكف هذه مقدمات ، تبدأ بالحلة التي أخذت الحكومة الميثانية تشنها على مدن العراق ، في الجنوب على الأخص ، لتنفيذ قانون التجنيد فيها برغم الخدمات التي قدمتها هذه المدن ، ولا سيما المدن المقدسة منها ، للمجهود الحربي وسير الناس للجهاد فيها بقيادة العلماء . في ١٩١٥ أعلن في الحلة أن الحكومة ستتزل العقاب بالمتخلفين عن خدمة العلم وأمهاتهم لمدة ٤٨ ساعة . لكن هذا الانذار قوبل بمظاهرات مسلحة صاخبة أعلن المتظاهرون فيها عن عزمهم على مقاومة الحكومة بالسلاح اذا لم تعدل عن قرارها ، فاستخذت =

ويجب ان يُعَد الاتراك في تعاملهم مع الشيعة في الفرات بين الذين يريد الله إهلاكهم . فقد ثبتت حماقتهم الفريدة في سلوكهم بالموقف الذي وقفه القبائل تجاهنا بعد احتلال بغداد . لكنهم قبل تلك الفترة من الزمن أعربوا عن نواياهم

= الحكومة تجاه هذه المظاهرات وأعلنت عفوها عن المتخلفين قبل انتهاء مدة الانذار . وبعد أيام باغتت السلطات التركية مدينة الحلة بقوة من الجيش جاء بها عاكف بك وجعلها تطوق الحلة عند الفجر ليعيد بذلك هيبة الحكومة وكرامتها لها . وما أسفر الصبح حتى نشبت معركة شديدة بين الأهليين والقوة التركية ، اشترك فيها سكان القرى المجاورة كذلك . وقد انتهت المعركة بقتل عدد غير قليل من الجند وانسحاب باقي القوة الى ثكنتها . وحينما توقف القتال تقدم البعض من وجهاء الحلة الى الحكومة يعرضون ولائها واخلاصها لها واستعداد الأهليين لتعويض الحكومة عما أصابها من أضرار ، فوافقت على ذلك وانتهى الأمر . وتسمى هذه « وقعة عاكف الأولى » . وبعد مرور سنة على الحادث اعتدى الحاج علي الشيخ حسن (والد المحامين حسين وحسن الحاج علي) على قائم مقام الحلة مصطفى بك المميز (لا ينتمي الموما اليه الى أسرة المميز المعروفة) وأخرجه منها ، فأمطر القائم مقام المذكور مرجعه في الأستاذة بوابل من البرقيات الشديدة ، طالباً الاقتصاص له من أهالي الحلة الذين أهانوا الدولة بشخصه . فجفل الحليون من هذا الحادث وأوجسوا خيفة منه . وكان تخوفهم هذا في محله ، فقد جاءهم في تشرين الأول ١٩١٦ رفعت الجادر جي (والد السيد كامل الجادر جي) ، وكان ممن امتلك أملاكاً وبساتين في الحلة ، وأخذ يقننهم بوجوب مصالحة الحكومة لأنها لا تريد شرأ بهم لكونها مشغولة في حرب طاحنة مع الانكليز . وطلب منهم خلال ذلك ان يستقبلوا القوة التي ستمر بالحلة في طريقها الى السماوة لامداد الجيش العثماني فيها . وبعد تلك غير يسير من جانب رؤساء الأحياء الشعبية استطاع المرحوم السيد محمد علي القزويني اقناع الأهليين باستقبال الجيش . وحينما قارب الجيش مدينة الحلة نادى المتنادون في الأسواق والمحلات العامة بالخروج للاستقبال ، فخرج الأهليون يتقدمهم العلماء والوجهاء .

ويظهر من حقيقة ما وقع بعد ذلك ان الأمر الذي جاء به السيد رفعت الجادر جي لم يكن سوى خدعة ، أو حيلة مدبرة . فبينما كان الناس مجتمعين في « مشهد الشمس » للاستقبال طوقهم الجيش ، وأعلموا أنهم أصبحوا رهائن ، وان الجيش سيدخل الحلة فاذا لقي أية مقاومة منها فانهم سيعدمون كلهم . وخطب فيهم عاكف بك قائد الحامية يذكرهم بالحوادث التي وقعت قبل سنة ، ويبلغهم بأنه تلقى أمراً من القائد العام في العراق خليل باشا بمحو مدينة الحلة من الوجود ولكنه حصر أعمال الشعب والفتنة في أربع محلات فقط : هي محلات الطاق ، وجبران ، والجامعين ، والوردية . ولذلك قرر أن يهدم هذه المحلات بالمداغ ويحرق بيوتها . وبعد ان احتلت القوة المراكز المهمة في المدينة هاجموا أحياءها وهدموا بيوتها ثم نهبوا واحرقوها ، وعمدوا الى أسر النساء والأطفال فأخذوهم سبائاً الى الأناضول .

الحسنة . ففي صيف ١٩١٦ كان رئيس الحكام السياسيين قد بعث رسولا الى شيوخ الخزاعل ، وهم المجموعة المتحالفة التي تضم عدداً من القبائل النازلة على فرعي الفرات في جنوب الكوفة والديوانية ، مزوداً بالرسائل والنشرات ليخبرهم بثورة الشريف ضد الحكومة العثمانية . فعاد الرسول ومعه كتب ذات لهجة ودية الى رئيس الحكام السياسيين والشيخ خزعل شيخ المحمرة . وكان وصوله الى الفرات في بادئ الامر في الوقت المناسب . لان الاتراك كانوا قد أثاروا الاحقاد القديمة بين القبائل بواسطة السيد هادي مكوثر من أسرة السادة الملاكين الاثرياء الذين تقع مقاطعاتهم في الشنافية وحولها . وكانت الحكومة العثمانية تخشى نفوذ شيوخ الخزاعل على الدوام ، فأضعفت أسرة الخزاعل المالكة وقضت على نفوذها بارتكاب الحيانة مع الشيوخ من جهة وباسكان قبائل أخرى أكثر انقياداً للسيطرة العثمانية - كالفتلة - في مقاطعاتهم بزعم انها اراض اميرية من جهة أخرى . وحينئذ ألحوا على الفتلة بمساعدة عجمي في فتح ممر لامداداتهم اليه . وتحقيقاً لهذه الغاية هاجمت الفتلة وحلفاؤها الخزاعل ، لكن الخزاعل استفادوا من سمعة الاتراك التي ساءت بين الشيعة فكتلوا مجموعة في جانبهم وقاوموا مناوئتهم بنجاح . وطلب الى السيد محمد كاظم اليزدي ليصلح بين الفريقين فلبى ذلك الطلب واجرى الصلح على اساس ان كلا الفريقين يجب ان يمتنع عن تقديم المساعدة الفعالة للبريطانيين وللأتراك ، اما اذا هاجم الاتراك الخزاعل فعلى القبائل الأخرى ان تتآزر مع الخزاعل

= وقد سبق عدد كبير من وجوه الحلة ورجاها الى المجلس العربي العسكري الذي شكل فيها ، فحكم على قسم كبير منهم بالاعدام ، وبلغ عدد الذين شنقوا (١٢٥) شخصاً . والمعروف من هؤلاء : محمد صالح شريف (والد عبد الرزاق شريف) ، والحاج أمين علوش ، والحاج علي الشيخ حسن ، ووهيب الشيخ حسن ، ومحمي بن نور الدين ، وسيني أغا بن محيي أغا ، وملا ابراهيم مع ولده عبود (والد الدكتور يوسف عبود) ، والضابط ابراهيم فوزي ، والموظف عبد الوهاب بك ، وصادق الشيخ عبد الحسين (عم الدكتور مهدي البصير) ، ويطلق على هذه « وقعة عاكف الثانية » .

لصدهم . وكان الخزاعل يخافون من أن يثار الأتراك منهم ، فاسترحموا منا ان نسوق مفرزة صغيرة الى السماوة بشرط ان يثيروا البلاد في مصلحتنا عند اول ظهورها هناك .

موقعة الكوت

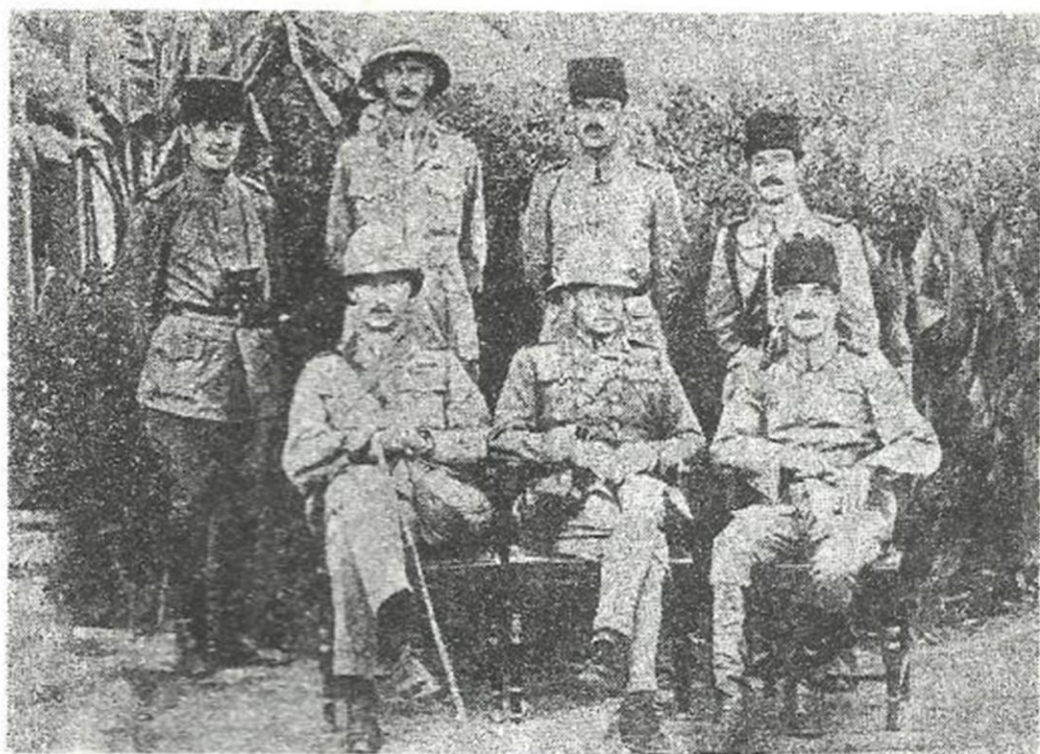
على اننا كنا منشغلين بتركيز جهودنا في خط دجلة . فليس من الضروري ان نسرد هنا شيئاً أكثر من خلاصة احتلال كوت العمارة وضياعتها ثم استردادها مما كان يؤلف اهم شؤون الحملة العراقية . حيث ان قواتنا بعد ان احتلت العمارة بمدة وجيزة تقدمت الى علي الغربي فاحتلتها في تموز ١٩١٥ . فسبب هذا اتصالنا ببني لام الذين كانوا يتمسكون في شمال العمارة بموقع يضاهي موقع ابو محمد في الجنوب او اكثر منه اهمية . وكان اشهر شيوخ بني لام ، غضبان البنية ، قد رثته الحكومة العثمانية في بداية الحرب ووعدهه بأقطاعه مقاطعات واسعة بعد ان كان في ثورة دائمة ضد الأتراك ، فساعدتهم في حركتهم ضدنا في الاهواز خلال نيسان ١٩١٥ . وبعد سقوط العمارة قدم خضوعه الى رئيس الحكام السياسيين وأعرب عن رغبته في تجهيزنا بقوة تساعدنا في زحفنا على الكوت . على ان بعض التباطؤ قد حصل ، وفي الوقت نفسه تراجع الاتراك على طول دجلة مارين بمخيم غضبان بعد صحوهم من اندحار العمارة . فقطع المفاوضات معنا وسمعنا بعد ذلك بقليل بانه قبض رشوة دسمة من الاتراك وانضم اليهم . فتسنى لنا بمخامرته هذه ارجاع المقاطعة التي أقطعها الاتراك له مؤخراً الى ملتزمها المحق الشيخ جوي (اللازم) الذي أصبحت مصلحته تتفق مع مصلحتنا . ثم استولينا على كوت العمارة في ايلول من دون أن يقلقنا بنو لام مرة اخرى برغم عودة شيخين من شيوخهم هما علوان وكتاب الى جانب العثمانيين في تشرين الاول عندما قطعت قطعة من المدفعية التركية خطوط مواصلاتنا . وقد رحب بنا بعد احتلال الكوت بعض شيوخ ربيعة ، القبيلة التي تحيط بها ، بينما ترفع عن ذلك بعضهم



الآخر . اما القبائل النازلة الى أبعد من هذا شمالاً ، مثل قبائل زبيد وشمر طوقة ، فقد وقفت منا موقفاً ودياً بوجه عام فجرت حركتنا نحو بغداد في أحسن جو بالنسبة لشعور القبائل تجاهنا . لكن الارتداد عن سلمان باك الذي وقع في تشرين الثاني أمام قوة تفوقنا كثيراً في عددها غيرت وضع الميزان السياسي . فقد آزرت القبائل جرياً على عاداتها المنتصرة ، الذي كانوا يخضعون اليه من قبل ، وفي خلال جميع الحركات التي جرت حول الكوت كانت هذه القبائل المتصلة بالاتراك مباشرة تحوم حول معسكراتنا كما يحوم أبناء آوى : تنهبها وتقتل جرحانا وتجرد موتانا من البستهم . وقد حوصرنا في الكوت في ٧ كانون الاول ، وعرفت الاشهر

الاولى من عام ١٩١٦ بالجهود غير خليل باشا والي بغداد وقائد الجيش التركي في العراق المجدية التي بذلت لانجاء القوة المحاصرة ، وفي ٢٩ نيسان أي بعد حصار دام ١٤٣ يوماً أجبر الجوع الجنرال طاونزند على الاستسلام . وقد اشترطنا في الشروط التي عقدت مع القائد التركي بأن السكان الذين شاركوا الجنرال طاونزند أهوال الحصار وخضعوا لأوامره يجب ان لا يصيبهم التنكيل ، لكن الاتراك ما دخلوا البلدة حتى قبضوا على أشهر المواطنين المسلمين وكان بينهم الشيخ فاعدموهم^١ .

(١) ومنهم الحاج عباس العلي وولده علي ومحسن ، ومحمد نجيب ابو شويله رئيس البلدية ، =



خليل باشا والجنرال طاووزند بعد استسلامه وأسره ، مع عدد من رجاله .

وقد اطلع جميع من كان في الجنوب من عرب وبريطانيين على قصص التنكيل بغضب .

احتلال بغداد

ولم يكن بوسع الجنرال مود ان يبدأ بحركاته لاسترداد الكوت الا في نهاية ١٩١٦ . وبعد قتال عنيف جرى مع عدو متخندق بقوة ، في موقع تساعده الطبيعة مساعدة جسيمة في الدفاع ، تمكن من زحزحة الاتراك . وفي الرابع

= وناموس شيخ جصان : وعبد من عبيد الحاج عباس العلي ، وعباس ظاهر الجميبي الجميلي ، وياسين الجعفري ، وعلي زمام المكصوصي ، وخماس جبارة الطائي ، وحموني رطبية الملقاشي ، وعلي دروش ، وعلي عبود السيفاي ، وداود عبود السيفاي ، وكاظم عيسى الموسى ، وعبد الرزاق الصحاف ، وموسى عيسى اللامي . وقد اعتقل آخرون وأخذوا أسرى ثم قتلوا في الطريق ، ومنهم الحاج عليوي بزون السبع ورشيد اليعقوب ، وخضير عباس دثنة وغضبان زمزير وسيد علي سيد مهدي أبو هاون .

والعشرين من شباط ١٩١٧ كانوا يتقهقرون تقهقراً تاماً . ثم احتلت بغداد في ١١ مارس .

وقد انسحب مع الجيش المتقهقر جميع المشايخين للحكومة العثمانية من أترك وعرب ، فاستقبلنا في بغداد بحماسة بالغة السكان الذين ظل يلفهم الذعر مدة سنتين ونصف والذين قضوا الايام التي سبقت دخولنا بغداد مباشرة بخوف متناه على ارواحهم وممتلكاتهم . وقام الاتراك قبل رحيلهم ببعض التهديم . وفي خلال الفترة التي حصلت بين انسحابهم ودخولنا انشغل رعاا المدينة في نهب الاسواق لكن سرعة حركات الجنرال مود عجّلت برحيل العدو قبل ان يتمكن من انزال أضرار كثيرة ولم تعط الرعاا الا فرصة قصيرة للنهب . وكانت من الخسائر التي لا تعوض باب السور الجميل الذي يدعى « باب الطلسم » وهو من آثار القرن الثالث عشر الخالدة . وكانت فتحة هذا الباب قد سدت بعد ان مر منها السلطان مراد الرابع فاتح بغداد التركي الذي خرج منها سنة ١٦٣٨ ، وتقول الاسطورة انها ستفتح فقط ليسر منها فاتح آخر . وقد اتخذ منها الاتراك مخزناً للمواد المتفجرة فنسفت قبل انسحابهم قصداً او من غير عمد . ولم يبق منها سوى حفرة في الارض كانت تدل على موقعها ، حتى أن انقاضها المبعثرة حوالي الموقع جمعها الاهلون قطعة قطعة بسرعة للاستفادة منها في أبنيتهم .

وقد أوعز للجنرال مود بأن يصدر بياناً لاهالي بغداد يعلن فيه ان جيوشنا لم تأت الى البلاد فاتحة بل محررة ، ويشير فيه الى وجود العلاقات التجارية الطويلة منذ مدة بين بغداد وبريطانية العظمى ، والى ان الحكومة البريطانية لم يسعها ان تبقى غير مبالية بما كان يحدث في العراق ، وانها عازمة على ان لا تسمح من جديد بحدوث ما كان قد وقع في بغداد على أيدي الاتراك والامان . ثم يستطرد البيان فيقول '... ولكنكم يا أهالي بغداد يا من حرفكم التجارية

(١) ان صيغة البيان هذه هي الصيغة العربية التي نشرتها السلطات البريطانية يومذاك .



الجنرال مود فاتح بغداد

وتأمينكم من الظلم والغزو أمر يستوجب أدق اهتمام الحكومة البريطانية به
أبد الدهر لا يجب عليكم ان تظنوا بان رغبة الحكومة البريطانية هي تكليفكم
نظامات اجنبية . فأمنية الحكومة البريطانية هي ان تحقق ما تطمح اليه نفوس
فلاسفتكم وكتابكم مرة اخرى ، ولسوف يسعد أهالي بغداد حالة ويتمتعون
بالغنى المادي والمالي بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة واطماحهم القومية
والفكرية .

لقد طرد العرب من الحجاز الترك والجرمان الذين بغوا عليهم وقد نادوا
بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم ، وعظمتهم يحكم بالاستقلال والحرية وهو
متحالف مع الامم التي تحارب دولتي تركية وجرمانية . وهذا هو حقيقة حال
اشراف العرب وأمراء نجد والكويت وعسير . كثيرون هم اشراف العرب
الذين راحوا ضحية في سبيل الحرية على أيدي أولئك الحكام الاتراك الغرباء
الذين ظلموهم .

ان التصميم هو تصميم بريطانية والدول العظمى المتحالفة معها على ان لا
يذهب ما قاساه هؤلاء العرب الشرفاء هباءً منثوراً . ان المأمول هو مأمول
بريطانية العظمى والامنية امنيتها بل هما مأمول وامنية الامم المتحالفة معها ان
تسمو الامة العربية مرة اخرى عظمة وصيتاً وان تسعى كتلة واحدة وراء هذه
الغاية بالاتحاد والوثام .

يا أهالي بغداد — تذكروا بأنكم تألتم مدة ستة وعشرين جيلاً آذاكم
الظلمة الغرباء الذين سعوا دائماً أبداً الى الايقاع بين البيت والبيت كي يستفيدوا
من انشقاقكم . فهذه السياسة مكروهة عند بريطانية وحلفائها . إذ انه حيث
العداوة وسوء الحكم لا يستقيم سلام ولا فلاح .

فبناء عليه اني مأمور بدعوتكم بواسطة اشرافكم والمتقدمين فيكم سنأ
وممثلكم الى الاشتراك في ادارة مصالحكم الملكية لمعاضدة ممثلي بريطانية السياسيين
المرافقين للجيش كي تنضموا مع ذوي قرباكم شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً
في تحقيق اطماحكم القومية .

وقد بعث علماء كربلاء والنجف برقية تهتة الى صاحب الجلالة ، فأجابهم عند اعترافه بتسلمها ان رغبته الخالصة هي انتعاش العراق وسكانه والمحافظة على عتباته المقدسة واستعادته لرخائه القديم . وازدحم مكتب رئيس الحكام السياسيين في الايام القلائل الاولى بالزوار من جميع الطبقات من دون ان يشذ عن ذلك أبناء أبرز الاسر المسلمة . وسارع السر پيرسي كوكس الى مصادقة النقيب ، الرئيس الديني للطائفة السنية ، وبعد ان تقبل النقيب زيارة رئيس الحكام السياسيين قدم بنفسه احتراماته لقائد الجيش . وقد كان مديناً للاتراك في زمن السلطان عبد الحميد عندما كان أشرف السنة لهم وزنهم الكبير ، لكن شعوره أودى بالطيش الذي كانت تبديه جمعية الاتحاد والترقي في الشؤون الدينية ، ولذلك قبل الادارة البريطانية باعتبارها ارجح وجه من أوجه الخيار . على ان السن والمزاج المنطبق على مزاج الدرويش ، كما يحلو له ان يسمي نفسه ، يميلان به عن التصريح العلني بأرائه الواضحة في الشؤون السياسية ، لكن نواياه الحسنة لم تخيب ظننا به . فقد قدم للسلطات العسكرية ، من دون ضغط بل بإشارة بسيطة ، داره القائمة على ضفة النهر التي اعتاد ان يسكنها . واحتمل مزعجاته الشخصية في الشؤون الطفيفة ، معرباً عن اقتناعه بان رئيس الحكام السياسيين يعمل جميع ما بوسعه لتجنيبه أياها ، وكان يظهر نفسه بقليل من الاقتناع مستعداً لصنع الحميل حتى في الامور التي تمس مسجد وضريح جده الشيخ عبد القادر الذي عاش في القرن الرابع عشر . وهو مدين في مركزه لهذا المزار السني . فان قدسية هذا المزار مع سمعته العلمية الخاصة به هو تضعاعه في مقدمة رجال العالم الديني ، كما ان الاوقاف الغنية التي يديرها تجعله هو وأسرته من أثري الملاكين القلائل في العراق . غير ان نفوذه السياسي

(١) اذا كانت برقية مثل هذه قد صدرت في الحقيقة فهي بلا شك من كان يطلق عليهم يومذاك في النجف « علماء الحفيظ » ، أي المعممين الذين كانت تسخرهم السلطة البريطانية لأغراضها الخاصة . فحاشا للعلماء الاعلام الحقيقيين ان تصدر منهم مثل هذه البرقية .

غير عظيم ، وهو بعيد عن طرق التفكير التي يفكر بموجبها الجيل الأصغر .
وفي إثر وجهاء بغداد جاء شيوخ القبائل الصغيرة المجاورة ، مبدئين شيئاً
من التعجب لانهيار العهد القديم المفاجيء ومستبشرين دوام العهد الجديد . وكان
بين الاوائل الذين قدموا من الاماكن البعيدة محمد علي كموونه من كربلا والحاج
عطية (ابو كلل) من النجف ، وأعقبهما بعد ذلك بقليل شيوخ بلدة النجف
الآخرون . فعينت لهم المخصصات ، ورجعوا الى أهلهم مخولين بالمحافظة على
الامن حتى يكون بإمكاننا ان نعالج شؤون المدينتين بصورة مباشرة .

وكون شيوخ القبائل الفراتية جماعة الزائرين التالية مع السادة الملاكين الذين
يتميز وجودهم المناطق الفراتية عن غيرها . فكان بعضهم رجالاً مشهورين من
قبائل بني حسن والفتلة والخزاعل ، وكان آخرون من شيوخ الجمهرات
العشائرية البعيدة النازلة في الاهوار او في حدود البادية ، والآخرين هم نصف
رُحْل . وكانوا كلهم على السواء ممن لم يخضع لسلطة الحكومة التركية ، وقليل
منهم من كان معتاداً على زيارة بغداد التي لم يعرف أبعد منها عندهم . وكانت
البلاد التي قدموا منها لم ترسم خرائطها تقريباً لان رسم الخرائط لم يكن يلقي
تشجيعاً من الاتراك ، فلم يعين فيها سوى مجرى الانهار وحتى ذلك كان يتم
بصورة مغلوطة جداً . وقد اضطررنا الى بذل بعض الجهود لتكوين فكرة عن
المكان الذي جاء منه اولئك الزائرون المجهولون ، وعن علاقات بعضهم
ببعض ، وأهمية كل منهم ، فذلك أمر يصعب تحديده لان كل رجل منهم
كان يُعرف نفسه بانه شيخ أقدم من زملائه الآخرين من جميع الوجوه . وقد
استقبلوا في دار ضيافة الحكومة ، وبعد ان منحوا منحة مالية صغيرة وخلقاً
شرفية أرجعوا الى أهلهم بتوصية المحافظة على السلم والانصراف الى الفلاحة .
فقل سبل الزائرين بالتدريج ، وتضافرت قساوة الصيف الحار غير المؤلف
والحمول الذي يفرضه الصوم في رمضان على تقليل سبل الزوار الى الحد
الاعتيادي .

الفصل الرابع

علاقتنا بالقبائل العربية وبالمدين

المقدسة بعد سقوط بغداد

الأشهر الأولى

كنا على طول الأشهر الستة الأولى التي أعقبت سقوط بغداد قد تمسكنا فقط بالخط الممتد على طول دجلة الى سامرا ، وعلى ديبالى الى بعقوبة (لأن التقدم الآخر في هذا الاتجاه بدأ في تشرين الثاني ١٩١٧) ، وعلى الفرات ما بين سدة الهندية والفلوجة ، وذلك باحتلال عسكري فعال . على أننا صادفنا بادئ ذي بدء معارضةً مبكرة لا يُستهان بها من العشائر المتوحشة . فقد قُتل بعض الضباط والجنود المنزلون ، وهوجمت المعسكرات ، وغُزيت التحصينات ، وكانت تلك التعديات من قبيل التحدي لا من قبيل المقاومة العسكرية . إذ كان من الصعب على العشائر ان تعتقد ، بالنسبة لما كانت تتعرض اليه من الدعاية العثمانية المستمرة ، بأن الأتراك سوف لا يعودون الى هذه البلاد . واستدامت حتى في بغداد نفسها فترة طويلة من الحيرة وعدم الثبت من نوايا الحلفاء النهائية تجاه الأتراك وعودتهم هذه . حيث كان الانطباع العام

عند الناس الى ان وقع هجومنا الناجح في ١٩١٨ أن « الدول المركزية » هي التي ستربح الحرب ، واذا ما فشلت في إحراز النصر فانها سوف تحدث توقفاً في الوضع العام لا يؤدي الى شيء حاسم . وكان أولئك الذين يعتزون باطلاعهم على السياسة العالمية يصرحون بأن العراق سوف يسلم من جديد الى تركية لقاء تحرير بلجيكة من ربقة الألمان ، وكانت العهود المعطاة بعكس ذلك لا تصدق خفية . وكان هذا الشعور يجد ما يماثله بين الشيوخ فيؤدي بكثير من أشد أصدقائنا ثباتاً الى التذبذب ، او الى محاولة الاتصال بالعدو على الأقل ، وذلك بارسال الكتب المصاغة بلهجة ودية بين حين وآخر .

ومهما كان الضغط المتأتي عن سرعة التقدم شديداً على الجيش ، فانه لم يكن أقل شدة على الادارة الملكية التي وجدت نفسها مدعوة في ظرف أسابيع قلائل الى تولي الحكم في منطقة تضاهي في اتساعها اتساع البسلامد التي تم الاستيلاء عليها من قبل ، وكان الأتراك يسيطرون عليها أكثر مما كانوا يسيطرون على ولاية البصرة الموحشة ، المترامية الأطراف . وقد لازم اتساع المسؤوليات الادارية في الداخل اتساع متناسب في العلاقات الخارجية ، ليس مع القبائل العربية البدوية المجاورة فقط بل مع الأكراد في كلا جانبي الحدود أيضاً .

ومع هذا فقد تمت خلال ستة أشهر تهدئة القبائل الخاضعة للادارة البريطانية على مقياس واسع ، إذ كان الفلاحون العشائريون على طول نهر دجلة قد أجلاهم الاتراك بصورة منتظمة خلال الحركات التي سبقت احتلال بغداد ، وانسحب من بقي منهم امام البريطانيين ، فانسحبت شمر طوقة نحو الشمال الشرقي الى بلدروز ومندي كما انسحبت قبائل زبيد الى الفرات . لكنهم عادوا الى ديارهم قبل نهاية الخريف فانصرفوا بشوق وتلهف الى الزراعة بتشجيع الحكومة ومساعدتها . وقد حافظ شيخ مشايخ زبيد عجيل بك بن علي السمرمد على موقف معادي متستر ثم فر الى الاتراك في ١٩١٨ ، ليعود طالباً العفو بعد

الهدنة^١ . وفي الجهات الجنوبية الأبعد من النهر بقي رؤساء ربيعة وبني لام الذين ساهموا عملياً في المجهود الحربي الموجه ضدنا خارجين على الحكومة لمدة سنة واحدة ، لكن أبناءهم وأقاربهم من ذوي الأهلية الذين قدموا خضوعهم حلوا في محلهم كملتزمين للاراضي الاميرية ورؤساء للقبائل ، ولم تحدث في خط دجلة قلاقل أخرى .

اعادة بناء الكوت

كان لاعادة بناء الكوت انطباع عميق في نفوس القبائل . وقد اضطلع بهذا العمل ، الذي اتخذ شكلاً خيراً لتحليداً لذكرى اولئك الذين فقدوا حياتهم في الذب عن البلدة من عرب وبريطانيين ، بعد الاحتلال مباشرة ، ونفذه بحذق وتعقل الحاكم السياسي الميجر دبليو . سي . ايف . ويلسن . فقد ترك الأتراك الكوت عندما فروا مسرعين امام جيوش الجنرال مود خالية خلواً تماماً . وبقيت قائمة في حالة خراب شامل بين بساتين النخيل التي عانت قصف المدفعية ، وقد سدت شوارعها الاطيان او الاستحكامات المبنية وثقت لجدران بيوتها بالقذائف ونيران البنادق وتحدثت أرضها بالحفريات ؛ وكانت جبهة النهر مملوءة بخطوط الخنادق . وظلت منارة مسجد السنة قائمة بمعجزة برغم انقلاع قمته ، لكن مسجدي السنة والشيعة معاً اصابهما شيء كثير من الهدم وملئ بالحفريات . وعانت الاسواق خراباً شديداً كما هدمت بناية السراي بكاملها . فأخذ الاهالي يعودون اليها في الحال ، وفي منتصف مايس كان في البلدة الفانسمه . ونظفت البيوت بأسرع ما يمكن ثم عقيمت ، ورفعت الاوساخ ، وفتح سوق صغير موقت جاءت اليه القبائل المجاورة بحاصلاتها . ثم فتشت ساحة الحرب ودفنت جثث الموتى او أعيد دفنها من جديد . ولم يتعرض احد لمقبرة الجنرال طاونزنسد البريطانية التي كانت تضم حوالي ثلاث مئة قبر ، بل سورت بعناية وأحضر لها

(١) وقد عين وزيراً بلا وزارة في الوزارة النقيبية الأولى التي تألفت في ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٠ ، وكانت أول وزارة يبدأ فيها الحكم الوطني الحديث في العراق .

بستاني خاص ليحافظ على تنسيقها . وكان من الواضح ان تتحمل المصاريف المقتضية لذلك الحكومة لأن العناية بها لا يمكن ان تفرض على سكان كانوا في حكم المشردين . وبجانب كافة الابنية العامة قدمت مساعدات مالية لاعادة بناء عدد من الدور الخصوصية العائدة الى اقارب ومتلقي السبعين رجلاً أو أكثر الذين اعدمهم الاتراك بعد استسلام الجنرال طاونزند ، والى الاسر التي قتل أقاربها من الرجال في أثناء الحصار ، والى اولئك الذين كان الجنرال طاونزند قد اعترف لهم بالتعويضات عن الهدم الذي اصاب دورهم على ايدي القوات البريطانية لضرورة الحرب الماسة ، والى الفقراء المعوزين ايضاً . فبلغ مجموع ما صرف (٥٠,٠٠٠) روبية ، لكن الكوت قد عادت اليها الحياة في نهاية الاشهر الستة الأولى بحيث جمعت منها وارادات بقدر (٢٠,٠٠٠) روبية . واستغل انهدام كثير من الدور لتوسيع الشوارع واستقامتها ، لكن مجد الكوت الجديدة توج بانشاء سوق^١ ذي سقف من الطوق على طول جبهة النهر أنهي بناؤه في منتصف تموز . وعلى هذه الشاكلة أسكن السكان المشردون قبل حلول الشتاء وأصبحت البلدة أكثر ازدهاراً مما كانت عليه قبل تخریبها . فوجد سكان الريف في بعثها من جديد ، بجانب استفادتهم منها ، برهاناً على ان العهد الجديد الذي تأسس على مثل هذه الاسس القوية سيكون شيئاً مقيماً .

ديالى والفرات

لقد نشأت المشاكل العشائرية في ديالى عن تحرك القبائل النازلة فيما يقرب من خط الحدود او في خارج منطقة نفوذنا غالباً ، فاختفت عند تقدمنا ، لكن البلاد كانت تعاني المشاق والمصاعب لان صدور الجنادر بقيت في أيدي الاتراك حتى الحريف ، ولان التخریب الذي قامت به الجيوش العثمانية استمر مدة طويلة من الزمن . وعلى هذا كانت عودة الفلاحين الى أرضهم ، وتوطنهم

(١) لقد تهدم هذا السوق منذ عدة سنوات لأن بناءه لم يكن متيناً .

فيها من جديد ، مع تقدم الشؤون الزراعية في المنطقة أبطأ هنا من أية منطقة أخرى .

اما في منطقة الفرات ، الكائنة في غرب بغداد ، فان قبيلة زوبع المقلقة كانت تحتاج لاكثر من درس تأديبي واحد ، ولم يقدم رؤسائها البارزون خضوعهم التام الا بعد سقوط الرمادي في ايلول ١٩١٧ . وقد جاءنا هذا الانتصار نفسه بأكثر رؤساء الدليم نفوذاً ، وهو الشيخ علي السليمان الذي كان يقيم في الرمادي ، ولم يكن قادراً على معاداة الأتراك ، حتى اذا أراد هو ان يفعل ذلك ، طالما كانوا مستولين على مقاطعاته . وتمتد عشائر الدليم شمالاً مع ~~نهر~~ ، وقد بقي قسم لا يستهان به من القبيلة الى السنة التالية في ضمن المناطق التركية ، لكن سلوك علي السليمان وشيوخ الافخاذ الاخرى الذين أصبحوا خلف خطوطنا كان سلوكاً مرضياً ، وقد قدموا خدمات مفيدة لنا بالقبض على القوافل التي كانت ترد من الموصل متجهة نحو الأتراك في الجزيرة الكائنة بين النهرين .

وكان الموقف في الفرات الاوسط ، من السدة الى السماوة ، موقفاً غريباً . فلم يوضع جندي بريطاني واحد في جنوب السدة حتى كانون الاول ١٩١٧ ، كما لم تقع حين القبائل القاطنة في تلك المنطقة على البزة العسكرية البريطانية قط . لكن منطقة الحلة ، مركز أهم منطقة تنتج الحبوب في بلاد الأنهر المتشعبة من الفرات ، لم يكن من الممكن اهمالها بالكلية ولذلك عين هناك حاكم سياسي في مايس ١٩١٧ . ولم تمتد سلطته بعيداً الى الجنوب حيث تركت للشيوخ اضطراباً ، الحرية في العمل وفقاً لما يروق لهم ، بعد ان زاروا بغداد في اوائل الصيف . فلم يكن لنا اتصال مباشر مع الذين كانوا يسكنون في جنوب الديوانية منهم على شط الحلة وفي جنوب الكفل على شط الهندية سوى ما كان يحدث

(١) لاحظنا في قائمة الحكام السياسيين المنشورة في كتاب أرنولد ويلسن ان الكابتن غوند سميت عين معاون حاكم سياسي في الحلة والمسيب بتاريخ ١٧/٤/١ ، وعين الميجر مكفارسون حاكماً سياسياً في الحلة بتاريخ ١٧/١١/٢٢ .

من الاتصال أحياناً بواسطة المخابرة أو بتعيين أحد الرؤساء ليكون وكيلنا الاسمي في المحافظة على حالة السلم . ومما كان يميز تمسكنا بالفرات الاوسط ان قوة تركية صغيرة وجدت نفسها معزولة في الديوانية فبقيت متمسكة بموقفها حتى نهاية آب . وكان يقودها چركسي مغامر يدعى الملازم محمد افندي ، لانه كان يشق أو يرمي رؤساء الضباط عندما يهمون بالانسحاب . وقد احتل مخزناً وخاناً على ضفة النهر وأفزع سكان البلدة الذين ظلوا مختارين بين تخوفهم من محمد افندي و « شقاته » المسلمين وخوفهم من القبائل في خارج البلد . واخيراً اقنعت طائرتان من طياراتنا باننا كنا عازمين على إنهاء الوضع واننا في مركز يؤهلنا لذلك ، وحينئذ استسلم مع ثلاثين من رجاله الجناة الذين بقوا في الحامية معه بعد فرار الكثيرين من أصحابهم . ولم يصل بغداد حتى أراد ان يلعب آخر دور هزلي يضيفه الى الرواية باجمعها فعرض خدماته علينا وعلى الشريف باي صفة ترضيها . فلم يقبل اقتراحه ، ثم أرسل الى الهند كضابط أسير وانتهت بذلك سيرته كمحارب على طول ما تبقى من مدة الحرب . فعُين في تلك الجهة وكيلاً للحكومة وجيه من وجهاء بغداد يدعى صالح افندي المالي بعد أن كان متصرفاً في الديوانية في زمن الترك .

حوادث كربلا

وكانت أهم قضايا الفرات قضية المدينتين المقدستين كربلا والنجف وليس قضية العشائر . فقد رجع شيوخ البلد من بغداد ، كما ذكر آنفاً ، وهم موكلون عنا ، بصورة وقتية ، بتصرف شؤون الادارة التي كانوا قد أسسوها بعد إخراج الأتراك الاخير في ١٩١٧ ، وبعد ان منحوها من أجل هذه الخدمة بعض المخصصات . فكان ترتيبنا هذا وجه الخيار الوحيد الذي التجأنا اليه ، لان تعيين ضابط بريطاني مع ما يكفي من الحرس لم يكن ممكناً من الوجهة العسكرية . وقبل مضي عدة أسابيع اتضح بان هذا الترتيب لم يكن شيئاً مرضياً للمدينتين نفسيهما ، فقد ترامى اليها أن آل كمونة في كربلا كانوا يستخدمون

مركزهم الممتاز في قضاء مآربهم الخاصة ، فأثار ذلك سخطاً بين شيوخ
البلدة الآخرين وأهمهم أسرة العواد وكسان يمثلها عبد الكريم العواد ، الرجل
الذي كانت عروبه أعرق بكثير من عروبة آل كمونة الذين هم نصف إيرانيين
في نسبهم نظراً لمصاهرتهم الأسرة القاجارية المالكة . ومع ان آل كمونة كانوا
يعكرون بلا شك صفو الجو في راحة النهار ، يظهر انه لم يكن هناك ما يبرر
ذلك التذمر الخطير تبريراً كافياً ، لان محمد علي كان يصرف أمور الادارة
بوجه عام تصرفاً حسناً كما انه حافظ على تهدئة البلد . الا انه كانت هناك من
وجهة النظر البريطانية اعتراضات أشد خطورة على الاخوين . حيث انهما أخذتا
يسيران قوافل كثيرة لنقل التجهيزات الى العدو من كربلا . وقد علم بان
قوافل كبيرة كانت ترد من الشام وحلب معاً في طلب المواد الغذائية ، كما
كانت القوات التركية في الفرات تزود بصورة مستمرة من كربلا ، وكان
أهالي كبيسة ، ولم تكن في ضمن منطقتنا ، يلعبون دوراً مهماً في هذا المسعى .
وعندما عقدنا اتفاقية في جزيران مع فهد بك^١ شيخ مشايخ عنزة ، اكبر مجموعة
قبائلية موجودة في حدودنا الغربية . توقف نقل البضائع بطريق البادية لدرجة
ما لكن تجاهل آل كمونة ، وإغضاءهم أدياً الى استئناف هذه التجارة بصورة
تهريبية على طول الفرات عن طريق اراضي المسعود والجنابيين التي لم يتسن
لفهد بك ان يفرض سيطرته عليها .

وقد كان من المستحيل ان يكون محمد علي كمونة جاهلاً بما كان يجري
من هذا القبيل ، وانما كانت هناك بيتات كثيرة تدل على عكس ذلك .
وأحسن ما يمكن ان يقال عن محمد علي في هذا الشأن أنه تجاهل وجود هذه
الحركة بصورة إيجابية ، بينما كان فخري كمونة مشتركاً فعالاً فيها . فقد
كانت شرطة البلدة التي استخدمها محمد علي لتمثل مصالح الحكومة تستخدم
في توصيل البضائع المرسلة للعدو الى خارج البلد بسلام ، وكان اثنان من خدم

(١) هو الشيخ فهد الهذال والد محروث الهذال شيخ عنزة التي تجاور كربلا من جهة البادية .

آل كمونه يوقعان الرخص المطلوبة عادة. وكانت أهم هذه الصادرات الاقمشة والرز والقمح والقهوة. وفي الوقت الذي كانت الارباح الطائلة، المستحصلة من جباية الرسوم بمقدار باون واحد وحتى باونين اثنين عن كل بعير محمل، قد تكون كافية وحدها لتفسير سلوك آل كمونة في هذا الشأن، فانه من المحتمل ايضاً انهم أخذوا يدركون ان أطماعهم الشخصية المزوقة لا يمكن ان تتبلور في ظل الحكم البريطاني، وعلى هذا الاساس ربما أصبحوا ميالين الى الانصات الى صوت العاطفة. ولا شك أن الاتراك كانوا يقومون بدعاية واسعة النطاق بين القبائل الفراتية ويدلون الوعود بالاستقلال عندما يسترد العراق لحكم الباب العالي. لكن تزويد الجيش التركي كان لا يمكن ان يسمح به مهما كانت الاسباب التي أدت اليه.

وفي ٧ أيلول دعى السر پيرسي كوكس، الحاكم الملكي العام، فخري كمونه للحضور الى بغداد في التاسع منه. فانصاع للأمر، وعند حضوره شرح له اشتراكه الذي لا ريب فيه في المتاجرة مع العدو وتشجيعه لها، كما قيل له ان وضعه هذا يجعل بقاءه في كربلا شيئاً لا يتفق والمصلحة العسكرية، وانه سوف ينفي الى الهند بصفة ضابط أسير من أسرى الحرب. فقبل طائعاً بالقرار الذي يستبعد عدم تكهنه به. وفي اليوم التالي تسلم محمد علي ايضاً دعوة شفعية بالحضور الى بغداد وجهها اليه الحاكم الملكي العام بواسطة ضابط الاستخبارات في كربلا. فأعرب عن رغبته في السفر صبيحة اليوم التالي، لكنه سمع بخبر اعتقال فخري فعدل عن السفر برغم «الحظ والبخت» اللذين أعطاه اياهما ضابط الاستخبارات. وعلى هذا بعث اليه الحاكم الملكي العام بكتاب شرح له فيه الاسباب التي دعت الى اعتقال فخري، كما أضاف الى ذلك قوله انه بالنظر لما وقع فليس من مصلحة الحكومة بان يبقى هو وكيلاً لها، ومن الضروري ان يعين في مكانه ضابط بريطاني بصفة معاون حاكم سياسي. ثم أخبر بانه اذا كان يفضل بالنسبة للظروف الراهنة ان يبتعد عن كربلا فان الحكومة ستتخذ الترتيبات اللازمة لاقامته بصورة مريحة في أي مكان آخر من العراق يتفق عليه.

وبعد شيء من التردد قرر محمد علي الاذعان للدعوة وجاء الى بغداد . وقد أقنعه في اتخاذ هذا القرار على الاكثر الشيخ حسين المازندراني^١ ، احد مجتهدي كربلا البارزين ، الذي ألح عليه بشدة بأن لا يعصي أوامر الحاكم الملكي العام وذكره في الوقت نفسه بان الحكومة البريطانية لا تشبه الحكومة العثمانية بوجه من الوجوه ، وان الوعود التي نعطيها نحن بسلامته يمكن ان يعتمد عليها بأمان . يضاف الى هذا ان الدور الذي لعبه السيد محمد كاظم اليزدي في النجف لم يكن أقل استشارة للامتنان ، لانه رد على طلب تقدم به اليه محمد علي كمونه في توسط قضيته بانه اعتزل عن العالم منذ مدة . واذا أريد منه شيء يختص بأمر الآخرة فهو على استعداد لتلبية الطلب ، لكنه لا يمكن أن يبدي أي رأي في شؤون الحكومة . وقد بين بصورة عرضية انه لا ينوي الافتاء بالجهاد ضد الطائرات او السيارات ، غير انه وافق على ان يتوسط بعدم اسناد منصب « الكليدارية » ، وهو منصب حامل مفاتيح خزان العتبة المقدسة ، الى شخص من اسرة أخرى ، فأعطي المنصب الى حميد بن محمد علي كمونة .

وهكذا عين معاون^٢ حاكم سياسي بريطاني في كربلا ، واختار محمد علي كمونه الإقامة في بغداد . وقد سر بتنحية الاخوين من آل كمونه رؤساء الدين سروراً بالغاً ، أولئك الرؤساء الذين اضطروا من اجل سلامتهم ان يحافظوا على علاقات ودية ظاهرية معهما برغم ان ازدياد سلطة الكمونييين كان مثيراً للقلق والمفعم بالحسد بينهم . على ان الاسرة لم يقض عليها بهذا الترتيب ، لان محمد علي بقي يتمتع بأملأكه وعين ولده كما ذكرنا سابقاً في منصب الكليدارية كما عين أخوه الشيخ هادي رئيساً للبلدية . لكن محمد علي اكتشف في الخريف بانه كان متمرساً في بث الاشاعات المعادية ، كما وجد ان هادياً كان يجني

(١) وهو الشيخ محمد حسين المازندراني أحد ابناء العلامة الشيخ زين العابدين الخائري المتوفي سنة ١٣٠٩ هـ في كربلا .

(٢) كان الميجر پولو أقدم معاون حاكم سياسي عين في كربلا على ما يبدو ، فقد عين بتاريخ ١٥/٩/١٧ .

أكثر من الارباح المشروعة من منصبه . فألحق الاول بأخيه في الهند وحوكم الثاني على يد لجنة قضائية فوجد مذنباً . وفي الوقت نفسه أعيد منصب الكليدارية الى أحد افراد الاسرة التي كانت تتمتع به من قبل .

ثورة النجف

واذا كان التخلص من شيوخ البلد قد تم في كربلا بصورة سلمية ، فانه اتخذ شكلاً مفاجئاً في النجف . فقد كانت المواد الخام في النجف اكثر قابلية للالتهاب كما كان هناك مهيج فظ في الميدان ، هو الحاج عطية ، الذي كان مستعداً لاشعالها على الدوام . وكان هذا الرجل ، وهو نتاج عجيب لسوء الادارة في عهد الاتراك ، خارجاً مظفراً على الحكومة لعدة سنوات ومشرداً ، كما كان قبل اعلان الحرب مباشرة سجيناً في بغداد حيث تعرض لأشد انواع التعذيب الجسمي . فتأثر عقله ومزاجه من التقلب الطارىء على سيرته . وبذا انقلب « الشقي » المتمرد على القانون غير الهيّاب الى شخص عصبي قلق لا يحترم القانون . واستعبدت عواطفه الجامحة لما صادفه من الخوف . لكنه استطاع



الحاج عطية أبو خليل

بعد احتلال بغداد ان يسيطر على زملائه وعلى النجف لمدة ثمانية اشهر ، فكان بلا شك متصلاً بكثير من التجارة المحرمة مع العدو كما كان على اتصال وثيق بعجمي بن سعدون الذي أغراه بالمال والوعود على السلوك الطبيعي الناتج عن الاحوال السياسية المتقلقلة وعلى التذبذب بين المعسكرين . ولا بد من التذكر دائماً في هذا الشأن انه لم يشاهد ولا جندي بريطاني واحد في الفرات الاوسط جنوبي السدة خلال الاشهر الثمانية هذه ، لكن وكيلاً حكومياً كان قد

أرسل الى النجف ، وهو حميد^١ خان احد سكان كربلا وابن عم آغا خان ،
 حزين الذي عين فيه للكوفة شخص آخر من سكنة البلاد كان مسيحياً^٢ ذا
 خبرة ادارية . وفي تشرين الاول ١٩١٧ سببت قلة المواد الغذائية في البلد اول
 اضطراب محلي . فقد جاء احد شيوخ عنزة الرحل ، حلفائنا في بادية الشام ،
 الى النجف يحمل كتاباً من الحاكم السياسي المسؤول عن حدود البادية الكولونيل
 ليچمن الى حميد خان يوصي فيه بمساعدة الشيخ العنزي في اكتيال مقدار لا
 يستهان به من الحبوب . فسمح للشيخ بشراء ما يحتاجه ، لكن الخبر ما شاع في
 البلدة حتى قفزت الاسعار وارتفعت في السوق . ومن سوء الحظ ان فهد بك
 بن هذال شيخ مشايخ عنزة الشرقية بعث في اليوم الثاني (١٢٠٠) بعير لحمل ما يبتاعه
 من الحبوب ايضاً برخص موقعة منه . فكان هذا ، بجميع أوجه الاحتمال ، اكثر
 مما كان بوسع البلدة ان تجهزه للبادية ، فهب الاهالي محتجين . وأخذوا يتصيدون
 من كان دخل البلدة من عنزة ، وفي ١-٢ تشرين الثاني نظموا مظاهرة حول
 مخيمهم . وهناك وقع شجار تبودلت فيه بعض العيارات النارية وقتل بعير من
 الابعار ، ثم نهبت ثلاث بندوقيات وحاجات كثيرة اخرى . ولم يستطع حميد
 خان ، الذي لم تكن تدعم سلطته قوة ما ، معالجة الموقف .
 وبصرف النظر عن القلاقل التي وقعت في النجف ، فقد حان الوقت الذي

(١) انه حميد خان بن الحاج أسد خان الملقب بنظام العلماء . وتنسب أسرة الحاج أسد خان من
 جهة الأب الى الحاج محمد حسين الصدر الأعظم الايراني في عهد فتح علي شاه القاجاري ، ومن
 جهة الأم الى أسرة الشاهات القاجارية . ولهذا الأسرة صلة رحم بعائلة آغا خان المعروفة في الهند
 والعالم ، حيث ان عمه المرحوم حميد خان (شمس الملوك) المولودة في النجف هي زوجة آغا
 خان الثاني ووالدة آغا خان الثالث (السلطان محمد شاه) . وأسرة الحاج أسد خان هذه من نسل علي
 محمد خان نظام الدولة ، حفيد محمد حسين خان الصدر الأعظم ، وقد تزوج بنت فتح علي شاه
 القاجاري واصبح صدر أعظم في أواخر ايام فتح علي شاه نفسه . لكنه اختلف مع خلفه محمد
 شاه فاضطر الى ترك ايران والهجرة الى العتبات المقدسة في العراق سنة ١٢٥٦ هـ ، وظل مقيماً فيها
 حتى وافاه الأجل سنة ١٢٦٣ هـ ودفن في مقبرة الأسرة في النجف (مقبرة الصدر) . وقد توفي
 حميد خان في بغداد يوم ٢٣/١٢/٤٣ بعد أن اشغل وظائف كبيرة عدة وظل نائباً في المجلس
 النيابي عدة سنوات .

(٢) وهو رجل يدعى سر كيس أفندي على ما يفهم من القائمة الملحقه بكتاب آرنولد ويلسن

لم يعد يحتمل فيه ترك المناطق الفراتية الواقعة في جنوب الحلة من دون إشراف قريب عليها بالنسبة لأهمية جمع الحاصل والسيطرة عليه . فعُين الكابتن بلفور حاكماً سياسياً في الشامية ، وهي المنطقة الزراعية الغنية التي تقع النجف على حافتها ، وبادر مع حرس من الشيوخ الى القيام بجولات تمهيدية في المنطقة باجمعها الى السماوة . وهناك قابل حاكماً سياسياً آخر هو الكابتن غولد سميث وكان تجول مع حرس مماثل من الحلة وعبر مناطق عشائرية موحشة . وزار الكابتن بلفور النجف في طريقه فسوى النزاع الحاصل بين شيوخ البلد وبين عزرة ، لكنه عندما عاد من السماوة بعد ايام قلائل وجد ان الشروط المتفق عليها لم تنفذ . ولم يحضر لمقابلته الا اثنان من شيوخ البلد ، هما الحاج عطية وكاظم الصبي ، فأدت محاولة للضغط عليهما الى وقوع شغب أثاره الحاج عطية بصورة سرية . فثبت الكابتن بلفور في مكانه حتى هوجمت دائرة الحكومة ثلاث مرات من قبل المتجمهرين ، ورضي بعد ذلك ان يترك بحماية الكليدار الى بيت الكليدار نفسه الواقع على مسافة من دوائر الحكومة . ولم يتوقف الشغب بعد نهب مقر الحكومة في النجف ، وفي أواخر النهار وقعت اضطرابات مماثلة في الكوفة حيث دعا الوكيل الحكومي الشيوخ المحليين وسيطر على الموقف بسرعة ، وفي أبي صخير ، الكائنة الى الجنوب ، حيث كان في النية جعل مقر حاكم الشامية السياسي فيها . ولما لم يكن في أبي صخير أي موظف حكومي يعالج وضع الجمهور المحتاج نهبت الدائرة وأفرغت إفراغاً تاماً . اما الكابتن بلفور ، الذي كان ما يزال من دون قوة تؤازره ، فقد التجأ الى المجتهد الاكبر السيد محمد كاظم اليزدي طالباً المعونة . فدعي الحاج عطية وكاظم الصبي بمشورته وأعفيا ، فعادت البلدة الى احوالها الاعتيادية . ثم أخذ في المناطق الريفية عهد من الشيوخ المتقدمين الذين كانوا منشغلين في تطهير أنهرهم بالمال الذي تسلفوه منا استعداداً لبذر البذور التي تعهدت الادارة البريطانية بتجهيزها لهم — أخذ عهد منهم بالمحافظة على الوضع الراهن والتمسك به . وقد

ساعدنا كذلك معظم السادة الملاكين بولائهم لنا . فقد كان شعورهم ، وهم شيعة ، يبعدهم عن الاتراك وينفرهم منهم ، للمعاملة السيئة التي عوملت بها المدينتان المقدستان كربلا والنجف في ١٩١٥ و ١٩١٦ . وللنهب والسبي اللذين أنزلا بالحلة في تشرين الثاني ١٩١٦ . وكان نفوذهم بين القبائل باعتبارهم سادة ، شيئاً كاسحاً لا بد من ان يرجح كفتنا حينما يستخدم في صالحنا .

ولم تكن حوادث السماوة في الوقت نفسه تجري مجرى سهلاً . فقد كان السيد طفار ، الرجل البارز فيها ، صديقاً لنا منذ مدة ، لكن القبائل كانت صعبة المنال بصورة خاصة . حيث كانت كلها منقسمة الى طوائف صغيرة قسمتها الثارات على نفسها . وقد تعودت كلها على التعيش من نهب وسائل النقل النهرية وسلبها . وعلى هذا لم يكن هناك من جهة واحدة شيخ قوي نعتمد على معونته ، كما كان كل شيخ صغير وكل فرد من أبناء العشائر ينظر من جهة اخرى بعدم ارتياح الى توطيد الامن والى وجود حكومة مستقرة في البلاد . وقد انقسمت السماوة منذ اوائل الحرب الى فريقين كان أحدهما يرأسه شيخ مياي للاتراك ، اما الفريق الآخر فكان برئاسة السيد طفار للميلان البريطانيين ، فكابد بسبب ذلك مشقة الاعتقال لمدة لا تزيد على السنة في معسكر عجمي القريب في البادية . ثم أطلق سراحه وسمح له بالعودة الى السماوة بعد سقوط بغداد ، لكنه لم يستطع المحافظة على الامن وهو أعزل عن المؤازرة فتدهورت الاحوال من سيء الى أسوأ . وقد تحدى بنو حقيم جميع السلطات ، وعندما أرسل الكابتن غولد سميث الى تلك الجهات في تشرين الثاني من دون مؤازرة عسكرية جرت محاولة لخطفه . فكان من الضروري ان يعاقب اسوأ المعتدين بتدمير قلاعهم المبنية بالطين ، وبعد ان تم ذلك هدأت المنطقة وانفتحت طرق التجارة . وهنا كما في كل مكان آخر انتهجنا سياسة تعزيز التشكيلات العشائرية اينما وجدنا انحطاطاً فيها بتعصيب الشيوخ الكبار وجعلهم مسؤولين عن سلوك قبائلهم ، وكما حدث في الحلة والشامية فقد أدى امل العشائر في قيامنا بتحسين شؤون الري والزراعة الى مساعدتنا مساعدة جلي .

وبينما كانت حاجة السكان المدنيين والجيش للمواد الغذائية تزيد من أهمية حوض الفرات إزدياداً مطرداً كان خطر قيام الاتراك والالمان بمحاولة خطيرة لاسترداد بغداد يتناقض ، فأمكن بذلك توفير الجيوش اللازمة لاكمال الاحتلال الفعال للمناطق الكائنة خلف خطوطنا . فزار الحاكم الملكي العام الفرات في أوائل كانون الاول ، وبإشارة منه وضعت مفرزات صغيرة في مختلف النقاط الكائنة على النهر ، وليس في النجف نفسها . حيث ان هذه البلدة بنفوسها البالغة (٤٠,٠٠٠) نسمة كانت أحوالها تستدعي وضع عدد كبير من الجنود فيها ، وقد تكهن من يعينهم الامر بان وجود قوة مختلطة في الكوفة التي تبعد بمسافة سبعة اميال عنها سيكون له التأثير التهديئي المطلوب بصورة غير مباشرة . وقابل السر پيرسي كوكس خلال جولته شيوخ النجف في الكوفة ، عدا الحاج عطية الذي تجنب الحضور خوفاً من الايقاع به . على انه حاول مقابلة الحاكم الملكي العام عند قيامه بزيارة قصيرة للنجف ، لكنه أفهم في هذه المرة انه يجب ان يأتي الى بغداد . وبرغم جميع التطمينات التي أعطيت له كان شديد الخوف بحيث لم يرنا وجهه هناك ، وربما كان قد ربط عجلته في هذه المرة بعجلة عجمي الذي كان قد عاد مؤخراً من زيارة الاتراك في هيت مزوداً بكثير من المال وجرّد حملة قوية للدعاية ، هذا برغم جهلنا لنواياه (نوايا عطية) هذه حينذاك .

وفي صباح ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ ، بينما كانت الخيالة الهندية الواصلة حديثاً الى الكوفة تقوم باجراء التمرينات في السهل الواقع خارج النجف ، أطلقت النار عليها عصابة تتألف من (١٥٠) رجلاً من أتباع عطية من سور البلدة فقتلت خيالاً واحداً وجرحت آخر . فزحفت الخيالة من دون ان تطلق النار على المدينة المقدسة في الحال . ثم أوصل الضابط قائد هذه القوة ، الذي تصادف ان كان موجوداً في النجف حينذاك ، سالماً الى خارج باب السور من قبل شيخ محلة المشرق الحاج سعد . كما زار الحاج سعد هذا بصحبة السيد مهدي^١ ، أوقر شيوخ البلد على الاطلاق ، وآخرين أقل أهمية منه الكابتن

(١) اي السيد مهدي السيد سلمان .

بلفور في الكوفة يوم ١٤ كانون الثاني فأعيد الجميع الى النجف للمحافظة على الامن والسكينة . وفي اليوم التالي أذعن كاظم الصبي لأمر حضوره امام الحاكم السياسي في الكوفة ، غير ان الحاج عطية وجد نفسه وحيداً ففر الى عجمي في البادية . وفرضت غرامة خمسمائة بندقية أو ما يقابلها بالنقد على النجف ، فدفع في اليوم المعين ، اول شباط . وهو اليوم الذي دخل فيه الكابتن مارشال معاون الحاكم السياسي ، مع شُرذمة قليلة من الحرس ، الخان^١ الذي بناه ملكاً له في خارج الباب الشرقي مباشرة الحاج عطية ، ليقم فيه .

وكان الكابتن مارشال فريداً في لياقته لمهمته الصعبة هذه . فقد كان له إلمام بالفارسية ، وقد اشتغل مدة عشرة أشهر معاوناً للحاكم السياسي في الكاظمية ، البلدة الشيعية المقدسة ، وكان محبوباً فيها من الجميع . وكان من المؤمل ان يعود الى انكلترا في صيف ١٩١٨ لعقد قرانه فيها ، لكنه عندما عرضت عليه مهمة الذهاب الى النجف أبدى ارتياحه لقبول هذه المسؤولية العظيمة وبادر للعمل بحذق حبه في الحال لدى الطبقة الدينية التي جاء اليها بتوصيات ممتازة من شبيبتها في الكاظمية . وكان الحاج عطية ، الذي اصبح خارجاً على الحكومة ، في البادية من دون أتباع . فأخبرنا من هناك عن تركه لعجمي وعن أمله في الحصول على عفو من الحكومة . اما أبنائه الثلاثة ، وكان اثنان منهم في دور الطفولة ، الذين لم يرافقوه فقد وافقوا على الانتقال مع نساء الاسرة الى بغداد ، لكنهم في خلال التأهب للرحيل فروا فجأة والتحقوا بعجمي شبه منفين فأصبحوا خارجين على الحكومة أيضاً . وكان كريم بن الحاج سعد ، وهو مجرم من النوع العريق ، قد فر من قبل فعد على الشاكلة نفسها خارجاً على الحكومة . وكان أول وأهم تدبير ضروري يتخذ لتأمين الحالة في البلدة هو اعادة تشكيل الشرطة . لأن قوة الشرطة التي جندت حتى الآن في النجف كان افرادها قد جندوا من عشائر البلدة ، فكانت مطيعة للشيوخ . وكانت قوة من

(١) وهي اليوم بناية مركز شرطة النجف بعد ان كانت سرايا للحكومة مدة من الزمن .

الشرطة الشيعة قد أرسلت من بغداد ، وأخرى من الكوت ، كما صدرت
الأوامر بتجنيد ما تبقى من العدد من خارج النجف . ثم قطعت المخصصات
التي كانت تمنح لشيوخ البلدة عندما كانوا ينوبون عنا ، وكان ذلك بإشارة من
الكابتن مارشال . فكان هذا التدبير عادلاً وضرورياً . لان الشيوخ أخفقوا في
تأدية واجباتهم فحل محلهم ضابط بريطاني . وعلى هذا كان من الأهمية بمكان
ان لا يتمتعوا بعد الآن بمركز خاص . وقد وضعت جباية رسوم البلدية ، بعد ان
كانت غير منتظمة جداً لعدة سنين خلت ، على أسس قديمة . كما شرع
بتنظيف البلدة التي كانت بحالة صحية مزرية ، ودفعت مخصصات وقف إودة
بعد ان كان توزيعها غير ممكن بسبب الحرب . وفي نهاية الشهر كان الكابتن
مارشال ينظر في قضية توفير ما يكفي من الماء الصالح للشرب الى البلدة ، وهي
أهم قضية كانت تدعو الحاجة الماسة الى حلها . وبرغم المنافع الكثيرة التي أدى
اليها فرض حكومة صالحة فإنها لم تكن مقبولة عند الجميع . حيث ان رعاة
عشائر البلدة ، وحتى بعض السادة الصغار الشأن الذين وجدوا انتفاعاً من التصيد
في الماء العكر ، كانوا يحملون شعوراً عداًئياً متسترأ . لكن التجار وطبقة الرأي
العام الفقيرة ، مع السيد محمد كاظم اليزدي وأتباعه ، ارتاحوا ارتياحاً صريحاً
بكسر النير الذي وضعه في رقابهم شيوخ البلدة وبالعودة الى الحالة الاعتيادية
الرتيبة .

على ان التسوية النهائية صادفت تأخراً آخر . فقد نشطت الدسائس التركية
أكثر من نشاطها السابق . فعندما استولت الفرقة الخامسة عشرة على هيت
وغزت عانة وقع في أيدينا ضابط الارتباط الألماني ومعه جميع أوراقه . وقد
دلت هذه المستندات على وجود لجنة للثورة الاسلامية في النجف ، كانت
غايتها الصريحة جعل النجف مركزاً لخلق الاضطرابات بين العشائر . وكان مائة
او أكثر من رجال الدين متورطين فيها ، لكنها لم تكن تضم أناساً ذوي أهمية

من الدرجة الاولى ، وكان الرئيس شخص من اسرة بجر العلوم^١ العلوية وكان نشطاً في الدعوة الى الجهاد الى حين سقوط بغداد . وقد عرفت الخطة تمام المعرفة ، لانها كانت ترمي الى استغلال التدابير الفعالة التي تتخذها الحكومة البريطانية ضد البلدة المقدسة واتخاذها مادة صالحة للدعاية التركية الالمانية في المستقبل . ولا يخفى ان شيوخ البلدة ، الذين جردوا من الامتيازات التي أساءوا استعمالها ، كانوا حقلاً خصباً ، وهناك ما يجعلنا نعتقد ان مؤامرة كانت قد حيكت لقتل الحكام السياسيين الذين كانوا يشتغلون في الفرات الاوسط . أما مقدار اشتراك ضابط الاستخبارات الالمانى في هذه الجريمة فقد كان شيئاً غير اكيد ، فاستفاد في النهاية من منفعة الشك . ومن المحتمل ان الانفجار قد وقع قبل أوانه في النجف اي قبل ان توضع الخطة وضعتاً تاماً ، فكانت النتيجة ان الادارة البريطانية خسرت حاكماً واحداً فقط من الحكام السياسيين الموجودين في هذه المناطق . حيث قتل الكابتن مارشال في داره الواقعة خارج النجف على يد عصابة متكونة من اثني عشر قاتلاً في فجر يوم ١٩ مارت . وكان اثنان من القتلة من اولاد الحاج سعد ، وثلاثة منهم من الشرطة المسرحين ، وكان الرئيس^٢

(١) و (٢) يستفاد من روايات المطلعين وما ورد في (ماضي النجف وحاضرها) عن هذه الحركة ان جمعية سرية تسمى (جمعية النهضة الاسلامية) قد تألفت في النجف يومذاك للعمل على تدبير ثورة منظمة ضد الانكليز تستعين بالعشائر في الفرات الأوسط وغيرها من العناصر الأخرى . وكان من أقطاب هذه الجمعية العلامة السيد محمد علي بجر العلوم ، والعلامة الشيخ جواد الجزائري ، والشيخ محمد علي الشامي ، وعباس الحلبي (فتي الإسلام) ، ومن أعضائها الآخرين الحاج نجم البقال ، وسعيد حميد الحار ، ومحسن غنيم ، وعباس الرماحي . كما كان من شيوخ العشائر الذين تم الاتصال بهم مرزوق العواد شيخ العوايد ، ووادي آل علي من بني حسن في الشامية ، والحاج رايح العطية شيخ الحميدات ، وسلمان آل فاضل شيخ الخواتم (بني حسن) ومشقوف . غير ان الجمعية قبل ان تستطيع تدبير أمرها بروية واتقان فتتصل بالعشائر وغيرها دفعت الحاجة الطائشة بعض أعضائها الى التسرع في العمل من دون أخبار غيرهم من الأعضاء والاقطاب ، وأقدموا على قتل الكابتن مارشال ليكون عملهم بمثابة إشارة للبدء بالثورة .

وكانت هذه العصابة برئاسة الحاج نجم البقال . والمعروف عنه انه رجل من الأخيار حفزه الى =

« شقياً » مأجوراً . وعُرف بان المحركين الاساسيين للمؤامرة كانا الحاج سعد وكاظم الصبي .

وقد أجمع الرأي العام في بغداد وكربلا والحلة والكاظمية على استنكار ما قام به اولئك الثوار في النجف . كما بقيت العشائر كلها محافظة على الهدوء الا شيخان صغيران عرفا بتمردهما على القوانين كانا متورطين بالمؤامرة بحسب ما ظهر من البيّنات غير انه ليس هناك شك بان العشائر كانت كلها ترمق النجف باهتمام ، وان أي تدابير فعالة كانت ستتخذ ضد البلدة المقدسة كمان كان يأمل الترك كانت ستثير شيئاً لا يستهان به من الشعور بالتعصب . لكن الخطر الرئيسي ينطوي في عكس ذلك : لان التقصير في الاقتصاص من قتلة ضابط بريطاني كان سيضع أرواح جميع زملائه تحت رحمة الأراذل من مثل الحاج سعد الذين يحرضهم الذهب التركي . الا انه كان من حسن الحظ ان يقع تقدمنا الموفق على هيت وغزو عانه في مثل هذا الوقت ، لامن أجل حصولنا على المعلومات التي وجدناها في الاوراق الواقعة بأيدينا فقط بل من أجل فضح الضعف العسكري الذي كان عليه الاتراك ودفعهم الى مسافة أبعد عن النجف وعجمي بحيث لا يتمكن ثوار البلدة ولا عجمي من الحصول على أية معونة .

وقد اتخذت الخطوات اللازمة لاضعاف شأن الثوار وخضوعهم مع تحاشي التعرض برجال الدين على قدر الامكان ، والابتعاد عن شن أي هجوم على البلدة مما قد يتضمن ايقاع ضرر ما بالعتبة والاماكن المقدسة الاخرى الموجودة داخل سورها . فأحيطت النجف بنطاق من الجنود الذين قطعوا ورود الماء الصالح للشرب وترك السكان لشرب الماء غير المستساغ ، برغم كثرته ،

= الأقدام على هذا العمل الخطير تدينه وشعوره الوطني ، وقد لبس هو وجاعته لباس الشبانة في ليلة الحادث وانسلوا من كوة في سور البلدة تقع في محلة المشرق . ثم كنوا في المقبرة حتى الفجر ، وبعد ذلك دخلوا البناية المشار اليها بخدعة فقتلوا الكابتن مارشال كما قتلوا طبيباً أيرلاندياً كان معه في الدار . وقتل من المهاجمين رجل واحد وجرح آخر ، فحملوا الى الخارج بعد انتهاء المعركة .

الموجود في الآبار العديدة داخل البلدة . وهناك خارج السور مباشرة أكوام ترابية جسيمة تكونت من التراب المستخرج من بين طبقات الارض (السنون) عند حفر « السراذيب » التي اشتهرت بها النجف . فاحتلت في ٧ نيسان اكوام الحویش المشرفة على محلة السيد مهدي السيد سلمان الذي بقي موالياً للحكومة البريطانية وآوى شرطة الكوت خلال الحركة ، وفي خلال الايام القلائل التالية استولى جنودنا على جميع الحصون الموجودة في السور . وفي أثناء سير هذه الحركات لم تطلق إطلاقاً واحدة على البلدة نفسها وحافظ على علاقات ودية مسديمة مع المجتهد الاكبر السيد محمد كاظم اليزدي . وفي العاشر من نيسان بدأ استسلام القتلة والرجال الذين أدخلت أسماؤهم في قائمة المشتبه بهم التي أحضرناها ، ولم يحل اليوم الاول من مايس حتى كان (١٠٢) من مجموع (١١٠) أشخاص في قبضتنا . وهوجم الحاج عطية من قبل عنزة الموالين لنا فسلم نفسه في السماوة قبل نهاية نيسان ، وفي ٤ مايس رفع الحصار عن النجف . ثم عين ضباط ثلاثة من ذوي الكفاءة والاهلية لمحاكمة القتلة ، وجرى المحاكمة باللغة العربية . فحكم على ثلاثة عشر شخصاً بالاعدام^١ (وابدل القائد العام الحكم على أحدهم الى السجن المؤبد) ، كما حكم على خمسة بالسجن المؤبد وعلى اثنين بالسجن لمدة أقصر ، يضاف الى ذلك ان مائة شخص^٢ مشتبه بهم

(١) نذكر فيما يأتي أسماء احد عشر رجلاً من الذين نفذ فيهم حكم الاعدام شتقاً: الحاج نجم البقال رئيس العصابة ، وكاظم الصبي الذي ساعد الجمعية ولم يكن من أعضائها ، وعباس علي الرماحي مع أخيه علوان ، وكريم وأحمد ومحسن أولاد سعد الحاج راضي ، وعبدالله سعيد ، ومحسن البوغيم أحد قاتلي الكابتن مارشال ، ومجيد بن مهدي دعبيل ، وجودي ناجي . وقد شتقوا في خان علي حمزة النصر الله في الكوفة يوم ٢٠ شعبان ١٣٣٦ . وأفلت من الشق عباس الخليلي ، شقيق الاستاذ جعفر الخليلي ففر الى ايران .

(٢) لقد كان بين المتنفذين هؤلاء سماحة الشيخ محمد جواد الجزائري والسيد محمد علي بحر العلوم وسعد الحاج راضي والحاج عطية ابو گلل وأولاده وأقاربه ، وقد تدخل المرزا الشيرازي والشيخ خزعل شيخ المحمرة بأمر الشيخ الجزائري والسيد بحر العلوم فأعقيا وأقاما في المحمرة برعاية الشيخ خزعل .

سُفِّروا الى الهند كأسرى حرب . وتم تنفيذ الاعدام بحق المحكومين في الكوفة في اليوم الثلاثين من مايس^١ .

وبعد ظهر اليوم نفسه عقد اجتماع في دار كليدار النجف قدمت فيه الى الحاكم السياسي جماعة تمثل رجال الدين^٢ والاهالي وشيوخ المحلات « سيف شرف » . وبعد عشرة ايام قام القائد العام بزيارة رسمية للبلدة فذبحت له الذبائح عند دخوله من بابها بصورة لم يسبق لها مثيل منذ زيارة ناصر الدين شاه ملك ايران . ثم جرت حفلة استقبال في بيت الكليدار حضرها العلماء والوجهاء والشيوخ . وفي الخطاب الذي القاه بهذه المناسبة أوعز القائد العام للحاكم السياسي بتأسيس « بلدية » تتولى شؤون البلدة ووعد بان تلقى قضية تحسين مياه الشرب التفاتاً عاجلاً .

وعلى هذه الشاكلة انتهى ما كان يعتبر أدق موقف لنا منذ احتلال بغداد ، وقد اعترف الجميع في العراق باننا خرجنا من المأزق منتصرين ، وبُشكر على ذلك الخندق والتعقل اللذين عولج بهما الوضع السلطات العسكرية من جهة ووكيل الحاكم الملكي العام الكولونيل ويلسن (حيث كان السريسي كوكس في طريقه لحضور احدى المؤتمرات في لندن) مع الكابتن بلفور من جهة أخرى . لكن كربلا والنجف معاً بقيتا تكونان قبلة مزدوجة للفوران السياسي الذي كانت تسهل إثارته برد الفعل للحوادث التي تقع في إيران او بما يحدث من الاحداث في العراق نفسه . فقد أثار سوق الجيوش البريطانية الى إيران لصدد التقدم التركي من تبريز حينما وقع في خريف ١٩١٨ أمائر التهيج المعتادة في

(١) يعتقد معظم العراقيين ، والنجفيون خاصة ، بان « ثورة النجف » هذه هي حركة وطنية مهدت الأمور لاندلاع الثورة العراقية المعروفة ، في ١٩٢٠ ، التي استحصلت للعراق استقلاله وكيانه الحالي . وهذا كما لا يخفى يخالف رأي واضعة التقرير هذا التي حاولت ان تسبغ على الحركة صبغة التمرد والاجرام ونددت بصورة مبالغ فيها ببعض الرجال .

(٢) لا أعلن ان رجال الدين الاعلام يسهمون في مثل هذا العمل .

المدينتين المقدستين - أي عقد اجتماعات العلماء وصخب الطلبة وتنقلهم من مكان لآخر . ولم تعر القبائل المجاورة التي كانت مشغولة بزراعتها التفاناً لما وقع ، برغم انه في شتاء ١٩١٨ - ١٩ دبر المجتهدون المتحركون إثارة بعضها ، كما سيذكر فيما بعد . إثارة ذات طابع عدائي للحكومة البريطانية . اما مدى نجاح السخط الديني الذي كان يكتفه رجال الدين الايرانيون في كربلا والنجف في إقلاق توازن العراق فانه ما زال عاملاً مشكوكاً فيه بالنسبة للقضايا العراقية . وكل ما يمكن ان يقال هو ان ذلك السخط سيجنح الى التأكيد على أية ظلامية محلية والى محاولة اعطائها شكلاً بارزاً . سواء أكانت تلك الظلامية نظاماً غير مألوف او موسماً مجدياً ، ثم يستخرج منها دعاية سيئة للحكم البريطاني ، ونرى من جهة أخرى انه كلما استقام التقدم في ظل السلم والهدوء وطال أمده ازداد تعلم الناس في البلاد على تمييزه تمييزاً نقدياً ، وقل ميلهم لأن يروا هذا التقدم يعيقه تعصب وعدم انقياد اية طبقة من الناس ، مهما كانت قدسيته .

عنزة

لقد أشير ، عند البحث عن سير الحوادث في كربلا والنجف ، الى حاجات

(١) إن طلبة التحامل على العلماء هذه ، ومحاولة تجريدهم اشتغالهم للحركة الوطنية في البلاد من صبغة الوطنية والمصلحة ، ووصم الكثير منهم بالايرانية والتعصب الديني وغير ذلك كلها أمور لا يمكن ان تخفى دوافعها على أحد . وأهم دافع في نظرنا هو أن العلماء ورجال الدين كلهم كانوا بالنسبة لذلك الوقت ، حجر عثرة في طريق الخطط الاستعمارية التي كان يبيتها للبلاد رجال « المدرسة الهندية » من الاستعماريين الانكليز . وإلا فكيف يسوغ هؤلاء لانفسهم بان تخضع البلاد لهم وتسلم مقاليدها اليهم بمثل السهولة التي كانوا يتصورونها ، ولا سيما في مثل ذلك الوقت الذي كانت الحرب فيه ما زالت قائمة والبلاد لم يحتل الا جزء منها فضلاً عن عدم التأكد يومذاك من مصائر الحرب والنتائج التي كانت ستؤدي اليها . ولعل خنوع بعض العراقيين في ذلك الوقت ومؤازرة بعض الوجهاء النفعيين لسلطات الاحتلال كانا يشجعانهم على أن يتأملوا ذلك من بلاد كالعراق . غير ان تصورهم ذلك قد تبدد فخاب فآلم لان العلماء الذين كتب عنهم واضعة هذا التقرير بالهجة المبحوث عنها تمكنوا في الأخير ، بمؤازرة عوامل كثيرة أخرى ، من اضرار نيران الثورة العراقية في ١٩٢٠ فحصلت البلاد على حكومة وطنية بعد أن منيت « المدرسة الهندية » الاستعمارية بالانحجار .

عزرة وتعاونها معنا . وتقطن هذه المجموعة الموحدة من القبائل البدوية بادية الشام الممتدة بين الفرات والحدود السورية . وهم يصلون في ترحالهم شمالاً الى حلب ، وفي هذه المناطق الشمالية يعبرون الفرات فيحتلون المراعي الغنية بالعشب حوالي البليخ والخابور ، حيث يدل خط من التلول العالية المنتشرة بين القرى الآثورية على رخاء البلاد وثروتها في السابق . وتكون في الجنوب الرمال المتموجة في صحراء النفود الحدود الاعتيادية لهجرة قبائل عزرة ، لان النفود هي المراعي الشتوية لقبائل ابن سعود الشمرية . وفي الشمال الشرقي ايضاً تجد عزرة من اي مكان تعبر الفرات شمر الى جانبها ، لكن شمر في هذه الديار تتبع أسرة جربا وليس أسرة ابن رشيد . وتنطوي اسباب انحصار عزرة بين القبائل الشمرية من جهات مختلفة في تاريخ هجرتهم من جزيرة العرب . ففي منتصف القرن الثامن عشر طغى سيل شمر على حدودها في الحافة الشمالية من النفود واكتسح بادية الشام دافعاً امامه شاغلي هذه السهوب المملوءة بالعشب أو منحياً إياهم الى جانبي البلاد المعمورة . وبعد خمسين سنة أصاب شمر الشماليين ما أصاب غيرهم من قبل على أيدي قبائل عزرة التي تدفقت جموعها من منازلها الواقعة وراء الزاوية الجنوبية من النفود ، حيث ما زالت مقيمة هناك بعض فروعها ، دافعة امامها من تقدمها من العشائر الشمرية الى الجانب الآخر من الفرات ، وهناك في الجزيرة ايضاً حرمتها من الاتصال بالخابور وبليخ . ولما انزلت قبائل شمر في الجزيرة عن أقاربها المقيمين حول حائل في نجد شيعت عليها رؤساء من أسرة جربا لكنها بقيت متعلقة نظرياً بأتباع ابن رشيد ، الا ان بعض الشيوخ كانوا يرحلون في مناسبات مختلفة من الجزيرة الى مراعي الجزيرة العربية الاصلية من دون معارضة . ونجد من جهة أخرى انه أينما كانت تتصل شمر بعزرة كان يعقب ذلك الاتصال الانفجار ، لأن الخصومة بين القبيلتين لا يمكن ان تنطفئ بالكلية مطلقاً .

وقد يبلغ عدد العززين في بادية الشام والجزيرة معاً ربع مليون نسمة . ولا شك ان التقدير مبنٍ على اضعف المعلومات ، إذ لم يحاول احد التفكير باحصاء

خيم البدو . وهم ينقسمون بصورة عامة الى جمهرات ثلاث . فهناك العمارات الذين يدعون بأنهم من سلالة جد أسطوري يدعى بشراً ، وهم يحتلون برئاسة فهد بك بن هذال الزاوية الجنوبية الشرقية من بادية الشام ، ويمضون الصيف بالقرب من الفرات . وهناك جمهرة الرولة التي يرأسها نوري الشعلان ، وهم جيران متقابلون للعمارات ينزلون في الجهة السورية من البادية ، ويلتجئون الى الشام في الاكثيال والتبضع كما يقصد العمارات كربلا والنجف . والجمهرة الثالثة هي جمهرة مختلطة تتألف من الفدعان والسبعة ، والفريقان يتحدران من بشر كما يتحدر العمارات منه . ولذلك فهم يدعون أحياناً كلهم باسم بشر . ويتبع الفدعان أسرة المهيد ، وأبرز الشيوخ بين السبعة ابن مرشد وابن قعيشيش . ويدعي فهد بك انه الشيخ الاعلى لعزرة بأجمعها ، لكن حقوقه الشرعية او القانونية مهما كان شأنها هنا فانه من الوجهة الواقعية لا ظل لسلطته على الرولة . كما ان الفدعان والسبعة لا يكادون يعترفون به الا اعترافاً ضئيلاً ولا يمكن ان يعتبر ذلك خضوعاً له . وحتى أقاربه شيوخ العمارات لا يطيعونه او يعيرونه أذنأ صماء الا تبعاً لما تقتضيه مصلحتهم . فالملشيخة عند البدو اصطلاح غير دقيق . ومع ذلك ، فان ابن هذال يعتبر اعظم شيوخ البدو في حدود العراق الغربية ، وقد حاول الاتراك إدخاله في جهازهم الاداري بتعيين والد^١ فهد قائماً للبادية الواقعة بين واحة شفاثة وكربلا حيث يملك في نهاية جدول^٢ يتفرع من الفرات عدة أفدنة من الأراضي الصالحة للزراعة يقوم بزراعتها فلاحون من سكنة المناطق النهرية . وقد ورث عنه ابنه^٣ هذه الارض واللقب التركي ايضاً . فكان هذا اكبر تدبير من تدابير العثمانيين الظاهرية ، الا انه لم يكن في مقدوره ان يسبغ على الشيخ البدوي أبعد الشبه بالأفندي التركي . وليس لفهد بك مسكن ثابت ، حيث انه في أواخر الشتاء وفي الربيع يمكن ان يوجد مخبئاً

(١) و (٢) والد فهد هو الشيخ هذال ، اما الجدول فهو الحسينية .

(٣) محروت بك .

في الوديان الضحلة المملوءة بالعشب من وديان بادية الشام تحيط به حوالي مائتي خيمة تنتشر انتشاراً متسعاً منعاً لما قد يجري من هجوم مباغت عليه . وترتفع قطعان إبله الى مسافة عدة أميال من حول المخيم ، كما يقوم هجانه المزهوون بجباية الأتاوى من كل قافلة تمر من ذاك الطريق . ويعطي هذا الشيخ المسن ، حينما يجلس فوق السجاد النفيس في خيمة ضيوفه ومن ورائه الصقر وكلب الصيد ، صورة من صور الهيبة العشائرية لا يمكن ان تضاهيها صورة المدن المسورة والقصور الشاذلة التي يسكنها أمراء أواسط الجزيرة العربية وجموع عبيدهم المسلحين .

وبعد الاحتلال بشهرين زار ابن هذال بغداد فقابلته السلطات البريطانية باحترام وتبجيل ، وعقدت معه اتفاقية حسب الخطة المعتادة . فخصصت له منحة مالية وتعهد بالمحافظة على السلم على طول حدودنا ، وبمعاملة اعدائنا كما يعامل اعداءه ، ومنع مرور البضائع غير البادية . اما التعاون العسكري الفعال ضد الأتراك وحلفائهم فان عنزة لم تقم بشيء منه بالنظر لسوء الضبط العشائري المعروف . لكنهم قاموا بتحريض من الخاكم السياسي في البادية ، الكولونيل ليجمن الذي يعد قائداً للغزوات أحسن من شيوخهم انفسهم ، بمصادرة عدد لا يستهان به من القوافل التي كانت تتجه الى دمشق او حائل ، وربما كانت قيمة البضائع المصادرة تزيد على مبلغ المنحة التي كانت تمنح لفهد . ولقد جنت عنزة في شتاء ١٩١٧ - ١٨ أتم المنافع من علاقاتها الودية مع الادارة البريطانية . فان خطر المجاعة الذي كان نحيماً على العراق لم تكن تستثنى منه البادية ، لكن عشيرة فهد تسلمت من عندنا كميات كانت ترسل بانتظام من الحبوب والتمور . بينما كان الأتراك والألمان يعاملون السبعة والقدعان المحاددون لاراضي العدو معاملة تختلف تمام الاختلاف عن ذلك . وبذا كانت الجموع الجائعة تعبر بادية الشام ملتجئة الى فهد ، فكان يعطي اليهم والى قبائله الاصلية نصيبهم الشحيح من المواد الغذائية ، وما حل كانون الثاني حتى كان مائة الف بدوي ينجمون على مقربة من شثمائة . ولما كانوا وادعين سهلي الانقياد ، مثل سلالات كلابهم

وخيلهم المشهورة ، فانهم لم يحدثوا اي اضطراب بل قبلوا بمنة المؤونة التي
زودوا بها ، وعندما ملأ العشب ضروع نياقهم الحلابة في الربيع أخذوا يرجعون
الى ديارهم من واد مجذب الى واد ممرع ونسوا في غمرة خصوماتهم الداخلية
المستديمة الدور الذي خصص لهم خلال الحرب في مناوأة الأتراك .

قبائل شمر

ان اختلاط الحكومات المستقرة بالعشائر البدوية يسوده خداع الاطراد

(١) جاء في (دليل جزيرة العرب) السري الذي نشرته وزارة الحرب البريطانية باللغة
الانكليزية سنة ١٩١٦ ان جمهرة قبائل عنزه الكبرى ربما تعد أكبر جمهرة قبائلية بين قبائل العرب
البدوية . وهي تشغل مثلاً يتكون من بادية الشام والحماة ، تستند قاعدته على منطقة النفود
في حوالي درجة طول ثلاثين ، ويقرب رأسه من حلب في حوالي درجة طول ٣٦ . وتعتبر
المراعي الكائنة شمالي دير الزور في الجهة الشرقية من الفرات على طول نهر الخابور من ديار عنزة
كذلك . بينما تقطن مجموعة أصغر من القبائل التي تمت بصلة الى عنزة حول ثيما ما بين سكة حديد
الحجاز وحدود النفود الجنوبية الغربية . ويقال ان ابن سعود ينتمي الى عنزة (الحسنة) .
وتنسب عنزة إلى « أهل الشمال » من العرب . كما يعتقد المؤرخون ان هذه القبائل تنحدر من
نسل عنزة بن أسد المتفرع من ربيعة ، إحدى الدوحتين الكبيرتين اللتين تنسبان الى زار . غير
ان الرجل العنزي الحديث ينسب دوماً الى وائل الذي يتبع الى فرع أصغر من فروع المجموعة
الأسدية ، ويقول ان ابنه عنز أو عناز هو الذي تسمت باسمه القبيلة . على أن قبائل عنزة لا يجمعها
رئيس واحد وانما تنقسم الى فروع عدة كبيرة يقف كل منها موقفاً ودياً تجاه الآخرين ، من دون
أن يخلو ذلك من الغزوات والاختلافات الشخصية بين الشيوخ الصغار . وخصم عنزة الوراثي هي
قبائل شمر ، ولذلك فان تاريخ البدو في جزيرة العرب كانت خلال المئة والخمسين السنة الأخيرة
تسيطر عليه أخبار الخصومة المحتدمة بين هذين الفريقين .

ويبدو ان مقر شمر الأصلي كان يمتد في شمال وادي الرمة ، على طريق الحج ما بين البصرة
والمدينة ، وحتى الى ابعد من ذلك جنوباً في اتجاه اليمن . وبدافع من العوامل الغامضة ، التي
كانت تدفع سكان الجزيرة العربية خلال الحقب التاريخية المتعاقبة الى الهجرة نحو الشمال ، أخذت
هذه القبائل تقلق وضع عنزة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فصارت تقتفي أثر شمر
في بادية الشام ، ودفعت قبائل الفدعان والحسنة القبائل الشمالية أمامها عبر الفرات ، ثم وطنت
ففسها في السهوب الشمالية التي يقل جديها عن جذب الفلوات في أواسط الجزيرة ، وتتميز بكميات
أكبر من الأمطار الهاطلة . والظاهر ان المهارات والسبعة وولد علي جاءوا بعد هؤلاء ، ثم تبعهم
قبائل الرولة في أواخر القرن الثامن عشر .

والتناسق ، ولذلك فان تعاملنا مع قبائل شمر الشمالية كان يشبه تعاملنا مع عنزة سورية شبهاً قريباً . وبالنظر لنفور الأتراك الكلي من رعاياهم الذين يشنون في طباعهم وعاداتهم عن القواعد العثمانية الرسمية ، فقد كانوا على درجة مماثلة من الفشل في التعامل مع البدو وإدارة شؤونهم . لكن شمر جربا كانت أقل حظاً في موقعها من خصيمتها عنزة . فقد كانت منازلهم وهي محصورة بين نهري نهرين أقل مناعة من بادية الشام الواسعة ، ولذلك كانت الحكومة بين حين وآخر تمد يدها اليهم فتزل بهم ضربات مسددة . فقد أنزلت بهم ضربتها الأخيرة في ١٩١١ حين بعث اليهم ناظم باشا ، والي بغداد يومذاك ، رتلأ كان يقوده بمهارة رئيس أركان حربه فأحاط بهم وبحيواناتهم المختلفة وجمع الكبودة عن الابل والاغنام المستحقة عليهم منذ عشر سنوات خلت . وكان يمثل أسرة جربا الحاكمة وما زال أبناء فرحان الحربا البالغ عددهم خمسة عشر ابناً يختلفون في مقامهم وأهميتهم في القبيلة . وقد اعترف بالعاصي وهو اكبرهم سناً ، شيخاً اكبر للقبيلة بأجمعها ، وجعل مسؤولاً عن حسن سلوك رجال عشيرته . وحصل الاخ الاصغر ، حميدي ، وكان على اتصال وثيق دائم بالموظفين العثمانيين باعتباره ممثلاً للقبيلة عندهم ، على عطف الأتراك ، فوجدناه منحازاً اليهم بعد احتلال بغداد انحيازاً جازماً بينما أثر العاصي ، الذي كان بعيداً في المراعي الشمالية حول نصيبين ، بفطنه ان يبقى هناك ، وارتحل الاخ الآخر ، فيصل بك ، الذي كان في نجد منذ مدة ، الى مكة ليقدّم احتراماته الى الشريف .

وكان من عادة شمر جربا ان ينزلوا الى الجنوب عندما تسمح لهم الظروف في الشتاء ليتمتعوا بدفء الجو في العراق ، وحينما تبين لهم ان الحرب العامة لا يمكن أن تؤثر على عاداتهم تلك جاءوا الى جهاتنا فظهرت حوالي الف خيمة تعود لهم في خريف ١٩١٧ . وكان يرأسهم يومذاك ابن آخر من أبناء فرحان هو عبد العزيز بك ، وجاء في أثره كذلك ابنه عجيل الياور بألف خيمة أخرى . ولما كانوا وهم بهذه الحالة أشبه بنطاق عسكري تحت الخدمة

الفعلية يمتد من الفرات الى دجلة ويطلق النار من بعيد على كل من يتقدم ، لم تكن هناك قوة تستطيع منع هجرة عشائرية من هذا القبيل ، هجرة تشبه المد والجزر الذي يحدث في البحر بتأثير القوانين الطبيعية . فلم نحاول نحن منعهم عن ذلك ، وخصصت لهم المراعي ، ثم منحوا المواد الغذائية والمنح المالية الصغيرة .

وبعد أسبوع واحد او أسبوعين رجع فيصل بك من مكة يحمل كتب توصية مشرفة من الشريف . وتأثير ورقة الاعتماد هذه دعي للاحتفاء بأخيه وابن أخيه لينظم معهما خطة للعمل ضد الاتراك في الجزيرة الشمالية . غير ان الأقارب المجتمعين ثانية سرعان ما اختصموا فانسحب في اوائل الربيع عبد العزيز وعجيل مع معظم من جاء معهما الى الاراضي التركية . ولم يكن يؤمل منهما أن يبقيا خلال الصيف في مواقعهما مهما كانت الظروف ، لان جو الجزيرة الجنوبية لا يناسبهم ولا يناسب إبلهم . اما فيصل بك ، وكان يعرف باتصاله الوثيق بالحلفاء بعد زيارته للشريف معرفة لم يجازف معها ان يرحل الى الشمال ، فقد ترك مع عدد قليل من الخيم مبيتاً الى جميع من يستمع اليه بأنه هو شيخ شمر جربسا ورئيسها . وعندما عاد عبد العزيز وعجيل الى المنطقة التركية عجزا بالانضمام الى الاتراك — ولم يكن يسعهما في الحقيقة ان يفعلوا أقل من ذلك — لكنهما قدما للقوات العثمانية مساعدة ضئيلة بصورة مضحكة ، ثم قدما خضوعهما لنا من جديد بعد الهدنة .

(١) ان قبائل شمر من العرب الشماليين ، وهم لا يتفرعون من جد واحد بل يقولون أنهم خليط من تغلب وعيس وهوازن ، وتنتمي تغلب الى ربيعة لكن عبساً وهوازن تنتمي الى مضر . اما آل جعفر الذين ينتسب اليهم آل الرشيد الحاكون فيتممون الى قبيلة ثانوية تدعى العبدية ، وتدعي العبدية أنها تعود لعبيدة التي هي قسم من قحطان المستوطنين ، وبذلك يصبحون يمانيين . وفيما عدا هذه الروايات المحاطة بالغموض يجهل الشمريون تاريخهم الذي يسبق توطنهم في جبل شمر ، اي جبلي طلي الذين كثيراً ما يرد ذكرهما في أدبيات الجاهلية ، حيث حلوا في محل (وربما امتزجوا جزئياً ايضاً) أمة طلي القديمة التي هي فرع من قحطان . وفي حوالي منتصف =

القبائل الكردية

لقد بدأ اتصالنا بالقبائل الكردية الجنوبية بعد احتلال بغداد مباشرة تقريباً . ويمكن تلخيص علاقات الحكومة العثمانية بالقبائل الكردية الموجودة على حدودها الشرقية بأنها كانت تتضمن مساعٍ غير مثمرة لفرض السيطرة عليها من جهة وثورتهم عليها من جهة أخرى . فقد كانت الاضطرابات تنجح الى الازدياد وليس الى التناقص منذ ان أعلن دستور ١٩٠٨ ، ويرجع سبب ذلك الى اعمال الاتحاديين الجائرة من جهة وإلى القلق السياسي الذي ولدته خيبة الآمال التي كانت الحركة الدستورية قد أثارها من جهة أخرى . وأدى هذان السببان معاً الى خلق رغبة غامضة في الحكم الذاتي عند الأقوام المختلفة ، واذا لم تكن هذه الرغبة قد اتخذت شكلاً عملياً مخطرأ فقد كوّنت على الأقل نواة تلتف حولها عناصر السخط العام على الشؤون العثمانية الذي كان متفشياً بين الاقوام الخاضعة لتركية قبل الحرب . وكانت القوة العسكرية العثمانية في ولاية بغداد ناقصة نقصاً مخلاً ، ولم يكن الاكراد الثائرين الوحيدين الذين كان يجب قمعهم بالقوة غير الكافية الموجودة في الولاية . يضاف إلى ذلك ان القلاقل التي وقعت

= القرن السابع عشر أخذوا يوسعون حدودهم الى داخل بادية الشام حيث جاهاوا ، وبعد قتال قصير الأمد ، دحروا الموالي الذين كانوا يومذاك أقوى القبائل العربية في السهوب الشمالية على الاطلاق ، ودفوهم الى داخل حدود سورية الشمالية الشرقية .

وفي أوائل القرن التاسع عشر دفعت عنزة شمر الى الشمال في عبر الفرات وقسمتها بأجمعها الى قسمين ، ثم نزلوا بينهما في بادية الشام . وبهذا أصبحت قبائل شمر المقيمة في جبل شمر تختلف جغرافياً وسياسياً عن قبائل شمر المقيمة في جزيرة بين النهرين . وصارت المجموعات الجنوبية منها تتبع الى ابن رشيد والشمالية الى ابن جربا . لكنهم كلهم يعودون الى أصل واحد من الناحية العرقية . كما أن القبائل الصغيرة يوجد في كل منها أناس في كلتا المجموعتين ، ومع أنها لا تبدي مقاومة موحدة تجاه الخصم المشترك عنزة فهي تقف موقفاً ودياً تجاه بعضها البعض ، وبوسع أي شيخ من شيوخ الجزيرة الصغار ان يأتي بخيامه وقطعانه الى جبل شمر ويستفيد من مراعيه لمدة سنة كاملة في أي وقت يشاء . (A Handbook of Arabia, vol 1, May 1916)

على الحدود الإيرانية من جراء ثورة سالار الدولة^١ التي امتدت من ١٩١١ إلى ١٩١٣ قد أضافت إلى المشاكل صعوبات أخرى في الوقت الذي كانت تثير فيه شره الحكومة التركية وطمعها .

وكانت أهم القبائل الموجودة في القطاع الواقع في جنوب الزاب الأصغر قبائل الهماوند والجاف . وكانت قبائل الهماوند قبائل مستوطنة تدخل في ضمن منطقة السليمانية ، لكن قبائل الجاف كانت قبائل رحالة تنتقل في الجانب الأيسر من ديارى إلى مريوان الكائنة في داخل البلاد الإيرانية . وفيما عدا هؤلاء لا بد من أن يحسب الحساب للباجلان ، الذي يعد نصفهم أتراكاً ونصفهم الآخر إيرانيين في تبعيتهم ، والذين تقع الأقسام التركية منهم تحت نفوذ مصطفى باشا في خانقين ، وهو أهم عامل سياسي في تلك المنطقة . وقد نجحت الحكومة العثمانية في أدوار العهد الدستوري الأولى في إثارة عدوان الهماوند من جديد بعملها غير السياسي مع الشيخ سعيد^٢ البرزنجي . وكانت الأسرة البرزنجية قد أصبحت أهم أسرة في السليمانية ، حيث كانت تتمتع بسمعة كبيرة كأسرة دينية مبدعة بواسطة النسب وليس بالأفعال ، وبذا كان لها تأثير غير يسير على جميع قبائل المنطقة . وكان الشيخ سعيد طاغية معروفاً يؤثر على حالة السلم في تلك الجهات ، إلا أنه كانت له سمعة واسعة الانتشار بالنسبة لقمليته ومركره الديني ، وعندما قتل^٣

(١) كان سالار الدولة من أخوان محمد علي شاه الذي تولى الحكم في إيران سنة ١٩٠٧ بعد وفاة أبيه مظفر الدين شاه . وكان رجلاً طموحاً مجازفاً حاول انتزاع الملكية لنفسه عدة مرات ، واستعان في بعضها بالأكراد البر الذين تزوج ابنة رئيسهم والي پشت كوه . وقد استطاع في ١٩١٢ أن يحتل كردستان الإيرانية مدة من الزمن ويهدد همدان ، لكنه اندحر أخيراً على يد فرمان فرما حاكم كردستان العام فأصبح شريداً طريداً يحيا حياة رؤساء العصابات . وفي خلال الحرب العالمية الأولى ألقت القوات البريطانية القبض عليه في منطقة بحر قزوين ، حين كان يحاول إثارة التركان في تلك الجهات من أجل الاستيلاء على عرش إيران .

(٢) و (٣) الشيخ سعيد هو والد الشيخ محمود حفيد زادة الزعيم الكردي المعروف ، وجد الأخوين بابا علي والشيخ لطيف . وكان له نفوذ كبير في السليمانية وما جاورها من المنطقة الكردية ، وقد توارث هذا النفوذ الديني عن جده التي الورع (كما أنه أحمد الشيخ) ابن السيد =

في الموصل في كانون الثاني ١٩٠٩ ، بصورة لم تتضح ظروفها ، بعد مدة قصيرة قضاهها منفياً هناك ثار الهماوند من أجل أن يثأروا لقتله . ولم تتوفق المساعي الهزيلة التي بذلت لايقاف النهب والسلب اللذين اخذ الهماوند باقترافهما بأكثر من دفعهم عبر الحدود الايرانية ، فاستمروا على غزو القرى والقوافل التركية من هناك . وفي تموز ١٩١٠ عقد ناظم باشا اتفاقية معهم وقبيل خضوعهم الاسمي ، لكن سياسة اللين والمسالة التي كان يتبعها ، والتي كانت مبنية على تقديره لضعف القوات المتوفرة لديه ضعفاً متناهياً ، توقفت باستدعائه من منصبه في نيسان ١٩١١ ، وفي خريف تلك السنة كان الهماوند يعيشون فساداً في الارض كالسابق . ثم وضعت في ١٩١٢ خطة مرتجلة لتهدئة البلاد بتجنيد الاكراد في أرتال خاصة نشغل في الحدود على غرار القوات « الحميدية » التي جندت في ايام عبد الحميد ، وبرغم تجنيد عدد قليل من الهماوند والجاف والديزه في لم يطرأ تحسن ملموس على الوضع ، وحينما اعلنت الحرب كان

= معروف النودهي العالم الديني المشهور صاحب التصانيف الدينية واللغوية العربية الكثيرة . وكان الشيخ معروف أول من نشر الطريقة القادرية في السليمانية . والظاهر ان الشيخ سعيداً كان له أعداء وخصوم يتربصون به الفرص ، فحينما أعلن الدستور العثماني في ١٩٠٨ استغل هؤلاء الخصوم الفرصة فرغموا مضبطة ضده الى الباب العالي وأخرى الى مركز الولاية في الموصل (كانت ولاية الموصل يومذاك تتكون من محافظات الموصل ودهوك وكركوك وأربيل والسليمانية اليوم) . فصدر الأمر الى الشيخ سعيد بأن يترك السليمانية ويقيم في الموصل بصفة منفى .

فأذعن الشيخ المرحوم لذلك ، مع انه كان يوسعه ان يمتنع ويقاوم ، وأخذ أسرته الى الموصل حيث سكن في دار محمد باشا الصابونجي . وقد حدثت هناك فتنة طائشة في اليوم الثاني من أيام العيد الأضحى المبارك سنة ١٣٢٦ هـ المصادف في كانون الأول ١٩٠٨ (على ما يروي المرحوم عبد المنعم الغلامي في كتيبة الضحايا الثلاث) وليس في كانون الثاني ١٩٠٩ كما تقول المس بيل هنا . فأدت الى قتل الشيخ سعيد ، ثم أوقف ابنه الشيخ محمود وعدد من ذويه وأتباعه ، فكان للحادث دوي كبير في منطقتي كركوك والسليمانية بين السكان ولا سيما عند أتباع الشيخ سعيدو مريديه من أبناء المدن والعشائر ، وفي مقدمتهم عشائر الهماوند التي أعلنت العصيان على الحكومة . وبالنظر لظروف الحادث وما أعقبه من تحقيق وعقوبات أخذت الشكوك تحوم حول الحكومة الاتحادية في الاستانة وتتهمها بتدبير القتل .

الهماوند ما زالوا ثائرين على الحكومة .

اما الخاف فقد بذلت مساعٍ في نهاية ١٩١٠ لاستحصال جزية سنوية جسيمة منهم ، لانهم لم يكونوا يدفعون من الضرائب شيئاً او لم يكونوا يدفعون منها الا الشيء القليل منذ بداية العهد الدستوري . ثم دعي الى الموصل احد أفراد الاسرة التي كانت تحكم الخاف يوماً ما ، وهو محمود باشا بك زاده ، الذي كانت ما تزال له سلطة على القبيلة . واعتقل هناك مدة سنة واحدة . على ان هذه السياسة التي ثبت خطئها بالكلية قد عدلت بعد ذلك . فسمح لمحمود باشا بالعودة الى أهله ، لكن المفاوضات الأخرى التي جرت من أجل توطئ القبيلة لم نوذ الى نتيجة ولم يجر اي تقدم فيها خلال السنين التي سبقت الحرب .

وكان بين مصطفى باشا باجلان وبين الحكومة العثمانية احتكاك دائم . فقد قضى هذا قبل العهد الدستوري عدة سنين وهو منفي في استانبول ، وكان الأتراك يوجسون خيفة منه على الدوام بسبب ميوله البريطانية ، باعتباره سياسياً مشتبهاً به .

وقد تعاضم كره القبائل الكردية للحكم التركي منذ بداية الحرب ، ولما لم يكن بوسعهم ان يهاجروا الى جهات أخرى فقد كابدوا مشقات كثيرة مما كانت تفرضه عليهم الحكومة ، بينما تعرض رؤساؤهم الدينيون ، الذين يتمسكون بهم تمسكاً فريداً في بابيه ، الى الاهانة والابتزاز . وفي ايام الحرب الاولى ، وقبل ان أحبطت حملة الدعوة الى الجهاد ، حاول الاتراك تجنيد جنود أجيرة من خيالة الأكراد . فبعثت قطعة صغيرة منها الى الشعبية ، لكنهم بعد ان خدموا خدمة حسنة عاملتهم السلطات التركية بدناءة . فعادوا الى أهلهم ولم يقدموا بعد ذلك خيالا . احداً للحرب ضدنا برغم ان الاتراك كانوا يحاولون بدون انقطاع ان يثيروا العداوة ضدنا بينهم . وكانت الخيبة التي منيت بها الدعاية التركية ترجع على الاغلب الى موقف رجال الدين العدائي منها . فانهم رفضوا

بالاجماع التبشير بالجهاد ، واعلنوا ان الحرب كانت حرباً لا ينتفع بها سوى
الأتراك الاعداء التقليديين للشعب الكردي .

الأكراد والروس

وعند دنو الروس من كردستان أدخل عنصر جديد على الحالة . فقد كان
يظهر ان تعاون الروس معنا من الجناح الشرقي كان له ما يبرره عندما تقدمت
قوات القوزاق في داخل ايران ، بعد سقوط ارضروم في شباط ١٩١٨ ، فوصلت
كرمنشاه في شهر مارت . على ان نشاط القواد الروس أصيب بالتوقف هناك ،
ولم نحاول تجديد المسعى لرفع الحصار عن الكوت بنقل المعارك الى الحدود على
طريق كرمنشاه - بغداد . وبعد ان استرد الأتراك الكوت قامت جماعة
صغيرة من خيالة القوزاق في حزيران بحركة استطلاع جريئة داخل پشت كوه ،
حيث كانت ميول الحاكم الايراني المستقل تقريباً ، وهو الوالي ، ميولاً
مسلمة وعلى هذا فقد كانت ميولاً تركية ، ثم ظهرت تلك الخيالة على دجلة
في علي الغربي وهي منهكة القوى من العطش والحر . وزار ثلاثة منهم البصرة
حيث أنعم عليهم قائد الجيش بالأوسمة وحيث كانوا محط أنظار الناس - لان
لباس الرأس الاستراخاني الذي كانوا يلبسونه و « الستر » السمكة التي كانت
عليهم كانت تقارن مقارنة واضحة بألبسة الاهالي القطنية البيضاء وألبسة
البريطانيين الحاكمي . ومع انهم كانوا يعتبرون طليعة للجيش الروسي فقد
اثبتوا مؤقتاً انهم مؤخرته أيضاً ، لان الرجال الذين كانوا يغطون رؤوسهم
بالقرو ويلبسون « الستر » الطويلة لم يصلوا حدودنا الا في نيسان ١٩١٧ حين
دخلوا قصر شيرين ، على طريق بغداد ، وتوجهوا الى خانقين مرة ثانية في
داخل الحدود العراقية . هذا عدا الفترة القصيرة التي احتلوا فيها خانقين لأول
مرة مدة ساعتين قضاها في نهب البلدة . وقد عمل وجودهم في كرمنشاه على
استقرار الموقف في ايران ، حيث كانت الدسائس الالمانية والتركية قد أجبرتنا
على سحب الموظفين البريطانيين من أصفهان وشيراز في ١٩١٥ لكن ذلك لم

يمكن بالسرعة التي كان يمكن ان تحول دون وقوع قنصلنا في شيراز ، الكولونيل أوكافر ، في أيدي القبائل المعادية وبقائه أسيراً هناك مدة عامين . على أن التقدم الى خائفين ، مهما كانت قيمته العسكرية ، قلب الموقف السياسي في كردستان الجنوبية .

حيث ان موقف القبائل الكردية تجاه الروس على طول حدود تركية الشرقية لم يكن معروفاً بوضوح . لكنه يمكن ان يقال بوجه عام انه بينما كانت الريبة الاساسية موجودة تجاه روسية ومؤدية الى الاحجام عن الاهتمام بالعروض التي كانت تعرضها فان سوء الحكم العثماني كان يميل الى اجبار الاكراد التي الارتقاء في أحضانهم من دون ان يكونوا راغبين في ذلك . وعلى هذه الشاكلة أجبر رؤساء الأكراد في الموصل ، مثل شيخ برزان^١ الذي امتنع عن تلبية الدعوات الروسية عدة سنوات من قبل ، على الالتجاء أخيراً الى الاراضي الروسية ، وفي ١٩١٤ أشيع ان الهماوند والجاف والديزه في كانوا مستعدين لطلب المعونة الروسية بعد بأسهم من قيام الحكومة العثمانية بالاصلاحات المطلوبة .

لكن هذا التحسس طرأ عليه تبدل لا يستهان به عند دفن الروس من الاكراد . فقد كان المعروف عن القوزاق أنهم يكونون عبئاً ثقيلاً على سكان أي بلاد يحتلون^٢ ، وان أخبار الفظاعات التي جرت في رواندوز في ١٩١٥ - ١٦ لم تكن شيئاً يبعث الطمأنينة في نفوس الاكراد الجنوبيين . وعندما دخلنا بغداد في مارت ١٩١٧ كان معروفاً عند الاكراد المحيطين بخائفين بصورة قاطعة اننا يجب ان نضطلع بالمسؤولية الى حد الحدود التركية في ذلك الاتجاه ، فاطمأنوا اطمئناناً عظيماً . وكانت القبائل الكردية تعتقد كلها بان الوقت قد حان لاثبات

(١) المقصود هنا هو الشيخ عبد السلام الثاني ابن الشيخ محمد البرزاني ، وهو الأخ الأكبر للشيخ احمد والملا مصطفى . وسوف نورد تفصيلات أخرى عن البرزانيين في حواشي أخرى من هذا الكتاب .

حقهم القومي ، فانتعشت من جديد فكرة الحكم الذاتي للاكراد التي كانت قد تكونت في ظل العهد الدستوري وتحركت بشدة بتأثير البيان الذي نشرناه في بغداد للعرب الذين وقفوا تجاه الشعور القومي موقفاً يختلف تمام الاختلاف عما كان الاتراك قد رسموه في هذا الشأن ، وعند تقدمنا على طول ديارى وتقهقر الاتراك أمامنا الى غرب ذلك النهر أدخل اكراد منطقة كفري البلاد التي احتلتها القوات العثمانية ورفضوا تجهيزها بالموثمن معتقدين اننا سوف لا نتأخر عن احتلال المنطقة بأجمعها الى خانقين . ومن اللحظة التي وصلنا فيها بغداد ، وخاصة في اوائل نيسان عندما اتصلنا بالروس الذين كانوا يومذاك في قصر شيرين ، كان رئيس الحكام السياسيين يؤكد على الأهمية السياسية التي يعلقها على احتلالنا خانقين لكي نحافظ على مصالحنا ونفوذنا بين القبائل الكردية التي ثبت ميلها الينا من قبل . على ان السير في مثل هذا الاتجاه كان ينطوي على توزيع القوات العسكرية وتفريقها بشكل لا تقيم له الاعتبار العسكرية اي وزن ، وفي هذه الظروف لم يكن من الممكن ان نعمل اكثر من ان نحت مصطفى باجلان ، زعيم خانقين ، على ان يعمل كل ما بوسعه للمحافظة على الأمن في بلدة خانقين ومنطقتها في صالحنا .

وقد احتل الروس البلدة في نيسان ، وبرغم ان أهاليها ساعدوا الاتراك من قبل في طردهم سنة ١٩١٦ فانهم امتنعوا هذه المرة عن الوقوف في وجههم حالما علموا بانهم جاؤوا وهم حلفاء لنا ، وان مجيئهم كان بموافقة بريطانية العظمى . على ان الأخبار أخذت تصل الى رئيس الحكام السياسيين ، بعد أيام قلائل ، بان معاملتهم للسكان بدأت تسبب الذعر والفرع . واسترحم مصطفى باشا تعيين حاكم سياسي بريطاني ليصون مصالح البلدة ، فرفع طلبه الى قائد الجيش . لكن الجنرال مود لم يجد طريقاً لتلبية الطلب خشية من ان يؤدي ذلك الى الاحتكاك بحلفائنا بسبب الاختلاف في الطريقة التي نعامل بها أهالي البلاد . واستمر توارد الكتب والطلبات من قبائل باجلان والجناف والشرف بياني والطالبانية ومن وجهاء قرزباط (السعدية) ايضاً ، وكلها تشير الى ان سلوك

الروس قد أثار استياءً شديداً وسبب جلاء الناس عن البلاد لأن الأهالي أخذوا يهربون خائفين الى منطقة الاحتلال التركية . وفي اواخر أيام نيسان حضر مصطفى باشا نفسه الى بغداد ليعرض القضية على السلطات البريطانية . فجاء معه ، بصورة عرضية ، بكتاب موجه اليه من علي إحسان بك القائد التركي يخبره فيه انه قبض على مخابرة قيل انها تحتوي على معلومات ذات قيمة عسكرية بعثها مصطفى باشا الى القوات البريطانية بالقرب من شهربان . وقد اتهم من أجل ذلك بالخيانة وهدد بالانتقام العاجل .

وقد بين مصطفى باشا أن الدور الروسي قد برهن على انه أفضح بكثير حتى من دور الأتراك . فلم يتعرض أحد بالسكان في المناطق الإيرانية ، لكن الأكراد من الرعية التركية عوملوا كما يعامل الأعداء ونهبت جميع طبقات السكان على السواء . وقد هدد هو نفسه بالسوط ، برغم علاقته الودية بنا ، ونهبت ملبسه وخيله وموؤنته ، وخلعت حتى ساعته من يده في بيته بالذات . وكان الروس اذا دفعوا تعويضاً عن الحاجات التي استملكوها فانهم كانوا يدفعون بالعملة الورقية التي انحطت قيمتها كثيراً ثم جرد الريف من قطعانه ، وحصدت جميع الحاصلات من الاراضي المحيطة بخانقين او أتلقت ، ومنع الناس من العناية بيساتينهم . فغدا خبز القمح عزيزاً لا يمكن الحصول عليه تقريباً ، وأصبح الناس عدا الأثرياء منهم معوزين ، فآخذوا يهجرون البلاد قاصدين الأتراك في كفري . اما قبائل كفري التي كانت قد رفضت في بداية الأمر تجهيز الأتراك بالموءن فقد أخذت تكشف عن مخازنها المخبأة ، وبلغت أخبار خانقين وقرباط حداً من الفضاغة بحيث بدأ الناس يعتبرون الأتراك أقل شراً من الروس . وقد ضرب المثل عن تبدل الشعور الذي أحدثه سلوك حلفائنا بأن الجماعة ، التي كانت تقدر باربعمائة مقاتل ، التي فرت برئاسة علي اكبر خان رئيس قبيلة السنجابي الى جبل بامو ، الكائن على بعد خمسين ميلاً عن شمال شرقي خانقين ، بقصد الالتحاق بنا تفكر الآن باتخاذ تدابير فعالة ضدنا . والحقيقة هي ان تطرف الروس في معاملاتهم قد برهن على كونه ذا فائدة عظيمة لمساعدة الترك ، لكننا

كنا نخسر بسرعة سمعنا والعطف على قضيتنا لدى الشعب الذي كان صديقاً لنا على الدوام ، بينما كان العداء المتعاطف للروس يجعل موقفهم في كردستان الجنوبية لا يمكن المحافظة عليه ويفتح ابواب البلاد للعدو الى حد قررباط ومندي .

ثم بين مصطفى باشا ان القبائل الكردية تقدر الحاجة الى وجود حلفائنا ، لكنها تسترحم التأكيد عليهم بان يكفوا عن النهب والعنف والسلوك كجيش من جيوش الاحتلال . كما بين ان الأكراد كانوا يرغبون في ان يعملوا ما بوسعهم لاعاشه القوة الروسية اذا ما أبدلت طريقة وضع اليد المفعمة بالفوضى بادارة خاصة يرأسها رئيس مسؤول . ولأجل تلافي احتياج المواد الغذائية من الضروري ان يسمح للفلاحين بالعودة الى مزارعهم واستئناف اعمالهم من دون عائق . وقد طلبوا من جديد تعيين ممثل بريطاني ، يضع فيه الناس ثقتهم ، ليتولى إدارة المنطقة المدنية على ان ترافقه مفرزة صغيرة من الجنود البريطانية . وتعهدوا لقاء ذلك بالمحافظة على الأمن والقانون في خانقين وقررباط وعلى الطريق بين البلدين لكي تطمئن القبائل الكائنة على جناح الجيش التركي فيكون باستطاعتنا تجنيد الجنود الاجيرة التي قد نحتاجها ، كما وعدوا بجلب المؤن من مندي وقررباط .

وكانت الحقيقة ان القوة الروسية قد خرجت عن الطوق لانها كانت تعرف بالانقلاب الذي كانت تتمخض به روسية يومذاك . ولذلك كان أفرادها يعتبرون أنفسهم زواراً مؤقتين في منطقة خانقين لا يهتمون مطلقاً بما يفعلون فيها وبما يحدث داخلها . على ان ذلك كان بمثابة إعداد ميراث مزعج لنا . وعلى هذا الأساس استبان لرئيس الحكام السياسيين ان الأحوال التي كشف الستار عنها مصطفى باشا وتسربت اليها أخبارها من طرق أخرى كانت ، ورغم النسبة التي تنزل منها للدفع المبالغت ، ذات خطورة كافية تستدعي النظر في الموقف مرة ثانية . إذ كان يعتقد اننا اذا كنا لا نستطيع احتلال خانقين بأنفسنا لاسباب وموانع عسكرية ، واذا كان ليس من الصواب ندب ممثل

بريطاني الى هناك ، فان حكومة صاحب الجلالة يجب ان تخبر بجلية الامر
وبالنتائج السياسية التي قد تترتب عليه . وكان يقدر كذلك حرجة موقف
معاون الحاكم السياسي البريطاني الذي قد يرسل الى هناك وعدم استطاعته انجاز
الكثير من الأمور بصورة مباشرة ، لكنه كان يعتقد ان مجرد وجوده يؤدي
الى تطمين الاهالي ويكون بمثابة جهاز يوقف اندفاع الجيوش الروسية في تعسفها .

وكان ضباط الاركان بدورهم يشكّون في صحة الاخبار التي وردت من
خانقين ، ويؤكدون فكرتهم بان إرسال معاون حاكم سياسي بريطاني من
بغداد من شأنه ان يوجده تعقيدات بين الحلفاء ، كما أنهم كانوا يعتقدون بان
الروس اذا ما انسحبوا وتراجعوا فان وجود ضابط بريطاني معهم سوف يكون
مضراً بسمعنا . وعلى هذا فقد كانوا يرون ان مثل هذه الخطوة يجب ان لا
تتخذ قبل استشارة القائد الروسي ، وعندما استشير هذا بالامر أجاب بان
الوقت غير ملائم لاتخاذها .

وعلى هذا بقي الوضع غير متبدل واستمر تدفق العرائض والتذمرات من
رؤساء الاكراد وتجار خانقين . فأقام مصطفى باشا في بغداد ضيفاً على الحكومة
البريطانية بينما هربت أسرته من خانقين بحراسة فريق من رجال قبيلته الى جبال
باغجه في جنوب البلدة واحتل الروس داره . وطلب رخصة لحلب نسائه الى
شهربان بحراسة بعض رجال القبائل الذين أراد تأمين بقاء حيواناتهم معهم وعدم
مصادرة الروس لها ، لكن قائد الجيش الروسي رفض الطلب على أساس ان
رجال القبيلة الذين سيقومون بتوصيل النساء كانوا قد اقترفوا الفظائع في الطرق
الكاثنة داخل منطقة قصر شيرين ، وان مصطفى باشا نفسه كان قد ساهم في
الوقوف ضد الروس (في ١٩١٦) وقاد فوج الحدود التركي .

ثم وصلتنا معلومات أخرى في بغداد بأن خانقين قد نهبت وجردت من كل
شيء ، ونقلت معظم المنهوبات عبر الحدود . فقتل تسعة رجال وامرأتان ،
وكان اثنان من الرجال مسلمين كما كان الباقون من اليهود لانهم حسبما قيل

لم يستطيعوا تصريف الروبل الورقي . وفي منتصف مايس اتخذ القائد العام للقوات الروسية التدابير لصيانة الطرق بين قزرباط وكرمانشاه ، وأعلم التجار الراغبون في السفر شرقاً ان الطريق قد فتح وان عليهم ان يراجعوا القائد الروسي في قزرباط من أجل توصيلهم بسلام . لكن الترتيبات الروسية كانت غير كافية وبقيت الاحوال مضطربة في البلاد الكائنة وراء قزرباط . وكان الوضع في نهاية مايس ان قبائل كردستان الجنوبية ، التي كان يجب ان تكون خاضعة لنفوذنا والتي اعترفنا بدخولها في دائرة نفوذنا السياسي ، قد خابت آمالها فينا خيبة تامة ونفرت عنا بالمعاملة التي عوملت بها . وبينما كانت مستعدة في بداية الامر للانقضاء على مؤخرة الاتراك المتراجعين بعد ان خبأت ما كان عندها من الحبوب لتجنب تأمين حاجة الاتراك منها ، وجدت من الخير لها الآن ان تقتني وحشية الروس بالسماح للاتراك في الاستفادة من محبّاتها . ولم يكن الاتراك أقوياء بدرجة يستطيعون فيها إفقارهم تماماً ولا راغبين في ان يعيشوا فساداً في منطقة غنية بانتاج المواد الغذائية ، بينما كان الروس ، وهم زوار طارئون لا يعبأون بالمستقبل ، يخربون كل شيء . ولكن برغم ان القبائل الكردية كانت تسمّر من تدخلهم وانها قد انحازت ضدهم فهناك من الاسباب ما يجعلنا نعتقد بانهم ما زالوا مستعدين للالتفاف حولنا إذا قدمت لهم البراهين الملموسة باننا يمكن ان نعاضدهم ونشد من أزرهم .

وفي نهاية حزيران أنحلى الروس خائفين منسحبين الى ايران وعاد الاتراك لاحتلال البلاد الى حد جبل حميرين . وقد استولوا على صدور جداول دبال العظيمة ، وهي مهروت وخراسان والخالص ، التي يعتمد عليها ري الاراضي المزروعة الواقعة في جنوب غربي بعقوبة ، وتمكنوا من الحيلولة دون سير الماء فيها . وكذلك استفادوا من المواد الغذائية الكثيرة الموجودة في الروز ومندي . وقد استولينا على بلد روز ومندي في نهاية أيلول وحيثنذ سيطرنا على جداول دبال . ثم عزز احتلالنا لقسم من جبل حميرين في تشرين الاول موقفنا تعزيزاً آخر .

وقد أكمل الاتراك تدمير خانقين الذي بدأ به الروس من قبل ، فازداد الذعر والقلق بالنظر لشح المواد الغذائية في القرى وما جاورها من المناطق . وعندما أخلت الجيوش العثمانية خانقين في نهاية آب عاد اليها بعض السكان . الذين اعتصموا في جبل باعجة وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ضد الهجوم التركي . وأخذ الباجلان يعودون الى مزارعهم في شمال خانقين ويزرعون الذرة فيها . وقد قيل ان القبائل الصغيرة في جنوب كفري أخذت تهجر باتجاه مندلي وبدرة وقره داغ وشيخان ، لانهم كانوا قد أخفوا حبوبهم في الجبال الواطئة ووجدوا أنفسهم مجبرين اما على إخراجها او الموت جوعاً . وقد التحقت خيالهم بالشيخ حميد الطالباني الذي حشد قبيلته في منطقة گيل الواقعة في شمال شرقي طاووق . وكان الداوودة^٢ والطالبانيون^٣ ، المتحالفون تحالفاً وثيقاً ، أقوياء

(١) و (٢) و (٣) جاء في كتاب المستر آدموندز (أكراد وأترك وعرب) عن الطالبانيين والشيخ حميد الطالباني قوله : ومن المحتمل ان تكون الأسرة الطالبانية أهم الأسر في لواء كركوك بأجمعه . فهم أكراد ، ويمتدرون مثالا ممتازاً للأسرة التي ارتقت في العصر الحديث إلى موضع الثروة والسلطة الدينية بفضل النفوذ الديني الذي يتمتع به مؤسسها الدرويش . ويسجل شاعرهم الشيخ رضا نشوء الأسرة بمقطوعة خاصة من شعره . فقد نشأت من رجل يدعى الملا محمود ، عاش في نهاية القرن الثامن على وجه الاحتمال ، وتزوج من ابنة أو حفيدة المير اسماعيل ، شيخ مشايخ الزنگنه الذي كان يقيم في قيتول . ثم انتقل ابنها الشيخ أحمد الى طالبان (التي نسبت الأسرة اليها) الكائنة عبر نهر بسيرة في منطقة جمجال . وكان للشيخ أحمد هذا تسعة أبناء خلفوا نسلاً من الذكور ، وكان هؤلاء بدورهم منجبين كثيري الأولاد بحيث صار يعد الجيل التالي منهم بالعشرينات ، والجيل الذي جاء بعده بالمئات . وقد أسس ابنه غفور فرع الأسرة الطالبانية في كوي ، وحصل محمد عارف ابنه الآخر الذي أقام في زهاو على سمعة واسعة الانتشار بكونه ولياً من أصحاب المعجزات ... ومن بين الجيل الثالث من الملا محمود كان الشيخ حميد بن عزيز بن أحمد رجلاً كثير البراعة والدهاء ، وهو اول من امتلك املاكاً في گيل . وكان الشيخ حميد في وقت الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ أبرز شخصية في اللواء على الإطلاق . ولما كان عدواً لدوداً للاتراك ، فقد سخر نفوذه بأجمعه في صالحنا ، واعترافاً بخدماته هذه سبغ له بادارة مجموعة القرى الطالبانية الكائنة في منطقة گيل ادارة مباشرة من دون مدير او شرطة رسمية ، وباستثمار آبار النفط البدائية في المنطقة لقاء جعالة (روياتي) أسمية زهيدة . وقد توفي سنة ١٩٢١ ، =

بحيث أبقوا أجوبهم غير مخبأة من دون ان يخافوا الأتراك . فاتصلنا بالشيخ حميد وغيره من الرؤساء في نهاية ايلول وعلمنا منهم انهم ردوا جميع طلبات الاتراك في المساعدة وتجهيز المؤن ، وسوف يستمرون على ذلك طالما كان هناك أمل بوصولنا لمساعدتهم . وقد نقلوا جميع قطعانهم الى الشمال في جهة الزاب بحيث تكون بعيدة عن متناول يد الاتراك . ورد الاتراك على ذلك بمعاملة أهالي قزرباط وخانقين بمعاملة فظة جداً ، حيث أعدم عدد من الرجال البارزين ، وكان أحدهم من اسرة معروفة في السليمانية . ولم نكن نحن في موقف يسمح لنا باعطاء اي تطمين للاكراد يشجعهم على مهاجمة الاتراك ، كما لم يتبين لنا ذلك حتى استولينا على خانقين في كانون الاول ١٩١٧ وعلى كفري في نيسان ١٩١٨ .

ولم نصادف في اي جهة من جهات العراق مثل ما استقبلتنا به خانقين من التعاسة . فان الريف الذي حصده حقوله الروس قد نظفه تنظيفاً كاملاً الاتراك

= فخلفه في تكية الأسرة وفي الامتيازات التي كان يتمتع بها ابن من أبنائه الشبان يدعى طالباً .. وكان قسم من الأسرة الطالبانية يعيش كذلك في ناحيتي قره حسن وطاووق (داقوق) .. كما كان الطالبانيون في گیل وطاووق في نزاع واختلاف دائم تقريباً مع عشائر الجباري والكاكائي والداوودة المجاورة ، التي كانت هدفاً لكثير من أشعار الشيخ رضا البديعة الفاحشة . اما الداوودة فهي نموذج لعشائر كردستان الجنوبية المستقرة ، وليس لها تاريخ تمكنت التعرف عليه . وتدعى الأسرة الحاكمة فيها بتحدوها من شخص يدعى اسماعيل حتي ، وقد أصبح الجيل الخامس من نسله كثير العدد في ناحيتي طاووق وطوزخوماتو ، وهم يملكون أو يشغلون كثيراً من القرى الكبيرة . وكان دارا بك أغني رؤساء الداوودة ، حيث انه يملك مع أقاربه دزينة من القرى الكبيرة في ناحية طاووق . وهو هاديء ميال على الدوام الى الوقوف بجانب السلطات . اما رفعت بك فهو مع أقاربه وفرع آخر من القبيلة يشغلون مقاطعة أميرية كبيرة تدعى البوصباح ، وتقع على مقربة من طوز . والمشهور عنه انه رجل قلق مستعد على الدوام للاسهام في أي عمل مخرب قد يحدث . وأكبر من هذين عزيز عباس المشهور بكونه رجلاً مشاكساً ، وقد تعود على ان يتحاشى بقدر الامكان أي اتصال بموظفي الحكومة . هذا والمعروف ان الداوودة من عشائر كلهور الكردية وقد نزح جدها اسماعيل حتي من ايران قبل (١٨٠) سنة بعد ان تخاصم مع عشيرته هناك .

الذين خلفوا بعده تفهقروهم الجوع والمرض في البلاد . وكان عمل الادارة بادية
ذي بدء اكثر بقليل من حرب شنت على هذه الصعاب المنيعة . وقد شنها ضابط
يدعى الميجر صون ، كان له بجانب تعرفه على المنطقة وسكانها تعرفاً وثيقاً ،
تضلع نادر باللغة الكردية . فقد ظل يجاهد عدة أشهر في سبيل واجب كان
يتعاضم تعاضماً مطرداً مع مقدار النجاح الذي حصل عليه ، لان الاكراد على
جاني الحدود ما سمعوا بالمساعدة التي كانت تبديها الادارة حتى تدفقوا من
الجبال وهم جياع تفتك بهم حمى التيفوس لتعاد لهم صحتهم او ليموتوا في
مخيماتنا ومستشفياتنا . ومع هذا ، فقبل ان يجبر الميجر صون في اوائل الصيف
على أخذ إجازة استراحة لمدة سنة واحدة بعد ان أنهك قواه العمل المتواصل ،
انتصرنا في الحرب المشار اليها . فوجد خلفه الميجر غولد سميث المنقول من
الساواة حقول الذرة مخضرة من البذر الذي جيء به من بغداد بسرعة ، والقرى
قد بعثت ثانية من بين انقاضها .

وكان اكراد خانقين غير مزعجين ، من الوجهة السياسية ، الا في القليل
النادر . فاذا استثنينا ما كان يحدث بينهم من حوادث السلب والنهب بين حين وآخر ،
نجد أنهم قد أخلدوا الى السكينة وساعدوا الادارة في اعادة الامن والنظام .
لكننا عندما بدأنا في الربيع بفتح الطريق الى إيران شعرنا بتأثير العداوة العميقة
للحلفاء التي كان قد أثارها سلوك القوزاق من قبل . فقد آوى علي اكبر خان ،
أقوى رجل في جمهرة قبائل السنجاني نصف الرحالة ، دسائس المان وايرانيين —
اتراك فكان بذلك خطراً على خطوط المواصلات البريطانية . ولذلك قصفت
طياراتنا قراه الواقعة في جبال كرمانشاه ، وانحازت القبائل المجاورة ضده ففر
الى الاتراك .

وكان تدمير طريق إيران يفوق ، اذا كان ذلك ممكناً ، تدمير خانقين .
فقد أفرغت الجيوش الروسية والتركية المتراجعة القرى ، وزعت أعمدة السقوف
وجميع المرافق الخشبية وأحرقت للوقود ، ثم أكمل المطر والثلج في الشتاء
تدمير الجدران الطينية غير المحمية . وبقيت الحقول غير مفلوحة ، واذا كان

قسم من مربى الحيوانات قد بقي فائماً كان ذلك من جراء جوعهم وعجزهم عن الفرار . على ان الحقيقة هي أنه لم يكن هناك ملجأ آمن يلتجئ اليه المنهزمون ولم تكن كردستان الايرانية وحدها في قبضة المجاعة بل الامبراطورية الايرانية باجمعها . وقد بذلت قوة الجنرال دنستر فيل^١ التي كانت تسير في طريقها الى بحر قزوين من جهود الجبارة في إطعام إيران بقدر ما بذلت من الجهود لمحاولة تخليصها بقوة السلاح من احتلال تركي ثان . فان الاهالي حالما استعادوا قوة كافية توهمهم للعمل وجدوا أعمالاً كثيرة ذات أجور مرتفعة على الطريق وفي المعسكرات البريطانية . فتناسوا مخاوفهم وخرجوا من مخابثهم في الجبال وصادفوا هذا الجيش العجيب الذي كان يوزع أزواده الزائدة على الناس ، ويدفع النقد لقاء الحاجات التي يأخذها . وكان الجندي البريطاني الشفوق الهادي يشرف على جماعات العمل الكردية ويوجهها بحيث يرضي جميع من يهيمه الا مر إرضاء تاماً يحمل مكسرة من العربية والهندستانية المختلطة بالانكليزية ، مما لم يكن مفهوماً لدى سامعيه الذين كان جهله بفارسيتهم وكرديتهم يضاهي جهلهم بما كان يحدثهم به . وكان يتبنى الجياح الايتام الذين كانوا يقفزون بجانبه

(١) كان من نتائج الثورة البولشفية التي نشبت في روسيا في أواخر الحرب العامة الأولى أن عقدت في الحال هدنة بين الأتراك والروس بتاريخ ٦ كانون الأول ١٩١٧ . غير ان ذلك حصل في الوقت الذي كانت ما تزال في روسيا عناصر مهمة تأي الرضوخ للسلطات البولشفية ، ولا تفكر في عقد الصلح مع الدول المركزية . فقررت الحكومة البريطانية ان تحف لمساعدة هذه العناصر وتشد أزرها على قدر ما يمكن ، حتى تستطيع إشغال قسم غير يسير من جيوش العدو التي يمكن ان يستفيد منها ضد البريطانيين في جبهات فلسطين والعراق وإيران . وقد وجب على البريطانيين يومذاك ، بالاضافة الى هذا ، أن يبذلوا جهودهم في منع وصول التجهيزات الى الدول المركزية ولا سيما النفط من حقول باكو الواسعة .

ومن اجل هذا قررت الحكومة البريطانية في كانون الأول ١٩١٧ أن تسرع في إيفاد بعثة عسكرية الى جهات القفقاس ، بقيادة أمير اللواء دنستر فيل ، تتألف من مفرزة سيارات مدرعة وعدد من الضباط الانكليز . وقد أنيط بها واجب تجنيد وتنظيم القوات المحلية الأرمنية والكرجية في القفقاس ، ولا سيما في تفليس التي كانت لها أهمية عظمى بالنسبة للدول المركزية .

عند المسير ويبستون الليل ملتفتين بقطعة من بطانية خلقة على باب خيمته وكان له
علاوة على ذلك نهم لا يجد له للبيض والمشمش والتفاح وغير ذلك من منتجات
الريف ، مع معين لا ينضب من النقود الصغيرة التي يحصل بها على ما يشتهي .
وقد حفظ الذين سافروا الى إيران في إثر جيوشنا صيف ١٩١٨ في مخيلتهم
صوراً لا تمحى عن « طريق إيران » مثل صورة مطبخ الشورية في همدان ،
أو قرية سري پول بأنقاضها المتناثرة كما تركها الروس ، في أحد جانبي نهر
الوند ، في الوقت الذي كانت تقوم في الجانِب الآخر منه سوق بدائية أنشئت
دكا كينها من قماش الخيم الخلق وأغصان الصنصاف ، وجلس فيها المشردون
الأكراد العائدون يبيعون السكاير المستوردة من بغداد أو ثمار البساتين الإيرانية
لكل فوج من أفواج الجيش كان يعبر الجسر .

الفصل الخامس

احتلال الموصل

الطريق الى الموصل

لقد اعترضت سبيل تقدم « الحملة العراقية » في ١٩١٨ الحاجة لحماية ايران الشمالية من قيام الاتراك بهجوم عليها . فقد أنهى اندحار الأتراك في غزة في خريف ١٩١٧ خطر الهجوم التركي الألماني على العراق ، وجعل من الممكن لنا ان نحتل خانقين في كانون الاول ، فبدأنا في أوائل مايس ١٩١٨ بتقدم آخر . وكان القائد العام ، السر ويليام مارشال ، الذي خلف السر ستانلي مود بعد موته في تشرين الثاني ١٩١٧ ، يأمل في ان يصل الزاب الاصغر قبل حلول الموسم الحار ، وان ينزل ضربته بالعدو في الموصل من ذلك الموقع المناسب في الخريف . فتم احتلال كفري والطوز وكركوك بنجاح ، واستقبل جنودنا فيها استقبالا شائقا من قبل الاهلين الذين هم من العنصر الكردي^(١) في الدرجة

(١) المعروف اليوم بالعكس حيث ان سكان بلدي كفري والطوز هم من التركان في الدرجة الأولى .

الأولى ما عدا كركوك . وبذل حميد بك الطالباني نفوذه الفعال في صالحنا داخل منطقة كفري . أما سكان كركوك فيجري في عروقهم الدم التركي لا العثماني ، لأنهم من نسل الأتراك الذين استقروا هناك منذ أيام السلجوقيين . ومع ذلك فقد ثبت الحكم البريطاني هنا بسهولة لم نصادفها في مكان آخر . فقد حيانا العنصر المسيحي ، وعدده لا يستهان به ، بحماسة بالغة وتعاون المسلمون تعاوناً قليلاً في تنظيم شؤون البلد : وإلى الشرق من ذلك ، في كردستان الجنوبية ، عقد في السليمانية اجتماع حضره رؤساء العشائر ووجوه البلد فتقرر فيه تأليف حكومة كردية موقتة برئاسة الزعيم المحلي الشيخ محمود البرزنجي ، كما تقرر اتخاذ موقف ودي تجاه البريطانيين . ثم بعث الشيخ محمود كتباً ادعى فيها بتمثيله للأكراد الجنوبيين ، وعرض تسليم مقاليد الحكومة إلينا أو تعيينه وكيلاً يحكم باسمنا هناك . فكانت خيبة أمل مرة للجهات العسكرية والمدنية ان يتضح عدم تمكننا من الاستفادة من مثل هذا الموقف المبشر بالخير . حيث ان تخصيص جميع وسائل النقل المتوفرة لدينا الى « طريق إيران » لم يمنع التقدم في هذه الجهة فقط بل أجبرنا على التخلي عن كركوك أيضاً . وخير السكان المسيحيون فيها بطلب النجاة في بغداد ، فاستحصل عدد كبير منهم رخصة بذلك وتركوا بيوتهم وأراضيهم لينهبها الأتراك الذين عادوا لاحتلال البلدة بعد ان أخليناها نحن . ثم اندفعت قوة عثمانية صغيرة الى السليمانية ، حيث كان الشيخ محمود قد عين ممثلاً بريطانياً ، ووضعوا البلدة تحت حكم عرقي وأخذوا الشيخ الى كركوك . على أنهم لم يجرأوا على المجازفة باحداث هيجان عام بين القبائل ، التي كان للشيخ محمود نفوذ كبير عليها بالنسبة لكونه يرأس أسرة مقدسة ، فأطلق سراحه بسرعة . وقد أحدث انسحابنا انتقالاً لا مناص منه في التوازن الذي أوجدناه في كردستان ، لكن الأتراك كانوا ضعفاء بحيث لم يستطيعوا الاستفادة من الفرصة السانحة لهم ، وفي تشرين الاول أعاد نصر الحلفاء في فرنسة ونصر الجنرال اللنبي في سورية التوازن في صالحنا . لكن الحملة العراقية كانت ما تزال عاجزة عن العمل الفعال بسبب فقدان وسائل النقل ، ولذلك

لم يكن من الممكن لنا ان نحاول القيام بزحف عام على الموصل عن طريق كركوك . غير ان رتلًا صغيراً أرسل في اتجاه آلتون كوبري لحماية جناح القوة الأصلية التي تقدمت عن طريق دجلة . فاحتلت كركوك ثانية في ٢٥ تشرين الاول ، وبعد اشتباك عنيف أجبر الأتراك على ترك موقعهم الحصين في فتحة دجلة الواقعة جنوبي قلعة الشرف . ولما كان طريق تراجعهم قد قطع من الشمال فقد استسلمت جميع القوة يوم ٣٠ تشرين الاول . وفي الوقت نفسه كان الرتل الشرقي قد طرد العدو عبر الزاب الأصغر ، فأصبح رتل دجلة على بعد أميال قليلة من الموصل . وقد ترك علي إحسان باشا القائد التركي العام في المدينة مع عدد لا يثوبه به من الجنود . وكان قد أمر بانحلاء جميع المخازن والسجلات وغير ذلك ، لكن أوامره هذه نقضت في اول تشرين الثاني فأرجع الموظفون مع السجلات من نصيبين وزاخو .

الاستيلاء على الموصل

وبعد مفاوضات دامت عدة أيام بحث فيها ما اذا كان المطلوب من علي إحسان باشا ان يستسلم بموجب شروط الهدنة أم لا ، وصلت من استانبول أوامر تحتم عليه الانحلاء . فاحتلت قواتنا الموصل ورفع العلم البريطاني في السراي يوم ٨ تشرين الثاني . وفي العاشر منه ترك المدينة علي إحسان الى نصيبين وتسلم مقاليد الأمور العقيد ليجمن^١ كأول حاكم سياسي في منطقة الموصل . وكان مستقبل

(١) انه العقيد جيرارد أي ليجمن ، الذي قتله بتاريخ ١٤ آب ١٩٢٠ ضاري المحمود شيخ قبائل زوبع في خان النقطة ، بطريق الفلوجة - بغداد . هذا ونقتبس فيما يأتي ما يكتبه أرنولد ويلسن في كتابه عن تسلم الموصل هذا من الأتراك : وقد عين العقيد ليجمن حاكماً عسكرياً وحاكماً سياسياً فيها في الوقت نفسه ، فتسلم مقاليد الأمور في الحال من القاضي . ولم يستخدم نشاطه الحاد وقوة دفعه للأمور بمثل ما استخدمها الى أقصى حد ممكن في تلك الآونة . فبعد أن وقع على إحسان باشا على الشروط التي وضعت له بأربع وعشرين ساعة كانت الأعلام التركية ما تزال مرفوعة فوق المباني العامة ، وكان الضباط الأتراك ما يزالون منشغلين في بيع الذخائر العسكرية ، والموظفون الترك كبيرهم وصغيرهم يقومون باخفاء السجلات المدنية أو حرقها ، بينما كان عدد =

الولاية السياسي غير معلوم ، فبموجب اتفاقية سايكس - بيكو الموقعة في ١٩١٦ ، والتي يذهب الافرنسيون الى انها كانت نافذة المفعول برغم نشوب الثورة الروسية وتبدل الاحوال التي عقدت بتأثيرها ، كان يجب ان تدخل ولاية الموصل كلها تقريباً في ضمن منطقة نفوذ فرنسة . وعلى هذا أوعزت حكومة صاحب الجلالة بان تبقى الموصل خاضعةً للإدارة العسكرية الخالصة ، وان لا يشملها الحكم المدني الذي أنشئ جهازه لولاية بغداد . وفي خلال عدة أشهر فهم ضمناً أن الاتفاقية المشار اليها سوف تعدل بالنسبة لولاية الموصل . فاندجحت الادارة المدنية هناك بإدارة القسم الجنوبي من « الأراضي المحتلة » .

وتبدي ولاية الموصل عدداً من أوجه التباين اذا ما قورنت بولاية بغداد من الوجهة الطبيعية . إذ يمتد طريق الموصل في شمال جبل مكحول ، الذي يعتبر امتداداً لجبل حميرين ، الى مسافات طويلة في أرض صخرية فيكون تبديلاً مقبولاً بعد الغريتين الترسبي الموجود في سهول العراق الجنوبية . وفي الضفة اليمنى من دجلة ، أي في الجزيرة ، تكون الأرض كلها سهلاً فسيحاً متعادياً (متموجاً) لا يتخلله سوى كتلة جبل سنجار . ويمتد هذا السهل في الضفة اليسرى فيبتعد عن النهر بمسافات مختلفة الى الجبال الكردية التي ترتفع قممها ارتفاعاً مفاجئاً . وتكون السلاسل القريبة من هذه الجبال خلفية المنظر الممتد امام الراي عبر النهر في مدينة الموصل ، وهو منظر ترحب به عيون المتعود على رؤية سهول العراق الجنوبية . ولا ترتفع أعالي الجبال في المنطقة الى أكثر من

= من موظفي الشرطة التركية يتولون إثارة الأكراد غير النظاميين ضد توسيع نفوذنا في أنحاء الولاية . لكن ليضمن لم يدخر وقتاً في اصدار البيانات المطلوبة ، وأعلن للملأ بمنع التجول عند حلول الظلام ، ثم قام بسلسلة من الغزوات التي كبس فيها دور الضباط والموظفين الأتراك ودوايرهم لجمع السجلات الرسمية واعتقال المشتبه بكونهم من اللصوص ومقترفي الأعمال السيئة الأخرى . واطلقت النار على بعض السكان الذين وجدوا منهمكين في النهب ، ثم عين البعض من وجهاء المدينة البارزين في مناصب رسمية برواتب جيدة وأوصوا بتعيين شرطة محليين الى ان يمكن اتخاذ تدابير دائمة للأمن . فكانت النتيجة مرضية لجميع من يعينهم الأمر .

(٧٠٠٠) قدم ، لكنها تكون وعرة ومنحدرة جداً ، وتكون القمم المنعزلة بينها وديان ضيقة معزولة يتسلق الطريق الموصل بينها ممرات صعبة أو يتبع الفتحات الصغيرة . اما الماء في هذه الجبال فغزير دائم ، والأودية مملوءة بالأشجار المثمرة والكروم وأشجار الحوز واللوز والغرب ، وسفوح الجبال مكسوة بأشجار البلوط القصيرة . لكن الماء الوحيد الموجود في الجزيرة هو ماء تلعفر ، والينابيع التي تتفجر من أسفل جبل سنجار ، وبعض العيون ، وأكثرها كبريتية ، التي توجد في أسفل خط الجبال الممتد من القيارة الى تلعفر . وتكون هذه العيون ثروة تلعفر ، ويصب ماء سنجار الشحيح الفائض عن الحاجة الذي لا يستعمل للزراعة في وادي الثرثار الموازي لدجلة فيختفي في الأهوار المالحة الواقعة في شمال غرب بغداد . ولقد كانت مياه وادي الثرثار وجميع عيون البادية منذ أقدم الأزمنة التاريخية المدونة وما تزال مالحة . وتقوم في الجانب الايمن من الثرثار خرائب مدينة الحضر القديمة ، التي تحيط بها مراعي شمر

(١) جاء في (المرشد الى مواطن الآثار والحضارة) الذي نشرته وزارة الاعلام أن مدينة الحضر القديمة هذه تقع في منخفض من البادية الكائنة ما بين النهرين والمعروفة بالجزيرة ، على بعد ثلاث كيلومترات عن الضفة الغربية لوادي الثرثار . ومن المرجح ان هذا الموضع كان مستوطناً لعرب البادية ، ولعلها كانت مركزاً مقدساً لهم منذ العصور القديمة . ومن المعتقد أيضاً ان الأبنية الشاخصة بين خرائبها الآن قد شيدت في مطلع القرن الميلادي الأول . وقد حكمت فيها سلالة عربية لمدة قرون ثلاثة ، وكان أول حكامها أميراً عربياً اسمه سنطروق الملك ويلقب بملك العرب وهو المؤسس واسم أبيه الكاهن الأعظم .

وقد ازدهرت الحضر في حضارتها وتجارها ، واشتهرت بمناعة اسوارها التي استطاع أهلها بواسطتها ان يصدوا هجوم الأمبراطور تراجان الروماني عنها سنة ١١٧ م ، والامبراطور الروماني الآخر سبتيموس سورس عام ١١٩٨ م . وحكمها عدة ملوك ابتداء من سنطروق الذي حكمها في منتصف القرن الأول للميلاد ، وعبد سميا الذي جاء بعده ، وسنطروق الثاني ، وبرسيا ، وأثال ، ثم الضيزن وهو آخرهم . وقد خربها الملك الساساني شاپور الأول في منتصف القرن الثالث للميلاد . ويفصل ياقوت الحموي خبر تدمير هذه المدينة العظيمة ، ويذكر بالمناسبة أن أهلها كانوا =

جربا الشهيرة مع عيونها ذات الماء الأجاج . وفي بعض القرى الواقعة على الجانب الأيسر من دجلة عيون ماء حارة تجعل الزراعة الصيفية شيئاً ممكناً ، لكن ثروة الجانب الأيسر ناتجة في الدرجة الأولى عن روافد دجلة ، وأهمها الزاب الكبير والخابور . وتنمو في جميع ضفاف الأنهر أشجار الغرب والصفصاف ، وفيما عدا ذلك تبقى السهول خالية من الشجر ، ولا يوجد النخيل في شمال «الفتحة» . ويوجد في المنطقة النفط ، والقيز ، والفحم مع الرخام الرمادي اللون غير الصلب الذي يسهل قطعه ويكثر استعماله للأغراض الانشائية بعد تزيينه تزييناً يدل على خصائص البناء في المنطقة . وهو يزين أبنية الجوامع والكنائس الكبيرة .

وقد كانت إعادة تنظيم الإدارة في الموصل أسهل منها في الأماكن الأخرى من ناحية واحدة . اذ بينما كانت السجلات والملفات الرسمية في بغداد والبصرة مفقودة ، وبينما كان موظفو الحكومة التركية قد انسحبوا مع الجيش ، نجد ان السجلات كلها والموظفين أكثرهم كانوا موجودين في الموصل . وما حلت نهاية تشرين الثاني حتى كان الكولونيل ليجمن قد أتم زيارة تلعفر وسنجار وزاخو والعمادية ودهوك وبيره كبرا وعقره . وقد وجد العلم التركي مرفوعاً في جميع هذه الأماكن ، كما وجد في أكثرها جنود وموظفون أتراك . فنُحِى الجنود والموظفون الأتراك وأُنزل العلم ، ثم عين معاونو الحكام السياسيين في المناطق كلما تم احتلالها .

وكانت المنطقة التي أنشئت هنا تتألف من أجزاء الولاية العثمانية كلها عدا سنجق السليمانية . ويختلف السكان في هذه المنطقة أكثر من اختلافهم في مناطق

من قضاة وبني العبيد وغيرهم من قبائل العرب الأخرى التي قتل شابور آلافاً كثيرة من أبنائها .
ويروي بالمناسبة الأبيات الآتية :

الم يحزنك والانباء تنمي	بما لاقت مرارة بني العبيد
ومقتل ضيزن وبني أبيه	وأحلاس الكتائب من يزيد
أتاهم بالخيول مجملات	وبالأبطال شابور الجنود
فهدم من رواسي الخضر صخوراً	كان ثقاله زير الحديد

العراق الاخرى . فان جميع سكان وادي دجلة والجزيرة في الغرب هم قبائل عربية ، وأفرادها زراعون متوطنون ، او نصف رحالة ، أو بدو من قبائل شمر وطي . وفي الجبال الواقعة في شرق وشمال الموصل يتخلى العرب : سكان السهول ، الى الأكراد ، وحتى في البادية الممتدة نحو الغرب ، حيث ترفع قمة جبل سنجار الطويلة نفسها فوق سهول بين النهرين نجد ان منحدراته وصخوره الشاهقة تكون مواطن لليزيديين الذين يقطنون في شمال شرقي الموصل أيضاً .

اليزيديون

يبلغ عدد اليزيديين ، وهم اكراد في نطقهم وربما في أصلهم ايضاً ، الموجودين في المنطقة حوالي (١٨,٠٠٠) الى (٢٠,٠٠٠) نسمة . وقد وصفهم وصفاً شائقاً السرحني لا يارد ، وقد أثار عطفه عليهم الاضطهاد المستمر الذي كانوا يلقونه من المسيحيين والمسلمين على السواء . والمفروض بوجه عام انهم من عبدة الشيطان ، الذي يسمونه « ملك طاووس » لكن أصبح وصف لهم هو انهم ثنائيون^١ يستمدون عقائدهم من الزردشتية عن طريق المانوية . وهم يستعطفون في عبادتهم الروح الحبيثة معتقدين ان تلك الروح هي ملك هبط من السماء وسيعود في المستقبل الى حالته السابقة . ويمارسون ، بالاضافة الى ذلك ، طقوساً دينية يمكن تتبعها وإرجاعها الى عبادات الآشوريين ، وقد أضافوا الى عقيدتهم المركبة نتفاً مستمدة من الأدرية^٢ (الغنوسية) والنصرانية والاسلام . ويوجد مزارهم الأكبر ، الذي دمره الأتراك عدة مرات ، في الشيخ علي الواقع في شمال الموصل ، ويقصده اليزيديون للزيارة في الصيف . اما رئيسهم الديني والديوي ، او المير ، فيقيم في باعذرة بينما

(١) الثنائية في اللاهوت هي العقيدة القائلة بوجود الهين مستقلين في الكون ، احدهما للخير والآخر للشر .

(٢) وهي عقيدة طائفة نصرانية قالت ان المادة قديمة والشر من طبيعتها ، فخلطت بين النصرانية والمادية والمجوسية .

يقيم الكاهن الأكبر في عين سفني ، وهذه مع بعشقة هما أهم مراكزهم بعد الشيخ عدي . وعندهم سبعة طواويس ذهب كان أحدها قد ضاع في جنوب روسية في بداية الحرب ، وهذه يبعثونها سنوياً الى مختلف المراكز اليزيدية من أجل جمع التبرعات للمير والكهنة . والظاهر ان كهنتهم يتألف من : (١) المير و (٢) الكهنة الكبار ، ويطلق على أحدهم اسم بير ، وهم رجال روحانيون مقدسون و (٣) الشيوخ ، وهم رجال الدين والمعلمون و (٤) القوالون ، وهم الذين يلزمون صور الطواويس المقدسة و (٥) الفقراء ، ويلبسون اللباس الاسود على الدوام ، ويبدو أنهم نوع من الرهبان . وينقسم اليزيديون على ما يقال الى سبع طوائف ، ينتمي كل يزيدي الى طائفة او أخرى منها . وكل طائفة لها ملك حارس ، وفيما يلي أسماء خمسة من هؤلاء الملائكة : (١) الشيخ عدي - وطائفته طبقة الكهنة « الفقراء » و (٢) ملك طاووس و (٣) الشيخ شمس و (٤) الشيخ فرح الدين ، القَمَرُ و (٥) الشيخ شرف الدين . والقديسون الآخرون هم الشيخ حسن البصري الذي يسمح لنسله فقط من بين جميع اليزيدية بممارسة القراءة والكتابة ، والشيخ محمد ابو ذيك : ونخاتم فخره الموكل بباب الجنة ، والشيخ مند الذي يستطيع أحفاده مسك الأفاعي . ويوجد عندهم « كوچاك » وهم الذين يرجمون بالغيب . وفي محل ما من جبل سنجار توجد هاوية سحيقة لا قرار لها يلقي فيها الكهنة كل سنة عُشراً من جميع المحاصيل لتكون مؤونة يستفيد منها ملك طاووس عند عودته الى الأرض من جديد .

ولليزيدية صوم في الربيع مدة ثلاثة أيام ، يصومها من كل أسرة شخص واحد عن الآخرين ، ويُحتفل بعيدهم الكبير في الشيخ عدي اثناء الصيف ، فيحضر اليه اليزيدية من جميع الانحاء . وعندهم على ما يقال « كتاب أسود » ومفترض فيه ان يكون هو القرآن بعد ان شطبت فيه أسماء الشيطان اينما وجدت . ويُعتقد ان اي يزيدي يلفظ اسم « الشيطان » يصيبه العمى ، وان الكلمات التي يجتمع فيها حرفا الشين والطاء كالشط والمشط وما أشبهه بتحاشون

استعمالها ، كما يتحاشون كلمة « ألغن » . وقد نقل رئيس الدير في القوش الى أحد الحكام السياسيين في هذا الصدد قصة عن راهب هناك كان يزدياً فارتد . فقال : « كان ذلك الرجل يزدياً ، وكان يحترق وهو فتى يافع حقل أبيه ، فتطوف في فكره انواع الفكر خلال اشتغاله بالحراثة ، حتى فكر يوماً بالخطر المفروض على استعمال كلمة « شيطان » وبالعقوبة المفروضة على مخالفتها . فاستولى عليه يوماً حب الاستطلاع والفضول حتى ركز نظره في الاخير على حجر ما ونطق ببطء شديد « ش - ش - ش » ، فلم يحدث شيء لنظره ، ثم تجرأ فوصل في نطقه لحد « شي » وتدرج بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى أكمل الكلمة بصوت واضح قائلاً : « ألغن الشيطان » فوجد أن نظره لم يصب بشيء . فرجع مزهواً الى البيت . وهناك قال لوالده : « يا ابي ، لقد نطقت بما هو محرم فلم يصبني العمی » ، فقام والده الى بندقيته مزجراً : الا ان الفتى اطلق ساقيه للريح وجاءنا راكضاً يتبعه والده ليحتمي بنا ، فأصبح مسيحياً » .

ويسيطر القلق على حياة اليزيدي اليومية لئلا يزعج الشيطان بشيء على سبيل السهو . ويذكر في هذا الشأن أن أحد اليزيديين زار قنصلاً من قناصل الدول الاجنبية في الموصل فلفت نظره بصورة خاصة وجود المباحق في مكتب القنصل ، فظن أن هذه المباحق قد أعدت بلا شك لوقوع حادث مؤسف ، وان الشخص الذي يبصق فيها قد يبصق متغافلاً على ملك طاووس .

وتوجد أقليات يزيدية خارج منطقة الموصل اي في جوار ماردين وديار بكر وحلب ، وفي القفقاس . وهم يتكلمون الكردية ، ويبدو أنهم اسهموا لدرجة كبيرة في تاريخ الأكراد الباحدينان . وهؤلاء يحترفون الزراعة بالكلية . والمعروف عنهم أنهم شديدو التمسك بعقيدتهم الخاصة بهم ، وحوادث الارتداد بينهم نادرة حتى في أيام الاضطهاد الذي كثيراً ما كانوا يتعرضون اليه . على أنهم سهلو الانقياد بوجه عام على ما يبدو ويقلدون تبعة الخضوع للضبط . ويؤيدون الحكم البريطاني تأييداً مخلصاً . الا أنهم متساهلون اخلاقياً ومدمنون

على المشروبات القوية بصورة فظيعة . أضف الى هذا أنهم يظهرون عطفاً كبيراً على المسيحيين ، ولذلك آووا عدداً كبيراً من لاجئي الارمن خلال الحرب في جبل سنجار . فأدى عملهم هذا ، مع الغزوات التي كانوا يشنونها على خطوط المواصلات ، الى قيام الأتراك باتخاذ تدابير تأديبية ضدهم في ١٩١٧ . ونهبت حيواناتهم كلها . وهم أعداء شمر الوراثيون ، لكن الظاهر انهم على وئام مع الشيخ محمد شيخ طي .

ورئيسهم الديني والديني هو المير ، المنتمي لأسرة جول بك ، والذي يقيم في باعدرا بالقرب من مزار الشيخان . والمير الحالي هو سعيد بك^١ . وكان ابن عمه اسماعيل قد اتصل بنا قبل احتلال الموصل ، وزارنا في بغداد ، ثم أفادنا في تدبير الحملة الاستطلاعية التي قام بها الكابتن هدسن في جبل سنجار سنة ١٩١٨ . وعلى هذا فقد كنا مدينين له ، وقد أُجريت الترتيبات اللازمة للتوفيق بين ادعاءات اسماعيل وسعيد المتعارضة بأن نعطي ثلاثة من الطواويس المقدسة (وكان تملكها يعطي الحق بجمع الاعانات الدينية من الاتباع) الى اسماعيل بك . على ان هذه الترتيبات لم تكن قابلة للتطبيق ، لانها تشابه وجود بابوين اثنين متخاصمين في آفينيون . وقد ثبت ان اسماعيل لا يؤتمن وغير مقتدر على الامتناع عن الدسائس الخفية من اي نوع كانت ، فوجد أخيراً من الضروري إرساله الى بغداد ، فاستعاد سعيد الرئاسة من غير شريك له . وهذا الرجل كانت تسيّره في جميع الشؤون أمه ، ميان ، وهي امرأة مسنة مسيطرة لا تتفق مصالحها الشخصية مع أحسن مصالح القبيلة دائماً . وبعد احتلالنا للمنطقة مباشرة اتخذت الترتيبات لان يأخذ سعيد بك على عاتقه أمر البت في جميع قضايا اليزيديين الشرعية ، على ان يساعد في مجلس^٢ من الشّيبة . فسار ذلك سيراً حسناً في بداية الأمر ، لكن شعوراً متعظماً بعدم الرضا عن قراراته أخذ يظهر نفسه الآن . وقد أزاح موت الشيخ علي ، باب الشيخ ، وهو الكاهن

(١) وهو والد تحسين بك المير الحالي (١٩٧٠) .

الأعلى وسادن عتبة الشيخ عبدي التأثير الذي كان يكبح جماح سعيد بك ،
ويحاول سعيد بك الآن تأجيل تعيين خلف له لاجل غير مسمى لان التعيين من
صلاحيته .

والظاهر ان اليزيديين قد أضاعوا كثيراً من أرا ضيهم بنتيجة الاضطهادات
السابقة . وهناك شعور قوي جداً في هذا الشأن في مكان او مكانين ، ولا سيما
في عين سفني ، وستكون هذه المشكلة من اصعب المشاكل التي ستجابهنا في عملية
تسوية الارض في المنطقة .

وكان أبرز رجل في جبل سنجار عند اول وصولنا اليه حمو شيرو ، وهو
« فقير » ورجل مسن . فعين رئيساً للجبل براتب شهري ، مع « وكيل »
مأجور في بلد . وبالنظر لموقع جبل سنجار الجغرافي ، وهو يمتد في الجزيرة ،
وبناءً على ميول حمو شيرو واليزيديين الواضحة ضد الأتراك وضد العرب
فانه (جبل سنجار) يكون معقلاً ستراتيجياً مهماً يجب ان يكون ذا فائدة
عظمى في التعامل مع شمر ، ومع أية حركة قد تقع من الحركات التركية او
حركات الدعوة الى الوحدة العربية .

المسيحيون

ويوجد في الريف الحصب المحيط بالمدينة (اي الموصل) والممتد في شرق
دجلة عدد كبير من المسيحيين ، وهم كلدان في الغالب برغم انه توجد ايضاً
اقلية صغيرة نسطورية وغيرها . والبطرك الكلداني مقره في الموصل ، حيث
تكون طائفته جمهرة أرباب الصناعة والحرف . والكلدان في خارج المدينة
فلاحون مشهورون ببراعتهم وحذقهم ، وقراهم من أوسع القرى وأكثرها
رخاء في الولاية . ومن اجل مصالح الكلدان والسريان الكاثوليك يُعين على

(١) هكذا تفعل السياسة البريطانية في البلاد التي تستعمرها لتؤمن مصالحها وتثبت أقدامها .

الدوام قاصد رسولي في الموصل ، وللاباء الدومينيكان مدرسة ومستشفى يقصدهما الناس بكثرة . وفي المدينة ايضاً مطاردة للسريان الكاثوليك والنسطوريين واليعاقبة ، وتزداد الاختلافات المسيحية بوجود أقليات صغيرة من الكاثوليك الرومان والبروتستانت والارثوذكس الروم . ولا شك ان الأمل في الحصول على مدافع أوربي قوي تجاه الحكومة التركية كان يعد حافزاً قوياً لسائر الكنائس ، وقد كانت كنائس الكاثوليك الرومان والكلدان والكاثوليك السريان تحت الحماية الافرنسية في السابق كما هي الحال في سائر انحاء الامبراطورية العثمانية . ولا شك ان الأمل في الحصول على مدافع أوربي قوي تجاه الحكومة التركية كان يعد حافزاً قوياً لسائر الكنائس بان تتحد بكنيسة روما . وكانت سياستنا قبل الحرب تبدي ميلاً لحماية الكنيسة النسطورية ضد المتفرعين عنها ، وهم الكاثوليك الكلدان ، ومن أسباب ذلك وجود هيئة تبشيرية صغيرة غريبة بين النسطوريين تدعى « بعثة رئيس اساقفة كانتربري للنسطوريين » . ومن جهة أخرى ، كان وجود بعثة دومينيكانية مع مدرستها ومستشفاها الجيدين في الموصل يشجع الميل في الاتجاه الى فرنسة . وتعد العلاقة بروما علاقة قوية والأرجح انها ستبقى كذلك ، لأن كنيسة الكلدان ليس لها أوقاف تقريباً وهي تعتمد على روما مالياً .

أقليات مختلفة

ان قسماً كبيراً من اهالي تلعفر ، القرية الكبيرة الكائنة على حافة البادية بين الموصل وسنجار ، هم من التركمان . وهؤلاء يدعون بتحدرهم من صلب جنود تيمورلنك ، واغليبتهم من الشيعة . لكن الطائفة السنية هي السائدة في المنطقة . حيث يوجد (١٧,٠٠٠) شيعي فقط في منطقة الموصل تجاه ما يقارب (٢٥٠,٠٠٠) سني ، كما لا يوجد شيعة مطلقاً في أربيل او في شماها . وفي الجانب الأيسر من دجلة ، بين النهر والجبال ، توجد طفاوة كل فتح

وحثالة كل هجرة وقعا خلال الألفي السنة الاخيرة أو أكثر . وبجانب اليزيديين والمسيحيين المعروفين بكل اسم ونحلة يقف التركمان والعرب والأكراد في جوار قريب . وتوجد كتلة كبيرة من الشبك والصارلي الذين يقال انهم ينتمون الى طائفة باطنية سرية أو الى الشيعة الغلاة . إذ تربطهم بعض العلاقة بالعلي إلهية المنتشرين في جاني « طريق ايران » الممتد بين قصر شيرين وكرمانشاه . ويمتد النطاق اليزيدي على طول سفوح الجبال ، بينما تكسّون الجبال كلها كردية مع بعض القرى اليهودية والمسيحية - وهي جميع ما بقي الآن من السكان المسيحيين الكثيرين الذين كانوا في البلاد من قبل . اما الأقلية اليهودية في الموصل فهي أقلية صغيرة وليس لها تلك الثروة والاهمية اللتان تميزان اليهود في بغداد . وقد كانت المدينة مملوءة باللاجئين الأرمن عند وصولنا اليها ، لكن أكثريتهم أُجّلوا الى بغداد . اما عدد الأرمن المقيمين فهو قليل .

شمر جربا

ذكرنا في فصل سابق اننا كنا على اتصال بشمر جربا قبل احتلال الموصل . ونذكر الآن ان أسرة الشيوخ تتألف من خمسة عشر إبناً من ابناء فرحان باشا الذي توفي قبل أربعين سنة تقريباً . وعند وفاته اقتسم الابناء المشيخة بينهم . والرئيس الحقيقي للقبيلة بأجمعها هو العاصي ، أكبر الاخوان سناً . وكان هذا قد قدم الى الموصل قبل الحرب بعد ان طمنه الوالي على سلامته ، لكنه وضع في السجن ، وعندما أُطلق سراحه حلف بالطلاق بانه سوف لا يرى الموصل . فاذا كانت هذه القصة حقيقية فانها تلقي كثيراً من الضوء على سلوكه في السنة الاخيرة . وأبرز اعضاء الأسرة ، بعد العاصي ، هم حاجم وولده ، ودهام بن هادي حفيده ، ثم حميدي وبدر وبقية أخوة العاصي ، وكذلك عجيل الياور بن عبد العزيز الذي ينضم اليه اعتيادياً أولاد شلال متني ومشعال ، ثم محمد بن مظلم وعاصي وعبيد ابنا مجول وفارس وهم أعداء وراثيون لعزّة ، وكانت هناك خلال الحرب عداوة لا يستهان بها بينهم وبين الدليم .

وقد جرب شيخ واحد او شيخان الاشتغال في الزراعة^١ . ومن أجل هذا زرع حميدي وبدر الفرحاتية ، بالقرب من بلد ، قبل الحرب . وكان عجيل الياور يزرع في نجمة بالقرب من الشورة بالاشتراك مع محمد النجيفي في الموصل لكن الاكثريّة الساحقة من القبيلة هم رُحُل ، ويعتاشون مما تنتجه إبلهم ومن « الخوة » التي يفرضونها على أغنام القبائل الاخرى ، وعلى القوافل وخاصة في طريق نصيبين .

وكانت شمر ، عدا فيصل ، المجاورة للموصل والتي كان نفوذها ضئيلاً ، منحازة الى جانب الأتراك خلال الحرب . وهم بالنسبة لموقعهم الجغرافي ، لا يمكن ان يلاموا على ذلك . وقد اغتتموا فرصة تقدمنا على طول النهر فساهموا في نهب القرى الواقعة على دجلة وعلى طريق نصيبين أيضاً ، لكننا عندما دعوناهم للحضور أذعن حميدي وعجيل الياور وعبادة بن العاصي فحضرُوا واعتذر العاصي عن المجيء لتقدمه في السن . فقبل لهم انهم يجب ان يظلوا في الموصل حتى تتخذ بعض الترتيبات بشأنهم فتعهدوا بالانصياع لذلك . على أن عجيلاً ، صاحب النفوذ عليها ، ترك الموصل بعد أيام قليلة من غير إذن وكان سبب ذلك إما الخوف او شيء آخر . فاعتُبر خارجاً على الحكومة ، ثم غزيت إبله التي لم تكن بعيدة عن الشرقاط وصودرت ، لكنها جفلت وتفرقت عند هبوب عاصفة هوجاء ففرت عندما كانت تساق الى المدينة .

وفي الوقت نفسه قدم حميدي خضوعه للحكومة ، وتعهد بمحافظه عشيرته العبدية ، وقسم من الصايح ، على السكينة فمُنح مخصصات شهرية قدرها (٥٠٠) روبية .

وبقي العاصي في جوار نصيبين ، فكان يبعث بمعروضات خضوعه وولائه بين حين وآخر ، الا انها لم تقبل بالنظر لطبيعتها الغامضة . وجاء حاجم في

(١) ان معظم شيوخ شمر من أبناء هذا البيت كانوا من المزارعين الكبار الى حد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي جاءت بقانون الاصلاح الزراعي وألغت الاقطاع والملكية الكبيرة .

الصيف ، لكن طلباته ردت لانه جاء لوحده . وكانت حوادث السلب ، المعزوة الى شمر ، كثيراً ما تقع على طريق نصيين وغيره ، لكنها لم تكن بمقياس واسع الا ما حدث منها في أيلول حينما نهب من إحدى القوافل مبلغ جسم يقدر بثلاثة آلاف ليرة تركية في ابي حمضة الواقعة على طريق دير الزور . ومن اجل الاقتصاص من شمر عن هذا العمل غزتهم سيارات مصفحة وتم الاستيلاء على عدد كبير من أغنامهم . وكان الامل ان يقطع عليهم طريق الهجرة عندما يحين وقتها ، لكن الخطة أسيء تنفيذها فأفلتوا . على ان العاصي بعث بحفيده دهام الى الموصل يحمل كتاباً يقول فيه انه تنازل عن المشيخة اليه ، مع تصريح من حاجم ومطلق الفرخان وغيرهما يؤيدون فيه اعترافهم بنصب دهام شيخاً عليهم . فأخبر دهام بأن أول ما يترتب عليه عمله هو ان يسلم مبلغ (٣٥٠٠) ليرة تركية غرامة عن سرقة أبي حمضة ، فيعين بعدئذ شيخاً حكومياً على عشائر العاصي . فوافق على ذلك وبعث في الحال مبلغاً قدره (١٨٠٠) ليرة تركية . والمعتقد انه جمع المبلغ من القبيلة عندما وقعت حادثة دير الزور ، كما سوف يذكر فيما بعد ، وهذا ما جعله متردداً في كونه يؤيد الحصان الرابع ام لا . فأدى ذلك لتأخير الدفع ، وأخرته أكثر من ذلك الدعاية الشريفة . وفي نيسان دفع مبلغاً آخر قدره (١٥٠٠) ليرة تركية ، ثم تحرك بعد ذلك الى الشمال مع قبيلته وخرج الى خارج حدود ممتلكاتنا .

وعلى إثر ذلك مباشرة أثارت قضية « الخوة » من قبل العشائر التي كانت تفرض عليها . فقد كانت هذه الخوة مبنية على أساس ثابت ، حيث كان يؤخذ من كل قطيع خروفان واربع نعاج وأربعة طليان وستة مجيديات نقدية . وكان أبناء فرحان يقتسمون جبايتها بينهم . على ان أخذ الخوة هذه من عشائر الجزيرة الصغيرة لم يكن شيئاً غير معقول . حيث انها ليست سوى دفع أجر لقاء السماح بالرعي في مراعي تعود لشمر . لأن شمر كانوا قد فهموا بأنهم في وسعهم ان يستمروا على أخذها من القبائل عن اغنامها في البادية ولكن بعد تبديل في المقدار ، وان تكون زراعة القرى معفوة منها . ولم يعترف بحق

المرور على القوافل . ويتمتع دافع الخوة بالحماية ، ولذلك يصعب علينا الآن ان نفتنع بإمكان منعها .

ومع هذا فان التعارض الداخلي بين مصالح البدوي والفلاح أو التاجر يمكن ان تتمثل تمثلاً حسناً في موقف شمر في هذا الشأن . حيث أنهم يعتبرون آفة عامة تعيش على السلب والحزبية . وقد تحقق لبعضهم مقدار الربح الذي يجنونه من تشغيل إبلهم في النقل . وهذا قد يصبح حلاً جزئياً للمشكلة ، لان المال كلما زاد عندهم قل تحريضهم على السلب . لكن سيطرتنا عليهم ، على كل حال ، ستوقف خلال السنوات القلائل القادمة على مقدرتنا في قطع طريق هجرتهم شمالاً وجنوباً .

القبائل الاخرى

واكبر قبيلة في الجزيرة بعد شمر هي قبيلة طي ، وشيخها محمد عبد الرحمن . وتمتد منطقتهم في الدرجة الاولى بين نصيبين وجبل سنجار . وكلهم ما عدا بعض القرى في منطقة تلغفر ، قبائل رحل . ولم يحدثوا اي اضطراب سوى حادثة واحدة من حوادث السلب وقعت في منطقة تلغفر ، وفي هذه الحالة أدى القبض العاجل على دوابهم التي كانت تشتغل في نقل الأحمال بالقرب من الموصل الى ارجاع البضائع المسلوقة .

ويتمتع البو متيوت والجمحيش على طول قاعدة جبل سنجار الجنوبية نحو تلغفر ، الا أنهم لا يكونون قبائل ذات أهمية . والحديديون هم رعاة الموصل ، حيث يسلمهم أصحاب الاغنام الكبار أغنامهم لرعايتها . وهم مشهورون بجبنهم ، ويعتبرهم البدو منحطين ، ولذلك لا يتصاهرون معهم . وكانت هناك مشاكل حول مشيخة أبو حمد الذين يحيطون بالشورة . وأبرز شيخ فيهم بلبل أغا ، العبد في أصله واللص اللطيف المعشر . ويرأس الفريق المناوئ عقوب الذي ينتمي الى أسرة شيوخ حقيقية قد أجبرنا على الاعتراف برئاسته

على بعض الافخاذ ، والبو محمد في خصام مع الجبور الذين يزرعون الاراضي الممتدة على طول النهر .

اما علاقاتنا بالاكراد فقد بحثنا فيها من قبل .

الادارة

لقد حافظت الادارة البريطانية على تشكيلات الادارة التركية في الولاية ، فحل معاون الحاكم السياسي في محل قائمقام القضاء . وقد أدمجت الادارة بالمالية جرياً على القاعدة التي اتبعناها في الجهات الاخرى . فقسمت كل منطقة من الوجهة المالية الى نواح يشتغل في كل منها مأمور مال عربي ، ويتبع المأمورون أجمعهم مدير المال الذي يشتغل في مركز المنطقة . وفي نهاية ١٨١٩ عين حسن^١ بك مدير السنية في عهد الاتراك مفتشاً للمالية في المنطقة ، وقد اشغل هذه الوظيفة بصورة مؤقتة لمديتين قصيرتين احد معاوني الحاكم السياسي . وكانت الموصل في ايام الحكم العثماني مركزاً لادارة السنية في جميع انحاء العراق . فقد كانت املاك السنية ، كما شرح سابقاً ، تابعة لادارة السنية الخاصة التي كانت تراجع استانبول مباشرة من دون ان تتصل بادارة الولاية بشيء . ولاجل ان يتسنى للمأمورين البت في القضايا الصغيرة في محلها فقد منحوا في الموصل وتلعفر صلاحية الاحكام من الدرجة الثالثة ، فكانت تجربة ناجحة بوجه عام .

وفي جهات منطقة الموصل ، وخاصة السهول ، التي تكون القرية فيها لا القبيلة هي وحدة المجتمع ، كان المختارون هم الذين يقومون بالدور الاداري الفعال . فقد كانوا هم المسؤولين عن حفظ الامن والنظافة في قراهم ، وعن تسوية النزاعات بموجب العدالة والعرف ، وعن اكتشاف المجرمين في القضايا

(١) الظاهر انه حسن فائق الذي عين « وكيل حكومة » في تلعفر بعد إقصاء عبد الحميد الدبوني عنها من قبل الانكليز .

الخطيرة ، وعن تنفيذ أوامر الحكومة ، وعن تأمين حاجات موظفي الحكومة وسلامة المسافرين والقوافل الذين يبيتون ليلتهم في القرية . وهم كذلك مجبرون على مساعدة مديري المال في الشؤون الزراعية كتخمين الحاصلات مثلاً . فيأخذون لقاء ذلك بدورهم الرسوم الاعتيادية ، وهي نسبة معلومة من قيمة البضائع التي تباع في قرينهم ، ويمكن أن تعطيتهم الحكومة نسبة لا تتجاوز الثلاثة بالمائة عن الحاصلات الشتوية ومنتجات الكروم . وكانت الموصل كبغداد تبعث الى مجلس المبعوثان التركي اربعة مبعوثين وقد عين المسيحي الذي كان احدهم ، وهو شخصية محبوبة جداً في المدينة ، ملحقاً سياسياً^١ .

وكانت الاحوال العامة عند وصولنا سيئة جداً . فقد كانت المدينة محتشدة باللاجئين ، وكانت قدرة للغاية . كما كانت الاسعار عالية تماماً ، وكان سبب ذلك في الدرجة الاولى المصادرة العسكرية وارسال الجنود الالمان والنمساويين الرزم البريدية الى أهلهم . والمقول ان عشرة آلاف نسمة قد ماتت من الجوع خلال شتاء ١٩١٧ - ١٨ . وقد جردت جميع القرى في الخارج ، عدا القرى المسيحية ، من رجالها بواسطة التجنيد . وكانت حركة النقل والزراعة تكاد تكون هامة بالنظر لمصادرة عدد عظيم من الحيوانات للأغراض العسكرية ، وترك خمسين بالمائة من الارض باثرة من دون ان يزرعها أحد .

الشؤون الزراعية

ان أهم حاصلات الموصل الزراعية القمح والشعير ، وان نسبة القمح الذي يزرع فيها اكبر من نسبة ما يزرع منه في الولايتين الجنوبيتين . ولذلك كانت بغداد متعودة دائماً على ان تنظر الى الموصل في الحصول على قمحها منها ، وفي الحصول على الاثمار واللوزيات والخضر التي تجود فيها او ما ينتج منها بالكلية في سفوح الجبال . وعلى هذا فان انقطاع طريق الموصل من مارت

(١) وهو داود اليوسفاني . كما يظهر من القائمة الملحقه بكتاب آرنولد ويلسن ، وقد عين في ٢٢ - ٣ - ١٩١٩ .

١٩١٧ الى تشرين الثاني ١٩١٨ كان من المصاعب الحقة التي أدت الى نقص المواد الغذائية في بغداد خلال عام ١٩١٧ . وجميع الحاصلات الشتوية في الموصل هي حاصلات ديمية ، لكن حاصلاتها الصيفية لا يعتد بها بالنظر لعدم وجود الماء في السهول خلال الصيف ، الا حوالي الأنهر حيث يمكن ري المزروعات بالواسطة وفي القرى التي فيها عيون ماء دائمة . ولا يُستخدم الري بمقياس واسع الا في وادي الزاب الكبير . وفي الجبال ، من جهة أخرى ، تكون الحاصلات الصيفية كالرز والتبغ والفواكه أكثر أهمية من الحبوب الشتوية . والوسائل الزراعية هناك هي وسائل بدائية . حيث يسحب المحراث الخشبي زوج من البغال او الثيران او الحمير . ويبقى نصف ما يملكه الشخص عادة من الارض مبوراً ويزرع نصفها الآخر فقط . وحالما تبذر بذور السنة في الارض تحرث بقايا حاصل السنة المنصرمة في اتجاه معاكس وتبقى مבורة خلال الصيف . وبعد أول مطرة في الخريف تحرث ثانية فتكون جاهزة للبذر . ولا يسمد الارض بالسماد العضوي الا أحسن الفلاحين . ويبلغ معدل ما يبذر في الارض (١٢٠) ليبرة للفدان (أيكر) الواحد ، ومعدل الحاصل سبعة أو ثمانية أضعاف ما يبذر . وقد إتخذت بعد الاحتلال تدابير عاجلة لاستعادة الرخاء الزراعي ، فوزع على الفلاحين في السنة الأولى حوالي (٥٥٠) حيواناً للحراثة و (١٥٠,٠٠٠) روبية للسلف ، فضلاً عن الكميات الكبيرة من الحبوب التركية التي أخذت وأرجعت لأصحابها .

وهناك ما يدل على ان معظم الارض في المنطقة كانت في الاصل بيد ملاكيها الفلاحين ، الذين يفلح كل منهم أرضه الخاصة . لكن معظم الأراضي في الحال الحاضر تعود الى ملاكين كبار هم في العادة من سكنة الموصل . وهم يملكونها بواسطة سندات طابو . ولدينا شكاوى كثيرة عن كيفية تملك مثل هذه الأراضي . فقد قيل مثلاً ان بعض الفلاحين كان يعرض عليهم شراء أرضهم بسعر يقدر بمقدار ٢٥٪ من السعر الحقيقي ، وعندما يرفضون البيع تلفق عليهم بعض قضايا القتل فيرسلون الى السجن ليقضوا فيه سنين عديدة ما لم يبدلوا فكرهم

ويوافقوا على البيع . والظاهر ان ادخال نظام الطابو قد مهد لأشراف المدينة
 الفرص للاحتيال على الفلاحين وغبنهم في أخذ أراضٍ واسعة وشرائها بوثائق
 مزورة وما أشبه . وكان رهن الاراضي من الأسلحة الاخرى التي كان يستخدمها
 اولئك الناس لسلب الارض . فهناك عدد غير يسير من اصحاب الملك الطابو
 لم يروا أراضيهم بأعينهم مطلقاً . وتختلف حقوقهم في الارض باختلاف المناطق
 تبعاً لخصوبة الارض والاتفاق الذي يجري بينهم وبين الفلاحين . فتراوح
 حصتهم من حاصل الارض بين رבעه و $\frac{1}{16}$ منه ، لكن الثمن هو المعتاد على
 الاغلب . ويأخذ ملاك الطابو من الحاصلات الصيفية نصفها لأنه يملك حق الماء
 ايضاً . ووضع الفلاح هو وضع غامض . فكثيراً ما يقال ان سبب عدم بناء
 الفلاح لدار جيدة يسكنها هو تعرضه لاجراجه من الارض في اي وقت . وهذا
 صحيح من الوجهة النظرية لان مالك الطابو اذا عقد اتفاقاً مع الفلاح يزيد
 فيه حصته من الحاصل وإن لم يقبل الفلاح بذلك فليس هناك ما يمنعه من إجراجه
 والاتيان بفلاح آخر في مكانه . والمالك الذي يملك أرضاً أكثر مما يستطيع
 زراعتها هو بنفسه ، ويرغب في استثمارها مباشرة ، يستخدم عادة
 « المربعية » ، ويسمى المربعي بهذا الاسم لأنه كان في وقت من الاوقات
 يأخذ لقاء أتعابه ربع الحاصل من الأرض التي يزرعها . ويأخذ الآن الثمن ،
 ولذلك فهو كثيراً ما يكون مثقلاً بالدين لسيدة بحيث يعد بوجه عام عبداً
 اقطاعياً يرتبط بالأرض .

وعلى الشاكلة نفسها نجد ان الأرض في المناطق الجبلية انتقلت ملكيتها في
 حالات كثيرة من الفلاحين الى الأغوات ، ولكن لأسباب تختلف اختلافاً قليلاً
 في بعض الأحيان . حيث ان الفلاح هناك كان معرضاً لغزوات وهجمات جميع
 من يفضلون العيش من أتعاب الآخرين ، وليس من أتعابهم هم أنفسهم . وعلى
 هذا لم يكن بوسع العيش ما لم ينضو تحت الحماية التي كان يحصل عليها من
 الرجل المتنقل في محيطه ، لقاء التنازل عن عشر الأرض التي يدفع منها السيد
 الاقطاعي كضريبة للحكومة أقل ما يمكن ان يقنع الأتراك بتقبله منها .

ويبدو أنه في وقت من الاوقات كانت مساحة لا يستهان بها من الأرض حول الموصل تمتلك بتلك الطريقة الاقطاعية التي تسمى « التيمار » وهي الطريقة التي يمتلك المرء بها أراضيه بشرط أن يجهز عدداً معيناً من الرجال للخدمة العسكرية عندما يُدعى الى ذلك . وعندما أدخل مدحت باشا نظام الطابو ، ألغيت هذه الطريقة بصورة اضطرارية وسجلت الأرض باسم الذي كان يزرعها ثم عُوض الملاكون عنها بثمن ظل يتناقص سنوياً حتى انطفأ .

وكان السكان في تلغفر ينقسمون إلى فرق يترأس كل منها آغا من الأغوات كان يقال أنهم يملكون الأرض . اما عملياً فلم يكن يدفع الفلاحون إلى هؤلاء حق الطابو مطلقاً مع أنهم كانوا يقدمون مساعدات طفيفة للضيافة وما أشبهه . والحاجة ماسة في منطقة الموصل الى تسوية مشكلة الأراضي . وربما كان أمر التسجيل في الطابو هنا شيئاً أهون مما هو عليه في الجهات الأخرى ، لكنه كان على كل حال سيئاً فوق العادة . فهناك قضايا كثيرة جداً في جهات سنجار وتلغفر كانت تعرف بحصول غش فيها عند التسجيل ويقاوم تنفيذها بحذر في الوقت الحاضر ضحاياها أنفسهم . حيث توجد حالات كثيرة في الجانب الأيسر من النهر ، ولا سيما في منازل اليزيدية ، تكون فيها قرى عديدة مقسمة الى حوالي (٢٧١) حصة . ويملك ملاكو الطابو منها حوالي (١٩٣) حصة بينما يمتلك الحصص المتبقية القرويون . وهذه الحصص لا تعرف لها حدود ، ولم تسجل مطلقاً ، فبقيت مجهولة بالمرّة ، ولذلك يسهل علينا هنا أن نتصور المنازعات التي يمكن ان تنشأ عن قضايا مثل هذه .

ومن العجيب الذي يستحق الذكر ان نجد في السهول ان المسيحيين وحدهم قد نجحوا في إخراج أراضيتهم من قبضة الملاك الموصل . وقد يكون السبب في ذلك أن قرى المسلمين لم يكن لها من يحميها ويوصل ظلاماتها الى مسامع الحكومة ، عدا استغلالها بظل زبائن من وجوه المدينة (بثمن) ، بينما كان للمسيحيين بطاركتهم وأساقفتهم الذين كانوا حماة طبيعيين المتأهبين الذين ينطقون باسمهم ، كما كان بوسع الذين يتبعون الكنائس الكاثوليكية الالتجاء الى دولة أجنبية .

الضرائب

أن القاعدة العامة في منطقة الموصل هي ان تكون حصة الحكومة من محاصيل الحبوب العشر . وقد أضيف الى هذا العشر مختلف الرسوم التي كانت تفرض بين حين وآخر . فوصل بهذا مجموع التحقق الى ١٢,٥ ٪ . وان السبب الذي يجعل أراضي الدير في هذه المنطقة تدفع أقل مما تدفعه الأراضي المرواة حول بغداد هو ان معدل الحاصل فيها أقل ، كما ان محاصيل الدير التي تعتمد على ماء المطر فيها شيء أكثر من عدم التأكد من نتيجة الحاصل . أضف الى ذلك ان الآفات الزراعية بأنواعها تأخذ حصتها من الحاصل ، ويخشى من الجراد على الأخص ، وفي السهوب التي يتألف منها قسم كبير من المنطقة والتي تكون مكسوة بالعشب الذي جففته الشمس تنتشر الحرائق بسرعة مخيفة . حيث ان أميالاً عديدة من مثل هذا العشب يمكن أن نراها طعمة للنيران في الصيف .

وقد جربت الحكومة العثمانية تجارب عديدة في جباية الضرائب . وكانت الطريقة الاعتيادية وضع الأراضي بالالتزام ، حيث تجبي حصة الحكومة بالمراد الذي يقطع على أعلى المتزايدين . وكان اكبر الملاكين بوجه عام يشترون من المراد حصص قراهم بأسعار تساعد في الحصول على ربح لا يستهان به . وكانت هناك أيضاً طبقة محترفة من الملتزمين الذين كانت وسيلة معيشتهم الوحيدة التزام جباية الضرائب من القرى الصغيرة .

وكانت الأساليب التي يجب ان نطبقها نحن موضع بحث وتأمل عميقين . فقد كان المقصود في بادئ الامر ان يجري التخمين بالنظر ثم تجبي الضرائب مباشرة . على انه وجد بأننا سوف لا نتمكن من إيجاد ما نحتاجه من المخمينين الذين يعتمد عليهم ، فضلاً عن الصعوبات الأخرى . وكانت طريقة قياس الأرض ليست ذات موضوع للمساحات الواسعة التي يجب أن تزرع . فتقرر في النتيجة ان نستمر على طريقة الالتزام مع التحوط باجراء تخمين تمهيدي للاكداس غير المدروسة ، وهي طريقة من طرق التخمين كانت معروفة جيداً في أراضي

السنية الموجودة في المنطقة . فتسنى لنا بهذا ان نضع تخميناً احتياطياً لكل قرية يجعلنا احراراً في جباية الضرائب مباشرة عندما يخبى التقدير الاصيل . وكذلك خيّر سكان كل قرية في التزام ضرائبهم بالمزاد ان رغبوا في ذلك . فكانت النتائج مرضية . وهناك أسباب تدعونا نعتقد ان الحكومة بوجه عام لم تستحصل أقل او أكثر من حصتها الحقيقية . وقد استفدنا من تخيرنا الجباية المباشرة في قضية واحدة او قضيتين - مما كدّر ملاكي الطابو الذين كانوا ينادون بأسعار واطئة في المزاد متقصدين بأمل ان يصيبنا الضعف ونقبل عروضهم - وفي كثير من الحالات قطع الالتزام على الزّراع أنفسهم برغم انه لم يكن ذلك بالكثرة التي كنا نتأملها . وقد دلت التناجج على ان التخمينات كانت دقيقة بصورة لا غبار عليها ، وسوف تجي الضرائب في المستقبل ، في بعض الجهات على كل حال ، بصورة مباشرة مستندة الى تخمينات من هذا القبيل ، كما جرى في ١٩١٠ بشأن كثير من الخاصلات الصيفية .

وتعد الكودة ، التي هي عبارة عن الرسوم المدفوعة عن الاغنام والبقر ، من الضرائب المهمة في منطقة الموصل وكانت نسبتها في زمن الاتراك (٩,٥) قرش عن الرأس الواحد . فحددناها نحن هذه السنة بمقدار (٨) آتات^١ للرأس الواحد من الاغنام وروبية^١ واحدة عن الجاموسة الواحدة . وقد قام ببعّد الحيوانات المأمورون أنفسهم من دون موظفين إضافيين . فمن المعتاد ان تنقل الاغنام من الجانب الايمن الى الجانب الايسر من النهر في مارت أو نيسان ، ويستفاد من عبور الحيوانات على الجسر في جمع الاغنام بالتدريج كما كان يجري في ايام الترك . وقد بلغ مجموعها (٨٠٣,٧٣١) ، وهذا عدد يزيد على نتيجة التعداد التركي . ومما يذكر هنا ان شيوخ العشائر قد عينوا في عدة حالات عدادين مساعدين ودفع لهم ٣٪ من اغنام قبائلهم التي كانت تعد .

(١) الروبية هي العملة الهندية التي ظلت تستعمل في العراق منذ عهد الاحتلال البريطاني الى حين ظهور العملة العراقية في ١٩٣٢ ، وتنقسم الى (١٦) آنة ، فتساوي (٧٥) الى (٨٠) فلساً بالعملة العراقية .

ولم تعد أغنام شمر ، ولا يمكن ان تعد أيضاً ، لانهم يتجولون في منطقة تمتد الى خارج حدودنا . ويضع عدد من أهالي الموصل اغنامهم بعهدة شمر فأفلت هؤلاء ايضاً من الكودة .

وحينما يكون من الممكن ان تحل مشاكل النقل فمن المؤمل على ما يظهر ان تزداد فرص استعمال الآلات الزراعية الحديثة في منطقة الموصل أكثر من استعمالها في جهات العراق الأخرى . فقد كانت عند عدد كبير من الملاكين الكبار قبل الحرب آلات حاصدة ، لأن الأراضي الواسعة ذات الزراعة الدائمة التي لا تعتمد على شق السواقي والجداول للسقي ليست فيها تلك الموانع التي تحول دون استعمال الآلات . وتبلغ حصة الطابو من أراضي السنية على الدوام ٧,٥ ٪ تقريباً ، عدا أراضي بعض القرى في منطقة زاخو التي يقترح مساواتها بالأراضي الأخرى .

وهناك مساحات كبيرة من الأرض ، ولا سيما في جهة الجزيرة ، يقال عنها « محلولة » أي لا وارث لها ويجب ان تكون للحكومة . فقد استبان عند التحقيق أن القرار الذي اتخذ في كل قضية تقريباً قد جعل قابلاً للاستئناف فلم ننظر فيه ، ويشك فيما اذا كان ادعاء الحكومة بكل واحدة من هذه القضايا سيؤخذ به حينما تبدأ محاكم التسوية بالنظر فيها .

وقد شرع بتحسين الغابات الحكومية وإعادة تشجيرها بناءً على التدمير الذي أصابها من جراء تجهيز الجيش التركي بالأخشاب . ولا بد من ان تكون هذه في النتيجة املاكاً ذات قيمة ، حيث ان بغداد تعتمد بالكلية تقريباً في الأيسام الاعتيادية على المناطق الجبلية الشمالية في أخشابها . وعلى هذا فان الأكلاك ، المصنوعة من قطع الأخشاب المحمولة على قِربٍ منقوخة كانت تشاهد في الصور الآشورية الموجودة في المتحف البريطاني ، تُطَوَّف في دجلة الى بغداد حاملة الأحطاب والبضائع الأخرى . وعندما تصل الأكلاك إلى بغداد نحل فتباع الأخشاب وتُفَش القرب فتحمل على الحمير الى الموصل من جديد لتستعمل

ثانية . وتعد الضرائب المستحصلة من بيع الاخشاب والفحم من مميزات ميزانية الموصل .

وفي حزيران ١٩١٩ عُين ضابط بريطاني ليتولى شؤون الكمارك . فجمعت رسوم الكمارك على البضائع الواردة مسن سورية وتركية ، ونصب جهاز لإنحصر التبغ القديم في نهاية ١٩١٨ ، فكان ضابط الكمارك يجبي رسوم التبغ ايضاً . حيث يجبي رسومه في الموصل بسعر قطعي قدره ثماني آتات للكيلو الواحد ، وهو يوضع في مخزن مكفول .

الامن والبلدية

وبرغم ان الموصل كانت لها سمعة سيئة فلم يقع فيها الا القليل جداً من الجرائم . إذ كانت تنحصر الجرائم التي تقع في الأنحاء عادة في حوادث السلب

(١) لقد تأسست دائرة البلدية في الموصل منذ سنة ١٨٦٩ . وكان يديرها بموجب القانون الخاص المشرع حينذاك رئيس ومعاون ، ومجلس بلدي منتخب يتألف من ستة أعضاء ثلاثة منهم من المسلمين والثلاثة الآخرون يمثلون الطوائف غير المسلمة . وكانت مدة العضوية سنتين يجري عند انتهائهما انتخاب ثلاثة بصورة دورية . اما الرئيس فكان الوالي يختاره من بين أعضاء المجلس البلدي ، وكان يرجح منهم عادة العضو الذي حاز على أغلبية الأصوات عند الانتخاب ، وتمتد مدة رأسته أربع سنوات قابلة للتجديد . ويختار الرئيس معاوناً له من بين زملائه أعضاء المجلس . هذا وقد تولى رئاسة البلدية في الموصل منذ أن تأسست الى سنة ١٩٢٢ الرؤساء الآتية اسماؤهم : حسن بك آل ياسين المفتي سنة ١٨٦٩ ، الحاج يونس أفندي المفتي ١٨٧٣ ، يونس أفندي الفخري ١٨٧٧ ، يونس بك الخليلي ١٨٧٨ ، سليمان بك بن عبد الرحمن بك ١٨٨٢ ، حسن أفندي العمري ١٨٨٧ ، الحاج أمين أفندي النائب ١٨٩٢ في أيام الوالي عزيز باشا ، السيد سليمان أفندي العبيدي ١٨٩٥ ، سعيد أفندي قاسم أغا السعري ١٨٩٨ في أيام الوالي حازم بك ، محمود بك آل ياسين المفتي ١٩٠٤ على عهد الوالي نوري باشا ، سعيد أفندي قاسم أغا للمرة الثانية ١٩٠٨ في أيام الوالي مصطفى يحيى العابد ، صالح أفندي السعدي ١٩١٢ اختير مبعوثاً في استانبول ، الحاج سليم جابي الدباغ بالوكالة ١٩١٣ ، أمين أفندي المفتي اختاره سليمان نظيف ، موظف هندي اسمه المستر داس اشتغل في عهد الاحتلال البريطاني ، السيد محمد علي علي فاضل بالانتخاب ١٩٢٠ على عهد المستر نولدر ، أمين أفندي المفتي ١٩٢٠ ، حسن فائق بك ١٩٢٢ بالانتخاب . (تاريخ بلدية الموصل ج ١ ، أحمد الصوفي ، الموصل ١٩٧٠) .

في الطريق العام ونهب الحيوانات ، وقد قبض على عدة عصابات من اللصوص . وكان غزو القوافل في زمن الأتراك شيئاً دائماً تصعب معالجته . لكننا لا نتجنى حينما نقول ان الأمن العام قد تحسنت أحواله خلال السنة الأخيرة . وتجند قوة الشرطة محلياً في العادة ، وهي تتصف بالانتظام والكفاءة ، وتعد الخدمة فيها شيئاً مرغوباً فيه . وقد كانت نسبة كبيرة من أفراد الجندمة التركية موجودة في زمن الاحتلال فجندوا لسد الاحتياجات العاجلة في هذا الشأن ، وكانوا ناجحين جداً في أعمال الشرطة الخارجية . لكن هؤلاء غير مؤهلين للخدمة العسكرية التي نوشك ان نشكل قوة من « الشبانة » أو الشرطة العسكرية من أجلها . ولابد من وضع قوة فعالة صغيرة من هذا القبيل على الحدود الكردية .

وكانت شؤون البلدية في الموصل نفسها يسيّرهما مجلس بلدي منتخب ، وكانت واردات البلدية طفيفة ، كما كان الفساد متفشياً ، والمدينة بحالة لا توصف من القذارة . ولذلك كان العمل على إعادة تنظيمها شيئاً ملحاً ، وكان من الضروري ان يكون رئيس البلدية وأعضاء مجلسها أناساً صوريين يتضاءلون بالتدريج ويختفون عن الأنظار حتى ينعدم وجودهم . وبعد ان أعيد تنظيمها بنجاح الآن ، صار يجري البحث في تشكيل مجلس بلدي محوّر بعض التحوير ، ومن المؤمل ان يبدي روحاً تقدمية في العمل لم تكن معروفة بالمرّة هنا حتى في فترة ما قبل الحرب . إذ كان الأتراك قد شرعوا خلال الحرب بفتح شوارع كانت فائدتها لا تقدر بثمن ، لان المدينة لم يكن فيها قبل الحرب شارع عريض عرضاً كافياً يسمح بمرور أي نوع من وسائل النقل ذات العجلات الا بمقياس ضيق جداً .

وكان قد شرع في الموصل بفتح شارعين جديدين يتقاطعان بصورة عمودية ، لكنهما لم يكمل فتحهما قبل الاحتلال فأنتهي فتحهما في عام ١٩١٩ . وسيكونان خير نتاج للتعويض الذي دفع عن الاستملاك والمال الذي صرف على الاعمال الانشائية التي جرت فيهما ، حتى تطلب الأمر تقديم مساعدة مالية جسيمة للبلدية . وما زال الجسر القديم موجوداً . وهو يمتاز بميزة خاصة به ، وهي ان

بناؤه يقف في وسط النهر وان القسم القريب للمدينة منه يتألف من «الجساريات» ويترك القسم الاخير هذا مفتوحاً بصورة دائمة عندما يهدد طغيان الماء المدينة لئلا تكتسحه المياه ، ولما كانت الارض في الطرف الشرقي من الجسر تبقى مغمورة بالمياه عادة^١ فان الدعامات المبنية تبقى شاخصة^٢ وسط الماء فتكوّن منظراً بهيجاً . أما الجسر الحديد فيجري العمل^١ فيه الآن ، يضاف الى هذا ان الخطة لاسالة الماء هي قيسد^٢ الدرس والنظر . وتعد المدينة نظيفة في الوقت الحاضر ، ولذلك سيجد اولئك الذين يحتفظون بصورة فكرية قائمة لأماكن مثل أبنية المسلخ التي كانت موجودة في رأس الجسر القديم ايام الاتراك صعوبة في معرفة الموصل اليوم .

وكان لمعاون الحاكم السياسي في تلعفر مجلس^٢ استشاري من الاغوات المحليين يساعده في شؤون البلدية . وهناك بلديات أخرى في عقرة ودهوك وزاخو وتلكيف ، لكن العمل في كل من هذه الحالات يقع على عاتق معاون الحاكم السياسي .

المعارف

لقد أخذت المعارف باليد بعد وصولنا الى الموصل مباشرة . وتوجد الآن سبع مدارس حكومية في الموصل ، ثلاث منها لأولاد المسلمين وواحدة لكل من الكلدانيين والسريان واليعاقبة واليهود . وتوجد كذلك مدرستان لبنات المسلمين . وتدل أرقام الدوام فيها على أشياء كثيرة . فان سبعة أثمان سكان المدينة هم مسلمون ، ومع هذا بينما يكون عدد طلاب المدارس المسيحية (٧٩١)

(١) وقد انجز تشييد الجسر بعد ذلك بمدة على عهد المغفور له جلالة الملك فيصل الأول . ثم أقيم خلال الخمسينات جسر آخر فخم في الموصل يقع المدخل اليه جنب مبنى النادي العسكري .
(٢) كان المجلس يتكون من السيد عبد الله السيد وهب ، والحاج يونس آل عزيز ، وسليمان السعدون ، ونجم الصباغ . وكان الأخير يمثل سنجار التي كانت تابعة الى تلعفر يومذاك .

يبلغ عدد الطلاب في مدارس المسلمين كلها (٢٥٩) فقط . وشوارع المدينة مملوءة بالاطفال الكسالى الشابين عن الطوق ، كما تروى على السدوام قصص السلوك الشائن والاخلاق السيئة التي يتخلق بها الشبان . ويعترف وجهاء المسلمين بالحقائق المرة بملء الاسى ، لكنهم لا يستطيعون اقتراح علاج مناسب . ويتفق الجميع على ان الخطأ لا ينطوي بوجه من الوجوه في سلوك المدارس وإدارتها ، لكن المدارس المسيحية تبدي حيوية وروحاً تقدمية . ويبلغ عدد طالبات مدرستي البنات المسلمات (١٤٩) طالبة . وهذا عدد غير كبير ، لكنه جيد بالنسبة لعدد الطلاب في مدارس البنين .

اما في القرى المحيطة بالموصل فقد شرع بفتح مدارس للمسلمين في خمسة أماكن مختلفة ، وفتحت مدرستان للمسيحيين في مكانين . وهناك كذلك خمس مدارس حكومية ، اكبرها موجودة في تلغفر وعدد طلابها ثمانون طالباً . ومن الملاحظ ان إحجاماً لا يستهان به قد حصل في تسجيل الاولاد في مدرسة تلغفر على أساس أنهم سيصبحون « أفندي » ، اي من طبقة الموظفين الاتراك العاجزين .

اما تعليم اليزيدية فهو شيء معقد لأن تعاليم ديانتهم تحرم القراءة والكتابة على الجميع عدا أسرة واحدة من أسر الشيوخ وهي أسرة البصري . وعندما فتحت المدرسة في بلدة سنجار أرسل اصحاب الروح التقدمية منهم ابناءهم اليها . وسرعان ما سببت الامطار الغزيرة ، لسوء الحظ ، فيضاً عظيماً في الوادي اكتسح اربعة من الاطفال الذين كانوا يدرسون في المدرسة وأغرقهم . فسبب هذا رد فعل عند المحافظين ، ولذلك لا يوجد الآن الا اربعة فقط من ابناء اليزيديين في المدرسة .

الصحة والمواصلات

ليس بين المنافع التي يجنيها الناس من الحكومة شيء أحب اليهم من المعالجة الطبية ، بل ان لذلك نتائج سياسية اكثر اهمية من غيرها . وقد حصل تقدم عظيم في هذا الشأن . فقد وسّع مستشفى الهلال الاحمر القديم وأصبح مستشفى

مدنيًا فيه قاعات للنساء والرجال . وكان يساعد الجراح المدني فيه طبيب بريطاني مساعد ، ورئيسة ممرضات مع «أختين» بريطانيتين ، وعدد من الممرضات الارمنيات ، وطبيبان أو ثلاثة من الوطنيين . فكانت الممرضات الارمنيات على أحسن ما يكون بوجه عام ، وأثبتن أنهن مفيدات فائدة ذات قيمة عظيمة . اما الاطباء الوطنيون فهم مقتدرون ومدرّبون تدريباً حسناً ، حيث كان أحدهم قد تلقى دراسة طبية متقنة في باريس . وقد فتحت المستوصفات في جميع مراكز الاقضية ، ويقدم الاطباء العسكريون الموجودون في بعض هذه الجهات مساعدات قيّمة للناس . وتعد البرداء (المالاريا) أكثر المشكلات الطبية خطورة في الجهات الجبلية . إذ يتعرض السكان في بعض هذه الجهات تعرضاً مخيفاً لها ، كما ان نسبة وفيات الاطفال المسببة عنها نسبة عالية غير اعتيادية ، وكانت الحكومة العثمانية توزع الكينين مجاناً كتدبير من التدابير الصحية . ولا شك ان خطورة المالاريا ومشكلاتها تكفي لتبرير إعداد المساعدة الطبية في الاقضية أينما أمكن ذلك .

هذا وقد سهل امر الاتصال ببغداد بتمديد خط سكة الحديد الى قلعة الشرقاط ، الواقعة على بعد سبعين ميلاً من الموصل ، وبرصف المسافة الطويلة من الشرقاط الى الموصل ، لكن إكمال مد السكة الى الموصل يرغب فيه الاهلون رغبة شديدة ، وسيحصل نفعٌ بيمَن من وصل الولايتين وتقريبهما بعضهما ببعض .

(١) وقد تم ذلك بعد عدة سنوات ، وبوشر بمد الخط بعد ذلك من الشرقاط الى الموصل ، ومن الموصل الى تل كوجوك على الحدود السورية ، في ١٥ تموز ١٩٤٠ وانتهى العمل فيه حوالي سنة ١٩٥٠ .

الفصل السادس

القضية الكردية

لمحة تاريخية

لقد أدى احتلال ولاية الموصل الى اتصال الادارة البريطانية اتصالاً مباشراً بالاكرد . فان الجبال الواقعة على جانبي الحدود التركية - الايرانية تسكنها القبائل الكردية من جنوب خائفين بقليل الى الأرات ، وتمتد شرقاً نحو ايران ، ثم تتوغل غرباً في أعالي آسية الصغرى فتصل الى كيليكية وتخوم سورية . وقد تحملت الأناضول ، وهي الجسر الموصل بين أوروبا وآسية ، هجمات الكثير من الفاتحين ، فأكسبت سلاسل جبالها الرئيسة مواقع لا تقتحم لشتى انواع الشعوب وملاجئ للأقليات التي طردتها موجات الفتح المتعاقبة من سهول العراق . ويوجد بين سكانها اليوم اختلاف كبير في العنصر والدين ، ومن بين هؤلاء النصاري الأرمن بقايا الامبراطورية القديمة ، والاكرد الذين يُحتمل ان يكونوا من نسل الميديين والذين اعتنقوا الاسلام بشتى مذاهبه السنية والشيعية ، والأتراك الذين هم سنة على الأغلب الاعم والذين يرجع وجودهم الى ايام الفتح السلجوقي والعثماني ، او الى ايام التسرب البدوي للقبائل التركمانية البادية قبل العهد السلجوقي . وتسكن في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجبال الامّة

الآشورية او النسطورية الباسلة برغم صغرها ، التي يكون أبنائها نسل الرعايا
المسيحيين للامبراطورية الساسانية .

وفي حوالي منتصف القرن التاسع عشر شرعت الحكومة العثمانية بمحاولة
جدية لترسيخ سيطرتها على الاكراد أشد عناصر الامبراطورية استقلالاً ،
وأكثرها إزعاجاً وإقلاقاً . فقد شخص الاتراك أسس المشكلة تشخيصاً حقاً
وحصروها بقوة الرؤساء الذين يجمعون الى سلطتهم الاقطاعية القاسية وفرة
البنادق وغيرها من السلاح . وبذلك كانوا سيفاً مسلطاً لا على السكان المسيحيين
والحكومة فقط بل على عشائريهم المستوطنة هم ايضاً ، تلك العشائر التي كان
رجالها أحسن بقليل من العبيد الاقطاعيين الذين يسحقهم اسيادهم الأغوات
تحت ارجلهم . فأخذ الاتراك يعاملون هؤلاء الاسباد على الطريقة التركية ،
وهي استخدام أحدهم لضعاف شأن من يجاوره ، ووضع الآخر خلسة في
قبضة أيديهم ، وشراء الثالث بالمال حتى يلين فيطلب إليه اصلاح وضعه . وبهذه
الطريقة تمكنوا من تشتيت شمل اسرة السليمانية البابانية في كردستان الجنوبية
وتوزيعها على الامبراطورية . اما في الشمال فقد جاعوا بالبدرخانين من
جزيرة ابن عمر الى استانبول ، واخضعوا عبد القادر رئيس اسرة شمدينان
المالكة الى النفي ، ووقفوا بجانب ابراهيم باشا الملي في شرق حلب ثم شجعوا
بعد ذلك خصومه في الانقضاض عليه وتمزيقه . ونادراً ما كان الجيش العثماني
يتمكن من فرض الضغط العسكري في البلاد الجبلية الوعرة ، واذا قام بشيء من
هذا القبيل فانه نادراً ما كان يقترن بالنجاح الابصورة موقته . وقد أدرك السلطان
عبد الحميد وجوب استغلال مزايي الاكراد القتالية والاستفادة منها في الاعمال
النافعة بتجنيد قوة من الحياالة غير النظاميين تعرف باسم « الحميدية » . ولو
كانت هذه القوة قد وضعت تحت اشراف ادارة احسن لكان من المحتمل ان
يكون شيئاً منتجاً ونافعاً بدرجة لا يستهان بها . فقد كانت « الحميدية » برغم
كونها في أيدي تركية شيئاً مفيداً للحكومة في بعض الأحيان .

مذابح الأرمن والآثوريين

لكن محاولة منظمة بدأت لاستئصال شأفة الأرمن في أيام عبد الحميد واستمرت في أيام الاتحاديين ، فأضاف هذا العمل المنطوي على اضطهاد السكان بصورة رسمية شيئاً جديداً إلى أنواع القوضى الأخرى التي دمرت الاناضول ونشرت فيها الخراب . وقد استخدم الاكراد واسطة للتدمير . ومع ان الأغوات لو تركوا وشأنهم لعاملوا المسيحيين معاملة أسوأ بقليل من المعاملة التي يعاملون بها ابناء عنصرهم ، فان مجال الانتفاع الشخصي واغتصاب الارض والنساء وسائر المنهوبات التي يحصلون عليها هم واتباعهم بتنفيذ أوامر أو إيعازات الحكومة واتباع ما يتصورونه تنفيذاً لتعاليم الاسلام - كانت كلها منافع لا يمكن ان يصدوا أنفسهم عنها . وقد أدت الحرب إلى وصول « السياسة الأرمنية » في تركية إلى أوجها . فلم تكن مذابح ١٨٩٦ و ١٩٠٩ شيئاً يقارن بالمذبحة التي وقعت بتحرير ضمني من الألمان في ١٩١٥ ، وفي السنين التي تلتها . فورث الاكراد قرى إخوانهم في الوطن وارضيتهم ، لكنهم لم يذهبوا بالغنيمة سالمين تماماً من العقاب . فقد التحق الأرمن المشردون وأرمن القفقاس الروسية بالجيش الروسي ، واغتنموا الفرصة كلما عبر الروس الحدود التركية الشرقية لينتقموا من الاكراد ويعاملونهم بمثل ما عوملوا به هم . ويجزم الاكراد بان خسائرهم بلغت (٤٠٠,٠٠٠) نسمة لقاء مليون أو أكثر من الأرمن . فان القوات الروسية والأرمنية عندما تراجعت من رواندوز^١ مثلاً في ١٩١٦ تركت البلدة والمنطقة المحيطة بها خراباً بقلعاً .

(١) جاء في كتاب أرنولد ويلسن أن الروس توغلوا في شتاء ١٩١٥/١٦ إلى رواندوز فأخذوا جميع ما استطاعوا ان يأخذوه ، ثم أحرقوا ما تخلف عن ذلك . ودمروا البساتين اما بقطع أشجارها للحطب أو بتخريب مجاري المياه المؤدية إليها . ثم قتل الذكور الذين كان يمكنهم ان يحملوا السلاح ، أو طردوا من المنطقة بحيث لم يبق في رواندوز سوى النساء والأطفال ، والشية والكلاب ، ليموتوا جوعاً بين أنقاض بيوتهم التي كان يتصاعد منها الدخان .

ولم يذبح النسطوريون ، او الاثوريون كما يفضلون ان يطلق عليهم ،
الأتراك ذبحاً عاماً ، لكن أغا كرديا مجاوراً يدعى سيمكو وهو رئيس قبيلة
شكاك النازلة بين وان وأورمية قتل بطركهم في ١٩١٦ . فهاجموه انتقاماً له ،
وعندما وجدوا أنفسهم تحت ضغط شديد هاجروا بالاجماع والتحقوا بأبناء
دينهم في سهل أورمية . وهناك قاوم جميعهم الأتراك والاكرد مقاومة باسلة
حتى سنة ١٩١٨ حين هاجرت الطائفة بأجمعها ، بنسائها ورجالها وأطفالها
وحيواناتها وأثاث بيوتها الذي يمكن حمله ، وسارت نحو الجنوب الشرقي الى
همدان . وهناك أخذتهم السلطات البريطانية وبعثت بهم الى بعقوبة بالقرب
من بغداد حيث أعد لهم مخيم خاص . وكان عددهم يبلغ « ٤٠,٠٠٠ » نسمة ،
يضاف اليهم « ١٠,٠٠٠ » أرمني من منطقة وان كانوا قد فروا مع الاثوريين
أيضاً .

وعلى هذه الشاكلة كانت امام الحلفاء عند انتصارهم في ١٩١٨ قضيتان
بارزتان تختصان بالمسيحيين وتستدعيان النظر ، واثنتاهما تتعلقان تعلقاً كلياً
بكرديستان الشمالية . وكانت أولاهما قضية التعويضات التي يمكن ان يعرض
بها الارمن ، كما كانت ثانيتهما قضية التدابير التي يمكن ان تتخذ لارجاع
الاثوريين الى موطنهم . وكانت القضية الأولى اوسعهما وأشدهما تعقيداً ،
وكان من سوء الحظ ان مقاصد الحلفاء الخيرية تجاه الارمن قد رسست لها
الخطط وحصلت على انتشار واسع المدى من دون التأكد التام عن امكان
تنفيذها . فقد ورط الأرمن أنفسهم في هذه الخطط بالمجاهرة بآمالهم الواسعة
في تشكيل دولة أرمنية حددت حدودها بمختلف الحدود ، وأدخلت في أغلبها
الولايات الأناضولية الست التي يوجد فيها الأرمن أو التي كانوا موجودين فيها
قبل ١٩١٥ ، وهي ولايات : سيواس ، وأرضروم ، وخرپوط (معمورة
العزير) ، وديار بكر ، وبديليس ، ووان . غير أن الأكرد ، الذين يكوّنون
الأغلبية الساحقة في هذه المناطق ، تنبهوا لذلك مذعورين واشتد الشعور القومي

الذي كان موجوداً عندهم من قبل بفعل الخوف من أن تعتمد الدول الغربية إلى إخضاعهم لنير الأرمن الممقوتين . ولذلك أدى احتمال إعادتهم بالقوة إلى التعامل مع من بقي حياً من الأمة المنكوبة (أي الأمة الأرمنية) ، وتوقع الاقتصاص منهم للجرائم النكراء المسجلة ضدهم : إلى تبدل موقفهم من كونه موقفاً ودياً تجاه بريطانيا العظمى إلى قلقٍ متناهٍ خوفاً من أن نحصل نحن ، أو أية دولة غربية أخرى . على انتدابٍ قد يستخدم في إنصاف الأرمن بالقوة . وقد جعل هذا الخوف من بلاد كردستان مرتعاً خصباً للدعاية التركية المعادية ، وفي أثناء التأخر الطويل المشؤوم الذي حدث بين إعلان الهدنة وبين عقد الصلح مع تركية توفرت لها فرصة سانحة استغلت فيها منافع الأحوال المحلية هذه .

وقد أدى الشرف الذي حصل عليه حلفاؤنا العرب في سورية ، وكون الالتزامات الأوربية المقترنة بالشعور القومي المتصاعد عند العرب قد أملت علينا في كانون الأول ١٩١٩ وجوب تأسيس دولة عربية مستقلة ، غير خاضعة للسيطرة ، ومحرومة من مساعدة أي دولة من الدول الأوربية ، إلى اشتداد الدعاية المنبعثة ضدنا من سورية . وحينما تزايد سخط الحزب الشريفى والسوريين على سلوك أوربة وأمريكة تجاههم هم أنفسهم ، نظم مبعوثون من سورية بياناً سياسياً شديداً المناوأة للغرب بوجه عام ، ولبريطانية العظمى على الأخص . وعلى هذه الشاكلة وجدنا بالتدريج عند تعاملنا مع الاكراد سلسلة من أنواع التعصب القومي ماثلةً أمامنا ، مثل الدعوة إلى الوحدة الإسلامية التي كانت تحركها الأيدي من استانبول ، والكبرياء القومي ، وطمع الاغوات الاكراد الذين كانوا يخشون السيطرة الأوربية القوية عليهم أكثر مما كانوا يخشون الاتراك . وهنا أيضاً استفاد التركي من جديد : كما حدث عدة مرات

(١) لكن هذه الدولة (التي كان رأسها الملك فيصل بن الحسين) لم تستقم طويلاً مع الأسف . فقد عجل بتقويضها الفرنسيون حلفاء بريطانيا ، بينما وقفت هي نفسها تتفرج على الكيفية التي التي تضرب فيها الوعود عرض الحائط .

من قبل في تاريخه المؤلم ، من الاخطاء الناشئة عن عدم إمكان التسليم بالادعاءات الاوربية في حكم بعض أجزاء امبراطوريته والسيطرة عليها . وربما كان فريق من اعضاء « الحزب الوطني الكردي » في استانبول ، الذي يرأسه عبد القادر شمدينان البدرخاني ، يميل ضد الاتراك ويحيد حكماً ذاتياً يتعهد به الغرب برعايته ، ويفضل بريطانية العظمى على الاخص . لكن حوادث منطقة إزمير كانت تبرر الدعاية التركية بعض التبرير ، تلك الدعاية التي تقول انه مهما كان عدد البنود التي تصدرها أميركة ومهما كان شأن التصريحات التي تصرح بها الدول الاوربية فان نوايا الغربيين السرية في إخضاع البلاد الشرقية ، من دون الالتفات الى امانيتها القومية ، تبقى شيئاً ثابتاً غير متبدل . وتقف من وراء تركية روسية الثائرة وبولشفيتها المستعدة لمساعدة جميع من يحمل ظلامه ضد النظام القائم في العالم ، وللاذعاء (بصورة غير بعيدة عن العقل) بان النظام القائم هذا قد اثبت عدم كفايته لتنظيم الشؤون البشرية .

کردستان الجنوبية

وكانت هذه المخاطر اقل وضوحاً في كردستان الجنوبية ، حيث ينعدم وجود القضية المسيحية تقريباً بالنسبة لما كانت عليه الحالة في الشمال ، وكانت كردستان الجنوبية هذه هي التي دخلت اول ما دخلت في نطاق نفوذنا السياسي . فقد سبق ان ذكرنا اننا كنا قد استولينا على خانقين في شتاء ١٩١٧ ولم نجد صعوبة ما في تنظيم ادارتها . وكنا قبل تقدمنا الاخير في ١٩١٨ على علم بأن الرؤساء الاكراد في منطقة كفري وهم الاسرة الطالبانية ، والزعيم الديني السيد أحمد خانقاه ، كانوا ميالين للبريطانيين ، كما سبق لنا الاتصال بزعيم السليمانية الشيخ محمود . والشيخ محمود هو الخفيد الابعد لرجل ديني كردي مقدس ذي سمعة كبيرة ، هو كاكه احمد ، الذي يرقد مدفوناً في ضريح في السليمانية ، كثيراً ما كان يقصده الزوار الاكراد في السابق . وكان احفاده



الشيخ محمود زعيم الأكراد

من أبناء الاسرة البرزنجية يعتمدون على مزايا جدهم الاكبر ومنزلته بين الناس ، فكان ذلك كافياً ليحصل لهم على النفوذ الشامل . على ان منزلة الشيخ محمود تستند في الدرجة الاولى ، فضلاً عن نفوذه الديني ، على الرعب الذي كان قد فرضه على الناس قبل الحرب وعلى القتل الجماعي والسلب اللذين كانا يجريان باسمه . وقد دلت على سطوته المخيفة ان السليمانية حينما كانت خاضعة لنفوذه كانت من اكثر اجزاء الامبراطورية العثمانية اقلاناً وازعاجاً . وقد كان هو الذي تقبل استسلام المتصرف والحامية التركية في خريف ١٩١٨ ، وبقي هو السلطة الوحيدة في البلد . فبعث بيد ممثلين اثنين عنه كتباً الى بغداد يطلب فيها بجد وحرارة من حكومة صاحب الجلالة البريطانية ان لا تستثني كردستان الجنوبية من قائمة الاقوام المتحررة . ولما كان يعد العامل القوي الأكبر في السياسة المحلية لم يكن من الممكن اهماله . وقد سهل موقفه الودي تشميل الادارة لمنطقة السليمانية ، حيث كانت الرغبة واسعة المدى في وجودنا لنوقف الفوضى والدمار عند حدهما ، كما جعل موقفه ذلك من الممكن الاستغناء عن وضع حماية لم يتوفر عندنا العدد الكافي من الجنود لها .

وعلى هذا الاساس عٌهدت الى الكابتن نوئيل ، الذي كان قد حصل على الكثير من الخبرة في ايران بين البختيارية ، مهمة الذهاب الى كردستان الجنوبية . وفيما يلي التعليمات التي صدرت اليه في هذا الشأن :

« لقد عٌينت حاكماً سياسياً في منطقة كركوك اعتباراً من اول تشرين الثاني . وتمتد منطقة كركوك من انزاب الصغير الى ديبالى وإلى الحدود التركية الايرانية من الجهة الشمالية الشرقية . وهي تكون جزءاً من ولاية الموصل التي يجري النظر في حل مشكلتها النهائي الآن من قبل حكومة صاحب الجلالة . على انها يمكن ان تعتبر في الحال الحاضر واقعة في نطاق الاحتلال العسكري وادارته ، وعليك ان تشرع بتعاملك مع الرؤساء المحليين على هذا الاساس واضعاً في فكري ان السلطات العسكرية ستكون حرة في ارسال قسم من الجيش الى السليمانية مؤقتاً او الى الجهات الاخرى الواقعة شرقي خطنا الحالي . ويجب

ان يكون هدفك اجراء الترتيبات اللازمة مع الرؤساء المحليين لاعادة الأمن الى نصابه والمحافظة عليه في مناطق تقع خارج حدود احتلالنا العسكري من اجل إبعاد وكلاء العدو أو استسلامهم ، ومن أجل تجهيز جيوشنا بالحاجات التي تفتقر اليها . وأنت مخول بالصرف على ما تراه ضرورياً لهذه الغاية ، على ان يكون خاضعاً لمصادقة سابقة في حالة صرف المبالغ الكبيرة على قدر ما يكون ممكناً من الوجهة العملية ، وعلى ان يكون مفهوماً ، وموضحاً للرؤساء ، ان اي ترتيبات تتخذها انت تكون ترتيبات وقتية وعرضة لاعادة النظر فيها في اي وقت كان . وانت مخول ايضاً بتعيين الشيخ محمود ممثلاً لنا في السليمانية اذا وجدت ذلك مفيداً ، وان تجري تعيينات اخرى من هذا القبيل في جميع حال وحليجة وغيرهما بحسب ما تراه مناسباً . ويجب ان تشرح لرؤساء القبائل الذين تحصل لك علاقات معهم انه ليست هناك نية في فرض ادارة عليهم غريبة عن طباعهم ورغباتهم . كما يجب ان يشجع رؤساء القبائل على تكوين اتحاد بينهم من اجل تسوية شؤونهم العامة بارشاد الحكام السياسيين البريطانيين . وانهم سيطلب اليهم ان يستمروا على دفع الضرائب التي تستحق عليهم بموجب القوانين التركية المعدلة ، كلما وجدت الضرورة ، من أجل الغايات التي لها علاقة بحفظ الأمن وتقدم بلادهم . »

وكانت قضية خلق ولاية من كردستان الجنوبية تتمتع بالحكم الذاتي قد أثارها في ١٩١٨ الجنرال شريف باشا عند محادثته للسريسي كوكس حينما قابله في مارسيلى . وكان شريف باشا ، وهو كردي الأصل من السليمانية ، بعيداً عن بلاده منذ صباه ، وقد أقام في باريس مدة من الزمن حينما نفاه الأتراك الى خارج البلاد . وفي ١٩١٤ قدم لنا خدماته للعمل في العراق على كسب الأكراد الى جانبنا ، لكننا لم نكن على اتصال بهم حينذاك ولهذا لم يكن بوسعنا قبول ما عرضه علينا . وعند اجتماع « مؤتمر الصلح » في باريس جعل نفسه ناطقاً باسم المصالح الكردية ، برغم ان ابتعاده الطويل عن أبناء بلاده

كان يسبغ على آرائه صبغة نظرية .

وقد وصل الميجر نوئيل الى السليمانية في منتصف تشرين الثاني فاستقبل استقبالاً مدوياً . لكنه وجد المنطقة قد دمرها الأتراك وأفقروها ، والبلدة نصف خربة ، والتجارة في كساد . فبادر لتوّه بادخال جهاز موقت للحكومة يكون مقبولا عند الأهالي ومطمناً لأمانهم في تأسيس ادارة كردية . ورشح الشيخ محمود حاكماً للمنطقة . ثم عُيّن في كل من المناطق الثانوية موظفون أكراد يشتغلون بارشاد الحكام السياسيين البريطانيين . وفي الوقت نفسه نُقل في الحال الموظفون العرب والأتراك على قدر الامكان وحل محلهم موظفون أناس من أبناء كردستان ، كما أُجلي الضباط الأتراك والجنود الى بغداد . وكان الجهاز الجديد جهازاً إقطاعياً من الوجهة العملية ، فقد جعل كل رئيس مسؤولاً عن حكم قبيلته حكماً صالحاً . فتم الاعتراف برئيس القبيلة واعتُبر على هذه الشاكلة موظفاً من موظفي الحكومة عُيّن تعييناً صحيحاً ، وكان الضباط البريطانيون يسيطرون على الجميع . ثم اتُخذت خطوات فورية لاستيراد المواد الغذائية والبذور وحاجات السوق المختلفة ، لا من أجل مُجابهة خطر المجاعة العاجل فقط بل من اجل ان يُسمح بانتعاش الحياة التجارية للدرجة ما ايضاً . ولم تهمل في الوقت نفسه حاجات الناس الدينية ، إذ اتُخذت الترتيبات المطلوبة لترميم المساجد الكبيرة على حساب الحكومة ، وقُدّمت منحة ليتمكن الناس من تنظيم شؤونهم الدينية وممارسة طقوسهم وعباداتها .

ولم تكن الدلائل معدومة على ان الاقسام الشمالية من كردستان الجنوبية الممتدة الى اربيل ورواندوز ، وهما حدود البلاد التي تتكلم باللهجة الكردية السائدة في السليمانية ، كانت متلهفة للمساهمة في توطيد دعائم السلم ، وفوق كل شيء لتقتسم المساعدة المالية التي قدمتها الحكومة البريطانية ، وذلك بدخولها في اتحاد كردستان الجنوبية برئاسة الشيخ محمود . لكن رؤساء كركوك وكفري استنكروا بشدة أية نية ترمي الى الاعتراف بسيادته وطلبوا ادارة بريطانية مباشرة .

وفي اول كانون الاول ١٩١٨ زار السلیمانیة وکیل الحاکم المملکي العام ،
الکولونیل ویلسن ، فمقعد اجتماعاً فیها حضره ما یقارب الستین من الرؤساء
البارزین فی کردستان الجنوبية بینهم ممثلون عن قبائل البلاد الايرانية من ستة
وسقز والهورمان . ثم أجرى محادثات عدة مع الشیخ محمود ، وشرح للرؤساء
المجتمعین الموقف السیاسي علی قدر ما یختص بهم . وكان الاکراد قد عانوا
ما عانوه من الاسالیب الروسية والترکیة علی السواء ، ومع ما کان عندهم من
اجماع مطلق وعزم جازم بمقاومة أي مسعی تبذله الدول الأوربية فی السماح
للأتراك بالرجوع ، فقد كانوا یعترفون اعترافاً عاماً بالحاجة الی الحماية
البریطانیة إذا ما أريد نشر الرخاء بین طهرانیهم فی المستقبل . علی ان بعض
الرؤساء كانوا مترددين فی جدوی وضع کردستان تحت الادارة البریطانیة
الفعالة ، بینما طالب آخرون بوجوب فصل کردستان عن العراق وإدارتها مباشرة
من لندن وقد حلت فی نظرهم محل إستانبول .

وبعد شيء من البحث والنقاش کُتبت وثيقة بالمعنی الآتی :

لما كانت حكومة صاحب الجلالة البریطانیة قد اعلنت ان نيتها فی الحرب
أن تحرر الأقوام الشرقية من الجور التركي وتمد لها ید المساعدة فی توطيد دعائم
الاستقلال ، فان الرؤساء الذین يمثلون أهالی کردستان یطالبون حكومة صاحب
الجلالة البریطانیة بقبولهم تحت حمايتها وربطهم بالعراق لئلا یحرموا من منافع
ذلك الارتباط ، وهم یسترحمون الحاکم المملکي العام فی العراق ان یبعث الیهم
بممثل عنه ویقدم لهم المساعدة الضرورية التي تجعل الشعب الكردي يتقدم تقدماً
سلمياً فی مضمار المدنية باشراف بریطانیة . ویتعهدون اذا ما مدت حكومة
صاحب الجلالة البریطانیة ید المساعدة والحماية الیهم بأن یقبلوا أوامر صاحب
الجلالة البریطانیة ومشورته .

ورداً علی ذلك ، وقع الحاکم المملکي العام وثيقة یدکر فیها ان أية قبيلة
کردية من القبائل التي تقیم فی البلاد الممتدة من الزاب الکبیر الی دیالی (عدا

قبائل المنطقة الايرانية) تقبل بملء حريتها بزعامه الشيخ محمود سيسمح لها بذلك ، وان الشيخ المذكور سوف يحظى بتأييدنا المعنوي في حكم المناطق المذكورة اعلاه بالنيابة عن الحكومة البريطانية التي يتعهد باطاعة أوامرها . ولم يكن سكان منطقتي كفري وكركوك وعشائرهما راغبين في الخضوع لسلطة الشيخ محمود ، فوافق هو على عدم الالحاح على إدخالهم . فأصبحت منطقة كركوك بعد ذلك منطقة مستقلة .

وقد شرح لممثلي القبائل الكردية في ايران بان التزاماتنا العامة تستثينا من الموافقة على إدخالهم في اتحاد كردستان الجنوبية المستظل بظل الحماية البريطانية وعليهم ان يظلوا رعايا موالين لايران وعلى واثم مع الاتحاد المذكور . فقبلوا بهذا الوضع ببشاشة .

وطلب الشيخ محمود بالاضافة الى ذلك تعيين ضباط بريطانيين في جميع دوائر الحكومة وفي ضمن ذلك ضباط للشبابة الكردية ، لكنه اشترط فقط بان يكون الموظفون الآخرون من الأكراد وليس من العرب على قدر الامكان .

وبعد الاجتماع دخلت عشائر كثيرة في الاتحاد ، وعندما ذهب الميجر نوئيل الى رواندوز في اول كانون الثاني ١٩١٩ وجد السكان هناك ميالين الى الشيخ محمود بصورة ظاهرة . وكما أشار الميجر صون في تقريره الإداري عن منطقة السليمانية لسنة ١٩١٩ : كان الأكراد على درجة من التلهف للهدوء والسلم وعلى درجة من الفاقة والحرمان بحيث كانوا مستعدين للتوقيع على اية وثيقة كانت او اعطاء أي قول كان من أجل الحصول على الطمأنينة والطعام . وبمثل هذا وقعت قبيلة بعد اخرى ، من القبائل التي كانت لا تعرف الشيخ محمود الا قليلاً أو التي كانت احسن ما تعرفه عنه كونه سليلاً غير كفؤ بلحد صالح ، على الطلب التاريخي بالانضمام الى الدولة الجديدة التي يرأسها الشيخ محمود ، رأسه كانوا يعتقدون ان الحكومة البريطانية جعلت اشراطها شيئاً أساسياً لاسباب تعرفها هي . على ان تعيينه في الوقت نفسه كان ينظر اليه

بارتياب ، وكان هناك مقدار لا يستهان به من الشك باندهجار الترك بالنظر لقرب الحامية التركية منهم ولنشاط الموظفين الأتراك في الجانب الآخر من الحدود .

وكذلك عين حاكم سياسي في كل من كويسنجق ورائية ، وجرى تشميل جهاز الحكم الذي أدخل في السليمانية على هاتين الجهتين وعلى رواندوز وكانت رواندوز بحالة يرثى لها من المجاعة ، حيث ان موجات متعاقبة من الروس والأتراك المتقدمين قد افقرت البلاد وأنزلتها الى حضيض الفاقة ، ولم يبق قائماً من مجموع الألفي دار التي كانت موجودة في البلدة سوى ستين داراً . وتوقفت الزراعة في المناطق المحيطة بها توقفاً تاماً في السنتين الاخيرتين ، كما هبط عدد النفوس بنسبة ٧٥٪ عما كانت عليه قبل الحرب . وكانت المجاعة شديدة الوطأة بحيث ان الناس في بعض الجهات كانوا يقتاتون بالكلية من الاعشاب والحبوب المتبقية واضطروا لأكل القطط والكلاب ، وحتى اللحم البشري في بعض الحالات .

واتخذت الخطوات في الحال لمعالجة مشكلة المجاعة ، فجلبت الحبوب من أربيل ، وشُرع باسعاف الفقراء ، ثم شُجعت الزراعة وحفوظ على مقدار من الأمن والنظام .

وقد وجدت قضية ادخال البلاد الواقعة في شمال رواندوز في نطاق الادارة الفعالة انها من اصعب القضايا ، لان القبائل والسكان مع انهم كانوا قليلين في عددهم فانهم كانوا مسلحين تسليحاً جيداً وتستشري بينهم الخصومات . وكانت الجبال الوعرة تحول دون القيام بحركات عسكرية فعالة ضد العابثين ، لان قوات الدرك الذي يمكن ان يساق الى مثل هذه الاصقاع ولو كانت على درجة كبيرة من القوة فان سوقها يعني تقديمها طعماً للقبائل كما يعني سوقها مجازفة مآلها الفشل . لكن القبائل أبدت ، بالنظر لسطوة البريطانيين ، رغبة في الانصياع بصورة سلمية لتحاشي قطع الطرق والسلب وللسلوك سلوكاً أحسن

مما نتوقعه اذا أخذنا بنظر الاعتبار بُعد القوات المؤدبة عنها . ومما يزيد في مشكلات هذه المنطقة انها تحادد من الجهة الشمالية الغربية منطقة واقعة تحت حكم الاتراك بينما تقع في الشمال الشرقي منها حدود اذربايجان التي كانت في حالة فوضى بالغة .

وكانت حالة الحكم الايراني في أورمية ، او في اذربايجان كلها ، حالة لا يمكنها ان تقصر في اثاره الريب الخطيرة ، فان القلائل الخطيرة التي قد تقع هناك لا بد من ان ينعكس تأثيرها في المناطق الخاضعة لسيطرتنا إسمياً . فكان الارتباك الموجود هناك على درجة من الشدة بحيث كان يصعب الوصول الى نتيجة ما عما كان يجري بالفعل . ويبدو ان ثمة عاملين رئيسيين كانا يؤثران في الموقف : اولهما وجود شعور عدائي قوي تجاه عودة الاثوريين والارمن يغذيه نوع من الدعوة الى الوحدة الاسلامية المبثوثة من تبريز ، وقد يهيجه لدرجة ما الموظفون الايرانيون انفسهم . وثانيهما وجود كره شديد عند الاكراد الخاضعين للحكم الايراني الفاشل الذي كان يعجز عن فرض أي شكل من اشكال الامن والنظام في البلاد .

الغويان والمسيحيون

لقد وردت أخبار من الجانب التركي للحدود عن قيام حركة تستهدف استقلال الاكراد ، في كانون الثاني ١٩١٩ . وقد تأتي ذلك عن الخوف من عودة المسيحيين الذي كانت تغذيه الدعاية التركية ، الجانحة الى صبغه بصبغة الوحدة الاسلامية . وكان سيمكو^١ المعروف العامل المحلي الاكبر في هذا

(١) سيمكو هو اسمايل أغا رئيس عشيرة (الشكالك) الكردية في المنطقة الأيرانية ، وقد حصل بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى على شهرة واسعة ونفوذ كبير ، وله وقائع خطيرة مع التيارات (الاثوريون النساطرة) وكان قد قتل رئيسهم الديني الملقب (مار شمعون) في قرية كوهنة شهر القرية من أورمية مع لقيف من رجاله ، وكان النار شمعون هذا قد ذهب الى مقابله في تلك =

الشأن ، ومن المحتمل انه كان متفقاً مع السيد طه شيخ شمدينان الوريثي وحفيد الشيخ عبيد الله الذي كان قد اشتهر برأسه لهجوم شُن على ايران في ١٨٨١ .

وفي الزاوية الشمالية الغربية من ولاية الموصل أخذت الدعاية الميالة للأتراك والمناوئة للمسيحيين تصيب نجاحاً لا يُستهان به . وغدا موقف القرى المسيحية بين زاخو وجزيرة ابن عمر موقفاً فيه غير قليل من الخطر ، وقد وقعت بالفعل حركات معادية للمسيحيين في بعض الحالات . حيث قبض في ١٩ مارت على كتب من عبد الرحمن أغا ، رئيس اكراد شرناخ الموجودين في شمال شرقي جزيرة ابن عمر ، تحث على طرد الاجانب وتشير الى ان هذه الحركة تؤازرها الحكومة التركية وتعترف بها ، وان مساعي الحكومة التركية يؤازرها ايضاً اشخاص وبلخان في استانبول والقاهرة وباريس كما يظهر ، مستهدفين بذلك تأسيس دولة كردية مستقلة . وقد زار ضباط أترك في الوقت نفسه شمدينان وفي معيهم الدعاية التركية ، لكنهم قبلوا ببرود ، بينما توغل أحدهم في داخل ولاية الموصل للغرض نفسه .

وكانت من مراكز الشر المحلية بلا شك جزيرة ابن عمر وشرناخ ، وكلاهما

= القرية للاتفاق معه على تشكيل حكومة كردية - تيارية .

وحينما قام التيارية بمهاجمة الاكراد في المناطق التركية ، وفتكوا بالموظفين والجنود الأتراك في بعض المواقع حوالي منطقة جولمرك جرد الأتراك عليهم قوة يرأسها علي احسان باشا فتغلب عليهم واضطروهم الى النزوح بعائلاتهم الى ايران . وهناك تلقاهم سيمكو وراح يطاردتهم من مكان الى آخر ، ثم اشتبك معهم في معركة (كلي حسن قله) المؤدي الى همدان ففتك بهم فتكاً ذريعاً ، فأنجدهم الانكليز في ايران وسفروا فلولهم الى همدان ، ومنها جاءوا بهم الى بعقوبة .

اما سيمكو فقد كان مصدر قلق للسلطات الايرانية من قبل ومن بعد ، وكان طموحاً تدور في غيخته فكرة تأسيس دولة كردية برأسته ، فدوخ الايرانيين واشتبك معهم عدة مرات . وبالنظر لتوسع نفوذه على هذه الشكلة وخوف الايرانيين منه استدعته الحكومة في عهد رضا شاه بهلوي سنة ١٩٣٦ بحجة تعيينه رئيساً للعشائر الكردية في المنطقة الشمالية من ايران ، وعند وصوله الى بلدة وشته قتل غيلة . (الضحايا الثالث للغلامي) .

مركز ان كانا يعرفان بشعورهما العدائي للمسيحيين في السابق كما كانا يقفان في مكان ملائم لاي حركة يعاوضها الاتراك . وكانت الآلات المسخرة التي يستخدمها الاتراك لمقاصدهم هم الكويان ، القبيلة المتمردة المقلقة التي تقع اكثر منازلها خارج حدودنا الادارية مباشرة في شمال زاخو . وفي خلال الاسبوع الاول من نيسان توجه الكابتن بيرسن معاون الحاكم السياسي في زاخو لزيارة هذه القبيلة بقصد اعادة الامن الى نصابه ولا اتخاذ ما يلزم من الترتيبات لسلامة القرى المسيحية في المستقبل . وبينما كان في صحبة بعض رؤساء الكويان بالفعل هوجم من كمين في الطريق وقتل بخيانة وفي ظروف لم تبق شكاً لاحد باشتراك من كان في صحبته في الجريمة .

وعندما وقعت اول الحركات المعادية للمسيحيين طُلب اتخاذ تدابير عسكرية لمعالجة الموقف لان الذين يهمهم الامر تحققوا منذ البداية بان قلاقل من هذا القبيل تحدثها قبائل جبلية متوحشة لا بد من ان تنتشر بسرعة ما لم يقض عليها في مهدها او تقطع من برعمتها . لكن صعوبة المواصلات كانت تحول دون القيام بحركات عسكرية هناك ، ولم تكن الطائرات متمسرة في ذلك الوقت . وبقتل حاكم سياسي بريطاني هناك ازدادت الحاجة للقيام بعمل حاسم ازدياداً لا مزيد عليه . فان الاتراك خلال عهدهم الاخير لم يقصروا في انزال الضربات القاصمة عندما كان يعتدى على موظفيهم . اما في عهدنا فان هذه هي اول حادثة تقع من هذا القبيل ، وكان من الطبيعي ان تعتبرها القبائل اختباراً لقوة حكومتنا وحيويتها ومقباساً للمدى الذي يمكن ان يتحدونا فيه من دون الاقتصاص منهم . وعلى هذا اقترح ان تتخذ تدابير عسكرية في الحال ، على شكل حملة تجرد ضد الكويان وتثني باحتلال جزيرة ابن عمر عاجلاً . ولو تم وقوع الحركة الاخيرة لتسنى لنا مهاجمة بيت الداء في جزيرة ابن عمر ولاستولينا في مهاجمة شرناخ على أسوأ المواقع الجبلية التي تحمي بلاد الكويان فنغزل تلك القبيلة في النهاية عن المؤازرة والمعونة .

لكن منازل الكويان كانت خارج الحدود الادارية لولاية الموصل ، وهذا

الامر مقروناً بوعورة البلاد وفقدان المؤن كان اكثر اهمية من الحاجة السياسية على ما اعتقد ، ولذلك انتفت ضرورة القيام بأية حركة عسكرية . وكان هناك اقتراح بانه طالما كانت البلاد الواقعة في شمال حدودنا الادارية خاضعة للاحتلال التركي فربما يمكن ان يطلب من الاتراك ان يقوموا بعمل ما ضد المعتدين ، ويتخذوا الترتيبات اللازمة للمحافظة على الامن في المستقبل في جانب الحدود العائد اليهم . لكنه طالما كانت قلاقل الحدود مسببة عن الدسائس التركية في الدرجة الاولى فان تدخلهم في الامر من الصعب ان يؤمل منه ان يكون شيئاً صميماً او مؤثراً . والحقيقة هي انه قد يكون مخطراً ، لان الاتراك لم يكونوا يعطفون على الحركة المناوئة للبريطانيين فقط بل ان مجرد التجاؤن اليهم في حالة وقوع اعتداء علينا سوف يؤيد للقبائل ضعفتنا العسكري في المنطقة وعجزنا عن حماية مصالحنا في جبال الحدود .

وعلى هذا فقد تقرر اهمال الاقتراح بطلب معونة الاتراك ، ولما كانت الطائرات قد تيسر وجودها فقد دبرت غزوة قاصفة تقوم مقام الاقتصاص . على ان ذلك كان لسوء الحظ شيئاً غير مؤثر بالنظر للأحوال الجوية السيئة ولوعورة البلاد ، فكانت نتيجة استكانتنا واضحة في الحال بانتشار القلاقل والهجوم على نقطة من نقاط الدرك ونصب الكمين لقافلة عسكرية ومبادرة القبائل الاخرى من غير الكويان لاتخاذ موقف المتحدي . ولذلك اضطررنا الى الاستمرار على شن غارات قاصفة من الجو بمقياس أوسع . فصادت نجاحاً اكثر هذه المرة ، وبانت نتائجها الحسنة في الحال ، حيث طرأ على موقف القبائل تحسن غير قليل .

السليمانية في حكم الشيخ محمود

وفي هذه الاثناء كانت الأمور تسير سيراً غير مرض في السليمانية . فقد لوحظ منذ البداية شيء من القلق بين الاغوات مبعثه ان السيطرة البريطانية قد

تؤدي الى مشاكل مزعجة بالنسبة للملكية الارض ، حيث لا توجد سندات تملك لأغلبها وإنما جرى تملكها بالقوة . ومع ان سطوة الأغا والسيد كانت ضد مصلحة الاكثريّة الساحقة من السكان فقد كان غير ممكن أو انفذ ان يكبح جماحها ، ولأجل تبديد مخاوف الطبقة الحاكمة لم ترسل سجلات الطابو الى بغداد حيث تكون عرضة لتدقيقات غير ملائمة للوضع بل تركت مؤقتاً في السليمانية . وما حلت نهاية كانون الاول حتى اخذت الشكوك تثار حول ما اذا كان من الحكمة ان يسمح لسلطة الشيخ محمود ان تزداد لدرجة أكثر مما ينبغي . فان تاريخه في زمن الترك لم يكن يدعو الى الثقة والاطمئنان ، و لكن بصرف النظر عن اي التفات الى تاريخ العائلة السابق فان المشكلة التي تجابهنا الآن هي مشكلة تختص بالسياسة العملية . فان نفوذ الشيخ محمود موجود بلا شك ، وكنا اعترفنا به في السابق . ولولا التعاون والمساعدة اللذين كانا يقدمهما لنا لاحتمت علينا الضرورة وضع حامية قوية في البلدة ، وذلك شيء خارج عن الموضوع . وكان من الاهمية بمكان بالنسبة لوجهة النظر السياسية اننا يجب ان نحافظ على الامن في المنطقة ، ونتحاشى مؤقتاً الظهور باستخدام القوة لهذا الغرض .

وكان من الصعب تقدير المدى الذي توجد فيه الحركة الوطنية التي تستهدف الاستقلال ، ومدى كونها نتاجاً مصطنعاً لأطماع الرؤساء الاكراد الشخصية الذين كانوا يرون في الحكم الذاتي للاكراد فرصة لا تقدر بثمن لترويج مصالحهم الخاصة . فقد كان الاستقلال يعني للكثير منهم التحرر من جميع القوانين والتقييدات والتمادي في السلب والنهب وإساءة استعمال هذه الحرية . وقد اضطررنا لكبح اطماعهم بتذكيرهم على الدوام ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية قبلت المسؤولية في كردستان على اساس ان الاهلين ومن ينتخبونهم للزعامة والرأس يجب ان ينصاعوا للأنظمة والقوانين الضرورية للمحافظة على الامن ، ولترويج العدالة وتأمين التقدم واستثمار موارد البلاد . ولم يفرض الارتباط ببغداد الا منطق الوضع الجغرافي الصلب ، يضاف الى

ذلك ان هذا الارتباط كان شيئاً يناسب سير الشؤون اليومية اذا لم يكن شيئاً ضرورياً ، وليس هناك سبب يجعله حائلاً دون تقدم البلاد من الوجهة القومية .

وقد شُرح للناس ان موظفي الادارة سيكونون من الاكراد على قدر الامكان . وستكون « الشبابة » الكردية بعهدة ضباط اكراد كما ستكون اللغة الكردية لغة الحكومة الرسمية . وان القوانين ستعدل بحيث تلائم العادات المحلية ، وسيُصنع جهاز لحماية الضرائب يسد حاجات الاهلين . وعند معالجة شؤون القبائل ستحترم العادات الموجودة والعرف الراهن . وسيُسمح للرؤساء المعترف بهم بتصريف شؤون الادارة العشائرية العائدة لرجال قبيلتهم والتي كانت موجودة قبل الآن . اما بالنسبة للشؤون المالية فستكون للمنطقة ميزانيتها الخاصة وسوف تخصص لادارة البلاد واستثمار مرافقها ، لكن شيئاً منها يجب ان يُخصص لمصاريف الادارة الأم في بغداد . وسيؤمن الارتباط بالعراق من جهة أخرى منافع ذات أهمية كبرى ، فالمعارف والاشغال العامة والزراعة والمواصلات ستستمد وحيثها الرئيسي والدافع لتسييرها من بغداد .

على أن أطماع الشيخ محمود لم تكن تتفق مع هذا المنهاج . وهنا اقتبس ما يأتي من تقرير الميجر صون :

« عندما أُعطي لكردستان الجنوبية حكم ذاتي يخضع للاشراف البريطاني ويحظى بمساعدة الموظفين البريطانيين في تنظيم شؤون الادارة سرعان ما أدرك الشيخ محمود ، وهو اقوى شخصية في البلاد ، انه من الممكن ان تنشأ دولة كردية بمساعدتنا ، تكون متحررة من التزام الادارة التي تسيطر من بغداد مباشرة ، وواسطة لتوسيع دائرة نفوذه الشخصي وسطوته حتى يصبح ديكتاتوراً في جميع البلاد الممتدة من خانقين الى شمدینان ومن جبل حمرين الى داخل حدود ايران ، مُستعداً بذلك عن جعل الحكومة واسطة للتحرر وجهازاً لاغمار بلاد متأخرة . »

وقد عُرف انه كان على اتصال بمركز الحركة المناوئة لنا في شرفناخ^(١) ، فأصبح من الضروري بوضوح ان تتخذ الخطوات اللازمة للحيلولة دون انتشار نفوذه الى مناطق ليس من الضروري أن ينتشر فيها او يشك في صحة انتشار نفوذه فيها ، وحيث يكون خطراً على السلم في المستقبل . يضاف الى ذلك انه كان يوجد حتى في السليمانية نفسها حزب معروف يجذب الادارة البريطانية المباشرة التي لا يمكن الا ان يرغب فيها التجار والكسبة ويفضلونها على اي جهاز مبنٍ على الزعامة الكردية .

لكن الشيخ محمود لم يكن مستعداً لان يتقبل منا قيامنا بتحديد سلطته كما كان شأنه مع الاتراك من قبل . وقد كان محاطاً بالمانافقين المداهنين الذين كانوا يملأون رأسه بالافكار المتطرفة ويشجعونه على تلقيب نفسه بحاكم كردستان كلها . فكان يتدخل على الدوام في الشؤون الادارية المحلية ويغرق الدوائر الادارية بمتعلقيه وحفدته . ولا غرو فانه كان يمثل مصالح الاغوات ، وكان شديد البأس اذا لم يكن قوياً في الشر ، ونظراً لكونه رئيساً دينياً لعشائر فظة فانه كان يعتبر قوة لا بد من ان يُحتد بها . وعلى هذا لم يكن من المستطاع اجراء تبديل مفاجيء في موقفنا تجاهه ، ومع ذلك فقد كان من الواضح ان اي تقدم سلمي وأي عمل يستهدف الصالح العام لا يمكن ان يتم ما لم يمكن إرجاع الجني الذي أطلق سراحه في السليمانية الى القارورة وحبسه فيها من جديد .

ثورة الشيخ محمود الاولى

وفي منتصف مارت ١٩١٩ عُين الميجر صون ، وكانت معرفته بكردستان الجنوبية شيئاً لا يجارى ، حاكماً سياسياً في السليمانية لتقليص ظل

(١) تقع شرفناخ في منطقة الأكراد التابعين للجمهورية التركية ، على مقربة من الحدود العراقية ، وقد اتخذها الأتراك يومذاك مركزاً لتحرير الأكراد ضد الاحتلال الانكليزي في العراق .

الشيخ محمود وإرجاعه الى الوضع الذي يتناسب مع مؤهلاته . وكان الميجر صون قد عاد مؤخراً من إجازته المرضية التي امتدت لسنة واحملة . وفي طريقه الى منصبه من جديد درس الحالة في كفري وكركوك درساً متقناً فرسم خطوط السياسة التي يجب ان تتبع ، وبعث في نهاية نيسان بتقرير من السليمانية يذكر فيه ان نفوذ الشيخ محمود كان يتضاءل بسرعة ، وان الناس في الريف مرتاحون من ذلك . وكلما ازداد توطيد الامن وكثرت منافع الادارة الصالحة وضوحاً غدت القبائل وهي اكثر تدمراً من حكم الشيخ محمود . وعلى هذا الاساس نقل الميجر صون قبيلة الجفاف الكبيرة من عهده ووضعتها في عهدة معاون الحاكم السياسي في حلبجة ، الكائنة في شرق السليمانية ، ليصرف شؤونها مباشرة . وحالما فهم اننا لا ننوي فرض الشيخ محمود على العناصر المحجومة عنه ، كما صرحنا بذلك بادىء ذي بدء ، قل اتباعه . وبادر كثير ممن صوت اليه بتغيير الخوف منه في السابق الى إرخاء تعلقهم به ، فنزل نزولاً سريعاً الى درك الوضع الذي لا يؤذي في جميع الجهات الا في الجهات المجاورة للسليمانية مباشرة .

ومع هذا لم تكن الحالة تبعث على الاطمئنان التام . لان اطماع الشيخ محمود الشخصية كانت اطماعاً تحته على اتخاذ اجراءات عملية للحيلولة دون تلاشي سطوته تلاشياً نهائياً . وكان على اتصال بالكويان فعرف ان الفظاعات التي ارتكبوها في منطقة زاخو لم يقتصر لها اقتصاصاً فعالاً ، كما كان على علم تام بأننا لم تكن عندنا في السليمانية قوة تستطيع قمع اضطرابات واسعة المدى . وكانت الشبانة الكردية التي يديرها ضباط اكراد مستعدة لعصده الشيخ محمود الذي يعود الفضل في تعيينهم اليه . وقد ثبت ان وجود القلق من هذا الوضع كان له ما يبرره حينما قام الشيخ محمود بتدبير «انقلاب» في يوم ٢٠ مايس . إذ استمد تأييده في الدرجة الاولى من اكراد ايران ، وعلى الاخص من قبائل الهورمان ومريوان النازلة على بعد اربعين ميلاً عن جنوب شرقي السليمانية وشرقها على التعاقب ، لكنه حصل على المساعدة من المناطق الواقعة في شمال البلدة وشرقها

مباشرةً ومن رعا ع السليمانية المسلحين كذلك .

وكان الانقلاب مفاجئاً وغير متوقع . فدُحِرت قوة الشبانة الصغيرة الموجودة هناك بسرعة وشتت شملها ، وحجز الضباط والحكام السياسيون في بيوتهم لكنهم لم يمسوا بسوء . ثم قُتل أحد سواق السيارات . وتولى الشيخ محمود لتوّه السيطرة المطلقة على شؤون الإدارة . فعين القائمقام الذي يريده واستولى على الخزينة وجميع سجلات الحكومة . ثم قطع الاتصال التلغرافي بكركوك . كما استولى اتباعه على قافلة كانت متجهة من كفري الى السليمانية مع بعض المال والبنادق والخيول فسبب ذلك بلا شك تدعيماً مرحباً به لقوته . وتخرج الوضع في حلبجة في نفس الوقت الذي جرت فيه الحركة في السليمانية . فقد كتب معاون الحاكم السياسي هناك في ٢٥ مايس ان افراد الدرك اخذوا ينفضون عنه ، وفي يوم ٢٦ منه استولى رجال الشيخ محمود على البلدة واطلقت النار على طائرة كانت محلقة في الجو . على ان سكان البلدان والقبائل على السواء كانوا في حالة تردد ، فاستغل معاون الحاكم السياسي وموظفوه هذا الوضع وتسنى لهم الانسحاب مع شيء من الصعوبة الى خانقين ، وقد كانت في عونه على الدوام تلك المرأة العجيبة ، عاذلة خانم ، التي كانت

(١) هي عاذلة خاتون زوجة عثمان باشا (المتوفي سنة ١٩٠٩) ابن محمد باشا الخاف رئيس قبائل الخاف المقيم في حلبجة ، وقائمقام حلبجة في أواخر أيامه . وهي حفيدة أحد أحفاد أحمد بك صاحبقران ، من خيالة مريوان الاثني عشر المعروفين في قصص التاريخ الكردي الحديث ، وقد كان هذا الحفيد مقيماً في سنة . ومن ابنائها طاهر بك ، وأحمد بك قائمقام حلبجة في أول أيام الاحتلال ، وعزت بك رئيس بلدية السليمانية بعد ذلك ، ويبدو مما كتب عنها في مختلف المراجع الانكليزية والكردية أنها كانت ذات شخصية قوية وبراعة فائقة في تمشية الأمور حتى غطت على شخصية زوجها الباشا ، وصارت تدير أمور العشيرة بنفسها . وقد خلد ذكرها الميجر صون ضابط الاستخبارات البريطاني ، والحاكم السياسي في السليمانية وغيرها في عهد الاحتلال البريطاني في كتابه (رحلة متنكر في كردستان) ، بعد ان جاء الى حلبجة خلال العشرة الأولى من هذا القرن متنكراً بزي رجل إيراني متدين ونزل ضيفاً في بيتها مدة من الزمن أصبح فيها سكرتيراً للخاتون . =

سلطتها لا نراها في حلبجة : وهي إحدى السيدات الكرديات اللواتي مكنهن نسبهن المعروف ومزاياهن الشخصية من الحصول على مركز مسيطر على القبائل الكردية في ايران أو تركية ، لكنها كانت تستعمل سطوتها بتعقل . اما خدماتها القيمة في سبيل المحافظة على الامن والنظام في هذه المناسبة فقد قدرتها الحكومة البريطانية تقديراً لائقاً بعد انتهاء حركة السليمانية .

وبذا كانت الحالة تستدعي القيام بعمل عسكري عاجل ، لكن الصعوبة الناشئة عن مشاكل المؤن وصيانة خطوط المواصلات كانت عويصة بحيث كان بعض التأخير لا مناص منه . على ان الثورة لم تنتشر . ففي كردستان الشمالية كان كل من سيمكو الشكاكي والسيد طه الشمديني ، ابن اخت عبد القادر وخصمه الالد ، يحسد الشيخ محمود على نفوذه . وقد صرح قبل ثورته انه أصبح قوياً اكثر مما ينبغي . وحينما وقعت الحركة تصادف ان كان السيد طه في بغداد للمداولة مع وكيل الحاكم الملكي العام . فاعرب عن انفضاضه التام عن الشيخ محمود ، ورجع في ٢٥ ميس عن طريق رواندوز الى نيري موطنه في شمدينان بعد ان تعهد ببذل نفوذه ضد الثائر . ويدل عمله هذا على انعدام الوحدة وشعور التقارب ما بين كردستان الجنوبية وكردستان الشمالية ، حتى ان اللهجة التي يتكلمها كل فريق من الفريقين غير مفهومة بصورة متقابلة .

وسرعان ما دب الخلاف في السليمانية . حيث ان الشيخ محمود لم يدفع

= ويقول المستر آدموندز بالنسبة لموقفها من ثورة الشيخ محمود : وفي أواخر أيام الحكم العثماني في العراق لم تحاول الحكومة الاحتفاظ بقائمقام رسمي بصورة منتظمة في حلبجة ، وإنما عينت للمنصب رجلاً من أسرة الخاف الحاكمة ، وهو عثمان باشا . وقد كان هذا ، بالنسبة لجميع الاعتبارات ، رجلاً سهل الانقياد كثيراً ما يتغيب عن حلبجة فانتقلت سلطته الفعالة بالتدريج ، حتى في أيام حياته ، الى زوجته عادلة خان . وكانت هي قد تزلزلت قبل احتلالنا للبلاد لكنها بقيت برغم ذلك ملكة شهرزور غير المتوجة . وفي أثناء ثورة الشيخ محمود كانت من مؤيدي الادارة الحكومية الفعاليين ، وقدمت خدمات قيمة كوفئت بسببها بعد ذلك باللقب الهندي الرفيع « خان بهادور » .

الاجور لشبائته الأجيعة ، وقلت الذخيرة . وفي ١١ حزيران كان مستعداً للمفاوضة برغم النجاح الذي أحرزه في اشتباكه بدورية مستطلعة . لكن تأهبنا كان قد قطع مرحلة طويلة ، وفي ١٨ حزيران دحرنا قواته في « دربند بازيان » بين كركوك والسليمانية ، فجرح وأخذ اسيراً . وفي الليلة نفسها بلغت خيالتنا السليمانية ، فارتاح لذلك سكانها أي ارتياح . ثم جيء بالشيخ محمود والشيخ غريب صهره الى بغداد بعد ان قبض عليهما في بازيان وأحيلا على المحاكمة بتهمة قيامهما بالثورة . فحكم على الشيخ محمود بالاعدام ، لكن القائد العام أبدل حكم الاعدام بالحبس لمدة عشر سنوات ، كما حكم على الشيخ غريب بالحبس لمدة خمس سنوات وبغرامة قدرها (١٠,٠٠٠) روبية .

تحسن الحال

وقد ثبت بعد ذلك ان ضعف ثورة الشيخ محمود كان سببها انه من بين الآلاف العديدة التي كان من المؤمل ان تؤيده لم يبلغ عدد مؤيديه اكثر من (٣٠٠) . وكانت ادارة السليمانية منذ تنحيته عن الحكم متمشية في خطواتها الأساسية مع مبادئ الحكومة المدنية التي أسست في العراق برغم احتفاظها بوضعها الخاص الذي يميزها في بعض التفاصيل عن مناطق العراق الأخرى . وقد بذلت العناية في تعيين الاكراد ، لا العرب ، في الوظائف التابعة للرؤساء الانكليز . فصودق في تموز على تجنيد الشبانة الكردية وما حلت نهاية كانون الاول حتى زاد عدد افرادها على (٣٠٠) . وكان جميع الضباط ممن خدم خدمة نظامية في الجيش التركي . وكانت عند بعضهم خبرة عسكرية قيمة ، لكنهم كلهم برهنوا على استعدادهم لتعلم الأساليب العسكرية البريطانية . وتحسنت قوة الشرطة ، بأشراف ضابط صف بريطاني جيء به من بغداد ، تحسناً كثيراً في كفاءتها ومنزلتها . وقد أدى التقدم الحاصل في حالة الأمن العام الى ان زوار تبريز في خريف ١٩١٩ جعلوا طريقهم يمر بالسليمانية لأول مرة منذ سنين عديدة . وقد بذلت مساع متعبة لتسهيل التعليم للناس وحل

المشاكل الدينية كما يتطلبه التعصب المحلي .

ومما يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر التحسن الذي طرأ على البلدة نفسها . حيث أننا عندما استولينا على السليمانية في تشرين الثاني ١٩١٨ لم يكن قد بقي حياً من سكان السليمانية ، الذين كان يبلغ عددهم الاعتيادي في الاصل (٦٠٠٠) نسمة ، غير (٢٥٠٠) نسمة . وكانت البحث ملقاة في الشوارع والمجاري ، كما كانت المجاعة والامراض تعجل في القضاء على من بقي حياً من السكان . ولم يبق قائماً من الدور التي يمكن ان تسكن غير عدد قليل . وما حلت نهاية ١٩١٩ حتى بلغ عدد نفوس البلدة ما يزيد على (١٠,٠٠٠) نسمة ، وبرغم فقدان البنائين والمواد الانشائية أعيد بناء عدد كبير من الدور وأصبح عدد الدكاكين بقدر ما كان قبل الحرب . ونشطت الحركة التجارية بحيث ان بدلات إيجار المحلات قد ازدادت بنسبة ٣٠٠٪ في الخمسة الأشهر الاخيرة من عام ١٩١٩ ، والملاكون يتسلمون على الدوام طلبات متقدمة بأسعار عالية من المستأجرين الذين يرغبون في ضمان الحصول على الدكاكين والمحلات لهم مقدماً . اما بالنسبة لرخاء المنطقة وازدهارها ، فإن سلفنا الزراعية جاءت متأخرة في ١٩١٨ بحيث لم تعمل أكثر من انقاذ الاهلين من المجاعة ، لكن تأثيرها كان انها انتجت حاصلاً يكفي لسد الاحتياجات العاجلة . وفي السنة التالية تضاعف « التسقام » بقدر مرتين ونصف . والطرق الرئيسية ، الحيوية بالنسبة للتقدم الاقتصادي وللادارة على السواء ، تعبد الآن على أسس دائمة ثابتة من السليمانية الى كركوك بطريق ممر بازيان والى حلبجة خلال جبال كويرة . وقد حل السلم بحلول الرخاء . حيث لا توجد الآن عوامل تخريب خطيرة في المنطقة ، وسوف يبقى التوازن محفوظاً ما لم تؤثر عليه الاضطرابات الواقعة في الجهات الاخرى من كردستان .

وعندما استولينا على السليمانية بعد الهدنة مباشرة لم تكن عواقب القضية الكردية معروفة بعد ولم يتكهن بوقوعها مقدماً احد ، كما لم تتطور تطوراً

تاماً إلا في السنة التالية : إذ كان الجنرال شريف باشا قد عرض علينا أماني الأكراد القومية في تشرين الثاني ، وفي كانون الثاني تألفت في مصر « لجنة الاستقلال الكردي » فطلبت معونتنا في تأسيس دولة كردية .

کردستان الشمالية

لقد جددت الحركة الكردية نشاطها في كردستان الشمالية بعد توقيع شروط الهدنة مباشرة . وربما كان يغذيها ويحذب عليها بعض الأتراك البارزين مثل علي احسان باشا ، الذي كان يقود الجيش السادس التركي وقت الهدنة ، والاتحاديون لغرض توريط الحلفاء . فقد جاء بعض الاتحاديين الى خربوط في كانون الثاني وأخذوا يحرضون الأكراد على المطالبة بالاستقلال في مؤتمر الصلح . ثم زار علي احسان الرؤساء الأكراد وجهزهم بالمال والسلاح والخيول لاستعمالها ضد البريطانيين عندما يحاولون احتلال البلاد . وترجع علاقته بالأكراد الى ما قبل الحرب حينما كان أحد المحرضين البارزين في مذبحة المسيحيين في بدليس ووان ، وفي نهاية كانون الثاني استخدم في ديار بكر لقمع أي شعور يظهر ضد الاتراك .

وفي خلال كانون الثاني هذا بعث السر مارك سايكس ، وكان في حلب يومئذ ، رسولا الى اكراد طور عابدين المنطقة الجبلية الواقعة شمالي نصيبين

(١) يعد شريف باشا من ضباط الأكراد الأوائل الذين ظلوا يعيشون في الأستانة وأورطة ويعملون على تأسيس دولة كردية في كردستان . وقد اشترك مع أمين بدرخان في تأسيس أول ناد سياسي كردي في استانبول سنة ١٩٠٨ . ويبدو مما يذكره المستر آدموندز في كتابه عنه انه ينتمي الى أسرة أحمد أغا المعروفة في السلمانية ، وأنه حضر مؤتمر الصلح في فرساي (بعد الحرب العالمية الأولى) وكان مسؤولا عن إدخال الفقرات المتعلقة بإمكان تأسيس دولة كردية في معاهدة سيفر . ومن أشهر أفراد هذه الأسرة أحمد بك توفيق بك طابور أغاسي ، الذي اشتغل متصرفاً في السلمانية وأربيل مدة من الزمن ، وحمه صالح بك عضو البرلمان العراقي عن السلمانية خلال مدة طويلة .

ليتحقق فيما اذا كانوا حقيقة سيقاومون البريطانيين وايحول دون تقديم المؤن
لعلي احسان ايضاً . فعلم هناك بوجود حزب يرغب في الحماية البريطانية ، كما
علم ان القبائل التي كان يدس بينها علي احسان باشا دسائسه كانت مناوئة
للاجانب . وقد أثبتت في ديار بكر وماردين قلاقل مماثلة ضد الاجانب ،
لكن الاكراد في زعرت ، الواقعة على بعد ٧٥ ميلاً من جنوب غربي بحيرة
وان ، ثاروا ضد الحماية التركية فطردوا رجالها برغم مساعي علي احسان في
إرشاء الرؤساء . وفي باش قلعة ، الواقعة أبعد من ذلك جنوباً ، كانت هناك
حركة تستهدف استقلال الاكراد فوجدت عطفاً في كردستان الايرانية ، التي
كان سيمكو رئيس شكاك الشخصية البارزة فيها .

وفي بداية مارت زار وجهاء سورك ، بين ديار بكر وأورفة ، السلطات
التركية ورؤساء فرع حزب الاتحاد والترقي المحلي ، فتقرر تنظيم القوات
التركية والقبائل لمقاومة الاحتلال الاجنبي . واطلقوا سراح الشيخ محمود ،
الرئيس الاعلى للأكراد المليون شرقي أورفه الذي كان مسجوناً بتهمة عدم
ولائه للحكومة وأوعزوا اليه بجمع قبيلته والتعاون في طرد البريطانيين من
أورفه . ووعده الاتراك اتمام ذلك بالاعتراف بمركزه بين المليون ويجعله أقوى
رئيس كردي في غرب الفرات . على ان المساعدة التي قدمها بعد اطلاق سراحه
لم تكن شيئاً يذكر لانه كان غير قادر على إثارة القبائل الكردية ، حتى انه لم
يتمكن ايضاً من ابقائهم في منطقته هو نفسه ، ولم يكن بوسع الأكراد تأييده
في الاخلال بشروط الهدنة . وما حل شهر مايس حتى كان الحلف الذي
حاول تكوينه قد انهار ، ولم تلق مساعي الرسل الذين أوفدتهم جماعة استانبول
نجاحاً اكثر من هذا ، وهي الجماعة التي كان يرأسها عبد القادر الشمديناني
الذي كان عضواً في الوزارة التركية ورئيساً « للجنة الاستقلال الكردي » ايضاً .

وقد سبق للنادي الكردي في ديار بكر وماردين ان انتظم شأنه وشرع
بالعمل . وكان متألفاً في الدرجة الاولى ، كما جاء في تقرير متأخر كتبه الميجر

نوئيل . من وجهاء فاسدين منحطين اخذوا يؤيدون حزب الاتحاد والترقي لمصالحهم الشخصية . وحينما تم اندحار تركية جوبهوا بامكان تلاشي الامبراطورية العثمانية ، فانضموا الى الحزب القومي الكردي بتحريض من الاتراك الذين كانوا يلوحون لهم باستقلال الأكراد تحت الاشراف العثماني .

وقد وجه النادي ضد التدخل البريطاني وضد الارمن ، ثم اثرت مخاوف الاكراد بأشاعة ان مجيء اية دولة غربية سيؤدي بصورة لا مناص منها الى اخضاع المسلمين للمصالح المسيحية . وكان النادي يضم أيضاً اعضاء مدفوعين برغبة خالصة في اسعاد كردستان ومصلحتها بوجه عام ، لكن حتى اولئك المعتدلين كانوا قد تورطوا من قبل في مذابح ١٩١٥ ، واستفادوا منها استفادة مادية .

وبرغم ما ذكرناه سابقاً من ان وضع ولاية الموصل لم يتقرر بعد فانها وقد دمرتها الحرب لا يمكن ان تترك من دون ادارة او مساعدة ، ولذلك عين الكولونيل ليجمن حاكماً سياسياً حالما تم الاحتلال العسكري . وبعد ان انجز التنظيمات التمهيدية ، بعث الضباط شرقاً وشمالاً الى عقرة وزاخو للاتصال بالاكرد وتأمين السلم في حدودنا . وقد كانت الحالة وراء حدود الهدنة على أقصى ما يمكن من الغموض . وفي نهاية مارت وجد من الضروري ان نتأكد من اتجاه الشعور في المنطقة التركية . وكان ذلك ضرورياً ، لا لأن مؤتمر الصلح لا يمكنه ان يصل الى قرار ما بشأن كردستان من دون الحصول على المعلومات المضبوطة فقط بل لان الاضطراب هناك قد سبق أن انعكس تأثيره في زاخو كما ظهر من القلاقل التي بلغت ذروتها في نيسان بقتل الكابتن بيرسن . وكان علي احسان قد اثار القلاقل في جزيرة ابن عمر في بداية شباط ، وكرس مساعيه هناك وفي الجهات الاخرى ضد الاحتلال البريطاني . وقد اعتقل العرب المتنفذون والارمن من غير سبب وسجنوا ، وقطعت المواصلات في دجلة ،

ثم استمر تجنيد الأكراد وتسليحهم من دون عائق ، ومن دون التفات الأكراد
للاوامر التي وردت من استانبول ، بموجب مراعاة شروط الهدنة ، بالتواطؤ
مع السلطات التركية المحلية . وقد زار أحمد الضباط الأتراك شمدينان لبث
الدعاية التركية ، لكنه قوبل بفتور ، كما دخل آخر ولاية الموصل لغرض
نفسه . على أن علي أحسان نقل في نهاية شباط ، لكن ممثلين من « اللجنة القومية
الكردية » في استانبول مروا في شهر مارت بالموصل في طريقهم إلى السليمانية
ومعهم كتب تحت القبائل الكردية على القيام ضد البريطانيين . وعلى هذا لم تكن
قلاقل زاخو بنت زمانها ومكانها ، وإنما كان يديرها الأتراك بواسطة أناس
كانت لهم ميزة الحصول على معلومات محلية موثوقة وجميع العُضد الذي يمكن
أن تقدمه حالة الفوران الموجودة في الامبراطورية العثمانية .

وفي أول نيسان توجه الميجر نوثيل إلى نصيبين بعد الاتفاق مع قائد « الحملة
المصرية » العام الجنرال اللنبي ، ومن هناك ذهب إلى ديار بكر . وكانت
خلاصة تقاريره أنه كان هناك حزب ميال للأتراك ومناوئ للبريطانيين
تعضده عناصر تحمل فكرة الوحدة الإسلامية ، كما كان بجانب هذه المتناقضات
حزب يدعو إلى الوحدة الكردية ويستهدف استقلال كردستان استقلالاً تاماً .
وفد وصف الحزب الأخير هذا بأنه غير مناوئ للبريطانيين تماماً ، مع أنه
نقّر عنا بالخوف من أننا ننوي اتباع سياسة انتقامية من أجل المسيحيين . لكن
النادي الكردي الذي كان يخدم مصالح الحكومة العثمانية بادئ ذي بدء قد
أظهر روحية مستقلة متزايدة فيما بعد . فقد كتب الميجر نوثيل في تقريره
يقول : « أن قصة مبادئ الرئيس ويلسن المخيبة للآمال وهي وتذهب إلى أن
كل أحد حر فيما يعمل لنفسه قد انبثق فجراً في أفقهم بجميع احتمالاتها
المغرية ، والأكراد المستركون هم اليوم مقتنعون بأنهم إذا ما أخذوا يصرخون
صرخاً عالياً فإن الرئيس ويلسن سيسمعهم وسيسمح لهم بأن يسيئوا إدارة ديار
بكر بأنفسهم ويستمرروا على تضخيم بطونهم من أملاك المسيحيين التي اغتصبوها
إثناء المذابح ، من دون أن يتقيدوا حتى بأشراك الأتراك معهم في الغنيمة » .

فأخذت الحكومة العثمانية تنظر الى هذا النادي بقلة اعتبار ، وقررت في
الايخبر تصفيته .

ثم يستطرد الميجر نوئيل قائلاً : ان الحوادث التي أدت الى وقوع هذا
الحادث لم تكن تخلو من أهمية ، لأنها تقدم مثلاً نموذجياً للتيارات الخفية
الكثيرة من الدسائس التي تجري هنا والأساليب التي يلتجئ اليها الأتراك .
وعندما وصلت أنباء احتلال أزمير لم يتوان الأتراك عن استغلالها في صالحهم .
فقد نشرت الاخبار عن ذبح اليونان للمسلمين ، ونُسب الى الانكليز جلب
اليونان الى البلاد . وطلب الى الأكراد ان يشبهوا ديار بكر بأزمير ، زاعمين
ان الانكليز سيحتلون المدينة أولاً فيكون احتلالهم ذلك مقدمة تمهيدية لوصول
الجوش الأرمنية . فكان لجميع هذه التدابير تأثيرها ومفعولها الطبيعي . فقد
أثير الكثير من التعصب بين طبقات الناس ، وأخذ سكان البلدان الرجعيون
الفاسدون الذين اصبحوا يعرفون بأعضاء النادي الكردي والذين كانوا يتخوفون
من التحقيق في فظاعتهم المرتكبة سنة ١٩١٥ - يودون وقوع مذبحه اخرى
تنطس بواسطتها آخر الأدلة الباقية عن ماضيهم الشنيع فترتك المصائر . وما
حل هذا الدور حتى ران على المسيحيين زعر شديد . وزدب وفد منهم بسرعة
فائقة لمواجهة في ماردين وليرض علي وجوب تدخل البريطانيين . على ان
الحكومة بدأت تشعر بتبكيه الضمير لان دعايتها قد أسيء استعمالها بعض
الشيء . فان ما كانت تقصده من الدعاية هو إثارة الشعور ضد البريطانيين لا
ضد المسيحيين ، كما تحقق لها تحقيقاً تاماً عدم موأاة الفرصة لمذبحه اخرى .
الا ان طريقة مناسبة للخروج من المأزق قد اقترحت نفسها بنفسها . فقد تقرر
ان يكون كبش الفداء « النادي الكردي » نفسه ، وبالإمكان ان يتم ذلك

(١) لقد اثبتت الحوادث ان لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية هو الذي شجع اليونان على
مهاجمة تركيا بعد الحرب العالمية الاولى ، ولذلك أدى انتصار الأتراك في كفاحهم الوطني الى
سقوط وزارته .

بالظهور في مظهر العدالة بالنظر لنشاط اعضائه الفاسدين المتعصبين . وبهذا يمكن قمع مؤسسة غير مرغوب فيها ، تناهض السيادة التركية في البلاد ، تحت ستار حماية المسيحيين . فقبل للمسيحيين على هذا الاساس ان الاكراد هم الذين كانوا متعطشين لدمائهم (دماء المسيحيين) بتحريض من النادي الكردي . وبعد الخبرة التي مرت على المسيحيين في السنوات القلائل الاخيرة ، اصبحوا مستعدين على الدوام لتصديق اسوأ الاحتمالات فكان من الطبيعي ان يصدقوا تصديقاً تاماً بهذا النبأ الجديد بالنكبة . وبعد هذا انتقلت الحكومة من دور الكلام الى دور العمل . فنصبت المدافع فوق القلعة لارهاب المدينة ، ودعي الجيش للانذار ، ثم أوقف رؤساء النادي الكردي ، وفي الاخير اغلقت ابواب النادي نفسه في ٤ حزيران . وبهذا انقذت الحكومة الموقف الذي كان من صنع يدها .

وقد كان الميجر نوئيل مقتنعاً بأنه ما لم تبدد المخاوف من سيادة المسيحيين في المنطقة لا يمكن مقابلة عوامل التعصب والقلاقل . فانه كان يعتقد ان الكثيرين من الفلاحين يرغبون في الهدوء والانصراف الى زراعتهم ، ولو وجدت السياسة الصالحة التي تسيّرهم فقد يتوقف تهديدهم بخيراتهم بالتدريج ويتطورون الى جماعة مسالمة نسبياً . ويجب ان نضع في فكرنا ان شعورهم بالوجود القومي لا ينطوي على الشعور بالوحدة القومية . لأن القبائل تعزلها عن بعضها البعض جبال يكاد يستحيل استطراقها ، وكل قبيلة منها تلعب بها المصالح الشخصية الآنية ، بينما يحسد رؤسائهم أحدهم الآخر حسداً متناهياً . وهم سواء في جهلهم المطبق ، ومن الدوافع الرئيسية التي تدفعهم الى كره الارمن والتخوف منهم ان المزايا العالية التي يتصف بها الارمن تجعل الارحية بجانبهم رسمياً وتجاريّاً ، مع ان الكثرة والمزايا الحربية العالية هي في جانب الاكراد .

وقد أوصى الميجر نوئيل بنشر تصريح مطمئن بالنسبة للمذابح التي ارتكبتها الاكراد بتحريض من الاتراك او تحت إشرافهم المباشر ، مع التصريح رسمياً

باننا يجب ان نصر على اعادة الاموال غير المنقولة فقط . واذا تعذر ذلك فانه كان يعتقد ان تطميناً شفهيّاً منه ، اذا سمح له باعطائه ، سوف يكون كافياً لحل المشكل . والحقيقة اننا بسكوتنا عن منوياتنا النهائية كنا نسمح للعوامل المعاكسة لنا بان تثير العداة ضدنا وتتهمنا باننا نضمر منويات سوف لا يكون في مقدور الحلفاء تحقيقها حتى اذا كانت ستصدق عند النظر فيها ، كما كان يزداد وضوحها (المنويات) كل يوم . ولم يكن اعتبارنا في كردستان او وضعنا على حدودها هما اللذين يتعرضان للخطر فقط بواسطة القلاقل التي كانت تنتشر في البلاد . وانما الارمن الذين أنقذوا من المذابح ايضاً كانوا في خوفٍ من تجدد المذابح التي سيكونون عاجزين عن منعها ، وكان يشاركهم في قلقهم هذا المبشرون الاميركيون هناك . وقد اشتد الخطر اشتداداً عظيماً باحتلال اليونان لازمير الذي خلق وضعاً جديداً في جميع الامبراطورية التركية . ومن المهم ان نذكر هنا ان اللجنة التي أرسلت في الحريف الى آسية الصغرى لتكوّن فكرة مبنية على الملامعات الشخصية توصلت اكثريّة أعضائها الى نتيجة مفادها ان تأسيس دولة أرمنية في كردستان هو شيء غير عملي .

تهدئة الحال

أقصد صدرت التعليمات الى الميجر نوثيل في ٤ مايس ، بعد مصادقة الجنرال النبي والقائد العام في العراق عليها ، بسان يعلن العفو العام بموجب الخطوط التي كان قد اقترحها بالنسبة للاكراد في ولاية الموصل ، كما خول بعد ذلك برقيّاً بان يقدم للناس التطمينات الشفهية التي يراها ضرورية في التمشي مع هذه التعليمات ، بشرط ان لا ينقض ذلك الإصرار على إعادة الاشخاص المخطوفين والممتلكات المغتصبة . وكان المندوب السامي في استانبول قد بيّن في اول مايس ان هناك ثلاثة سبل مفتوحة أمامنا . فبوسعنا ان لا نغير التفاتاً لكل شيء قد يحدث خارج حدود احتلالنا ، ونترك المسيحيين وما

يصيبهم . أو يمكننا ان نطلب الى الحكومة التركية ان تقوم بمعالجة الوضع ،
 وهناك أمل ضعيف بقدرتها على ذلك حتى في حالة رغبتها فيه . او ان نستفيد
 من العناصر الكردية المتلهفة للوقوف بجانبنا . وكان وكيل الحاكم الملكي العام
 في بغداد يعتقد ان السبيل الثالث هو الذي يعطينا احسن الامل في تهدئة البلاد ،
 واقترح في ١٢ مايس بان نعطي تظمينات تامة ، بقدر ما يختص بحكومة صاحب
 الجلالة ، عن العقو العام واستبعاد السيطرة الارمنية على المناطق التي يكون فيها
 الأكراد اغلبية ساحقة . وقبل ان يصل الرد من لندن وصل الى بغداد السيد طه
 الشمديني ، فصادف وصوله لحسن الحظ وقت بداية الاضطراب في السليمانية
 والسيد طه رجل ذو نفوذ لا يستهان به ، من الوجهة السياسية والروحية ، في
 شمال شرقي كردستان . وقد اشتهر جده ، سيد عبيد الله ، بغارة شنها في
 ١٨٧٦ على أورمية في البلاد الايرانية حيث تملك اسرته املاكاً واسعة .
 وكان عبيد الله معتقلاً في استانبول مع ابنه عبد القادر الذي يرأس هناك الحزب
 القومي الكردي . والمعروف عن ابنه الآخر صديق ، الذي بقي في كردستان ،
 انه من مضطهدي المسيحيين المعلومين . وكان ابنه (ابن صديق) السيد طه
 قبل الحرب ضيف شرف على قنصل من قناصل الروس ، وكانت النتيجة
 متجهة يوماً ما لتعيينه رئيساً صورياً لحكومة كردستانية مستقلة استقلالاً اسمياً
 باشراف الروس . ومع هذا فقد تمكن من الاحتفاظ بصلة ودية مع الالمان ،
 وعندما زال اعتماد الروس عليه دمروا بيته في نيرى حينما عبروا الحدود في
 ١٩١٦ . وهو يتصل بصلة النسب مع سيمكو رئيس الشكاك ، ولذا فهو على
 وئام معه . وكان سيمكو قد حارب الروس والأتراك والارمن ، ومما يعرف
 عنه قتله صبراً للبطيريك الاثوري المار شمعون . وكلا هذين الرجلين ، السيد
 طه وسيمكو ، انتهازي من النوع الذي تنتجه كردستان بكثرة ، ومن يركض
 وراء مصالحه من دون تبكيت من ضميره . ولا تمس القضية المسيحية السيد
 طه الا بصورة ضئيلة ، لكن سيمكو عازم على عدم التنازل عن قلامة ظفر
 من الغنائم التي حصلها من اموال المسيحيين في اثناء الحرب . ويوجد موقعا هما

معاً في الجبال التي تنعدم فيها وسائل النقل والمواصلات بحيث يصعب التكهن
عمن سيكون بوسعه قهرهما .

وكان غرض السيد طه من زيارته لبغداد ان يلح على الجهات المسؤولة في
تشكيل كردستان متحدة تحت الاشراف البريطاني ، وفي ضمن ذلك أكراد
البلاد الايرانية . وعندما شرح له بانه لا يستطيع الحصول على مساعدة من
عندنا في تحقيق هذا المشروع بالنسبة لما يختص منه بأكراد ايران أبدى كثيراً
من خيبة الامل ، لكنه قال ان انفصال كردستان الايرانية عن ايران سيتم حتماً
حتى اذا كنا نحن نمتنع عن التصديق عليه . ومع ذلك فقد تقبل الموقف وصرح
عن رغبته في مساعدتنا بكل طريقة ممكنة على ان يؤسس في كردستان نظام
الحكم الذي يطالب به هو واصدقاؤه ، لكنه طلب ان يطمئن عن النقاط التالية :
أولاً - ان يعلن عفو عام في كردستان ، ثانياً - ان لا يحاول تنصيب رئيس
واحد فيها ، ثالثاً - ان تكون اعادة المسيحيين الى اوطانهم مشروطة بتعهد من
عندنا بان الاكراد سوف لا يوضعون تحت السيطرة الارمنية او النسطورية ،
رابعاً - ان تكون حكومة صاحب الخلافة مستعدة لتقديم المساعدة المادية نفسها
التي تقدمها في العراق .

ولما كانت ثورة السليمانية تهدد السلم في جميع الحدود الكردية ، كان من
المستحسن أن يستفاد من شعور سيد طه الودي . وعلى هذا سلمه وكيل الحاكم
الملكي العام كتاباً بالفارسية كانت ترجمته كالآتي :

« لقد حولتني حكومة صاحب الخلافة ان اطمنكم شخصياً بانها لا تنوي
انتهاج سياسة انتقامية نحو الاكراد عن الأعمال التي ارتكبت خلال الحرب ،
لكنها مستعدة لمنح العفو العام عن الجميع . وهذا سوف لا يمنع ممثلي الحكومة
البريطانية من بذل مساعيها الودية لاجراء الصلح بين الارمن والاكراد في
شؤونهم الشخصية ، كما انهم سيبدلون أقصى جهودهم لتسوية المشاكل
المختصة بالارض بين الطرفين بصورة ودية من دون الالتجاء الى التدخل

المسلح . وترغب حكومة صاحب الجلالة ان اطمئنكم بان المصالح الكردية سوف لا يغض النظر عنها في مؤتمر الصلح . »

وقد ارسل مضمون هذه التطمينات الى الميجر نوثيل الذي اصدر في يوم ٢٣ حزيران بياناً في المناطق الكردية التي كانت بعهدته يقول فيه :

« ان مستقبل البلاد التي تعرف باسم ارمينية او كردستان هو من القضايا التي يجب أن يبت فيها في مؤتمر الصلح . وليس لأحد ان يشك بان مؤتمر الصلح سيصدر مقرراته على ضوء المبدأ الذي كثيراً ما كان يعلن عنه وهو ان الأمم لها الحق في تعيين نوع الحكم الذي ترتضيه . وقد اعطت الحكومة البريطانية في السابق تطميناتها بان مصالح الاكراد سوف لا يغض النظر عنها في مؤتمر الصلح . وحتى تعرف ماهية القرار الذي سيصدر يكون من مصلحة الشعوب والطبقات الموجودة في كردستان ان تحافظ على السلم والأمن . اما بالنسبة لمذابح الارمن التي جرت بأمر من الحكومة التركية ، فان المدنية تقضي بان الموظفين المسؤولين عن اصدار مثل هذا الامر يجب ان يعاقبوا بشدة . وسوف يعامل بالمعاملة نفسها الارمن المسؤولون عن ذبح المسلمين . ويجب ان يطلق سراح نساء وبنات الارمن المججورات في بيوت المسلمين ، وان تعاد الاراضي والبيوت المأخوذة من الارمن بالغصب لاصحابها الشرعيين . ولا تنوي الحكومة البريطانية بقدر تعلق الأمر بها أن تتبع سياسة انتقامية نحو الاكراد عن الاعمال التي ارتكبت في اثناء الحرب ، وهي على استعداد لمنحهم العفو العام . ومن الضروري ان يترك الشعبان اللذان يعيشان في نفس البلاد اخطاءهما للحكومة ، وان يتخليا عن ضغائنهما وتبادل التهم بينهما وان يكونا مستعدين للعيش سوية في تساهل وحسن نية متبادلين . ولا ترغب الحكومة البريطانية في غير هذا وسوف تقتض بشدة لكل عمل غير عادل وكل اتهام مغلوط يؤدي الى دوام العداوة ويشجع الاضطراب . »

زعماء الاكراد

فكان لهذا البيان وقع حسن لدى رؤساء الحركة القومية الكردية ، بينما يعود الفضل في عدم وقوع اضطرابات في منطقة السيد طه الى الكتاب الذي أعطي اليه . ولو توقعنا منه ان يقطع صلاته مع رسل الاثراك لكان ذلك شيئاً أكثر من اللازم ، كما ان قيامه بذلك من تلقاء نفسه كان شيئاً بعيد الاحتمال ، لكنه كان مفيداً لنا في إلزام القبائل بالهدوء حول شمدينان ورواندوز ، ويبدو أنه بذل أقصى جهده في حصر الدعاية التركية في نطاق ضيق . وقد عرض عليه في اوائل الصيف ، ان يتولى حكومة القسم الشمالي الشرقي من منطقة رواندوز مع منطقة السهول الحصينة في « دشتي حرير » وإدارتها بالإضافة الى شمدينان ، مع التوسع المحتمل ، على ان يكون حكمه ذلك وكالة عن الحكومة البريطانية . وتقرر على هذا الأساس ان تخصص له المخصصات وان يتعهد بالامتناع عن الدس في الموصل او ضد الحكومة الايرانية . الا انه لم يعط جواباً قاطعاً . ومن المحتمل أنه قد تردد في الاضطلاع بدور لا يختلف عن الدور الذي كان قد أنيط بالشيخ محمود ، فكانت نتيجه غير مشجعة . هذا من جهة ، وربما خطر في باله من جهة أخرى ان انسحاب معاون الحاكم السياسي البريطاني في رواندوز الى باطاس الكائنة على بعد بضعة أميال خلال تموز ، بسبب حوادث العمادية التي سيرد ذكرها ، قد يدل على ضعف موقفنا وعدم دوام احتلالنا للبلاد . ولما لم يقبل بالاقتراح الذي عرض عليه ، سحب الاقتراح في آب من دون ان يؤثر ذلك على صلاتنا الودية به ، وقد علمنا بعد ذلك انه اصبح أشد مناوأة للاثراك يوماً بعد يوم .

وعرض سيمكو عروضه علينا في مايس فقد كتب بلهجة ودية الى وكيل الحاكم الملكي العام الذي كانت له معرفة به قبل الحرب ، ليعرض عليه ظلامه شخصية كانت تشغله ، لكنها كانت شيئاً ثانوياً بالنسبة لنا . وهي ان بعض مبغضيه وما كان أكثرهم (وهو موظف ايراني في هذه المرة) ، قد دبر ارسال قبيلة موقته اليه لقتله . ولا يمكن ان يسجل هذا الحادث هنا بأحسن من الوصف

المفعم بالحنق والسخط الذي اورده بكلماته هو ، حيث يقول : « .. ولم أكد ارميها من يدي على أخي حتى ثارت » . ولكي يقتصر لنفسه أثار على أورمية في حزيران . على ان عدائه لايران ، التي عقدنا معها اتفاقية خاصة ، فوضعت حداً لأي امل يمكن ان يعقد على مساعدتنا لتكوين وحدة قومية بين اكراد تركية وايران ، مع تخوفه من الاقتصاص الذي يمكن ان يصيبه عن معاملته السيئة للمسيحيين ، قد أديا به أكثر فأكثر الى الارتقاء في أحضان الترك .

اما زعماء الاكراد الآخرون ، فان الشيخ محمود في السليمانية كان قد أسقط من الحساب بعد إخفاقه في ثورته . وكان الشيخ محمود الحلبي من المرشحين لمنصب الحاكمية الوهمية في كردستان المتحدة . وكان عبد القادر الشمدينياني في استانبول مستعداً للاضطلاع بالدور نفسه ، ولم تكن ادعاءات البدرخانين الذين كانوا يحكمون بوتان في السابق اقل من ادعاءاته هو . وفي وقت متأخر عن هذا اعلن شريف باشا في باريس عن انتخابه رئيساً للدولة الكردية المقبلة ، مع انه لا توجد بينات تدل على انتخابه من قبل احد الا من قبل نفسه هو . وفي شباط كان الصدر الاعظم مستعداً لارسال عبد القادر او ابنه الى كردستان بمهمة التهيئة . لكن الخطة لم تتبلور مطلقاً ، الا ان شائعة سمعها ابن اخيه وخصمه السيد طه إن عبد القادر سيقوم بجولة في كردستان باشرافنا نحن ربما عجلت بميل السيد طه الى ان يمد إحدى يديه الى الجانب التركي .

بداية الحركة الكمالية

وفي نهاية حزيران اوفد الميجر نوئيل الى استانبول لبحث الوضع مع المندوب السامي هناك بالنيابة عن وكيل الحاكم الملكي العام . فاتفقا على ان اهم ما يجب ان يصنع هو الابعاد بين الترك والاكراد ، واقترح المندوب السامي بان يعهد الى الميجر نوئيل بمهمة ثانية في آسية الصغرى وان يسمح لبعض أبناء الاسر الكردية المعروفة بالانضمام اليه والتجوال في البلاد لغرض

التأثير على القبائل بضرورة المحافظة على الأمن وحماية المسيحيين . وكان يعتقد أيضاً بأنه لو حُذِرَ الاكراد من السعي للأغراض القومية فإنهم سوف لا يكون عندهم ما يخشونه من الحكومة العثمانية ، برغم نظر الاتراك الى الحركة القومية بارتياب . وكان مصطفى كمال ، احد القواد الاتراك الذين كان نشاطهم غير خاضع لحكومتهم في استانبول ، برغم اتصاله الوثيق بالاتحاديين ، يقسِف مدافعاً عن المصالح التركية في آسية الصغرى ضد جميع المتدخلين . فقد تشكلت « عصابة الاناضول الشرقية » باشرافه للدفاع عن الحقوق العثمانية ، وكان من اهم مبادئها المحافظة على وحدة تركية وبالنتيجة عدم السماح لتشكيل اية دولة يونانية او ارمنية داخل حدودها . على ان يحافظ في الوقت نفسه على حقوق غير المسلمين ، وان يُرحب بدولة منتدبة تحترم الشعور الوطني التركي . وقد اشترطت العصابة ان تكون الحكومة المركزية مستندة الى ارادة الشعب فكان ذلك يستدعي جمع « مجلس وطني » . وعقدت العصابة في آب اجتماعاً في أرضروم ، لكن سيواس انتخبت بعد ذلك لتكون مقراً للجنة الوطنية التي كانت « سوفيتية » الصبغة من جميع الوجوه . وكان تأثيرها شديداً بحيث أدى في تشرين الاول الى استقالة وزارة الداماد فريد التي حكمت العصابة بعدم وطنيتها . وعندما خلف عبد الرضا باشا الداماد فريداً في الصدارة العظمى ذهب وزير البحرية الحديد بنفسه الى طرابزون للمداولة مع مصطفى كمال وجاء معه الى استانبول بممثل عن جماعة سيواس .

وقد ترك الميجر نوئيل حلب في ايلول بصحبة اثنين من الاسرة البدرخانية ، وهما كاميران وجلبات . وكتب من هناك يقول ان الاكراد من عينتاب الى مالاطية ، ويؤلفون ٧٠ - ٨٠٪ من السكان ، كانوا متشبعين بالمبادئ القومية الكردية ، لكنهم كانوا ضد الاتراك بخلاف اكراد ديار بكر وماردين . وعزا موقفهم هذا الى ان هؤلاء كان اغلبهم من الشيعة والى عدم وجود ما يسمى بالقضية الارمنية وجوداً دقيقاً لأن عدد الارمن هناك كان قليلاً على الدوام . فعلمت عصابة الدفاع التركية بالامر وخافت منها لانها كانت تعتقد ان الميجر نوئيل

كان يحاول إثارة القلاقل بالعمل على استقلال كردستان المتحررة من السيطرة العثمانية . واتهموا حكومة الداماد فريد التي وافقت على الرحلة بخيانة مصالح الامبراطورية العثمانية ، وعلى هذا حاول احمد جودت ، قائد الجيش الثالث عشر ، اعتقال البدرخانين . فبات الوضع ينذر بالصعوبة ، وعندئذ سحب قائد الحملة المصرية العام الميجر نوئيل من ملاطية . الا ان الجمعية القومية الكردية في استانبول احتجت على ما صنعه الاتراك واعلنت بأن حادثة ملاطية تعتبر إهانة لشرف الاكراد وشعورهم القومي . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الشقة بين الحزبين الوطنيين التركي والكردى اكثر وضوحاً . فقد أغلق أتباع مصطفى كمال جميع النوادي الكردية في ولاياتهم ، واتخذوا بحسب ما تذكره التقارير تدابير شديدة ضد جميع من كان معروفاً بمشايعة الاستقلال الكردي . على ان عصبة الدفاع الكردية في الوقت نفسه كانت تحرق نفسها بنفسها . لان الفلاحين الاناضوليين أخذوا يسأمون حمل السلاح والدعوة للقتال حتى اذا كان ذلك باسم ارض الآباء ، وقد بدأوا يعتبرون مصطفى كمال حجر عثرة في سبيل عودة الرخاء والطمأنينة الى البلاد وليس وطنياً مجاهداً . لكن مثل هذا الشعور كان ما يزال جديداً في ادواره الاولى .

وقائع العمادية

لقد كان لهذه التيارات المتضاربة من الدس والعداوات التي تسببت عنها رد فعل أثر على علاقاتنا بالاكراد الموجودين على تخوم ولاية الموصل ، وصار من اسباب الحركات التي جرت في العمادية وعقرة في شهري تموز وتشرين الثاني . فقد كانت رغبة السلطات البريطانية ان تعد الترتيبات اللازمة لاعسادة اللاجئين الآثوريين الى اوطانهم في جبال التيارية . ويقع أقرب الطرق وانسبها

(١) لقد أثبتت الحوادث بأن هذا الخدس كان في غير محله ، لان الاناضوليين فاضلوا مع مصطفى كمال حتى حصلوا على استقلال البلاد وتأسست الدولة التركية القوية المعروفة اليوم .

الى هناك في منطقة العمادية ، فوضع هذا الهدف نصب العين ومددت الادارة البريطانية في ذلك الاتجاه . وفي كانون الثاني وضعت مفرزة من الجيش على بعد أربعة اميال من العمادية ، كما عين معاون حاكم سياسي في مارت . وعومل الاكراد بكثير من التساهل بالنسبة للسلف الزراعية ، ولم يفرق بينهم وبين المسيحيين . لكن معاون الحاكم السياسي ما بادر لتثبيت دعائم الامن والادارة حتى اصطدم هناك بصورة حتمية بالرؤساء الاكراد الذين وجدوا ان استقلالهم الذي يسيئون استعماله اصبح مهدداً بالخطر . وكانت بلدة العمادية مسرحاً للخصومات القائمة بين اثنين من أبرز مواطنيها ، تلك الخصومات التي اعتاد جميع السكان ان يساهموا فيها فضلاً عن مساهمة أغوات القبائل المجاورة وساداتها . ولم تكن الادارة البريطانية شيئاً مزعجاً طالما كان نشاطها منحصراً في توزيع السلفات والمنح التي لم يكن في مستطاع القرى المدمرة ان تبدأ زراعتها بدونها ، لكنها عندما اتجهت الى جباية الضرائب وقمع تعسف الاغوات الفوضوي ظهرت في مظهرها المزعج . وكان الاتراك يتخذون موقفاً فيه تساهل اكثر بالنسبة لواجباتهم الرسمية مع انهم كانوا يستندون الى قوة عسكرية أقوى من القوة التي وضعناها نحن . أضف الى ذلك انه كان من البديهي بأننا كنا مزعجين على اعادة الاثوريين الى مواطنهم ، ولم يقصر مسيحيو العمادية في لفت نظر المسلمين الى ان يومهم (يوم المسيحيين) قد بزغ فجره في الاخير . وكانت هناك تأثيرات خارجية مستعدة لتبالغ في أقوال من هذا القبيل .

على ان إرجاع آلاف الأسر الى منطقة جبلية وعرة تقع خارج نطاق سيطرتنا لم يكن واجباً يسهل الاضطلاع به ، وما تقدم الربيع حتى اتضح بأن عودة اللاجئين يجب ان تؤجل ، وعلى هذا لم تكن ثمة فائدة في الاحتفاظ بشيء من الجبل على مثل هذا البعد من مقره ، خاصة وان خطوط المواصلات كانت صعبة ، فسحب الجيش في حزيران الى « ممر سواره » على بعد ١٨ ميلاً من غرب العمادية ، وقد ترك هذا التدبير معاون الحاكم السياسي في العمادية ، الكابتن ويلي ، وحيداً في البلدة مع الملازم ماكدونالد والعريف تروب على

رأس شبانة كردية وكاتبين هنديين من كتاب التلغراف ، ومع ذلك فقد كان
 واثقاً من نفسه ، شأنه شأن كل انكليزي ، ومعتقداً وهو محق وليس على خطأ
 في الغالب ، بأن سلطته الشخصية فيها ما يكفي من الحماية . فوجد المتبرمون
 أن فرصتهم قد سنحت وفي ليلة ١٥ تموز قبل رؤساء الفئات الموجودة في البلدة
 انضمام الشبان اليهم ، بالتواطؤ الضمني مع القبائل ، وقتلوا الجماعة الموجودة
 بأجمعها . ولم تكن هناك قضية عدم محبة شخصية في الموضوع . لان الكابتن
 ويلي وكان ضابطاً ذا خبرة لم يكن يمحض على تعيينه في العمادية الا زمن قليل ،
 بينما كان الملازم ماكدونالد غيوراً وكفوئاً ومحبواً من الجميع . وانما كان هذا
 الهيجان عبارة عن مظاهرة ضد السلطة البريطانية ، كما كان يصطبغ بصبغة مناوئة
 للمسيحيين بصورة جازمة . لأن القرى المسيحية في منطقة العمادية أُغِير عليها
 غارات منتظمة . ومع ان الحسارة في الارواح كانت قليلة فقد أُتلفت الحاصلات
 والاغنام وأُخذت في كل مكان . واشترك في هذا العصيان الكويان الذين كانوا
 مسؤولين عن قتل الكابتن بيرسن في نيسان ، والگلي الذين ينزلون الى الشمال
 منهم ، مع قبائل البرواري في العمادية ، وعندما وصل الرتل البريطاني التاديبي
 الى البلدة فر القتلة الى بلاد الكويان . وقد دخلنا العمادية في يوم ٨ آب والقينا
 القبض على بعض المسيئين بعد أن أدبنا رؤساء قرى برواري السفلى . ثم طرد
 جيشنا قبائل برواري العليا من الجبال الواقعة في شمال البلدة والتفت الى الكويان
 والكلي . وقد ألحق بالحملة فوجان من الاثوريين المدربين في بعقوبة فأثبتوا
 موجوديتهم . وأنهيت العمليات في أيلول ، ومع ان رجال القبائل ، الذين
 كانت مهنتهم وبهجتهم حرب العصابات طوال أيام عمرهم ، قد تملصوا منا
 في الجبال (كما كانوا يتملصون من الاتراك قبلنا) فقد نجحنا في بث الرعب
 بينهم واقنعناهم بأن عصيانهم كان غلطة منهم وانهم قد غلبوا غلبة تامة في عقر
 دارهم . وما حل تشرين الاول حتى كانت جميع العشائر ، مع جميع المسيئين
 البارزين (عدا القليل منهم) ، قد قدمت خضوعها . فعوملوا معاملة منصفة ،
 لأن العقوبة التي أنزلها بهم الجيش كانت كافية . وقد عينا مرشحينا في العمادية

والبرواري وزودناهم بالوسائل التي يحافظون بها على سلطتهم ، ثم انسحبنا في كانون الاول الى دهوك ، الكائنة في منتصف الطريق بين العمادية والموصل . فظلت المنطقة هادئة منذ أن انسحبنا منها .

برزان والزياريون

ولم تنته السنة قبل ان نخسر ارواحاً ثمينة أخرى لم تكن لتستغني عنها الدائرة السياسية . فقد عينا بعد الهدنة بمدة وحيزة معاون^١ حاكم سياسي في عقرة الواقعة في شمال شرقي الموصل على حافة السهل الممتد في منتصف



الشيخ عبد السلام البارزاني

(١) لقد عُين الكابتن كي آر سكوت معاون حاكم سياسي في عقرة بتاريخ ١٩/١٠/٩ ،
و عين الكابتن كيرك معاون حاكم سياسي فيها كذلك بتاريخ ١٩/١١/٢٧ .

الطريق بين العمادية ورواندوز . وتعد الجبال التي تفصل عقرة عن الزاب الكبير موطن الاكراد الزيباريين ، بينما تقع في الجانب المقابل من النهر بلاد الشيخ البرزاني . وكان لبرزان تاريخ عاصف في زمن الأتراك . فقد عانى الشيخ عبد السلام مشاقاً كثيرة على يد الحكومة العثمانية ، وفي ١٩٠٩ جرد الاتراك حملة ضده لم تصب الانجاحاً معتدلاً جداً . وقد تمكن ناظم باشا ، الذي وضعت في عهده في ١٩١٠ ولايات بغداد والبصرة والموصل ، من عقد صلح وقي مستعجل ، لكن ناظم باشا عندما سحب في ١٩١١ انهارت جميع التدابير التي نجح في اتخاذها ، وعند اندلاع نيران الحرب كان الشيخ البرزاني يتوقع ان يجبر على قبول العروض التي كثيراً ما كان يعرضها عليه الروس دفاعاً عن نفسه ويطلب الحماية منهم . حيث كان هناك عداوة مستحكمة بين بارزان^١ والزيبار ، وجرياً على الخطوط البارزة التي كان يتبعها الاتراك اخذوا يستفيدون من فارس آغا الزيباري فتمكنوا بواسطته من اصطياد شيخ بارزان وشنقه^٢ . وورث خلفه الشيخ أحمد خصوماته تلك ، لكنه لم يرث معها فطنته وذكائه .

(١) و (٢) يسكن البارزانيون القسم الجنوبي من منطقة الزيبار الجبلية المنيع التي يحيط بها الزاب الكبير ، بعد أن يأتي من الأراضي التركية ، من الغرب والجنوب . وتسكن المنطقة كذلك عشائر أخرى معروفة بقوة الشكيمة أهمها المזורي والشيرواني والهركي ، والزيباري التي يرأسها أغوات الزيبار الحاليون .

وينحدر شيوخ البارزانيين من نسل الشيخ تاج الدين وكان عالماً جليل القدرة والمكانة . وقد برز من أحفاده الشيخ عبد السلام الأول وأخوه عبد الرحمن وعبد الرحيم . وكان الشيخ عبد السلام هذا هو الذي أخذ الطريقة النقشبندية من الشيخ خالد النقشبندي ، مؤسس الطريقة النقشبندية في السلمانية ، حينما مر بمنطقة برزان في إحدى رحلاته حوالي منتصف القرن الثاني عشر للهجرة وأسس زاوية فيها ، ثم جلس للتدريس والارشاد فقصده طلاب العلم من جميع الجهات .

وكان الشيخ عبد السلام قد خلف ابناً اسمه محمد ، فقام بالأمر من بعده وعمل على تقوية الطريقة النقشبندية وإعلاء شأنها في تلك الأنحاء . وبعد ان توفي أعقب ابنه خمسة ، هم : الشيخ عبد السلام الثاني ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد صديق ، والملا مصطفى رئيس الحزب الديموقراطي الكردستاني في الوقت الحاضر ، والشيخ محمد (بابو) سمي باسم والده . ولجميع هؤلاء أولاد وأحفاد في يومنا هذا . =



فارس آغا الزیباري



السيد طه الشمدنياني

وعندما تأسست الادارة البريطانية في المنطقة كان يستهجن بشدة وضعه تحت

ويبدو ان البارزانيين كانوا منذ ان وجدوا في مكانهم هذا في خصام دائم مع الزيباريين وأغواتهم. فان هؤلاء الأغوات ، الذين كانوا يحكون عشائرهم حكماً اقطاعياً ، لم يرق لهم توسع نفوذ الشيوخ البارزانيين والتفاف بعض العشائر حولهم ، ثم اعتناقهم لتعاليم الطريقة النقشبندية . ومن أجل هذا اشتد الخلاف بين الطرفين حتى وصل الى القتال الدائم ، الذي استغرق أيام الشيخ عبد السلام الأول كلها وأيام ابنه الشيخ محمد . وكانت نتيجة كل ذلك ان تغلب البارزانيون على الزيباريين وأزاحوهم عن الجانب الأيمن من الزاب الكبير الى الجانب الأيمن ، وبذلك أصبح النهر هو الحد الفاصل بين الفريقين وهكذا بقي حتى الآن .

وكان من الطبيعي ان يعتمد الزيباريون الى التحريك على خصومهم لدى الحكومة العثمانية ورجحانها في ولاية الموصل في كل فرصة أو مناسبة ، حتى أوغروا صدورهم وسببوا نقمة الأتراك عليهم ، بينما لم يعرف عن البارزانيين منذ نشوء حركتهم الصوفية في تلك الأصقاع انهم قاموا بحسينان ضد الدولة . وحينما قدم الشيخ عبد السلام الثاني (ابن الشيخ محمد) الى الحكومة مطالبات اصلاحية يرجو فيها الاهتمام بمنطقته وانتشالها من الفقر والعزلة كان الجو في الأوساط الحكومية مهياً ضده . فقد اعتبرت هذه المطالبات دليلاً على ما كان ينسب اليه من تمرد ، واعتبرتها موعزاً بها من قبل الجمعيات الكردية التي كانت تطالب بالحكم اللامركزي يومذاك . فسيقت حملة عسكرية ضده في أيام الاتحاديين حينما كان محمد فاضل باشا الداعستاني والياً في الموصل ، وبعد ان استبسل هو ورجاله في مقاومتها غر حارباً منها والتجأ الى الروس وعندئذ دخل الجيش الى قريته فخر بها وخربت زاويته . وبعد ان تطورت الأمور في الباب العالي أصدرت الحكومة عفوها عنه فعاد الى مكانه وأخذ الى السكينة من دون أن يعاب بما كان يغريه به الروس .

لكنه ما كاد يستقر مع عشائره حتى جابهته الحكومة بعزمها على تسجيل القرى البارزانية وتعداد نفوسها مع احصاء أعيانها ومواشيها . فثار ثائرة البارزانيين لذلك ، واعترض الشيخ عبد السلام لدى الحكومة ثم رجاها تأجيل ما كانت تريد الى الفرصة المناسبة ، فلم تلتفت لذلك وقررت المضي فيما تريد منها كلفها الأمر . وزاد الطين بلة ان تطورات مهمة حصلت في استانبول قتل فيها محمود شوكت باشا رئيس الوزراء الاتحادي ، واتهم بها القائم مقام العسكري صفوت بك ، لكن صفوت بك فر من استانبول والتجأ الى الشيخ عبد السلام بصفة دخیل عليه . وحينما طوّل بتسليمه الى الحكومة امتنع عن ذلك بطبيعة الحال ، لأنه كان دخیلاً عليه أولاً ولما كان من سابق معرفة وصداقة بينها وباعتبار صفوت بك نفسه من رجال الائتلافين الذين كانوا يعطفون على الشيخ عبد السلام ويقدرون مكانته الدينية ، فضلاً عن اعتقادهم بانه كان موالياً للحكومة وغير خارج عن طاعتها كما كان يعتقد الاتحاديون . وقد احتفى الشيخ عبد السلام بصفوت بك الذي فتح مدرسة في بارزان أثناء وجوده عندهم ودرس بنفسه فيها . =

حكم عقرة الذي يعتبره مصطبغاً بالنفوذ الزيباري ، وقد كان في وقت مسن

= وقد عين لولاية الموصل في تلك الأثناء سليمان نظيف باشا ، وكان من غلاة الاتحاديين ، ومن المتطرفين في القومية التركية مع انه كان كردياً من أهالي ديار بكر . فطلب من الشيخ عبد السلام تسليم صفوف بك في الحال أو الحضور بنفسه الى الموصل ، فرفض الشيخ هذين الطلبين بكل أباء واعتصم بالجبال منتظراً حكم القدر فيه . وعند ذاك جرد سليمان نظيف باشا جيشاً قوياً على بارزان ، ثم استنفر العشائر ضده في كل مكان . وبعد ان خاضت هذه القوات حرباً ضروساً مع البارزانيين غلب على أمر البارزانيين واضطروا إلى الانسحاب بعوائلهم والرحيل الى ايران . اما الجيش فقد دمر القرى البارزانية بالتعاون مع العشائر ونهبها ، ثم خرب زاوية الشيخ الدينية (الفصايا الثلاث الغلامية) .

اما كيف تم القبض على الشيخ سلام فيرى الأستاذ الغلامي ان فارس الزيباري لا دخل له في الموضوع كما تذكر المس بيل هنا ، وانما قبض عليه بمكيدة تدل على الخيانة والغدر . فبعد ان وصل البارزانيون الى الأراضي الايرانية تفرقوا على القرى المجاورة لأورمية ، ونزل الشيخ عبد السلام ضيفاً على السيد طه الشيخ صديق الشمديناني في قرية نيري (نهريه) التي تبعد عن أورمية بمراحل ثلاث . وبعد خمسة شهور ذهب مع نفر من رجاله لزيارة اسماعيل اغاسيمكو رئيس الشكاك في قرية جاريا بالقرب من الحدود الايرانية التركية وحل ضيفاً في بيته فلاقى كل حفاوة وتقدير . وحينما كان عائداً الى مقره في نيري اعترض طريقه عدد من رجال درويش عبد الله أحد رؤساء الشكاك ، وكان يسكن داخل الحدود التركية ، وأخروا عليه بزيارة بيت رئيسهم درويش للتبرك به والمباهاة بوجوده فلبى طلبهم بحسن نية وطيبة قلب واجتاز الحدود فنزل ضيفاً على درويش عبد الله . وعلى أثر هذا أحاط بالدار عدد من رجال القرية المسلحين ، وتقدم اليه درويش عبد الله ودلائل الغدر والخيانة بادية على وجهه ، وبلغه بأنه سيسلم الى الحكومة التي خرج عليها . وحاول عبد السلام اقناعه بالعدول عن فكرته الخبيثة بكل وسيلة فلم يفلح . وحينما حاول اتباع الشيخ الدفاع عنه وأخذته بالقوة منهم عن ذلك لأنه رأى أن المقاومة لا تجدي . ثم أخذ الشيخ الى وان ، ومنها الى ديار بكر ، وبعد ذلك جاءت به قوة تركية الى الموصل . وفيها شكل سليمان نظيف مجلساً عسكرياً لمحاكمته فحكم عليه وعلى ثلاثة من أعوانه بالاعدام .

وفي مساء يوم ١٤ كانون الأول ١٩١٤ أخبر أهالي الموصل بان الشيخ عبد السلام سيعدم في منتصف تلك الليلة وطلب اليهم الخروج للتفرج . وقبل ان يتنصف الليل جيء بالشيخ الجليل واتباعه الثلاثة الى ساحة الأعدام الكائنة بين الثكنة العسكرية (الحجرية) والثكنة الملكية في الموصل ، فتوضأ وصلى ركعتين وقرأ القرآن ثم أعدم شقاً مع جماعته . اما الذين شنقوا معه فهم : محمد أغا هيشي من رؤساء الريكان وكان متقدماً في السن ، وعبيد أغا المزوري ، وعلي بن محمد أغا المزوري . وقد أودع الآخرون من الأسرى البارزانيين السجن فمات منهم فيه عدد غير قليل ، ومن هؤلاء نوري خال الشيخ عبد السلام ومحمد أمين أغا بابسيني والد علي أحد المشنوقين .

الاوراق متلهفاً للانتقال الى منطقة رواندوز لكن المشروع لم يلق تشجيعاً منا .
ان فارس آغا مُنع من عبور الزاب الى بلاد بارزان . فأدت محاولة الاحتفاظ
بالتوازن الى عداء الفريقين لنا وجعلت من الوضع تربة خصبة للدعاية التركية
التي كانت تدار بحذق من وان على يد حاكم سابق يدعى حيدر بك . وقد
شاعت الاخبار في اوائل الشتاء عن وصول انور باشا الى وان مع مدد يتألف
من الاتراك والروس الهاربين ، وعن تراسله الفعال مع سيتو آغا في اورامار
الواقعة في شمال العمادية ومع البرواري والمسيثين الآخرين . والظاهر ان النزاع
بين فارس آغا الزيباري وشيخ احمد البارزاني قد سُوي مؤقتاً بتوسط الترك ،
وكان الوكلاء منشغلين في الوقت نفسه في بث المبادئ التي كان الاغوات
يعبرونها آذاناً صاغية لانها تقدم لهم مشروعاً يؤدي الى سيطرة اسلامية بعيدة
غير فعالة ، يصبح تحتها الاغوات هم اصحاب السلطة الحقيقية ، لكن الفلاحين
العشائريين الذين سيجبرون على الخضوع التام لرؤسائهم يبدو انهم لم يكونوا
ينظرون الى الامر على الضوء نفسه .

وكان قد خلف الكولونيل ليجمن في حاكمية الموصل السياسية الكولونيل
بيل ، الذي كان يجمع بين الخبرة الطويلة والمقدرة الفريدة في الادارة . ولما
كان حديث عهد بالمنطقة رغب في ان يتعرف بها شخصياً ، وبلغت التفاتاً
خاصاً الى تكوين آرائه عن القضية الكردية . فزار عقرة في نهاية تشرين الأول
وفرض غرامة على فارس آغا وعلى رئيس آخر من رؤساء الزيباري يدعى بابكر
آغا ، لان أتباع الاثنين كانوا يقتنصون شبانتنا ، وفي أول تشرين الثاني عبر
الزاب لأجل ان يفتش شبانة احد الرؤساء المحليين . لكن الزيباريين اهتموا
لانهما دُعيا للمحافظة على النظام وغرما فاتصلا بالشيخ احمد البارزاني الذي
بعث اليهما بأخيه مع عشرين من رجاله لمساعدتهما . وكمن هؤلاء مع فارس
وبابكر واتباعهما ، وقد بلغوا حوالي المائة رجل عدداً ، في طريق عودة
الضابطين بالقرب من بير اكيرا قرية بابكر واطلقوا عليهما النار فقتلوهما .
وكان في معية الضابطين اربعة من الشبان . فقتل اثنان ، كان احدهما آثورياً

وكان الثاني من اهل عقرة وقد حاول الدفاع عن ضابطيه . اما الاثنان الآخرا
فقد كانا من الزيباريين فانضموا الى العدو . وتدل جميع الدلائل على ان قتل
الضابطين لم يكن قد دبر من قبل ، بل كان ناتجاً عن سورة من سورات الغضب
المفاجئة التي يتميز بها المزاج الكردي . لكن هذا القتل وقد وقع بالفعل يشير
الى بداية الثورة . فقد أغار الزيباريون والبارزانيون على عقرة ونهبوها ، وفر
ضابط الشبابة الى الموصل بشق النفس . وفي خلال يوم واحد او يومين تشاجرت
القبيلتان على الاسلاب فعاد البارزانيون الى بيوتهم . وقد عرضت علينا عدة
قبائل مساعدتها وأظهرت ودها نحونا ، وعندما شق الكابتن كيرك ، معاون
الحاكم السياسي في باطاس (رواندوز) ، طريقه الى عقرة في ٩ تشرين الثاني
مع الشبابة الاكراد فقط وجد سكان البلدة يبتهلون من أجل عودة الادارة
البريطانية . وعند وصول الرتل التأديبي الى وادي الزاب رفعت معظم القرى
الراية البيضاء ، وكان يبدو على سكانها الخوف الحقيقي من أغواتهم ، ورحبت
بمن يحميها منهم .

وقد أحرق جنودنا دور الرؤساء الزيباريين ، ثم عبروا الزاب وأنزلوا
العقوبة نفسها بالبارزانيين ، وجرياً على القاعدة التي اتبعت في حملة العمادية
لم نتعرض بالقرويين . ولم يستطع الثوار إثارة القبائل المجاورة ، وكان ذلك
في الدرجة الاولى بسبب موالة الرجل البارز بالقرب من عقرة لنا ، وهو عبد
القادر آغا الشوشي^١ . ولذلك لم نجد مقاومة في تقدمنا . وقد فرّ الجناة الاربعة
وهم فارس وبابكر وشيخ احمد بارزان واخوه الى الجبال ، فاعتبروا خارجين
على الحكومة . ولم تقع قلاقل في العمادية من اجلهم ، كما رفض السيد طه
الشمديناني الاستماع الى اقتراح قائمقام نيري ، حيث كان الترك يحتفظون
بحامية صغيرة ، بوجوب مبادرته هو وسيتو الأوراماري لمساعدة الزيباريين .
وقد سبب موقفه هذا عدم اطمئنان القائمقام على سلامته ، فترك نيري وانسحب

(١) انه قادر آغا بن عثمان آغا الشهير بقادر آغاشوش ، صاحب قرية سوسنة القريبة من عقرة .

شمالاً الى باش قلعة . وعندما أنهيت الحركات تقرر تقليص حدودنا الى عقرة والكف عن محاولة التمسك ببلاد الزيبار بين عقرة والزاب مرة اخرى .

وعلى هذه الشاكلة لم نعد مسؤولين في نهاية السنة عن ادارة جبال الحدود في كردستان الشمالية. ونقل الموقع البريطاني من رواندوز الى بطاس الكائنة على بعد ١٨ ميلاً من جنوب غربيها . ومن هناك كان الخط يمر الى عقرة ودهوك متحاشياً الجبال التي تكون جناح الجانب الأيمن من الزاب الكبير بحيث يترك العمادية والزيبار في خارج منطقتنا . وكان وصولنا هناك باديء ذي بدء موضع ترحيب الجميع من كل الوجوه ، لاننا اتخذنا التدابير لمكافحة المجاعة والدمار اللذين خلفهما الاتراك . وقد وزعنا الاسعاف بحياذ تام من دون تفريق بين المسلمين والمسيحيين ، وربما تكون المساعدة التي قدمناها قد أنقذت من بقي من طبقة الزراع . لكننا لم نخف نيتنا في اعادة اللاجئين المسيحيين الذين كانوا قد التجأوا لحمايتنا الى مواطنهم والذين كانوا يلحون علينا باستمرار برغبتهم في العودة الى ديارهم ، وهذا هو الذي استغله الاتراك في توجيه دعايتهم ضدنا . وقد كان غير ممكن منذ البداية ان نتجنب إثارة عداة الاغوات . فقد كتب الكولونيل نولدر عن عصيان الزيباريين ما يأتي : « ان وضع الاغا الكردي الاعتيادي لا يتفق مع وضعنا ووضع اية حكومة اخرى . . فانه مثل البارون الاقطاعي في القرون الوسطى يحتفظ بثلة من الاتباع المسلحين ويتعسف مع الفلاحين متى شاء . وان الارض التي يملكها فارس آغا واخوه لا تدر لهما وارداً بمقدار (١٠٠٠) روبية في السنة . وانما تعتمد ثروتهما بالكلية على الاغتصاب من القرى ، وهما يحتفظان بنفوذهما بصرف الاموال التي يحصلان عليها بهذه الطريقة على الاحتفاظ بالجماعات المسلحة التي تفرض سلطتهما . ورجال كهؤلاء لا يسعهم الا ان ينظروا الى قيام اي نوع من انواع الحكومات المستقرة باهتمام . وعندما يضاف الى هذا الوضع الشعور المناوئ للمسيحيين والدعاية التركية المتسعة المدى يمكننا ان نفسر تفسيراً كافياً الشعور الحالي الموجود في حدود كردستان الشمالية » .

ويبرهن أكثر من هذا على صحة هذا الوصف استقرار الحالة الآن في
کردستان الجنوبية حيث أدت ثورة الشيخ محمود إلى إسقاط سلطة ينطبق عليها
وصف الكولونيل نولدز تماماً . فلم يبد من سكان السليمانية ما يدل على تحسّرهم
عليه ، وقد بدأت البلاد تسير سيراً اعتيادياً في طريق الرخاء ، بينما لا تزال
القوضى ضاربة أطنابها في كردستان الشمالية التي تغلب فيها الاغوات على الإدارة .
وبالإضافة إلى السليمانية تقدم لنا سهول أربيل برهاناً مقنعاً آخر على ما أوردناه
حيث أن تلك المنطقة التي يسهل الوصول إليها من الموصل لا تقع الآن في قبضة
الرؤساء الذين يحتاجون إلى معازل جبلية يديرون منها عملياتهم بسلام . ويقدر
الناس هناك الاتحاد الإداري مع وادي دجلة المتمدن أكثر من منطقتهم وليست
لهم رغبة في قطع الاتصال بالموصل وبغداد الذي تتساوى فائدته للطرفين . لذلك
جعل من أربيل وما يتبعها من كويسنجق ورائية منطقة قائمة بذاتها .

وما تزال الأحوال في العمادية مستقرة . فقد نجح مرشحنا عبد اللطيف آغا
في المحافظة على وضعه . وبقي اسماعيل بك بن سعيد بك في رواندوز يتمتع
بمؤازرتنا ومعاضدة مفرزة من شبانتنا الكردية وقد برهنت الترتيبات التي
اتخذناها هناك على أنها مرضية للغاية .



السري يرمي كوكس الحاكم الملكي العام

الفصل السابع

تطور الادارة وتوسعها : شؤون الواردات

تعيين الحاكم الملكي العام

كانت إضافة ولاية بغداد الى المناطق المختلفة قد أسبغت على أعمال الادارة أهمية جديدة . وحينما تمت السيطرة على حوضي ديالى والفرات الغنيين ، وقل الاحتمال في شن هجوم تركي ، أخذت مسؤولية الادارة في البلاد تجرد الاعتبارات العسكرية من أهميتها . واستجدت في الوقت نفسه عوامل سياسية جديدة كان من أهمها وجود مدينة بغداد في المنطقة . فهي في الأساس عاصمة البلاد العتيدة ، وتعتبر نفسها كذلك على الدوام ، ومع ان البصرة والموصل قد نظمهما الاتراك وجعلوهما ولايتين مستقلتين كانت بغداد في الحقيقة مقراً للسيادة العثمانية في العراق منذ القدم ، وبقيت مصدراً للوحي السياسي حتى يومنا هذا .

وقبل ان تعقد الهدنة بزمينٍ طويلٍ دعيت القوة العسكرية في ما بين النهرين لحل المشاكل الادارية والسياسية دون العسكرية . وقد اعترفت حكومة صاحب الجلالة البريطانية بأهمية هذه الناحية من أعمال الحملة ، فرفعت في تموز ١٩١٧

منزلة رئيس الحكام السياسيين بحيث أصبح حاكماً^١ ملكياً عاماً. وحددت واجباته على الوجه الآتي :

« تسيّر الادارة المدنية بالاشراف العسكري الذي يرتأيه الحاكم العسكري العام ، مع الالتفاف المطلوب للأحوال والانقسامات المحلية ، بحيث يؤدي ذلك الى الحيلولة دون اختلال النظام ، الذي قد يستدعي سوق الجيوش المطلوبة بالحاح في مكان آخر . ويجب ان يستهدف في الوقت الحاضر فقط الحد الأدنى من الكفاءة الادارية ، الذي يكون ضرورياً لحفظ الأمن وتطمين متطلبات القوة العسكرية في البلاد .

كما يجب ان يبقى تعديل القوانين ، وادخال الاصلاحات الضرورية ، في أضيق الحدود الممكنة . فان حكومة صاحب الجلالة البريطانية غير راغبة في إثارة المشاكل الكبيرة او المثيرة للخصام والجدل ، أو الاشارة اليها بشيء ، حتى يكون خطر الهجوم التركي قد تعدى حده ... »

وقد خول الحاكم الملكي العام صلاحية المخابرة رأساً مع حكومة صاحب الجلالة ، وأخبر بأن يعنون تقاريره الى وزير الدولة لشؤون الهند^٢ ، وصارت تعليمات حكومة صاحب الجلالة تصدر منذ ذلك الوقت فصاعداً باسم ذلك الوزير في الأمور غير العسكرية . وقد استفادت ادارة بين النهرين استفادة كبيرة جداً من ربطها بوزارة الهند رأساً ، حيث كانت مشاكلها واحتياجاتها تلقى التفاتاً تاماً . ولم تقصر وزارة الهند في تقديم المشورة الصائبة ، والتأييد الحكيم ، والمساعدة خلال السنين الصعبة التي مرت قبل ظهور الحكومة المدنية للوجود .

Civil Commissioner (١)

Secretary of State for India (٢)

التقسيمات الادارية في ايام الاحتلال

وقد أسست عند احتلال بغداد منظمة مستقلة في ولاية البصرة باشراف نائب من نواب رئيس الحكام السياسيين ، يكون على اتصال وثيق في عمله برئيس الحكام السياسيين في بغداد . وكانت حدود الولاية نفس الحدود التي كانت موجودة في أيام الترك ، ما عدا قائم مقامية الكوت التي ألحقت بالبصرة . فصارت الولاية الجنوبية تتألف من خمس مناطق : البصرة نفسها ، والقرنة ، والناصرية ، والعمارة ، والكوت ، وكان يدير كلاً منها حاكم سياسي يتبعه عدد من معاونين المحليين . وكانت مدن البصرة والعمارة والناصرية يسيطر عليها حكام عسكريون أصبحت دوائرهم بالتدريج أكثر اضطباعاً بالصبغة المدنية من العسكرية ، برغم بقاء العنوان من دون تبديل .

تم عيّن الحكام السياسيون في ولاية بغداد كلما امتدت رقعة المناطق المحتلة واتسعت حدودها ، وما انتهت سنة ١٩١٧ حتى أصبح عددهم عشرة ، معينين في : بغداد ، وسامرا ، وبعقوبة ، وخانقين ، والعزيزية ، والرمادي ، والحلة وكر بلا ، والشامية ، والسماوة .

وبعد سنة من التجربة التي تمت على هذه الشاكلة تقرر أن يسمح بأبطال التفريق بين الولايتين ، ونُسّق العمل الاداري بأجمعه برأسة الحاكم الملكي العام في بغداد . و تم ذلك في أيلول ١٩١٨ . فبقيت المناطق الاربع عشرة التي كانت تتألف منها الولايتان غير متبدلة الى عام ١٩١٩ ، حينما فصلت الديوانية عن الحلة وأعطيت صفة المنطقة بما فيها السماوة . ثم أُدمجت كربلا بالحلة ، والعزيزية بالكوت . وعندما تقدمت سنة ١٩١٨ ظهرت للوجود منطقتان ، هما السليمانية والموصل . وفي ١٩١٩ فصلت كركوك عن السليمانية واريل عن الموصل ، وأصبحت كل منهما منطقة قائمة بذاتها ، بينما تكونت من خانقين وبعقوبة منطقة أخرى في ١٩٢٠ .

الواردات

لقد أدى احتلال بغداد الى إجراء بعض التعديلات في دائرة الواردات^١ . ففي نهاية ١٩١٦ كانت « لجنة الواردات » ، التي تتألف من ضابطين ، قد حلت في محل « ناظر الواردات » . وقد تقاسم عضوا هذه اللجنة العمل فيما بينهما ، واصبح كل منهما مسؤولاً عن فروع معينة من فروع الدائرة . وحينما سقطت بغداد تولى « ضابط الواردات » الأول جميع اعمال الواردات العائدة للولاية الشمالية ، بينما تولى زميله الاعمال نفسها في الولاية الجنوبية . وبقسي المستر غاربت^٢ في عمله الى تموز ١٩١٨ . فأخذ مع معاونه الوحيد في أول الأمر ، ومعاونيه الاثنین بعد ذلك ، يكافح الاعمال الصعبة التي كانت تنطوي عليها عمليات التنظيم الأساسية في ولاية بغداد . وقد ازدادت صعوبة العمل بحصول نقص شديد في الأقوات ، فاقترح لمعالجته مشروعاً جريئاً للاستثمار الزراعي سوف تأتي على وصفه بعد هذا . فصودق عليه وتم تنفيذه من قبل السلطات العسكرية ، بوجود المستر غاربت ضابطاً منفذاً فيه وممثلاً لدائرة الواردات نفسها . الا انه وقع مريضاً في تموز ١٩١٨ وبعد فترات من استئناف العمل غادرا البلاد باجازة مرضية في كانون الأول .

وكانت قد أدخلت بعض التغييرات في مشروع الدائرة من قبل . فقد أغلقت دائرة البصرة عند دمج الولايتين وجمي بالسجلات الى بغداد . وتولى رئاسة الدائرة الموحدة في بداية الامر سكرتير للواردات والمالية ، لكن هذه الدائرة قسمت في صيف ١٩١٩ الى دائرتين : واحدة للواردات وأخرى للمالية ، وترأس كلاهما سكرتير مستقل .

Revenue Department (١)

Garbett (٢)

الري والزراعة

وفيما عدا مشروع الاستثمار الزراعي ، الذي كان بعهدة السلطات العسكرية ، أسست دائرتان : واحدة للري وأخرى للزراعة في شباط ١٩١٨ و تموز ١٩١٨ على التعاقب ، على شكل وحدتين عسكريتين تعملان بإشراف « اللجنة الزراعية »^١. وكانت اللجنة التي يرأسها نائب مدير الميرة تتألف من خمسة أعضاء هم : مدير الري ، ومدير الزراعة ، والمشاور المالي للقائد العام باعتبارهم ممثلين للجانب العسكري ، وسكرتير الواردات والشؤون المالية للحاكم الملكي العام ، وضابط الواردات الأول الذي تولى سكرتارية اللجنة ، عن الجانب المدني . على أن تقاسم السلطة هذا في شؤون تتصل اتصالاً وثيقاً بإدارة السكان المدنيين لم يكن يخلو من مصاعب على ما كان فيه من ضرورة حتمية في ذلك الوقت . فقد كان ضباط الري المحليون مثلاً مخولين بفرض العقوبات الطفيفة عن مخالفة أنظمة الري ، أو عدم تنفيذ الأوامر المختصة بالسداد وما أشبه ، من دون إحالتها على الحكام السياسيين المحليين . ومع هذا فربما كان المخالف رجلاً تقضي الدواعي السياسية بمعاملته معاملة حذرة ، كما كان وجود دائرتين مختلفتين تصدران الأوامر في وقت واحد يعد شيئاً مربكاً للعقلية المحلية على كل حال . ومما يدل على نجاح الطريقة التي تم فيها العمل سوية ما بين السلطات المدنية والعسكرية أن الترتيبات التي اتخذت سارت على أحسن ما يرام إلى سنة ١٩١٩ ، حينما سمح تقدم الأحوال نحو السلم والاستقرار بتسليم دائرتي الري والزراعة إلى السلطان المدنية ، وقد أصبحت في وضعٍ تستطيع تولى المسؤوليات فيه .

الضرائب

وقد كان جهاز الواردات التركي ، من وجهة نظر حكومة العدو الراحلة ،

يتصف بميزة معجبة . فقد كانت السجلات جميعها متجمعة في المقر ، وكان الأشخاص الذين يعرفون شيئاً عن أعمال الواردات وجبايتها قليلون جداً . وبذلك كان من الممكن ان تتلف السجلات وينقل الموظفون وحينما وصلنا الى بغداد لم يكن هناك بيان لتحقيق الواردات عن أية ضريبة من الضرائب ، يمكن ان تجري الجباية بموجبه ، كما لم يكن ثمة أي موظف باقٍ في منصبه . وكانت قد تكونت قناعة عامة عند الناس بأن الاتراك سوف يعودون الى البلاد ، وكان تاريخ الكوت ماثلاً أمامهم ومتذكراً الكثيرين منهم الذين كان بودهم ان يقدموا خدماتهم في هذا الشأن لولا خوفهم من تكرار ما حدث فيها . ولم ينعدم وجود السجلات المختصة بالضرائب فقط ، وانما أخذت سجلات الأراضي كذلك . وعلى كلٍ فقد كانت الحاجة تدعو الى اتخاذ قرارات عاجلة في هذا الشأن . فقد وصل « ضابط الواردات الأول » الى بغداد في ٢٢ مارت . ولما كان وقت الحصاد يبدأ في ١٥ نيسان فان الكشف على الحاصلات كان يجب أن يتم قبل ان ينضج الحاصل وتصدر بيانات التحقق بموجب ذلك . وكان استيفاء حصة الحكومة من الحاصلات أمراً مهماً لسبيين : فقد كانت تهيئة الأقوات محلياً أمراً من شأنه ان يقلل أولاً من مقدار الحمولة في وقت تعتبر فيه هذه الحمولة شيئاً مهماً للجهات المسؤولة ، كما كان دفع الضريبة من ناحية ثانية له تأثير معنوي لأنه يعتبر دلالة ظاهرة للعيان تدل على اعتراف العرب بالخضوع . ولا غرو فان دفع الضريبة يعتبر مقياساً بارزاً للولاء . ولذلك كان لا بد من جباية الضرائب ، ولا بد من تكوين جهاز لها يكون مقبولاً عند الناس وسريعاً في سيره ، بينما يكون مطابقاً لسياسة الحكومة المالية السابقة في الوقت نفسه .

وكانت أسهل خطة تتبع في هذا الشأن ان نعود بالضرائب الى طريقة الالتزام القديمة ، لكن هذا كانت تعترضه مشكلتان : أولاًهما ان طبقة البغداديين الذين يتقدمون للاشتراك في مثل هذه المزايدات عادة لم يكونوا يشقون بما آلت اليه حالة القبائل ، ولا بالمدي الذي تصل اليه الادارة الجديدة في دعم حقوقهم ومؤازرتهم في العمل . وثانيتهما ، انه على الرغم من أهمية التأكيد على سيادة

الاستقرار والهدوء عن طريق جباية الضريبة فعلياً ، فإن الحاصلات كانت قليلة جداً ، وكان أهم من ذلك مع هذا الحصول على ثقة الفلاحين والمزارعين ليرحبوا بالاجراءات التي تتخذ للانماء الزراعي في المستقبل. وكان الحصول على معلومات مفصلة لهذا الانماء يتصف بصفة الضرورة العاجلة ، بينما كانت جباية الضريبة بالالتزام لا تساعد مطلقاً بالالتزام في ترويض هذا الغرض .

وقد كانت طريقة استيفاء الضريبة من شيخ واحد ، بعد ان كان قد ثبت نجاحها في بعض جهات ولاية البصرة ، شيئاً غير ممكن لأن طريقة تأجير المقاطعات الكبيرة الى رؤساء العشائر ، التي تعتبر من نتائجها ، لم تكن قد أقرت في بغداد . ولذلك لم يكن ثمة شيوخ متعودون على الاضطلاع بمثل هذه المسؤولية ، ولا سجلات يمكن ان تبنى عليها تقديرات منصفة في هذا الشأن . ولم تكن الحكومة التركية تستوفي رسومها وضرائبها من الملاك الا في الحالات التي تكون الارض فيها مملوكة ، وواقعة فيما يسمى بالمناطق المستسلمة . اما الاراضي الأميرية ، والمناطق التي لا تسيطر عليها الحكومة سيطرة فعالة ، فقد كانوا يستوفون الضريبة فيها من الملتزم الثاني ، أي السركال مباشرة . على ان اتصال الحكومة بالسراكيل رأساً فيه فائدة وخطر في الوقت نفسه . فان وحدة الأرض كلما صغرت ازداد اتقان المعلومات التي تستحصل بشأنها ، وازدادت المساعدة التي يمكن ان تقدم لها . اما الخطر فينتوي في ان التقسيم الى وحدات صغيرة يؤدي الى الاسراع في عملية تحطيم الوضع العشائري التي كانت سائرة من قبل ، وأضعاف سلطة الشيوخ . وقد ارتوي ان هذا الخطر يمكن تلافيه بالتأكيد على مسؤولية الشيوخ عن سراكيلهم ، مهما أمكن ، وبتقديم حصة مالية لهم من الضرائب التي يستوفونها من مناطقهم . وابتاع هذه الخطة كانت تخصم نسبة من حصة الحكومة لتكون منها حصة الشيخ .

(١) لا شك ان سلطات الاحتلال البريطانية كان يهمها ابقاء الاقطاع بأجل مظاهره ليسهل لها حكم البلاد واستغلال خيراتها عن طريق الشيوخ ، وهذا ما يتجلى في هذه الحملة .

وكانت أحسن الأراضي ادارةً في العراق أراضي السنية ، او أراضي السلطان . ولذلك ارتوي إقرار الطريقة التي كانت تدار بموجبها أراضي السنية مؤقتاً ، وتطبيقها في ادارة أراضي الولاية كلها . وصار يعين حاكم سياسي في كل منطقة تخضع للاحتلال ، ثم قسمت المناطق الثانوية على غرار المديريات وسائر التقسيمات المعروفة حيثما وجدت ، وعين مأمورون دائمون ، وموظفون دائمون لادارة الجداول والاهراء ولنقل الرسائل . وكانت مساحة المأمورية تتوقف على كثافة الزرع والمحاصيل . فقد كانت الحلة فيها ثمان منها ، وكانت في العزيزية لمنطقة طويلة مساوية لمأموريتان في بادىء الأمر . وعين ما فوق المأمور في كل منطقة مدير مال يعمل مساعداً في شؤون الواردات ، ويجمع الحسابات فيدققها ، ويزود الحاكم السياسي بالمعلومات اللازمة عن الأحوال المحلية المختصة بشؤون الضرائب على وجه العموم .

ويمكن تلخيص الحالة الزراعية التي جوبه بها الحكام السياسيون ومأمورهم المعينون حديثاً كالآتي :

كانت الزراعة قد أتلقت جميعها على دجلة من سامرا الى ما يقرب من بغداد . فقد جرى القتال بالقرب من بلد واصطبلات في وقت نضج الحاصل ، وأتلف الأتراك ما لم يكونوا قد أكلوه منه . ثم شح المطر ولم ترتفع مياه الفيضان في الجهات القريبة من بغداد . فكان الموسم ثالث موسم زراعي رديء بالتعاقب ، وقلت بذور الخضروات والحبوب ، والعلف الأهم منها ، فوصلت حدها الأدنى . وقد أصبحت بهذا مشكلة إعلاف الحيوانات الزراعية أخطر مشكلة خلال الصيف كله . ولم يكن ثمة أي نوع من الزرع ما بين بغداد والكوت ، فيما عدا بعض البقع التي كانت تسقيها المضخات ، وبقعة في الجزيرة حيث كانت الأرض ما تزال رطبة منذ وقوع فيضان ١٩١٥ . ويطلق على الزراعة في الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان مثل هذه « جبس » . وكان الأتراك قد تقصدوا إزاحة القبائل عن ضفاف النهر ، ومنعوا الزراعة . وأدت الحركات العسكرية في ديالى ، منطقة بعقوبة ، الى إتلاف العديد من أيكرات

الحاصلات الخضراء ، وحينما وقعت صدور الجداول والقنوات في أيدينا خلال شهر أيلول فتحت الطرق ومدت سلك الحديد سريعاً بحيث تحتم سد عدد كبير من مجاري المياه . وكان الروس والأتراك في خائفين قد التهموا جميع ما كان موجوداً من الطعام بحيث ان المجاعة كانت قد انشبت أظفارها فيها عند احتلال الانكليز لها . وفي جهات الفرات ، كانت جميع جداول الفيضان قد تراكت ترسبات الغرين فيها بدرجة سيئة أدت الى جني حاصل قليل جداً . وفي منطقتي الحلة والمسيب بُذرت المناطق التي تسقيها القنوات بكثافة ، لكن غلة الحاصل الناضج كانت أقل من الغلة المعتادة بالنظر للامطار القليلة ، ولعدم السيطرة على السدة . وكانت كربلا والأراضي المحيطة بها قد غمرتها مياه الفيضان ، فسقط عدد كبير من البيوت ، وتكونت مستنقعات كبيرة في مناطق عامرة بالبساتين من قبل . وكان يبدو ان منطقة الدغارة جادت بغلة جيدة ، لكن الحبوب هناك كانت بأيدي اثنين من أبرع الرجال في العراق وأقواهم ، فبقيت ثروة المنطقة مخفية بأجمعها مدة طويلة من الزمن . وقد أدى كسر سدة الصقلاوية الى تقليل مياه الفرات بحيث خاب حاصل الشلب في منطقة الشامية مرتين ، بينما لم ينجح الحاصل الثالث الا جزئياً . وفي منطقة الديوانية ، كانت المضخات الموجودة على المجرى الرئيس عديمة الفائدة لعدم وجود الزيت لها ، وكانت الجداول قد تراكم فيها الغرين قبل عدة سنوات ، حينما قلت مياه نهر الحلة .

كانت هذه هي الاحوال المادية . اما الناحية العشائرية فقد سببت المشاكل للزراعة كذلك . إذ لم تجد السلطات التركية ، وهي تركز اهتمامها في شؤون الحرب ، الا قليلاً من الوقت لحسم الخصومات الناشئة ما بين العدوين الوراثيين : الملاك ابن المدينة ، والفلاح العشائري . فقد كانت الحلة في حالة ثورة علنية ، ولم يجرأ الملاكون على التقرب من ممتلكاتهم . اما الأراضي التي كانت مزروعة فقد زرعتها القبائل من دون الرجوع الى الملاكين في أمرها . وقد كان التباين المعترف به بين القانون التركي وتطبيق الاتراك له سبباً

إضافياً للتعقيد . فإن كثيراً من عيوب قانون الأراضي التركي كان يلطف تأثيرها بالتساهل في التطبيق ، لكن الموظفين البريطانيين كان ينتظر منهم ان يطبقوا قانوناً ، كثيراً ما كان يعتبر مهملاً في العراق على كل حال .

وكان أول شيء أساسي في هذا الشأن ان يُنشأ جهاز للواردات يساعد السلطات في المقر العام على تفهم مشاكل الفلاح العاجلة والفضلى عليها . فقد كانت الزراعة الرأس مالية بمقياس واسع شيئاً غير ممكن ، وكانت المشكلة ان يتم التأكد من متطلبات الملكية ذات العشرة أو الخمسة عشر أيكراً ، وان يضاعف وجود مثل هذه الملكية الى حدود الأراضي القابلة للزراعة كلها .

وكانت الخطوة التالية تنطوي على تقليل التحقيقات التركية التي تبدو فاحشة كثيرة . فألغيت جميع التخمينات السابقة التي وجدت واطئة جداً عند مقارنتها بالأسعار الدارجة ، عدا ضريبة التمور التي كانت تفرض على النخلة الواحدة ، وخفضت نسبة الحكومة في المناطق التي كانت فيها هذه النسبة عالية بصورة غير اعتيادية .

تنظيم الري وجداوله

ولما كان قسم كبير من الأراضي الزراعية في ولاية بغداد يسقى بجداول ثابتة للري ، فقد اتضحت لنا في الحال ضرورة السيطرة على شؤون الري وتنظيمها . وكان عدد من هذه الجداول ملكاً خاصاً لبعض الناس ، وكان من المفروض على الملاك في وقت السلم ان يحتفظ بكارخ تبلغ أجرته ليرة تركية في السنة ، ليقوم بتوزيع الماء . وكان من المحتم أيضاً ان تظهر الجداول والأقنية على الدوام ، ومن أجل هذا كان يستأجر مهندسون محليون . والى ان يتم تأسيس دائرة وهيئة موظفين للري اضطلع بهذه الواجبات موظفو الواردات .

وقد كان أهم مشروع ري يتطلب العناية والاهتمام على الإطلاق السدة الكبيرة المنشأة عند تفرع فرع الهندية من الفرات في جنوب المسبب . ويتوقف على تقسيم النهر هذا الى فرعين مصير منطقتي الحلة والشامية ، ولكن بالنظر

لانعدام السيطرة والتنظيم كان توزيع الماء بين الهندية والفرات عرضة لتحويلات وتقلبات مدمرة . ويعود وجود فرع الهندية الى عهد موغل في القدم . فيعتقد السر ويليام ويلكوكس^١ انه جيحون الوارد ذكره في سفر التكوين ، وانه نهر الهالاكوباس^٢ الذي كان معروفاً في عهد الاسكندر . ويقوم فرع الهندية دورياً بحرف عقيقه (قاعه) فيهدد بسحب جميع مياه الفرات اليه . وربما كان هذا ما يجري وقوعه حينما خطرت في خيلة الاسكندر فكرة جعل بابل عاصمة لامبراطوريته العالمية ، فعمد الى تأمين الماء لهذه المدينة بانشاء صدر جديد للبالاكوباس . وقد تكررت نفس الأحوال في بداية هذا القرن ، حينما صارت الهندية تأخذ شيئاً أكثر فأكثر من الماء وتفرق البلاد التي تفيض في أرجائها بينما يتناقص الماء في الفرات الى ان تصبح الحلة ، وهي بابل الحديثة ، مفتقرة الى الماء في الصيف . فعهدت الحكومة العثمانية بانشاء السدة الى شركة جاكسون^٣ بعد ان أبان السر ويليام ويلكوكس الضرورة العاجلة لمثل هذا العمل الحسيم ، فانهى العمل فيها قبيل نشوب الحرب . وقد زار المهندسون البريطانيون السدة في مايس ١٩١٧ فوجدوا انها قد أصيبت بأضرار طفيفة ، لكن الاتراك كانوا قد عجزوا عن انجاز الأعمال التكميلية التي تتوقف فائدة السدة عليها ، وهي انشاء جدولين في أعلاها يستمد كل واحد منهما الماء من أحد الجانبين . حتى ان واحداً منهما لم يكن قد بدى به مطلقاً ، بينما كان الآخر قد كمل جزئياً . فأوعزنا باكمال العمل في شهر مايس ، واضطلعت به العشائر بأشراف عمران الحاج سعدون شيخ بني حسن ، ودفعت المصاريف من الحاكم السياسي في الحلة . وحينما اتسعت أعمال مصلحة الري العسكرية ، تخلت دائرة الواردات عن سيطرتها على الري هنا وفي الاماكن الأخرى . وقد تدفق الماء في الجدولين الملتويين في الوقت المناسب ليسمح بزراعة القمح والشعير للموسم الشتوي ،

(١) في كتابه (من جنة عدن الى معبر الأردن) From the Garden of Eden to the

Crossing of the Jordan

الصفحة ١٤ .

Pallacopus (٢)

Messrs Jackson (٣)

وبذلك أصبحت البلاد الممتدة على جانبي الهندية في كانون الثاني ١٩١٨ مغطاة بالزراع اليانع بعد ان ظلت ارضاً قاحلة سنين عديدة . اما في ديبالى فان « سد العويجة » الذي تتوزع بواسطته المياه من النهر بقي الى أيلول خاضعاً لسيطرة المواقع التركية عليه ، غير ان الحاكم السياسي في بعقوبة نجح بعد عدة محاولات دبلوماسية فاشلة في العمل على إعادة بنائه على يد العمال العرب . وقد زار الضباط البريطانيون جدول الدغارة لأول مرة في أيلول فاستحدثت منطقة ري هنا في تشرين الثاني . ويقوم هذا لجدول المهم ، وهو يتفرع من الفرات ما بين الحلة والساوة ، بسقي المنطقة التي كانت وما تزال أخصب المناطق الزراعية فيما بين النهرين - وتقع مدينة نهر البابلية في حوضه . وقد ظل الأتراك لمدة سنين عديدة عاجزين عن مد رواق سيطرتهم على هذه المنطقة ، إذ كانت تنتشر على طول الجدول قلاع الشيوخ الطينية فبقيت الضغائن القبلية الى ما بعد أشهر عدة من استيلائنا على البلاد تهدد أمن البريطانيين وتقلقه . لكن القبائل عازمت من تلقاء نفسها على تهديم قلاعها في ١٩١٨ ، ونفذت خلال اسابيع قليلة تبرؤها الجدير بالاعتبار من عاداتها السابقة . ولم يكن يوجد في الشامية ، المنطقة المدهشة بقابليتها الانتاجية الواقعة في جنوب النجف ، أي موظف للري الى نهاية كانون الاول ، فكانت أعمال انشاء السداد وتطهير الأنهر يتولاها مأمور الواردات . وهنا أيضاً أبدت الأحوال العشائرية تحسناً ملحوظاً . فقد كان الأتراك يشجعون في منطقة فرعي الهندية (لأن فرع الهندية ينقسم ثانية تحت الكفل ويتصل فرعا بعد ذلك في أهوار الشناقية) استيطان القبائل الزراعية الصرفة ، الاكثر انقياداً لسيطرتهم من جمهرة قبائل الخزاعل وبني حسن نصف البداة . وكانت تنشأ قلاقل دائمة بين القادمين الجدد والمالكين القدماء ، علاوة على أن مجموعات قبائلية متوحشة مثل آل شبل في جنوب النجف على حافة البادية ، كانت تشغل مكاناً محظوظاً بين الهور والبادية المكشوفة بحيث ان الحكومة العثمانية كانت غير قادرة على اجبارهم على نوع من الخضوع . على ان توقع حصول الفائدة المتأتية عن المساعدة التي قدمت لتشجيع الزراعة قد أدى بالتدريج الى حلول

السلم وحصول الطاعة . لكن الشامية ظهرت فيها مشاكل للري لم يمكن حلها بصورة مقبولة حتى الآن ، فقلت استفادة هذه المنطقة عن الاستفادة التي حصلت في منطقة الهندية العليا أو الحلة ، ولذلك لم تكن قانعة بوضعها كما يجب . وبالإضافة الى العمل الذي تم في شق الجداول وتطهيرها استُغل وجود العدد اللازمة وأُجريت الترتيبات لبعض الريات احياناً . فان منخفض الصقلاوية في شمال الفلوجة يمتد من الفرات الى هور عقرقوف ، ثم إلى دجلة في جنوب بغداد . وكان صدر هذا الوادي ، على ما يقول السر ويليام ويلكوكس ، يسد في جميع العصور لثلاث تقوم مياه الفرات بحرف المجرى فتنسب كلها الى دجلة . ويبدو مما جاء في قصة زينوفون عن حملة العشرة آلاف أن ارتحششتا جعل جيش كورش يعلق بمياه الصقلاوية بكسر السدود بعد موقعة كوناكسا . وقد التجأ الأتراك للطريقة نفسها ليغرقوا بغداد ويعيقوا تقدمنا وراءهم ، فقاربوا النجاح بالنسبة لما يختص ببغداد من هذه الخطة . إذ ملأت مياه الفيضان هور عقرقوف وارتطمت بسدة قطار بغداد - سامرا ، ثم تهدد طريق الفلوجة ، ولذلك أوقف الفيضان بسدة ترابية ، كان يوجد في جهتها الأخرى طريق عسكري وسكة حديد ، وفيما وراؤهما من جديد كانت هناك مساحة قابلة للزراعة لا تحتاج الا الى الماء والفلاحين لانتاج المحاصيل فيها . فتم الاتصال بالسلطات المختصة وصدرت المصادقة في الأخير على قيام العرب بإنشاء منافذ ينتخب مواضعها مهندسو الطرق بالاتصال مع سلطات السكك ، بينما عُين مأمور عربي لتوزيع الأراضي على المزارعين ، وعُين آخر لمراقبة سدة القطار ، وعدم اصابتها بضرر أو تخريب .

ومن المحاصيل التي زرعت على هذه الشاكلة استُحصل خمس مئة وستة عشر طناً من العلف الأخضر وجهاز الى الجيش في نهاية تموز ، كما حصد حاصل تقدر قيمته كله بأربعين ألف باون . ثم نبت الحشائش في حواشي المياه

المنحسرة، ولما كان موقع المنخفض يعد من الأراضي لأميرية ، فقد خصص قسم منه لاستحصال العلف المجفف . وقد طلب حراس خيالة من العرب لهذا الغرض ، لكن الاقتراح طرأ عليه بعض التحوير فتعين حراس راجلون فقط . ومع هذا فقد هيء ألفان وثمان مائة طن من العلف المجفف وجيء بها إلى المخازن . أما كلفة الحراس فقد استحصل أكثرها من الغرامات التي فرضت على الحيوانات المتجاوزة لكن نقص الماء في الفرات ، المتأتي عن كسر سدة الصقلاوية قبل الاحتلال ، سرى أثره إلى الناصرية في الجنوب ، وأثر تأثيراً سيئاً على الزراعة بوجه عام .

مشروع الاستثمار الزراعي

وقد كان يعتقد قبل تعيين حاكم سياسي في الحلة ان نمو الحاصلات في جهات الفرات كان نمواً كثيفاً . غير انه اتضح في حزيران ١٩١٧ ، حينما أمكن الحصول على معلومات صحيحة لأول مرة ، ان الغلة هناك أيضاً كانت دون الحد المعتاد ، وان البلاد لا يمكن أن تعود إلى حالة الازدهار الا بصرف مبالغ لا يستهان بها وتنظيم العمل فيها بعناية . وأدت الحالة التي كانت سائدة في ذلك الشهر إلى اتخاذ قرار بأن مثل هذه المبالغ لا يمكن ان يبرر صرفها الا باعتبارها إجراءً عسكرياً ، ويجب الاضطلاع بالصرف إلى المدى الضروري لإنتاج الحبوب والعلف المطلوب للأغراض العسكرية ، علاوة على تجهيز الاقوات الاعتيادية للبلاد . وعلى هذا الأساس وضع ضابط الواردات الأول في تموز خطة المشروع الملمح إليه قبل هذا . وقد أطلق عليه رسمياً « مشروع الاستثمار الزراعي »^١ . وكان الغرض منه توسيع منهج ري الفرات على فرعيه وجعله يشمل تطهير جميع الجداول ، الحكومية والأهلية ، وتهية الوسائل لجعل الزراعة ممكنة في البلاد المسيطر عليها كلها . وكانت تشمل هذه الوسائل على السيطرة السياسية ، لتظل القبائل هادئة والفلاحون قادرين

على الانتاج ، وعلى الدعم المالي ، حتى يتيسر النقد والبذور لشراء المواشي والمحارث . وقد كان الوضع يتطلب ان تزرع ما يقرب أضعاف المساحة التي كانت قد جادت بالمحاصيل في السنة السابقة ، لكن المجاعة كانت تهدد البلاد وكانت اسعار الحبوب مرتفعة بحيث ان الذين كان عندهم شيء منها كانوا معرضين للاغراء ببيعها أو أكل ما يبقى عندهم منها . وللتأكد من ان المشروع سيكون مضمون النجاح كان من الضروري ان يكون بوسعنا تقديم البذور مقدماً الى الفلاحين في المساحات التي ستزرع علاوة على ما يزرع منها اعتيادياً .

وقد اقترن المشروع بالمصادقة الادارية في الرابع عشر من آب ، وبالمصادقة النهائية في التاسع عشر من أيلول . وعين ضابط الواردات الأول لادارته باشراف الحاكم الملكي العام ، وتمت الترتيبات اللازمة بأن يستخدم لتمشيته جهاز الواردات القائم ، ويستكمل في البداية بحاكين سياسيين والعدد الضروري من الموظفين العرب .

ومع ان المشروع كان يقتصر أولاً على منطقة معينة في الفرات ، فان التقدم الآخر الذي حققته القوات البريطانية في أيلول جعل من الممكن إلحاق مناطق أخرى به على دجلة وديالى . ثم استحصلت المصادقة فيما بعد ، في ٢٨ تشرين الثاني ، على استثمار جميع المساحات القابلة للزراعة التي لم تترك فارغة لأسباب عسكرية في الولايتين . وقد أوعز في الوقت نفسه إلى المسؤول الاداري للمشروع بأن يرتبط بنائب مدير الميرة بدلاً من الحاكم الملكي العام ، وأصبح بمثابة ضابط ارتباط ما بين السلطات المدنية والعسكرية معاً .

وحينما كان المشروع قد صودق عليه عقد اجتماع عام للملاكي ببغداد والحلة وعرضت عليهم منويات الحكومة في هذا الشأن . ثم دعوا الى التعاون ووعدوا بتقديم المساعدة الممكنة ، لكنهم أنذروا في الوقت نفسه بأن الملاك الذي يهمل أراضيه سوف يفقد حقه في « حصّة الملاك » عند تقسيم الحاصل المقبل . وقام الموظفون المسؤولون بعد ذلك بجولة في المناطق العشائرية دعي فيها جميع السراكيل في كل منطقة ، وأفهموا بفحوى المشروع . وقد بلغوا بالتحسينات المنوى

أدخالها على مجموعة الجداول والقنوات ، وبضرورة الاحتفاظ بالبذور للموسم التالي . وكان رئيس الحكام السياسيين قد أمر بمنح بعض الامتيازات للشيوخ الكبار لقاء تعاونهم مع السلطة ، فتأمنت بنتيجة ذلك البذور لجميع المزارعات التي تسقيها جداول الحلة تقريباً من دون مساعدة أخرى من الحكومة .

وتقضي العادة في البلاد ان يكون الفلاح مسؤولاً عن تقديم البذور في الدرجة الأولى . واذا كان غير قادر ان يؤمن الحصول عليها من حاصلات زرعه ، يترتب عليه استقراضها من الغير . وحينما كانت البذور تسلف لمزارعي مقاطعات السلطان عبد الحميد مترامية الأطراف ، كان المزارع يسترد عند جني الحاصل ما قدمه وزناً بوزن فقط . وحينما كانت تستقرض البذور من مصادر أهلية كان الدائن يحصل على أحسن الشروط الممكنة ، وكانت هذه تنطوي أحياناً على نسبة غير يسيرة من حصة الفلاح في الحاصل قد تصل الى خمسة أضعاف ثمن البذور التي أخذها في وقت الزرع . ولذلك كان من الضروري على الفلاح ان يزرع أكثر ما يمكن من بذوره الخاصة . واذا كان المشروع سيحقق جميع ما كان يستهدفه من الأغراض أم لا ، فان الحاصل الجديد سيكون أغزر من حاصلات السنين السابقة على كل حال ، وكان لا بد للأسعار التي كانت ترتفع ارتفاعات لم يعرف لها مثيل من قبل من ان تنخفض . ولذلك بادر كل فلاح صار بوسعه ان يحصل على البذور بشروط سهلة من الحكومة الى بيع ما عنده منها وزرع البذور المستلفة .

وقد كانت هذه السنة أول سنة نحكم فيها البلاد ، ولذلك كان السكان الزراعيون يحرصون على اعتبارهم محقين في امتلاك اكبر مساحة ممكنة من الأرض . ومن الممكن ان يطلب الى حاملي سندات الطابو ، بالنسبة لشروط التملك التي تعاقدوا عليها ، ان يتنازلوا عن جميع الأراضي التي كانوا قد أهملوا استثمارها لمدة ثلاث سنوات . وقد أُنذر الملاك بوجه عام بأنهم اذا لم يستغلوا مقاطعاتهم بالزرع فان الحكومة ستأخذ ادارتها منهم من دون ان يضمن لهم الوقت الذي ستعود فيه اليهم ، أو الشروط التي ستعاد اليهم بموجبها . اما

إذا ادعوا بأنهم لا يملكون البذور فإن هذه البذور ستقدم لهم بالأسعار الدارجة في السوق ، على أن تستوفي منهم بأسعار الحصاد . وقد نجحت هذه الاجراءات المقرونة بأمل الربح في المستقبل من جراء الاسعار العالية ، في اقناع الفلاحين بزرع جميع البذور المتيسرة عندهم ، حتى نشأت في مناطق عديدة مثل سامرا وبغداد والهندية وبعض أنحاء منطقة بعقوبة مشكلة إعاشة الفلاحين وحيواناتهم الى وقت الحصاد .

وحينما اتضح ان جميع بذورهم قد زرعت في الأرض طرأت تعديلات على شروطنا بادخال شرطين ينص أولهما على تخفيض سعر البذور الى ما تحت مستوى الأسعار في السوق ، وينص الثاني على أن يؤخذ في وقت الحصاد بأي حال من الاحوال أقل من نسبة واحد بواحد وليس أكثر من اثنين بواحد .

على أن تهيئة الموظفين لشؤون الري ، وتقديم السلف بالبذور والمال المطلوب للمزارعين ، لم يكونا كافيين لتأمين الزرع وحصوله . فان أعمال الري تحتاج الى تعاون ، والجهود المشتركة لا يمكن ان تحصل حينما تتم السيطرة على الامور . حيث أن ثلاثة أعوام من الحرب وتقلباتها قد جعلت المزارعين العشائريين أكثر استقلالاً من أي وقت مضى . فقد كانت هناك قبائل ، مثل الجبور ، في منطقة فرع الحلة الى الجنوب ، منقسمة الى فروع وأقسام لم يكن سراكيلها يميلون الى الاعتراف بأي شيخ من الشيوخ . وكانت هناك قبائل أخرى ، مثل البوسلطان في الضفة المقابلة ، تعترف بشيخها لكنها كانت غير مطيعة بصورة واضحة . ولذلك كانت السياسة تقضي بأن تستعاد سلطة السراكيل والشيوخ على قبائلهم ، وكان « مشروع الاستثمار » الزراعي على أحسن ما يكون من النجاح في المناطق التي تعززت فيها هذه السلطة .

وكانت منازعات القبائل فيما بينها ، وحسد إحداها للآخرى ، تعد خطراً آخر في هذا الشأن . فقد كان الجحيش والمعامرة ، الذين تمتد منطقتهم على طول القسم الشمالي من الحلة وجنوبي المسيب ، على اختلاف فيما بينهم . ولولا العمل على حسم الخلافات الموجودة بين هاتين العشيرتين بالطرق السياسية لارتبكت

الزراعة وتوقفت أعمالها في منطقة كبيرة من البلاد .

وكان هناك نزاع قبلي آخر أضاع علينا الاستفادة من أراضي أبي غريب ، في غرب بغداد ، بسبب الحرب في ١٩١٧ . فقد كانت زويع مبالغة الى الاتراك حتى أخضعهم سقوط الرمادي الى سيطرتنا التامة ، وبعد ان قدموا خضوعهم دفعوا الضرائب المتحققة عليهم ، وسار العمل بصورة مرضية في المشروع ، لكن ذلك جاء متأخراً بحيث لم تكن له الا فائدة قليلة بالنسبة للحاصل .

الزراعة للأغراض العسكرية

ومن الصعب تقدير نسبة ما جاء به حاصل ١٩١٨ ، الذي يرجع الفضل فيه مباشرة الى « مشروع الاستثمار الزراعي » المقرون بأعمال دائرة الري ، لكن الجيش استطاع الحصول على خمسين الى ستين ألف طن من الحبوب ، وجّهز السكان المدنيون منها كذلك . وكان استيراد هذا المقدار من الحبوب من الهند يكلف ما يقرب من مليون باون . ولكن استمرار النقص في الأقوات وأسعارها العالية كان يؤدي لو بقي ، بالإضافة الى الناحية المالية ، الى حدوث قلاقل سياسية ، بينما كان الاستثمار الزراعي اقوى سلاح في أيدينا لتهدئة القبائل . ولم تحصّن بلاد ما بين النهرين ضد المخافة فقط ، وانما استطعنا باخراج الحبوب المدخرة لسنة مجدبة أخرى أن نطعم البدو فنجعلهم يحافظون على السكينة ونخف لنجدة الأكراد في جانبي الحدود . يضاف الى هذا ، اننا كنا نعفي الهند باطراد من مهمة تجهيز بين النهرين بالأطعمة ونخفف أعباء النقل بسبب ذلك .

وتسقى بساتين الفاكهة والخضروات حول المدينة على الدوام تقريباً بالواسطة ، وليس بالسيح . إذ كان عدد من المضخات النفطية قد أدخل قبل الحرب الى البلاد فأقدم على شرائها المزارعون بشوق ولهفة . ولذلك اتخذت الترتيبات اللازمة ليقوم الميكانيكيون الذين انتدبتهم دائرة الواردات بفحصها ، ثم سجلها الحكام السياسيون المحليون وأجريت التوصيلات اللازمة فيها في الورش

العسكرية . على ان تهيئة النفط والزيت كانت من الأمور الصعبة ، وفي ١٩١٨ وضعت خطة يقوم بموجبها وكلاء شركة النفط الانكليزية الايرانية والحكام السياسيون بتأمين حد أدنى من النفط المطلوب لمضخات الري بأسعار معقولة ، عن طريق المساعدة التي تبديها السلطات العسكرية ولا سيما دائرة النقل النهري . وقد نظم هذا المشروع تنظيمًا سار العمل فيه بصورة مرضية بحيث صار يشمل بعد شهرين ولاية البصرة كذلك .

وقبل تأسيس دائرة الزراعة العسكرية ، كفرع من فروع اللجنة الزراعية ، كانت هناك منظمة زراعية تتولى الإشراف على جميع المزارع والبساتين وسائر المشاريع الزراعية الحكومية التي كانت تستغل لفائدة القوات العسكرية ، أو من قبلها . فوضع نائب المدير ، مع موظفيه ، تحت تصرف المستر غاربت مدير مشروع الاستثمار الزراعي ، وبتقديم المشورة للمزارعين العرب ومساعدة الوحدات العسكرية في زرع الخضروات شجعوا انتاج الخضروات الضرورية لصحة القوات المسلحة . فنشأت مزارع لمنتجات الألبان ومحاصيل العلف خلال ١٩١٨ تحت الإشراف العسكري ، ثم أسست ادارة مشروع الانتاج الزراعي مزرعة تجريبية للقطن تحت إشراف السلطات العسكرية وسيطرتها .

الطابو وتسجيل الاملاك

هذا وقد ذكر في فصل سابق شيء عن قيام مدحت باشا بتأسيس دائرة الطابو لتسجيل حقوق الناس في التملك . وفي أيام الادارة البريطانية وضع الطابو تحت إشراف مديرية الواردات ، غير ان جهاز الطابو التركي كان على درجة من الارتباك ، والنقص بحيث أغلقت بعد احتلال البصرة دائرة الطابو لمدة سبعة أشهر حتى يمكن تنظيم سجلاتها والقضاء على الفوضى التي كانت مستفحلة فيها . وحينما أعيد فتحها صارت تتعاطى

فقط بشؤون البساتين وممتلكات المدن ، وقد منعت من تسجيل المعاملات المختصة بالأراضي الزراعية لأن مشاكل ملكيتها كان لها أساس بآسس النظام الزراعي التركي ، ولا يمكن البت في شيء يعود لها حتى تكون الادعاءات المقدمة من الملاكين والمتصرفين بالأراضي من أبناء العشائر قد بُت فيها . ولم يبذل أي جهد لإجبار الناس على التسجيل ، وهو الاجراء الذي لم تقدم الحكومة العثمانية على اتخاذه بأي حال من الأحوال . وفي نهاية ١٩١٩ فتحت دوائر للطابو في بلدان خمس أخرى تعود لولاية البصرة ، وفي جميع مناطق ولاية بغداد ، بينما استمرت دائرة الطابو التركية في الموصل على عملها من دون انقطاع الى ما بعد الاحتلال . وتنتظم دائرة الطابو برئاسة مدير يكون مسؤولاً تجاه مدير الواردات ، ويساعده مشاور عربي ومفتشان عربيان أيضاً . ويكون مقر الدائرة الرئيسة في بغداد ، بينما توجد دوائر فرعية في البصرة والموصل والسليمانية ، وسيعين لكل منها قريباً ضابط طابو خاص بها . ولكل منطقة عدد من المأمورين والكتبة موزعين على بلدان المنطقة تبعاً للحاجة ، وهؤلاء يشتغلون برئاسة الحكام السياسيين وفقاً للأصول التي تضعها دائرة الطابو المركزية.

وقد قطعت عملية تسجيل الأملاك شوطاً غير يسير في مضمار التقدم . فقد تم في جميع البلدان الكبيرة تنظيم القوائم المطلوبة للممتلكات الآن . ويعزى عدم الانتهاء من العمل في هذا الشأن الى تغيب الكثيرين من الملاكين ، والى فقدان عدد كبير من الوثائق والمستندات خلال الحرب . على ان بعض الملاكين الأذكياء قد استغلوا الفرصة وبادروا الى التثبت من سنداتهم التركية او تصحيحها على خرائط التسجيل الجديدة . ولا يعطى في الوقت الحاضر اي سند جديد للطابو ما لم يسجل الملك ويتم التثبت منه في الخرائط المختصة . فقد وجد في بعض الحالات التي قدمت فيها العرائض لاستحصال صور القيد من السجلات التركية ان الموقع المعين لم يكن له وجود ، أو ان جزءاً من الملك فقط كان قد تم تسجيله . كما ان القرار الذي حتم على دائرة الاوقاف القيام بتسجيل جميع ممتلكاتها في الطابو سيساعد على حسم الكثير من المشاكل المتعبة . فقد كان يترتب

على دائرة الأوقاف بموجب الأنظمة التركية ان تسجل أملاكها ، لكنها لم تفعل ذلك مطلقاً ، ولهذا لم تكن هناك طريقة يمكن ان يستبان منها ما يجب ان يتبع في تنفيذ الأنظمة التركية المتناقضة بشأن دفع الرسوم . فتقرر في الأخير اعتبار دائرة الأوقاف مكلفة بالدفع ، ولكن بالنظر لأن تقاعسها عن التسجيل في أيام الترك كان سببه يعود في الغالب الى الخطأ الذي ارتكبه سلطات الطابو نفسها يومذاك فان الرسوم على التسجيل الأصلي يجب ان تدفع بأقل من المعتاد ، واتخذت الترتيبات لدفعها بالاقساط .

ويعزى التقدم السريع في رسم خرائط المدن العراقية الى المساعدة التي قدمتها القوة الجوية في الغالب . فان التصاوير الجوية التي دبرت أخذها دائرة المساحة جعلت من الممكن تنظيم خرائط للمدن والبلدان كان سيتأخر تنظيمها عدة سنين . ومع ان سند الطابو لا يمنح حقاً مطلقاً في الملكية ، فان كون المحكمة لم تبطل أي سند أصدرته دائرة الطابو في بغداد منذ بدء الاحتلال حتى الآن ، وان نقصاً في عدد القضايا المحالة الى المحاكم بخصوص الأملاك الحرة الثابتة قد لوحظ وقوعه منذ أن بدأت دائرة الطابو عملها - فان هذين الشيئين يمكن اتحادهما دليلاً منصفاً على ان سند الطابو يمنح حامله حقاً شرعياً من حيث المبدأ . ولا غرو فان تسجيل الأملاك التام يعتبر مثلاً أعلى يمكن الوصول اليه في يومٍ من الأيام ، لكن المشكلة كلما توغلنا في تدقيقها تباعد عنها الهدف المنشود . فاذا حصل كل مالك على سند للتملك تضمنه الحكومة يكون جهاز تسجيل الأراضي في العراق شيئاً كاملاً ، لكن قانون التركة الشرعي وحده يجعل مثل هذا شيئاً غير ممكن تقريباً . فقد أدى هذا في السابق إلى تجزئة الأملاك الى أجزاء صغيرة جداً بحيث وجدت قضية مسجلة من القضايا صارت فيها نخلة واحدة ، ومساحة الأرض الكافية لأدامتها فقط ، يشارك في تملكها واحد وعشرون شخصاً . وهناك حالات كثيرة يكون فيها مخرج الكسر الذي يدل على عدد الحصص في الأرض رقماً يتألف من عدة ملايين ، وحتى هذا المخرج لا يعد رقماً ثابتاً . فان كل وفاة تحصل في الأسرة الملاك لا بد من ان يتطلب اعساده النظر في

احتساب الحصص العائدة لأفرادها . ولا شك ان هذا اعتبار واحد من
الاعتبارات - ولكنه اعتبار له وزنه - التي تجعل فرض عقوبة قانونية
على عدم تسجيل الاملاك كلها شيئاً بعيداً عن الحكمة والتبصر . على
ان الثقة التي ولدتها دائرة الطابو المعاد تشكيلها في النفوس قد سبق
وأحدثت تأثيرها المطلوب . ومن الممكن ان يكون لتخفيض الرسوم مزيداً
من التأثير .

وحتى يكون من الممكن القيام باستقصاء عام للحقوق الزراعية كان من غير
المستحسن القيام بتسجيل انتقال الأراضي الزراعية من شخص إلى آخر رسمياً ،
لثلا يعتبر هذا التسجيل مؤيداً لحقوق يمكن ان يثبت في المستقبل عدم وجود
أساس لها من الصحة . فان المشكلة المألوفة في جميع المناطق العشائية واحدة
تقريباً ، وهي مشكلة الحقوق المتناقضة للملاكي الطابو ، اي حقوق سكان المدن
الذين يحملون سندات تملك عثمانية في العادة ، منازع عليها أو غير منازع ،
وحقوق المتصرفين بالأرض او الشاغلين لها من أفراد العشائر .

وكان هناك أيضاً اعتبار مهم آخر . فقد كان يخشى على مالكي الارض
العرب ان تغريهم أحوال الحرب ، المؤدية الى العوز الموقت أو الارتفاع
المفاجيء في قيمة الملك الصريف ، فيبيعون مقاطعاتهم الى أناس محليين من غير
العرب أو الى الأجانب ، وحينما يحين الوقت لاستئناف الحكومة المدنية عملها
يمكن ان يجابه الادارة بنتيجة ذلك تبدل واسع النطاق ، ليس من الضروري ان
يكون مفيداً ، في نوعية الطبقة المالكة . ولذلك صدر بيان في ١٩١٧ ينص على
ما يلي :

« نظراً لأن عدداً كبيراً من موظفي الطابو قد غادر البلاد ، وبناءً على تلف
السجلات والقيود ، ولأسباب ادارية أخرى ، فان تحويل ملكية الممتلكات غير
المنقولة الكائنة في ضمن المناطق المحتلة من بلاد ما بين النهرين الى أشخاص من
غير العرب المقيمين في الأراضي المحتلة سوف لا يعترف به ما لم تقترن المعاملة
مقدماً بمصادقة تحريرية من القائد العام ، أو اي شخص آخر نخول من قبله » .

تنظيم الواردات في ولاية بغداد

وفيما عدا الاجراءات التي أملتها ضرورة الأحوال الخاصة ، المشار إليها في بحث « مشروع الاستثمار الزراعي » ، فإن تنظيم عمل الواردات في ولاية بغداد قد سار على نفس الأسس التي وضعت في البصرة . على ان مساحة الاراضي المزروعة هنا تعد مساحة أكبر كما ان المشاكل التي طرحت نفسها للحل كانت أكثر . فللتركي براعة خاصة في انعدام التناقص ، وقد طبق مواهبه الخاصة بنجاح ملحوظ في كل فرع من فروع الجهاز الذي يسيّر الواردات . فلم تكن طرق التخمين كثيرة الاختلاف والتنوع فقط ، وانما كانت الرسوم المتحققة تختلف اختلافاً مربكاً ، ولا يمكن لاية دراسة أن تكتشف فيها قاعدة من القواعد التي يمكن السير عليها في هذه المتاهة . غير اننا يمكن ان نفترض ان التحقيقات التي تطالب بها الحكومة العثمانية كانت تزيد على اي رقم يمكن ان يعين تعييناً حقيقياً . إذ يقوم بأعباء الزراعة في ولاية بغداد فلاح هو في الحقيقة خادماً للسركال ، او الملتزم الثانوي ، وسواء أكانت الحكومة ، أو أي شخص من الأهالي ، هي المالك أم لا فان وحدة العمل الزراعي في الأعم الأغلب تقريباً هو السركال . ففي المناطق المستقرة حيث يكون الملاك قوياً وحقوقه مضمونة في المحاكم القضائية كانت الحكومة تطالب الملاك عادةً بدفع الضريبة ، لكن الملاك اذا تعاقد على ان يقوم الفلاح بدفع الضريبة نفسه كانت ضرائب الحكومة تجبي من الفلاح رأساً من دون رجوع الى المالك . اما اذا نكل السركال أو قصر في شيء ، فقد كانت الاجراءات الاعتيادية تقتضي ان تبعث قوة من الجند لتهيش معه كـ « ضيف » حتى يكون قد دفع جميع ما بذمته من ضرائب كاملة غير منقوصة . ولم يكن هذا الاجراء ممكناً الا في الأماكن التي تكون فيها الحكومة التركية قوية بحيث تستطيع أخذ حقوقها من الناس . أما في الأماكن الأخرى فقد كان يحصل نوع من الاتفاق مع القبائل ، التي توافق على دفع قدر معين من الضريبة يجعل عملية سوق الجيوش عليها لاستحصاال الفرق شيئاً غير مريح .

وكانت قابلية الملاك على استحصال بدل الالتزام تتوقف لدرجة ما على علاقته بالسلطات التنفيذية المحلية ، وعلى قابليته في الاتفاق مع الشيخ من جهة أخرى . فإذا كانت السلطة التنفيذية راغبة في المساعدة فإنها تنتدب الجندرية لهذا العمل وتعامل المديونين للملاك كما لو كانوا مديونين للحكومة نفسها . وكان ما يحدث في كثير من الأحيان ان يتم الاتفاق بين الشيخ والملاك على ترتيب ما ، لكن الشيخ كثيراً ما ينجح في ان يغتصب من الملاك نصف ما يتقاضاه من الفلاح لهذا الغرض .

وكانت الادارة البريطانية ، وهي تنتظر إجراء تسوية زراعية عامة في البلاد ، تشجع الملاكين والفلاحين على التوصل الى اتفاق ما حول حصة الملاك ، وبذلك كان عدد الشكاوى والظلمات التي تصل الى الحكام السياسيين قليلاً . ومع هذا فقد دفع الفلاح ، على ما يذكر الضابط المكلف بمنطقة الحلة ، الى الحكومة ومالك الطابو وصاحب العقير خلال السنة التي أعقبت الاحتلال أكثر مما دفع في أي وقت مضى ، حتى مع ما هو معروف بأن الحكم العثماني هناك كان شيئاً أكثر من الخيال . فان أسعار السوق الحسنة كانت تشجعه على التزام السكنينة والهدوء ، غير انه كان لا بد لنا باستقرار الأحوال في البلاد من ان نجابه طلبات الملاكين في الحصول على حقهم الكامل ، فترتب علينا ان نضع سياسة ثابتة في هذا الشأن .

وهناك أمثلة كثيرة تشير الى ان بعض الملاكين البغداديين السذج يحملون سندات طابو لم يتجرأوا مطلقاً على زيارة مقاطعاتهم ، أو لم يتسلموا الا مقداراً ضئيلاً من بدل الالتزام من فلاحهم العشائريين ، الذين اغتصبوا حقهم في الملكية . ومع هذا فحينما عملت الادارة البريطانية على جعل الطرق آمنة يمكن المرور منها بسلام استطاع هذا البعض من البغداديين الذهاب بأنفسهم الى أراضيهم وطالبوا باستحقاقهم الذي لم تكن القبائل تعترف به من قبل على الاطلاق . وكانت المعضلة الخطيرة الأخرى حق ملاكي الطابو في طرد المستأجرين متى شاءوا ، في الوقت الذي كان هؤلاء المستأجرين هم المالكين العشائريين للأرض

في الأصل . فكان استعمال هذا الحق ينطوي على خطر يؤدي أولاً الى وقوع قلاقل عشائرية تؤول الى اضطراب جبل الأمن في البلاد ، كما يؤدي من جهة أخرى الى انحلال النظام العشائري وتفككه من دون أن يحل شيء في محله .

تسوية حقوق الأرض

ولقد أثر التأخر الطويل في عقد الصلح مع تركية ، الذي حال دون اعلان تصريح جازم عن مستقبل العراق ، تأثيراً سيئاً على الادارة في كل ناحية من النواحي . فقد كانت الاجراءات الموقفة التي احتملها الناس خلال السنة الأولى ، معرضة لأن تصبح مزعجة في السنة الثانية وغير محتملة في الثالثة . ولم تكن هناك أمور فيها حاجة ملحة الى إجراء تسوية معينة ثابتة مثل الأمور التي لها علاقة بالأرض . والحقيقة انه كان من المستحيل بالكلية تأجيل ذلك .

فبعد مرور أكثر من سنتين على احتلال بغداد توصل الكولونيل هاوِل ناظر الواردات الى ان قضية ذات أهمية حيوية مثل قضية حقوق التملك في الأرض لا يمكن ان تبقى معلقة الى أمد آخر . فصدرت في مايس ١٩١٩ نشرة خاصة تلخص فيها السياسة التي يجب ان تتبعها الادارة البريطانية في قضايا الأراضي ، وتفصل الأسس التي يجب ان تسير بموجبها عملية اجراء نوع من المسح الزراعي في البلاد . وقد اقتبس الكولونيل هاوِل في نشرته الكلمات المهمة التي صرح بها في ١٨٣٩ السرجيمس طومسن ، حاكم المقاطعات الشمالية الغربية في (الهند) بعد ذلك ، ثم ناشد الحكام السياسيين المشاركين في عملية المسح بأن يتذكروا « أن الغرض من الاستقصاء لا ينطوي على خلق حقوق جديدة لبعض الناس وانما ينطوي على تعيين الحقوق الموجودة وتحديد ها . » وكان العمل ، في رأي الكولونيل هاوِل ، شيئاً حتمياً بالنسبة لمناطق بغداد والبصرة والحلة والموصل ، حيث يمتلك الأرض في الغالب ملاكون يحملون سندات طابو وحيث تكون دوائر الطابو ، التي تسجل حقوق الناس عندها ، فعالة أكثر من غيرها . « فاذا ما نجحنا » على حد قوله « في جعل الطابو سجلاً

لائقاً لحقوق التملك هنا سوف يكون بوسعنا ان نجعله كذلك في الأماكن الأخرى .
واذا ثبتت استحالة ذلك هنا فسيكون على جانب أكبر من الاستحالة في الجهات
الأخرى . فان سجل الحقوق في الهند الذي تمسكه دائرة الواردات لا يعتبر
سجلاً لحقوق التملك الحقيقي بأي حال من الأحوال . وانما هو سجل للتملك
فقط ، ولا يعني التسجيل فيه أكثر من افتراض التملك في صالح شخص من
الأشخاص يذكر اسمه ، ويكون هذا عرضة في اي وقت للطعن والرد في
المحاكم العدلية . والحقيقة ان هذا السجل يكون أكثر فائدة لجاني الضرائب من
غيره . وبالنسبة لما استطعت التأكد منه ، ان الصعوبة في الاحتفاظ بسجل
مضبوط في بلاد تكون فيها الملكيات صغيرة جداً والحيازة معقدة هي التي
منعت الحكومة الهندية من محاولة الاضطلاع بالمهمة الاكبر ، وهي مهمة
الاحتفاظ بسجل لحقوق التملك . اما في هذه البلاد فان الاتراك على ما يبدو
كانوا يعتقدون بأن هذا الشيء يمكن ان يتم ، ففتحوا دائرة الطابو للاضطلاع
بالمهمة . ولما كان الأمر كذلك ، مع انه ليس هناك من ينكر ان دائرة الطابو
كانت شيئاً فاشلاً ، فلا يسعنا على ما اعتقد الا أن نتسلم الجهاز التركي بكامله
ونعمل على تحسينه بحيث يمكن ان ننجح حيثما فشلوا هم وحيث لم نتجراً
الحكومة الهندية على المحاولة الجديدة . فاذا استطعنا ان ننجح ، فان تحررنا من
كابوس المرافعات غير المتناهية ، التي تعد نقمة على الحياة الريفية في الهند ،
سيكون خير مكافأة لنا . »

وقد أيتد الكولونيل ويلسن ، وكيل الحاكم الملكي العام ، وجهة نظر
الكولونيل هاوِل هذه ، وفي خلال شتاء ١٩١٩ - ٢٠ بدأ العمل بتعيين ضابط
تسوية وموظفين لاثنتين من المناطق الأربع التي كانت تستدعي الأمور فيها
اتخاذ قرارات عاجلة . غير ان اتمام التسوية الزراعية لا بد من ان يكون امراً
يستغرق عدة أعوام ، ومن الضروري ايجاد حلول مؤقتة في كثير من المناطق .
وقد تكون أصعب المناطق في هذا الشأن منطقة المنتفك (الناصرية) ، التي اتينا
من قبل على وصف ادعاءات الملاكين المتضاربة فيها ، وهم من أسرة السعدون

غالباً ، وادعاءات العشائر التي مر وصفنا لها قبل هذا . ولذلك جُربت في ١٩١٩ ترتيبات موقّعة تنص على انه اذا عجز الفرقاء عن الاتفاق على شيء فان على الحكومة ان تستحصل ثلاثين بالمئة من الحاصل وتسلمه الى المالك اذا كان قد تم الاعتراف بكونه مالكا من قبل ، وان تستحصل خمسين بالمئة من الحاصل فتسلمه للمالك الذي تم التأكد من حقه في الملكية . وفي مثل هذه الحالات لا يحق للمالك ان يتدخل في ادارة المقاطعة . على ان الحالات التي يكون فيها الشخص المسمى مالكا قد اتفق على شيء مع القبائل فان الاتفاق الحاصل بين الطرفين ، سواء أكان معاون الحاكم السياسي قد صادق عليها أم لم يصادق ، يجب ان يكون مفهوماً بأنه حصل بموافقة منه (أي من الملاك) ويجب ان ينفذ ما لم يكن الغبن واضحاً جداً اما بسبب نفوذ في غير محله بذل عند إجراء الاتفاق أو بسبب حصول كارثة فيما بعد . ويجب عدم السماح بنقض الاتفاق الا في حالات نادرة جداً ، ولا سيما عندما يكون هذا الاتفاق قد اقترن بمصادقة معاون الحاكم السياسي عليه .

وقد أعلن هذا القرار للملا ناظر الواردات في اجتماع عام ، وجرى التأكيد فيه على انه كان يقصد به ان يكون اجراءاً موقّعاً يطبق على سنة ١٩١٩ الصيفية والشتوية فقط . فتقبلته العشائر ، ومعظم السعدونين الصغار ، بقناعة ورضا في ذلك الوقت . أما السعدونيون المتنفذون فقد قبلوه باعتباره تسوية معقولة موقّعة لكنهم عبروا عن أملهم في أن لا يتخذ شيئاً مستديماً .

وكانت النتيجة ان الحكومة جمعت من القبائل ، في الحالات التي تقع تحت العنوان الأول ، تحقّق قدره خمسون بالمئة ، وفي الحالات التي تقع تحت العنوان الثاني ١٥٪ . وقد دفعت القبائل هذا بكامله .

وبعد ان جمع معاونو الحكام السياسيين مبلغاً كبيراً من المال ليدفعوه الى آل السعدون وسائر الملاكين ، جوبهوا بمهمة التحقيق في الشكاوى المقدمة . ولا يمكن تصور المصاعب التي تعترض هذا العمل الا بالتجربة الفعلية . ففي حالات كثيرة كانت سندات التملك قد استحصلت بطريقة غير قانونية جداً من دون

ان تتبع فيها النصوص الواردة في قانون الطابو ، يضاف الى ذلك أن الحمل المكتوبة في السندات كانت غامضة للغاية . فقد سجلت مساحات تبلغ مقاديرها آلاف الايكرات بكونها دونمين او ثلاث دونمات في اتساعها للتهرب من دفع رسوم التسجيل المطلوبة للحكومة . وذكرت حدود الملكيات بأشد الجمل غموضاً وابهاماً - اي لا يمكن تفسيرها او وضعها في موضع التنفيذ محلياً . ويمكن ان يقال ان الخارطة التي يمكن ان ترسم على اساس المعلومات المبينة في سندات التملك ستكون عبارة عن حشد من الحدود المتقاطعة التي يستحيل على المرء أن يحل ألغازها . وهكذا كونت مساحات شاسعة من الأرض ، تمتد على مد البصر وتقيت الآلاف من افراد القبائل ، اقطاعات فروع السعدون المختلفة الذين لم يتجرأوا لعدة سنوات خلت على ان يصلوا اليها . وفي مثل هذه الظروف ترتب على معاوني الحكام السياسيين ان يبتوا في القضايا المعروضة عليهم .

ففي منطقة سوق الشيوخ وحدها ، حيث تكون المشاكل الزراعية أكثر حدة من سائر المناطق ، هناك ما يزيد على المئتي شكوى تنتظر اجراء التحقيق . وحينما يتصور المرء ان منطقة السوق تبلغ مساحتها ٢٧٥٠ ميلاً مربعاً وانها من أشد المناطق العراقية ازدهاماً بالسكان ، ليس من الضروري ان يذكر ان معاون الحاكم السياسي لم يكن قادراً الا على تحقيق تقدم بطيء في العمل المتورط فيه . ولذلك وجد من الضروري انتداب ضابط خاص الى السوق ليعالج الأمر .

ومع ان الملاك قد تسلم بموجب الخطة التي وضعت في ١٩١٩ مبلغاً أكبر بكثير من المبالغ التي كان متعوداً على استحصالها من قبل ، فقد ظل السعدونيون محرومين من حقوق التملك التامة التي يدعون بها ، كما ظل افراد القبائل غير راضين بما كانوا عليه . فقد اشتكوا منذ البداية من ان موقفهم تجاه السعدون قد فرضته الحكومة التركية عليهم بالاكراه ، وأنهم ظلوا خلال سنين عديدة لا يدفعون لهم الا ما كانوا يريدون دفعه فقط ، وكان هذا في بعض المناطق شيئاً لا يعتد به خلال السنوات العشر التي سبقت الاحتلال البريطاني للبلاد . ولذلك

كانوا يخشون أية خطوة توضع لتسبغ على الحقوق التي أنكروها اعترافاً رسمياً بها . ويبلغ عدد أفراد الأسرة السعدونية خمسة الى سبعة آلاف نسمة ، وهم كطبقة خاصة من السكان لا بد من ان ينظر في أمرهم . ومع هذا فانه من المخطر ان يعاد تثبيتهم في أراضيهم . وقد تقرر ان تبدأ لجنة لتسوية حقوق الأرض عملها في خريف ١٩٢٠ ، لكن الوضع يحتاج الى تشريع زراعي اذا كان في النية التوصل الى حل نهائي في هذا الشأن .

اما في منطقة الحلة والكوت ، حيث تكثر مثل هذه المشاكل ، فان السياسة التي فرضتها الظروف على الحاكم السياسي المحلي كانت تنطوي على جباية الواردات المتحققة من شاغل الأرض العشائري الذي يكون وحده قادراً على فلاحيتها وحمايتها من الفيضان ، كما تنطوي على حمايته من الطرد بمشيئة الملاك المتغيب وجعل الملاك نفسه يتخذ الطرق اللازمة لاستعادة حصته من الحاصل . ولم يكن من الممكن اتباع سياسة اخرى ، لكنه من العقم ان يتصور المرء ان تكون هذه السياسة مرضية بالكلية . فان الحقيقة هي ان الارتفاع العام في الأسعار ، واتساع الرقعة المزروعة التي استطاع حاملو سندات الطابو ان يتسلموا بواسطتها بدلات ايجار أكثر مما كانوا يتقاضونه في أي وقت مضى ، هو الذي جعلهم وحده يحافظون على الهدوء والسكينة . وقد كان أمل حل المشكل في منطقة الحلة معلقاً على حفر الأقنية والجداول الجديدة . فاذا وجد ما يكفي من الأرض لكل أحد ، واذا كان يمكن تطبيق المادة ٦٨ من قانون الأراضي التركي (التي تنص على أن أرض الطابو إذا تركت غير مزروعة ثلاث سنوات متعاقبة من دون عذر مشروع تؤول الى الحكومة) تطبيقاً حازماً فان المشكلة ستحل نفسها بنفسها . اما في الكوت ، وفي المناطق التي تحاذي دجلة على الأقل ، حيث يكون حاملو سندات الطابو غير متغيبين عن الأرض في العادة بل مقيمين فيها ، فان الحكومة تحاول التعامل معهم رأساً . ولا بد من الانتظار لمعرفة كيفية سير الأمور على هذا المنوال .

وكانت أعمال التسوية قد بدأت في منطقتي بغداد والحلة من قبل ، فجوبهت بصعوبات توجد مدرجة بالتفصيل في أول تقرير رفعه ضابط التسوية في منطقة بغداد .

« .. وكانت الاستجابة للنداء الذي صدر حول تقديم الشكاوى والمستندات غير مشجعة في بادئ الأمر ، ولا شك ان عدداً من المستندات والوثائق لم يقدم حتى الآن . فقد قوبل عملنا بجمود مشوب بالشك والريبة ، لكن الجهود التي بذلها المفتش ومعاون ضابط التسوية لم تخل من تأثير ، ولم يأخذ الملاكون بالادراك أكثر فأكثر بأن التسوية ستؤدي في الحقيقة الى نتيجة ما فقط بل أدركوا ايضاً أننا سوف نقوم بتسجيل حقوق التملك وليس إبطالها ، واننا نتبع القوانين الموجودة والعادة المتبعة بدلاً من إدخال وسائل جديدة من اختراعنا نحن . ومع هذا فان الاستقصاء التفتيشي الدقيق يعتبر شيئاً ضرورياً قبل ان تبرز جميع المستندات . ومما لا شك فيه ان عدداً غير يسير من الحالات لا يمكن ابراز المستندات المطلوبة فيها لتأييد الحقوق التي لا يمكن ان تنازع . ويصح هذا على الأخص في « الزوية » ، جنوبي العلوية ، التي هي عبارة عن مجموعة ملكيات صغيرة للغاية لا يوجد لها في أغلبية الحالات أي مستند . ومن أسباب عدم وجود هذه المستندات أن الملكيات هي على درجة من الضآلة بحيث تجعل المصاريف الكثيرة التي تصرف على استحصال سند الطابو لها غير متناسبة ولا معقولة بالنسبة لقيمة الملكية نفسها . فقد ذكر ملاك من ملاكي القطع الصغيرة ان قطعة من قطعه ، تقدر قيمتها بمئتي روبية فقط ، يحتاج في استخراج سند الطابو لها الى إحدى وخمسين روبية . فاذا كان الأمر على مثل هذه الحالة في يومنا هذا فليس من العجيب اذن ان لا تستحصل سندات الطابو للملكيات الصغيرة الصرفة في ايام الترك . وبرغم هذا كله هناك حالة واحدة أبرز فيها السند اللازم للملكية شجرة واحدة . لكن عدم وجود السندات المطلوبة لا يعتبر المشكلة الوحيدة في الأمور . فكثيراً ما يحدث الاختلاف والنزاع عند توفر السندات أيضاً . والحقيقة ان الاختلاف الوحيد الذي أعرفه الآن هو اختلاف لا يستطيع فيه المشتكي ان يبرز السند المطلوب لاثبات حقه في الملك ، لكن المستندات التي يمكن ان تفيده موجودة عند خصومه . يضاف الى ذلك ان الصعوبة في تفسير المستندات حينما يمكن ابرازها قد تكون أصعب مما يمكن أن ينتظر . وحتى عند

عدم وجود الاختلاف ، وعندما تكون المعلومات المطلوبة في القضية واضحة ، من التملك الحاصل ومن تاريخه الذي يثبت بالتدقيق ، علاوة على دراسة المستندات القديمة فيها ، فان سند الطابو الحالي نادراً ما يمكن تطبيقه على الأرض . فمن الضروري جداً قبل كل شيء عدم اعتبار اتجاهات البوصلة التي تذكرها السندات . فحتى النهر نفسه كثيراً ما يوضع في غير الجهة الحقيقية التي يؤيدها الواقع . وأبرز حالة تدل على الخطأ في تعيين الحدود والاتجاهات صادفتها حتى الآن هي في الزنبرانية ، الواقعة في خارج المنطقة التي تشملها التسوية في الوقت الحاضر . فان خطأً من التلول هنا يقع في الجهة الشمالية الغربية من الملك مسجل في سندات الطابو باعتباره الحدود الشرقية ، ومسجل في سندات العقر باعتباره الحدود الغربية . ولا نغالي اذا ما قلنا ان الاتجاهات والحدود تكون مغلوبة عند ذكرها في السند غالباً . وليس الأمر بأحسن من ذلك ، حينما يكون وصف الحدود في السند قد جعل على أحدث ما يكون . فاذا كانت الحدود الشرقية لقطعة من الملك تذكر بكونها « بستان الحاج فلان » في السند المنظم قبل مئة سنة ، فمن المؤكد ان يكون الشيء نفسه في أحدث السندات ، مع ان بستان الحاج فلان قد تبدلت ملكيتها عدة مرات منذ ذلك الوقت . ومن الأمثلة التي تلفت الأنظار سندات الدباغية التي تذكر الحدود فيها على الوجه الآتي : من الشرق والشمال والغرب والجنوب بستان الحاج حسن بك . ومن المؤسف أن تكون بستان الحاج حسن بك مجهولة عند كل أحد . وتذكر حدود مشابهة لهذه بالنسبة لقطعة من الملك تكون حدودها وملكيتها موضع اختلاف ومنازعة . ولا يبدو ان أي جهد كان قد بذل من قبل لتنسيق مستندات الاملاك المتجاورة معاً . فاذا ما وجد مثلاً ان بستان زيد تحدها من الشرق مزرعة عمر ورجعنا الى السند العائد لعمر بأمل ان نرى فيه ان بستان زيد مسجلة فيه باعتبارها الحدود الغربية ، فقد نجد فيه ، إن عثرنا على بستان زيد هذه ، انها مذكورة في الشمال او الجنوب . وفي كثير من الحالات قد لا نجد لها أي ذكر مطلقاً . ومن الأمثلة التي تلفت النظر على عدم وجود التناسق

هذا ما يلاحظ في أراضي الجيبه جي والأراضي الأميرية المحيطة بها . فان
سندات التريجية والحليجية وعويريج وكويرش يذكر فيها كلها ان أراضي
الجيبه جي تحاددها في جهة من الجهات ، لكن هذه الاسماء كلها ليس لها أي
ذكر في سند أراضي الجيبه جي . ولا شك ان سند الجيبه جي وسند الأراضي
الأميرية تشير الى نفس المساحة والمنطقة ، لكن الحدود التي توجد مذكورة في
واحدة لا وجود لها في الأخرى مطلقاً . ولا تذكر المساحات في السندات مطلقاً
بصورة عامة ، واذا ما ذكرت فهي غير صحيحة من دون استثناء ، والى حد
لا يتصوره العقل في كثير من الاحيان . وتذكر في بعض الأحيان مقاييس الطول
والعرض ، لكنها أيضاً تكون غير مضبوطة على الدوام .

« على ان قضايا الحدود الطفيفة في المناطق الزراعية لا تسبب الا مشاكل
قليلة ، مع أنها قد تأخذ وقتاً طويلاً للبت فيها . وقد كانت الصعوبة الرئيسة
تنطوي في حسم قضايا الحدود بين الملكيات الصرفة ، التي كانت نسبة كبيرة
جداً منها اما اراضٍ غير مزروعة مدة طويلة من الزمن او انها كان يزرعها
أناس غير اولئك الذين يملكون سندات التملك التي تعطيهم الحق بها . وأهم
مثل على هذا هو الخلاف الحاصل حول الحدود الخارجية لمقاطعة كاظم باشا في
الفحامة . فان هذه المقاطعة تمتد من النهر الى درب المنازل (الى الجهة البرية)
وكذلك تمتد المقاطعات المجاورة لها من الجهتين الاخرين على الشاكلة نفسها ،
كما يفهم من المستندات القديمة والحديثة المختصة بها . على أن قسماً قليلاً من
هذه المساحة يزرع على ماء الكروود ، ولم يجد الملاكون الصغار من قبل وسيلة
للحصول على الماء اللازم لزرع الجهات الخارجية من أراضيهم . لكن كاظم
باشا عمد الى زرع الأقسام الخارجية من أراضي جيرانه علاوة على أراضيهم بالماء
الذي كان يستمد من جدول الوزيرية ، وبعد ذلك من جدول استطاع حفره
هو وجر الماء بواسطة من الداودية . ولم يبد أي اعتراض من أحد يومذاك ،
الا من ملاكي بدعة الراشدية ، نظراً لما كان يتمتع به كاظم باشا من نفوذ ولأن
الملاكين الأصليين لم يكونوا قد زرعوا القسم البراني من أراضيهم مطلقاً ولم

يكونوا يأملون زرعه في يومٍ من الأيام . كما لم يكن من المحتمل ان يثيروا اي اعتراض على التصرف المستمر بأراضيهم البرانية هذه . على أنهم حينما رأوا ماذا تعني التسوية الحالية للأراضي في الحقيقة ، أخذوا يعتمدون بطبيعة الحال على ما تنطوي عليه سنداتهم من حقٍ لم يكونوا يمارسوه من قبل قط . وقد تعقدت المشكلة علاوة على ذلك بعدم وجود ممثل شرعي لورثة كاظم باشا في بغداد ، لكنه أمكن اتخاذ قرار موقت بالنسبة لقسم من الأراضي فقط .

ضريبة الأرض

ولم تكن قضية تعيين مقدار الضريبة وتحقيقها على جانب أقل من الأهمية . فقد كان من سياسة « دائرة الواردات » ان تهدف الى تعيين تحقق ثابت للضريبة مهما أمكن ، لكن عدم تيسر المعلومات المطلوبة التي تحسب التحقيقات بموجبها جعل التقدم في هذا الشأن بطيئاً بالضرورة ، فان النظرية التركية لضريبة الأرض في العراق ، على ما يقول الكولونيل هاوول في تقريره السنوي الأخير « كانت قد تحولت بتأثير من التعاليم القرآنية والعادات الموجودة في البلاد من قبل ، حتى أصبحت نظاماً للمحاصة مبنياً على أسس عشرية . إذ كانت حصّة الحكومة من الأراضي غير المرواة العشر . وعندما تجهز الأرض بالماء سيحاً كانت الحكومة تطالب بعشرٍ آخر لقاءه ، ولم يكن يستوفي أي شيء عندما يكون الأرواء بالواسطة وتعتبر الأرض كأنها أرض غير مرواة لغرض تقاضي الضريبة . وتدل هذه القاعدة على أن الأتراك كانوا ، عند تعيين الحصص التي يطالبون بها من الحاصل ، متأثرين ، في عقلهم الباطن على الأقل ، بضرورة أخذ صافي ما يبقى للمزارع والفلاح بنظر الاعتبار . على أن أراضي السبع هي العامل المهم في زراعة ما بين النهرين . وعلى هذا الأساس كانت نسبة الضريبة ، أي الخمس ، ثابتة وشائعة الاستعمال بحيث ان جملة « خمس الميري » التي ترد على أفواه الناس صارت تعني ضريبة الأرض الأميرية . لكن الحكومة بالاضافة الى ذلك كانت تعتبر نفسها بوجه عام مالكة للأراضي الأميرية وأراضي

السنية ، وصارت تطالب في بعض المناطق ، ولا سيما في الفرات ، بحصة الملاك علاوة على الضريبة . لكن الحقيقة الأساسية هي ، على ما يبدو ، ان السكان المتحدرين من أصل بدوي في بلاد تكثُر فيها الأراضي الزراعية وتقل فيها الطبقة المزارعة ، وحيث يتطلب التقن (الغرين) الذي يأتي به النهر جهداً سنوياً كبيراً لتطهير الجداول ، ويحتم الفيضان بذل حتى المزيد من الجهد في انشاء صفاف الأنهر القوية والمحافظة عليها ، ان مثل هؤلاء السكان لا يمكن أن يتم اجتذابهم الى فلاحه الأرض مطلقاً ما لم يضمن للفلاح ماسك المحراث الحقيقي ودافعه في الأرض نصف واردات العمل الذي قام به . وهكذا أصبحت قاعدة النصفين ثابتة - أي نصف أو ٥٠٪ للفلاح وعشرون بالمئة ضريبة للحكومة . وقد كانت نسبة الثلاثين بالمئة الباقية مثاراً للاختلاف والنزاع . فالشائع ان يعتبر ثلثها ، أي عشرون بالمئة من مجموع الحاصل من حصة الملاك ، سواء أكان الملاك شخصاً معيناً ام كان الحكومة أو السلطان . اما العشرة بالمئة الباقية ، مع شيء قليل من حصة الملاك أو بدونه ، فتكون من حصة الرئيس العشائري الذي يكون هو وحده قادراً على تهيئة العمل المطلوب للأغراض العامة المشتركة وعلى اسباغ الحماية ضد المعتدين .

ويستمر الكولونيل هاوِل قائلاً « ان فوائد استيفاء مبلغ قطعي معين في كل سنة عن حصة الحكومة واضحة بحيث تكون سبباً للمرء ان يعجب لتوصل الأتراك الى مثل هذه الترتيبات فعلياً في العراق . فقد تم في البصرة على عهد مدحت باشا قبل خمسين سنة إجراء تقدير بمقدار معين لكل جريب مغروس بالنخيل . اما في العمارة فتجزأ البلاد الى وحدات كبيرة (مقاطعات) لا يستطيع شخص واحد في الغالب استثمارها والعناية بها لوحده ، وكانت هذه توضع بالمزاد في أيام الأتراك ما بين شيوخ العشائر لمدة خمس سنوات . وتقضي العادة في جهات كثيرة من البلاد بفرض مبلغ معين على كل سطل من الماء يرفع بالواسطة الى الأرض المزروعة . وفيما عدا هذه الاستثناءات فان جميع الأراضي الزراعية في البلاد تخضع لما يسمى بالتعبير المتعارف في الهند بـ « التقدير

المتغير « الذي تستوفي بموجبه الحكومة نسبة معينة من مجموع الحاصل مساهمة » .
وتختلف النسبة نفسها من مكان لآخر باختلاف الظروف المحلية . وليس من
العجيب بالنسبة لهذه الظروف ، وقلة المستثمرين من السكان ، أن يكون تحسين
الأحوال شيئاً واضحاً بزوالها ، وان تكون تربية الحيوان شيئاً منحطاً في كل
مكان تقريباً . ولذلك تعتبر الزراعة في العراق عملاً غير أكيد النتائج ، ولكن
ليس الى الحد الذي يجعل فرض ضريبة ثابتة شيئاً غير ممكن . فهي مما يرتاح له
ملاك الأراضي السيعية بالتأكيد . وأراني مضطراً الى الاستنتاج بعد اجراء
الكثير من التحقيق والاستقصاء بأن الاتراك قد تعمدوا تجنب الضريبة الثابتة ،
أولاً لتخوفهم من العشائر ورغبتهم في تحاشي أي شيء يمكن أن يغذي شعور
العشائر بوجود حق لهم في الأرض التي يشغلونها ، وثانياً لأن عمليات التقدير
والتخمين التي كانت تجري في كل سنة تعود بالربح والفائدة على موظفي
الواردات وتوفر للخزينة العامة بعض « المصاريف والرواتب » .

ضريبة التمور

وهكذا الأمر بالنسبة لضريبة التمور . إذ يقول الكولونيل هاويل « ان مقدار
الضريبة يختلف في شتى أنحاء البلاد لا تبعاً لاختلاف نوع الأشجار ، أو قرب
المنطقة من السوق ، أو واسطة الري ، أو أي سبب ظاهر آخر ، وإنما قد يختلف
باختلاف قابلية الحكومة التركية على الجباية . وكان أعلى مقدار تمت جبايته في
١٩١٩ سبع آئات ونصف للنخلة الحاملة في بعض أراضي السنية في المسيب
(منطقة الحلة) ، وأقل ما تمت جبايته آتان للنخلة الحاملة في جهات أبي صخير
التابعة لمنطقة الشامية . والرقم الأخير يلفت النظر بصورة خاصة لان التمور
هناك من نوع ممتاز ، ولها سوق جاهزة على الدوام في النجف حيث يأتي البدو
من البادية للامتيار ، كما ان الارض فيها من أراضي السنية التي تفرض عليها في
العادة ضريبة أعلى مما يفرض في الأماكن الأخرى . والمقول ان السبب في ذلك
يعزى الى ان المزارعين المحليين يميلون الى الاعتراض على قيام السلطان عبد
الحميد بوضع اليد على البساتين التي كانوا قد زرعوها ، ولا يمكن تحاشي

الضخمة التي قد يثرونها الا بابقاء مقدار الضريبة التي تستوفي منهم بسوية ضريبة الميري التي كانوا يؤدونها من قبل . »

ولم يكن من الممكن إجراء أي تغيير يعتد به حتى الآن ، ولكن الضريبة سوف توضع على أسس أكثر تناسقاً وملائمة كلما أمكن جمع المعلومات المطلوبة لذلك ، وقد سبق ان اتخذت بعض الخطوات في هذا الشأن من قبل .

ولا شك ان زراعة النخيل ستلعب دوراً لا يستهان به في توطين القبائل وتحضيرها ، لأن مالك بستان النخيل يمد جذوره في نفس الوقت الذي تنمو فيه أشجاره . يضاف الى ذلك ان أهية التمور كمادة من المواد الغذائية أخذت تزداد في أسواق العالم ، ولا بد لبلاد ما بين النهرين ، بالنسبة لما فيها من معطيات مادية مثل الماء والتربة والجو الملائم ، من ان تجني أرباحاً جمّة من التوسع في زراعة النخيل .

دائرة الزراعة

وقد أصبحت دائرة الزراعة التي أسستها السلطات العسكرية ، فرعاً من فروع دائرة الواردات في مارت ١٩١٩ ، فتمكنت من القيام بأعمال مفيدة من ناحية التجربة والبحث العلمي . ومن أهم ما قامت به في هذا الشأن التجارب التي أجرتها في زراعة القطن . فقد كان مقدار القطن المزروع في البلاد قبل الحرب لا يتجاوز حاصله عدة مئات من البالات ، ولذلك لم يكن يكفي لسد حاجات الطلب المحلي . فثبت الآن في مختلف انحاء ما بين النهرين ان القطن يمكن ان يزرع بكميات تضاهي أحسن ما تنتجه مصر وأمريكا ، وان الغلة في الدونم الواحد هي غلة عالية . ومما يجدر ذكره هنا ان ممثلين عن جمعية زراعة القطن البريطانية قد زاروا البلاد واتخذت التدابير بنتيجة زيارتهم هذه لزراعة القطن بمقياس واسع . لكن طلبات المزارعين المحليين أبقى محدودة الى حد سنة ١٩٢١ ، وفي خلال هذا الوقت سوف يتم الحصول على نتائج مهمة من المزارع التجريبية .

وكان إنتاج الحرير من قبل صناعة صغيرة منتشرة في القرى ، لكن استيراد بيض دود القز قد توقف بنشوب الحرب . فشرع الآن باستيراد البيض من فرنسا وتوزيعه بين مربّي دود القز في ديالى ، وإلى بعض الفلاحين فيما يقرب من بغداد . وكذلك استوردت أصناف مختلفة من الحنطة ، وطلب غيرها . وهناك طلب شديد على البذور المحسنة ، إلى جنب ما تقوم به مزارع الحكومة من ارشاد للفلاحين المحليين . أضف إلى ذلك ان دراسات كان قد بدىء بها حول الأمراض والحشرات المضرّة .

وقد أخذ الحاكم السياسي في السليمانية على عاتقه ان يعمل بكل نشاط على توسيع زراعة التبغ . وبطلب من الادارة المدنية في العراق انتدبت « شركة التبغ الأمريكية البريطانية » وكيلاً لها إلى البلاد . فتجول في مناطق زراعة التبغ ، لكنه كتب في تقريره انه ما لم تدخل تحسينات أساسية في زراعة التبغ وتجفيفه ورزقه فان تبغ بين النهرين سوف لا يكون صالحاً للتصدير مطلقاً .

ضرائب متفرقة

أما بالنسبة للضرائب المتفرقة التي تشرف عليها دائرة الواردات ، فيجب ان يذكر ان قانون الطوابع التركي قد حدد العمل به ، بعد اجراء بعض التعديلات فيه ، خلال شهر كانون الأول ١٩١٩ . وهو يسير الآن سيراً حسناً ، ويأتي بواردات لا بأس بها من دون أية صعوبة .

وقد نشرت في مارت ١٩١٩ مجموعة من الأنظمة عن الأفيون ، ثم عدلت تعديلاً طفيفاً في شهر حزيران . وهي تستهدف الأغراض التالية :

- ١ - منع زراعة الخشخاش بعد موسم السنة الحالية .
- ٢ - السماح بأن تستورد بعض أنواعه باجازه ، على ان تؤخذ الضريبة عليه بصورة اصولية ، أي بفرض الرسوم الكمركية ، ويصنف إلى درجات عند الحاجة .
- ٣ - إصدار اجازات للبيع بالمفرد لقاء رسوم معينة ، لئلا يضطر البائع إلى التعجيل في بيع ما عنده منه .

على أن خطة فرض الضريبة على الأفيون علمياً باستيفاء رسم الاستيراد قد فشلت . فلم تقدم في بغداد طلبات بمنح الاجازات اللازمة لاستيراد الأفيون بقصد الاستهلاك في البلاد ، مع ان الاستهلاك ظل قائماً من دون عائق . ومرت في البصرة كميات قليلة منه عن طريق الكمارك ، بينما انتشرت عادة تعاطي الأفيون فيها بين الناس . ونشأت في الكوت والعمارة مشكلة الأفيون المزروع في جبال پشت كوه . إذ لم يمكن منع استيراده الى الكوت والعمارة ، فوجد طريقه منهما الى المناطق الأخرى . على ان نظام بيع الأفيون قد تم تعديله ، ومن المؤمل ان يتحسن أمر السيطرة عليه في القريب العاجل .

ضريبة الدخل

هذا ولم تتخذ الاجراءات بعد لاستيفاء ضريبة الدخل التي كانت تستوفى في أيام الترك ، فهناك مشكلة أساسية تنطوي على ان الأجانب كانوا معفون منها قبل الحرب بمقتضى نظام الامتيازات الأجنبية . لكن المشكلة الحقيقية في هذا الشأن - التي لم تستطع حلها الحكومة العثمانية قط - هي مشكلة تقدير المدخولات عند الناس في البلاد ، حيث تنعدم السجلات التجارية أو يندر وجودها . على أنه بدىء باجراء استقصاءات تمهيدية بأمل إعادة استيفاء الضريبة عندما تستقر الأحوال في العراق . وقد استشيرت المجالس البلدية ومجالس الادارة في المناطق فوجد أنها كانت تنفر من مثل هذه الضريبة بوجه عام ، لأنها كانت تمس مصالح أعضائها الشخصية من جهة ولان القانون التركي كان قد أدى الى سوء استعمالات خطيرة . لكن الثروات المتزايدة لدى الطبقات التجارية من الناس ، التي ربحت الكثير خلال الحرب ، تجعل تكليفهم بتحمل شيء أكثر من عبء الضرائب أمراً محتتماً جداً .

ضريبة المزروعات

واذا ما جمعت الفقرات التي تستوفى واردات الارض منها ، يبلغ مدى الضريبة من السكان الريفيين في العراق (٨,١) روبية لشخص للواحد ، وهذه تعادل على ما يقول مدير الواردات ، أكثر من ضعف مدى الضريبة في بلاد

البنجاب . على اننا يجب ان لا ننسى التأكيد هنا على ان الشبه غير دقيق بين
 البلادين لسببين من الأسباب . فأولاً ان مستوى الاسعار والأجور وتكاليف
 المعيشة في العراق هو أعلى من المستوى في الهند بضعفين او ثلاثة اضعاف .
 وثانياً ان جميع الأراضي في البنجاب تقريباً تجبي ضريبتها بطريقة الضريبة
 المقطوعة ، وكانت قد احتسبت قبل الحرب فأدت الى ارتفاع كثير في أسعار
 الحبوب ، بينما يختلف تحقق ضريبة الأرض كله في العراق لا باختلاف المنطقة
 المزروعة فقط ، بل يختلف ايضاً باختلاف الأسعار الدارجة . كما ان عامل
 الاختلاف الثاني ينطوي على ما يبدو في ان ضريبة الأرض المتحققة تجبي بالنقد
 عادةً ، على كونها تحتسب على أساس ما تجود به الأرض من حبوب . ويبنى
 سعر التحويل على أسعار الحملة في الأسواق المحلية ، وقد عينت الأسعار في
 ستي ١٩١٩ و ١٩٢٠ بحيث ترك تأميناً نقدياً واسعاً لدافع الضريبة . فقد كانت
 الادارة البريطانية تضع في مخيلتها ان الأسعار التركية كانت شيئاً نظرياً ، ونادراً
 ما كانت تستوفي الضريبة على أساسها . فكانت تخفض حينما كان يلاحظ أنها
 باهظة ، ومن الملحوظ أنه كانت تجري تخفيضات عامة في أسعار التحقق عادةً
 حيثما كان من الممكن قياس الحاصلات بصورة دقيقة . وهكذا فمع ان حصة
 الحكومة الأسمية قد تكون ثلاثين الى أربعين بالمئة من مجموع الحاصل كله فان
 هذه النسبة لم تكن تؤخذ في أي مكان من الأمكنة بالتمام . وحينما كانت الغلة
 تقدر بالنظر ، او بتفحص حالة الزرع في الحقول ، أو حينما تكون مكومة في
 مسطاح الدراسة - وهي الطرق المألوفة عادةً - كان هناك شيء من التحيز
 المحتم ضد الاتقان والدقة في العمل . فان الجميع يعنون بتخفيض الأرقام لأسباب
 حسنة أو سيئة . ولذلك تكون النتيجة ان التحقق ، الذي يفترض به ان يكون
 بمعدل ثلاثين بالمئة من الحاصل ، يصبح في الحقيقة شيئاً أكثر بقليل من نصف
 ذلك المعدل . لكننا نجحنا ، حيث خاب الأتراك ، في استيفاء المقدار المقرر
 كله من التحقق ، أي ان الاشخاص الذين كان يترتب عليهم ان يدفعوا مئة
 روبية قد دفعوا المئة روبية الى الخزنة فعلياً . وفي هذا نفسه ما يكفي للمقارنة

بالأحوال التي وجدناها في البلاد . فقد دفعت البلاد من الضريبة أكثر مما كانت معتادة على دفعه ، حتى حينما كانت تدفع أقل مما كان يصل الى التحقق النظري الذي كان يضعه أسلافنا . وبعد ان يأخذ الكولونيل هاوول بنظر الاعتبار القول المأثور الذي قاله اللورد كرومر ، بأن استيفاء الضرائب غير الباهظة من طبقة الفلاحين هو اساس الادارة الحكيمة ، يقول ان الدقة في تعيين حصة الحكومة لا بد من ان تصحبها تخفيضات محلية غير يسيرة في مقدار التحقق .

استملاك الأرض ونزع الملكية

ولا بد من ان تذكر هنا كذلك ناحيتان من نواحي الأعمال التي تتناولها دائرة الواردات ، وكلتاهما لها علاقة مباشرة بظروف الحرب وأحوالها ، وهما : ادارة المقاطعات المزروعة ملكيتها من أصحابها ، واستملاك الأراضي لأغراض حكومية . فيقول مدير الواردات عن الأولى في تقريره الأخير (نيسان ١٩٢٠) : « وفي خلال الحرب نزع ملكية عدة مقاطعات من أصحابها لأنهم كانوا معروفين بانحيازهم الفعال للعدو وإقامتهم في بلاد خاضعة للاحتلال التركي . وكان الغرض من ذلك مزدوجاً : منع تحويل المدخول المتأتي منها الى بلاد العدو والتأكد من عدم تأثير ذلك على الانتاج بوجه عام ، وحصة الحكومة منه بصورة خاصة ، باهمال زراعة المقاطعات نفسها . وفيما عدا مدينتي البصرة وبغداد ، حيث كانت الأملاك المصادرة فيها تدار من قبل « مراقب الشركات التجارية المعادية »^١ ، كان الحاكم السياسي هو المسؤول عن إدارة المقاطعات المصادرة هذه ، ومسك حسابات منفصلة لكل واحدة منها .

« وفي خلال سنة ١٩١٩ أعيدت معظم الأراضي المصادرة الى أصحابها مع الأرباح المتأتية منها ناقصاً عشرة بالمئة ، احتفظ بها لتلافي نفقات الادارة . غير ان حالتين أو ثلاث سلك أصحاب هذه الأملاك فيها سلوكاً ينطوي على

الخيانة خلال الحرب ، بالانحياز الى السلطات البريطانية في بادئ الأمر والذهاب الى العدو بعد ذلك ، اضطررنا فيها الى الاحتفاظ بقسم من معدل الأرباح أو كله .

« وقد قيدت العشرة بالمئة ، التي احتفظ بها لتلافي النفقات الادارية ، في حساب « مراقب الشركات التجارية المعادية » بالنسبة للمقاطعات التي كانت تخضع كلها لاشرافه . وفي الحالات التي تكون فيها ادارة هذه المقاطعات بيد الحاكم السياسي تقيد باسم مراقب الشركات الاجنبية المعادية نسبة اثنين ونصف بالمئة فقط عن مسك الحسابات ، اما الباقي فيذهب الى الخزانة العامة .

« وما تزال بعض الأراضي المصادرة في أيدينا ، لأن اصحابها لم يطلبوا العودة الى البلاد ، أو للصعوبة التي نشأت في التأكد من أصحاب الحصص فيها أو في إيجاد وكلاء شرعيين لملاكها المتغيبين . ومن المنتظر ان تعاد آخر هذه المقاطعات المصادرة الى أصحابها خلال سنة ١٩٢٠ » .

أما استملاك الارض ، أي وضع اليد عليها ، فهو موضوع حساس . فمع انه أمر يعود بطبيعة الحال الى دائرة الواردات الا أنه لم يعهد لها الا في تشرين الثاني ١٩١٩ . ويلخص الكولونيل هاوِل هذا الوضع بالآتي :

« كان استملاك مساحة كبيرة من الأرض في المعقل ، لتوسيع الميناء وتطويره ، قد تقرر في ١٩١٨ ، وفي ٢٥ أيلول ١٩١٨ صدر بيان استملاك الأراضي ليكون ملائماً لأحوال البصرة . وقد طبق هذا البيان ، المشرع بعجلة والمعرض لعيوب التشريع الارتجالي ، في بغداد أيضاً حينما أصبح من الضروري استملاك بعض الأراضي فيها كذلك . على أن هذا البيان ، المبني على « قانون استملاك الأراضي الهندي » ، قد تم تعديله في مارت ١٩١٩ وبعد انتهاء السنة ايضاً ، ولكن من دون ادخال تعديلات جوهرية على مبادئه العامة . ويستطيع القائد العام ، بالصلاحيات المخولة له في هذا البيان ، ان يستملك الأراضي بصورة اجبارية للأغراض العامة التي يجب ان تخصص باعلان تمهيدي . اما الثمن الذي

يدفع فهو اما سعر السوق الدارج بتاريخ احتلال البصرة من قبل قوات صاحب
الجلالة البريطانية ، او بأخر ثمن دفع عنها اذا كانت ملكيتها قد تحولت من يد
الى أخرى مضاف اليه علاوة لا تزيد على ٢٥٪ . ويقوم بتعيين الثمن ضابط
يعين خصيصاً لهذا الغرض ، وتكون أحكامه خاضعة لتأييد لجنة خاصة من
المعتاد ان ينتخب واحد او اثنان من أعضائها من المنطقة نفسها . وحينما اتخذت
اول إجراءات الاستملاك كانت الخطة أن تستملك الأرض باسم حكومة
صاحب الجلالة البريطانية ويدفع ثمنها من « خزانة الوطن » . ولم يكن من
الانصاف ان نجعل دافع الضريبة البريطاني يضع ثمناً للأرض يدخل فيه التعويض
الباهظ لمالك الأرض المستملكة على أساس الارتفاع الهائل الذي حصل في قيمة
الأراضي بسبب وجود قوات صاحب الجلالة في البلاد والأمل في قيام حكومة
عادلة . واذا كانت هذه الحجة تنطبق بنفس القوة والتأثير حينما يتم الاستملاك
باسم الادارة العراقية ويدفع من الأموال العراقية (كما يجري الآن في جميع
الحالات) فان ذلك أمر يمكن ان يطرح للمناقشة . على أنه لم يكن من الممكن
اجراء تبديل أساسي في المبدأ والطريقة بينما كانت عملية الاستملاك تسير بكل
قوتها ، وقد يكون ذلك ضرورياً في المستقبل ولكن بتأثير رجعي . لكن معظم
الناس الذين استكملوا أراضيهم قد قبلوا المبالغ المدفوعة لهم من دون اعتراض
يعتد به . ومع هذا ، فان منهاج الاستملاك الواسع الذي اضطررنا للعمل بموجبه
في سبيل تطمين الحاجات العسكرية ، واحتياجات سكك الحديد وتوسيع الميناء
والادارة المدنية ، يعد من مجالي عملنا غير المحبوبة ولا سيما بالنسبة للانتعاش
الحاصل في قيمة الأراضي في مدينتي البصرة وبغداد وللأقيام الفاحشة التي تسام
وتدفع في المعاملات الأهلية » .

خاتمة

لقد جمعت وسجلت مجموعة قيّمة من المعلومات المفيدة خلال السنوات
الخمس التي كان ضباط الواردات البريطانيون يتولون العمل فيها . ومن الممكن

ان تكون هذه المعلومات أساساً قوياً لجميع الاعمال الادارية المختصة بالواردات والضرائب ، التي قد يضطلع بها في المستقبل . يضاف الى ذلك ان السجلات الموجودة في دائرة الواردات يمكنها ان تلقى ضوءاً فاحصاً على التطور الاجتماعي في البلاد ، الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالتطور الزراعي بحيث لا يمكن تفهم الأحوال في أي منهما من دون دراسة الآخر . وهكذا فان النظام العشائري كما نراه في بلاد ما بين النهرين ، اي في المجتمعات الزراعية المستوطنة ونصف المستوطنة ، يعتمد في الأصل على أسس اقتصادية تسيطر عليها الأحوال الزراعية . ومثل هذه الأمور لم تحاول الادارة التركية ان تسبر أغوارها الا في النادر . وانما كانوا يعملون دورياً على اجبار القبائل بالقوة أو التملق لها ، وقد أظهروا حذقاً غير يسير في هذه اللعبة . لكنهم كانوا راضين بأن يتركوا جذور الفساد وشأنها ، حتى حينما كانوا يعترفون ، كما في منطقة المنتفك ، بوجود سبب لما يقع فيها من اضطرابات . ونشك جداً فيما اذا كان بوسعهم بالوسائل التي كانت في متناول أيديهم ، ان يتفادوا خطة التسوية الزراعية الشاملة التي لا يمكن بغيرها حل المشاكل التي يسأل عنها نظام حكمهم في الدرجة الأولى . ويتحتم على اية ادارة تتولى الحكم بعدهم ان تأتي الى هذه المهمة ، اذا ما أريد انجازها ، بالاستقامة الفذة والمثابرة المقرونة بالتفهم العادل للشكاوى والطلبات المتضاربة التي تتقدم بها طبقات السكان المختلفة . وعليها ايضاً ان تحصل على ثقة الناس بها لتضمن تعاون الرأي العام معها ، ولا يمكن ان تحل مثل هذه الورطة المعقدة بدونها .

الفصل الثامن

الادارة القضائية

لقد أحرز تنظيم الادارة المدنية في البلاد تقدماً عظيماً خلال سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ ، وعلى الأخص من بعد اعلان الهدنة . وقد كان من غير الممكن ان تحكم الولايات الثلاث بالطرق والأساليب الموقته ، لأن متطلبات المجتمع المتزايدة في هذه البلاد لم يكن من الممكن تلافيتها بهذه الوسيلة ، كما لم يكن من الممكن الاضطلاع بالمسؤوليات الملقاة على عاتقنا . فان الحياة المدنية في بلاد ما بين النهرين ، من بين جميع البلاد الأخرى التي تورطت تورطاً مباشراً بشؤون الحرب ، لم يصبها أي نوع من أنواع التوقف الخطير . بينما فتكت في المناطق التي بقيت في أيدي الأتراك بعد سقوط بغداد ، مثل منطقة الحدود الشرقية وولاية الموصل ، المجاعة وعانت ما عانت من نهب الاتراك وسلبهم لكن بغداد نفسها وجميع البلاد التي تم الاستيلاء عليها بتقدم الجنرال مود قد أنقذت بالاجراءات النشطة التي اتخذت في النصف الأخير من سنة ١٩١٧ . وما حل عام ١٩١٨ حتى كانت الزراعة والتجارة قد انتعشت وعادت اليهما الحياة في ولاية بغداد . اما في البصرة والعمارة والناصرية فان الحرب لم تسبب أي توقف في شؤون الحياة العامة . فقد نشأت عن انتشار الأمن والنظام في طول البلاد وعرضها ، المقرون بما أوجدته حاجات الجيوش البريطانية من طلب غير

محدود للعمال والمنتجات المحلية ، ظروف وأحوال للازدهار لم يسبق لها مثيل في أيام الأتراك . ولا شك ان المجتمع المتطور يحتاج الى تطور الادارة فيه ، فحقق الحكام السياسيون على قلة عددهم الآمال التي عقدت عليهم ، بفضل التعاون الفعال الذي قدمته السلطات العسكرية لهم . فقد اعترف الفريق السر ويليام مارشال حالما تسلم القيادة في تشرين الثاني ١٩١٧ بأهمية الناحية الادارية من قوته ، فاشتغلت المؤسسات المدنية والعسكرية بقيادته الحكيمة وتوجيه رئيس أركانه أمير اللواء السر ويب كيلمن ، بكل وثام وتناسق . ثم اتبع السياسة نفسها خلفه أمير اللواء السر جورج ماكهمون ، وهو الاداري المعروف نفسه ، واستطاع ان يقدم الكثير من المعونة القيمة والمشورة الصائبة . فسهلت هذه العلاقات مهمة الحاكم الملكي العام الى آخر حد ممكن ، وهيأت للمناطق المحتلة من بلاد ما بين النهرين مجالاً واسعاً للتقدم .

ولم يكن من الممكن ، عند احتلال بغداد ، زيادة الموظفين السياسيين في الحال بمقدار يتناسب والتوسع الحاصل في مجال عمله . فقد جمعت مجالات مختلفة ، مثل المعارف والادارات والكمارك ، وأدجت في دائرة الواردات من قبل ، ثم أضيفت الى هذه مهمة التنظيم التمهيدي للجهاز القضائي في البلاد . وكانت قد صدرت تعليمات واضحة من حكومة صاحب الجلالة بأن لا تطبق مجموعة « القانون العراقي »^١ ، المبني على القانون الهندي ، التي كانت مطبقة في البصرة ، في ولاية بغداد بأي حال من الأحوال . فعين المستر بونهام كارتر (الذي صار السر أيدغار بونهام كارتر كي سي ايم . جي بعد ذلك) رئيس الدائرة القانونية في السودان ، ضابطاً عدلياً أقدم^٢ في بغداد . والى ان يصل اتخذت تدابير موقته فقط .

وكان الحكام الأتراك قد فروا من البلاد قبيل الاحتلال بأيام ، وأخذوا

Iraq Code (١)
Senior Judicial Officer (٢)

معهم عدداً من الموظفين وأحدث سجلات المحاكم . ولم يكن المحاكم الذين بقوا مؤهلين من الناحية القانونية ولا كافين في عددهم لتشكيل المحاكم ، ولذلك توقفت المحاكم عن العمل . وفي الفترة المنحصرة ما بين انسحاب الجيوش التركية عن بغداد واحتلال القوات البريطانية لها كان رعايا المدينة قد وجدوا طريقهم الى بناية المحاكم ونهبوا ما فيها . ولذلك لم تجد السلطات البريطانية عندما تسلمت ادارة البلاد وجوداً للمحاكم ، وبالنظر لهروب نسبة كبيرة من موظفي العدلية الى الخارج ، لم يكن من الممكن اعادة فتح المحاكم في الحال . على ان محكمة الدعاوى الموجزة ومحكمة شرعية واحدة أعيد فتحهما في بغداد خلال شهر تموز ، ثم عين قضاة^١ شرع مسلمون في الحلة وبعقوبة . ومنح الحكام السياسيون في المحاكم سلطات كافية للبت في الدعاوى المستعجلة ، كما عيّنت هيئة تحكيم في الحلة . وقد كانت المحاكم العدلية ، باستثناء ثلاث حالات ، مغلقة منذ ان رحل الحكام الأتراك الى نهاية السنة ، فلم تكن هناك أية وسيلة لوضع الحقوق المدنية في موضع التنفيذ . ووضع تنفيذ القوانين الجزائية في عهدة الحكام العسكريين والحكام السياسيين .

وقد أسست محكمة الدعاوى الموجزة في بغداد ببيان مؤرخ في اليوم الثاني من تموز ١٩١٧ ، وأريد بها ان تضبط تنفيذ القانون المدني في البلاد . وكانت المحاكم الشرعية الاسلامية تطبق تعاليم الشرع الاسلامي . ثم عين نائب^٢ حاكم

(١) وجدنا في قائمة الموظفين الملحقه بكتاب ارنولد ويلسن ان الشيخ محمد بن محمود قد عين نائباً للجعفرية في الحلة بتاريخ ١٩١٨/٦/١ ، وان عبد الحق أفندي قد عين قاضياً في محكمة الحلة الشرعية بتاريخ ١٩١٨/١١/٢٦ ، وان الشيخ جعفر علوش قد عين نائباً للجعفرية في الحلة كذلك بتاريخ ١٩١٩/٣/١٨ . اما بالنسبة لبعقوبة فقد وجدنا ان أقدم من عين نائباً للجعفرية فيها شخص يدعى قبا زادة عبد الأمين ، وكان تعيينه بتاريخ ١٩٢٠/١/١ . لكننا لاحظنا ان شهربان عين فيها محمد فهمي قاضياً للمحكمة الشرعية بتاريخ ١٩١٩/١٢/١ ، وإن مندلي عين سيد محمد أمين أفندي قاضياً فيها بتاريخ ١٨/٧/١ .

(٢) جاء في قائمة ارنولد ويلسن ان سنوي زادة سليمان أفندي عين معاون حاكم في محكمة بغداد الشرعية بتاريخ ١٩١٧/١١/١ .

سابق في المحاكم الشرعية ليكون حاكماً في محكمة الدعاوى الموجزة ، اما في المحكمة الشرعية فقد عين قاضٍ^١ ينتمي الى أسرة دينية معروفة في بغداد . ويدل عدم تقديم العرائض بصورة مطلقة تقريباً ضد القرارات التي كان يتخذها هذا القاضي على عدالة القرارات ، وعلى الاحترام الذي كان الناس يضمنونه له . وقد ألحق مكتب تنفيذي صغير بالمحكمتين . كما كانت المحاكمات تجري باللغة العربية في كل مكان بينما كانت تجري في عهد العثمانيين باللغة التركية .

وقد وصل السر ايدغار بونهام كارتر الى بغداد في ١٩١٧ . وبعد ان درس النظام القضائي التركي لمدة شهرين كتب تقريراً واضحاً يدعو للاعجاب ، وقد ضمنه وصفاً لما كانت عليه الحال قبل الاحتلال كما رسم الطريق الذي يجب ان تسلكه الشؤون العدلية في نظره . فكتب يقول : « .. ان النظام القضائي في ولاية بغداد ، وغيرها من الولايات العثمانية ، كان يتألف من نوعين رئيسيين من أنواع المحاكم : المحاكم الشرعية ، والمحاكم النظامية (المدنية) .

« وترجع المحاكم الشرعية في منشأها الى عهود الاسلام الأولى ، حين كانت في الأصل تتناول في عملها القضائي الدعاوى الجزائية والمدنية معاً . لكن سلطاتها القضائية تقلصت كثيراً بالتدريج حتى أصبحت تنحصر في العصور الحديثة بقضايا الأحوال الشخصية ، مثل الزواج والطلاق والوصاية والبلوغ والوصايا والأرث وقضايا الوقف مع شؤون أخرى ذات أهمية طفيفة . ويستند القانون الذي تطبقه هذه المحاكم الى نصوص القرآن الكريم ، وأحاديث النبي وخلفائه المباشرين . وعلى هذا الاساس كان الفقه السني خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة قد وضعه مشرعون بارزون أربعة ، يظن أن بعضهم كانت له معرفة غير مباشرة ببعض مبادئ القانون الروماني . وتسمى المذاهب السنية الأربعة بأسماء مؤسسيها ، وهي المذهب الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي . وتعلق

(١) يفهم من قائمة ارنولد ويلسن أن ألوسي زاده حاج علي أفندي قد عين حاكماً في محكمة بغداد الشرعية بتاريخ ١٩١٧/٧/٢ .

الاختلافات الموجودة بين هذه المذاهب بنقاط ذات أهمية طفيفة، لكن الرأي التقليدي هو ان العاهل المسلم بينما يحق له ان يتخذ القانون الذي يسير بموجبه أي واحد من المذاهب الاربعة سنداً له في حكمه ، فانه يترتب عليه ان يتبع جميع القواعد التي يتبعها ذلك المذهب . وتسير المحاكم العثمانية على قواعد المذهب الحنفي .

« وقد أصبح القانون الذي وضعته المذاهب الأربعة شيئاً ثابتاً بمرور الزمن ، ومع انه كان يفني بمرام المجتمع الذي كان قد وضع له في الأصل ، فقد ثبتت عدم قدرته على التطور وايفاء حاجات المجتمعات المتأخرة الأشد تعقيداً .

« فقد أدخل الحكام الأتراك في مختلف العهود تعديلات غير يسيرة على هذا القانون ، ولا سيما قانون الجزاء ، لكن هذه التعديلات كانت تعديلات غير مهمة الى أن حل القرن التاسع عشر وفي خلال هذا القرن تعرض الجهاز القانوني كله الى اصلاحات بعيدة المدى . فحصرت سلطة المحاكم الشرعية بشؤون الأحوال الشخصية وما أشبه . وأسست محاكم مدنية جديدة صارت تسمى « المحاكم النظامية » . وتسير في تشكيلاتها وأصول محاكماتها على النظم الفرنسية . ثم أقتبست القوانين التجارية والجزائية من « قانون نابليون » فشرعت وأخيراً فصلت السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية .

« وكان تنظيم المحاكم الشرعية يتفق مع التقسيمات الادارية في الولاية . فكانت الولاية تنقسم لأغراض ادارية الى ثلاثة ألوية ، وكل لواء كان ينقسم الى عدة أقضية . ولذلك فتحت محكمة شرعية في كل قضاء ، يرأسها قاض واحد . وكان هناك في كل قضاء كذلك مفت ينحصر واجبه في اصدار فتاوى في القضايا الشرعية التي تحال اليه من القاضي ، وتقديم المشورة للسدوائر الحكومية والرأي العام في القضايا التي تختص بالشرع الاسلامي . وكانت سلطة المحاكم الشرعية تنحصر ، كما بينا سابقاً ، في القضايا التي لها علاقة بالأحوال الشخصية ، والاوقاف ، وبعض الأمور الأخرى . وتستأنف احكام المحاكم الشرعية لدى شيخ الاسلام في استانبول .

« وكانت تشكيلات المحاكم النظامية في ولاية بغداد ، كما في سائر أنحاء
الأمبراطورية العثمانية ، كالآتي :

« فقد كانت هناك مجموعة من المحاكم تتفق بصورة عامة مع التشكيلات
الادارية في كل ولاية . وفي كل قضاء ، غير الاقضية الموجودة في مركز
اللواء ، كانت هناك محكمة بداية تتناول سلطتها القضائية الدعاوى المدنية
والدعاوى الجزائية ، وتبت في الجناح والمخالفات^١ التي تقترف في القضاء .

« وكانت في مركز كل لواء محكمة تتألف من ستة حكام ، واثنين من
مساعدتي الحكام . ويتمتع قسم من هذه المحكمة ، الذي يعتبر محكمة بداءة ،
بسلطة النظر في أية دعوى مدنية أو تجارية تحصل في داخل القضاء الذي تعقد
فيه . اما المحكمة التي تتألف من خمسة حكام فتتظر في أية جريمة تقع في اللواء
ولها علاوة على ذلك صلاحيات النظر تمييزاً في القرارات التي تصدرها محاكم
الأقضية التابعة للواء في الدعاوى المدنية والتجارية التي تتضمن البت في مبالغ
تزيد على الخمسين ليرة تركية . وكان قاضي الشرع من ناحية عملية عضواً في
هذه المحكمة عادةً ، ويرأس القسم المدني منها .

« وكانت محكمة البداءة في بغداد قبل الحرب تنقسم الى ثلاثة أقسام : قسم
جزائي ينظر في الجناح التي تحدث في القضاء ، وقسم مدني ، وقسم تجاري .

« كما كانت محكمة الاستئناف في بغداد محكمة استئناف عليا للدعاوى المدنية
والتجارية التي تحدث في الولاية . فقد كانت تنظر في استئناف قرارات الجناح
الواردة من محاكم الألوية ، وحينما كانت تعمل باعتبارها محكمة للبداية كانت
تنظر في جميع دعاوى الجرائم المقررة في لواء بغداد . وقد كانت تتألف قبل
الحرب من رئيسين ، وثمانية حكام واثنين من نواب الحكام ، وتنقسم الى قسم
مدني وقسم جزائي . ولكن نظراً لدعوة عدد من الحكام للخدمة العسكرية ،

(١) تنقسم الجرائم الجزائية بموجب قانون الجزاء العثماني ، وقانون نابوليون ، تبعاً لخطورة
العقوبة التي تنطبق عليها ، الى : جرائم وجناح ومخالفات (الشرح للمؤلفة) .

تقلص عدد المحاكم عند سقوط بغداد الى رئيس واربعة محاكم واثنين من نواب المحاكم .

« وكان عدد المحاكم يبلغ بمجموعه اثني عشرة محكمة قضاء ، وأربع محاكم لواء ، ومحكمة الاستئناف في بغداد . وكان عدد المحاكم كبيراً يصل الى حوالي ثمانين حاكماً .

« وكانت قرارات محكمة الاستئناف في بغداد تستأنف في دعاوى القضايا التجارية في المحكمة التجارية في استانبول . واذا كانت القضايا تتضمن مصالح الرعايا الأجانب ، كان الاستئناف يؤخذ الى المحكمة التجارية المختلطة . ولم يكن من الممكن استئناف قرارات محكمة استئناف بغداد في القضايا المدنية غير التجارية على الشاكلة نفسها .

« وقد كانت قرارات أية محكمة ، سواء أكانت مدنية ام تجارية أم جزائية ، تميز في « محكمة التمييز » في استانبول . وكانت هذه المحكمة تدقق النظر في القضايا التي تحال اليها فترد الدعوى أو تبطل الحكم ، وتحيل الدعوى الى محكمة محلية ذات أهلية لاعادة المحاكمة أو تعديل القرار . حيث أنها لم تكن لها صلاحية تعديل القرارات بنفسها . وكان التمييز يبت فيه بعد الاطلاع على ملف الدعوى وبيانات الفريقين التحريرية . اما القرارات التي كانت تصدر في قضايا « الجرائم » التي تتضمن الحكم بثلاث سنوات أو أكثر فقد كانت تحال قانوناً الى محكمة التمييز هذه لتدقيق النظر فيها ، حتى اذا لم يميزها أحد .

وكان يلحق بمحكمة استئناف بغداد مدع عام ، كما كان يلحق بمحكمة كل قضاء نائب مدعي عام .

« وفي أثناء الحرب أسس المشرعون الأتراك مجموعة جديدة من المحاكم المدنية تسمى « محاكم الصلح » ، للنظر في الدعاوى الموجزة التي تتضمن مبالغ تقل عن خمسين ليرة تركية ، وفي القضايا الصغيرة الاخرى . ويعتبر القانون (الصادر في ٣٠ جمادى الاولى ١٣٣١) الذي أسست هذه المحاكم ونظمت

بموجبه عملاً بارعاً يدل على كفاءة وأهلية : كما تعد أصول المحاكمات التي وضعت لهذه المحاكم في بعض أسسها تقدماً محسوساً عما كان يجري من قبل . وقد عين حاكم صلح خاص في محكمة بغداد ، كما تولى قاضي الشرع أو أي حاكم من حكام المحاكم النظامية العمل نفسه في الاقضية الأخرى .

« وتتأثر أصول المحاكمات المتبعة في المحاكم النظامية ، عندما تنظر في الشؤون المدنية ، بقانون أصول المحاكمات المنشور سنة ١٨٨٠ ، وهذا بدوره يستمد أسسه من قانون الأصول المدني الفرنسي لسنة ١٨٠٧ . وقد أدخلت تعديلات غير يسيرة كانت تدعو إليها الحاجة الماسة على القانون في السنوات الأخيرة . أما أصول المحاكمات في المحاكم الجزائية فينظمها قانون الأصول الجزائي الذي نشر في ١٨٧٩ ، ولا يختلف هذا كثيراً عن قانون الأصول الجزائي الفرنسي .

« وكانت دعاوى الشؤون التجارية بين الرعايا العثمانيين ينظر فيها بموجب قانون أصول المحاكمات المدنية ، لكن أحد الفريقين اذا كان أجنبياً فيتبع قانون الأصول التجارية الذي كان قد اقترن بمصادقة الدول الكبرى من قبل .

« أما القوانين التي كانت تطبقها المحاكم فتتألف من : ١ - المجلة ٢ - القانون التجاري ٣ - القانون التجاري البحري ٤ - مجموعة التشريعات العثمانية .

« فالمجلة ، أو القانون المدني التركي ، هي مجموعة الأحكام الشرعية الحنفية المنشورة في ١٨٦٩ . وتنحصر المواضيع الرئيسة التي تتناولها في البيع ، والايجار والاستئجار ، والالتزام بالضمانة ، وانتقال الذمة او المديونية ، والرهن ، والأمانة ، والدين ، والهبة ، وأخذ الخطأ والتدمير ، ومنع الأشخاص غير المؤهلين شرعياً عن استعمال ممتلكاتهم ، وحق الشفعة ، والتملك المشترك ، وحق الاتفاق ، والمشاركة ، والوكالة ، والتصالح ، وإبراء الذمة . وتحتوي ايضاً على فصول تبحث في أعمال الحاكم وواجباته . ولا شك ان

مجموعة من القوانين والأحكام بقيت ثابتة غير متغيرة مدة ألف سنة لا يمكن أن تكون وسيلة وافية بالمرام لتعيين الحقوق القانونية في الوقت الحاضر. على أن أحسن ما يقال عنها أنه لأمر يدعو إلى العجب كيف أن أحكام هذه المجموعة كانت كثيراً ما تكون مطابقة لأحكام القانون الحديث. أما بالنسبة للمعاملات التجارية فقد حل القانون التجاري في محل الأقسام المختصة منها بالتجارة، وحل محل الأحكام المختصة فيها بالتقاضي ورفع الدعاوى قانون أصول المحاكمات المدنية. ومن المؤسف أن تكون أحكام المجلة الخاصة بالبيئة ما تزال سارية المفعول.

« ويعتبر القانون التجاري ترجمة للأقسام المختصة بالشركات وأوراق التحويل وقضايا الإفلاس من القانون التجاري الفرنسي. كما يعتمد القانون التجاري البحري على القانون الفرنسي في الدرجة الأولى. ولم تكن محاكم بغداد تُعنى به إلا في النادر.

« أما مجموعة التشريعات العثمانية العامة فيمكن أن يرجع بشأنها لحد ١٩٠٦ إلى مؤلف المستر جورج يونغ الممتاز « مجموعة للقانون العثماني » الذي سهل مهمة القانونيين والإداريين البريطانيين في هذه البلاد إلى أقصى حد ممكن. وتوجد التشريعات الصادرة بعد ذلك في بغداد فقط بأصلها التركي.

« ويفهم من الخلاصة المار ذكرها أن تنظيم المحاكم النظامية كان منطقياً وكاملاً، وأكثر مما تتطلبه حاجات البلاد. والحقيقة أن هذا التنظيم قد أخطأ في كونه كان شيئاً كثيراً التعقيد للمجتمع الموجود في هذه الولاية، وللموظفين المكلفين بتمشيته. ولا تعتبر أصول المحاكمات المتبعة في المحاكم شيئاً غير مرضٍ، عدا أحكام المجلة المختصة بالبيانات، ورغم أنها تتطلب شيئاً من التعديل لتصبح على أحدث ما يكون لأنها تعتمد على الأصول القديمة، لكنها أيضاً تعتبر معقدة بالنسبة للأحوال المعروفة محلياً. ويمكن أن يقال، مع بعض

التحفظات ، أن مجموعة القوانين التركية تحتوي على قوانين هي على درجة من الحداثة بحيث تمكن المحاكم من البت في الدعاوى المحالة اليها بطريقة عاقلة معقولة .

« ومع هذا فمن المتفق عليه بوجه عام ان ادارة الشؤون القضائية في البلاد كانت شيئاً غير واف بالمرام تماماً . فالمحاكم التركية ، مثل غيرها من سائر الدوائر ، تبدو على أحسن ما يكون على الورق لكنها تعتبر فاشلة بخطورة عند العمل . اما الاسباب الرئيسية لهذا الفشل فهي واضحة .

« فان الرواتب التي تدفع للحكام أولاً كانت غير كافية بالمرة . فقد كان الحاكم في محكمة البداية يتقاضى أجراً زهيداً يتراوح بين سبع ليرات تركية ونصف وعشر ليرات في الشهر . وكان الحاكم الاعتيادي في محكمة الاستئناف يتقاضى خمس عشرة ليرة تركية في الشهر . كما كان رئيس محكمة التمييز يتقاضى خمساً وثلاثين ليرة شهرياً . وكان الموظفون في مستوى الكتبة يتقاضون رواتبهم بمقياس أدنى من الأجور . ولذلك لم تكن الرواتب المدفوعة كافية بحيث تجتذب اليها الناس ذوي القابلية الكافية لمنصب الحاكم ، او تحافظ على مستوى الكفاءة والنزاهة المطلوب بين الحكام والموظفين الذين يقلون عنهم في الرتبة . وقليل من الحكام كان ممن تعلم تعليماً عاماً أو تلقى اي نوع من التدريب القانوني غير ما اكتسبوه في وظائفهم الكتابية في المحكمة من الخبرة والمران .

« وكانت أصول المحاكمات التي تتبع في المحاكم من جهة أخرى تتصف بأكثر مما يجب من الأصول الفنية . وكما يحدث عادة ، حينما يتولى اي عمل في أناس ذوو ثقافة ضيقة او معرفة مسلكية غير كافية ، كان هذا الخطأ في أصول المحاكمات يبالغ فيه عند التطبيق .

« وثالثاً كانت جميع معاملات المحاكم تجري باللغة التركية ، وهي لغة كان يجهلها جمهور السكان .

« ولا تمام الاستقصاء الذي أوردناه عن المحاكم التي كانت موجودة في أيام الحكم التركي لا بد من ان تذكر أصناف ثلاثة أخرى من المحاكم التي كانت توجد في أنحاء الامبراطورية العثمانية وهي : المحاكم الروحانية للطائفتين المسيحية واليهودية ، والمحكمة المختلطة في استانبول ، والمحاكم القنصلية للدول الأجنبية التي تتمتع بسلطة تشريعية استثنائية مستمدة من الامتيازات الأجنبية .

« ولقد قدر قبل الحرب ان سكان ولاية بغداد كان يوجد بينهم خمسون ألف يهودي وستة آلاف مسيحي . وتعد الطائفة اليهودية في مدينة بغداد جزءاً مهماً من طبقات السكان يزيد على السنة والشيعة في العدد . وكان يرأسها حاخام أكبر . أما الطوائف الرئيسة الممثلة بين سكانها المسيحيين فقد كانت طائفة الكاثوليك ، والأرمن الغريغوريين ، والروم الكاثوليك . وكان بطريرك السريان الكاثوليك يقيم في بغداد .

« ويقول المستر يونغ في كتابه مجموعة القوانين العثمانية (الفصل الحادي والعشرون) المطبوع في ١٨٠٥ ان سلطات الطوائف العثمانية غير المسلمة كان لها مطلق الصلاحية الشرعية للبت في جميع الدعاوى العائدة لأفراد طائفتها فيما يختص بالزواج ، بما فيه المهر ، وهدية الزواج ، والنفقة والطلاق ، وان بعض الطوائف أيضاً كان لها الحق في حسم القضايا المتعلقة بالوصايا ، وان القرارات التي كانت تصدرها مثل هذه السلطات في دائرة عملها كانت تنفذها السلطات العثمانية كلها . ويضيف الى ذلك قوله انه منذ ان أعيد تنظيم الجهاز العدلي في ١٨٧٩ كان هناك ميل لدى الباب العالي لحصر نطاق الامتياز القضائي الخاص الذي كانت تتمتع به الطوائف غير المسلمة في نطاق ضيق على قدر الامكان . فقد حصرت في ولاية بغداد الصلاحية القضائية لهذه السلطات الدينية للطوائف غير المسلمة ، باعتبارها محاكم قانونية ، في حدود ضيقة ، وما لم تمارس هذه الصلاحية بموافقة جميع الفرقاء المعنيين كانت هذه الصلاحية لا تتجاوز عقد الطلاق ، والشهادة بشرعية البنوة ، والزواج وما يتعلق به ، والنفقة التي تدفع

للزوجة ، والشهادة بصحة الوصايا عند بعض الطوائف . اما الخلافات حول حقوق التركة فقد كان يبت فيها عادةً في المحاكم الاسلامية بموجب قواعد الشرع الاسلامي .

« وكانت المحاكم المختلطة في الامبراطورية العثمانية محاكم تختص بالنظر في الدعاوى المدنية والتجارية (غير الدعاوى المختصة بالممتلكات غير المنقولة) الحاصلة بين الرعايا العثمانيين ورعايا الدول الأجنبية التي كانت لها امتيازات قضائية خاصة ، أو ما بين الرعايا الأجانب أنفسهم . ولم تكن توجد مثل هذه المحاكم في ولاية بغداد . فان مثل هذه الدعاوى كان ينظرها القسم التجاري من محكمة بداية بغداد ، باضافة حاكمين موقتين من جنسية الفرقاء الأجانب المعنيين بالدعوى . فقد كان ترجمان القنصلية التي يعود لها المدعي او المدعى عليه الأجنبي يجلس مع الحكام في المحكمة ويوقع في السجل ، لكنه لا يشترك في سير المحاكمة . ذلك لأن قرار هذه المحكمة يستأنف ، كما مر ذكره سابقاً ، في المحكمة التجارية المختلطة في استانبول . »

« وللمحاكم القنصلية العائدة للدول التي تتمتع بسلطة قضائية خاصة بموجب الامتيازات الاجنبية ، في بغداد وغيرها من سائر انحاء الامبراطورية العثمانية ، سلطة قضائية مطلقة في الجرائم الجزائية التي يقترفها رعايا تلك الدول .. »

وقد أعلنت الحكومة التركية بعد نشوب الحرب بياناً ألغت فيه الامتيازات الأجنبية ، ثم ألغيت المحاكم المختلطة ، فلم يعد يعترف بسلطة المحاكم القنصلية القضائية . »

وبمشورة من السر ايدغار بونهام كارتراذاع القائد العام بياناً آخر في نهاية كانون الأول ١٩١٨ ينص فيه على تشكيل محكمة استئناف في بغداد ، ومحاكم بداية فيها وفي غيرها من الأماكن التي تتطلب ذلك . وقد ألغي حق التمييز في محكمة تمييز استانبول ، وخولت في محله محكمة الاستئناف والضابط العدلي الأقدم صلاحية تشبه صلاحية المحكمة العليا الهندية ثم صودق على

استمرار العمل في محكمة الصلح والمحكمة الشرعية التي كانت قد أسست في
تموز ، على ان تؤسس محاكم مشابهة لها حيثما تدعو الحاجة ، لكن سلطة محكمة
الشرع القضائية لم تبقَ على ما كانت عليه في أيام الترك . فقد حصرت في
دعاوى المسلمين السنة التي تنشأ عن الزواج والطلاق والوصاية ، والتركة ،
والوصايا وشؤون الاوقاف ، بينما نقلت السلطة القضائية التي كانت تتمتع بها
محاكم الشرع السنية تجاه الرعايا الشيعة والنصارى واليهود الى محاكم البداية
المدينة ، على ان تمارس بموجب قانون الأحوال الشخصية للفرد الذي تعود له
الدعوى او أية عادة تختص بها . فقد خولت المحاكم بأن تحيل مثل هذه الدعاوى
الى عالم روحاني شيعي ، أو الى السلطات الطائفية المسيحية او اليهودية .

وتستمر المحاكم المدنية على تطبيق القانون التركي بوجه عام ، الخاضع
للاضافات والتعديلات التي جاء بها بيان القائد العام ، بينما تسير أصول
المحاكمات بموجب قانون أصول المحاكمات النظامية التركي والتعديلات التي
طرات فيما بعد .

اما بالنسبة للقضاء الجنائي ، فقد كتب السر ايدغار بونهام كارتر في تقريره
السوي لسنة ١٩١٨ ما يأتي :

« جاء في نظريات القانون الدولي ان البلاد المعادية حينما يتم الاستيلاء عليها
يجب ان يطبق فيها قانون الجزاء المحلي ، اذا كان ذلك ممكناً ، واذا ما اتفق مع
مصلحة الجيوش المحتلة . وقد كان هذا غير ممكن في العراق كما يتضح ، نظراً
لأن قليلاً من الضباط البريطانيين كان ملماً باللغة التركية من جهة ، ولأن
القانون العثماني يتطلب وجود عدد غير يسير من المحاكم وحكام التحقيق
والمدعين العامين ، الذين يزيد عددهم على ما كان يمكن تهيأتهم بكثير سواء
من الجيش أو من موظفي الحكومة السابقة . غير ان قانون العقوبات العثماني
يعد بالاضافة الى ذلك قانوناً غير مرتب وغير كامل وصعب التفسير ، بينما
يكون قانون أصول المحاكمات الجزائية العثماني ، مهما كان اداة ملائمة لما
وضع اليه في البلاد الاكثر تقدماً ونفوساً من أجزاء الامبراطورية العثمانية ،

كثير التعقيد وغير قابل للتطبيق ما بين السكان الريفيين والبدو المتأخرين في بلاد ما بين النهرين .

« ولتبديل قانون العقوبات العثماني ، وقانون أصول المحاكمات الجزائية العثماني ، أصدر قانونان جديدان باسم « قانون العقوبات البغدادي » و « قانون أصول المحاكمات الجزائية البغدادي » . ولما كان شرح المصادر التي استقي منها هذان القانونان ، واهداف هذين القانونين ، قد ذكرت في المقدمتين اللتين الحقنا بهذين القانونين سوف يقتصر بحثي هنا على تكرار بعض الملاحظات المناسبة .

« فقد وضع هذان القانونان معاً لتناسب الأحوال التي تدار البلاد بمقتضاها في الوقت الحاضر ، ويقصد بهما ان يكونا قانونين موقتين . وهما سيستبدلان بطبيعة الحال ، بعد عقد الصلح ، بتشريعات أكثر ايفاءً بالمرام .

« ويستند قانون العقوبات البغدادي الى قانون العقوبات العثماني الذي كان معمولاً به في بغداد وسائر انحاء الامبراطورية العثمانية في وقت الاحتلال . اما قانون العقوبات العثماني نفسه فيعتمد على قانون العقوبات الفرنسي لكنه يحتوي على بعض الانحرافات المهمة عن ذلك القانون . وكان قد نشر في ١٨٥٩ ، وأدخلت تعديلات كثيرة عليه بين حين وآخر ، لكن هذه التعديلات كانت تعديلات غير متقنة في العادة . وكانت النتيجة ان أصبح للقانون العثماني بشكله الحالي قانوناً غير علمي ، وغير مرتب ، وناقصاً . ولذلك كان من الضروري إدخال تعديلات غير يسيرة ، واضافات ، على قانون العقوبات العثماني هذا . وقد أخذت هذه في الغالب من قانون العقوبات المصري ، المبني ايضاً على قانون العقوبات الفرنسي ، أو من مصادر مصرية أخرى . ولا غرو فان الأحوال المحلية في مصر وهذه البلاد تتشابه في كثير من الأحوال والمناسبات بحيث تكون الأحكام التي يمكن تطبيقها بسهولة في تلك البلاد من المحتمل ان تكون ملائمة للحالة هنا . وفي الوقت الذي أضيفت فيه اضافات كثيرة او أدخلت تعديلات غير قليلة ، واستبدلت بعض أجزاء القانون العثماني غير

المناسبة بأحكام مستمدة من مصادر مصرية بالكلية ، لم تجر أية محاولة لاجراء تعديل تام كامل في القانون العثماني .

« اما قانون أصول المحاكمات الجزائية البغدادي فيعتمد على قانون أصول المحاكمات الجزائية السوداني ، الذي كان قد وضع بتعليمات من اللورد كيتشنر بعد احتلال السودان ثانية » ، وقد برهن على كونه صالحاً لتلك البلاد .

« ويعتمد قانون العقوبات السوداني نفسه على قانون العقوبات الهندي في الدرجة الأولى ، لكنه يستمد أحكاماً مهمة تختص بتشكيل المحاكم وتصديق الأحكام واستئناف القرارات من القانون العسكري البريطاني . ويستمد القانون أيضاً بعض أحكامه من قانون أصول المحاكمات الجزائية العثماني الذي يعد مصدره في النهاية القانون الفرنسي .

« وتشكل بموجب القانون أربعة أصناف من المحاكم الجزائية ، وهي :

١ - المحاكم الكبرى ٢ - محاكم الجزاء من الدرجة الأولى ٣ - محاكم الجزاء من الدرجة الثانية ٤ - محاكم الجزاء من الدرجة الثالثة .

« ويعتبر الحكام السياسيون والحكام البريطانيون من حكام الدرجة الأولى ، كما يعتبر معاون الحاكم السياسي حاكماً من الدرجة الثانية . وبوسع الحاكم الملكي العام ان يعين اي شخص حاكماً من الدرجة الاولى او الثانية او الثالثة .

« والمحكمة الكبرى هي محكمة تتألف من حكام ثلاثة يكون من بينهم حاكم واحد على الأقل من الدرجة الأولى . وفي المناطق التي يوجد فيها حاكم بريطاني يعين هو رئيساً للمحكمة الكبرى اعتيادياً .

« وتتطلب الأحكام والقرارات التي تصدرها المحاكم الكبرى مصادقة الحاكم الملكي العام عليها ، اما الاحكام التي يصدرها الحكام فلا تحتاج الى مصادقة . لكن الحكم الصادر اذا كان يتجاوز الصلاحية المخولة له فانه يكون قابلاً للاستئناف لدى الحاكم السياسي او الحاكم الملكي العام .

« وبالإضافة الى الصلاحيات المخولة للحاكم الملكي العام والحكام السياسيين

بالنسبة للدعوى التي تستأنف عندهم فانهم مخولون كذلك بأن يعيدوا النظر في جميع الدعاوى . فللحاكم السياسي أن يطلب ، أو يعيد النظر ، في الحكم الذي يصدره أي حاكم من الحكام التابعين له ، كما يستطيع الحاكم الملكي العام ان يطلب ، او يعيد النظر ، في أي قرار تصدره أية محكمة من المحاكم الجزائية . « ويجدر بنا أن نذكر هنا قاعدتين رئيسيتين من القواعد التي تلاحظ في قانون العقوبات البغدادي :

« فقد اتخذت أولاً تدابير كافية لاجراء المحاكمات محلياً في جميع الجرائم ومن دون حصول تأخير غير ضروري . ويعد هذا المبدأ مهماً في جميع البلاد ، لكنه يعتبر مهماً على الأخص في بلاد ما بين النهرين ، حيث ما يزال البعير والحمار من وسائل النقل الرئيسة للناس ، وحيث يكون قسم كبير من السكان في حالة التخلف . فان جلب المتهم والشهود من مسافات بعيدة للمحاكمة قد يكون بحد ذاته صعوبة خطيرة في بعض الاحيان . يضاف الى ذلك ان الشخص المتهم الذي يملك دفاعاً نزيهاً عن نفسه يستطيع ان يقدم ذلك الدفاع بسهولة متناهية في بلاده حيث يكون معروفاً لدى الجميع . بينما قد يصبح الدفاع غير النزيه ، الذي يكون غير ممكن في محل وقوع الجريمة ، مقبولاً في المكان البعيد . ومن السهل أكثر على الشهود ان ينطقوا بالصدق في مناطقهم ، حيث يمكن ان تصل الشهادة في الحال الى مسامع جيرانهم بينما يصعب ذلك ما بين الغرباء الموجودين في محكمة بعيدة عن بلدهم . والرحلة الطويلة تمهد للاتصال الذي يمكن ان يحصل بين الشهود ، وحتى بين الشهود والمتهم ، مما قد يؤدي في كثير من الأحوال الى طمس معالم الجريمة .

« والميزة الثانية لقانون أصول المحاكمات الجزائية البغدادي هي أنه يهيء وسائل كافية ، عن طريق الاستئناف والتصديق ، للاشراف على سير القضايا الجنائية في جميع انحاء البلاد المحتلة . إذ يخول الحاكم السياسي في المنطقة صلاحية إعادة النظر في الدعاوى التي ينظر فيها الحكام الموجودون في منطقته . ويصادق الحاكم الملكي العام ، الذي يعد السكرتير العدلي بالنسبة اليه شبيهاً

بالمدعي العام ، على جميع الدعاوى التي تبت فيها المحاكم الكبرى وله صلاحية إعادة النظر في أية دعوى يبت فيها الأحكام . ويتحاشى هذا النظام من جهة أخرى الاعتراضات الرئيسة التي قد تحصل في جهاز الاستئناف في المحاكم المؤسسة رسمياً . إذ يجب ان يكون هناك أقل ما يمكن من التأخير وأقل فرصة ممكنة لنقض القرارات على أسس شكلية بحتة . »

وقد فتحت المحاكم في بغداد في وقت انتهاء مفعول المورatorium الذي كان الأتراك يمددونه من وقت لآخر ، تبعاً لدفع أقساط الدين . إذ تقرر ، بعد استشارة التجار المحليين ، أن لا يحصل أي تمديد آخر . فثبت ان القرار كان تدبيراً حكيماً . وأدرك أصحاب الدين عند افتتاح المحاكم ان التأخير لم يعد في مصلحتهم ، فدفع أكثرية المديونين ديونهم أو اتفقوا مع دائنيهم من جديد ، وكانت النتيجة ان أصبح عدد الدعاوى التي كانت ترد الى المحاكم قليلاً نسبياً . وكانت السهولة التي اختفى بها المورatorium دليلاً ناصعاً على الازدهار الذي كان الاحتلال البريطاني قد جاء به الى الأوساط التجارية في البلاد .

وقد أصبح تبدلان مهمان في ادارة الشؤون القضائية نافذ في مفعول في غرة كانون الثاني ١٩١٩ . فقد طبق أولاً النظام العدلي المعمول به في ولاية بغداد في البصرة كذلك ، ولم يبق في الوجود القانون العراقي المبني على القوانين الهندية ، الذي كان معمولاً به منذ سنة ١٩١٥ . فقد كان من المرغوب فيه ، ادارياً وسياسياً ، ان ينفذ هذا الدمج بين الولايتين . ولذلك صار من الممكن تعيين الموظفين في محاكم الولاية الجنوبية من العرب بأكثر مما كان يسمح به من قبل ، واستبدل قانون كان غريباً على المتخصصين بقانون مألوف عندهم . وأخضعت المحاكم في ولاية الموصل الى نفس الجهاز كذلك . وكانت محكمة بداية الموصل المحكمة الوحيدة التي تسلمناها وهي قادرة على العمل من العهد التركي الزائل . فمع أن عدداً من الأحكام قد غادروا البلاد مع الأتراك ، فقد كان من الممكن إعادة تنظيم هذه المحكمة في الحال . فقد أنقص عدد الأحكام وزيدت روايتهم .

وقد أسست في الوقت نفسه دائرة عدلية يرأسها رئيس اداري هو «السكرتير العدلي» المسؤول تجاه الحاكم الملكي العام عن ادارة الشؤون العدلية في البلاد من دون ان يقوم بواجبات قضائية . فعين السر ايدغار بونهام كارتر لهذا المنصب . وفي هذا الشأن كتب يقول : « ان بعض السبب لهذا التبديل قد يلفت النظر . فان بريطانيا العظمى ، من دون سائر الدول الأوروبية ، لم تكن فيها وزارة للعدل في يوم من الأيام . ولا يمكن تبرير عدم وجود وزارة مثل هذه بأسباب منطقية ، لكن ذلك يرجع الى أسباب تاريخية . وكانت الطريقة الانكليزية هذه قد اتبعت في معظم المستعمرات البريطانية وتوابعها ، من دون تبرير الأسباب التاريخية الموجودة في بريطانيا العظمى نفسها . ومن الممكن ان يناقش المرء بأن تأسيس وزارة للعدل يمكن ان يكون شيئاً مفيداً لادارة الشؤون العدلية حتى في بريطانيا العظمى . ومهما كان من الأمر ، فان هناك فوائد غير مشكوك فيها ، عند إقامة نظام قضائي في البلاد ، في وضع المحاكم بعهدة رئيس اداري مطلع ، بصفته جزءاً من الجهاز الاداري المركزي ، على سياسة الحكومة واتجاهات المحاكم معاً ، وعرضةً لنقد زملائه وجمهور المواطنين . ولا تعتمد الادارة الكفء للشؤون العدلية على الأحكام الصحيحة التي تنفرد بها المحاكم ، والتي يجب ان يكون الأحكام مستقلين فيها تمام الاستقلال ، وانما تعتمد أيضاً على الشؤون الادارية كذلك . وينطبق هذا على الأخص حيث توجد جنباً الى جنب ، كما في هذه البلاد ، مجموعتان من المحاكم وهما مجموعة المحاكم النظامية (المدنية) ومجموعة المحاكم الشرعية ، وحيث توجد مناطق غير قليلة يكون السكان فيها على درجة غير كافية من التقدم الذي يتطلبه وجود نظام عدلي راقٍ يتصف بالصلابة . »

وقد وصف السكرتير العدلي في تقريره السنوي لسنة ١٩١٩ تنظيم المحاكم كما كانت عليه في نهاية تلك السنة بقوله : « فان المحاكم المدنية ، التي تحل محل ما كانت تمارسه المحاكم النظامية التركية من سلطة مدنية وتجارية ، لها سلطة قضائية عامة الا في القضايا التي تقع في ضمن صلاحيات المحاكم الشرعية . وتكون على ثلاثة انواع :

« ١ - محكمة استئناف بغداد و ٢ - محاكم البداية و ٣ - محاكم الصلح .

« محكمة الاستئناف - ان محكمة الاستئناف التي تعمل في بغداد هي محكمة الاستئناف العليا لجميع المناطق المحتلة ، وتحل محل محاكم الاستئناف التركية الثلاث في ولايات بغداد والبصرة والموصل . غير انه بينما كانت قرارات هذه المحاكم خاضعة للتعديل واعادة النظر بها من قبل محكمة التمييز في استانبول ، فان قرارات محكمة الاستئناف الحالية تعتبر نهائية .

« وتتألف محكمة الاستئناف في الوقت الحاضر من رئيس بريطاني وحاكمين عربيين ، بينما كانت محكمة الاستئناف التركية تتألف اعتيادياً من رئيس تركي وأربعة حكام عرب . ويتقاضى حكام محكمة الاستئناف الحالية راتباً قدره ألف روبية في الشهر ، بينما كان رئيس محكمة الاستئناف التركية يتقاضى خمساً وثلاثين ليرة تركية شهرياً ، وكان عضو هذه المحكمة الاعتيادي يتقاضى خمس عشرة ليرة تركية في الشهر .

« وتستأنف قرارات كل محكمة من محاكم البداية في محكمة الاستئناف . وكانت قرارات حكام الصلح بموجب القانون التركي غير قابلة للاستئناف بل لاعادة النظر فيها فقط ، وباعتبار أصبح انها كان من الممكن ان توضع جانباً من قبل محكمة التمييز في استانبول . اما الآن فان قرارات محاكم الصلح يمكن ان تستأنف في محكمة استئناف بغداد التي تستطيع ، بالاضافة الى ما كانت تستطيع عمله محكمة التمييز التركية في استانبول من رد القرار والأمر باجراء محاكمة جديدة ، ان تصدر قراراً نهائياً في القضية اذا تيسرت لديها المعلومات الكافية لذلك .

« محاكم البداية - وكانت هناك في أيام الترك محكمة بداية في مقر كل لواء من الألوية ومقر كل قضاء من الأقضية . وكانت المحكمة في مقرات الألوية ومقرات الأقضية المهمة تتألف من رئيس ، يتقاضى ست عشرة ليرة تركية في الشهر ، وعضوين يتقاضى كل منهما عشرة ليرات شهرياً . اما في بغداد فقد

كانت في هذه المحكمة هيئة للشؤون المدنية وأخرى للشؤون التجارية . وفي الأقضية غير المهمة كان قاضي الشرع يرأس هذه المحكمة ، ويشترك معه لتأليفها عضوان من الأهالي المحليين ، غير المدرجين على العمل القانوني ، وكانا يتقاضيان شيئاً من المخصصات عن هذا العمل . وكان مجموع محاكم البداية في بغداد والبصرة والموصل عشرة محاكم أولوية ، وأربعين محكمة قضاء . ومن الواضح انه كان هناك عدد من المحاكم أكثر من الحاجة بكثير ، وبالنظر لمستوى الرواتب التي كانت تدفع كانت معظم هذه المحاكم لا تتصف بالكفاءة المطلوبة .

« وقد استبدلت هذه المحاكم بالمحاكم الجديدة الآتية :

١ - محكمة بداية في بغداد تتألف من رئيس بريطاني ونائب رئيس عربي وأربعة أعضاء .

٢ - محكمة بداية في الحلة تتألف من رئيس بريطاني وحاكم عربي ومن قاضي المحكمة الشرعية السني أو الشيعي .

ويعمل الرئيس في عدة أماكن فيترأس المحكمة في النجف وفي كربلاء أيضاً .

٣ - محكمة بداية في بعقوبة تتألف من رئيس بريطاني وحاكم عربي وقاضي المحكمة الشرعية السني .

٤ - محكمة بداية في البصرة تتألف من رئيس بريطاني وحاكمين عربيين .

٥ - محكمة بداية في الموصل تتألف من رئيس بريطاني وحاكمين عربيين . و يترأس الرئيس المحكمة في أربيل أيضاً .

« ويتقاضى نائب الرئيس في محكمة بغداد راتباً قدره ثمان مئة روبية في الشهر ، ويتقاضى معظم حكام محاكم البداية راتباً قدره خمس مئة وخمسة عشر روبية في الشهر . وبالنظر لتكاليف المعيشة العالية سيكون من الضروري بمرور الزمن تزويد رواتب الحكام .

« وإذا كان عدد محاكم البداية في أيام الترك كثيراً فإن عددها الحالي يعتبر غير كافٍ ، ومن الضروري ان يزداد كلما أمكن الحصول على حكام ذوي أهلية .

« محاكم الصلح - لقد كانت هذه المحاكم من ناحيتها المدنية محاكم للدعوى الموجزة لها سلطة قضائية للنظر في الدعوى التي تتضمن مبالغ لا تزيد على الخمسين ليرة تركية . وكانت قد أسست قبيل نشوب الحرب بمدة وجيزة ، فوجدت بصفتها المستقلة في مكانين او ثلاثة فقط من بلاد بين النهرين .

وقد أسست محاكم الصلح منهذ عهد الاحتلال في بغداد والبصرة والموصل والعمارة وكركوك . اما الأماكن الأخرى فيتولى حكام البداية وقضاة الشرع فيها اعمال حكام الصلح بالاضافة الى واجباتهم الأصلية ، وفي الأماكن التي لا يوجد فيها أي نوع من المحاكم يقوم بعمل حكام الصلح معاونو الحكام السياسيين وسائر الموظفين الحكوميين بسلطات متفاوتة . »

هذا وقد أسست في المناطق المحتلة حوالي ثلاثين محكمة شرعية للمسلمين . وفي مكان محكمة النقض في استانبول ، حيث كانت تستأنف قرارات قضاة الشرع في أيام الترك ، أسست في بغداد محكمة للتمييز الشرعي تتألف من ثلاثة قضاة شرع . وبإمكان الشيعة الآن إحالة الدعوى التي لها علاقة بالاحوال ما بين الشيعة الى قضاة شرع شيعيين كانوا قد عينوا في الأمكنة التي كانت تدعو الحاجة لوجودهم . وبالنسبة للطائفتين المسيحية واليهودية ، تستمر الآن في الاضطلاع بواجباتها السابقة المحاكم الروحانية الخاصة بسلطات محدودة للبت في شؤون الزواج والشرعية في العلاقات العائلية وما أشبه . وقد كان تأسيس محاكم شرعية للشيعة أمراً له ما يبرره تمام التبرير . وكان من حسن حظ الحكومة في هذا الشأن ان تحصل على خدمات أناس يحظون بتقدير الجميع واحترامهم ليعملوا قضاة للشرع . وبالنظر لصعوبة تشكيل محكمة تمييز تلاقي قبولاً عاماً في جميع أنحاء البلاد العراقية ، لم تشكل مثل هذه المحكمة حتى الآن ، ولذلك فان ندرة حصول الظلامات او تقديم العرائض ضد قرارات الحكام في المحاكم

تعتبر أمراً يفني بالمرام . على ان تعيين قضاة شرع في كربلا والنجف ينطوي على صعوبات خاصة بالنظر لمنزلة المجتهدين الممتازة في هاتين المدينتين ، لأن قسماً من السلطة التي يتمتعون بها كانت تنأى من أن الشيعة كانوا معتادين على رفع خلافاتهم للتحكيم عندهم بدلاً من رفعها الى المحاكم التركية . ومع هذا فقد عيّن أحد القضاة في كربلا مؤخراً .

تقرير عن محكمة الاستئناف

وهناك مذكرة مهمة ملحققة بالتقرير كتبها المستر ايج أيف فوربس رئيس محكمة الاستئناف عن المحكمة نفسها ، يقول فيها :

« ان تشكيل محكمة للاستئناف أمر ينعكس فيه استقرار العراق التدريجي وسيادة أحوال السلم في ربوعه ، من ناحية تشكيل المحكمة نفسها والازدياد المطرد في الاعمال المتأتية عن إعادة فتح المحاكم في البلاد بصورة عامة . ولذلك فان استعراض الاعمال التي حصلت في السنة الماضية سيكون مبتوراً من دون اشارة الى النظام القضائي التركي ، والتقدم التدريجي الناجح المتأتي عن جعل المحاكم مكتفية بذاتها ومستقلة عن استانبول .

« لقد كانت توجد في البلاد الى حين نشوب الحرب محاكم استئنافية مشتركة للشؤون المدنية والجزائية ، أو محاكم بداية بسلطات استئنافية محدودة في البصرة وبغداد وبعقوبة وكركوك وكربلا والمنتفك والموصل والديوانية . وكانت قراراتها قطعية ، عدا عن ان عريضة أخرى كان يمكن ان تقدم الى محكمة النقض في استانبول . وكان حق النقض هذا ضرورياً جداً بالنظر لتشكيلات الفروع . فان هذه الفروع كانت تتألف في الغالب من أناس أشباح

(١) لاحظنا في قائمة أرنولد ويلسن ان شخصاً يدعى الشيخ محمد قد تعين نائباً للجعفرية في كربلا بتاريخ ١٦ / ١ / ١٩٢٠ .

كان الكثيرون منهم يجهلون القانون او عندهم معلومات قليلة عنه ، وكانوا في الحقيقة عبارة عن دمي لا تفيد الا في تدوين آراء الرئيس وتنفيذها . وكان الرئيس عادة من الأتراك ، كما كان شغل المحكمة كله في يده . فاذا ما كان نشطاً عفيفاً كان النتائج ممتازاً ، والا فان الدمي المحيطة به كان يمكن ان يعتمد عليهم دوماً في تمشية رأيه بالأكثرية . وبنتيجة ذلك ، كانت كل دعوى يبت فيها توخذ إلى محكمة النقض بطبيعة الحال . على ان محكمة النقض هذه لم تكن لها صلاحية إصدار القرارات ، وانما كان يمكنها ان تصادق عليها أو توصي محكمة التمييز باصدار قرار جديد لها . وبهذه الطريقة كانت الدعاوى تستغرق في العادة سنين عدة قبل ان يصدر قرار بشأنها ، وعند ذاك كثيراً ما يكون الحكم الأصليون قد تبدلوا عندما تكون الدعوى قد عادت في النهاية الى محكمة البداية .

« وبصودر ملحق قانون أصول المحاكمات المدنية في سنة ١٣٢٨ للهجرة الذي يجبر المستأنف على استئناف قضيته برمتها ، أي غير مجزئة كما كان يجري في السابق ، وبسن قانون حكام الصلح في سنة ١٣٢٩ الذي يحدد حق الاستئناف بالمبالغ التي تزيد على خمسين ليرة تركية فقط ، تمكن الأتراك من تحقيق إصلاح كانت الحاجة ماسة اليه . على ان التأثيرات التامة التي أحدثتها هذه التبدلات لم تكن قد ظهرت بعد حينما نشبت الحرب ووقفت جميع المحاكمات تقريباً . وقد تكدست الدعاوى المتأخرة في محاكم الاستئناف تكديساً هائلاً بحيث تأخر البت فيها حتى في الموصل لمدة ست سنوات ما بين سنتي ١٣٢٩ و ١٣٣٥ هجرية .

« وتمتع محكمتنا بأرجحية غير يسيرة ، بكونها بدأت بصفحة بيضاء تقريباً كانت في الحقيقة قد جعلت أكثر بياضاً بتلف سجلات المحاكم عامة في أنحاء العراق كافة عند تقهقر الجيش التركي وتراجعهم عن البلاد . على ان تنفيذ القوانين الجديدة لا بد من أن يجعل هيئة واحدة في المحكمة تكفي للنظر في جميع الدعاوي المستأنفة من أنحاء العراق كلها ، لعدة سنوات قادمة . ومن المفيد للمتقاضين بالاضافة الى ذلك أن يكون بوسعهم الاستفادة من محاميي

بغداد في استئناف دعاوهم ، لأن المحامين في خارج بغداد من نوعية عادية جداً في الغالب . كما ان البلاد كلها ستستفيد من تخفيض النفقات بسبب دمج ثمان محاكم استئناف في محكمة واحدة . وسيزيل استئناف المواصلات بين المدن أية صعوبة يمكن ان يلاقوها المتقاضون في المجيء الى بغداد . واني واثق بأن تأليف محكمة واحدة قوية مستقلة - لا تشبه محكمة الدمى التي كانت موجودة من قبل - سوف تعوض الناس عن ضياع حق النقض الى اقصى حد ممكن . »

ثم يتابع السر ايدغار بونهام كارتر بحثه في تقريره ويقول « ومع ان قانون أصول المحاكمات الجزائية ، وقانون العقوبات ، كان يقصد بهما ان يكونا قانونين موقتين ليحل محلهما قانونان اكثر دقة واستكمالاً للأمر عند عقد الصلح ، فقد سارا سيراً مرضياً وثبتت ملائمتهما لمتطلبات البلاد . ولم تكن للكثيرين من الحكام الا خبرة قليلة سابقة في تطبيق قانون الجزاء ، لكن المرافعات جرت بعناية ودقة ، والعقوبات المفروضة بموجيها ، كانت منصفة بوجه عام .

« وباستقرار الأحوال في البلاد ، وانتشار ظروف السلم فيها ، وتزايد عدد الموظفين العدليين ، بات من الممكن إجراء الترتيبات اللازمة بأن تؤخذ الجرائم الخطيرة جداً الى محاكم كبرى تتألف من حاكم بريطاني وحاكمين من العرب . ولهذا الترتيب فائدتان : أولاها تهيئة محكمة متألفة من حكام مدربين وثانيتهما اشراك العرب والبريطانيين في بسط المعدلة .

« وقد عين كذلك عدد من الحكام العرب في مختلف الدرجات . فمن الملاحظ ان تطبيق قانون الجزاء في هذه البلاد يعد شيئاً صعباً ولا يتطلب في الحكام ان تكون عندهم معرفة تامة باللغة وأفكار الناس فقط بل تتطلب أيضاً خبرة في شؤون القضاء وممارسة العناية الفائقة بالأمر . فان الدلائل والبيانات في كثير من أنواع الدعاوى لا يعتمد عليها تماماً . ويمكن تصنيف شهود الزور الى ثلاثة أصناف رئيسية . فهناك أولاً الشاهد الذي يأتي من الطبقات الكبيرة غير المتمدنة وغير المتعلمة من الناس ، والذي لا يقدر قيمة البينة أو الدليل

ويعجز عن التمييز ما بين ما رآه وشاهده هو بالفعل وما قيل له أن يصرح به أو ما يستنتجه بالقريئة .

« وهناك ثانياً الشاهد الذي يرى ، بعد ان حصلت عنده قناعة ، غير مبنية على أسس كافية في الغالب ، بأن المتهم مذنب وأن الغاية تبرر الوسطة فيحاول اسباغ أهمية زائدة على ما عنده من دليل بايراد تفصيلات موضوعية غير حقيقية . وكثيراً ما يرد هذا النوع من الأدلة في دعاوى القتل التي يكون الدافع اليها الانتقام أو الخلافات العشائرية . وتقرّف مثل هذه القتل عادةً في ظروف تحول دون التشخيص الاكيد للقاتل من قبل أي شخص موجود . فمن المعروف عند أصدقاء القتل وأقاربه ان القاتل هو أحد أشخاص معدودين ، وبعد بضع ساعات من المداولة يكون جميع من شهد الجريمة مستعدين للقسم على تعيين القتلة أو القاتل . ولا غرو ، فان الناس الناشئين على العادات العشائرية التي تجعل العشيرة كلها مسؤولة عن أية جريمة قتل يقترفها أي فرد من أفرادها ، لا تعبر أهمية كبرى نسبياً للتأكد من ان هذا الفرد من أفراد العشيرة قد اقترف جريمة القتل ام ذاك .

« ومن الممكن ان يلتمس بعض العذر للنوعين الموصوفين هذين من أنواع شهادة الزور في جهل الناس وعاداتهم . لكن شاهد الزور الخبيث المتعمد لا يمكن التماس العذر له في أي شيء . وقد يكون مثل هذا النوع أقل شيوعاً في هذه البلاد من بعض البلاد الأخرى التي تعتبر على جانب اكبر من التقدم في العادة . لكن استثناءً واحداً يجب ان نعلم اليه في حالة الأشخاص الذين يتهمون بالجريمة هم أنفسهم . فان استحصال الدليل بتقديم العفو لمقترف الجرائم كان طريقة اعتيادية كثيراً ما كان يلجأ اليها الشرطة الأتراك على ما يبدو . وهذا من شأنه ان ينشأ عنه اعتقاد عام بأن أسلم طريقة للمتهم هي ان يتهم شخصاً آخر غيره .

« واذا ما أخذنا بنظر الاعتبار حالة الأمن العام غير المريحة في البلاد على عهد الأتراك ، وكون فترات الحرب يعقبها في العادة تزايد غير يسير في حوادث

العنف ، نجد ان عدد الجرائم كان أقل مما كان ينتظر ، ويعد هذا دليلاً ناصعاً على كفاءة العمل الإداري الذي يسأل عنه الحكام السياسيون . إذ كان المعنيون بالأمن العام يحافظون عليه تمام المحافظة . فقد أفلق منطقة ديالى بعد احتلالها عدد من اللصوص وقطاع الطرق الجريئين ، ولم تخل منطقة الموصل من الشيء نفسه . لكن القبض على المجرمين الرئيسيين في منطقة ديالى والحكم عليهم بالاحكام المناسبة قد أعاد الأمن الى نصابه هناك .

« على ان الأحوال في منطقة الموصل تعد على جانب أكبر من الصعوبة ، لكن الأمن كان يسير نحو التحسن باطراد . وقد نفذت خلال السنة أحكام الاعداد في ثمانية وعشرين شخصاً .

« وهناك نوعان من الجرائم يشيع وجودهما بصورة مؤسفة هنا ، وهما مغروران في طباع الناس بحيث يصعب استئصالهما . وأولهما القتل بدوافع الانتقام والضعينة ، وكثيراً ما تقترن هذه القتل بظروف تتميز بوحشية متناهية . فقد ينتظر أحد القتلة في الليل على باب عدوه فيطلق النار عليه عند خروجه من داره . او قد تقتحم عصابة من الرجال في الليل دار ضحيته ويطلقون النار عليه بينما يكون نائماً في فراشه بين أهله وأسرته .

« والنوع الثاني هو قتل الأسرة للبنات أو المرأة المتزوجة غير المحصنة . فليس هناك بين العرب العشائريين ، في هذه البلاد أو غيرها من البلاد الأخرى ، شفقة أو رأفة على البنات التي تحيد عن الطريق السوي للفضيلة ، لأنها تلطخ شرف الأسرة الذي لا يمكن أن يغسل الا بدمها . لكن هذا الشعور يمتد في بلاد بين النهرين الى خارج حدود العشائر الأصلية . فاذا كانت الدعاوى التي وصلت الى خلال السنة الماضية تعتبر شيئاً مميزاً لهذا المجتمع فان العرف في هذه البلاد يختلف اختلافاً مشيناً عما يتقيد به العرب في بلاد أخرى . إذ يبدو هنا ان أفراد الأسرة التي تنتمي اليها البنات لا يجازفون بحياتهم ، كما يحصل في البلاد الأخرى ، لقتل حبيب البنات كما تقتل هي نفسها .

« وينص قانون دعاوى العشائر المدنية والجزائية على طريقة اجراء المحاكمة في المجلس العشائري الذي يعينه الحاكم السياسي عن المخالفات والجرائم التي يقترفها أفراد القبائل وانزال العقوبات بهم بموجب قانون العشائر . ومن فوائده القانون انه يساعد الحكام السياسيين على النظر في القضايا التي تحصل بين القبائل غير الخاضعة لسيطرة الحكومة التامة ، بسبب صعوبة الوصول اليها أو غير ذلك من الأسباب ، او التي تكون الحكومة غير مستعدة للاضطلاع التام بواجبات المحافظة على الأمن والنظام بينها . وكذلك في القضايا العشائرية عندما تكون الأدلة غير كافية لتنظر فيها محكمة الجزاء الاعتيادية ، بينما تكون الحقائق المطلوبة معروفة في أوساط القبيلة ويمكن ان يبت فيها في مجلس عشائري تيسر له مصادر للمعلومات لا يمكن ان تيسر للمحكمة الاعتيادية . على ان العقوبات التي يمكن ان يقررها القانون العشائري تنحصر في عقوبتي الغرامة والحبس ، حيث ان عقوبة الاعدام لا يمكن ان تصدرها الا محكمة الجزاء الاعتيادية .

« ويقضي القانون العشائري بأن تحصر العقوبات بالتعويض والغرامة ، اما بالنسبة للقتل فالقانون ينص على أن النفس بالنفس . ومن واجبات أقارب القتل ان ينتقموا لقتله ، ولكنهم يمكن ان يحسموا الجريمة بقبول الغرامة (الدية) ، والناس في هذه البلاد يقبلون بذلك عادة . على ان هدف الانتقام غير محدود بالنسبة للقاتل . فاذا كان القاتل والقتيل ينتمون الى اسرتين مختلفتين في نفس الفرع من القبيلة فان أقارب القتل لهم الحق بقتل أي رجل ينتمي الى أسرة القاتل . اما اذا كان القاتل والقتيل من فرعين مختلفين من فروع القبيلة فان أي رجل من رجال الفرع الذي ينتسب اليه القاتل معرض الى الانتقام . وكذلك لا تدفع الدية من قبل القاتل وحده ، وانما تدفعها ايضاً أسرته ، أو فرع قبيلته ، او قبيلته كلها تبعاً للظروف والأحوال . وقد ينفي القاتل ايضاً ويطلب اليه الرحيل عن قبيلته عن جريمة القتل أو أية جريمة خطيرة أخرى .

« ولا يعد قانون العشائر وسيلة فعالة لمنع وقوع الجريمة ، لأن تبعة الجريمة لا تقع على المجرم الذي يقترف الجريمة وانما تقع على الأسرة او القبيلة التي

ينتسب اليها أو فرع من فروعها . وهكذا يمكن ان تكون حصة القاتل من الدية شيئاً تافهاً . وقد كان هنا اتجاه عند الحكام السياسيين في بعض المناطق نحو الاستفادة من بعض نصوص القانون التي تنص على إحالة بعض القضايا الى المحاكم الاعتيادية أحياناً . ولذلك صدرت نشرة خاصة تشير الى الحدود التي يجب ان تنحصر فيها الاستفادة من قانون دعاوى العشائر . »

وفي ختام تقريره يورد السر ايدغار مقارنةً طريفة بين المحاكم التي شكلت بعيد الاحتلال والمحاكم التي حلت في محلها :

فهو يقول « ان المحاكم القائمة تسير على أصول المحاكمات التركية ، وهي ، فيما عدا بعض الحكام البريطانيين ، تعمل بواسطة الحكام والكتبة العرب . فالى أي مدى اذن تكون متفوقة على المحاكم التركية القديمة يا ترى ؟ ان المرء يستطيع ان يلفت النظر في الجواب على هذا السؤال الى الاعتبارات التالية من دون ان يحاول الدخول في تفاصيل طويلة :

« ١ - ان اشتغال المحاكم وسيرها يتم باللغة العربية ، وان جميع سجلات المحاكم المدنية تمسك بالعربية كذلك بدلاً من اللغة التركية الغربية عن بلاد بين النهرين ، كما كان يجري السابق .

٢ - ان حكام المحاكم المدنية هم حكام نزيهون . فقد اصبح عدم النزاهة في المحاكم التركية مضرراً للأمثال في الشرق ، وكل من يتعب نفسه بالتحقيق في هذا الشأن من الناس المقيمين في هذه البلاد الذين كان يمكنهم معرفة أحوال البلاد سرعان ما يقتنع بأن سمعة المحاكم السيئة في هذا الشأن لم تكن في غير محلها .

« فالقول ان حكام محكمة بغداد الشرعية في الأربعين السنة التي سبقت عهد الاحتلال لم يكن بينهم الا حاكمان من الحكام النزيهين . وهناك أناس يعيشون في بغداد اليوم قد انتقلوا من حالة الفقر المدقع الى الغنى بمجرد اشتغالهم سنوات معدودة فقط في وظيفة من وظائف القضاء الشرعي غير

المهمة . فقد سنحت لي الفرصة مؤخراً لقراءة التقارير والحسابات التي قدمها المسؤول عن ادارة مقاطعة تعود لأحد الرعايا البريطانيين المقيمين في بغداد ، بعد ان توفي قبل نشوب الحرب ببضعة أشهر فقط . فقد اقتضى خلال سير المعاملات الادارية ان يزور ذلك الموظف المحكمة الشرعية لتسجيل بعض المستندات فيها . فطمنه القاضي بأن معاملته كانت صحيحة وليس فيها اي نوع من الصعوبة . لكن الورثة ظلوا يراجعون المحكمة في عدة مناسبات من دون ان تروج معاملتهم ، فأدرك أحدهم سبب هذا التعطيل وذهب تَوَّأ الى مواجهة القاضي فوعده بأن يدفع له عمولة خاصة عند انتهاء المعاملة . وعندذاك لم يصب المعاملة أي تأخير ، وقد وجدت في حسابات المقاطعة هذه الموجودة بسين سجلات القنصلية البريطانية الفقرة المسجلة التالية : « الى القاضي عن أتاعبه ١٥ ليرة تركية » . ولما كان العمل في هذه الحالة لم يتطلب المرافعة فانه لم ينطوي على أي إخلال بالعدالة . لكن الرشوة لم تكن محصورة بالأعمال التي ليس فيها مرافعة او محاكمة ، ولا في محاكم الشرع فقط . فقد أخبرني تجار لهم منزلتهم في البلاد بأنهم لم يكونوا يستطيعون الحصول على العدالة في معاملاتهم ما لم يدفعوا شيئاً من أجلها .

٣ - ان الدعاوى تنظر بسرعة معقولة في محاكم البداية والاستئناف معاً ، حيث ان الافراط في التأخير الذي كان يتصف به النظام التركي في القضايا المدنية والجزائية أصبح شيئاً من الماضي .

٤ - لقد رفعت منزلة المحاكم ، وأمكن الحصول على مستوى عالٍ من الأهلية والكفاءة بتقليل عدد المحاكم ، وانتقاء المحكام بعناية ، وزيادة رواتبهم . « على ان المحاكم المدنية من جهة أخرى ما تزال تعيق تقدمها وسيرها المعتاد قواعد استخراج الأدلة البالية والقوانين القديمة . »

مدرسة الحقوق

وتنطوي الصعوبة الكبرى ، حينما يراد تزويد البلاد بالمحاكم الكافية ، في ايجاد حكام بريطانيين يجيدون العربية وحقوقيين مدربين من العرب . وقد اتخذت

الخطوة اللازمة لتدريب الحقوقيين من أبناء البلاد باعادة فتح مدرسة الحقوق^١ في بغداد خلال تشرين الثاني ١٩١٩ . فكانت المدرسة العالية الوحيدة فيما بين النهرين التي كان المدرسون فيها تدفع لهم رواتب محترمة ، ولذلك كانت تتمتع بشيء من حسن السمعة . وكانت مدرسة الحقوق هذه قد أسست سنة ١٩٠٨ وأغلقت أبوابها بنشوب الحرب . كما كان الطلاب الذين أكملوا دراسة الأربع سنوات فيها غير قادرين على اتمام دراساتهم فيها والحصول على الشهادة منها . فوجد السكرتير العدلي من الضروري التغلب على هذه الصعوبة بأسرع ما يمكن ، ومع ان عدم تيسر وسائل السكن والمدرسين المطلوبين كان يحول دون إعادة تأسيس المدرسة في الحال على أسس ما قبل الحرب فقد اتخذت الاجراءات لمساعدة جميع الطلاب السابقين على اكمال دراساتهم في سنة واحدة أو سنتين . وقد انتهز هذه الفرصة حوالي خمسين طالباً . وهناك فرق أساسي واحد ما بين المدرسة الجديدة والمدرسة القديمة . وهو ان التدريس في عهد العثمانيين كان يجري كله باللغة التركية فأصبح يجري تحت الاشراف البريطاني باللغة العربية كلية . وكان فتح المدرسة من جديد شيئاً في محله ، لأن الادارة الحكومية كانت

(١) يفهم مما يذكره الاستاذ توفيق السويدي في مذكراته (بيروت ١٩٦٩) أن أول كلية للحقوق في العراق تأسست في سنة ١٩٠٨ ، في عهد الوالي المصلح الثاني ناظم باشا . فقد أصدر السلطان عبد الحميد ارادة ملكية بتأسيس ثلاث كليات للحقوق في انحاء الامبراطورية العثمانية ، علاوة على كلية الحقوق التي كانت موجودة في استانبول . وقد تقرر أن تؤسس إحداها في سلانيك ، والأخرى في قونية ، والثالثة في حلب . وحينما علم يوسف السويدي (والد توفيق) بذلك قصد الوالي ناظم باشا ورجاه التوسط بفتح كلية الحقوق المخصصة لحلب في بغداد لقرب حلب من العالم وانزواء بغداد أو انعزال موقعها . فتوفق ناظم باشا في إقناع الحكومة المركزية في استانبول بالفكرة ، وتم افتتاح كلية حقوق بغداد في تموز ١٩٠٨ أي بعد أن أعيد الدستور الى البلاد العثمانية وتأسست الادارة البرلمانية الديمقراطية فيها . وحينما استولى الانكليز على بغداد عين لها عميد انكليزي يدعى المستر بيل ، ثم عين في مكانه الاستاذ توفيق السويدي فوضع لها نظاماً خاصاً تدير بموجبه وبقيت الحال فيها إلى سنة ١٩٢٦ حين استبدلت طريقة تعيين العميد بطريقة انتخاب الهيئة التدريسية له . فانتخب الأستاذ رؤوف الجادرجي للامادة لمدة سنة واحدة ، ثم انتخب بعده الاستاذ توفيق السويدي وبقي في منصبه هذا الى سنة ١٩٢٩ .

ستصبح عرضة الى النقد المحق لو لم تبذل جهدها في ان تهيب على الأقل ما كان موجوداً من وسائل التعليم العالي في أيام الترك ، لا سيما وان هذا النوع من التعليم سيساعد أبناء البلاد على إشغال المناصب المهمة بتدريب أنفسهم على أعمال المحاماة والوظائف العدلية . ولا تقتصر فائدة مدرسة الحقوق على أهميتها بالنسبة للمحاكم فقط لان الأشخاص الذين يتخرجون فيها سيكونون لاثقين تمام اللياقة أيضاً للكثير من الوظائف الادارية .

الأوقاف

لقد ألحقت دائرة الأوقاف ، بعد فك ارتباطها من ادارة الواردات ، بدائرة الشؤون العدلية . ويشغل فيها ، عدا المدير^١ البريطاني ، موظفون^٢ من أهالي البلاد بالكلية ، ونائب^٣ المدير فيها رجل من وجهاء بغداد . وكانت

(١) كان المدير البريطاني المستر كوك (الكابتن آر آيس كوك) . وقد بقي في الاوقاف الى ما بعد تشكيل الحكم الوطني الذي أصبح فيه مستشاراً لوزارة الأوقاف الى سنة ١٩٣٠ ، ومن ثم نقل للاشتغال في دائرة الآثار القديمة . وحينما انتهى عمله في العراق وعزم على مغادرته كبست عنده بعض الآثار العراقية الثمينة في الكمره .

(٢) لاحظنا في قائمة أرنولد ويلسن ان الاشخاص الآتية اسماؤهم كانوا موظفين في الاوقاف وقد عينوا في التواريخ المدرجة أزاء اسمائهم :

شيخ أحمد الداود	مدير وقف بغداد	١٩١٨/ ٢/ ٢٢
أحمد أفندي الزهاوي	مشاور حقوق ، بغداد	١٩٢٠/ ٦/ ١٥
حمدي أفندي الأعظمي	مفتش اداري في وقف بغداد	١٩١٨/ ٩/ ١٤
عمر حفظي المالي	معاون شخصي لمدير أوقاف بغداد	١٩١٨/ ١٠/ ٢٠
جميل عبد الكريم	رئيس مفتشي الأملاك	١٩١٧/ ١٠/ ٢٧
عبد المجيد بك الشاوي	مستشار في الأوقاف كمهمة خاصة	١٩١٧/ ٤/ ١
محمد سعيد عبد الله آغا	ثم صار رئيساً للبلدية في	١٩١٩/ ٨/ ١
حسن رضا أفندي	مدير أوقاف البصرة	١٩١٩/ ١/ ١
	محامي الأوقاف	١٩١٩/ ١١/ ٢٥

(٣) يلاحظ من القائمة المشار اليها ان السيد صالح المالي (والد عمر حفظي المالي) قد عين =

الدائرة قد قسمت بموجب خطة فكر المسؤولين فيها ، ولكن لم ينفذها الاثراك مطلقاً ، الى قسم اداري وقسم علمي يشرف عليه مجلس^١ من رجال السنة البارزين ، لتحال اليه جميع الشؤون المتعلقة بالأنظمة والتعليمات الدينية . ويمارس في البصرة مجلس مؤلف من بعض الوجهاء المحليين مقداراً غير يسير من الاستقلال الذاتي في معالجته لشؤون الأوقاف المحلية .

وقد تقدمت عملية استثمار الممتلكات الوقفية تقدماً مطرداً الى الأمام . فلو حظ بعناية ان تؤجر أراضي الوقف بطريقة مربحة ، ومما يدل على ما يمكن ان يصنع في هذا الاتجاه ان منطقة من مناطق زراعة النخيل الكائنة في شمال بغداد لم يؤخذ منها أي نوع من الواردات في سنة ١٩١٧ ، لكنها أنتجت (٣٨٠٠٠ روية) في ١٩١٨ .

وبالنظر لاحترق نسبة كبيرة من سجلات الأوقاف على أيدي الاثراك بعد اخلائهم بغداد ، كان من الضروري إجراء تحقيقات في مناطق كثيرة للتأكد من حق الأوقاف في الممتلكات . وبنتيجة هذه التحقيقات ، التي قام بها مفتشون من مفتشي الدائرة ، نظمت قائمة بالايحارات المتأخرة . واستعيدت في كثير من الحالات املاك كانت قد قلبت الى ملك شخصي بصورة مزورة . وبنتيجة الطلب المتزايد على المباني التجارية والممتلكات المدنية التي أنشأها

= نائباً لمدير الأوقاف بمهمة خاصة وعضواً في المجلس العلمي للأوقاف في ٢١/٨/١٩١٨ . كما لاحظنا ان سعدون بك الشاوي (ابن عبد المجيد بك) قد عين معاوناً شخصياً لمدير الأوقاف ومفتشاً لأملأ الأوقاف في ١/١٠/١٩١٩ .

(١) كان المجلس العلمي لدائرة الأوقاف يتألف من :

١٩١٧/ ٥/ ١	عين في	أفندي الراوي	أفندي الراوي
١٩١٧/ ٥/ ١	عين في	أفندي الملا رشيد	أفندي الملا رشيد
١٩١٧/ ٥/ ١	عين في	أفندي الألوسي	أفندي الألوسي
١٩١٧/ ٧/ ٢٨	عين في	أفندي	أفندي
١٩١٩/ ٨/ ٢١	عين في	أفندي المي	أفندي المي

الدائرة ، فضلاً عن تصاعد بدلات ايجار الأراضي الزراعية ، توجد الآن
فضلة مال تزيد على خمسة ألكاك روبية يمكن ان يستفاد منها في ترميم الأملاك
والمؤسسات الدينية . إذ تحتاج الدائرة لهذا الغرض الى مبلغ كبير من المال ،
لأن الأتراك كانوا قد تركوا كثيراً من الجوامع والمساجد في حالة فظيعة من
التهدم والحراب .

وقد وضعت الواردات المتجمعة من استيفاء رسوم الدفنية في عتبات الشيعة
الكبيرة جانباً للمحافظة على هذه العتبات . وفيما عدا المبالغ التي سبق ان صرفت
على الترميمات ، توجد الآن فضلة تزيد على لك روبية سوف ترصد لهذه الغاية .
وهناك أيضاً صنف كبير من الأملاك الموقوفة كانت الواردات المتأتية منها
موقوفة على الحرمين^١ (مكة والمدينة) . وهذه أيضاً كانت الحكومة التركية
قد أهملت شأنها ، وهي تتطلب مبالغ كبيرة لجعلها في حالة جيدة . وتدل
حسابات هذه الاوقاف في الوقت الحاضر على وجود فضلة تقدر بلكين من
الروبيات ، وسوف يرصد جزء منها لتحسين الممتلكات ، بينما يحول الجزء
الآخر الى الحرمين .

وقد أوكل الى دائرة خاصة بتدقيق وضبط حسابات « الاوقاف الملحققة »
التي هي عبارة عن هبات دينية يديرها متولون^٢ . فادا ثبت ان حسابات أحد
المتولين غير مقنعة يعزل عن التولية ويعين متول جديد من قبل القاضي .

ومن الواجبات الضرورية الدقيقة واجب القيام بتحقيق دقيق في تفصيل
المصروفات المتنوعة على الجوامع ، فقد أمارط هذا التحقيق اللثام عن وجود
الكثير من الاختلال وعدم الانتظام ، فأدى الى توفير ستين ألف روبية في سنة

(١) اي الوقف النبوي .

(٢) الاوقاف الملحققة هي الأوقاف التي يديرها متولون ومشروط صرف غلاتها او جزء منها
الى المعابد او الى جهة خيرية ، اما ادارة المتولين لها فتكون خاضعة لمراقبة الاوقاف التي تحاسب
المتولين وتستوفي ٥ ٪ من فضلة الواردات لقاء الاشراف والمحاسبة .

١٩١٨ وحدها . وقد تولى هذه التحقيقات موظفون في الأوقاف من أهالي البلاد ، وكان الكثيرون منهم مثابرين على اكتشاف سوء الاستعمال والحيولة دون وقوعه .

ومن ظواهر هذه الأزمة الملفتة للنظر وجود ضغط غير يسير من الرأي العام بين طبقة الشبان والناس المتقدمين في المجتمع ، ويُعد عدد منهم من أصحاب الأفكار الحرة ، ضد الطريقة التي كانت تصرف بموجبها واردات الأوقاف على عهد الأتراك . فهم يودون لو تصرف الأموال الموقوفة على أغراض خاصة ويستفاد منها في أمور تعود بالمزيد من النفع على المجتمع ، ومن جملة ما يذكر في هذا الشأن التعليم العالي . والاعتراض الذي يثيرونه ان الادارة البريطانية تبدو محافظة أكثر من الأتراك في شؤون الأوقاف . وليس من غير المحتمل ان تكون الحالة كذلك اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار بعض وجهات النظر لأن حكومة غير مسلمة لا بد لها من ان تسير بحذر واحتراس في معالجة شؤون المؤسسات المسلمة البحتة . كما يجب ان نضع في فكرنا من جهة أخرى ان التعليم العالي يفيد طبقة يندر ان تتفق مع طبقة المجتمع التي خصصت الأوقاف لفائدتها في الأصل ، في حالة عدم وقفها للأغراض الدينية الصرفة . فان واقفي الأوقاف الدينية أوقفوا ممتلكاتهم للفقراء ، وإذا كان لا بد من ان تنفق واردات اوقافهم في المستقبل للأغراض التعليمية فان انفاقها على المدارس الابتدائية وليس على الكليات يمكن ان يكون له ما يبرره . وفي الحالات التي صرفت فيها واردات الاوقاف على التعليم العالي بذلت الدائرة جهدها في الاستفادة من هذه المبالغ على أحسن وجه . فان الكلية الإسلامية مثلاً في الاعظمية ، مدفن مؤسس المذهب الحنفي في الاسلام ، قد أعيد تنظيمها وجهزت بهيئة تدريسية كافية ، ومنهج معقول ، وخطة للدراسة .

وعلى دائرة الاوقاف من ناحية أخرى واجب يجب ان تضطلع به . فانها

أكبر ملاك فيما بين النهرين ، وهي كمالك ومؤسسة دينية في الوقت نفسه يجب ان تكون قدوة للغير في هذا الشأن في ضمن الحدود التي لا تتعارض مع الشرع . إذ يجب عليها ان لا تدخل في مضاربات متطرفة ، وانما يجب ان تضع في مخيلتها مصلحة المجتمع العامة والقيمة التعليمية للسياسة السخية التي يجب ان تتبعها في بلاد عشائرية ما تزال العلاقات فيها بين مالك الأرض والمستأجر او الملتزم في مهدها . وسيعتمد المحتوى الزراعي الى درجة كبيرة على تعريفه الصحيح في المعاملات ، وفي هذا الشيء بالذات يترتب على دائرة للاوقاف الدينية أن تمشي في المقدمة .

الفصل التاسع

تنظيم دائرة المعارف ، والشرطة والشبابة ، والخدمة
الطبية المدنية، ودائرة التجارة والصناعة ، والاشغال
العامة ، والسكك الحديد ، والمالية ،
والتأسيسات الرسمية

المعارف

لقد أُسست دائرة المعارف في صيف ١٩١٨ ، وجعل على رأسها الميجور
أيج أي بومن^١ ، المعارة خدماته من وزارة المعارف المصرية. ولم يحصل أي
تغيير عاجل في الأسس والقواعد التي كانت تدير بموجبها دائرة الواردات
حينما كانت تدير شؤون هذه الدائرة ، لكن العبء أصبح ثقيلاً فصار يتطلب
موظفين خاصين له .

(١) عُين الميجر بومن مديراً للمعارف بتاريخ ٢٢/٨/١٩١٨

ومن بين النقاط المهمة جداً التي كانت تتطلب اتخاذ قرار ما كانت مشكلة التعليم الديني الصعبة في المقدمة . فقد كان الاتراك قد اتخذوا الإجراءات اللازمة للتعليم الديني السني فقط ، وذلك عملت على تشييط همم الجميع في دخول المدارس الا أبناء السنة . وكان هدفنا أن نجعل من الممكن للأولاد من جميع المذاهب والمعتقدات الدخول الى المدارس الحكومية ، وحينما فتحت المدارس الابتدائية الأولى في البصرة تقرر موقتاً ، بعد دراسة الأمر ملياً ، ان لا تدرس الدروس الدينية رسمياً في المدارس وان تغلق المدارس في يومي الجمعة والأحد من كل أسبوع لأجل ان تهيأ الفرصة لآباء التلاميذ بأن يحصلوا على التعليم الديني الذي يفضلونه . على أنه وجد ان الشعور العام عند المسلمين بادخال التعليم الديني في مدارس الحكومة قوياً بحيث أدى الى استعداد الناس لسحب الأولاد من مدارسنا وارسالهم الى الكتاتيب برغم عدم كفاءتها في التعليم . ولذلك اتخذت الترتيبات اللازمة لتخصيص ساعة واحدة في الاسبوع للتعليم الديني في المدارس الحكومية ، ولم يتول معلمو الحكومة مثل هذا التعليم وانما تولاه معلمون خاصون عينوا لهذا الغرض ودفعت لهم الأجور من غير المخصصات الحكومية . فعينت « لجنة المعارف » المعلمين السنة بتوصية من « لجنة الاوقاف » بعد مصادقة الضابط البريطاني المسؤول عن دائرة المعارف ، ودفعت الأجور من ميزانية الأوقاف . وطلب في الوقت نفسه الى السكان الشيعة والمسيحيين واليهود ان يبعثوا بالمعلمين الذين يرتضون بهم لتعليم ابنائهم ، في الوقت المعين . لكنه لم يوضع منهج معين لهذا الغرض فاختلف التعليم باختلاف المدارس . وظل الأولاد في بعض الحالات يترددون على الكتاتيب . ولذلك كان أول عمل قامت به دائرة المعارف ان تدخل التعليم الديني في المدارس وتعتبره جزءاً قائماً بنفسه من منهج التعليم فيها . وقد عين في كل مدرسة معلم للدروس الدينية ينتمي الى الطائفة التي تتكون منها أكثرية الطلاب ، على ان يعفى أبناء الاقلية من مثل هذا التعليم وتقدم لهم التسهيلات اللازمة لتعلمهم شؤون دينهم حيثما وجد ذلك . على ان الحكومة لم تأخذ على عاتقها ان تعين معلماً للدين يختص بأبناء

الأقلية على ملاك المدارس ما لم يصل عددهم الى نسبة معينة من مجموع الطلاب
 المداومين . فان اتخاذ الاجراءات التامة لتعيين معلمين من مختلف الديانات في
 مدرسة واحدة كثيراً ما يكون شيئاً غير عملي . ولا ندعي هنا ان هذا الحل يعتبر
 حلاً مرضياً للجميع ، وانما يعتبر أقرب ما يكون الى تحقيق العدالة في هذا
 الشأن . فباستثناء مدرسة واحدة لليهود وثلاث مدارس مسيحية في الموصل ،
 كانت قبل الحرب تدبر أمرها بالمبالغ التي كانت تتسلمها من فرنسا وروما ،
 ثم الحقت مؤخراً بعهدة الحكومة لانقاذها من العجز المالي ، كانت أغلبية
 الطلاب في المدارس الرسمية من المسلمين . وهناك عدد من مدارس الحكومة
 يدرس فيها الآن أبناء اليهود ويتلقون دروسهم الدينية من معلمين من أبناء
 دينهم . وقد ترك يهود كفري مدرستهم الخاصة مؤخراً والتحقوا بالمدرسة
 الحكومية ، كما عين مدرس يهودي للدين في مدرسة « تذكار مود »^(١) في العمارة
 التي تبرع يهود العمارة بسخاء لها في بادئ الأمر . اما منهج الدروس الدينية
 الذي وضع للمدارس التي يكون أكثرية طلابها من المسلمين فقد روعي فيه ان
 يكون محتوياً على المواضيع التي يتفق فيها أهل السنة والشيعة على قدر الامكان .
 غير أنه استجابة لطلب خاص ورد من بعض الأوساط الشيعية وضع منهج
 ديني مبني على تعاليم المذهب الشيعي الصرفة طبق أخيراً في بعض المدارس مثل
 مدارس كربلا والنجف ، حيث يكون الطلاب من أبناء الشيعة كلهم . اما في

(١) كانت سلطات الاحتلال البريطاني يومذاك قد جمعت بواسطة لجان من وجهاء العراقيين
 الممالئين لها مبالغ طائلة من الناس على سبيل التبرع لإنشاء تمثال خاص للجنرال مود فاتح بغداد
 و « محررها » كما ادعت . فأقيم التمثال بقسم من المبالغ المتجمعة في الساحة الكائنة أمام مبنى السفارة
 البريطانية ببغداد في جانب الكرخ (محلة الشواكة) ، وبقي قائماً يتحدى شعور العراقيين الى يوم
 ١٤ تموز ١٩٥٨ حين هاجمته الجماهير المتظاهرة فأزالته من مكانه ودمرته . لكن مبالغ كبيرة
 من المال بقيت فائضة في مختلف الأماكن ، فتقرر صرفها على انشاء أبنية كبيرة تفيد الصالح العام .
 ولذلك أنشئ في البصرة (مستشفى تذكار مود) في باب الزبير وهو مستشفى البصرة الجمهوري
 في الوقت الحاضر ، وأنشئت (مدرسة تذكار مود) في العمارة التي اتخذت بنايتها لثانوية العمارة
 للبنين مدة من الزمن ، ومثلها في قلعة صالح ، والناصرية كذلك .

الأماكن الأخرى فقد طُبّق المنهج الأصلي ، الذي يعدّ جامعا للطرفين في الحقيقة ، من دون ان يقابل بأي نوع من الاعتراض .

وقد ثابرت دائرة المعارف مثابرة مطردة على الاضطلاع بتأسيس ما يكفي من المدارس الابتدائية في جميع أنحاء المناطق المحتلة ، قبل الاقدام على تأسيس المدارس الثانوية بمقياس واسع . فقد سجل تقرير ١٩١٩ السنوي أن إحدى وعشرين مدرسة جديدة من هذا المستوى كانت قد فتحت خلال السنة ، حتى وصل مجموع عدد المدارس الى ٧٥^١ . وأربع من هذه المدارس مدارس طائفية في الموصل ثلاث منها للمسيحيين وواحدة لليهود . إذ تحتفظ هذه المدارس بصبغتها الطائفية الخاصة ، لكنها تخضع لاشراف الحكومة المباشر عليها ، ويصرف على معلميه وموظفيها وقسم من تجهيزاتها من أموال الحكومة . وإلى جانب المدارس هذه ، توجد في معظم القرى المسيحية ذات الأهمية في ولاية الموصل مدرسة تكون الغاية منها تعليم اللغة المحلية ، السريانية او الكلدانية ، تبعاً للحاجة . وهي تتولى التعليم الأولي أيضاً بالعربية ، فتعلم القراءة والكتابة والحساب ، وبذلك تكون أرقى بكثير من كتابات الملايى الإسلامية . وقد تعلم البعض من قسان القرى في بيروت أو روما ، أو في المدرسة الفرنسية في الموصل ، ولهذا لا تخلو خدماتهم كمعلمين من فائدة . هذا وقد خصص مبلغ سنوي في ميزانية التعليم الابتدائي لمساعدة هذه المدارس في القرى المسيحية .

وما تزال المنح تقدم بمبالغ متزايدة الى المدارس التي أسستها الهيئات الدينية المختلفة قبل الحرب وما بعدها . وفي مقابل ذلك توضع المدارس تحت اشراف الدائرة المختصة ، وتقبل ببعض الشروط التي تتضمن ، على ما فيها من حرية تامة في الأمور الدينية ، سيطرة عليها أكثر مما كان يمكن ان يتم في أول الأمر . فبالإضافة الى مدرسة الارسالية الأمريكية في البصرة ، هناك مدارس الأليانس

(١) بلغ عدد هذه المدارس في نيسان ١٩٢٠ (٨٥) مدرسة للبنين من جميع الأنواع وخمس

مدارس للبنات .

الاسرائيلية في بعض البلدان الكبيرة ، ومدارس البنين والبنات التي تديرها الطوائف المسيحية المختلفة . ومن بين المدارس التي كانت تتلقى المنح من الحكومة مدرسة الشيعة في بغداد (الجعفرية) ، والمدرستان الاوليتان الايرانيتان في بغداد وكربلا ، والمدرسة السنية التي تسمى « المدرسة الأهلية »^١ (التفويض) التي فتحتها الأهلون في بغداد مؤخراً . ومما يبعث على الارتياح ان نسجل هنا التقدم الملحوظ الذي حصل خلال الفترة القصيرة نسبياً في بعض المدارس الطائفية هذه ، منذ ان قدمت المنح لها .

وتتخذ الخطوات اللازمة الآن لاهياء النظام الذي كان يراعى بدقة على عهد الأتراك ، ويحتم على المدارس الأهلية أو الطائفية ان تحصل على اجازة من الحكومة . فليس هناك رغبة في إعاقاة التشبث الأهلي في هذا الشأن ، غير انه وجد أن بعض المدارس يفتحها أناس غير مرغوب فيهم أحياناً ، من دون التفكير في الحاجة التي تدعو اليها او في امكان أدامتها في المستقبل .

وليس من الممكن تأسيس نظام تعليمي في يوم واحد . فلم يكن مسجلاً في المدارس الحكومية ، والمدارس الطائفية التي تتلقى منحاً حكومية ، الا

(١) يذكر الأستاذ علي البازركان في (الوقائع الحقيقية) أنه هو الذي استحصل الاجازة المطلوبة لفتح هذه المدرسة باسمه بعد المذاكرة مع بعض الشبان في ذلك الوقت ، ومنهم الاستاذ حسن رضا المحامي والسيد ابراهيم العثمان . وقد واجه من أجل ذلك سلطات المعارف المسؤولة وتذاكر مع الكاتبين بيز وكيل مدير المعارف ، وواجه على أثر ذلك السر بونهام كارتونفاظر العدلية ، فمنح الاجازة باسم (المدرسة الأهلية) بتاريخ ١٤/٩/١٩١٩ . فأقبل عليها الطلاب وتسجلوا فيها ، لأنها أصبحت في الوقت نفسه مركزاً للحركة الوطنية ، وصار يحضر اليها بعد ظهر كل اثنين وخميس أناس كثيرون فتلقى عليهم الخطب الوطنية والقصائد الحماسية . وغدت نادياً يرتاده الشباب الوطني ليتداولوا بينهم في شؤون أمتهم ووطنهم المحتل . ولصلة مديرها الاستاذ علي البازركان بأقطاب الحركة الوطنية في البلاد حاولت السلطات البريطانية ألقاء القبض عليه فاختمت ، لكنها قفلت المدرسة يوم الخميس ١٢ آب ١٩٢٠ وألغت اجازتها . فاتصل السيد عبد الوهاب النائب بالسر بيرسي كوكس الحاكم الملكي العام واستحصل منه في أيلول إجازة جديدة تغير بموجبها اسم المدرسة الى (مدرسة التفويض الأهلية) .

حوالي ستة بالألف من الأهالي في نيسان ١٩٢٠ ، وكان معدل الدوام اليومي ينزل الى أقل من هذه النسبة بمقدار غير يسير . ففي بعض مواسم السنة يسحب الآباء أبناءهم من المدارس ليعملوا في الأسواق والحقول بدافع تكاليف المعيشة العالية ، وباغراء الأجور المرتفعة . وقد يكون التعليم الاجباري شيئاً غير عملي ، لأنه سيورط الدائرة المختصة بالتزامات لا يمكنها الاضطلاع بها في الوقت الحاضر ، بالنسبة للضيق المالي والنقص في المعلمين وصعوبة الحصول على الأثاث واللوازم المناسبة . وسيتم التغلب على هذه الصعوبات بالتدريج بزوال أحوال الحرب وآثارها ، غير ان الحصول على معلمين مدربين تدريباً كافياً بعدد يسد حاجات هذا المجتمع سيستغرق وقتاً طويلاً .

وتثير قضية اللغة ، بصورة قد تكون غير منتظرة عند الذين يعتقدون بأن العراق بلاداً عربية خالصة ، مشاكل خاصة بها ، ففي الخمس والسبعين مدرسة ابتدائية وأولية ، التي كانت موجودة في نهاية ١٩١٩ ، كان التعليم يتم باللغة العربية في ست وخمسين مدرسة منها وباللغة التركية في احدي عشرة مدرسة ، لمصلحة القرى التركمانية المنتشرة على طول الحدود الشرقية من مندلي الى اربيل ، وفي تلعفر كذلك ، وباللغة الكردية في ست مدارس ، وفي مدرسة واحدة بلهجة الشبك الكردية التي تتكلم بها بعض القرى القريبة من الموصل ، وبالفارسية في مدرسة أخرى . ولغة التعليم في مدارس السريان والكلدان الطائفية في ولاية الموصل هي « الفليحي » أو السريانية الحديثة ، مع ان العربية تدرس بوجه عام وتستعمل لغةً للكتابة في المدارس الأرقى من هذه .

وحيثما كان التعليم كله يتم ، على عهد الحكومة العثمانية ، باللغة التركية كانت المدارس تتجنب هذه التعقيدات ، لكن الأزمة قد تغيرت فأصبح هدفنا ان نعلم الأطفال باللغة التي يستطيعون فهمها . وقد ذكر في المناهج التي صدرت في مايس ١٩١٩ ان لغة التعليم هي اللغة المحلية الدارجة . ولذلك تدرس العربية الآن في المدارس الكردية والتركمانية كلغة أجنبية ، وتدرس الفارسية في قليل من المدارس حيث تجعل الأحوال المحلية ذلك شيئاً مرغوباً فيه . وقد أدخل تدريس

الانكليزية في الأمكنة التي بها حاجة ماسة لها فقط . فقد نشأ بعض التضارب في الرأي حول تدريس الانكليزية في بعض المدارس ، فكان من الصعب ، اذا لم يكن من غير الممكن ، على الدائرة المختصة ان تضع قاعدة ثابتة في هذا الشأن . على ان الخطة العامة من حيث المبدأ كانت تقضي بأن ينحصر تعليم الانكليزية حالياً في المدن الكبيرة ، حيث يحتمل ان تكون لمعرفة الانكليزية أهمية عملية . وحتى هنا يقف في طريق دراستها عدم وجود معلمين ذوي أهلية ، ومن المؤسف ان يقال ، نظراً للكفاءة الموجودة في المدارس الطائفية في تعليم الانكليزية ، بأن هذه اللغة يتقنها أبناء اليهود والنصارى أحسن مما يتقنها المسلمون .

ويقف في طريق استعمال اللغة الكردية وسيلة للتدريس عدم وجود قواعد مدونة ، واملاء مضبوط ، لها ، وقد أخذ الميجر صون ، الحاكم السياسي في السليمانية ، والكابتن فارل^١ ، مدير معارف المنطقة ، على عاتقهما تهيئة كتاب قواعد وقراءة أولية للغة الكردية .

ويشعر المسؤولون في دار المعلمين ببغداد بصعوبة تعدد اللغات شعوراً حاداً . فان الطلاب القليلين الذين دخلوا اليها من المناطق الكردية او التركمانية قد عادوا بصورة عامة الى بلدانهم نظراً لعجزهم عن متابعة الدرس واحجامهم عن تعلم العربية . ولا يمكن ان تحل هذه المشكلة الا بتأسيس دور للمعلمين في المناطق التي يتكلم فيها الناس الكردية أو التركية ، لكن دار المعلمين في بغداد يترتب عليها حالياً ان تسد حاجة البلاد كلها للمعلمين . ومن الأمور السارة التي تستحق الذكر هنا مجيء عدد كبير من طلاب الانحاء المختلفة الى الدار . ففي نيسان ١٩٢٠ كان عدد الطلاب القادمين من خارج بغداد لا يقل عن اربعة واربعين طالباً من مجموع ثمانية وستين ، وأغلبية هؤلاء كانوا يعيشون في القسم الداخلي على نفقة الحكومة . وسمعة هذه الدار سمعة جيدة بوجه عام . فالطلاب السنة

(١) عين في مديرية معارف الموصل بتاريخ ١٩٢٠/١/٢٠

والشيعة والنصارى يشتغلون ويلعبون ويعيشون فيها سوية بروح الصداقة والزمالة الحقة ، التي كان يعتقد قبل بضع سنوات بأنها شيء غير ممكن . وهناك احجام من جانب اليهود عن الالتحاق بمثل هذا المعهد ، لكن هذا الانكماش من المحتمل ان يتم التغلب عليه بمرور الزمن .

ولقد أدخل التدريب الرياضي^١ واليدوي في المناهج الرسمية ، وأخذت الحركة الكشفية بالتقدم في المدن .

ويساعد مدير المعارف في البلاد مفتش^٢ بريطاني واحد وثلاثة من العراقيين ، وسوف يزداد عدد المفتشين من أبناء البلاد خلال فترة قصيرة . وقد ضوعفت رواتب المعلمين الى أكثر من النصف ، ثم حددت في سلم تدريجي يعتمد فيه على الأهلية والكفاءة . ويعد الجهاز على جانب من المرونة بحيث يسمح بالوصول الى درجات أعلى من الراتب عندما يرصد ذلك في الميزانية . ومن المؤمل ان تجتذب الرواتب العالية والمستقبل المضمون طرازاً أحسن من الرجال الى الانخراط في سلك التعليم . وقد تأسست دوائر فرعية للمعارف ، يرأس كلّا منها ضابط معارف بريطاني بمساعدة مفتش من أبناء البلاد ، في بغداد والبصرة والموصل ، وسوف تتناول هذه الخطة الحلة وكركوك في القريب العاجل أيضاً . ويتم الاتصال في شؤون المعارف بالحاكم السياسي ، ومنه الى معاون الحاكم

(١) لاحظنا في قائمة أرنولد ويلسن ان المستر هيوسن عُين مراقباً للتدريب الرياضي والألعاب في بغداد بتاريخ ١٩/٢/٢٦ ، وان المستر برايور عُين مراقباً للتدريب الرياضي والألعاب في الموصل بتاريخ ١٩/٣/١ .

(٢) كان المستر سمرثيل هو المفتش البريطاني المقصود ، وقد عُين بتاريخ ١٩/١٠/٢٩ . وكان هناك أيضاً مفتش هندي يفتش مدارس البصرة ، يدعى بير محمد نواز خان ، وقد تعين في ١٩/٧/١ . ولم نجد في قائمة أرنولد ويلسن سوى أسم مفتش عراقي واحد هو هاشم سليم وكسان يفتش مدارس الموصل ، وقد عُين لهذه الوظيفة بتاريخ ١٩/٣/١ . لكننا لاحظنا ان هناك عدداً من المساعدين الانكليز لمدير المعارف مثل غلن ونورث كوت ورايلي وويليامز في بغداد ، وفارل في الموصل ، فضلاً عن وجود نائين للمدير في بغداد ايضاً هما الكابتن سينسر والكابتن سنو .

السياسي الذي يشرف على مدارس منطقته ويدير شؤونها . وفي الأماكن التي يعين فيها ضابط معارف دائم توضع المدارس تحت إدارته مباشرة ، لكنه يبقى على اتصال بالحاكم السياسي المقيم من أجل أن يمكن إعطاء الأحوال المحلية اعتبارها التام .

وما زالت « لجنة المعارف » ، المؤلفة من ممثلين لهم صبغة استشارية غير تنفيذية ، تجتمع في بغداد . والمقترح أن توسع صلاحياتها في المستقبل العاجل ، وأن تؤلف لجان مماثلة لها في كل منطقة من المناطق .

أما التعليم النسوي فقد شرعنا فيه ببداية متواضعة . فقد كانت توجد في البلاد بضع مدارس للبنات^١ على عهد الأتراك ، لكنها لم يكن ينظر إليها بعين الرضا لسمعة مدرساتها غير الحسنة (؟) في الدرجة الأولى . على أن وضع التعليم النسوي ، فيما عدا هذا ، يدعو إلى الاستغراب . فإن رجال الدين من المدرسة القديمة يعارضونه معارضة سرية ، لكنه أصبح بالنسبة للشبان حديث الأوساط والأندية . حيث أن الرجال الذين لا تخرج أمهاتهم من البيت ، ويفزعن لمجرد مفاتحتهن بالسير في الأسواق حتى بالحجاب الكثيف ، أخذوا يستشهدون بتحرر المرأة في استانبول ويتخذونه دليلاً على أن الاتراك قد تفهموا مشكلة المرأة تفهماً صحيحاً ، وبذلك وضعوا أسس العزة القومية لأمتهم . ولم يكن ذلك يخلو من التعريض بتقصير الإدارة البريطانية في العراق في هذا الشأن . وهم لا يدركون أن أعداد هيئات تعليمية مناسبة لهذه المدارس يتطلب وقتاً غير يسير ،

(١) جاء في (معجم العراق للهالي) أن أول مدرسة بنات حديثة أسست في العهد العثماني سنة ١٣١٨ هـ ، في أيام الوالي فائق باشا ، وكانت تضم القسمين الابتدائي والمتوسط فسميت « أناث رشدية مكتبي » . وقد تم فتحها في بيت من بيوت محلة الميدان الجديدة ، وتعينت معلمة أولى فيها أمينة شكورة خانم ، مع ثلاث معلمات ، وأمكن تسجيل ٩٠ طالبة فيها . وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩١٣ فتحت في بغداد مدرسة بنات أخرى سميت « مكتب الاتحاد والترقي للأناث » . وكانت قد تأسست في ١٣١٧ هـ مدرسة بنات في البصرة كذلك باسم « أناث رشدية مكتبي » ، وكانت المعلمة الأولى فيها سبيلة خانم .

وان المدارس من دون هذه الهيئات لا قيمة لها .

وفي بداية ١٩٢٠ كانت خمس مدارس حكومية للبنات قد فتحت ، اثنتان في الموصل وواحدة في بغداد وواحدة في كربلا وواحدة في الديوانية . وتتولى ادارة مدرسة بغداد مديرة انكليزية^١ كانت لها خبرة تعليمية طويلة في الهند ، فقدمت الى العراق في خريف ١٩١٩ . وقد اعيد استخدام بعض المعلمات اللواتي كن يشتغلن في التعليم على عهد الأتراك ، ويضاف إليهن في الوقت الحاضر من البنات اللواتي تدربن في الكلية التبشيرية الأمريكية في ماردين ، وكانت معلمة الديوانية حتى الأيام الأخيرة لا تستطيع القراءة ولا الكتابة ، وانما كانت تحصر عملها في دروس للخياطة وقراءة القرآن . فعينت مؤخراً معلمة أرمنية على جانب أحسن من الثقافة والتعلم . وما تزال بنات الطائفتين المسيحية واليهودية يقمن بمعظم أعمال التعليم في مدارس البنات ، ومن المحتمل ان يحتفظن بوضعهن هذا لمدة طويلة من الزمن .

والحالة أشبه بهذا أيضاً بالنسبة للتعليم الثانوي الذي ما يزال في طفولته . فهناك في الوقت الحاضر شعب ثانوية في بغداد والموصل للبنين الذين أكملوا دراستهم الابتدائية . لكن الدوام في هذه الشعب على غير ما يرام - فقد بلغ عدد الطلاب فيها بنهاية ١٩١٩ سبعة في بغداد وسبعة وعشرين في الموصل ، لكن ثمانية عشر طالباً من طلاب الموصل هؤلاء هم طلاب مسيحيون . وهناك طلاب كان يجب ان يداوموا في هذه الشعب لكنهم لم يفعلوا ذلك ، ومن المحتمل ان يكون السبب في ذلك اعتقادهم بأن هذه الشعب ليست على جانب كاف من الأهمية . وقد تجتذب مثل هؤلاء الطلاب مؤسسات مؤثرة مهيبة المنظر ، لكن عدد الطلاب الذين تلقوا تعليماً أساسياً يمكن ان يفيدهم في الدراسة الثانوية غير كبير في الحقيقة . ويسمى المعهد الذي أشرنا اليه سابقاً ، اي المدرسة الأهلية (التفويض) ، مدرسة ثانوية لكنه في الحقيقة يصعب ان

(١) وهي المس كيلي التي تم تعيينها في ١٠/٧/١٩١٩ .

يرتفع فوق سوية أية مدرسة ابتدائية حكومية .

وكانت المدارس العالية الوحيدة في البلاد على عهد الترك مدرسة الحقوق ودار المعلمين^١ في بغداد . وكلتا هاتين المدرستين مفتوحة في الوقت الحاضر ، ويداوم فيهما الطلاب باعداد غير قليلة . وقد فتحت بالإضافة اليهما مدرسة للتجارة بادارة مدير بريطاني^٢ ، وتستغرق مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يستطيع الطلاب خلالها ان يتلقوا تعليماً عاماً حسناً في دروس الاقتصاد ، ويعدون أنفسهم لخدمة الحكومة أو للعمل التجاري . ويتسجل في هذه المدرسة الطلاب اليهود في الدرجة الأولى ، لكنهم يميلون الى ترك المدرسة قبل اكمال الدراسة فيها . وهي على كل حال تعتبر نواة لكلية أخرى .

وقد فتحت مدرسة للصناعة^٣ على مقياس صغير في بغداد ، وسوف يتم تطويرها وتوسيعها عما قريب . كما فتحت مدرسة للمساحة بعد احتلال بغداد مباشرة^٤ ، لكنها أغلقت لعدة أشهر خلال ١٩١٩ وأعيد فتحها بإشراف أحسن وهي النواة التي يؤمل ان تنشأ عنها كلية للهندسة في المستقبل . وستفتح قريباً مدرسة للزراعة ، بعد ان اختير لها موقع حسن على ضفاف ديبالى^٥ .

ولا يمكن احراز اي تقدم كبير في اتجاه التعليم الصناعي حتى يمكن تدريب هيئة من المدرسين اللازمين له ، لكن أهميته في تنمية بلاد كالعراق تعد شيئاً واضحاً . فقد كان الطلاب حتى الآن يذهبون لتلقي التعليم العالي في استانبول

(١) لا أدري لم سميت دار المعلمين مدرسة عالية مع انها لم تكن كذلك .

(٢) كان اسمه الكاتبن نيولاند ، وقد عين في ٢٠/٤/٤ .

(٣) لقد عُين لها مدير انكليزي ايضاً يسمى المستر سنيل ، في ١٩١٩/٣/١٩ .

(٤) لاشك ان المقصود بذلك الرسمية التي فتحت فيها مدرسة الزراعة ، ثم أغلقت في ١٩٣١ وسلم موقعها وأبنيتها الى بعض الدوائر الزراعية . وفي سنة ١٩٣٩ سلمتها الدوائر الزراعية الى دار المعلمين الريفية التي كانت تابعة الى وزارة المعارف . وبعد سنوات طويلة أضيفت خلالها عدة أبنية جديدة تسلمت الرسمية الكلية العسكرية وبعض المدارس العسكرية الأخرى وبقيت فيها حتى الآن .

غالباً لأنه كان من غير الممكن لآباء الطلاب قبل اعلان الدستور في ١٩٠٨ ان يبعثوا بأولادهم الى أوربة . وبعد الطب من الدراسات التي يمكن ان يتجه اليها أبناء الأسر المعروفة ، ولذلك فان كلية الطب في العاصمة لها سمعة حسنة تستحقها عند الناس . وعلى الشاكلة نفسها كانت الكلية العسكرية ومدرسة الحقوق في استانبول مشهورتين في أنحاء الأمبراطورية التركية كلها ، كما ان الكليات الفرنسية والأمريكية هناك كانت تجتذب الكثيرين من الطلاب اليها ايضاً . وقد أسس السلطان عبد الحميد كليةً للشيوخ ، أرسل اليها أبناء شيوخ العشائر بضغط من السلطات التركية ، لكن جنوحها إلى عثمانية الطلاب سلبها الكثير من سمعتها ، وكان الطلاب يذهبون من هنا الى الكليات الأمريكية والفرنسية في بيروت أيضاً ، ومن الممكن أن يؤمل استمرارهم على الذهاب الى هناك حتى تتخذ التدابير اللازمة لتهيئة التعليم العالي في وطنهم .

ومن المحتمل ان تكون المطالبة بالتعليم الثانوي والعالي أكثر الحافاً من المطالبة بالتعليم الصناعي . فان المثقفين الوطنيين يقدرّون التعليم العالي حسب قدره ، ويعتبرون أنه الطريق الوحيد للمؤسسات الوطنية المستقلة ، لأنهم يعتقدون أنه وحده يمكن أن يعد طبقة من الرجال يمكنهم ملء الوظائف الحكومية في الدوائر المسؤولة . وقد يعتبر التقصير في إرضائهم عملاً مقصوداً من جانب الحكومة غرضه الحيلولة دون سير الناس في مضمار التقدم الوطني . ولذلك قد يكون من المناسب ان نعهد الى تشييد شيء من البناء الفوقاني في العراق قبل ان يتم تشييد البناء التحتاني بجميع أقسامه . واذا كانت هذه العملية قد تنشأ منها بعض الأضرار فسيكون من المفيد كلياً على الأقل ان الجيل الذي يقف على أبواب الرجولة في الوقت الحاضر ، والذي يترتب على الحكومة في العراق ان تستمد منه موظفيها الرسميين خلال السنوات القليلة القادمة ، سيتدرب في بلاده على قدر الامكان . وليس هناك ايضاً أي نوع من الخطر البارز في خلق طبقة كبيرة من الناس لا تنظر الا الى الوظائف الحكومية لتتخذ منها وسيلة لمعيشتها ،

(١) هذه هي السياسة الخاطئة التي أوصلت مشكلة إقدام الشباب العراقي على الوظائف الحكومية =

إذا كنا نثق بوجهة نظر أولئك الذين عرفوا العرب العراقيين أكثر من غيرهم .
فالعراقي يسعى وراء المال ، سواء أكان ذلك عن طريق الزراعة أم طريق التجارة
وإذا ما تهيأت الإدارة العادلة ، فسيكون الأمل في الحصول على الثروة عن
طريق الزراعة أو التجارة أكثر من الأمل في الحصول عليها عن طريق الخدمة
الحكومية ، ولا سيما حينما تتطور البلاد على المنوال المعقول . فإذا سار التعليم
الفني ، ومدارس التجارة والزراعة والهندسة وما أشبه ، يداً بيد مع التعليم العالي
المنطبع بالطابع الأدبي فإن مزايا الأول يمكن أن يعتمد عليها في موازنة مزايا
الثاني .

الآثار القديمة

لقد وضعت الآثار القديمة بعهدة دائرة المعارف كتدبير تمهيدي . فبعد أن
احتلت بغداد بمدة وجيزة صدر بيان باسم قائد الجيش العام ينص على وجوب
المحافظة على الآثار القديمة والنصب التذكارية ، وعلى منع المتاجرة بالعاديات
المزورة . وقد بني البيان على القانون التركي ، فمنع تدمير أو تشويه أي نصب
تذكاري قديم أو موقع تاريخي ، ومنع بيع الآثار القديمة إلا بإجازة . وزار
موقع الحفريات الألمانية في بابل أحد الحكام السياسيين ، وما عثر عليه في دار
البروفسور كولديوي^١ من آثار أحكم خزنه بعناية ، وعين الحراس في مواقع
الآثار للحيلولة دون نهب الزوار لها .

وفي ربيع ١٩١٨ أجريت التنقيبات خلال مدة قصيرة من الزمن في « أبي

= إلى ما هي عليه اليوم من تعقيد ، ولعلها كانت شيئاً مقصوداً كما يفهم من مناقشة المس بيل هذه .
(١) كولديوي هو البروفسور الألماني الذي قام باخفريات في خرائب بابل ونقب عن آثارها
فنقل ما عثر عليه منها إلى متحف برلين يومذاك ، حيث توجد حتى اليوم مجموعة قيمة جداً منها
وأهمها ما يختص بشارع الموكب وباب عشتار ، وكان ذلك قبيل الحرب العامة الأولى . ويقع
هذا المتحف اليوم في برلين الشرقية .

شهرين» ، اريدو القديمة ، وفي «تل اللحم» ، من قبل الكابتن كامبل طومسن على نفقة المتحف البريطانية ، وارسلت هذه المتحف المستر أيج آر هول في السنة التالية فاشتغل بضعة أسابيع في «تل المقير» ، أي أور القديمة ، وفي ابني شهرين وفي العبيد .

وقد أرسلت جميع الآثار القديمة التي عثر عليها في أثناء التنقيب الى المتحف البريطانية . وكانت اللقى التي اكتشفها المستر هول في العبيد ذات أهمية فائقة ، حيث أنها كانت آثاراً سومرية تعود الى زمن لا يتأخر عن سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وبالنظر لطبيعتها سريعة العطب كان يستحيل الاحتفاظ بها في العراق . فأنها لو استخرجت من الأرض من دون ان يسادر الخبراء الى العناية بها لتلفت في الحال . ومن المشكوك به جداً أنها كان من الممكن ان يحافظ عليها بسلامة لو احتفظ بها في متحف خاص ببغداد ، حيث تكون تقلبات الأحوال الجوية مضرّة بها^١ . ولذلك بقيت المجموعات التي عثر عليها في المتحف البريطانية حالياً .

وبالنظر لما شعرت به حكومة صاحب الجلالة من خطر تتعرض له مثل هذه اللقى الثمينة الدقيقة ، فقد قررت ان تمنع القيام باجراء أية تنقيبات أخرى حتى تكون حكومة ما بين النهرين قد أسست دائرة خاصة للآثار القديمة مزودة بعدد كافٍ من الموظفين والخبراء . فلم يجر أي تنقيب من بعد ذلك .

وفي ربيع ١٩٢٠ زار بين النهرين البروفسور اي تي كلي الذي يشغل كرسي الآشوريات والأدب البابلي في جامعة ييل . وكان الغرض العاجل من زيارته ان يؤسس في بغداد «مدرسة أمريكية للابحاث الشرقية» ، تنفيذاً لما ورد في وصية الدكتور ويليام هيزوارد^٢ التي أهديت بموجبها مكتبة بابلية قيمة الى بغداد لقاء

(١) لا ريب ان هذا تعليل واه من المس بيل لتبرير استيلاء الانكليز على آثارنا الشينة ، فقد امكن بسهولة بعد ذلك الاحتفاظ بها حتى هذه اللحظة .

William Hayes Ward (٢)

بعض الشروط . وفي الوقت نفسه تقريباً جاء البروفسور بريستد ، الاستاذ في جامعة شيكاغو ، بحملة صغيرة من المختصين الى العراق فزار عدداً من مواقع الآثار القديمة . وعند عودتهم عن طريق حلب فحصوا في الصالحية الواقعة على الفرات كنيسة قديمة جداً ذات جدران مزخرفة بالصور ، كان قد تم اكتشافها مؤخراً .

ولذلك فان حاجة ما بين النهرين العاجلة هي ان تقوم فيها سلطة آثارية على غرار الدائرة الموجودة في مصر ، او تلك التي كانت قد أسست في فلسطين . وستكون هذه السلطة حامية لجميع المواقع والنصب الأثرية القديمة ، كما سيقع على عاتقها واجب منح الاجازات للأشخاص والجمعيات المختصة بالحفر والتنقيب بموجب شروط توضع مقدماً . ومن الضروري ان يجري تحت اشرافها استقصاء آثارى شامل ، كما ينبغي ان تؤسس متحف في بغداد حالما يتيسر المال اللازم لها ، لكن الحصافة والفتنة يجب ان يستعان بهما عند الاحتفاظ بالآثار القديمة . فان اللقي التي يمكن ان تتأثر بجو البلاد يجب ان لا تترك في بغداد (كذا) ، كما ان الآثار ذات الأهمية الخاصة للبحث الآثارى يجب ان تنهى للطلاب في أماكن أمينه (كذا) .

الشبابة

لقد مر انتظام اهالى البلاد في واجبات بوليسية أو شبه عسكرية في مراحل عدة . ففي أيام الحرب الأولى نادراً ما كان يستخدم العرب والأكراد كقوات تكميلية ومساعدة لجيش الاحتلال . لكن قوة تتألف من أربعين خيلاً جندها الميجر أيدي في الناصرية باشراف « فرع الاستخبارات » لجمع المعلومات ، العسكرية والعشائرية ، ولتكون طلائع مستكشفة أمام الدوريات العسكرية ، وللاشتغال بصفة أدلاء . وقد عرف أفراد هذه القوة باسم « خيالة المنتفك »^١

فبرهنوا على فائدتهم الجلى للفرقة الخامسة عشرة في الناصرية ، ثم تكونت منهم بعد ذلك نواة كتيبة «شبانة الفرات» الخامسة .

وقد جندت قوات أخرى لفرض السيطرة المدنية ، كما مر تفصيله في فصل سابق ، وكان الغرض من ذلك حراسة خطوط مواصلات الجيش . ففي حزيران ١٩١٥ ، بعد ان سقطت الكوت ، حينما كان الجيش المنجد مرابطاً في السنية جندت قطعة من الحرس للمحافظة على طريق النهر وخط التلغراف ما بين القرنة والعمارة والبصرة . وقسمت هذه القوة الى قسمين في حزيران ١٩١٦ لتوزع على المنطقتين السياسيتين ، ووضعت بامرة معاوئي الحكاميين السياسيين . وقد بلغت قوتها مئة وتسعة جنود في نيسان ١٩١٧ ، ثم تكونت منها كتيبة «شبانة دجلة» الثالثة الموجودة في الوقت الحاضر في شرطة منطقتي قلعة صالح والقرنة .

وفي تموز ١٩١٧ صادق قائد الجيش العام على تجنيد قوة من الشبانة يبلغ حدها الأقصى من حيث العدد ٩٠٠ جندي في ولاية بغداد ، خمس مئة خيالة وتسع مئة مشاة . وقد بين رأيه بالنسبة للشبانة المحلية في شهر مايس من تلك السنة ، حينما بلغ رئيس الحكام السياسيين بأنه «لا يجذب استخدامهم لأن سياسته تستهدف المحافظة على هدوء العرب وسكينتهم بقدر الامكان ، وتجنب تورطهم في العمليات الحربية .» لكنه كان مستعداً لاجراء بعض الاستثناءات في الأماكن التي تستطيع الحصول على منافع واضحة منهم . وبتوقف الحركات العدوانية قلت الاخطار المنطوية في استخدام العرب المجندين بدرجة كبيرة ، في حين كانت الحاجة المحلية الى وجود قوات تنفيذية توضع تحت تصرف السلطات المدنية تزداد بصورة مستمرة فقل التشدد في تلك السياسة . ومع ان المبدأ المنطوي في ان من واجبات الشبانة الرئيسة انجاد الحرس العسكري عند الحاجة ظل معمولاً به ، فقد انتقلت قوات الشبانة خلال سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ الى مرحلتها الثانية . ولما كانت موضوعاً تحت سيطرة السلطات المدنية كانت تستخدم كقوات استثنائية لتلبية الحاجات التنفيذية الخاصة بالادارة المدنية ، فتقوم بواجبات الشرطة و«القولجية» والمراسلين وما أشبه . لكنها كان يقودها

ضباط عسكريون وليس من ضباط الشرطة ، وكان التدريب الذي كان يمكن تدريبهم عليه يتم على أسس عسكرية . وقد ظلت امكانية تدريب الشبانسة واستخدامها كقوات ضاربة ، بحيث يمكن ان تصبح نواة للجيش العربي في يوم من الأيام ، فكرة تدعو اليها بعض الأوساط على الدوام حتى أصبح من الواضح ان التوفيق بين واجبات الشبانة العسكرية والبوليسية لم يعد شيئاً ممكناً وانما يمكن ان يؤدي ذلك الى التقليل من كفاءتها في الصفتين .

وقد تطلب ارتباط الشبانة المباشر بالمقر العام السياسي في بغداد وجود تنظيم مركزي لها يتولى شؤون تجهيزها ودفع رواتب أفرادها ، مع ان السيطرة عليها بقيت في حدود اللامركزية . وبقي مكتب الحاكم الملكي العام يتولى التنظيم مدة من الزمن ، غير انه عُين في مارت ١٩١٩ ضابط تفتيش « للمليشيا العربية » فأعيد تنظيم الشبانة رسمياً الى مجموعة مترابطة من قوات المليشيا . فأصبحت هناك « مليشيا الفرات » الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة ومقرها في الرمادي والحلة وأبي صخير والديوانية والناصرية ، و « مليشيا دجلة » الأولى والثانية والثالثة والرابعة ومقرها في سامرا والكوت وقلعة صالح والقرنة ، ومليشيا البصرة ومليشيا بعقوبة . وفي تموز ١٩١٩ أُبدل اسم هذه القوة من جديد فسميت « الشبانة » مرة ثانية ، فدخلت في تنظيمها العام شبانسة دير الزور وخانقين وكركوك والسليمانية ودرك (جاندركة) الموصل أيضاً .

وفي آب ١٩١٩ أعيد النظر في تابعة قوات الشبانة وواجبات ضابط التفتيش وقادتها . فوضعت قوات الشبانة في هذه المرة بعهددة الحكام السياسيين مباشرة ، وأُخبروا بأن يصدرها أوامرهم الى أقرب ضابط شبانة ، سواء أكان بريطانياً أم عربياً ، وليس الى الأفراد مباشرة . أما ادارة القوة العامة فقد وضعت تحت اشراف ضابط التفتيش . وقد حصرت واجبات ضابط التفتيش بتفتيش قوات الشبانة والاشراف عليها بالنيابة عن الحاكم الملكي العام وارشاد الحكام السياسيين وقادة قوات الشبانة فيما يختص بشؤون ادارتها وتنظيمها وتدريبها . وترتب على القادة ان يتعاملوا مباشرة مع ضابط التفتيش في شؤون

التدريب والضبط والاكساء والتجهيز والرواتب والحسابات ، على ان يظلوا مسؤولين تجاه الحكام السياسيين عن تدريب وضبط وكفاءة وحداتهم المحلية . على ان الحاكم السياسي عند الاضطلاع بواجباته بالنيابة عن السلطات العسكرية كان عليه ان يتلقى تعليماته من قائد المنطقة العسكري ، ويكون مسؤولاً تجاهه عن القيام بهذه الواجبات قياماً فعالاً ، وفي حالة وقوع أعمال عدوانية يترتب عليه ان يضع نفسه تحت تصرف قائد المنطقة .

وكانت نتيجة هذه الأوامر ان ازدادت الواجبات الادارية في مقر الشبانة العام ازدياداً غير يسير لان واجباته التي كانت مقتصرة حتى الآن على شؤون التجهيز والتفتيش والاتصال بالحاكم الملكي العام فقط قد توسعت الآن فأصبحت تتضمن الادارة المباشرة كلها . وفي شهر أيلول أعيد تنظيم مكتب المقر العام وقسم الى فرعي « A » و « Q » .

وقد وصل تطوير هذه القوة ، وخاصة في مناطق الفرات الاوسط ، مرحلة أصبح فيها من الضروري ان يعاد النظر في أمر تشكيلها من جديد . ولذلك قدم الآن ضابط التفتيش مقترحات الى الحاكم الملكي العام لتقسيم قوات الشبانه الى : (١) قوات ضاربة من الشبانه ترابط في المقرات المحلية (٢) قوات لشرطة المناطق .

لكنه تقرر أن ينحصر تطبيق هذا الاقتراح على سبيل التجربة في مناطق الحلة والديوانية والشامية أولاً .

وتم التقسيم في كانون الثاني ١٩٢٠ . فنظمت القوات التي كانت تعرف حتى الآن بقوات « شبانه الفرات » الثانية والثالثة والرابعة بحيث أصبحت تسمى كتيبة « شبانه الفرات » الثانية مع مفرزات دائمة منها في الديوانية وأبي صخير . وقد منحت هذه القوة ستة أشهر من التدريب الذي لا يتضمن أية أعمال أخرى سوى الحراسة التابعة لها ، ثم وضعت بعد تلك المدة تحت تصرف الحكام السياسيين للقيام بأعمال عسكرية طفيفة والاضطلاع بالحملات التأديبية التي

يرون ان الشرطة المحلية لا تستطيع الاضطلاع بها ، وانها غير خطيرة بدرجة تستدعي سوق القوات العسكرية النظامية عليها ، وكانت تتألف من مشاة راكبة ، مدربة على الحركة والعمل السريع ، وتستعمل خيول الحكومة والبنادق البريطانية. وعلى هذا ترتب ان تقوم الشرطة المحلية بجميع الواجبات التي كانت تقوم بها الشبان سابقاً في هذه المناطق ، عدا أعمال الحراسة وتوصيل الخزائن والحكام السياسيين في المناطق . وتحمّ تجنيد الرجال من أجل هذا لمدة سنتين (بشكل رسمي) على أن يسمح لهم بالخدمة لثلاثة سنين أخرى مع مكافئة تعادل راتب شهرين .

وقد مرت الآن ستة أشهر على هذه القوة التجريبية وهي تحت التدريب . وتلاشي التذمر الذي كان سائداً في السابق بالمصادقة على زيادة الرواتب وتحسين أحوال الخدمة . ويدل التحسن العام في التدريب والضبط والروحانية المسلكية عند الشبان على ما يمكن أن ينجز من الأعمال الباهرة في مثل هذا الوقت القصير ، وهذا من شأنه أن يبديد الانتقاد القائل بأن العرب لا يخضعون الى النظام والحياة العسكرية . وقد ارتفع عدد المجندين في هذه القوة من ثلاث مئة وستين عربياً من جميع المراتب الى أربع مئة وثمانين خلال الأشهر الثلاثة الأولى .

ويطبق المبدأ نفسه الآن في جميع أنحاء البلاد المحتلة باستثناء القوات الموجودة في مناطق الدليم والموصل والسليمانية التي كانت قد وضعت تحت السيطرة الادارية والمالية التامة للحكام السياسيين المعنيين بالأمر بناءً على الظروف السياسية الخاصة وصعوبة المواصلات ، تجنباً للازدواج في السيطرة والعمل . على ان الشبان التي أعيد تشكيلها تنظم الآن على أسس عسكرية وسوف تدار من المقر العام للشبان . وسوف يبلغ عدد أفراد الشبان التي تدار من المقر العام مباشرة (٣٠٧٥) جندياً عربياً ، وقوات الدرك والشبان التابعة للحكام السياسيين ١٧٨٦ جندياً عربياً وكردياً ، فيكون مجموعهم (٤٨٦١) جندياً عربياً وكردياً مدربين على أسس عسكرية في جميع البلاد المحتلة . وقد قلبت شبان كركوك وسامرا والقرنة الى شرطة في المناطق ، كما تشكلت شرطة محلية في الحسلة

والديوانية والشامية وكوت العمارة والعمارة والناصرية وديالى واربيل . ووزعت
الشبابة المعاد تنظيمها تبعاً للتقسيمات السياسية ، وهي مع كونها قد يُستفاد منها
في ضمن الأراضي المحتلة ومنطقة الحدود فإنها يقصد بها اعتيادياً لتستخدم
كقوات ضاربة في ضمن المناطق المعينة فيها .

وما حل ربيع ١٩٢٠ حتى ظهرت للوجود سلسلة من القوات المنظمة على
أسس عسكرية من الناصرية الى البوكمال على الفرات ، ومن قلعة صالح الى
الموصل على دجلة في حين تأسس على الحدود المعرضة للالتهاب ستار من
القوات في مناطق الدليم والموصل واربيل والسليمانية وديالى ، لتستمد منها
النقاط الموجودة على الحدود قوتها . وتعد هذه القوات قوات تجريبية ما تزال
في المهد ولكن هناك كل ما يبعث على الاعتقاد بأنها في سنة واحدة ستحقق الأمل
المعقود عليها حتى الآن .

ويتحسن الآن طراز المجندين في هذه القوات ، لا سيما في « شبابة
الفرات » الثانية ، من الناحية النوعية والجسمية . ولم يؤخذ المجندون بجماعات
تنتمي الى قبائل أو فروع قبلية واحدة لان ذلك قد يؤدي الى تكوين عصبية
خاصة يجب ان تحل محلها الروح المسلكية . وقد كانت مشكلة ايجاد ضباط للشبابة
العرب مشكلة غير هينة ، فالرجال من طبقة الشيوخ اما ان يكونوا غير متيسرين
اعتيادياً ، أو ان يكونوا غير لائقين للعمل كضباط عندما يمكن الحصول عليهم .
لأن الانتقال المفاجيء من الحياة الحرة الرخية تقليدياً في البادية الى الضبط
الصارم الذي يتميز به المسلك العسكري يصعب سد الثغرة الموجودة فيه ،
وأصعب من ان يتقبلوه بسهولة في معظم الحالات . ولذلك فان أغلبية الضباط
العرب في وحدات الشبابة العربية هم من المبرفعين من بين صفوف الجنود ،
وهؤلاء لا يكون ما عندهم من تدريب وضبط وخبرة أكثر في العادة مما عند
الجنود الذين يقودونهم بحيث تصبح سيطرتهم وقوة قيادتهم ضعيفة .

ويكاد يكون جميع الشبابة في السليمانية واربيل والقسم الأكبر من الموصل

من الأكراد . والكردي ، عدا عن فقدانه المزاج المتقلب والذكاء الحاد الموجودين عند العربي ، يكون على جانب أكبر من تبلد الحس وقد برهن على كونه سهل الانقياد للتدريب والضبط في السليمانية ، حيث كان التدريب المنتظم شيئاً ممكناً فيها وحدها . وقد كان أبناء العشائر من هذه القوات يتجنبون الحرب والقتال . كما كان الأكراد من طبقة الموظفين السابقين يستخدمون ضباطاً في الغالب فبرهنوا على أنهم أهل للثقة التي وضعت فيهم بوجه عام . فلم تخل هذه القوات من ضباط اذكياء حسني التدريب في كردستان ممن يكون استخدامهم شيئاً مرغوباً فيه من الناحية السياسية . فانهم يأتون إليها ، مع تقاليد طبقة الضباط الأتراك التي لا يمكن استئصالها ، بعادات الضبط والقيادة التي لا تقدر فائدتها بثمن لقوة فنية مثل هذه . وبينما يكون الأفندي العربي مكروهاً من الجنود بوجه عام وغير موثوق به ، فان الموظف الكردي يكون محترماً بصورة عامة . وعلى هذا فان طبقتي الضباط في قوتي الشبابة العربية والكردية هما طبقتان مختلفتان اختلافاً بيناً في العنصرية والتقاليد والمنزلة .

وقد قلبت شبابة كركوك الى شرطة للمنطقة ، لكن تركمان كركوك ظلوا يتوافدون على الانخراط في سلك الشبابة خارج المنطقة نفسها . فهم يأنسون الوظائف الحكومية والضبط والتغرب عن الوطن أكثر من العرب أو الأكراد . ولذلك يوجد في قوة الشبابة العربية في العراق أناس من الأكراد والتركمان أيضاً . فقد شكّلت في الحلة قطعة بكاملها من الشبابة الأكراد . ولا غرو فان الشعور العنصري عندهم ضعيف ، وقد أثبتت التجربة انها شيئاً ناجحاً حتى الآن . أما المراتب البريطانية فقد جهزت بعدد غير يسير من الضباط وأصحاب الرتب الأخرى من الوحدات النظامية او الموقفة كيفما اتفق . على ان معظم هؤلاء هم ضباط وقتيون وضباط احتياط كانوا قد تسرحوا من وحداتهم الأصلية . وجميع هذه المراتب تخدم في القائمة العامة للإدارة المدنية .

وقد برهنت هذه القوة على كونها سلاحاً فعالاً في يد الحكومة ، لا سيما في الحملات التأديبية الصغيرة وشؤون الاعتقال والتوقيف . فهي تدرب حالياً

لعملٍ مثل هذا ، وليس للاضطلاع بعمليات خطيرة . على أنها في مناسبات عدة تورطت اضطراباً في حوادث وحركات خطيرة لم تكن مؤهلة لمعالجتها ، مما اضطر الجهات المسؤولة الى ان تجرد بدلاً عنها أرتال عسكرية من بعد ذلك . ومما يجب ان يسجل لها انها قاتلت قتلاً باسلاً في عقرة ١ خلال تشرين الثاني ١٩١٩ . فمع ان قوة الشبابة التي كانت هناك قد تفوق عليها الثوار بالعدد واضطرت الى التقهقر بعد بضع ساعات ، فان وجودها كان مفيداً في سد طريق الموصل وفي كونها كانت قوة احتياطية مؤازرة لحليف كردي موالٍ برغم تخوفه .

وحينما استولى رمضان السلاش كذلك على دير الزور في كانون الأول ١٩١٩ استخدم الحاكم السياسي فيها قوات الشبابة خلال اليومين الأولين كدورية ، فكانت تأتي في كل حالة بمعلومات قيمة . وحينما هاجم الثكنات خليط من رجال القبائل وسكان المدن يزيد على الألفين في عدده ، صمد عشرون من ستين فرداً من أفراد الشبابة في جانب الحاكم السياسي . وفيما عدا مناسبة واحدة كان سلوك هؤلاء سلوكاً حسناً على الدوام حينما كانوا يكلفون بعمليات صغيرة ضد القوات العشائرية ، أو في اعتقال أشخاص كانت تطلبهم الحكومة ، وقد صدرت التوصية بتقديرهم على بسالتهم أكثر من مرة . واذا كانت قد سجلت ضدهم بعض المخالفات الخطيرة في العمادية وتلفر ، فان دفاعهم المستमित عن ضباطهم في شهر بان خلال شهر آب ١٩٢٠ يجب ان لا ينسى ، كما يجب ان لا ينسى ثبات الشبابة في الحلة . وتعد العلاقة ما بين أهالي البلاد من ضباط وغيرهم وبين الضباط البريطانيين ، وضباط الاحتياط ، اعتيادياً علاقة حسنة لا بد من التنويه بها بصورة خاصة . ويبدى الموظفون البريطانيون حماسة

(١) تشير المؤلفة هنا الى الحوادث التي أعقبت قتل المستر بيل الحاكم السياسي الذي خلف ليجمن في الموصل ، والكابتن سكوت الذي كان برفقته ، بالقرب من بير اكيرا (قرية بابكر الزيباري) بتدبير من أغوات الزيبار والشيخ أحمد البرزاني . والحليف الكردي المشار اليه هو عبد القادر الشوشي على ما نعتقد .

مشجعة للغاية وثقةً عظيمةً بالواجب الذي يناط بهم ، اما الشبانة فقد بدأوا يعززون اعتزازاً بالغاً بمعلوماتهم ومنجزاتهم .

الشرطة

لقد ألحقت بقوات الشرطة ، حينما أعيد تنظيم الشبانة ، قطعات وأفراد الشبانة التي لم تضم الى القوة الضاربة الجديدة . لكن الكثيرين منهم وجدوا غير لائقين لأعمال الشرطة ، فاضطرت الجهات المسؤولة الى تجنيد مجندين جدد وتدريبهم فسبب ذلك شيئاً غير قليل من العناء للقوة ذاتها حتى أصبحت كاملة تقريباً في الوقت الحاضر .

وكانت قوة الشرطة قد بدأت ببدايات صغيرة . فقد نقلت الشرطة التي كنت تستخدم في فرض الحصار على المتاجرة بالأسلحة في الخليج العربي الى البصرة موقتاً عند احتلالها ، مع ضباطها الهنود الذين كان لهم إلمام باللغة ، فدربت قوة شرطة محلية برغم انه كان يصعب في بداية الأمر انتقاء الأفراد بعناية ، ولذلك لم تكن نوعية المجندين في هذه القوة حسنة على الدوام . وبنقل جهاز شرطة المدن الى بلدان المناطق الأخرى مثل العمارة والناصرية كانت مشكلة إيجاد العدد الكافي من العرب اللائقين لاستخدامهم كضباط مشكلةً تكاد تكون مستعصية . فقد كانت للشرطة التركية سمعة سيئة ، وكان أبناء الأسر المحترمة غير راغبين في الانخراط في هذا المسلك ، كما لم يكن من المناسب استخدام الذين كانوا يعملون في الشرطة التركية من قبل . ولذلك كانت المفرزة الصغيرة من شرطة عدن التي جيء بها ذات فائدة كبيرة ، واستخدم قسم من الشرطة المصرية في بغداد عقب الاحتلال بعد ان كانت تعمل في وحدة العمال ، لكنهم اتهموا بالخشونة النابية فتم التخلص منهم .

والشرطة النظامية الآن هي شرطة مركزية ، يديرها ويشرف عليها مفتش

شرطة عام^١ في بغداد ، مع وكيل مدير في كل من البصرة وبغداد ومعاوني مديرين في العمارة وسامرا وكركوك والشامية . وتكون شرطة البلدة وشرطة المنطقة في هذه المناطق جزءاً من القوة نفسها . وتتولى امر البلدة في كل من منطقتي الموصل وأربيل الشرطة النظامية ، ويشرف على هذه القوة معاون مدير يقيم في الموصل . وفي المناطق التي ترابط فيها الشرطة النظامية ترتبط هذه القوة بالحاكم السياسي المحلي ، الذي يكون مسؤولاً عن أمن المنطقة ونظامها باعتباره رئيساً لها ، ولذلك يتولى الاشراف على شؤون الشرطة ويترك ادارة المنطقة واقتصادياتها المحلية الى معاون خاص . اما في المناطق الأخرى فان شرطة المنطقة الآن تخضع لسيطرة الحكام السياسيين فيها وحدهم .

وهناك ، علاوة على ذلك ، مصلحة شرطة خاصة لسكك الحديد تشرف على جهاز السكك كله . وهذه يرأسها معاون مدير شرطة وتعتبر جزءاً من الشرطة النظامية : وهنا يعد وضع مدير السكك مشابهاً لوضع الحاكم السياسي بالنسبة لقوات الشرطة الأخرى .

وتدير دائرة التحقيقات الجنائية ، مع فرعيها في البصرة وبغداد ، التحقيقات السياسية والفنية وتشتمل على مكتب طبع الأصابع ودائرة جوازات السفر . وكلا الفرعان يديره معاون مدير^٢ .

(١) كان مفتش الشرطة العام الكرنل پريسكوت ، وقد عُين في هذا المنصب بتاريخ ١٤/١/٤٠

١٩٢٠ .

(٢) كان جهاز الشرطة في العراق يومذاك يعتمد في الغالب على كبار موظفي الشرطة الانكليز ، وفيما يأتي نورد اسماء بعضهم :

- | | |
|---------------------|--|
| ١ - الكرنل غريغسون | عُين مديراً لشرطة البصرة بتاريخ ١٤/١١/٢٤ |
| ٢ - الميجر ديفيس | ومديراً لشرطة بغداد ١٧/ ٣/ ٢٧ |
| ٣ - الميجر سكرافتون | عُين نائب مدير شرطة في البصرة ١٨/ ٣/ ٤ |
| ٤ - الميجر جيرارد | عُين نائب مدير شرطة في بغداد ١٧/ ٤/ ٢٥ |
| | عُين نائب مدير شرطة (للتحقيقات) في البصرة ١٨/ ٣/ ٤ |

هذا ويتم في الوقت الحاضر انشاء فروع الشرطة العليا . فقد فتحت مدرستان للتدريب في بغداد والبصرة ، حيث يدرب المجندون كلهم . ويدخل جميع المفتشين في هاتين المدرستين فيتلقون أيضاً تدريباً فعالاً في شؤون القوانين ، وأصول المحاكمات ، والتحقيق ، وطبع الأصابع وما أشبه . وقد درب عدد من الشبان العرب ليكونوا مفتشي شرطة ، فتقدموا تقدماً باهراً يلفت النظر وأظهروا قابلية من الطراز العالي في أعمال الكشف والشرطة السرية . وبازدياد خبرة الشرطة العرب وكفاءتهم أصبح من الممكن تقليل عدد العرفاء البريطانيين . وباستثناء عدد قليل من الضباط البريطانيين وسائر المراتب ، وبضع مفتشين وكتاب هنود في بغداد والبصرة ، فإن القوة بأسرها تجند محلياً .

وقد تطلب توسع قوات الشرطة تجنيد افراد جدد وتدريبهم بسرعة غير يسيرة . فليس من الغريب اذن ان لا ينحشر في عدادها عدد من غير المرغوب فيهم ، لكن عناية فائقة تبذل لأن لا اكتشاف هؤلاء واخراجهم ليحل في محلهم طراز جديد . وتأني الترفيعات الى المفتشيات بنتائج مرضية ، وتعتبر حافزاً مشجعاً للخدمة الحسنة . ويعتبر تأسيس دوائر الشرطة في البلاد الشرقية من أصعب المشاكل الادارية باعتراف الجميع ، لأن فرص الفساد وظلم الناس فيها

١٩/ ٤/ ٣	»	عين معاون مدير شرطة في الموصل	٥ - الكابتن ويلكنس
٢٠/ ٤/ ١	»	ومعاون مفتش الشرطة العام ببغداد	
١٨/ ٩/ ٩	»	عين معاون مدير شرطة في بغداد	٦ - الكابتن ويلكنسون
٢٠/ ٢/ ٢	»	وعين معاون مدير شرطة في كركوك	
١٧/ ٣/ ٣١	»	عين معاون مدير في العمارة	٧ - الكابتن ويليت
١٩/ ٩/ ٩	»	عين معاون مدير لتحقيقات بغداد	٨ - الكابتن تود
٢٠/ ٢/ ٢٨	»	عين معاون مدير في الموصل	٩ - الكابتن كابوت
١٩/ ٥/ ٧	»	عين معاون مدير في العمارة	١٠ - الكابتن سارگون
١٩/ ٩/ ١٠	»	وعين معاون مدير في البصرة	
١٩/ ٩/ ١٦	»	عين معاون مدير في بغداد	١١ - الكابتن كوبر
٢٠/ ١/ ٢١	»	وعين معاون مدير في النجف	

كثيرة ومن الصعب تتبع أثرها ، في حين تكون الظلامات المقدمة ضد الشرطة من أهالي البلاد على درجة من الغموض والعمومية تجعل تعيينها أمراً غير ممكن . على أن الزيادة في استتباب الأمن ، وقد تكون أبرز ما تتميز به الإدارة البريطانية خلال السنوات الثلاث منذ ١٩١٧ ، يرجع السبب فيها لدرجة ما فقط الى مؤسسات مثل مؤسسات الشرطة والشبابة . اما السبب الأساسي فهو وجود جيش الاحتلال البريطاني في البلاد . فان التحسن الدائم في المحافظة على الأمن والنظام لا يمكن ان ينتظر حصوله ، كما اعترف به ناظم باشا في ١٩١١ ، حتى يمكن تجريد العشائر من السلاح . ولذلك بدىء بعمل ما في هذا الاتجاه ، وما حل مارت ١٩٢٠ حتى كانت قد جمعت حوالي خمسين ألف بندقية من ولايتي بغداد والبصرة . وحينما تم ذلك أصدر نظام الأسلحة الذي حظر حمل الأسلحة ، وتملكها ، أو التعامل بها من دون إجازة ، وكان من المنتظر ان يطبق هذا النظام بالتدريج ، وما ان بدىء بهذا العمل حتى اندلع هيب الاضطرابات في صيف ١٩٢٠ .

الخدمة المدنية

لقد ترتب على الإدارة المدنية ، في أثناء عملية تسريح الجيش الذي تم بموجبه تنقيصه الى مستوى أيام السلم ، ان تتسلم الواجبات التي كانت حتى ذلك التاريخ تقوم بها السلطات العسكرية في البلاد كلياً أو جزئياً . وكان هذا واجباً على جانب كبير من الضخامة . فقد كان الجيش من جهة مسؤولاً عن فروع الإدارة المهمة ، وكان تنظيم البلاد من جهة أخرى قد وصل الى مرحلة متقدمة . وغدت الأحوال تظهر صعوبات من نوع خاص . فقد كان التسريح يتم بسرعة ، وكان الانكليز الذين غادروا انكثرة منذ مدة طويلة يرغبون في ان تتاح لهم أقرب الفرص للعودة الى الوطن . وبالنظر لطول المسافة وقلة وسائل النقل المتيسرة ، لم يكن من السهل هنا الحصول على الاجازة المطلوبة كما كان الأمر في فرنسا ، ولذلك فان كثيراً ممن كانوا ينوون البقاء في هذه البلاد كانوا

يريدون ، وهم محقون ، التغيب عنها بضعة أشهر . يضاف الى ذلك ان الضباط الذين كانوا معارين الى العمل هنا من مصر والهند قد استدعتهم بصورة مستعجلة حكوماتهم التي لم تكن أقل من العراق مجابهة للمشاكل الناتجة عن تسريح الجيش وإعادة تنظيم الأمور بصورة تناسب أحوال السلم . لكن مشكلة أخرى كانت تستدعي التغلب عليها في العراق . فلم يكن من الممكن تنظيم أي نوع من الخدمة المدنية فيه حتى يجعل عقد الصالح مع تركية من الممكن تعيين شكل الحكومة التي ستتألف في النهائية . ولذلك لم يكن من الممكن تأمين مستقبل مضمون للذين كانوا يرغبون في البقاء في بلاد ما بين النهرين بدلاً من العودة الى وظائفهم السابقة . فاضطر الكثيرون وهم مكرهون على مغادرة البلاد ، وبذلك انخرمت الادارة المدنية من موظفين كبار كانوا قد تعلموا العربية وتعرفوا على العادات المحلية وطرق تفكير الناس . وكان الناس من جهة أخرى يكرهون تحويل الضباط الذين عرفوهم وصاروا يثقون بهم . ولا يخفى ان مثل هؤلاء الرجال يصعب تبديلهم على الدوام ، فألقى سحبهم من الميدان عبء إضافياً على الذين تسنى لهم البقاء منهم . فأوشكت الادارة على الانهيار التام أكثر من مرة . ويعزى الى الكولونيل أي تي ويلسن^١ (السر آرنولد ويلسن

(١) كان السر آرنولد ويلسن من رجال الاستعمار البريطاني الذين يشار اليهم بالبنان ، ومن تلاميذ السر بيرسي كوكس المرموقين . فقد نشأ في خدمة حكومة الهند ، ثم اشتغل في بلدان الخليج العربي الذي اطلع على أحواله بالتفصيل وكتب كتابه (الخليج الفارسي) المعروف عنه . وفي حوالي ١٩١٢ عين عضواً يمثل الحكومة البريطانية في اللجنة الدولية التي كلفت بتخطيط الحدود بين العراق وايران ، وظل يعمل فيها الى نشوب الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ . وحينما نزلت الحملة البريطانية في الفاو وتقدمت لفتح البصرة التحق بها ، وشارك في صد الهجوم الذي شنته العشائر والمجاهدون بقيادة محمد باشا الداغستاني في جبهة الخوزة . وقد انتقاه السر بيرسي كوكس رئيس الحكام السياسيين الملحق بالحملة العسكرية (والحاكم الملكي العام بعد ذلك) للاشتغال معه في البصرة ، ثم في بغداد بعد ان تم الاستيلاء عليها . وبقي مع السر بيرسي كوكس حتى كلف بالاشتغال في ايران ، وعندئذ حل ويلسن في محله فأصبح (وكيل الحاكم الملكي العام) . وفي وكالته هذه اندلعت نيران الثورة العراقية الكبرى في صيف ١٩٢٠ . =



السِرُّ أَرْنُولْد وِيلْسْن وكِيل الحَاكِم المَلِكِي العَام

كحي سي أي حاليًا) ، السذي كانت حصافته مسن العوامل الأساسية في إخراج الخدمة المدنية الى الوجود ، الفضل في نفخ روح العزم والمثابرة في العمل الى النهاية وفي الاستفادة من المادة المتيسرة لديه بأحسن ما يمكن . فقد كان دؤوباً على العمل في كل وقت ، ولم ينضب له معين قط عند معالجته للكثير مما كان يحدث من المشاكل . فحل مشكلة الحاجة الملحة الى الموظفين اللاتقين معالجة جزئية باعادة استخدام الضباط المسرحين ، او استخدام الضباط الجدد ، بعقود تمتد الى سنة واحدة ، وبتقدم عملية تأسيس الدوائر وأراحت مجموعة الرجال الاكفاء الذين أنيطت بهم الاعمال في المقر العام وكيل الحاكم الملكي العام ، وهيأت له جماعة من الخبراء يمكنه الاعتماد عليهم .

الشؤون الطبية والصحية

كانت أول لحظة تستدعي تأمين الخدمة الصحية والطبية للناس هي اللحظة التي لم تعد فيها السلطات العسكرية تقدم المساعدة التي كانت تقدمها من قبل . ففي منتصف ١٩١٨ كان هناك مستشفى ملكي ، أو مستوصف ، في كل محطة عسكرية ذات أهمية تذكر . وكان على رأس هذه التشكيلات جراح ملكي ،

= وقد كان السر أرفولد من البريطانيين الممتنين الى ما كان يسمى يومذاك بالمدرسة اخندية ، حيث انه كان من مؤيدي فكرة ربط العراق بالهند . وكان مسلكه في العراق متأثراً بمثل هذا التفكير الذي يعارض في تشكيل حكم وطني في العراق مهما كان شكله ، ولذلك يعتقد الكثيرون ان تصرفه في هذا الاتجاه هو الذي أدى الى نشوب الثورة العراقية الكبرى في أيامه . ورغم ما كان عنده من مقدرة وكفاءة في العمل فقد نحي عن وظيفته في العراق لهذا السبب . وعندئذ عاد السر بيرسي كوكس الى العراق مندوباً سامياً فعمل على تأسيس الحكم الوطني فيه بالشكل المعروف . واشتغل ويلسن بعد ذلك في شركة النفط البريطانية ، ثم تطوع للاشتراك في الحرب العامة الثانية فقتل فيها . وقد كتب كتاباً مهماً جداً بمجلدين يتضمن تفصيلات الاستيلاء البريطاني على العراق ، وحكم بريطانية له في عهد الاحتلال ويسمى المجلد الاول منه :

Loyalties, Mesopotamia 1914 - 1917 ,

Mesopotamia 1917 - 1920. A Clash of Loyalties والمجلد الثاني :

أو ضابط من ضباط المصلحة الطبية الهندية ، يتولى العمل المدني علاوةً على واجباته العسكرية ، بمساعدة جراح مساعد يكون عادةً من أهالي الهند ويستعار من بين الموظفين العسكريين . وقد استُخدم عددٌ من الأطباء الموجودين في البلاد كلما أمكن ذلك ، وكان عدد منهم من الأرمن الذين تعلموا في استانبول أو بيروت أو في سائر الكليات الطبية ، لكن عودة الأطباء الأتراك بعد الهدنة إلى بغداد ، حيث كانوا يمارسون الطب مدة من الزمن ، كانت بشارة عظمى لسكان البلاد . غير أن الأطباء الأهليين بوجه عام كان تدريبهم ناقصاً بحيث كانت الفائدة منهم محدودة تقريباً . وكان الجراح الملكي في عدد من البلدان الكبيرة مثل البصرة والعمارة مسؤولاً عن شؤون الصحة العامة كذلك ، أما في بغداد فقد كان يتولى هذا العمل طبيب ضابط معارٍ من الجهات العسكرية ، يساعده في ذلك قسم من أقسام الصحة العسكرية حتى حل ربيع ١٩١٩ . وكان قسم من الأقسام الصحية الرائدة في البلاد يتولى الأعمال الصحية في المدينة سنة ١٩١٧ ، فوجد موظفو هذا القسم الملكيين الذين تدربوا تدريباً ممتازاً مجالاً للتوظيف من جديد فملأوا الثغرة التي كانت موجودة بسبب الحاجة إلى أية منظمة بلدية للأغراض الصحية . وكان الموظفون غير الأكفاء المتيسرون لدى السلطات الملكية ، في المستشفيات والأعمال الصحية ، قليلين جداً ، كما كانت جميع التجهيزات الطبية والجراحية تقدم من المخازن العسكرية . على أن المؤسسات الملكية لم تكن مترابطة بعضها ببعض نظراً لعدم وجود أية منظمة مركزية يرجعون إليها ، لكن هذا النقص عولج في آب ١٩١٨ بتعيين نائب لمعاون مدير الخدمات الطبية يشغل في دائرة المدير العسكري للخدمات الطبية ويقوم بدور ضابط ارتباط لهذا الغرض . وفي شباط ١٩١٩ أصبح رئيساً إدارياً للدائرة الطبية الملكية ، ثم عُين سكرتيراً للشؤون الصحية في آذار حينما تكامل تنظيم دائرة الصحة . وكان يوجد يومذاك خمسون مستشفى ملكياً ومستوصفاً ملكياً يدير ثلاثاً موظفون مدنيون ، مع أن تسعة منها كان يشرف عليها أطباء عسكريون .

(١) لا بد من أن يكون المقصود هو الأطباء العراقيون الذين كانوا في خدمة الحكومة التركية.

وقد اتخذت الترتيبات اللازمة مع مخازن القاعدة الطبية في نهاية ١٩١٨ بتقديم التجهيزات الكافية ، بصورة مستمرة ، لسد جميع متطلبات الخدمة الطبية الملكية خلال سنة ١٩١٩ كلها ، ثم تكونت نواة المذخر الطبي الملكي في بغداد . وبترتيب خاص تم مع جمعية الصليب الأحمر ، التي تسرحت في مارت ١٩١٩ ، أعطي لهذا المذخر الاختيار الأول من جميع ما كانت تخزنه الجمعية في هذه البلاد اما بالنسبة للعمل الصحي فقد حل المفتشون المدربون محلياً ، والفرق التي تعمل معهم ، في محل الأقسام الصحية في البلدان التي كانت تعمل فيها ، وبدأت العناية بالصحة العامة تنتقل في كل مكان الى عهدة السلطات الملكية . وهذه تشمل تفتيش السجون والأسواق والصناعات غير النظيفة والمجازر ، واعداد المياه المعقمة بالكلورين ، والاجراءات الضامنة للنظافة العامة ومكافحة الفئران والبعوض والذباب . ولذلك نرى الجراح الملكي في مراكز المناطق غارقاً في العمل الاداري علاوة على عمله الطبي ، ولا يستطيع انجاز عمله كله الا بالعمل المتواصل . على ان الاخلاص الذي يبديه ضباط الخدمة الطبية ، وحذقهم أو براعتهم في معاملة أهالي البلاد ، كانت شيئاً يستحق أكثر من الثناء .

وقد اتخذت تدابير عاجلة لتوظيف جميع الأطباء المتيسرين في العراق ، واستقدام ما كانت تدعو الحاجة اليه من اطباء أضافيين من انكلترا حتى صار من الممكن سد الحاجة العاجلة لهم في البلاد . وتوجد الآن مستشفيات ومستوصفات

(١) لقد عُين الأطباء العراقيون التالية أسماؤهم يومذاك : مامندي في العمارة ، ونور الله في بغداد ، وت . كورديان في بغداد ، وعيسى نوري في كركوك ، وحنا خياط في الموصل ، والساعاتي في الموصل ، ويحيى بك في الموصل ، وقلبان في الموصل ، وفتح الله في كركوك ، وصموئيل أداتو في بغداد ، وصبري مراد في بغداد ، ون . فؤاد في كويسنجق ، وجميل في كفري ، وف . بانا في بغداد . ورؤوف في الموصل ، وفاجابديان في السليمانية ، وفائق شاكر في بغداد ، وستاوروز في بغداد ، ون . فرج في بعقوبة ، وآغوب جويانيان في بغداد ، وب . سرسم في أربيل ، وألتونيان في مندلي ، وجوركيان في بغداد . وقد تم تعيينهم كلهم بين سنتي ١٩١٨ و ١٩٢٠ ، الا الدكتور مامندي الذي عين في ١٩١٥/٦/٣ والدكتور نور الله الذي عين في ١٩١٧/٤/١ .

في جميع مراكز المناطق ، الى جنب المستشفيات في معظم الأقسية ، ومستوصفات في عدد من القرى . وتتولى الأخوات الراهبات الخدمة في المستشفيات الملكية الموجودة في البصرة وبغداد والموصل ، كما ان بغداد والموصل فيهما مستشفيات خاصة بالنساء والأطفال على حدة . والمستشفى النساء في بغداد تاريخ طريف ، فهو يشغل بناية ممتازة كانت في أيام الترك مستشفى ملكياً للمدينة . وكانت الحكومة العثمانية قد استخدمت عدداً قليلاً من الراهبات الفرنسيات ليعملن فيها ممرضات ، وهؤلاء كن قد حبين أنفسهن للناس ثم استحققت جماعتهن امتناننا الخالد بالخدمات التي كن قد قدمنها للأسرى البريطانيين في أثناء الحرب . وقد تقرر ان يطلب الى أولائي الراهبات بأن يتابعن خدمتهن في المستشفى بموجب الترتيبات الجديدة ، كما عرض الاستخدام على عدد أضافي من الأخوات المدربات اللواتي يؤتى بهن الآن من فرنسة . ومن يرى أولائي النسوة العجيبات يقمن بعملهن ، مع جميع التسهيلات التي يمكن ان تقدمها الخدمة الطبية البريطانية لا بد من ان يقتنع بأن العالم لا يسير كله في طريق الخطأ .

وفي البصرة التي يعد البيت الذي يشغله المستشفى الملكي فيها بيتاً غير مناسب سوف تشاد بناية جديدة له من التبرعات الاختيارية التي جمعت من السكان تخليداً للذكرى الجليل مود . وتفتخر الناصرية كذلك بمستشفى خاص بتذكارة مود . وتتولى الممرضات البريطانيات والفرنسيات تدريب البنات من أهالي البلاد ، لا للخدمة في المستشفيات فقط ، بل لاعداد مجموعة من الممرضات المدربات أيضاً اللواتي يشتغلن بين السكان . ويسلم نساء الطبقة المحترمة من أهالي بغداد بوجود حاجة الى قابلات مدربات ، لأنهن يرون ان القابلات الموجودات يأتين بالمرض بدلاً من قيامهن بمكافحته .

وقد أسست مداخلر للوازم الطبية في البصرة وبغداد معاً ، وهناك في بغداد الى جانب مستشفى النساء مستشفى ملكي للرجال ، ومستشفى للغزل ، ومعهد للأشعة السينية أخذ من الجيش ، ومعهد لطب الاسنان ، ومستوصفان ، ودار تمريض للضباط وازواجهم ، ومستشفى للأمراض الزهرية مختص بالنساء .

وتحظى كارثة الأمراض الزهرية الفظيعة بعناية خاصة في المراكز الأخرى .
أضف الى ذلك ان مكافحة الأمراض المعدية تتم الآن بصورة مؤثرة ، وقد
يكون أشد ما يبعث على الامتنان في هذا الشأن ايقاف وافدة الطاعون التي فتكت
بالبلاد سنة ١٩١٩ عند حدها باقبال السكان المحليين اقبالاً تلقائياً ، نساءً
ورجالاً ، على التطعيم بلقاح الطاعون . فقد طعم ما يزيد على ثمانين ألف
شخص . ومما يذكر بالمناسبة ان مذكرراً خاصاً بالمواد اللقاحية ، كانت قد اسسته
السلطات العسكرية في العمارة من قبل ، تسلمته السلطات الملكية في شباط ١٩١٩
فصار يؤمن تجهيز لقاح العجول للمناطق المحتلة جميعها . على ان أخطر مشكلة
صحية تجابهنا في ولاية الموصل وجود الملاريا من النوع الخبيث في أنحاء الجبال
كلها . فان حالة القرى هناك حالة مزرية ، وبعضها على ما يقال لا يمكن ان
تسكن في الحقيقة . وقد أثر ذلك على كفاءة قوات الدرك ، كما صار المرض
يهدد الموظفين الملكيين أيضاً . وكانت احدى الخطوات التي خطتها الحكومة
التركية في هذا الشأن ان توزع الكينين مجاناً في هذه المناطق ، وسوف نعود الى
هذا التوزيع نحن أيضاً . لكن المشكلة خطيرة ، ولا يمكن ايجاد أي حل لها الا
بجمع المعلومات المطلوبة عن الأحوال المحلية . فقد سبق ان قام ضباط مختصون
باستقصاءات مرضية دقيقة في هذا الشأن في معظم المناطق المحتلة أو التي مرت
بها جيوشنا ، ومن المؤمل ان يحتفظ بهذه المعلومات في الحال بشكل مركز
مطبوع حتى يمكن ان توضع في متناول من يهمه الأمر .

والأمراض المعدية يزداد خطرهما بصورة ملحوظة عن طريق تقاطر الزوار
على العتبات الشيعية المقدسة . فقد انقطع توارد الزوار خلال الحرب بصورة
اضطرارية ، ثم صدرت الرخصة بالسماح للزوار في ١٩١٩ فاغتنمت الفرصة
أعداد كبيرة خارقة للعادة منهم وقدموا للزيارة . وصار يمر من خانقين الواقعة
على الحدود عدد يبلغ معدله سبعة آلاف زائر في الشهر . ولم تجر أية محاولة
لتقليد ترتيبات الحجر الصحي التركية ، التي كانت مرهقة بقدر ما كانت عديمة
الكفاءة ، لكن إجراءات دقيقة تتخذ الآن لتأمين النظافة في خانقين ، وسوف

يفتح مستوصف خاص لمعالجة الزوار في نهاية خط السكة الحديد . على أن
توارد الزوار على المدن المقدسة يستلزم كثيراً من التدابير الصحية الإضافية ،
لكن الاحتياطات التي كانت قد اتخذت من قبل لا يمكن ان تعتبر كافية بعد .
فقد فتح في الكاظمية مستشفى صغير للزوار . ويقول الجراح الملكي المختص
في هذا الشأن « .. وبعد سفر طويلة في جوٍ مثير ، يقات فيه على أقل ما يكون
من الغذاء على شكل أنواع « البجياتي » ، ويطفئ ظمأه بماء غير نقي ، بنتيجة
الغذاء الذي يتناوله ، وهو يعاني ما يعاني من التهاب الامعاء ونوع من داء
الاسقربوط ، يصل الزائر الى المدينة المقدسة في الأخير وفي نفسه رغبة في أن
يقضي نحبه فيها . ويأخذ بالموت على قارعة الطريق أو في الجامع ، ولأجل ان
تجعل نهاية أولئك الزوار على جانب أكبر من الراحة وحتى لتيسير فرصة أكبر
لهم في ان يستعيدوا صحتهم فتح في كانون الأول ١٩١٩ مستشفى صغير يسع
أثني عشر سريراً لنقل الزوار الذين يعالجون سكرات الموت اليه ، وبذل
الجهود لمساعدتهم في نزاعهم الأخير . اما بالنسبة للاحصاءات في هذا الشأن فان
أحسن ما يذكر هو ان نقول ان خمسين بالمئة من هؤلاء كان يصيبهم الشفاء . »

ولا تتولى دائرة الصحة العناية بالزوار الأحياء حسب وانما تتولى الأموات
منهم أيضاً ، الذين يوتي بجثثهم لتدفن في كربلا والنجف . وتتفق تعليمات
الحجر الصحي الحالية مع التعليمات التركية التي كانت تنظم عن طريق لجنة
تعمل بواسطة هيئة دولية للحجر الصحي . ويتحتم بموجب ذلك ان تكون
الجثث قد دفنت قبل نقلها لمدة ثلاثة أشهر على الأقل ، وأن تفحص الجناز
التي يؤتى بها من ايران على الحدود . وقد كان الأتراك يسمحون بالدفن العاجل
للجثث المحلية ، على ان تكون خالية من الأمراض المعدية ونتاجة التفسخ .
فاستؤنف العمل بهذا لدرجة ما في شتاء ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وسُمح بأخذ
الجثث الطرية من بغداد لتدفن في النجف . وكان سبب ذلك في الدرجة الأولى
تيسر النقل بالسيارات ، على ان السماح بذلك حدد بالمدة التي تنتهي في ٣١
مارس . وتعد قضية تنظيم نقل الزوار والجناز قضية دقيقة وصعبة ، لها أوجه

جانبية عديدة ، ولسوف تتطلب في المستقبل كثيراً من التقصي الدقيق وشيئاً غير قليل من النظر على أيدي لجنة يشترك فيها ممثلون عن المصالح المختلفة مثل سكك الحديد والدوائر الصحية والسياسية .

ومن الممكن ان يقال بالتأكيد ان التقدم السريع الذي حصل في شؤون الصحة العامة لم يحصل مثله الا في نواح قليلة أخرى . فان الزيادة التي حصلت في عدد الأسرة في مستشفيات بغداد والبصرة والموصل لا يضاهيها الا ازدياد الكفاءة في المستشفيات الحالية حينما تقارن بالمستشفيات التي كانت موجودة على عهد الأتراك . غير ان التغير الأكبر ربما يكون قد حصل في الأنحاء الأخرى . فقد كانت المستشفيات والمستوصفات في البلدان البعيدة عن المدن الكبرى شيئاً نادراً في العهد العثماني ، وحتى حينما كانت توجد كانت تعتبر ذات فائدة قليلة للناس . فقد كان موظفوها في الناصرية مثلاً يتكونون من طبيب واحد كثيراً ما كان يسد المستوصف ويغادر البلد تاركاً العمل في حالة توقف . ولم يحاول الأتراك الحصول على ثقة العشائر بهم ، وهكذا تركت أكثرية السكان من دون مساعدة طبية من أي نوع كان . ولم يكن للاحتياجات الصحية في القرى أي

(١) جاء في (معجم العراق) أن أول مستشفى أسس في العراق الحديث كان في أيام الوالي مدحت باشا بتاريخ ١٨٧٢ . فقد أسس في بغداد بجانب الكرخ ما سمي بمستشفى الغرباء ، وقد حل في مكانه مستشفى الكرخ وكان موقعه مطلاً على النهر في مقابل أبنية « السراي » الحالية ، وهدمت البناية في عهد عبد الكريم قاسم فبقي مكانها خالياً . والملاحظ ان مستشفى الغرباء بقي عاطلاً عن العمل مدة من الزمن لعدم وجود أطباء يديرونه ، فاتخذت بنيته مدرسة (هي مدرسة الاعدادي ملكي) ، وفي زمن الوالي نجم الدين الملا استردت البناية وفُلت إليها محتويات المستشفى الذي كان قد أقامه نامق باشا في خارج باب المعظم باسم (مستشفى نامق باشا) ، وأخذ يقوم بعمله في خدمة الناس . وكانت ادارته تتألف من ثلاثة أطباء وصيدي وعدد من الموظفين غير الفنيين . وكان من أطبائه في ١٨٩٣ الدكتور نظام الدين للأمراض الباطنية ، والدكتور ذهبي بك للجراحة ، والدكتور سامي سليمان للأمراض العيون ، والادوية عباس مساعداً للجراح . وفي أيام الفريق شوكت باشا عين الدكتور محمد كافي بك لإدارة المستشفى ، وبقي فيها الى أيام الاحتلال البريطاني حين فتح المستشفى الملكي في الحبيدية ، الذي أصبح يسمى (المستشفى الجمهوري) بعد ثورة تموز ١٩٥٨ .

وجود ، كما كانت غير كافية بالمرّة في مراكز الاقضية . وقد أدت الجهود التي بذلها الحكام السياسيون والجراحون المملكون الى حصول تحسن جدير بالاعتبار حقاً . فعلى هؤلاء الذين كانوا يعرفون بلاد ما بين النهرين قبل الحرب أن يزوروا الحلقة وكركوك مرة ثانية ، ويتذكروا أن كانت عندهم شجاعة المناظر والروائح التي أصبحت اليوم ذكريات سيئة .

دائرة التجارة والصناعة

لقد أسست دائرة للتجارة والصناعة في ١٩١٩ تحتوي على الكمارك ، والبرق والبريد ، والمخازن الملكية ، والنقلات ، ومطبعة الحكومة . ثم عين مدير^١ الكمارك العام سكرتيراً لها .

فبالنسبة للكمارك ، تُجبي الرسوم في الوقت الحاضر من السلع المستوردة والمصدرة عن طريق البحر في البصرة ، وفي بغداد ، وتقتصر السلع الخاضعة للرسم في بغداد على السلع التي تمر بواسطة بوليصة الشحن . ويعد هذا الاجراء شيئاً ضرورياً لينحصر مقدار المتاجرة التي تنجز معاملاتها في بغداد بالكمية التي تكون دائرة الكمرك فيها مهياً لاستحصائها . وهناك مدير (محصل)^٢ في كل من هذين المكانين ، وتكون قرارات المديرين خاضعة للتمييز لدى مدير الكمارك العام الذي يعد اكبر سلطة في هذه الدائرة ، ويكون مقره في بغداد .

ويتولى مدير الكمرك في بغداد شؤون الكمارك البرية في الحدود ، وأهمها في طبروق (على الحدود الايرانية بالقرب من خانقين) ، وفي الموصل والسليمانية ، حيث يوجد في كل منها نائب مدير كمرك^٣ .

(١) Chief Collector of Customs . وكان مدير الكمارك العام السكرتير هذا الذي عين في البصرة اولاً بتاريخ ١٥/٦/٥ وانتقل الى بغداد في ١/٤/١٩٢٠ .

(٢) Collector of Customs .

(٣) كان رؤساء الدوائر في الكمارك يومذاك كلهم من الانكليز على ما يبدو ، ولم نجد في

ويبدل الجدول التالي على مجموع قيمة الاستيرادات والصادرات من البصرة
وبغداد واليهما لسنة ١٩١٠ الى ١٩١٩ .

لك رويية	لك رويية	لك رويية	لك رويية
٤٠٤	١٩١٦	٣٩٥	١٩١٠
٦٢٥	١٩١٧	٤٢٨	١٩١١
١,١١٠	١٩١٨	٣٩٨	١٩١٢
١٨٤٠	١٩١٩	٩٤	١٩١٥

وقد أخذت الأرقام عن السنين الثلاث التي سبقت الحرب من التقارير
القنصلية ، ثم حولت من الباون الاسترليني الى الروبية على أساس ان الباون
الواحد يساوي خمس عشرة رويية . ويلاحظ أن أي ميل الى التضخم بسبب
ارتفاع الأسعار العالمية يجب ان يوازن في الغالب بازدياد قيمة التحويل
بالروبية ، في ١٩١٩ على الأقل . ومع ان هناك بعض الصعوبات في المقارنة
على هذا الأساس ، فان الأرقام يمكن أن تعتبر دليلاً صحيحاً على نمو حجم
الاستيرادات الى البلاد . فقد كانت الاستيرادات في ١٩١٩ أكثر من معدل
السنوات الثلاث التي تقدمت الحرب بأربعة أضعاف ونصف .

ويستفاد مما ورد في آخر تقرير تجاري صدر في ١٩٢٠ عن مكتب الحاكم
الملكي العام : ان نصف الى ثلاثة أرباع السلع المستوردة عن طريق البحر تقريباً

= قائمة أرفولد ويلسن الا موظفاً عراقياً واحداً بينهم هو نوموم أفندي تاجر الذي عُين نائب مدير
كمارك في بغداد بتاريخ ١٨/٣/١٠ . وقد بقي عدد منهم في الكمارك مدة طويلة من الزمن ، امتدت
الى ما بعد تأسيس الحكم الوطني بزمان طويل ويتذكر اسماءهم بعض المطلعين على شؤون الدوائر
الحكومية حتى اليوم . ومن هؤلاء كوبر ، وكوفولي ، وديشدين ، ومونك ، وسيف رايت ،
ورينغرو ، وتفيل ، وفرينج ، وفوكس ، وهاريس ، وماكلويد ، وموزي . وكان مفتش
الكمارك العام المستر ايتويل الذي عُين في ١٩/٣/٢٣ ، ورئيس المحميين المستر خامباتا الهندي
الذي عُين في ١٩/١٢/١١ .

وجدت طريقها الى ايران في النهاية ، فلا حاجة للتأكيد بأن تجارة ما بين النهرين لها صلة وثيقة بتجارة ايران أو بذلك القسم منها الذي يمكن الوصول اليه بسهولة من بغداد .

ويعزى الازدياد الملحوظ في الاستيراد خلال السنتين الاخيرتين الى :
(١) توقف الاستيراد الى ايران عن طريق القفقاس في الغالب (٢) الازدياد الكثير في قيمة الصرف في العراق بسبب وجود الجيوش (٣) نفاد الحاجيات المخزونة في العراق وايران لتعذر الحصول على وسائل الشحن والتجهيزات المطلوبة بسبب الحرب .

ومن الضروري للمحافظة على تزايد الازدهار في البلاد ان يزداد الانتاج ، وتنشط تجارة المرور ، بتقليل اسعار التحميل ، والحمالة ، ورسوم الكمارك ، ورسوم الميناء ، الى أقل حد ممكن ، فضلاً عن التقليل من عوامل التأخير خلال عملية المرور . ولذلك لا بد من ان تعتمد البواخر وسكك الحديد الى تخفيض الأجور التي تتقاضاها الى أقل حد ممكن ، ولا بد للمصانع التي تصنع السلع من ان تلتفت لمتطلبات ايران بقدر الالتفات الذي توليه لسكان بين النهرين .

ويحتوي التقرير نفسه على قسم يختص بتسهيلات الميناء في البصرة ، فنكتطف منه ما يأتي :

« ومن المنافع التي سيجنيتها سكان العراق من الحرب ، واضطلاع بريطانية العظمى بسلطات الانتداب على البلاد ، إعداد ميناء جاهز للعمل على أحسن ما يكون فيه .

« فلم تكن فيه قبل الحرب أية تسهيلات أو مرافق ، وكانت البواخر تعتمد بالكلية على امكانياتها هي ، وعلى وسائل النقل العائدة للأهلين في انزال الحمولة وشحنها . على ان الكميات الكبيرة جداً من المواد الحربية التي صُبت في البلاد جعلت من الضروري إعداد أرصفة كافية تستطيع خدمة السفن البحرية العميقة ، على ان تكون مجهزة بالرافعات الحديثة وخطوط السكك الجانبية وسائر

المبتدعات اللازمة للشحن ، القادرة على ترويج النقل السريع الذي تتطلبه الحالة . وقد انتخبت باشراف الإدارة العسكرية مواقع مناسبة لهذا الغرض ، وأنشئت أرصفة مبنية جيداً ومؤسسة تأسيساً محكماً لتكون قادرة على تنظيم حركة الشحن التي كانت متسعة يومذاك .

« وبالبيان المعروف باسم « بيان ميناء البصرة » لسنة ١٩١٩ ، الذي أصدره القائد العام لقوات صاحب الجلالة في ما بين النهرين ، المؤرخ في ٨ تشرين الأول ١٩١٩ ، ظهر الميناء بشكله الحالي الى الوجود ، وتعينت مساحاته وتنظيماته وواجباته وصلاحياته وما أشبه . وبتطور أحوال السلم الطبيعية نقل الميناء من عهدة السلطات العسكرية الى عهدة السلطات الملكية في أول نيسان ١٩٢٠ ، غير ان شؤون تنظيمه واستثماره بقيت بأيدي مديرية الميناء الحالية ، التي تساعدها هيئة استشارية تتألف من ممثلين عن الادارات الملكية والعسكرية ، وغرفة تجارة البصرة ، وبعض الوجهاء المحليين .

« ولا تستدعي متطلبات السلم نفس التأسيسات الواسعة التي كانت مطلوبة خلال الحرب ، لكن ما يبعث على الرضا ان نجد ان الادارة المدنية التي انتقل الى عهدها الميناء قد وضعت خطة محكمة مدروسة تأخذ بنظر الاعتبار التطور المحتمل في المستقبل وتستفيد من نسبة كبيرة من التأسيسات العسكرية وعددها . وبذلك ستستعيد الجهات العسكرية نسبة غير يسيرة من المبالغ التي اضطرت الى صرفها من قبل ، بينما تستفيد البلاد من امتلاك ميناء على أحدث طراز في الحال ، لا يحتاج الا الى شيء من التعديلات الطفيفة التي تجعله صالحاً للعمل بكفاءة وتضمن جميع المتطلبات المحتملة خلال الكثير من السنين القادمة .

« وما يزال أمر تنظيم الميناء في حالة انتقال ، لكن تقدماً مطرداً قد حصل

(١) كان مدير الموانيء العام منذ البداية الكولونيل جي سي وارد الذي عُين في ١/٤/٢٠ ، وبقي في وظيفته الى ما بعد تأسيس الحكم الوطني بمدة طويلة . فلم ينح عنها الا قبل ثورة تموز ١٩٥٨ بسنوات قليلة .

لتركيزه على أسس تجارية رصينة يستطيع بواسطتها تقديم جميع التسهيلات المطلوبة للتجارة ، وجعله يكتفي اكتفاء ذاتياً في الوقت نفسه . وتحقيقاً لهذا الغرض نظم جدول موقت للرسوم والأجور ، ووضع في موضع التنفيذ في اليوم الأول من تشرين الثاني ١٩١٩ ، على ان يكون خاضعاً للتعديل عند الحاجة ثم صادقت عليه الادارة الملكية بقصد العمل به في السنة التالية . وقد عُنيت الأجور لتكون متناسبة مع الخدمات المقدمة على قدر الامكان . »

وقد نقلت مصلحة البريد التابعة لقوات الحملة العسكرية فيما بين النهرين ، وخطوط المواصلات الايرانية ، الى السلطة المدنية ثم وضعت في عهدة السكرتير التجاري في أيار ١٩١٩ . وأدجت في السنة التالية دائرتا البريد والبرق في ادارة مدير واحد .

اما دائرة المخازن الملكية^٢ فهي تستورد وتوزع التجهيزات الضرورية للدوائر الرسمية ، وتمون الحاجات الخصوصية الى ان يكون المسعى الأهلي

(١) كانت تشكيلات البرق والبريد جميعها في بداية الاحتلال البريطاني جزءاً من تشكيلات الحملة العسكرية التي فتحت العراق ، وقد نقلت كلها الى عهدة الادارة المدنية التي تشكلت بعد الاحتلال في ١٩١٩/٤/١ . وكان جميع موظفيها الكبار من الانكليز والهنود ، حيث لم نثر في قائمة أرنولد ويلسن المحتوية على (٥٧) اسماً إلا على اسم عراقي واحد هو يوسف قريشي الذي عُين معاوناً شخصياً لمدير الخدمات البريدية في بغداد بتاريخ ١٩٢٠/٥/٢٢ .

وقد لاحظنا أن الكرنل سيدت قد عين مديراً للتلفراف في بغداد بتاريخ ١٩٢٠/٤/١ ، ومدير عاماً للبرق والبريد فيها بتاريخ ٢٠/٤/١ . كما عُين الميجر غامبلي ، وكان مهندساً تنفيذياً للتلفراف ، وكيل مدير عام للبرق والبريد في ١٩٢٠/٨/١٣ . ويتذكر المطلعون أن غامبلي قد بقي في خدمة هذه الدائرة الى ما بعد تشكيل الحكم الوطني في العراق بسنوات غير قليلة .

وكان مدير بريد بغداد في عهد العثمانيين الى حد سقوط بغداد بأيدي الانكليز المرحوم نشأت بك ابراهيم (والد الدكتورين هاشم واکرم نشأت) ، وبقي موظفاً في المديرية العامة بعد الاحتلال ايضاً . وقد كانت مديرية البرق والبريد العامة يومذاك تشغل (خان كبة) الذي كان في يمين مدخل السوق المقابل لجامع مرجان اليوم في الجهة الثانية من النفق الذي يعبر تحت شارع الرشيد .

Department of Civil Stores (٢)

قادرًا على تظمين هذه الحاجات بأسعار معقولة . فان الأثاث ، حتى بأبسط أنواعه ، لا يمكن الحصول على أي شيء منه تقريباً في الأسواق المحلية .

وتقوم دائرة النقل^١ بتهيئة السيارات والزوارق البخارية للاستعمال الرسمي ، كما تقوم بتصلحيها والمحافظة عليها ، وباستخدام السواق وتدريبهم أيضاً . وقد كان السواق المحليون تحت التدريب منذ بداية ١٩٢٠ ، فبرهنوا على كونهم أهلاً للعمل . ولا يخفى ان الحكام السياسيين في مختلف المناطق يعتمدون على النقل البخاري في البر أو النهر ، ولولا هذه الوسائل لوجدوا أنفسهم غير قادرين على الاتصال بأماكن عملهم .

وبوسع المطبعتين^٢ الحكوميتين في البصرة وبغداد الآن الاضطلاع بمعظم الأعمال التي تحتاجها الدوائر العسكرية والملكية ، الى جانب شيء مما تحتاجه الشركات التجارية . وكانت مطبعة صغيرة قد نصبت في النجف سنة ١٩١٨ ، كما نصبت أخرى في السليمانية سنة ١٩١٩ . وتطبع الآن جرائد يومية إنكليزية في بغداد والبصرة ، وجرائد باللغة المحلية في بغداد والبصرة والسليمانية وكركوك

(١) Transport Department. وكان مدير المخازن والنقل المينر ماكوتا الذي

عين في ١٩/٤/١ .

(٢) كان مدير مطبعة الحكومة في البصرة يومذاك المستر بري أحد محرري جريدة الأوقات البصرية ، وقد عين مديراً في ١٧/٨/٢٨ . اما مدير مطبعة الحكومة في بغداد فكسان المستر ويكفورد الذي عين في ١٧/٦/١٠ بعد ان كان يشغل مديراً لمطبعة البصرة منذ ١٩١٦/٤/١ .

(٣) نذكر فيما يأتي أسماء محرري الجرائد الحكومية يومذاك في البصرة وبغداد والموصل مع تاريخ تعيينهم :

الاعوام البصرية	١٨/١٠/٩	١ - الكابتن بوين
» »	٢٠/ ٢/٢٤	٢ - الملازم كامرون
» »	١٨/ ٦/٢٩	٣ - الملازم كول
» »	١٦/ ٩/ ١	٤ - المستر لوريمر
» »	١٧/ ٤/٣٠	٥ - الكابتن ماكالم
» »	١٧/١٢/٥	٦ - الملازم بينز

والموصل . وقد أصدرت مطبعة البصرة ملاحق مصورة عن زيارات المدن المقدسة ، وكتاباً مصوراً عن عتبات العراق . ويستخدم العمال المحليون في هذه المطابع الى أقصى حد ممكن ، لكن هؤلاء يصعب الحصول عليهم نظراً للأجور العالية التي تدفعها الشركات التجارية لهم . فالمرتبون المحليون ، حتى عندما تكون انكليزياتهم بدائية ، سرعان ما يؤخذون الى جهات أخرى عندما يتيسر احد منهم .

الاشغال العامة

اما بالنسبة للأشغال العامة فان التنظيم الحالي يستهدف تأسيس دائرة واحدة للأشغال الملكية والعسكرية معاً . وسوف يديرها ضباط ملكيون أو عسكريون بالنسبة للشخص الذي يقع الاختيار عليه ، ومن المؤمل أن تدار في النهاية بصفة دائرة مدنية بحتة . وقد سبق ان نقلت مديرية الري والمساحة الى عهدتها من قبل . فكانت دائرة الري ، بصفتها دائرة عسكرية في السابق ، قد نقلت الى عهدة الحاكم الملكي العام في نيسان ١٩١٩ فوضعت تحت تصرف سكرتير الواردات . ثم نقلت الى عهدة الأشغال العامة في حزيران ١٩٢٠ . ولما كان من الضروري لهذه الدائرة ان تكون على اتصال وثيق بدائرة الواردات على الدوام ، ومنها بالحكام السياسيين في المناطق الذين تنحصر في أيديهم السلطة المحلية للواردات فان التنظيم المطلوب سيؤمن الاتصال التام بين الري والواردات والدوائر السياسية .

وتنحصر واجبات مديرية الري^١ الرئيسة بالحماية من الفيضان ، وهي

٧ - المستر ثورنيلي
ومحرر الاوقات البغدادية وجريدة العرب
١٩/ ٤/ ٤
٢٠/ ٣/ ١٥
٨ - الكابتن فيلبرز ستوارت
والاوقات البغدادية وجريدة العرب
١٧/ ٨/ ٢٠
١٧/ ١٢/ ١٦
(١) عين الميجر أي بي أتكين ضابط ري منطقة الحلة وكيل مدير ري عام في بغداد بتاريخ =

عملية صعبة. تتناول مراقبة أنهر ترتفع مياهها في الربيع بمقدار عشرين قدماً أو أكثر ، وفي السيطرة على الأنهر والقنوات والمحافظة على ضفافها ، وتهيئة كميات كافية من المياه في صدور الجداول والأقنية ، وتوزيع المياه على مختلف الأنهر والجداول . وقد أدى تسريح القوات العسكرية الى انخفاض كبير في عدد موظفي المديرية ، فتم تلافي النقص بدمج الوظائف بعضها ببعض وتقليل المناصب ذات المسؤولية . ولم تضطلع الدائرة بمشاريع كبيرة لكنها أجرت الكثير من التحسينات الطفيفة في الجداول والأقنية الحالية ، في ضوء الخبرة التي حصلت خلال السنين الماضية . وأعيد تخطيط عدد من الجداول او مددت الى مسافات أخرى ، فتهافت الناس على الأراضي التي ترونها . ويتقدم العمل الآن في مشروع مهم من هذا القبيل يقع ما بين جدولين من جداول الفرات ، ومن المؤمل ان يؤدي ذلك الى ان تعود مساحات شاسعة من الأرض الى الاستثمار بعد ان بقيت جرداء قاحلة مدة طويلة من الزمن ، ومن ضمن ذلك منطقة الفوار الكائنة في جنوب المدينة البابية المسماة « نفر » . وقد قوبل هذا المشروع بحماسة بالغة من العشائر التي تقوم بتقديم ما يحتاجه من عمال في الوقت الحاضر .

وقد كان التنظيم الذي تم في أثناء الحرب يقضي بأن تكون الطرق والجسور ، غير طرق بغداد والبصرة وجسورهما والطرق والجسور المخصصة للأغراض الحربية ، بعهددة دائرة الري على وجه العموم . وفي خلال فترة الانتقال التي سبقت تأسيس دائرة شاملة للأشغال العامة صار أمر الجسور والأبنية بعهددة فرع الواردات التابع لمكتب الحاكم الملكي العام ، باعتبارها جزءاً من واجبات

= ١٩/٧/١٨ . وكان معظم المهندسين ورؤساء الدوائر في الري من الانكليز والهنود يومذاك . اما موظفو الري العراقيون ، فقد كانوا كالآتي :

علي رافت	ضابط ري منطقة ثانوية في الرميثة	عين في ١٩/٤/١
رشيد أفندي	معاون ضابط ري في سدة الهندية	عين في ١٩/٤/١
حسين فوزي أفندي	ضابط ري منطقة ثانوية في الخربوعية (الهاشمية)	عين في ١٩/٤/١
ابراهيم فوزي بك	معاون ضابط ري في الكرادة	عين في ٢٠/٤/٢٢

دائرة الري . وفي خلال ١٩١٩ نقل عدد من الطرق التي كانت تشرف عليها الادارة العسكرية الى عهدة الادارة الملكية . وأخذت كذلك الجسور التي كانت تخدم الأغراض الملكية وكان الجيش راغباً في التخلي عنها ، ثم أُجريت الترتيبات المالية المختصة بها على المنوال المقترح في تقرير السرجون هيويت .

سكك الحديد

لقد تولت الادارة الملكية مسؤولية سكك الحديد ، الموجودة في بلاد بين النهرين ، في اليوم الأول من نيسان ١٩٢٠ .

ومع مراعاة ما تتطلبه الأحوال العسكرية ، وأفضلية تنقلات الجيش وحركاته المطلوبة ، فقد نظمت هذه الدائرة بمقتضى الأصول الاعتيادي الذي تسير سكك الحديد التجارية بموجبه . وقد نفذ نقل الدائرة من عهدة الجيش بأوامر أصدرتها

(١) كانت مشاريع انشاء سكك حديد عبر بين النهرين وربطها بسكك حديد الأناضول وأوربة ، من جملة المشاريع التي فكر فيها رجال الاستعمار الأوربي ، وتنافست عليها دوله خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد قدمت عدة صيغ وأشكال لهذه المشاريع ، فكان أبرزها وأشهرها مشروع سكة حديد بغداد - حيدر باشا الذي يصل بين استانبول ورأس الخليج العربي . وفي سنة ١٨٩٩ استطاعت المانية ان تحصل من الدولة العثمانية على امتياز يخولها مد سكة حديد الأناضول من قونية الى بغداد ، على ان يكمل خطها الى الخليج العربي من بعد ذلك . وقد بدأ الألمان في ١٩١٢ بمد خط عريض بين بغداد وسامرا (١١٩ ك) ، فتم انشاؤه في السنة التي أعلنت فيها الحرب العامة (١٩١٤) .

وحينما احتلت الجيوش البريطانية البصرة ، وأخذت تطارد الجيوش العثمانية المنسحبة الى الشمال على طول خطي دجلة والفرات ، أدركت قيادة الجيوش البريطانية أهمية مد خطوط للسكك الحديد في هذين الاتجاهين . فباشرت بهما وأخذت تمد خطاً بين البصرة والناصرية ، وآخر ما بين البصرة والعمارة . وبعد احتلال هاتين المدينتين وما ورائهما الى بغداد مدد خط الفرات الى السماوة ، وأنشئ خط ما بين الكوت وبغداد ، ومن هناك الى الحدود الإيرانية . وقد أوجبت الضرورة بعد ذلك ان يمد خط الفرات من السماوة الى الحلة ، ومن الحلة الى بغداد . فبوشر بذلك في ١٩١٨ وانتهى العمل فيه سنة ١٩٢٠ ، فسار أول قطار في تاريخ العراق الحديث بين بغداد والبصرة في هذه السنة . ثم مدد خط سامرا الى تكريت وبيجي ، ومنها الى الشرقاط .

وزارة الحرب وطلبت تنفيذها خلال بضعة أيام. ولذلك ترتب ان تؤخذ مؤسسة السكك على ما كانت عليه من الحالة ، وظلت تعتمد على الجيش في تجهيزاتها الطبية وسائر ما تتطلبه من الخدمات. ويجري الآن تنظيم هذه الخدمات ، لكن دائرة السكك لم تصبح في حالة اكتفاء ذاتي حتى الآن او لم تستقل عن الجيش بالكلية .

ويتألف الجهاز كما كان عليه الحال في اليوم الاول من نيسان من الخطوط التالية :

الخطوط الرئيسية ذات المقياس المتري :

ميل	
٣٥٢,٢٨	(١) البصرة الى غربي بغداد
١٣٠,٠٩	(٢) شرقي بغداد الى قورتو على الحدود الايرانية
١٠٨,٠٠	(٣) الكوت الى شرقي بغداد

فروع الخطوط الرئيسية ذات المقياس المتري :

	(٤) الزبير الى جبل سنام ، وهو الخط التي مد بقصد الوصول الى مقلع الاحجار في جبل سنام
٢٣,٥٥	(٥) أور الى الناصرية
٩,٧٥	(٦) قره غان الى كينگران بالقرب من كفري
٣٣,٤٦	(٧) الخطوط في ميناء المعقل قرب البصرة للتجمع
٣٥,٧٢	(٨) وكان تحت الانشاء أيضاً خط يربط شرقي بغداد بغربها ، بما في ذلك عبارة عربات لنقل الشاحنات المحملة عبر — دجلة . والمؤمل ان يكون جاهزاً للعمل في أوائل أيلول . ٥,٩٧
٦٩٧,٨٢	مجموع الخطوط ذات المقياس المتري

خطوط المقياس المعياري (ستاندارد ٤ قدم و ٨,٥ بوصة)

(١) غربي بغداد الى الشرقاط على دجلة ، ويضم هذا خط بغداد

١٨٥,٩

٢,١

١٨٨,٠

— سامرا الذي أنشأه الألمان

(٢) غربي بغداد الى جنوبي بغداد

مجموع الخطوط ذات المقياس العياري

خطوط خفيفة بمقياس قدمين ونصف

٣٧,٩٤

٢١٠٠

٥٨,٩٤

(١) جنوبي بغداد الى الفلوجة على الفرات

(٢) الحلة الى الكفل على الفرات

المجموع

وكان هناك أيضاً جهاز « ترامواي » يصل المعسكرات المختلفة ومخازن التجهيزات في المعقل والمكينة والعشار بعضها ببعض ، ويبلغ مجموعها حوالي عشرين ميلاً . وسيقلع هذا الخط قريباً ويسلم الى الجيش ليستخدمه في مكان آخر .

ولم يكن الجهاز الذي ذكر تفصيله في أعلاه كاملاً لا من ناحية الانشاء ولا تجهيزات العربات وما أشبه . وقد كانت الخطة التي وضعتها الجهات العسكرية ان لا تنشئ شيئاً غير أساسي لتطمين الاحتياجات العسكرية الآتية . فلم تكن هناك محطات ولا ظلات للبضائع أو أماكن لموظفي السكك ، في حين كانت المكائن والعربات وما أشبه قديمة في الغالب مستهلكة جزئياً .

ولذلك فان حكومة ما بين النهرين ستجابه بصرف نفقات باهظة خلال السنوات القليلة القادمة قبل ان يكون بوسع السكك أن تأتي بشيء من الواردات على رأس المال الموظف فيها .

وكان عدد موظفي^١ دائرة السكك في اليوم الأول من نيسان ١٩٢٠ حوالي

(١) عُين الكرنل لوبوك مديراً عاماً للسكك الحديد في العراق بتاريخ ١٩٢٠/٤/١ ، وعُين في التاريخ نفسه المستر روثيرا رئيساً للمهندسين فيها ، والمستر رايت مديراً للحسابات فيها ، والمستر تنش الذي بقي في خدمة السكك العراقية سنين عديدة بعد ذلك مراقباً للقاطرات . هذا وقد لاحظنا أن قائمة أرنولد ويلسن بموظفي السكك تحتوي على تسعين إنكليزياً .

٢٤,٩٢٨ من جميع الدرجات . وكان ثمانون بالمئة من هؤلاء تقريباً من الهنود ، وثلاثة بالمئة أوروبيين ، وكان الباقون من سكان بين النهرين بما فيهم العرب والأكراد واليهود. وقد كان للطلب على العمال وما يزال ، وسوف يظل لمدة طويلة من الزمن ، أكثر مما تحمله الموارد المحلية في البلاد . ولا بد لسكك الحديد ما بين النهرين من ان تظل مدة من الزمن معتمدة لدرجة كبيرة على الموارد الخارجية في هذا الشأن . ويجب ان يلاحظ هنان ان أجهزة السكك التركية ، في الولايات العربية أو في آسية الصغرى ، كان موظفوها الكبار في الدرجة من اليونان والأرمن ، وليس من الترك والعرب . لكن السكان الأرمن في ما بين النهرين قليلون ، واليونان غير موجودين تقريباً .

والحقيقة أن هذا سيكون عاملاً مقيداً في اي توسع يمكن ان يطرأ على سكك الحديد في العراق خلال السنوات القليلة القادمة ، وتعتبر المشكلة في الوقت الحاضر على جانب اكبر من الصعوبة لأن السكك لا يمكنها ، بالنظر لخطة الاقتصاد التي تتبعها ، حتى ان تقدم معدات السكن المريح لتجذب اليها بواسطته الموظفين المطلوبين .

وعلى كلٍ فان هذه المشكلة ستكون مشكلة صعبة ، لأنه من الطريف ان يذكر هنا ان الهند بينما كانت قد حصلت على ميل واحد من خطوط السكك لكل أحد عشر الف من سكانها بعد سبعين سنة ، فان العراق الذي كان لا يملك اي نوع من سكك الحديد تقريباً قبل خمس سنوات صار يملك الآن ميلاً واحداً لكل (٤٥٠٠) من سكانه . فليس من المنتظر من أي بلد يشابه العراق في حالته الحضارية ان يدير سككه الحديد بمثل هذه السرعة .

المالية

عند البحث عن الناحية المالية من الادارة ، يمكننا ان نقبس شيئاً من تقرير

قدمه السكرتير^١ المالي في هذا الشأن :

١ - ان الادارة المالية ، فيما عدا الناحية الفنية منها ، يمكن ان تعتبر وجهاً من أوجه الادارة العامة التي أتينا على ذكر وضعها وأحوالها من قبل . ولذلك ساقصر فيما اكتبه هنا على مجموعتين رئيسيتين من المشاكل : أولاهما مقدار المبالغ التي صرفت على الادارة الملكية في ما بين النهرين من نهاية ١٩١٤ الى نهاية سنة ١٩١٩ - ٢٠ المالية ، ومن أين جيء بها ، وثانيتها نوع العملة التي استعملت واسباب استعمالها هذا .

٢ - ان الحسابات العامة لم تمسك إمساكاً كاملاً خلال تلك السنين العvisية ، التي كان يدير الادارة الملكية في أوائلها حوالي ثلاثة ضباط كانوا يتقاسمون الأعمال الكتابية فيما بينهم . غير انه أمكن إعداد خلاصات تامة نسبياً لتخمين المقبوضات والمصروفات حتى يمكن تدقيقها في الهند ، وفيما يأتي الجدول الخاص بها :

(١) كان العقيد سليتر هو السكرتير المالي ، وقد عُين لهذه الوظيفة في ٢٩/٣/١٩ ، وبقي في خدمة العراق عدداً من السنين بعد ذلك . كما كان المستر بارلبي نائباً للسكرتير منذ ١٩/٢/١٨ ، بعد ان اشتغل مساعداً مالياً في دائرة الحاكم الملكي العام منذ ٢٣/٤/١٧ . وقد ظل بارلبي يعمل في خدمة العراق سنين عديدة بعد هذا بصفة (مراقب الحسابات العام) . وكان نائباً لمدير الحسابات العام كل من المستر كوريا الذي عُين لهذه الوظيفة بتاريخ ١/٥/١٩ ، والمستر زانفير الذي عُين فيها بتاريخ ١/٥/٢٠ ، والملازم سوان الذي عُين في ١٨/١٢/١٩ وظل في خدمة العراق سنين عديدة بعدها أيضاً .

تدقيق السنة المالية من أول نيسان إلى ٣١ مارس

المقبوضات

العنوان الرئيسي	١٩١٥ - ١٩١٦	١٩١٦	١٩١٧	١٩١٨	١٩١٩ - ٢٠
١ - واردات الارض وضرائب عامة على المنتجات الزراعية والمرابي والأغنام وما أشبه	٢,٥٥٥,٩٧٦	٢,١٨٦,٥٥٥	٧,٩٣٤,٢٩٥	٢١,٧٤٧,٤٣٠	١٩,٨٢٧,٢٩٠
٢ - الكمارك	١,٨٣٤,٤٩٧	٥,٧٦٤,٤٠٠	٦,٧٣٨,٠٠٠	٦,٥٠٠,٠٠٠	٢٢,٠٢٤,٠٠٠
٣ - العدلية	١١٨,٥٢٨	١٠٥,٨٢٠	١٥٧,٧٢٠	٣٤٦,٥٠٠	٥٠٠,٠٠٠
٤ - الشؤون الطبية	—	—	١٧,٤٠٠	٩٥,٨٠٠	٣٥٠,٠٠٠
٥ - المعارف	—	٣,٣٣٠	٣,٥٠٠	١٥,٠٠٠	١٨٢,٠٠٠
٦ - البريد	—	—	—	—	٣,٢٧٥,٦٥٠
٧ - البرق والتلغرافات	—	—	—	—	٨٠٠,٠٠٠ (قبضت من الناس)
٨ - المسجونون - أجور اشتغال المساجين	—	—	١٥٤,٥٠٠	٤٣١,٦٥٠	٩٤٠,٨٧٠
٩ - مقبوضات الدوائر ، مخازن القرطاسية الحكومية ، الصحف ، النقليات ، وما أشبه	—	—	١٥٤,٥٠٠	٤٣١,٦٥٠	٩٤٠,٨٧٠
١٠ - متفرقة ، بما فيها الغرامات والرديات ، وما أشبه	٥٩,٦٤١	٤٤,٥٤٥	٢٢٦,٥٢٤	٧٤,٨٠٠	٧٨,٠٠٠
المجموع	٥,٥٦٨,٦٤٢	٨,١٠٨,٢٥٠	١٥,٢٥٢,٠٤٨	٢٩,٣١٣,١٨٠	٥٥,٤٩,٥٣٦,٥١٠

وفي قسمها واردات عينية من الطوب إلى الجيش تقدر بستين لك روية .
 * ان حسابات دائرة صغيرة للبريد الملكي است لتلاني الحاجة المالية قبل ١٩١٩ بحث بها الى الخلد .

المصروفات
تتمد السنة المالية من أول نيسان الى ٣١ مارت

العنوان الرئيسي	١٦-١٩١٥	١٧-١٩١٦	١٨-١٩١٧	١٩-١٩١٨	٢٠-١٩١٩
روبيات	روبيات	روبيات	روبيات	روبيات	روبيات
١- مصروفات المقر الاداري العام بما في ذلك رواتب موظفي الدرجة الاولى ، الخدمة السرية ، تخصصات المعيشة ، أجور السفر البحري ، المخزن والطبعة ، وما أشبه .	٥٥٤,٢٣٠	١,١٨٣,٤٢٥	٢,٤١٨,٢٥٣	٣,٣٩٠,١٠٠	٨,١٢٦,٢٧٠
٢- المحاكم السياسيون والتاسيسات المالية	٥٥٥,٣٩٢	٩١٩,٠٨٥	٥,١٨٩,٢٣٣	٩,٣٢١,٦٩٠	٧,٨١٧,٤٧٠
٣- الكمارك	١١١,٨٩٨	٣٨٥,٨٠٠	٥٨٠,٣٥٠	٦٧٥,٠٠٠	١,٧٤٠,٥٥٠
٤- الشؤون العدلية	١٢٠,٢٠٧	١٢٧,٢٩٥	٢١٤,٩٨٣	٣٧٣,٠٠٠	٨٩٢,٣٢٠
٥- الشؤون الطبية	٦١,٣٤٥	٨٧,١٨٠	١٣٩,٨٨٧	٤٦٣,٧٥٠	٢,٨٧٥,٦٠٠
٦- المعارف	-	٢٣,٥٣٠	٣٥,٥٠٠	١٨٠,٠٠٠	٩٨٩,٢٥٠

١,٩٣٦,٩٤٠	١,٢٠٤,٠٨٠	٨٩٠,١٦٣	٢٨٦,٩٧٥	١٩٩,١٤٦	
٦,٦١١,٧٢٠	٨٧٤,٧٠٠	٤٦١,٤٠٠	١٠٥,٤٥٠	—	٧ — الشرطة
٧٤٧,٨٣٠	١٦٧,٤٠٠	٩٨,٥١٧	٤٤,٤٦٠	٢٠,١٢٦	٨ — الأشغال العامة
٣,١٤٦,٥٠٠	—	—	—	—	٩ — السجنون
١,٤٢٦,٤٥٠	—	—	—	—	١٠ — البريد
١٤٤,٢٣٠	—	—	—	—	١١ — البرق
١٠٠,٤٦٠	—	—	—	—	١٢ — المساحة
٥,٢٢٥,٠٠٠	—	—	—	—	١٣ — تسوية الأراضي
٧١٦,٢٧٠	—	—	—	—	١٤ — الري
٥٥٣,٢٠٢,٨٩٠	—	—	—	—	١٥ — الزراعة
٥,٠٦٢,٢٨٠	—	—	—	—	١٦ — الشبكات
٢٢٤,٥٠٠	—	—	—	—	١٧ — النقلات
١,٢٠١,٢٥٠	—	—	—	—	١٨ — المخازن
٥٢,١٨٧,٨٧٠	١٦,٦٤٩,٧٢٠	١٠,٠٢٨,٢٨٦	٣,١٦٣,٢٠٠	١,٦٢٢,٣٤٤	١٩ — استهلاك الأراضي
					المجموع

* ويتضمن ذلك ١,٢٠٠,٠٠٠ روبية رديات عن السلع المستوردة والمصدرة بعد ذلك .
 ** صافي باستثناء الخدمات على حساب الجهات العسكرية .

٣ - تدل الأرقام (المخصصة بواردات ومصروفات الدوائر الملكية فقط) على مدى التوسع الحاصل في المناطق المحتلة . فقد كنا الى نهاية ١٩١٦ نجبي الضرائب من المناطق التي يصل أقصى حد لها من جهة الشمال الى على الغربي . وفي ١٩١٧ أضيفت ولاية بغداد فبرهنت على كونها من الممتلكات باهظة التكاليف بحيث صار يبدو لأول وهلة أن تبعاتها أعظم من فوائدها لنا ، وما حلت نهاية سنة ١٩١٨ - ١٩ المالية حتى أصبحت ولاية الموصل خاضعة لادارتنا الوقتية ، وبذلك وقعت في ضمن منطقة احتلالنا الولايات التي كان يتكون منها العراق رسمياً على عهد الامبراطورية العثمانية .

٤ - يدل الجدولان أيضاً على التقدم التدريجي الذي حصل في المصروفات المخصصة لمنفعة السكان مباشرة . ففي ١٩١٥ - ١٦ كانت المصروفات كلها ، باستثناء لكين للشرطة وشيء أكثر من لك واحد على الشؤون العدلية ومبلغ غير مهم للمساعدة وبعض المنح للمعارف ، مخصصة للجهاز الاداري . وأصبحت المصروفات على الجهات الثلاث هذه ، التي لها اتصال مباشر بالناس ، في ١٩١٦ - ١٧ أعظم من قبل وبدىء ببداية متواضعة في تأسيس دائرة للمعارف . وقد صرف لك روية كذلك على الأشغال العامة ، بما فيها المواصلات .

وتوسع هذا الاتجاه في ١٩١٧ - ١٨ وازدادت المصروفات المخصصة للمنافع العامة المباشرة ، كما تضاعفت مصروفات الشرطة ثلاث مرات ، بينما صُرف أربعة أضعاف ما صرف في العام السالف من المبالغ المخصصة للأغراض الملكية على الأشغال العامة . وحينما أضيفت ولاية بغداد في ١٩١٨ - ١٩ حصلت زيادة كبيرة أخرى في المبالغ المخصصة لأغراض النفع العام .

٥ - غير أن أبرز ظاهرة في السنوات الأربع الأولى قد تكون حصول فضلة كبيرة نسبياً ظلت تتكرر سنة بعد أخرى . إذ يضع القانون العسكري على عاتق الدولة المحتلة واجب القيام بجباية الضرائب التي كانت تجبها في العادة الحكومة الخاسرة في الحرب ، وممارسة الواجبات الاعتيادية التي تقوم

بها الحكومة . على اننا لا ندعي بان الفقرات التي يشير الجدول الى صرف المبالغ عليها خلال السنوات الأربع الممتدة بين ١٩١٥ و ١٩١٩ تغطي جميع أغراض المصروفات العامة .

ففي ١٩١٥ - ١٦ مثلاً كانت المصروفات على المعارف تقتصر على عدد قليل من المنح المالية ، وكان مجموع ما صرف على هذه الناحية الحيوية خلال السنوات الأربع يبلغ ثلاثة ألكاف فقط ، بينما كان الأتراك يصرفون مبلغاً جسيماً في كل سنة . وكانت المصروفات الوحيدة التي صرفت الى نهاية ١٩١٨ - ١٩ تقريباً من الواردات الملكية على الري ، الوسيلة الأولى التي لا غنى عنها في المحافظة على ثروة البلاد قليلة المطر واستثمارها ، قد بلغت سبعة عشر لكامن الروبيات في ١٩١٧ على سدة الهندية . وباستثناء عدد من القروض الممنوحة للمزارعين لم يصرف قبل ١٩١٩ أي شيء على تحسين الأساليب الزراعية المحلية ، مع ان هذا من أولى واجبات الحكومات الحديثة المعترف بها في كل مكان . ولم تضطلع الادارة المدنية بمصالح البريد والبرق الحيوية الا في سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ بالتعاقب . كما كانت المصروفات التي أنفقت على الأشغال العامة على مقياس يقل كثيراً عن متطلبات البلاد الاعتيادية ، في المواصلات وسائر الأشغال ذات النفع العام .

٦ - ويعد هذا على ما يبدو ادانة على درجة من الخطورة للادارة المدنية ، لكن ظاهرة عدم الاستفادة من الفضلات المترأكة في الميزانية ، الدالة لأول وهلة على تقيّد لا مبرر له ، يمكن ان تعلل تعليلاً كافياً .

فلا شك أولاً ان العامل الرئيسي في عدم الانفاق كان سببه عدم تيسر الموظفين المختصين . فان الضباط ، فيما عدا بعض الاستثناءات ، لم يبعثوا للاضطلاع بواجبات الادارة المدنية ، وانما كانوا يعارون من وقت لآخر كلما كانت الحاجة ملحة لهم . وقد كان التجهيز على الدوام أقل من الطلب ، ولذلك لم تجر محاولة للاستعانة بخدماتهم الا في شؤون الادارة الأساسية . وهكذا

كانت واجبات اعتيادية عديدة من واجبات الادارة المدنية مرجأة ، في حين كان البعض منها تقوم به السلطات العسكرية ويصرف عليه من الميزانية العسكرية (أي من دافع الضريبة البريطاني) لأنه كان ضرورياً لقوات الحملة العسكرية وليس لفائدة السكان المدنيين . فقد كانت المواصلات مثلاً ، بما فيها النقلات في الطرق ، والأنهر والسكك ، ومنشآت البريد والبرق ، كلها في أيدي الجهات العسكرية ، والحقيقة ان الطلبات العسكرية كانت كثيرة بحيث لم تيسر الا فرصة قليلة للسكان المدنيين حتى يستفيدوا من هذه المصالح . ولذلك لم ينظم الا فرع مدني صغير لمصلحة البريد في ١٩١٨ لنقل بريد الأهليين ، لكن أي استعمال ذي بال للمواصلات العامة من قبل السكان المحليين لم يكن شيئاً عملياً لأسباب عسكرية .

وقد كان دافع الضريبة العربي محظوظاً في شؤون تحسين الأحوال الزراعية ، لأن بعض الأغراض العسكرية كانت تتفق مع مصالحه هو ، فاستفاد استفادة غير يسيرة من مشروع الاستثمار الزراعي الذي بدىء به في ١٩١٧ تحت الاشراف العسكري ، وصرف عليه ما لا يقل عن مليون باون استرليني .

٧- لقد كان تعيين المدى المضبوط الذي يسمح بصرف المبالغ المختلفة خلال الحرب على الشؤون العسكرية أو المدنية موضع الكثير من المخابرات التي كانت الأدمغة البارعة الموجودة في الدوائر تلتذ بها . واذا كانت الحلول المقترحة بعد تحليل كثير للمشكلة في مختلف الفرضيات لم ترتح لها الجهات المختصة بتدقيق الحسابات فان ذلك سببه بطبيعة الحال هو ان هذا الموضوع لا يمكن تحديده تحديداً واضحاً . فان الحكمة التي تفوه بها في النهاية المسؤولون في سيملا سنة ١٩١٨ . بعد حكم أو حكمين نطقوا بهما ، لارشاد السلطات التي كانت تضطلع بصرف المصروفات على حساب الواردات المدنية فيما بين النهرين ، والتي كانت تريد ان تعرف ما هو الذي يصرف بهذه الطريقة ، قد أكدت ما يأتي :

« واذا كانت الضرورة العاجلة للاجراء الذي يتطلب الصرف تنشأ في الدرجة الأولى من اعتبارات عسكرية ، فقد بينا من قبل ان هذه المصروفات يجب ان تصرف كلها على حساب القوات العسكرية ، برغم ان الاجراء قد يفيد الادارة المحلية أيضاً بصورة مباشرة أو في النهاية . اما اذا كانت الضرورة العاجلة للاجراء من جهة أخرى تنشأ في الدرجة الأولى من اعتبارات تتعلق بادارة البلاد المحتلة ، فقد بينا ان المصاريف يجب ان تحسب كلها على حساب الواردات المتأتية من البلاد المحتلة حتى اذا كانت في ذلك مساعدة غير يسيرة للعمليات العسكرية ، بصورة مباشرة او غير مباشرة . »

على أن هذا البيان ، الذي أكد على القانون الموضوع في سنة ١٩١٧ بشيء أكثر من الدقة ، قد جاء متأخراً بحيث لم تكن له تلك الفائدة في ممارسة صلاحيات المصادقة على الانفاق والصرف ، ومما يدل على أنه لم يكن ذلك المرشد الوافي بالمرام في تنظيم الشؤون المالية من بعد ذلك ما عمد اليه السرج . هيويت في تقريره الشامل الواضح الذي أعده لوزارة الحرب في أوائل ١٩١٩ عن النفقات العسكرية فيما بين النهرين وتفريقه بين المخصصات العسكرية والمخصصات المدنية ، فقد اضطر الى اتخاذ قاعدة اعتبارية للتفريق بين المصالح التابعة للجهتين .

٨ - وقد يترك الأمر لدوائر التدقيق الحسابية لتتخاضم فيما بينها حول تحديد جهات الصرف تحديداً دقيقاً عند النظر في نفقات الحملة التي قاتلت فيما بين النهرين . لكن القاعدة الكبيرة في كل هذا تبقى منطقية في أن قيمة الأشغال ذات النفع الدائم للسكان ، مثل الطرق والجسور ، وسكك الحديد ، وميناء البصرة ، التي أنشئت على نفقة الجيش سوف تسدد حسابها الحكومة المدنية في النهاية . ولذلك فقد وضعت فضلة الواردات التي تراكت خلال سنوات الاحتلال القليلة الأولى في معزل عن الصرف على سبيل الأمانات للاضطلاع بهذه الالتزامات . والحقيقة أن الأشغال ذات النفع العام التي سلمها الجيش لادارة الملكية تزيد في قيمتها على مجموع الفضلات المتراكمة خلال الحرب (يمكن ان تبلغ قيمة بيعها حوالي ستة ملايين باون استرليني) ، وسوف

تستوفى من واردات البلاد في عدة سنوات . وقد عُنيت الى هذا المدى مسؤوليات البلاد المالية في الغالب بتأثير مقتضيات الحرب العسكرية ، التي أدت الى تأسيس الكثير من المصالح النافعة للسكان المدنيين بصورة مبكرة في الغالب ، وقبل الأوان في بعض الأحيان .

٩ - اما قضية نوع العملة التي استعملتها الادارة المدنية فيما بين النهرين ، وسبب استعمالها ، فمن الممكن ان نبحث فيها بصورة موجزة . والحقيقة ان موضوع التحويل الخارجي لا يرد بهذه المناسبة ، وعلى القراء غير الملمين بتفصيلات النقود التركية ان يراجعوا للحصول على جميع المعلومات المطلوبة في هذا الشأن المؤلفات المختصة ولا سيما مؤلف تيت الموسوم « كتاب التحويل الحديث »^١ .

١٠ - ويدل الجدول المدرج في الفقرة الثانية من هذه الملاحظات على ان مجموع نفقات الدوائر المدنية خلال السنوات الخمس المنتهية بيوم ٣١ مارت ١٩٢٠ يبلغ حوالي ثمانية ملايين باون استرايني (بسعر التحويل الحالي) ، بينما بلغت المقبوضات حوالي عشرة ملايين . ويلاحظ في جهتي التنظيم الحسابي أن حصة غير يسيرة ، وحصة متزايدة على الدوام ، كانت تغزى الى المعاملات الكتابية . ويمكن تنزيل حوالي مليون واحد على وجه التقدير في هذا الحساب ، يضاف اليه مليونان آخران لحساب الادارة المحسوبة على حكومة صاحب الجلالة . وهكذا فان المبلغ الدال على النفقات النقدية كان حوالي سبعة ملايين . وكانت الوسيلة التي تم بها هذه المعاملات الروبية الهندية ، الورقية والفضة .

١١ - على أن ادخال عملة غريبة ، مؤدية الى أبعاد النظام النقدي المحلي بالكلية ، كان عرضةً للانتقاد في بعض الأوساط لكونه مناقضاً للقواعد التي تنتظم بموجبها ادارة البلاد المحتلة . لكن المنتقدين ربما كانوا قد تغاضوا عن

إن العملة الهندية قد أُدخلت في الدرجة الأولى لتلافي متطلبات الجيش العسكرية ، ومساعدة قوات الحملة العسكرية فيما بين النهرين في شراء ما تحتاجه محلياً ودفع ما يقتضي دفعه في هذا الشأن . فلم يتيسر في البلاد يومذاك مقادير من العملة تكفي لهذا الغرض إلا من الروبيات المستوردة من الهند . فقد بلغ مقدار ما استورد من الهند لسد حاجات الجيش إلى نهاية ١٩١٧ ما يقرب من مئة مليون روبية (كان حوالي ثلثيها بالورق والثلث الآخر بالفضة) ، أو ما يعادل عشرة ملايين باون استرليني بأسعار التحويل الحالية . ثم استوردت مبالغ أخرى خلال السنتين التاليتين ، ولكن ليس بمثل تلك الكميات الكبيرة . ولما كان الجيش هو الذي يمول الإدارة المدنية في بادئ الأمر ، فقد كان لا بد من أن تكون العملة التي تستعملها هذه الإدارة هي العملة الهندية .

١٢ - ومن الأسباب المساعدة الأخرى أن واردات الحكومة لم تبدأ الحكومة باستيفائها إلا بعد عدة أشهر ، ومع أنها لم تستوف بمقياس يزيد عما كان يستوفى منها في أيام الحكم التركي ، فحتى ذلك المقدار القليل ربما لم يكن من الممكن تسلمه إذا كانت وسيلة الدفع هي العملة التركية . فقد كانت السلطات التركية منهمكة في منع تداول الذهب ، والاستعاضة عنه بعملة الحكومة الورقية التي كانت تصدر لأغراض الحرب فقط ، ولم تصرف بقيمتها الأصلية مطلقاً وإنما ظلت تنخفض بسرعة حتى وصلت إلى حوالي ربع قيمتها الاسمية .

١٣ - وحتى لو فرضنا أنه كان بالإمكان التعامل بالعملة المحلية لجميع أغراض الإدارة المدنية لأدى اعتماد الجيش على العملة الهندية ، بمقتضى حاجاته المختلفة ، إلى التعامل بعملة رسمية مزدوجة تتألف من الليرات (الذهب والورق) ، والروبيات (الورق والفضة) ، والمجدييات ، والقروش ، والعملات الهندية الصغيرة ، إلى جانب خليط ما قبل الحرب من القرانات وما أشبه - فتتكون من ذلك بؤرة شريرة للعملات كما حصل في سورية فيما بعد ، مما قد يؤدي إلى التزام السلطات المسؤولة بتعيين النسب والأسعار بين العملات المختلفة .

١٤ - ولم يؤد ادخال العملة الهندية ، خلال الحرب ، الى حصول اية تأثيرات مهمة على التحويلات الخارجية . فقد كانت المتاجرة مع ايران (عدا من الجهة الشمالية) تتم في السابق مع الهند والمملكة المتحدة في الدرجة الأولى ، وبنتيجة ذلك كانت تتأثر بالتحويل الى الروبيات والباون الاسترليني . وليس من شك ان تبادل التحويل مع ايران كان صعباً خلال المدة التي يشملها هذا البحث ، لكن ذلك كان سببه في الدرجة الأولى توقف المتاجرة مع روسية أو عن طريقها ، وازدياد حركة المشتريات المحلية في داخل ايران لسد حاجات القوات العاملة هناك . وكانت التجارة مع الامبراطورية العثمانية من جهة أخرى محرمة خلال الحرب بطبيعة الحال ، ولم تنشأ صعوبات التحويل الى ان خضع قسم من تلك الولايات للاحتلال البريطاني . وعند ذاك وقع طلب ، في بعض الاوساط ، بايجاد عملة متناسقة في أنحاء الأجزاء المحتلة من الامبراطورية العثمانية كلها ، ولكن مع ان المشكلة العامة هي الآن قيد النظر فليس من المحتمل ان يكون تعيين سياسة العملة المقبلة في هذه البلاد منوطاً بما يتصل بمتطلبات البلاد التي تعد التجارة معها غير مهمة في الوقت الحاضر فقط .

١٥ - ولو أخذنا المشكلة كلها بوجه عام ، فاني أرى ان الجميع سيتفقون على ان ادخال العملة الهندية كان شيئاً لا بد منه من الوجهة العملية ، ولم يكن مضرراً بمصالح المناطق المحتلة . واذا كانت العملة المقبلة التي ستصدرها دولة العراق الحديثة ستكون مستندة الى العملة الهندية ام لا ، فان ذلك منوط بالمستقبل .

١٦ - وقد تكون الاجراءات المتخذة لتقييد استعمال العملة التركية على درجة أقل من التبرير ، من الناحية العملية البحتة . فقد اسقطت قيمة العملة الورقية التركية إسقاطاً جازماً لأسباب سياسية في بيان خاص صدر في نهاية ١٩١٦ ، ولم يرفع المنع جزئياً الا في ١٩٢٠ في مصلحة الدائنين الذين كانت ديونهم معبراً عنها بالورق . وحدد بيان صدر في آب ١٩١٧ النسبة بين الليرة والروبية لتسوية الالتزامات بمقدار أربع عشرة روبية لليرة الواحدة ، مع ان

كون الليرة لم تكن عملة شرعية قد جعل من غير النافع أن تعتبر أي شيء سوى قطعة من المعدن الذي يتغير سعره في السوق على الدوام ، أو أن نحاول إعطاءها قيمة قياسية ثابتة بالنسبة للروبية ، إلا في الحالات القليلة نسبياً حيث تكون الإدارة مضطرة لقبول المدفوعات عن الضرائب بالليرة محسوبة بحساب الروبيات .

التأسيسات

ان الجدول المدرج في أدناه يدل بصورة تقريبية على ما كانت عليه الإدارة الملكية في ما بين النهرين في اليوم الأول من آب ١٩٢٠ ، عدا دوائر السكك الحديدية :

الضباط الذين تتجاوز رواتبهم (٦٠٠) روبية وجميع الموظفين الذين يتقاضون أقل من (٦٠٠) روبية في الشهر .				الضباط الذين تتجاوز رواتبهم (٦٠٠) روبية وجميع الموظفين الذين يتقاضون أقل من (٦٠٠) روبية في الشهر .			
اسم الدائرة	بريطانيون	هنود	عرب	ملاحظات	بريطانيون	هنود	عرب
١ - الإدارة المركزية	٥	—	—		٥٥	٦٢	٦
٢ - الواردات	٨	—	—		٢	١٣	٧
٣ - المالية	١٨	—	—		٢	١٣٠	٢٢
٤ - العدلية	١٤	—	١٠		١	٧	٢٣٨
٥ - السجون	٢	—	—		٢٦	٢	٢
٦ - الكمارك	١٢	—	—		٩	٢٣	٧٥
٧ - الصحة	٧٤	—	—	من ضمنهم ٢٥ ممرضة	٣٢	٣٦	١٩٥
٨ - الهندسة	٢٢	—	—		٢١	٧٢	١٩
٩ - موظفون تنفيذيون في المناطق	١٠٦	—	٤		٢٨	٣١٦	٨٦٢
							المجموع
							١٢٠٦

٣٣	٧	٢٢	٤	—	—	١١	١ - الزراعة
٣١	—	١٣	١٨	—	—	٢٠	١ - التفسير
٤٨٧	٤٧٩	٧	١	—	—	١١	١ - المعارف
١٣٠٩	٣٠٣	٨٦٨	١٣٨	—	٣	٣٣	١ - البرق والبريد
١٣	١٣	—	—	١	—	٢	١ - الأوقاف
٢٤٧٠	٢٣٩٧	١٧	٥٦	—	—	٢٢	١ - الشرطة
٢	١	١	—	—	—	١	١ - سي أيج تي سي
١٦٤	٨٢	٧٤	٨	—	—	٤	١ - الطباعة والنشر
٥٠	٢٣	٢٠	٧	—	—	١٤	١ - المخازن
٤٦٢	٣٨٩	١٢	٦١	—	—	٥	١ - النقلات
٤٢٧	٣٩	٣٨٠	٨	—	—	٢٨	٢ - الميناء
٣٠٣٧	٢٩٨٧	١٧	٣٣	—	—	٣٧	٢ - الشبابة
٢٨٩	١٧٨	١١٠	١	٣	٤	٤٢	٢ - الري
—	—	—	—	—	—	٤	٢ - الشيفرة
٦٧	٦٦	١	—	—	—	٧	٢ - المساحة
١٤٩	١٤٧	٢	—	٢	—	٢	٢ - الطابو
١٧	٩	٤	٤	—	—	٣	٢ - البيطرة
غير داخلة							٢ - السكك الحديدية
١١٢٧٠	٨٥٤٦	٢٢٠٩	٥١٥	٢٥ ممرضة	٢٠	٧	٥٠٧ المجموع

ومن المناسب هنا ان نحلل هذا الجدول الذي يدل لأول وهلة على توزيع عدد كبير غير اعتيادي من الضباط . فنجد أولاً ان الضباط الذين يشتغلون في تفسير اللاجئين ، وإدارة الشركات التجارية المعادية ، مع خمسة عشر ضابطاً ذكروا تحت عنوان « موظفون تنفيذيون في المناطق » وهم يشتغلون في ايران كحكام سياسيين مع الجيش ، وخمسة ضباط كانوا قد أُعيروا للقيام بالواجب

في موانئ الخليج ، يبلغ عددهم كلهم ٤١ . وهذه التعيينات هي تعيينات ذات طبيعة مؤقتة صرف ، ناشئة عن سير الحرب في الشرق الأوسط ، ولا يمكن ان تعتبر جزءاً من الادارة المدنية .

ويبلغ عدد الضباط المشتغلين في دائرة الشفرة ، والمساحة ، والطابو ، والبيطرة ، والطباعة والنشر ، عشرين ضابطاً . وهؤلاء يشغلون وظائف فنية خالصة ، تتوفر في كل منهم المؤهلات الفنية التي تتطلبها وظيفة .

وتشتمل فقرة الطباعة والنشر على المحرر البريطاني لجريدة « الاوقات البغدادية » وزميله الذي يتولى جريدة « الاوقات البصرية » . وقد جرت مفاوضات في نقل^١ هاتين الجريدتين الى عهدة شركة أهلية ، وبالنظر لأحوال البلاد المضطربة لم يكن من الممكن اجراء مثل هذا الترتيب حتى الآن . ويعتبر نشر هاتين الجريدتين باللغة الانكليزية في الوقت نفسه شيئاً ضرورياً لفائدة الجمهور وأفراد الجيش معاً ، الذين تباع بين ظهرانيهم بسهولة . وهما لا تكلفان الحكومة شيئاً ، لأن الوارد منها يسد كلفة المحررين .

اما مديرا المطبعتين الحكوميتين في بغداد والبصرة فهما خبيران فنيان كانت لهما خبرة طويلة في هذا الفرع من فروع الصناعة . فالطباعة التي تتضمن في البصرة العناية بعدد من المكائن الثمينة والمحافظة عليها ، لطبع الكتب في نصف دزينة من اللغات ، وتلون بألوان طباعية ثلاثة ، والتي تشمل في بغداد حماية الطوابع واصدارها مع تجهيز القرطاسية لجميع الدوائر ، لا تعد من الدوائر المشحونة بأكثر مما يجب من الموظفين بطبيعة الحال .

وتعد دائرة المساحة منظمة عسكرية في الغالب ، وقد كرس معظم وقتها خلال السنة الماضية لتلبية الطلبات العسكرية . ويتم تدارك قسم من الكلفة مما

(١) لقد تم هذا فيما بعد وأصبحت تصدر الاوقات البغدادية شركة خاصة بقيت تعمل سنين عديدة في بغداد .

تخصصه الدوائر العسكرية لها ، والقسم الآخر من الدوائر الملكية تبعاً لمقدار العمل الذي تنجزه . ولا توجد هنا دائرة بذلت فيها الجهود لتدريب الموظفين المحليين على أعمالهم التخصصية مثل هذه الدائرة . فقد كانت تعد محلياً جميع الخرائط التي تحتاجها القوات العسكرية التابعة للتاج ، والكلايش المخططة ، والتصاميم ، والنسخ المطلوبة بالألوان جميعها التي تتطلبها أية جهة من الجيش العامل في الميدان . ويعتبر اشتغال هذه الدوائر وقيامها بعملها من الأمور التي تمهد الطريق لأي تطور يصيب هذه البلاد في المستقبل . سواء عن طريق الري أو أية وسيلة أخرى . كما أنها تعد خرائط لدائرتي الري والسكك . ولقد استعير معظم الضباط تقريباً من حكومة الهند ، التي جابهت صعوبات غير يسيرة بهذا السبب ، ويمكن ان نقول من دون ان نخشى التناقض أن هذه الدائرة ما يزال ينقصها الموظفون المتفوقون .

وتتولى دائرة الطابو تسجيل الأراضي في بلاد ما بين النهرين جميعها . وموظفوا هذه الدائرة ، باستثناء اثنين من الضباط ، كلهم من سكان البلاد .

(١) يقول السر أرنولد ويلسن في كتابه أن الأعمال الحسنة التي تمت خلال الحرب لم يكن من الممكن إنجازها لو لم تملأ الضرورة العسكرية الملحة أوافذاك . ولو لم تنجز هذه الأعمال لما أمكن اخراج الأتراك من العراق . ولهذا فقد ورثت الإدارة المدنية ، والحكومة العراقية من بعدها ، موجودات ومنافع من هذا القبيل لا يمكن تقديرها بشئ . وقد بنيت أعمال المسح هذه أولاً على ما قامت به هيئة المسح الهندية (من بومبي) التي خططت الحدود بين العراق وإيران ابتداء من الفاو إلى آارات في الشمال خلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٩١٤ . وفي أواخر كانون الأول ١٩١٤ وصل إلى العراق العقيد پيري من دائرة المساحة في الهند مع اثنين من مساحيه ، وشرع في الحال برسم خرائط مفصلة للمناطق ذات الأهمية العسكرية في كل جهة من الجهات وليس في منطقة الحدود فقط ، واستمر يعمل إلى نهاية ١٩٢٠ . وقد جابه هذا العمل صعوبات المحيط والأحوال الجوية من جميع الأنواع .

ولذلك عين في ٢٠/١/١٩٢٠ العقيد پيري هذا مديراً للمساحة ، والملازم مورتون وكيل له ، والملازم فيتز غيبون مديراً لمدرسة المساحة .

(٢) لاحظنا في قائمة أرنولد ويلسن أن الموظفين الآتية أسماؤهم قد اشتغلوا في الطابو :

العقيد ووكر مدير الطابو العام بغداد عين في ٧/١١/١٩٢٠

وقليل من الدوائر تتصل أعمالها بحياة السكان اليومية بصورة وثيقة مثل هذه الدائرة . وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ضرورة الاحتياط لحالات المرض والاجازات ، وقيام رئيس الدائرة بالتجوال في المناطق لتفتيش أعمال موظفيه وتدقيق أعمال المساحين الذين يتلقون الأوامر منه في المدن الكبيرة ، يتضح لنا ان تخصيص ضابطين لهذه الدائرة لا يعد شيئاً زائداً .

وتتألف دائرة الشيفرة من أربعة ضباط . ولا يمكن ان يعهد مثل هذا العمل السري للغاية الى أشخاص لا يعدون في منزلة الضباط . والحقيقة ان أحد الضباط الأربعة المشار اليهم في الجدول هو ضابط شيفرة أقدم ذو خبرة في الهند . اما الثلاثة الآخرون فكلهم من ضباط الجيش السابقين ، وكان اثنان منهم قد اصيبوا بجروح مشوهة خلال الحرب في الجبهة . وتشغل هذه الدائرة ثماني عشرة ساعة في اليوم .

وتتألف دائرة البيطرة من ثلاثة ضباط^١ . وتقوم هذه الدائرة بشراء جميع

= الكابتن لايل		معاون مدير الطابو العام	عين في ٢٠/ ٢/ ١
الكابتن براون		وكيل مدير الطابو العام	عين في ٢٠/ ٦/ ١
علي افندي سرحان أغا		مدير طابو البصرة	عين في ١٧/ ٥/ ٢٥
حافظ افندي		مدير طابو بغداد	عين في ١٨/ ١٢/ ١
محمد شفيع القاضي		مستشار طابو	عين في ١٩/ ٤/ ١
فائق بك		مدير طابو بغداد	عين في ١٩/ ٤/ ١
أحمد عزت		مدير طابو البصرة	عين في ١٩/ ٣/ ١
عباس فضلي		مدير طابو السليمانية	عين في ١٩/ ٤/ ١
سيد رشدي رياض الحسن		مدير طابو البصرة	عين في ٢٠/ ٣/ ١
(١) كان الضباط المشار اليهم : الميجر چادويك هو الذي عين مديراً للبيطرة في ٢٠/ ١/ ١ ، والكابتن أيسون الذي عين معاوناً للمدير في ٢٠/ ١/ ٢٠ ، والكابتن سكوت الذي عين معاوناً للمدير في ٢٠/ ٢/ ٢١ . وكان هناك كذلك أربعة مفتشين هنود ، هم : غوش ومكرجي وسركار وآير .		مفتش طابو	عين في ٢٠/ ٣/ ١
		رئيس قسم المساحة في مديرية طابو البصرة	عين في ٢٠/ ٤/ ٧

حيوانات الركوب الضرورية للشبابة العرب ، ولضباط الاداره الملكية من جميع الدرجات والرتب . كما انها تتخذ ما يلزم من الاجراءات لتفتيش الاصطبلات بين حين وآخر ، وتدير مستشفيات بيطرية في بغداد والبصرة . وتحفظ بذخيرة من اللقاح ضد الأمراض الشائعة ، فضلاً عن كونها مسؤولة عن تدريب معاونين البيطريين المحليين لتلقيح المواشي في المناطق الموبوءة . هذا ويمكن ان يقال ان المبالغ التي تتوفر عن السير الناجح لهذه الدائرة في منطقة واحدة ، أو المنافع الاقتصادية المتأتية عن شراء الخيول الأصولي في سنة واحدة ، لتزيد على ما يصرف على الدائرة برمتها .

اما المصالح الهندسية فيشتغل فيها حوالي اثنين واربعين ضابطاً في دائرة الري ، واثنين وعشرين في الدائرة الهندسية . وحوالي ٢٥٪ من موظفي دائرة الري من الهنود والعرب ، وليس هناك ما يمنع من زيادة هذه النسبة زيادة غير يشيرة بعد مدة طويلة بشرط ان يبرهن الشبان الذين يدربون الآن على كفاءة لا بأس بها بعد انتهاء مدة التدريب . غير أن المسؤولين جابهوا صعوبات غير قليلة في اقناع سكان البلاد المؤهلين للعمل بترك بغداد للعمل في خارجها ، حيث تكون فرص الخدمة العامة في فروع العمل الهندسية كالري محدودة نسبياً . ولا يكون الموظفون المحليون محبوبين لدى العشائر على الدوام ، كما سبق ان بينا من قبل . وينتشر موظفو الدوائر الهندسية في جميع أنحاء البلاد ، وهم مسؤولون عن جميع الأشغال المدنية العامة في البلاد ، وعن الطرق العسكرية او المدنية ، وارشاد البلديات في الشؤون الهندسية . ويضطلعون بالإضافة الى واجباتهم المدنية ، في كثير من الأماكن ، في تنفيذ الأشغال غير الكبيرة على حساب السلطات العسكرية . ويقدر مقدار الأشغال العسكرية بهذه الطريقة خلال السنة الحالية بخمسين بالمئة من اعمال الدائرة الهندسية ، وخمسة وعشرين بالمئة من أعمال دائرة الري .

وتشتمل مجموعة الأربعة والسبعين ضابطاً المدرجة تحت فقرة الصحة العامة

في الجدول على الأطباء^١ . والممرضات (٢٥) . ومأموري المخازن الطبية . والمحللين الكيميائيين . وموظفي الحجر الصحي . وهؤلاء مسؤولون عن تمشية جميع المستشفيات الملكية في البلاد التي يوجد منها مستشفى واحد في كل منطقة . وعن شؤون الصحة العامة في المدن والبلدان الكبيرة . والتلقيح . وطبابة الأسنان . وعن العناية بزوجات الموظفين المدنيين وأسرههم . وعن الواجبات العديدة المتصلة اتصالاً مباشراً بالسلطات العسكرية . مثل المحافظة على جهاز الأشعة المجهولة بصورة مشتركة . وتحليل الماء . وما أشبه . ولذلك فإن الاعتبار المالي وحدها هي التي تمنع الادارة المختصة من توظيف عدد أكبر بكثير من هذا . وتبلغ قلة الأطباء المتيسرين لدى الدائرة المختصة درجة بحيث كان من المستحيل اقناع الأطباء المحليين بالانخراط في سلك الادارة المدنية بأي شرط من الشروط التي تستطيع الادارة تقديمها لهم .

وتستخدم دائرة البرق والبريد ثلاثة وثلاثين ضابطاً من الضباط البريطانيين . وعشرة بالمئة من موظفي هذه الدائرة هنود . على ان خمسة وسبعين بالمئة من أشغال هذه الدائرة في الوقت الحاضر هي أشغال عسكرية يدفع الجيش كلفتها من ميزانيته . وهذه ذات طبيعة فنية في الغالب . وقد كانت جميع

(١) نذكر فيما يأتي البعض من اولئك الأطباء الذين ظلوا يشتغلون في العراق بعد عهد الاحتلال ، وما زال بعض الناس يتذكرونهم حتى الآن .

الكابتن دنلوب مدير المستشفى العام الجديد ببغداد الذي عُين في ١٦/٤/١٩ ، والعقيد غراهام مدير الخدمات الصحية والطبية المتعين في ٣٠/٤/١٨ ، والميجر نورمان مدير الأشعة في المستشفى الجديد ببغداد المتعين في ١/٨/١٩ ، والميجر بشوب الجراح المدني المتعين في البصرة بتاريخ ٦/٦/١٦ ، وفي بغداد بتاريخ ١/٤/١٧ ، والعقيد بيبي نائب معاون مدير الخدمات الطبية المعين في ١٣/٨/١٨ ، والكابتن براهام الضابط الطبيب المتعين في ٨/٥/١٩ ببغداد ، والكابتن ماك دوغل الجراح المدني في الموصل وقد عُين في ٢٤/٢/١٩ ، والدكتور ميلز المتعين في الموصل بصفة ضابط طبيب بتاريخ ٢٧/٣/١٩ ، والكابتن ساندerson معاون السكرتير النسخي المتعين بتاريخ ٢٧/٣/١٩ ، والكابتن سبنسر جراح العيون في المستشفى الجديد بتاريخ ١/٨/١٩ ، والميجر أوليثر الجراح المدني في البصرة بتاريخ ٢٢/٢/١٩ .

الوظائف العالية في هذه الدائرة يشغلها قبل الحرب بالكلية تقريباً أناس من غير العرب وغير الأتراك . وقد تحقق نجاح غير يسير في تدريب موظفين من أهالي البلاد للدرجات الصغيرة ، غير أنه من الصعب علينا أن نجد الموظفين اللائقين للدرجات العالية في ضمن فترة قصيرة من الزمن . فليس العمل فيها فنياً حسب وإنما هو يتطلب الكد الزائد والعمل المتواصل أيضاً .

ويشرف على السجون في ما بين النهرين ، وهي ثلاثة سجون كبيرة في البصرة وبغداد والموصل وحوالي اثني عشر سجوناً صغيرة في غيرها ، مفتش عام للسجون ومعاونته^١ يكون مسؤولاً أيضاً عن إدامة إصلاحات الأحداث ورعاية المعتوهين . والمفتش العام نفسه ، العقيد دبليو بي لين سي أي أي ، سي بي أي هو ضابط له خبرة عظيمة في سجون الهند مع نظرة انسانية واسعة للحياة ، وليس من شك مطلقاً في أن تعيينه في منصبه هذا ليس فقط كان له ما يبرره بل ان ادامة السجون من دون ان تتيسر لها مثل هذه الخبرة تفقد نصف فائدها المرجوة .

ويعمل في ميناء البصرة ثمانية وعشرون ضابطاً . وهذه في الحقيقة وحدة

(١) كان يعاون العقيد لين ، مفتش السجون العام ، الملازم واطسون مراقب سجن بغداد المتعين في ١٨/٧/٢٦ ، والمستر فينيمور مراقب سجن بغداد أيضاً المعين في ١٨/١٠/٢٠ . أما مدير سجن البصرة فكان المستر نيل المتعين في ٢٠/٢/١٣ ، وكان مدير سجن الموصل المستر كوين لان وقد عين في ٢٠/٣/١٣ .

ومن طريف ما يذكره أرفولد ويلسن في كتابه عندما يتطرق الى ذكر دوائر السجون قوله : لقد تسلمنا في العراق الى نهاية ١٩١٩ من الهند حوالي خمسة عشر ألف أسير حرب من أصل هندي ، كان من ضمنهم ما يقرب من ألف موظف عسكري ومدني في دوائر الحكومة التركية سابقاً . وكان يبلغ عدد المساجين سبع مئة سجين في مقابل ست مئة وثمانين في كانون الأول ١٩١٨ . وجميع هؤلاء حكمت عليهم المحاكم المدنية بأحكام اعتيادية عن جرائم العنف أو قطع الطرق والصوصية . وقد سمرت الادارة المدنية الى الخارج منذ أن أعلنت الهدنة حتى الآن اثني عشر شخصاً . وكان هؤلاء موظفين في الدولة العثمانية من أصل تركي .

إدارية مستقلة بميزانياتها ووارداتها الخاصة . ويترجع عدد الضباط الذين تريد رواتبهم على (٦٠٠) روبية في الشهر ، إذا أخذت بنظر الاعتبار حركة مرور البواخر في الميناء ، عند مقارنتها بأي ميناء هندي بعد مراعاة (١) قساوة الأحوال الجوية التي تجعل من الضروري الاحتفاظ بنسبة أكبر من الموظفين الاحتياط لتلافي العمل في حالات المرض والإجازات و (٢) المقدار الكبير من الأشغال العسكرية المؤقتة التي تنجز في الوقت الحاضر . ويدخل في مجموع الموظفين رؤساء المرفأ ، والادلاء ، والمهندسون ، وجميع الموظفين التنفيذيين .

ويتطلب ذكر المخازن المدنية ، ودوائر النقلات المدنية ، التي يشتغل فيها أربعة عشر ضابطاً وخمسة ضباط على التعاقب ، شيئاً من الشرح والتوضيح ، فإن دائرة المخازن المدنية مسؤولة عن استيراد جميع ما تطلبه الدوائر المدنية ، مع مناولتها والمحافظة عليها . وبالنظر إلى طبيعة النقص الموجود في مواصلات ما بين النهرين فإنه من الصعب جداً ضمان وصول أية أرسالية إلى خارج المركز سالمة من دون عطب ، ونظراً لصعوبة النقل البحري والنقل النهري في الوقت الحاضر فمن الضروري أن يحتفظ بمقادير من السلع المطلوبة أكثر مما يحتفظ به عادة . ولم تكن خطة اناطة قسم من هذا العمل بالشركات التجارية ناجحة نجاحاً كلياً . فبالنظر لعدم استقرار الأحوال السياسية في بلاد ما بين النهرين لا ترغب الشركات بوجه عام في الاحتفاظ بكميات كبيرة من السلع المطلوبة في مخازنها ، فوجد من الأرخص والأسرع للإدارة بأن تتخذ الترتيبات هي نفسها للحصول على ما تريد . على أن مرور الزمن قد يسمح بتخفيض عدد الموظفين وأشغالهم إلى الخمسين بالمئة في هذه الدائرة .

ويمكن أن يعالج وجود الضباط في دوائر الواردات (٨) ضباط ، والمالية (١٨) ضابطاً ، والعدلية (١٤) علاوة على عشرة موظفين من العرب ، والزراعة (١١) ، والمعارف (١١) معالجة واحدة . فلا شك أن عدد الضباط في هذه الدوائر الإدارية يجب أن يتوقف على الخطة العامة التي توضع لإدارة

البلاد بوجه عام . وليس من الصعب الدفاع عن وجود هذه الأعداد من الضباط في كل دائرة على حدة ، فيلاحظ في دائرة المالية أنهم مسؤولون عن تدقيق ومراقبة حسابات عدد من دوائر شبه عسكرية في طبيعتها ، وقد تكون في يومها هذا أوسع مما ستكون عليه بالضرورة بعد سنتين . يضاف الى ذلك ان عملاً جسيماً ذي طبيعة غير متكررة قد أُلقي على عاتق هذه الدائرة بصورة مؤقتة ، مثل تسوية الحسابات ما بين الجهات العسكرية والمدنية بالنسبة للدوائر التي تسلمتها السلطات المدنية من الجيش ، والدوائر ذات الصبغة شبه العسكرية ، واتخاذ الترتيبات اللازمة لفتح حسابات جديدة على أثر فصل ادارة ما بين النهرين عن الجهاز العسكري العام في البلاد ، وعن عهدة حكومة الهند وتدقيقها .

ويصح الشيء نفسه لدرجة كبيرة بالنسبة لدائرة الواردات ، التي ما تزال منهمكة بعملها الشاق ، وسوف تظل منشغلة لعدة سنوات قادمة في عمليات التسوية التفصيلية التي تتطلب الكثير من الصبر والمعرفة ولا يمكن ان يعجل فيها نظراً لطبيعتها الخاصة . ولذلك يعد تخفيض الضباط في هذه الدائرة من قبيل الاقتصاد السيء جداً .

كما يصح الشيء نفسه لدرجة كبيرة أيضاً بالنسبة لدائرة الزراعة . فان قيمة البحث العلمي في الأمراض النباتية ، وآفات القطن والقمح والكتان وما أشبه ، مع سائر الابحاث الفنية ، تعد بأجماع الجميع من واجبات أية حكومة متحضرة ، وقد ثبتت أهمية هذه الأبحاث أينما وجدت . على ان نتائج هذا العمل لا يمكن ان تكون مرئية في الحال ، لكن المرء لا يمكن ان يشك في ان هذه الدائرة هي من الدوائر التي تبرر ما يصرف على وجودها .

(١) كان يشتغل في دائرة الزراعة يومئذ (٢٥) موظفاً بريطانياً ، بين خبير وضابط منطقة اداري . يضاف اليهم اربعة هنود وعراقي واحد هو أحمد علي الصوفي الذي عين مدير ادارة لمزرعة القطن في ١٩/٤/١٩٠١ . فقد كان هناك مدير الزراعة العام الكرنل أيفانز الذي عُين في ١٩/٣/١٩٠١ ، والكابتن غاربت المعاون الشخصي للمدير العام (١٩/٣/١٩٠١) . وكان هناك مدير زراعة بغداد العقيد غراهام

أما عددهم في الدائرة العدلية ، التي يبلغ عدد العرب فيها النصف تقريباً ، فهو أقل ما يمكن إبقاؤه منهم لبسط المعدلة في بلاد تكون فيها المواصلات مثل ما هي عليه فيما بين النهرين ، لكن العدد هذا قد يكون عرضة للتخفيض بصورة تدريجية في المستقبل^١ .

(١٩/٣/١) ، والمشاور الزراعي الكابتن شيرارد (١٧/١١/١٩) ، ومدير قسم البحوث الكابتن توماس (١٩/٣/١) الذي كان يرعى محطة تجارب القطن ، ومشاور مشروع التنمية الزراعية (أخصائي بالبحشرات) الميجر ويمهرست (١٨/١/١٩) . وكان هناك كذلك الأخصائي بالنبات الكابتن كادلر (١٩/٣/١) ، والأخصائي الكيميائي الكابتن ويبستر (١٩/٣/١) ، مع خمسة عشر مدير منطقة ومعاون مدير منطقة كان من بينهم الكابتن داوسن مؤلف النشرة المعروفة عن التمور . يضاف إليهم الميجر جيزمان المشاور الزراعي الذي عُين معاوناً شخصياً للمندوب السامي في العراق (٢٠/٩/١) .

(١) يذكر أرنولد ويلسن واحداً وعشرين حاكماً بريطانياً ، وعلى رأسهم السر بونهام كارتر الذي عُين رئيساً للشباط العدليين في ١٧/٩/٢٩ وسكرتيراً عدلياً في ١٩/١/١٩ . وفيما يأتي ندرج أسماء الذين اشتغلوا رؤساء محاكم معه ، في بغداد وغيرها : المستر أبراهامز ، الميجر اليكساندر ، المستر بيل ، الميجر بروس ، الميجر دراور ، المستر فوربس ، الميجر غلبرت ، الميجر هولدن ، العقيد نوكس ، الكابتن ماكلاون ، الميجر بريجارد ، الملازم وودمن .

أما الحكام العراقيون فيذكر الأسماء التالية منهم : عبد الوهاب أفندي ، عبد المجيد الملا ياسين ، نعم نوري يعقوب (كاتب عدل) ، عبد الجبار جميل زاده ، داود سمره ، سيد صالح أحمد ، فائق أفندي ، ملا حسين أفندي ، روبين بطاط ، عبد الحميد مدحت ، سعيد أفندي ، سليمان فيضي ، خضر أفندي ، أحمد أفندي بن سعيد ، محمد خورشيد ، درويش دانش ، صديق مظهر ، محمد رؤوف ، سيد لطفي ، غالب توماس (كاتب عدل) ، عبد المجيد أحمد حميل ، محمد علي أفندي ، نشأت السنوي ، صالح الباجه جي ، عبد الله عبد السلام الأعظمي ، عبد الحميد الملا أحمد . وقد تعين هؤلاء في مختلف المحاكم العراقية بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٢٠ .

ويذكر أرنولد ويلسن حكام المحاكم الشرعية كذلك أو القضاة على الوجه الآتي : الشيخ شكر الله ، الحاج علي الألوسي ، أحمد حمدي ، سيد سعيد ، الملا حسين ، شيخ محمد بن محمود ، سيد خضر ، محمد فهمي أفندي ، عبد الملك الشواف ، عبد اللطيف الراوي ، محمد سعيد أفندي ، سيد شهاب أفندي ، أحمد الخلف ، محمد أفندي ، الحاج محمد السيد صالح ، عبد الحق أفندي ، محمد شريف ، أحمد فخري ، السيد أحمد أفندي ، الملاطه ، الشيخ قاسم الشعار ، أحمد أفندي ، اسماعيل أفندي ، الشيخ جعفر علوش ، محمد رشيد ، سيد خليل أفندي ، محيي الدين محمد يحيى ، =

وبقي علينا الآن ان ننظر في موظفي المناطق التنفيذيين ، وعددهم مئة وستة
مضباط . إذ يكون هؤلاء الضباط مع من يشتغل في دوائر الواردات « الحكومة »
في نظر الاكثريّة الساحقة من السكان . ولما كان هؤلاء ينتشرون بوجودهم في
خمس عشرة منطقة ، تبلغ مساحتها حوالي مئة وخمسين الف ميل مربع ،
ويعمل خمسة عشر منهم في ايران كما يتغيب حوالي عشرين منهم على الدوام
باجازات اعتيادية ومرضيّة ، فان عدد المداومين منهم دواماً فعلياً نادراً ما
كان يتجاوز السبعين . وقد يكون من الممكن بمرور الزمان تقليص هذا العدد ،
ولكن هذا لا يمكن ان يتم ما لم يحصل تغير جذري في الجهاز الحكومي بأكمله .
على ان الاعداد بمجموعها هذه هي بالتأكيد أقل بمقدار غير يسير من عدد
الموظفين الأتراك الكبار الذين كانوا يشتغلون في أعمال مماثلة قبل الحرب في
ما بين النهرين .

وأخيراً ، فمن الضروري ان نشير الى ان موظفي الادارة المدنية في وقت
اعلان الهدنة ، وموظفي الدوائر العسكرية التي ألحقت بها منذ ذلك الوقت ،
كانوا كلهم من دون استثناء تقريباً يشتغلون باستمرار في ما بين النهرين خلال
مدة تتراوح ما بين سنتين وخمس سنوات من دون ان يعودوا الى الوطن
باجازة . وقد كان من الضروري جداً ان يتمتع الجميع ، باستثناء عدد قليل
منهم ، بعطلة استراحة يقضونها في بلادهم لا تقل مدتها عن ثلاثة أشهر خلال
السنتين اللتين أعقبنا اعلان الهدنة .

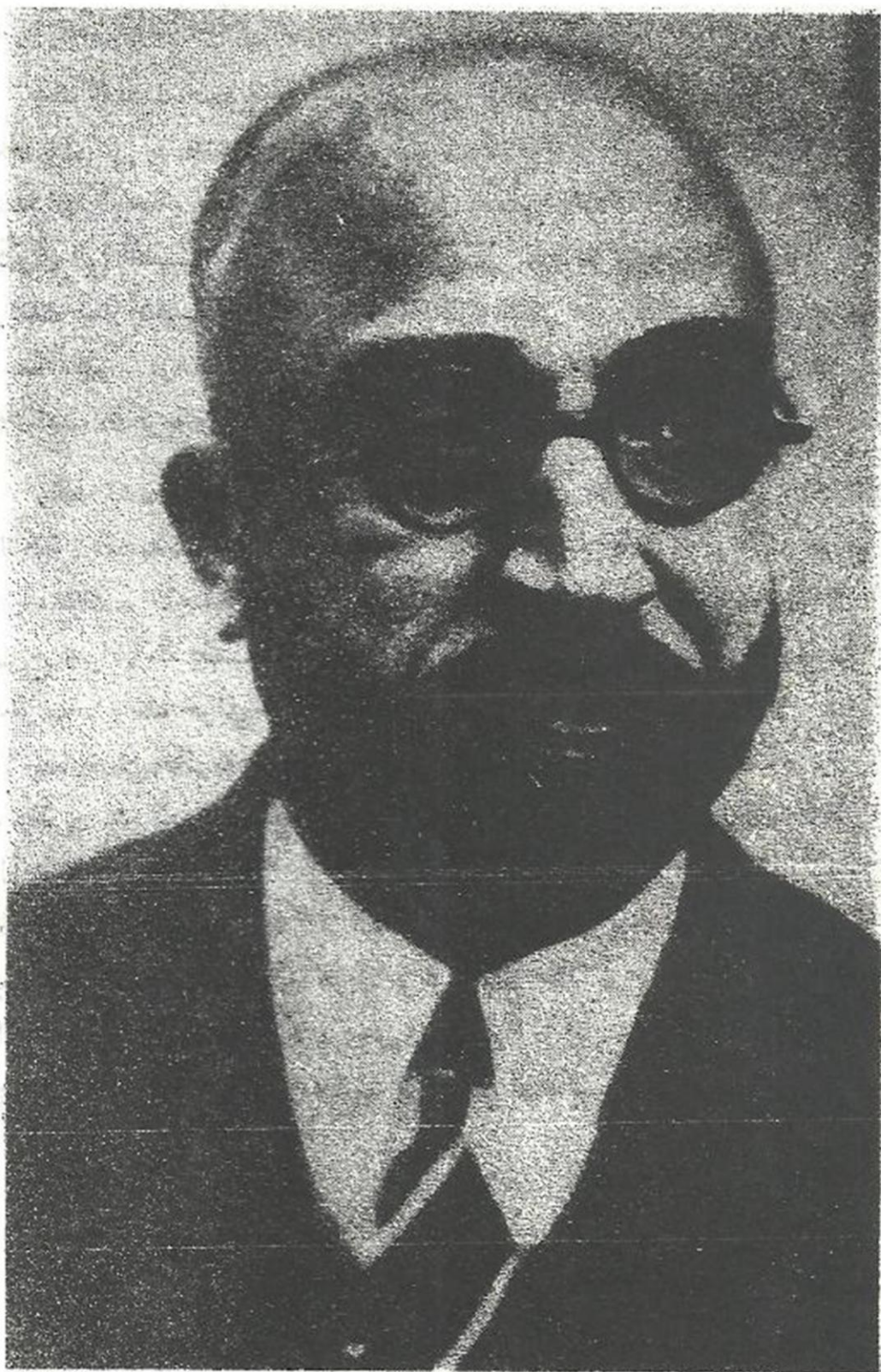
ولأجل ان يكون من الممكن تنفيذ هذا من دون ان يحصل تفكك خطير
في شكل الحكومة ، كان من الضروري ان يحتفظ مؤقتاً باحتياط أكبر مما
يتطلبه الوضع الاعتيادي لتلافي ما ينتج عن منح الاجازات الاعتيادية والمرضية .
وقد كان من غير الممكن عملياً ايجاد هذا الاحتياط فاصبحت جميع الدوائر

== السيد علاء الدين الألوسي ، سيد مصطفى السيد علي ، الشيخ مصطفى الشيخ محمد ، الشيخ محمد ،
الشيخ محمد فاضل ، الشيخ علي الشيخ محمد ، السيد مهدي الطهراني .

تقريباً تعاني نقصاً فعلياً في الموظفين خلال هذه المدة .

وقد تعقدت صعوبة الوضع بالتأخير الكبير الذي صادفه المجازون في الحصول على بطاقات السفر الى الوطن والخارج ، وبطول المدة التي كانت تستغرقها الرحلة . فقد كانت الرحلة الى انكلترا خلال الثمانية عشر شهراً الأولى التي أعقبت الهدنة تستغرق شهرين في الذهاب وشهرين في الاياب ، وبذلك صار يتغيب الضابط المجاز لمدة ثلاثة اشهر عن وظيفته تغيباً فعلياً يبلغ سبعة أشهر . وهذا وضع لا نرانا بحاجة للتأكيد على التأثير الذي يولده في ملاكات الحكومة وأعمالها .

ولقد تبدل منذ اعلان الهدنة أكثر من خمسين بالمئة من موظفي الادارة الملكية . فقد عاد حوالي ستين ضابطاً معارين من ملاكات حكومات أخرى الى وظائفهم الأصلية في دوائر تلك الحكومات بطلبات مستعجلة منها كما سرح حوالي مئة بطلب منهم فعادوا الى أعمالهم التي كانوا يشتغلون فيها قبل الحرب ، وعاد حوالي خمسين كانوا يعملون في مختلف الدوائر ، على سبيل الاستعارة من حكومة الهند في الغالب إليها ، فحل محلهم ضباط آخرون . وتنطوي هذه العملية ، التي لما تكمل بعد ، على إبقاء الضابط المنفك والضابط الذي يحل في محله مسجلاً في سجلات الادارة الحكومية خلال مدة الانتقال التي تمتد عدة أشهر . فلما كان الضابط المنفك يستحق إجازة لعدة أشهر يتمتع بها على نفقة الحكومة ، كما هو الامر في معظم الحالات ، وبالنظر لأن الضابط الذي سيحل في محله يُستخدم وهو في انكلترا ، فيرتب على ذلك الاحتفاظ بعدد مضاعف من الموظفين بالنسبة لكثير من الوظائف خلال مدة تمتد الى ستة أو ثمانية أشهر .



الحاج جعفر أبو التمن زعيم الحركة الوطنية في بغداد

الفصل العاشر

الحركة الوطنية

بداية الشعور الوطني

لقد قبل الشعب العراقي قبل الهدنة بالاحتلال البريطاني وفوض امره الى الله والى ما تأتي به الادارة البريطانية^(١). وكان فريق من السكان يشعر بأكثر من ذلك، حيث انه كان ينظر بقناعة الى مستقبل يستطيع فيه ممارسة التجارة والزراعة بأمان يعود بالربح في ظل سلطة مركزية قوية تحافظ على السلم والامن، وربما كان هذا الاتجاه الفكري اكثر تفشياً في الجهات التي ثبتت فيها الحكم البريطاني اقدمه مدة أطول. فقد كان سكان البصرة يصرحون علناً منذ ١٩١٧ برضاهم عن وضع يسمح لهم فيه بأن يمارسوا التجارة باطمئنان وأمان. وعلنوا للملأ صادقين بأن مدينتهم قطعت شوطاً من التقدم لا يمكن ان يصدق، كما اعترفوا وهم ممتنين بأن وسائل الراحة في الحياة قد ازدادت اكثر مما كانوا يتوقعون. على انهم كانوا يتذمرون من طلبات الحكومة للعمال ويقولون انها طلبات مرهقة لا

(١) لا أدري كيف عرفت المس بيل ان الشعب العراقي قبل بالاحتلال البريطاني، ولعلها استندت في قولها هذا الى أقوال المائلين للسلطة البريطانية يومذاك.

تتحملها المنطقة من دون ان تحدث ضرراً في المصالح الزراعية ، وقد استرحموا ان يجلب العمال من الهند . وليس هناك شك في أنهم كانوا يحملون في مخيلتهم نظاماً عمالياً مرفهاً ، وأنهم لا يقصدون من وراء ذلك انشاء مستعمرات لسكان الهند في العراق .

ولا ريب انه كان ثمة ظلمات تختص بقضايا العمال والدور وما أشبه ، وأنهم كلما كانوا يتحملون ما يصيبهم في هذا الشأن كان الضغط يزداد عليهم ، لكنهم كانوا يعترفون بوجه عام ان ما كانوا يتدمرون منه من هذا القبيل كان ناتجاً عن ظروف الحرب وان الموظفين المدنيين البريطانيين كانوا متلهفين لزوال هذه الاحوال بقدر تلطف السكان أنفسهم . وكانت هناك قناعة عامة في البلاد ، كانت تعرب عن نفسها أحياناً ، بأن البريطانيين يريدون بالعرب خيراً ، هذا بالإضافة الى ما كان موجوداً من تقدير الرخاء المادي الذي جاء في أثر جيوشنا — برغم قلة وجود الطعام وارتفاع اسعار الحرب — والامل بتحسين الاحوال بدنو أجل الصلح .

بمثل هذا كان يشعر الناس في البصرة والعمارة والحلة ، وفي المناطق الريفية بوجه عام . اما بغداد ، وكانت مركزاً فعالاً للفكر السياسي اكثر بكثير من أية جهة أخرى من جهات العراق ، فلم تقل كلمتها . واما المدن المقدسة ، فان الكاظمية كانت صامتة كبغداد ، وكانت جميع المشاكل التي نشأت في كربلا ذات صبغة محلية خالصة ، بينما كانت الاضطرابات التي وقعت في النجف في ١٩١٧ و ١٩١٨ تغذيها الدسائس التركية الالمانية وقد خمدت باندهار العدو وانسحابه وبتنحية العناصر المحلية المقلقة .

على ان اتجاهاً جديداً ظهر في تفكير سكان البلاد بعد ان نشرت الجرائد العراقية الرسمية يوم ١١ تشرين الاول ١٩١٩ بنود الرئيس ويلسن الاربعة عشر ، التي لم يعرف عنها شيء في العراق حتى في برقيات رويتر برغم انها كانت قد اعلنت في مجلس الشيوخ الاميركي في ٨ كانون الثاني . وبعد ان نشر

في ٨ تشرين الثاني التصريح الانكليزي - الفرنسي الذي يصرح بأن الحكومتين تنويان ان تؤسسا للاقوام التي ظلت خاضعة للجور التركي مدة طويلة من الزمن « حكومات وادارات وطنية حرة تنتخب حسب رغائب الامة وتستمد سلطتها منها » ثم يستطرد البيان فيقول : « ... ولتأييد هذه المقاصد اتفقت الحكومتان على ان تساعدا الاهلين لتأليف هذه الحكومات ... وان تعترف بها حين تأليفها ولا تتدخلان في شؤونها ولا تسنان لها الانظمة ولا القوانين ، ولا غاية لهما سوى مساعدتها والمحافظة عليها لتتأكد انها تسلك بأعمالها مسلكاً حسناً فتضمن العدالة والمساواة بين جميع السكان بغض النظر عن جنسيتهم ونحلهم ، وعند الحاجة تساعدانها بالمشاريع الاقتصادية والعمرانية التي من شأنها ترقية البلاد والسير بها الى مستوى الامم الراقية ، ولا تسهيان عن نشر لواء العلم وترقية التربية بصورة واسعة ^١ » .

على ان هذا التصريح عن السياسة المرسومة بموجب المبادئ التي أعلنت الحرب من اجلها لم يعمل شيئاً أكثر من ان يكرر ذكر النوايا التي سبق اعلانها من قبلنا عند احتلال بغداد ، لكنه كان يختلف عن التصريح السابق بناحية مهمة واحدة وهي انه بينما كان بيان بغداد قد نشر في وقت كانت فيه مصائر الحرب مجهولة وانه على هذا الاساس كان يعتبر من مقتضيات ربح الحرب ، فان التصريح الانكليزي الافرنسي نشر بعد ان تم انتصار الحلفاء فقبول لهذا السبب بالتصديق . ولو كان أهالي العراق بوجه عام راضين بقبول ما تقررته الحرب قبل إذاعة التصريح لكان قد أدى الآن الى احتمالات أخرى لم تكن تفهم طبيعتها بوضوح ، ولم يكن مأمولاً ان تكون مفهومة لدى الاهالي الذين وجه اليهم التصريح نفسه . فقد كان بعضهم يعتبره دالاً على عدم تأكيد مذييعه من المستقبل وأخذ يتسقط أي حادثة طفيفة أو عمل تعمله السلطات ليستنتج منه

(١) أخذ النص العربي الاصيل من كتاب « القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق » لمؤلفه ج . لودر ومعربه نزيه المؤيد المعظم ١٩٢٥ .

وجود نوايا مستترة تستهدف إرجاع البلاد الى الاتراك ، وهو عمل يقابل بشعور مختلط لكنه يدل على الاقل على الحاجة الى التحوط . وذهب البعض الآخر الى الطرف الآخر من الميزان واخذ يفسر الرغبة التي أعرب عنها الحلفاء بتصريحهم في تأسيس حكومة وطنية في العراق بانه اعتراف بمقدرة العرب على الاضطلاع بمسؤولية الادارة الوطنية من دون مساعدة او سيطرة . فما مر اسبوع على التصريح الانكليزي الافرنسي في بغداد ، حيث تكون الاطماع السياسية على درجة كبيرة من التطور بالنسبة لجهات العراق الأخرى ، حتى كانت فكرة تنصيب أمير عربي في العراق موضع بحث في كل مكان ، وقد صادفت قبولا عاماً في الأوساط المسلمة . لكنه لم يكن هناك إجماع في الرأي حول الشخص الذي يتولى هذا المنصب^١ . وكان الاختيار في بادئ الامر محصوراً بين أحد

(١) وجدنا من المناسب ان نورد هنا ، تعليقاً على ما تقوله المس بيل ، ما يذكره كل من المستر لونكريك في كتابه الثاني (العراق ١٩٠٠ الى ١٩٥٠) والمستر فيليب آيرلاند في كتابه (العراق - دراسة في تطوره السياسي) :

فيقول المستر لونكريك ان منصب الأمير او الملك في العراق لم يستطع أي مرشح محلي أن يحصل على إسناده كاف له . فقد كان النقيب متقدماً في السن ، ولم يكن بوسع أسرته ان تقدم خلفاً ناجحاً له . وكان السيد طالب بسجله الماضي ، وشخصيته المجردة عن المبادئ الخلقية بدافع الأنانية ، فيخشى منه بدلا من ان يكون مقبولا عند الناس . أما الأمير التركي ، وقد يكون الأمير برهان الدين ، الذي كانت ترشحه بعض الأوساط في بغداد او كركوك ، فقد كان من الصعب أن ترحب به الحكومة البريطانية . ولم يكن من الممكن ان يصبح أغا خان ، المرشح جديداً ، مرشحاً خطيراً للمنصب ، وأقل منه في هذا الشأن والي پشت كوه . كما لم يكن أحد يفكر في شيخ المخمرة (الشيخ خزعل) الذي رشح نفسه بنفسه ، ولا بالأمير النجدي عبد العزيز بن سعود . لكن الأمير فيصل أصبح يمكن ترشيحه الآن ..

اما المستر آيرلاند (الأمريكي) فيقول : وبقيت مشكلة الاتفاق على مرشح واحد على ما كانت عليه برغم ان الرغبة في أمير عربي كانت تزداد شيئاً فشيئاً . وكان فريق من موظفي العهد التركي السابق من أهالي بغداد متحمساً لفكرة ترشيح أمير تركي كالأمير برهان الدين مثلاً .. وكان يعارضهم في ذلك فريق آخر أكثر عدداً ، بين مدنيين وعسكريين ، يتجمع في الغالب في بغداد و الموصل وكركوك ويروج الفكرة التي كانت تغذيها الدعاية المنبعثة من وراء الحدود التركية ، وهي ان عودة الأتراك الى العراق لم تكن الا قضية وقت . وكان لنقيب بغداد القمح الممل بين المرشحين

انجال ملك الحجاز ، وأحد أعضاء الأسرة المالكة في مصر ، او أحد وجهاء الموصل . وقد ذكر اسم نقيب بغداد ايضاً ، كما أعرب البعض عن تأسيس جمهورية . لكن فكرة الجمهورية لم تكن تروق لمعظم المسلمين ، ولم يبد النقيب شيئاً من الأحجام عن قبول منصب سام في الدولة .

وقد اتخذ البحث في هذا الموضوع صبغة جدلية في البلد ، وكان من اسباب هذا مجيء عناصر جديدة الى بغداد بعد الهدنة . فقد كانت شروط الهدنة التي عقدت مع القائد التركي تنص على ان جميع الاشخاص الذين ولدوا في البلاد

= المحليين العرش ، ولو أن قبوله لرأسة مجلس الوزراء وتعلقه بين بالبريطانيين قد جلب له نعمة الوطنيين المتطرفين . اما في المحافل البريطانية فإن تقدمه في السن واعتلال صحته ، وعدم وجود سلالة لائقة تخلفه كانت كلها عوامل تحسب ضده ، هذا برغم أن أقاربه يذهبون الى ان العرش كان قد عرض عليه بشروط وقيود كانت ستجعل منه شيئاً لا أكثر من « راجا » عراقي كما عبر عنها بكلماته هو . ولم يسع هو بنفسه الى العرش ، على أنه كان يشعر بأنه لو قدمه الشعب اليه بحريته سيكون مضطراً لأن يتقبل هذا الشرف .. وكان أبرز المرشحين المحليين السيد طالب النقيب وزير الداخلية ، لمقدرته ونشاطه ونفوذه .. لكن خصومه كانوا يدعون بان نشاطه كان موجهاً في الدرجة الأولى نحو ترويع مطامعه الشخصية .. ويضيف الى ذلك آيرلاند قوله في الحاشية عن السيد طالب ان كثيراً من أحجام ساسون حسقيل وغيره عن موازنة الحكومة الموقته كان تفسيره الخوف من دعم الحكومة البريطانية له . وقيل عن جعفر باشا انه صرح في مجلس خاص انه لا يتردد في قبول الاشتراك في الوزارة من أجل العمل على إحباط مساعي طالب باشا ودحره في مطامعه التي كانت في نظره خطراً يهدد البلاد .. ويقول آيرلاند بعد ذلك : وذكرت أسماء مرشحين آخرين كذلك . فقد أعلن شيخ المحمرة ، وكان قد اقترح اسمه في ١٩١٨ - ١٩١٩ ، عن ترشيح نفسه من جديد في ٥ نيسان بكتاب وجهه الى المندوب السامي . واقترح كذلك ابن سعود ، وكان يعتقد في المحافل الرسمية ان اقتراح ترشيحه كان يرمي في الغالب الى إحباط نجاح أحد أنجال شريف مكة المحتمل وكان يذكر منهم اسم عبد الله وفيصل بكل حرية . ثم اقترح ايضاً أغا خان وحقي والي بشت كوه ، ونوقش كذلك في بعض المحافل احتمال تأسيس جمهورية ..

هذا ونقول زيادة في الايضاح أن فكرة تأسيس جمهورية في العراق قد نشأت فعلاً في تلك الأيام ، وكانت تروج لها على ما يقال جريدة دجلة التي كان صاحبها يومذاك داود السعدي المحامي . كما كان يروج الفكرة كذلك المستر فيليبي ، وكان مستشاراً لوزارة الداخلية في تلك الأيام ، ومن يكرهون أسرة الشريف حسين ، ولهذا شجع السيد طالب على إرباك الوضع وانضم اليه ، ثم قاوم حركة ترشيح الأمير فيصل فاضطر المندوب السامي السريبرسي كوكس إلى إبعاده عن العراق .

العربية وكانوا في خدمة الدولة العثمانية، سواء أ كانوا مدنيين أم عسكريين، يجب ان يسمح لهم بالعودة الى أوطانهم . وكان عدد "من هؤلاء رجالاً" رافقوا الاتراك عند تقهقرهم امام جيوش الجنرال مود المظفرة بمحض اختيارهم ، وكان من المفروض ان لا يحمل هؤلاء شعوراً ميالاً الى استمرار السيطرة البريطانية مهما كان مقدار التساهل الذي تبديه في الحكم . يضاف الى ذلك ان جهاز الادارة التركي كان مبنياً على تعدد الوظائف الصغيرة التي كانت تستوعب جماعة كبيرة من الموظفين الصغار نسبياً ، الذين لا يليقون لها مطلقاً . وكان عدد من هؤلاء قد فرّ مع الجيش التركي بعد احتلال بغداد ، فأعطوا وظائف من دون عمل في ولاية الموصل ريثما يتم استرداد العاصمة . ولذلك وجدنا الدوائر العامة مشحونة بأشخاص يتقاضون رواتب حكومية من غير ان تكون لهم وظائف معروفة . وعندما ظلوا عاطلين ، واكثرهم غير لائق للوظيفة ، عادوا الى بغداد فكونوا نواة للتذمر والعداء .

وقد استفزت الخطب الحماسية الشديدة التي كانت تلقى في المقاهي الاقلية اليهودية ، التي تؤلف اكثر من ثلث سكان بغداد وهي اكثر الطبقات ثروة وغنى ، فقدمت عريضة عامة شاملة يطلب فيها ان يسمح لابنائها بأن يصبحوا رعايا بريطانيين اذا ما تشكلت حكومة عربية في العراق . اما المسيحيون ، وهم جماعة صغيرة تؤلف ٢٥/١ من جميع السكان ، فقد كانوا على درجة مماثلة من القلق ، وقد صرحوا بأن موقف المسلمين تجاههم قد أصبح موقفاً شرساً .

الاستفتاء العام

وقد وصلت في الوقت نفسه تعليمات من حكومة صاحب الجلالة الى وكيل الحاكم الملكي العام ، الكولونيل ويلسن ، يطلب فيها اليه ان يقوم بالتأكد من معرفة آراء الاهلين حول النقاط الآتية :

(١) هل يفضلون تشكيل دولة عربية واحدة تقوم بارشادها بريطانية ، وتمتد من حدود ولاية الموصل الشمالية الى الخليج العربي ؟

(٢) وفي هذه الحالة ، هل يرون ان الدولة الجديدة يجب ان يكون على رأسها أمير عربي؟

(٣) واذا كان الامر كذلك ، من هو الذي يرشحونه ؟

وبالنسبة للتجربة والخبرة يمكننا ان نشك فيما اذا كان مثل هذا الاستجواب الذي يجري باشراف الحكومة او اية جهة اخرى سوف يمكن بواسطته استخراج اجوبة قد تكون مفيدة لتدل المستجوب على شيء . لأن سواد الناس الذين وجهت اليهم الأسئلة لم يكن لهم رأي خاص ، وهم في وضع لا يمكن ان يكونوا فيه مثل هذا الرأي . وبذا فقد كان غير عملي بصورة واضحة ان نقوم باستجواب عامة الناس من افراد القبائل ، والرعاة ، وسكان الاهوار ، وزُرَّاع الشلب والشعير والنخيل في مناطق الفرات ودجلة الذين لا تتعدى خبرتهم عن شؤون الدولة معرفة ما قد يعمله جيرانهم من اعمال بسيطة . والمأمول فيهم في اية حالة كانت ان يعيدوا قول ما يقوله لهم رؤسائهم ، وبذا يكون من الأنفع ان تحال الاسئلة على رؤسائهم فقط . وعلى هذا الاساس كان الشيوخ والرجال المهمون في المناطق الريفية ومراكز الاقضية والولايات هم الذين سُئلوا عن آرائهم في هذا الشأن .

فكان هناك اجماع عام على نقطة واحدة . إذ كان الجميع يرون ان ولاية الموصل يجب ان تنضم الى ولايتي البصرة وبغداد . اما فيما عدا ذلك ، فان الجواب الواضح الوحيد ، الذي استخرج من سبعة عشر استجواباً ، كان قد استحصل من منطقة الحلة التي صرح فيها السكان وكان يرشدهم على الاغلب السيد محمد علي القزويني (وقد نجا بأعجوبة من اعدام الاتراك له في تشرين الثاني ١٩١٦) تصريحاً قلبياً بأنهم يحبذون استمرار الادارة البريطانية ويرفضون الاذعان للدعاية الوطنية وغيرها . وفي مناطق ست أخرى طُلب بقاء الحكومة البريطانية من فوق أمير عربي ، وفي اربع أخرى كانت الرغبة ان يرشح السر بيرسي كوكس مندوباً سامياً . واستحصل جواب مماثل من مناطق خمس غيرها مع اختلاف واحد وهو ان تنصيب أمير هو شيء مثالي اذا كان من الممكن

الاجماع على شخص ما . وقد ورد اعتراضان على انتخاب امير من أسرة الشريف . وكان هناك اختلاف اوضح في الرأي في منطقة بعقوبة . حيث ان سكان بلدة بعقوبة ، وقد كانت تتأثر ببغداد ، طلبوا اميراً من أسرة الشريف : وربما كان ذلك ينطوي على عدم الحاجة الى أية سيطرة أجنبية : بينما طلبت القبائل بقاء الادارة البريطانية . اما في النجف ومنطقة الشامية التي تتبع لها النجف فان الرأي العام كانت له عدة أوجه : لكنه كان من الممكن ان يستنتج ان الناس هناك كانت تفضل تنصيب أمير مسلم يستظل بالحماية البريطانية ، وقد ذكرت أسرة الشريف بهذه المناسبة . وقدم حرم^١ المجتهدون في كربلا والكاظمية على المسلمين ان يصوتوا لغير تشكيل حكومة اسلامية : فبلغ الاختلاف حداً أوقف سير الاستجواب . وقدمت بعد ذلك عدة عرائض يفضل فيها الموقعون عليها بقاء الادارة البريطانية^٢ ، وكان بين الموقعين عليها

(١) كان من جملة الخطا التي وضعتها الادارة المدنية البريطانية في العراق تمشية الاستفتاء العام ، الذي طلبت اجراءه الوزارة البريطانية ، ان تستحصل نتائج تتفق وآراء رجال الادارة البريطانية المنتمين « للمدرسة الهندية » الاستعمارية في عدم إعطاء المجال لتأسيس حكومة وطنية في البلاد . ولهذا أوعز الكولونيل ويلسن^١ وكييل الحاكم الملكي العام ، الى الحكام السياسيين ومعاونيهم في المناطق بتنفيذ ذلك . فأخذ هؤلاء ينظمون المظاهرات المتعاقبة بتعريض النقابات المائلة للسلطة من جهة وباكراة غيرهم من جهة أخرى . فتد كاذبة نتيجة كثير من المضايقات المصطنعة هذه ان طلبت جهات كثيرة في البلاد بقاء الحكم البريطاني في العراق ، وتنصيب كوكس في رأس الحكومة وما أشبه . الا ان الجهات الوطنية ، وعلى رأسها العلماء الأعلام ، تنهت للأمر وأخذت تسعى للحيلولة دون نجاح الفكرة . فاستغفى العلماء بذلك ، وكانت أهم افتتاحي التي صدرت فتوى حجة الاسلام المرحوم مرزا محمد تقى ، وهذا نصها : « ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب وينتار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين » ٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧ .

الأختر محمد تقى
الحائري الشيرازي

ومن جملة حوادث الاكراه التي وقعت حادثة كربلا . فقد أخذ الكربلايون ينظمون مضايقات صحيحة تتفق مع مصلحة البلاد ، فأمرت السلطات البريطانية بالقضاء القبض على ستة من الوجاهة وأبعدتهم علانية على ابن العلامة الميرزا الشيرازي . وهم الشيخ عمر الحاج علوان ، وعبد الكريم انواد ، والسيد محمد علي الشهابي ، ومحمد علي ابو الحب ، والسيد محمد مهدي المولوي ، وظيفح الحسن . فاحتج المرزا محمد تقى على ذلك احتجاجاً خطياً شديداً متهجة .

(٢) مما لا شك فيه ان هذه العرائض وما مائلها كانت تقدم بتأثير الانكليز انفسهم ، وان الموقعين عليها كانوا من اصحاب الأغراض والمصالح الذين ضعفت نفوسهم ورك ضميرهم الوطني .



العلامة الشيخ شكر الله القاضي الجعفري

شيوخ ورجال ذوو مكانة في البلد. وأجري آخر استجواب في بغداد. وهنا طلب الى كل من قاضي السنة وقاضي الشيعة ان ينتخب خمسة وعشرين شخصاً من وجهاء طائفته، كما طلب الى الحاخام الاكبر ان يرشح عشرين من وجهاء اليهود والى رؤساء الطوائف المسيحية ان يرشحوا عشرة من وجهاء المسيحيين. غير ان القاضيين لم ينفذا الاوامر بولاء^١ اما قصداً او تحت تأثير

الضغط الديني والسياسي. وبعد جهد ومشقة تمياً اجتماع حاشد لم يشترك فيه رؤساء الاسر الاسلامية الكبيرة نظراً لميوله التقدمية^٢. وقد انسحبت منه العناصر المسيحية واليهودية للأسباب نفسها، بينما وقع المسلمون المجتمعون على عريضة يفضلون فيها تأسيس دولة عربية يرأسها ملك مسلم يجب ان يكون من انجال الشريف. ولم يذكر شيء عن الحماية الاجنبية، لكنه كان معروفاً ان المتطرفين كانوا يرغبون بصرف النظر عنها. اما اليهود والمسيحيون فقد قدموا عرائض أخرى يطالبون فيها ببقاء الادارة البريطانية، وفي الايام التالية وصل عدد من العرائض

(١) يظهر من كلام المس بيل هذا انها كانت تعتبر ولاء القاضيين لتوظيفها محصوراً في موالة الانكليز فقط بصرف النظر عن ولائها لعقيدتها الدينية والوطنية والمصلحة البلاد. ونذكر بهذه المناسبة ان قاضي السنة كان المرحوم الحاج علي الألوسي، كما كان قاضي الجعفرية العلامة المرحوم الشيخ شكر الله.

(٢) المقصود بهذه الأسر كما لا يخفى، هي الأسر التي كانت معروفة بملائة الانكليز.

المماثلة فيها تواقع رؤساء الأسر المسلمة الكبيرة والتجار ، وكلهم ممن رفض الاشتراك في الاجتماع المذكور . ومما يجدر ذكره هنا ان النقيب كان قد منع ابناء أسرته من حضور الاجتماع .

والحقيقة ان المتطرفين قد تجاوزوا الهدف في رميهم . فان الذين كانوا يرحبون في بادئ الامر بفكرة تنصيب امير عربي قد تخوفوا من الأحاديث المتطرفة والحماسة التي أثارت ، فرفضوا وجهاً من أوجه الخيار كان مجرد البحث فيه يطلق العنان لشعور خطر بالنسبة للاستقرار السياسي للبلاد . وبطلب من بعض المواطنين البارزين في البلد نفى الى استانبول عن طريق الهند ومصر سبعة^١ من المشايخين الذين لعبوا دوراً كبيراً في الدعاية ضد الانكليز ، وكانوا كلهم من الضباط السابقين في الجيش التركي . فأخلد الباقون الى السكينة .

استخدام الوطنيين

وفي خلال السنة التالية حصل بعض التقدم في تأسيس المؤسسات والدوائر الوطنية . فقد كانت عادة الادارة منذ البداية ان تستخدم العرب على قدر الامكان . حيث كان يعين في ادارة الأعمال التي يرأسها الانكليز موظفون ثانويون من ابناء البلاد . وكان هذا المبدأ يطبق على السواء في الدوائر السياسية والمالية ، وفي دائرة الاوقاف التي كان يديرها كلها موظفون عرب يرأسهم مدير بريطاني ، وفي دائرة المعارف التي كانت عربية كلها عدا المدير البريطاني ومعاونيه . وقد أخذ الحكام العرب مراكمهم في محاكم الشرع ومحاكم الصلح منذ البداية ، وكلما كان يزداد عدد المحاكم كان العرب يعينون في اغلب الوظائف المحدثه . وكلما كان يزداد استقرار الأحوال كان عدد اكثر من أهل البلاد يرفعون الى وظائف ذات مسؤولية اكبر . وكان معاونو الحكام السياسيين

(١) لقد عرفنا منهم ثلاثة ، وهم السيد عارف فقطان والسيد محمود السنوي والسيد عبدالرزاق

حلمي .

العرب يعينون في معية حكام المناطق السياسيين ، وكان يحل محل معاون الحاكم السياسي البريطاني في كثير من الحالات وكيل معاون حاكم سياسي عربي يدير وحدته الادارية وهو تابع مباشرة لمركز المنطقة . على ان هذه الابتكارات لم تكن تقترن بالنجاح دائماً . فقد وقعت حوادث مؤسفة كان يتسع فيها نطاق التذمر من تصرفات معاون الحاكم السياسي ووكيله في منطقة ما بحيث يستدعي الاهتمام . وعندئذ كانت القضية تحال الى العدالة فتؤدي البيانات التي كانت تعرض على المحاكم الى تنزيل الموظف المختص من منصبه المهم بالنسبة اليه . وحادثة من هذا القبيل كان يعقبها عودة الوطنيين للاشارة على الحكام السياسيين شخصياً بوجوب تطهير ادارتنا من الموظفين العرب الذين كانوا غير لائقين لتسيير الأعمال بنزاهة ، فضلاً عما كان يصيبهم من الفساد المتأني عن مخابرة الاتراك . ولنضرب لذلك مثلاً بقضية وقعت مؤخراً . فقد تسلمنا في مارت ١٩٢٠ عريضة من شيوخ بني سعيد في منطقة المنتفك يذكر فيها الآتي : « لما كنا الآن قد أصبحنا تحت حماية بريطانية العظمى نسترحم ان يتولى شؤوننا معاون الحاكم السياسي في الشطرة مباشرة . إذ يكفي ما كابدناه على يد المأمورين العرب ، ولذلك فاننا نأمل ان بريطانية العظمى سوف لا تخيب أملنا في عدالتها وسوف تحيل شؤوننا الى معاون الحاكم السياسي رأساً »^١ .

وهناك مشكلة أخرى تنطوي في كون الموارد التي كنا نستمد منها ما نحتاجه من الموظفين الوطنيين كانت توجد في الاغلب في بغداد والبصرة ، وفي بغداد على الاخص ، وحتى مراكز المناطق كالحلة والعمارة لم تكن غنية بالطبقة المثقفة ثقافة نسبية بحيث يمكنها ان تمدنا بالموظفين الحكوميين ، بينما لم يكن يوجد بين عشائر المناطق الريفية من يقرأ ويكتب الا اذا وجد بالصدفة سيد من السادة او كاتب من كتاب الشيوخ ، اما الشيخ نفسه فهو أمة عادة . ومع هذا فقد كان

(١) لا شك ان الذي كان ينظم هذه الطلبات الموظفون الانكليز أنفسهم أو العراقيون من أذنابهم .

سكان البلدان الموجودة في المناطق يحسدون البغدادي ويستأوون من وضع السلطة بأجمعها في يديه ، كما كانت القبائل تكره « الافندي » اكثر من هذا ولا تثق به ، وتكاد كلمة « الافندي » عندهم تؤدي المعنى نفسه التي تؤديها كلمة «بغدادي» . وعلى هذا فان الشقة بين بغداد والمناطق في الخارج هي واسعة . لأن ابن المدينة الذي ينتمي الى طبقة من الموظفين يستقل من إشغال الوظائف خارج المدينة ، وان تسعة من عشرة من ملاكي بغداد لم يقع نظرهم على مقاطعاتهم في الخارج — لانهم يتركونها لسوء إدارة الوكيل . لكن طبقة ملاكي الارض ليسوا هم وحدهم الذين لا يعبأون بمصالح الفلاح ، وانما الطبقة المثقفة من أعلاها الى أسفلها ليس لها اي اطلاع على أحوال الريف ولم تدرك حتى الآن ان هذه الاحوال يجب ان تُدرس وتُعرف . وان اولئك الذين يعلو صوتهم في المقاهي وهم يتحدثون عن حريات العرب انما يضعون في فكرهم حريات من يرتاد المقاهي منهم فقط . وفيما عدا الأسر المنحدرة من أصل عشائري ، ويوجد منها في المدينة عدد لا يستهان به ، لا يعرف البغداديون الا القليل عن التشكيلات العشائرية ، ومنزلة الشيخ ونفوذه في الخير والشر ، او ميزات وعادات العشائر المختلفة ، كما ان البغدادي ينظر الى جميع سكان البلاد من العشائر الذين تعتمد عليهم اقتصاديات العراق في النتيجة بمزيج من الخوف الازدراء . وعلى هذا ليس من الغريب ان نجد أن ابن القبيلة بدوره لا يكن لابن المدينة شعوراً ودياً . ولا شك ان هذا الاختلاف الشديد بين الطبقات الريفية والمدنية من السكان يعقد مشكلة الحكومة في اكثر من ناحية واحدة ، ولا سيما في ناحية انتقاء الموظفين من ابناء البلاد .

ومع هذا كله فان نظام استخدام الوطنيين في مختلف الدرجات والوظائف وإعدادهم للاستخدام في المستقبل لم نجد عنه . ومما لا شك فيه ان عدم كفاءة هؤلاء وسائر النواقص الموجودة يلام عليها الجمهور لدرجة ما ، لكن الجمهور سيستفيد بمرور الزمن اذا ما تحمل طبقة الموظفين الوطنيين وانتظر تعلمهم ، والحقيقة انه ليس هناك وجه آخر من أوجه الخيار ليختاره .

البلديات

وقد وجدت فرص الخدمة العامة في البلديات ايضاً . فقد اسست في ايام الترك دوائر البلدية في كل بلدة وقرية من اي حجم كان . وكان الغرض الاسمي من وجود هذه البلديات الاشراف على الشؤون الصحية والتنظيف وعلى الحراسة والانارة . اما عملياً فقد كان الغرض منها دفع الرواتب للرئيس وموظفي دائرته وللحصول على وارد عام يصرف على ضيافة الموظفين عند تجوالهم . ويمكن الحكم على الخدمات العامة الحقيقية التي كانت تقوم بها البلديات الصغيرة من تدقيق ميزانية البلديات العثمانية . فقد كانت الواردات السنوية لبلدية غماس مثلاً ، وهي بلدة صغيرة على الفرات ، تبلغ (١٨١٠) روبية ، اما المصاريف فقد كانت تبلغ (١٥١٠) روبية يصرف منها (١٣٠٢) روبية لرواتب الموظفين ومصرف الدائرة ، ويصرف مبلغ (٢٠٨) روبية فقط للكنس والانارة والدفينة وللمحافظة على الطرق .

وكانت واردات البلدية تستند في كثير من الحالات على ما يجبي من المعابر ، وكان كثير منها بعيداً عن منطقة البلدية ، ورسوم الابنية والدلالية على كل معاملة تجري تقريباً في ضمن حدود البلدية ، ومن نصيفة رسوم الذبحة . وفي البلديات الكبيرة كانت تجبي الرسوم على البيوت والخوانيت وبعض المصالح الاخرى ايضاً . وكانت الواردات تستحصل ايضاً من رسوم الاجازات وبدلات ايجار اراضي البلدية واملاكها ومن الغرامات . ولم تحاول الادارة التركية توحيد الرسوم ، فكان من موضع اهتمامنا الاول ان نبسط رسوم البلديات وننسقها . وفي المراكز الصغيرة اعيدت الادارة المحلية الى أيدي سكان البلدة ووضعت على اساس محسنة . وفي بعض الحالات ، التي كانت فيها ناحية الصرف لا تتعدى دفع الرواتب للرئيس وكاتبه ولا يمكنها ان ترتفع فوق هذا المستوى ، ألغيت البلديات . وتوجد الآن ثمانون بلدية تقوم معظمها بخدمات عامة قيمة أقلها شؤون الاضاءة والصحة . وقد تحسنت شؤون التنظيفات في كل مكان تحسناً يذكر ، وازداد الاهتمام بالشؤون البلدية . وقد جرت بعض التحسينات

المهمة باقتراح من الحاكم السياسي في كثير من الحالات . فوسعت الشوارع ، وردمت الحفر التي حفرت منذ مدة طويلة لاختد التراب لصناعة « الطابوق » وتركت لتمتلئ بالماء فتصبح مباءة يفرخ فيها البعوض . ثم شرع بإنشاء حدائق للبلديات ، وبنيت الجسور وسقفت الاسواق وبلطت أرضيتها ، كما بنيت السلالم في « شرائع » الأنهر - وهذه وإن كانت شيئاً طفيفاً إلا أنها مهمة بالنظر لأن جميع الماء الذي يستهلك في البيت ينقله النساء من النهر - ثم سويت الممرات التي يكثر فيها الطين والوحل في الايام الممطرة .

وقد اضطررنا بادئ ذي بدء الى إقراض معظم البلديات من الخزينة العامة لكنها كلها تقريباً أصبحت الآن تؤمن حاجاتها بنفسها . كما بدأت معظمها تساعد في كلفة الخدمات الصحية وفي شؤون المعارف والشرطة . وشرعت بلدان كثيرة بمشاريع بلدية مفيدة ، مثل مشاريع الكهرباء والماء وآلات الطحن . وقد أخذت بعض البلديات ماءها وضياءها الكهربائي من السلطات العسكرية ، وفي حالة واحدة على الاقل تأسست شركة للنور الكهربائي فساهمت البلدية بربع حصصها . على انه وجد من الضروري في بعض الحالات كبح الطموح الذي يأتي قبل أوانه ، ولكن عندما كان يبدو ان المشروع لا غبار عليه وان مالية البلدية لا يسعها تزويده بكلفة رأس المال فقد كان يعطى للبلدية قرض من الخزينة العامة يسدد في مدة ثلاث او اربع سنوات .

وكان مقصدنا ان لا تبقى البلديات وتشكيلاتها هذه بحالتها الجينية ، برغم أن تأخر عقد الصلح مع تركية قد أخر تأسيس الحكومة المدنية ، ودليلنا على هذا ما أعلنه وكيل الحاكم الملكي العام في خطاب القاه في حفلة أقيمت ببغداد بمناسبة ميلاد صاحب الجلالة البريطانية في ٢٩ مايس ١٩١٩ . فقد قال الكولونيل ويلسن :

«... وقد أعلنت الحكومة البريطانية قبل الآن نيتها في ابداء المعاونة لتأسيس حكومة في العراق توافق مشارب الاهلين ، وتكفل في الوقت نفسه سير العدل سيراً مستقيماً لا تشوبه شائبة المحاباة ، وان تنشط التجارة والموارد الاقتصادية

ونشر العلوم والمعارف ، فهذه وعودها ستتمها وسوف لا نقصر البتة في إبداء كل المساعدة المطلوبة لتحقيق تلك الغايات والاماني ...

« ... ولا بد انكم تودون الوقوف على ما قامت به السلطة من الاعمال التمهيديّة لتأسيس نظام لحكومتمكم العراقية ، ذلك النظام الذي سيساعد العراقيين على الاشتراك مع السلطة في ادارة شؤونهم من اول الامر . فأبين لحضراتكم ان العراق قد قسم الى جملة ألوية منها لواء البصرة ولواء العمارة والكوت والمنتفك وبغداد والفرات ، وفي النية تعيين مجلس يعين اعضاؤه من الاعيان في كل لواء بأسرع ما يمكن وينعقد في اوقات معلومة لابداء المشورة الى الحكومة في الامور والمهام المحلية كالتعليم والزراعة والري وفتح الطرق وتوسيعها وما شابه ذلك . ويرأس كل مجلس الحاكم السياسي في اللواء على ان يكون كاتم اسراره عراقياً يشتغل معه غالباً بصفة مشاور له . وفائدة ذلك هي تبادل الآراء مع الاهلين والوقوف عليها وقوفاً كلياً .

« واما في دوائر الحكومة الاخرى كالمالية والمعارف والعدلية ، ففي النية ايضاً تعيين عراقي كفؤ ليكون مستشاراً لرئيس دائرته ، ويؤمل من هذه الطريقة ان تتمكن الحكومة من تأهيل عدد متزايد من المأمورين والموظفين العراقيين لخدمة الحكومة وتدريبهم على أصول الادارة الحديثة ، وان تكفل الحكومة في الوقت نفسه تماسها مع الاهلين للوقوف على مشاريعهم ومآربهم وتحقيقها . على ان هذه الطريقة هي الخطوات الاولى التي تخطوها السلطة لادراك هذه الغاية . ويجب ان تعتبروها عربوناً مقدماً للاصلاحات التي في النية . فلا تعتبروا اذن هذه الخطوة الاولى بانها الخطوة الاخيرة التي قررت الحكومة جعلها دستوراً لها في اعمالها . واني لأذكر اولئك الذين يطمعون في الحصول حالاً على دستور اكثر توسعاً وصلاحيّة من الذي نحن بصددده ، ان العراق مفتقر الى مديريّن خبيرين لارشاد البلاد ومفتقر ايضاً الى معاونة خارجية اذا أراد أهلوه الخلاص من الوقوع في الحضيض الذي وقعت فيه البلاد التركية ...

« ... ومن المشهور لدى العموم ان الوسيلة الوحيدة التي أبلغت الامم شأواً

عظيماً في الحكم الذاتي كانت مدنها التي توجد فيها مجالس تدبر أمورها الادارية الوطنية من تلقاء نفسها ، اذن فني بغداد والبصرة والعمارة ستكون ادارة الامور البلدية ملتقى من الآن فصاعداً على عواتق المجالس البلدية تحت اشراف الحاكم السياسي إشرافاً عاماً على ان يكون رئيس المجلس البلدي عراقياً تنتخبه الحكومة وتدفع له راتباً لقاء خدماته ... »^١ .

وتحقيقاً للالتزام الذي أعطي هنا كانت أول خطوة اتخذت إعادة تشكيل بلدية البصرة . فقد تشكل « مجلس بلدي » بدلاً من الهيئة الاستشارية التي كانت موجودة ، وكان هذا المجلس يتألف من رئيس انكليزي ونائب رئيس عربي ومشاورين فنيين بريطانيين وعرب وعشرين عضواً كان أحدهم وهو من الرعايا البريطانيين ، يمثل غرفة التجارة ، بينما كان عضو آخر يمثل « الحرف الهندية المتحدة » ؛ اما بالنسبة للأعضاء الثمانية عشر الباقين فقد كان الرأي في البصرة لا يفضل العودة الى طريقة الانتخاب العام ، ولذلك حصلت الموافقة على طريقة مختلطة تجمع بين التعيين والانتخاب .

وكان مشروع تشكيل مجلس بلدي لبغداد موضوع بحث في تشرين الثاني ١٩١٨ ، وقد عرض على « اللجنة البلدية الاستشارية » التي كانت موجودة . وكانت أهم نقطة يجب ان تتقرر هي كيفية انتخاب المجلس البلدي . فكانت اللجنة الاستشارية ، وهي تضم ممثلين عن جميع الطوائف ، تفضل بالاجماع إعطاء نوع من الحرية في الانتخاب ، لكنها كانت مختلفة على نفسها . ففريق كان يفضل الانتخاب المباشر بحسب القانون التركي القديم الذي كان يشترط توفر بعض المؤهلات المالية في الناخب ، وهي ان يكون له ملك تقدر قيمته السنوية بما لا يقل عن (٢٥٠٠) قرش (حوالي ٢١٢ روبية) على ان تحرم من الانتخاب بعض الطبقات كالمحكومين والاجانب وما أشبه . وكان الفريق

(١) لقد أثبت هنا النص العربي الأصلي الذي اذيع في وقته .

الآخر يفضل ان يكون الانتخاب على درجتين ، فينحصر في هيئة تتألف من (٥٠٠) الى (٦٠٠) ناخب يعينهم مختارو المحلات كل من محله على ان يكون ذلك خاضعاً لمصادقة لجنة تدقيقية مركزية تعين لهذا الغرض . على ان ما يجدر ذكره هنا ان عضواً مسلماً واحداً فقط صوت ضد الطريقة التركية . وكان هناك ايضاً إجماع في معارضة إدخال أي عضو محلي في المجلس بطريقة التعيين ، لكن الموافقة حصلت على ان يكون الحاكم العسكري رئيساً للمجلس وان يعتبر نائباً الحاكم العسكري عضوين في المجلس لهما حق التصويت .

على اننا يجب ان نتذكر ان المجلس البلدي مع انه كان ينتخب انتخاباً حراً في عهد الاتراك فان صلاحياته كانت محدودة . حيث ان الميزانية وجميع مشاريع الاعمال وخططها وما أشبه كان يجب ان تصادق عليها « الهيئة البلدية العامة » التي كانت تتألف من المجلس البلدي والمجلس الاداري . ولما كان مجلس الادارة متكوناً على الاغلب من الموظفين فان الحكومة العثمانية كان بوسعها على الدوام ان تضمن اكثرية رسمية أو شبه رسمية في « الهيئة العامة » . وعلى هذه الشاكلة كان الاتراك ، في الحقيقة ، يسيطرون سيطرة تامة على جميع الشؤون البلدية المهمة برغم ما كانوا يبدو انهم كانوا يتركون الشؤون البلدية بأيدي الاهلين .

وقد تأخر تشكيل المجلس البلدي المنتخب في بغداد بالنظر للشعور الحزبي الذي أثارته عملية الاستفتاء عن الحكم الذاتي الذي أشير اليه سابقاً . وفي اوائل الصيف كان تشكيل هذا المجلس موضوع نظر جدي من جديد ، وقد سبق ان تقرر اتخاذ الخطوة الاولى في طريق الحكم الذاتي في المدينة بتعيين نائب للحاكم العسكري . وكانت الحاكمة العسكرية منذ نهاية ١٩١٨ منصباً سياسياً برغم احتفاظها باسم « الحاكم العسكري » . وفي اللحظة الفاصلة هذه وصل الى بغداد من حلب في اوائل حزيران ناجي افندي السويدي ، الذي عُرِض عليه المنصب فباشر عمله في الثالث من تموز . وينتمي ناجي افندي الى أسرة معروفة في بغداد يقال انها تنحدر من سلالة العباسيين^١ . وكان أبوه يوسف

(١) يقول الاستاذ توفيق السويدي شقيق ناجي ، في مذكراته : وقد نشأت في جو يحوطه =

افندي معروفاً بميوله العربية ، وقد نفى من بغداد الى استانبول في ١٩١٥ عندما حلت الحكومة التركية الحزب الحر الذي كان موجوداً في المدينة . وحل غضب الحكومة على جميع الاسرة . حيث ان احد ابناء يوسف افندي الذي كان موظفاً في ديار بكر قد قتل لانه رفض اطاعة الاوامر الرسمية في ذبح الارمن . وبقي ناجي ، وقد كان موظفاً ايضاً في استانبول حتى وقت الهدنة ، ثم ذهب بعد ذلك الى سورية فعين وكيل حاكم عسكري في حلب . وعندما جاء الى بغداد في ١٩١٩ أفهم الجهات المختصة بأنه مستعد للتوظيف في العراق . فعرض عليه ان يختار احد منصبتين ، وهما : منصب مشاور السكرتير العدلي او مشاور الحاكم العسكري ، فاختار الاخير . وقد أشير عليه بأنه سيكون أول وأهم واجب من واجباته ان يساعد الحاكم العسكري في وضع الترتيبات الادارية الجديدة للمدينة . فسلمت اليه جميع الخطط والمذكرات المتعلقة بتشكيل « البلدية » التي كانت قد وضعت بعد ان درس السكرتير العدلي ورؤساء الدوائر الآخرون الأساليب التركية دراسة مستفيضة ، لكنه قبل ان يسمح لنفسه بدراسة تلك الخطط ووزن أهمية كل منها رفع بتاريخ ٧ تموز خطة مبنية على أسس مختلفة نوعاً ما ، فكانت أهم أوجه الاختلاف ان ينتخب المجلس انتخاباً حراً عاماً وان لا يكون من ضمن اعضائه أي ضابط بريطاني عدا الضابط الصحي ومهندس البلدية .

وبناءً على طلب الحاكم العسكري عين وكيل الحاكم الملكي العام لجنة برئاسة المشاور العدلي وعضوية ضابطين بريطانيين وأربعة من وجهاء بغداد ،

= شعور الدين و العلم لانني أنسب الى عائلة عباسية شهيرة في بغداد تعرف بآل السويدي . فوالدي يوسف بن نعمان بن محمد سعيد بن أحمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي بكر الفضل بن أبي العباس أحمد بن المقتدي عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن اسحق بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن الموفق طلحة بن جعفر المتوكل بن محمد المعتمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي .
(٢) وكان اسمه ثابت افندي .

بينهم ناجي افندي ، وسكرتير عربي للنظر في هذه المقترحات . لكن ناجي افندي قدم استقالته في ١٤ تموز قبل ان تتمكن اللجنة من الاجتماع . وقد صرح في الكتاب الذي رفع فيه استقالته بان ادارته لشؤون البلدية قبل انتخاب المجلس البلدي واكمال تشكيلات الدائرة سوف لا تأتي بالنجاح المطلوب وبالمنافع المتوخاة منها . ثم ترك البلاد الى حلب في الشهر التالي واستأنف هناك اشتغاله في منصبه السابق . لكنه قبل ان يترك بعث كتباً أخرى يقول فيها انه سيكون مستعداً للعودة في المستقبل اذا احتيج اليه .

وقبل بالمنصب الذي شغل بعد استقالته وجيه^١ سني آخر ، فأصبح أميناً للعاصمة ، بينما عين وجيه^٢ شيعي مديراً في الكرخ . ثم عين الحاكم العسكري لجنة تتألف من : ممثلين اثنين عن الشركات البريطانية وتسعة وجهاء من المدينة من المسلمين والمسيحيين واليهود ، وطلب اليهم النظر في الخطة التي وضع مسودتها رؤساء الدوائر البريطانيون . وكانت الخطة التي صادقوا عليها تتضمن انتخاب « مجلس بلدي » من قبل هيئات انتخابية متعددة . وقد اشترط ان يكون الناخبون الأوليون من الملاكين الذين يتجاوز عمرهم الواحد والعشرين عاماً والذين يدفعون ضريبة ملك سنوية لا تقل عن (٤١) روبية . وبهذا تحدد عدد المصوتين وأصبح يبلغ (٧٦٢) مصوتاً . وهو عدد كان يعتبره وجهاء بغداد كافياً لسكان يقارب عددهم (٢٠٠,٠٠٠) نسمة . وقد جرى مثل ذلك في الموصل ايضاً ويبلغ عدد نفوسها (٦٠,٠٠٠) - (٨٠,٠٠٠) نسمة . حيث بلغ عدد المصوتين الذين تتوفر فيهم الشروط التي أقرتها لجنة الوجهاء هناك حوالي (٤٥٠) مصوتاً عندما وضعت الخطة على اساس قانون البلديات العثماني لانتخاب المجلس البلدي في صيف ١٩٢٠ .

(١) وهو المرحوم عبد المجيد بك الشاوي الذي عين في ١٩/٧/١٩ ، وعين مديراً لبلدية الرصافة وسكرتير المجلس البلدي فيها عبد العزيز المظفر بتاريخ ١٩/٨/٢٤ .
(٢) وهو المرحوم الحاج محمد حسن الجوهر الذي عين في ١٩/١٠/١٩ .

اما مجالس البلدية في المناطق والاقضية فأول مجلس تشكل منها كسان في البصرة^١ سنة ١٩١٩ . وشكلت في شتاء ١٩١٩ - ٢٠ المجالس الاخرى في كركوك والحلة والديوانية وسامرا^٢ والعمارة وديالى والرمادي . وتأخر تشكيل المجلس في بغداد^٣ الى ما بعد إجراء اول انتخاب للمجالس في الأماكن الاخرى بالنظر للصعوبات التي جوبهت في احضار السجلات .

وكانت هناك منذ بداية الأمر في عدد من المناطق مجالس استشارية غير رسمية تتألف من بعض الوجوه والشيوخ . ولم تختلف عنها المجالس الجديدة في مبدئها . فقد انتقى الحكام السياسيون لها اعضاء يمثلون مختلف الطبقات والمصالح ، المدنية والقروية ، وكان يرأسها الحكام السياسيون انفسهم . اما المقررات التي كانت تقرر بشأن القضايا التي يبحث فيها المجلس ، فقد كانت ترسل الى الحاكم الملكي العام الذي يملك صلاحية التصديق النهائي عليها . وكانت المباحثات تتناول قضايا كثيرة تختص بمشاريع الري والسكك وتوطين القبائل وبالقضايا الزراعية المحلية ، والمحافظة على الامن والنظام وغير ذلك . وفي البصرة التي ابدى الاعضاء فيها اهتماماً بأعمال المجلس تعرضت ادارة مالية الأوقاف الى النقد اكثر من مرة . وقد قوبل تشكيل المجالس بوجه عام

(١) لاحظنا في قائمة أر نولد ويلسن ان عبد الله بك قد عين رئيساً لبلدية البصرة في ١٩/٣/١٩ ، وان رجب النعمة قد عين رئيساً لبلدية العشار في ١٩/٨/١٩ ورئيساً لبلدية البصرة في ٢٠/٦/١٥ ، وعين عبد الله الحاج طه السلطان معاوناً لرئيس البلدية في ٢٠/٦/١٩ . وعين سكرتيراً لبلدية البصرة الله بنخش جردري في ١٨/١/١٩ ، وشفيع القاضي في ١٨/١١/١٩ ، كما عين سكرتيراً لهذه البلدية ورئيساً لمفتشي العشار أيج أي جيل بتاريخ ١٨/٧/٢٥ .

(٢) عين محمود افندي رئيساً لبلدية سامرا في ١٩/٧/٢٣ .

(٣) جاء في ما كتبه الاستاذ علي البازرگان (الوقائع الحقيقية) ان الحاكم السياسي والعسكري المستر بلفور استدعى بتاريخ ١٩ تموز ١٩١٩ كلا من عبد المجيد الشاوي والحاج عبد الغني كبة والحاج محمد حسن جوهر والحاج جعفر أبا التمن ، كما استدعى شخصاً من اليهود وآخر من النصاري ، وشكل منهم مجلساً بلدياً . وفي سنة ١٩٢٠ عين عبد المجيد الشاوي رئيساً لبلدية الرصافة ومحمد حسن الجوهر رئيساً لبلدية الكرخ ، وقد استقال كل من عبد الغني كبة وجعفر أبي التمن .

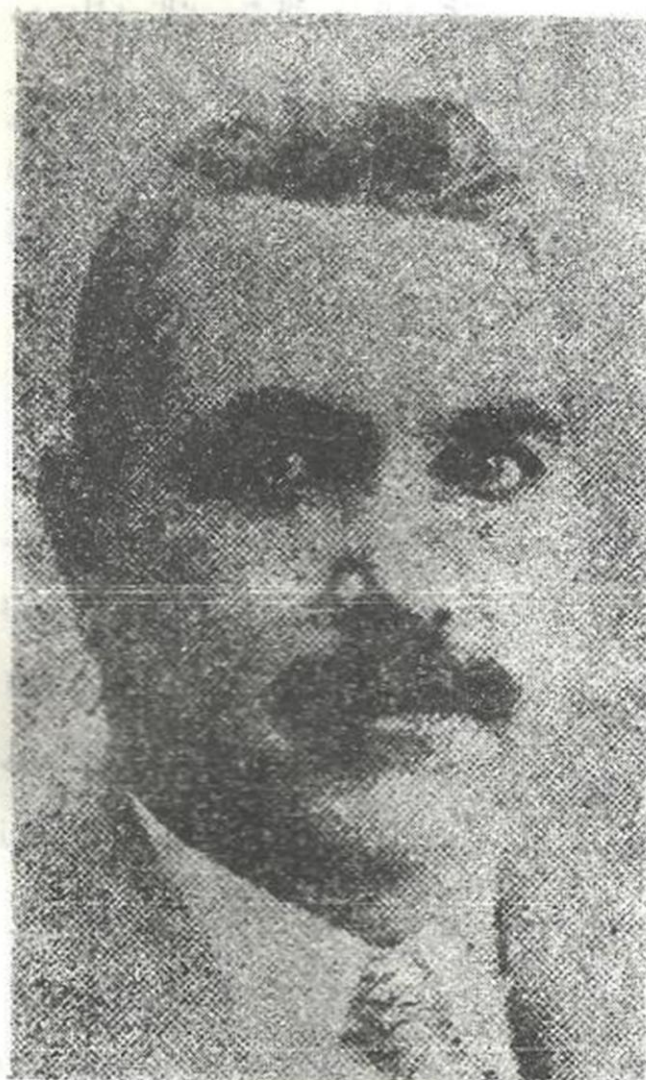
بالترحيب ، وكان اول قرار اتخذه المجلس الجديد في الحلة قرار في تأييد عريضة كانون الثاني ١٩١٩ التي طلبت فيها بقاء الادارة البريطانية .

ولم تجر أية محاولة حتى الآن من أجل تطبيق نظام ما لانتخاب المجالس المحلية . فقد كان المجلس الاداري والمجلس العام في الولاية ينتخبان انتخاباً في أيام الترك ، ولا يذكر القانون التركي شيئاً عن انتخاب مجلس الادارة الا ان المجلس العام ينتخب من قبل المنتخبين الثانويين الذين ينتخبون الاعضاء لآخر مجلس مبعوثان . اما انتخاب المنتخبين الثانويين فيجري من قبل جميع الذكور من دافعي الضريبة الذين يزيد عمرهم على اربع وعشرين سنة والذين لا يسقط حقهم بأسباب قانونية أخرى . وينتخب كل (٥٠٠) ناخب اولي منتخباً ثانوياً واحداً . وفي بلاد العراق حيث يكون جميع السكان الا نسبة ضئيلة جداً منهم أميين وجاهلين في الشؤون العامة بالكلية كان القانون التركي شيئاً أكثر من الخرافة بقليل . والحقيقة ان الانتخابات كانت تديرها فروع حزب الاتحاد والترقي التي ترشح المرشحين هي نفسها . على ان الانتقاء الذي كانت تجربيه هذه الفروع كان انتقاءً معقولاً في العادة . اما كيفية تكوين المؤسسات العامة التي ستكون لها أهمية حقيقية في حياة البلد ، وتمتع بالمسؤولية الحقة ، فهي من مشاكل المستقبل القريب . وكان المقصود من مجالس المناطق (الالوية) التي خلقتها الادارة البريطانية ان تكون موقفة فقط . فهي عدا تشكيلها بدون انتخاب ليست لها مسؤولية مباشرة ، ولا يمكنها ان ترضي طموح الرأي العام او تحافظ على نشاطه وحيويته بدون هذه المسؤولية . وقد وقعت حادثة في منطقة الشامية فقط استقال فيها اعضاء المجلس المعين حديثاً كلهم مرة واحدة بعد الجلسة الاولى على اساس انهم لا يتمكنون من إبداء أي رأي بحرية حتى يتقرر مستقبل بلادهم . وكانت لهذه الحادثة ، التي وقعت في شباط ١٩٢٠ ، علاقة بسير الحوادث في سورية .

حزب العهد ودير الزور

وقد تشكلت في تشرين الاول ١٩١٨ حكومة عربية في البلاد الممتدة من حلب الى دمشق ، فكانت حكومة مستقلة عملياً ، بالنسبة لشؤونها الادارية ، مع انها كانت خاضعة لجيش الاحتلال البريطاني . وكان على رأسها الامير فيصل الذي حارب بصفة قائد في معية اللورد اللنبي . وكان معظم رجال الجيش البارزين في جيش فيصل من أصل عراقي ، واكثرهم بغداديون . وكانوا يصرحون على الدوام بأنهم حاربوا في الحملة السورية من أجل تحرير بلادهم

هم انفسهم . وقد أسسوا منذ شتاء ١٩١٧-١٨ ، عندما كانت الحركات العسكرية تجري بالقرب من معان ، جمعية أسموها « جمعية العهد العراقية » ، كانت غايتها الحصول على استقلال العراق عن اي سيطرة اجنبية واتحاده بسورية اتحاداً وثيقاً في ظل أسرة الملك حسين ملك الحجاز . وكانت هذه الجمعية ، وهي بقيادة البغدادي ياسين باشا الذي أخذ أسيراً عند سقوط الشام فبادل منصبه الكبير في الجيش التركي بمنصب رئيس اركان جيش فيصل ، مسؤولة عن سرعة انتشار الحركة الوطنية في العراق . على ان مدى مؤازرة فيصل لها



ياسين باشا الهاشمي

كان أمراً مشكوكاً فيه ، حيث انه كان متورطاً اكثر مما كان قد استفاده من مغالاة الجمعية بمبادئها . وقد اضطر في عدة مناسبات الى ان يستنكر بعض الاعمال التي كانت تصدر من الجمعية من دون شك . غير انه لما كانت الجمعية مسيطرة على الجيش بواسطة الضباط العراقيين لم يكن بوسع ان يسيطر عليها هو .

ولم تكن الحدود معلومة بين سورية والعراق عند إعلان الهدنة . ففي أيام الحكم التركي كانت ولاية بغداد تضم اليها قضاء عانة الذي كان يمتد على طول الفرات الى ما فوق القائم بأميال قليلة . وتقع بين القائم والرقّة ، أبعد بلدة في ولاية حلب من الجهة الجنوبية ، متصرفية دير الزور التي لم تكن تابعة لأي من الولايتين المذكورتين لكنها كانت تتبع استانبول مباشرة . فالحق الى متصرفية الدير شيء من ولاية بغداد بما فيه عانة . وقد تغيرت هذه التقسيمات الادارية قبل الحرب بمدة وجيزة .

وبعد تفهقر الاتراك أرسل الى عانة معاون حاكم سياسي بريطاني^١ . وبالنسبة لمعلومات السلطات الموجودة في بغداد لم تتخذ ترتيبات ما بشأن الدير ، لكن سكان الدير طلبوا في نهاية تشرين الثاني من معاون الحاكم السياسي في عانة إرسال ضابط الى الدير للمحافظة على الأمن والنظام . فأحيلت القضية الى حكومة صاحب الجلالة التي وافقت في ١٣ كانون الاول على ان يوفد الى الدير ضابط بريطاني بصفته العسكرية المحضة كتدبير مؤقت ريثما تصدر مقررات مؤتمر الصلح . وبينما كانت القضية قيد البحث وصلت برقية من المندوب السامي في القاهرة تفيد بأن الحكومة العربية في الشام تطالب بأن تدار دير الزور من دمشق رأساً . وعلى هذا طلب ان يتخذ قرار ما بأسرع ما يمكن .

وحالما وصل الاذن من حكومة صاحب الجلالة أرسل ضابط ذو أهلية من عانة الى الدير^٢ ، لكنه عندما وصل الى البوكمال وجد ان قائمقاماً يمثل الحكومة

(١) كان اسمه الكابتن كارفر الذي عين في ١٨/١١/١٩١٨ .
(٢) يبدو ان الكابتن كارفر نفسه قد انتدب الى الدير بصفة معاون حاكم سياسي اعتباراً من =

العربية قد أرسل بأمر من حاكم حلب وفي معيته اربعون دركياً ، وكان قد وصل في ٢٣ كانون الاول ومعه تعليمات باحتلال عانه . كما وجد ان متصرفاً عربياً كان في طريقه الى الدير ، وعندما تسلم منصبه شرع بتعيين عدد كبير من الموظفين وبتجنيد الدرك برواتب أعلى بكثير من الرواتب التي تدفع في منطقة الاحتلال البريطانية . وكان الحاكم الملكي العام في بغداد يجهل تمام الجهل ما اذا كان الحاكم العسكري الذي قيل بأنه قد أصدر الاوامر انكليزياً او افرنسياً او عربياً . وعندما أرجع الامر الى حلب وجد انه كان شكري باشا الايوني ، وقد صرح هذا بأن الموظفين العرب كانوا توجهوا الى الدير والبوكمال بخلاف التعليمات الصادرة اليهم وأمر بانسحابهم العاجل .

وبقيت الحادثة محاطة بالغموض . ولكنه ليس من المستبعد ان تكون الاوامر الاصلية التي صدرت باحتلال متصرفية الدير قد صدرت من فيصل بحسن نية قبل ذهابه الى باريس ، او انها ربما كانت قد صدرت من جمعية العهد من دون معرفته . ولولا استرحام أهالي الدير بارسال ضابط بريطاني اليهم لكانت الادارة البريطانية في العراق محجمة عن تمديد مسؤولياتها شمالاً الى الدير . والحقيقة ان القائد العام رفض الاضطلاع بالحماية العسكرية الى اي منطقة شمالي القائم . ومع ان المشكلة قد سويت بصورة ودية فانها تركت انطباعاً عداًئياً لم تقصر جمعية العهد عن الاستفادة منه . ففي شباط وفي تموز ١٩١٩ ايضاً اقنع وكيل الجمعية ، الذي تأكد لنا فيما بعد انه كان رمضان الشلاش ، قبائل الدير واستحصل منهم وثائق يطلبون فيها تابعة الحكومة العربية . وكان رمضان نفسه في الاصل مختاراً لاحدى القبائل المحلية ، وهي قبيلة ألبوسرايا التي يحترف أفرادها الزراعة وتربية الاغنام في شمال الدير وجنوبه . ثم صار ضابطاً في الجيش التركي ، وهرب من المدينة فالتحق بالشريف .

= ٢٠/١٢/١٥ فعين في مكانه بعانه الكاتبين مايلز اعتباراً من ١٨/١٢/١٩١٩ . ثم عين في ١٩/٤/١٩٢٠ رجل اسمه عبد الله افندي نائباً لمعاون الحاكم السياسي .

ولم تكن دعاية جمعية العهد منحصرة بالدير وحدها . فقد كانت تجري محادثات بين العراقيين الموجودين في سورية وبين أقاربهم واصدقائهم في العراق ، وكان فحواها حث العراقيين على الانضمام الى سورية في المطالبة بالاستقلال التام . وقد أرسلت الاموال من سورية لمساعدة العراقيين في نشر هذه الدعوة .

وقد اقنعت الخبرة المستمدة من ادارة الدير السلطات المدنية في العراق بأن الحدود يجب ان تعدل ، فاما أن تشمل متصرفية الدير بأجمعها او تستثنى جميع القبائل المتعلقة بالدير مباشرة ، حيث ان تقسيم الجمهرات العشائرية تقسيماً اعتبارياً هو وسيلة أكيدة لاثارة الاحتكاك وسوء التفاهم . وكانت الاعتبارات العسكرية تستدعي عدم إلحاق دير الزور وقبائلها بالعراق . لان الجيش لا يمكن أن يحتفظ به في نقطة بعيدة مثل هذه ، ولذلك كان معاون الحاكم السياسي يعتمد بالكلية على الشبابة العرب عدا اعتماده على سيارتين مصفحتين فقط .

وفي صيف ١٩١٩ اقترحت حكومة صاحب الجلالة وضع حدود مؤقتة يمتد خطها فيعبر الفرات على بعد عدة أميال جنوبي الدير في مصب الخابور ، ثم يتبع هذا الرافد ، الا انه وجد ان ذلك لا يتفق والاحوال المحلية . لان القبيلة نفسها هناك تشغل جانبي الخابور ، وكان اساسياً بالنسبة لمقتضيات السلم ان توضع القبيلة بأجمعها تحت سيطرة دولة منتدبة واحدة . ومع هذا تقرر في أيلول ١٩١٩ بين بريطانية العظمى وفرنسة ابقاء الخابور حدوداً مؤقتة . وكان الأمير فيصل يومذاك قد ذهب الى أوربة لحضور بعض المؤتمرات ، لكننا غير متأكدين فيما اذا كان على علم بطبيعة القرار المتخذ الحقيقية ، مع انه كان يعلم بلا شك بنوايا الحكومة الحليفة في اخراج دير الزور من حدود الدولة العراقية .

(١) لقد أخبر يوسف أفندي السويدي السيد طالب باشا في ١٩٢٠ بان مجموع ما كان قد تسلمه من المال هو (١٦٠٠٠) ليرة ، وشكا من عدم كفاية المبلغ الذي كان من الواجب توزيعه على جهات كثيرة . وعلم ان (٣٠٠٠) ليرة أخرى كان تسلمها الشيخ سعيد النقشبندي (المؤلف) . ويقول احد اعضاء حزب العهد ايضاً ان الشيخ سعيد تسلم (١٠٠٠) ليرة من عضوين من اعضاء حزب العهد جاء من الشام لاصلاح الخلاف في بغداد - المترجم .

والظاهر ان الانطباع العام في سورية كان ينطوي على ان بريطانيا العظمى سوف تخلي جميع المتصرفية التي كانت حدودها الجنوبية تنتهي بالقائم ، وهي الحدود الادارية التركية القديمة ، او في جنوب عانه في النقطة التي اعترف بها الأتراك اعترافاً مؤقتاً .

وكان من الأهمية بمكان انه اذا تم الجلاء فان السلطة التي ستخلفنا ، سواء أكانت عربية ام فرنسية ، يجب ان تجري معها دور تسليم رسمي لنتحاشي الخطأ وهيجان العشائر . فبالنظر لعدم وجود اي بيان رسمي عن مستقبل الدير كانت الجهات المختلفة تشعر بعدم تأكد خطير ، ولم يقل ذلك الشعور بسلا ريب عندما وقع حادث ٤ تشرين الثاني بعد ان شرعت القوات البريطانية باخلاء سورية مباشرة . فقد علم وكيل الحاكم السياسي ان قائماً تركياً قد وصل الى الحسكة الكائنة على الخابور في شمالي الدير ، ونشرت في الوقت نفسه نشرات بين القبائل تعلن عن عودة الأتراك العاجلة . فخفف الكابتن^١ كامير الى الحسكة وتذاكر مع القائم مقام ، ثم ذهب بناء على اقتراح القائم مقام الى رأس العين فخابر القائد التركي في ماردين تلفونياً طالباً منه بيان اسباب الحركة الاخيرة . فكان جواب القائد انه علم بأننا كنا قد أدخلنا الدير ، ولما كان الامر بخلاف ذلك فانه سوف يستدعي القائم مقام من هناك .

وفي ١٩ تشرين الثاني تسلمنا في بغداد برقية من المندوب السامي في القاهرة تفيد بأن رمضان الشلاش ترك حلب مزوداً بالتعليمات في السير الى دير الزور . وقد وصل الرقة في اوائل كانون الاول وشرع يدس بين القبائل بصورة فعالة ، ملقباً نفسه حاكم الفرات والخابور . ومن سوء الحظ ان أوامر حكومة صاحب الجلالة التي كانت في طريقها إلينا لم تصل ، وفي ١٠ كانون الاول سمع الكابتن كامير معاون الحاكم السياسي إشاعة تفيد بأن قوة عربية كانت ترحف من الرقة لتهاجم دير الزور . فاصطحب معه ضابط السيارات المصفحة وذهبا باحدى

(١) لقد عين الكابتن كامير في دير الزور بتاريخ ١٩/٢/٢١ .

السيارات للاستطلاع في طريق الرقة فلم يجد أثراً لاية حركة غير اعتيادية ، لكنهما عند عودتهما أطلق عليهما العشائر الرصاص من كمين نصب لهما في الطريق غير انهما عادا الى الدير بعد شق النفس . وحتى في ذلك الوقت لم يكن الكابتن كامير يعتقد ان العرب كانوا ينوون الاغارة على دير الزور بصورة جدية ، لكنه أبرق الى بغداد يخبر بوجود قلاقل خطيرة ، ووقف رئيس البلدية الذي ارتاب من تواطئه ، ثم اتخذ جميع ما تمكن عليه من التدابير للمحافظة على الامن في البلدة ، وانسحب مع الشبان العرب الى القلعة . وفي صباح يوم ١١ كانون الاول الباكر دخلت القبائل دير الزور من الجنوب ، فنهبت مع سكان البلدة المستشفى والكنيسة ، ومسجداً واحداً او مسجدين ، ودائرة الحاكم السياسي حيث كُسرَت القاصة وفتحت فاخذت محتوياتها . وقد نسف مخزن البترول فأدى الى قتل حوالي تسعين شخصاً من المهاجمين ، ثم اطلق سراح جميع المساجين . كما أطلقت النار على سيارة مصفحة ذهبت للاستطلاع في البلدة وأنزل بها ضرر بليغ ، وفي أواخر الصباح فتحت النار على القلعة . فردت عليهم الرشاشات التي كانت قد نصبت فوق السطح ، لكنها سرعان ما أسكتت من نيران العدو . وبعد ذلك بمدة وجيزة دُعي الكابتن كامير بالنزول الى البلدة للمذاكرة . وقد كان عندئذ في وضع محرج لأنه لم يكن عنده شيء من الماء ولا من الطعام في القلعة لمقاومة الحصار ، ولذلك وجد من الاحسن ان ينصاع للامر ويلبي الطلب ، فأخذ معه معاونه الشخصي العربي وذهب الى بيت رئيس البلدية حيث وجد وجوه البلد البارزين . فلاحظ انهم كانوا يتلهفون الى عقد هدنة معه ، وكان من الواضح بالنظر لدخول العشائر الى البلدة انهم (وجوه البلد) لم يكن في مقدورهم السيطرة على العشائر . ولأجل ان يضع حداً لاطلاق النار القذيع الذي كان مستمراً سار الكابتن كامير مع رئيس البلدية في شوارع البلدة ليظهرها بأنه لم تكن هناك حرب بين البريطانيين والعرب . وعند عودته الى بيت رئيس البلدية قابل الشيوخ الذين قادوا الثورة ، فألفاهم في حالة هياج شديد واطهروا له عداءاً مفعماً بالتعصب . وقد كان رأيهم انهم ، وقد وصلت بهم

الحال الى هذا الحد ، يجب ان يقتلوا الضباط البريطانيين مع موظفيهم ، ومن المحتمل انهم كانوا سينفذون ذلك لولا ان ظهرت في السماء لحسن الحظ طيارتان بريطانيتان كانتا قادمتين من الموصل وأخذتا بأصلاء البلدة من رشاشاتهما . فبدل الشيوخ لهجتهم في الحال واسترحموا من الكابتن كامير ان يوقف القصف . وعندما عادت الطائرتان عقدوا هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة .

وقد وصل رمضان شلاش الى دير الزور بعد الظهر وطلب لتوه حضور الكابتن كامير . فأبرز عدة كتب قال ان شيوخ دير الزور كانوا قد كتبوها له يطلبون فيها منه ان يتسلم المنطقة بالنيابة عن الحكومة العربية . وأضاف يقول ان الانكليز مدعوون الى مغادرة البلدة الآن مثل ما طلب اليهم ان يدخلوها في كانون الأول ١٩١٨ للمحافظة على الأمن والسلام فيها . فرد عليه الكابتن كامير بأنه لم يتناق تعليمات باخلاء دير الزور ، إلا انه لما كان غير قادر على إبداء أية مقاومة فانه راغب في تركها اذا ما تعهد رمضان الشلاش بالمحافظة على الأمن وبعدهم مس الموظفين العرب الذين خدموا الادارة البريطانية أو المسيحيين بسوء . لان الدير كان فيه عدد من اللاجئين الارمن الذين كان قلقاً على مصيرهم . فوافق رمضان الشلاش على هذه الشروط ، لكنه غير رأيه في الليل وطلب من الكابتن كامير ان يضمن له بعد وصوله سالماً الى الخطوط البريطانية ان لا تهاجم الدير من البر أو الجو . الا ان الكابتن لم يكن بوسعها ان يعطي مثل هذا الوعد ، لكنه وافق على ان يلفت نظر إحدى الطائرات التي كانت محلقة في الجو ويقنع الطيار بالهبوط الى الارض . ففعل ذلك خلال النهار وبعثت رسالة الى السلطات البريطانية شُرح فيها ان البريطانيين في الدير أخذوا رهينة في مقابل سلامة البلدة .

وبعد ان دخل رمضان الى دير الزور كانت دعايته تتضمن تعيين جميع من خف لمساعدته براتب يتعين في تاريخ متأخر . وقد اخبر شيوخ العشائر بأن نية الحكومة العربية متجهة الى تأسيس مؤسسات حكومية محلية برئاسة الشيوخ انفسهم . فجاء لزيارته عدد من مختاري القبائل النازلة على طول النهر ومعظم

شيوخ^١ عنزة المعادين لحليفنا المقدام فهد بك (ابن هذال) ، لكنهم برغم اعترافهم بوجوب اثاره القبائل ضد البريطانيين وحتى بنقل الحرب معهم الى الهند فان جميع الشيوخ المهمين رجعوا الى خيامهم ولم يسهموا بأي عمل آخر بعد ان قبضوا هبات مالية ووازنوا الحالة . وليس هناك شك بأن رمضان كان منخدعاً للدرجة كبيرة بالتأييد الذي كان ينتظره من القبائل . فان واحداً من ابرز شيوخ العقيدات ، التي ينتمي اليها البوسرايا أعمام رمضان نفسه ، ظل يتعاون معنا تعاوناً فعالاً حتى انسحبنا في مايس من منطقته وعندئذ اضطر لمصالحة الحكومة العربية .

وفي الوقت نفسه كان شيوخ الدليم^٢ في الجنوب قد وضعوا تحت تصرف

(١) ان قبائل عنزة التي كانت تنزل حول دير الزور تنتمي الى الفدعان وتمتد منازلهم ، على ما يذكر في (دليل الجزيرة العربية ، ١٩١٦) ، من حلب الى الدير على ضفتي الفرات ثم الى الحبور فتكاد تصل الى سنجار تقريباً . وقد كان يرأس هؤلاء حاجم بن مهيد وحاجم بن قيشيش ، فيكون أتباعها معاً حوالي (٣٥٠٠) خيمة . ولعل شيوخ الفدعان هم الذين كانوا معادين لفهد بن هذال شيخ مشايخ العمارات من عنزة ، التي تعد حوالي (٣٠٠٠) خيمة . وكان ابن هذال هذا رجلاً غنياً يملك بسايتين نخيل في الرزازة على مقربة من كربلاء وفي البغداد فيما يقرب من هيت ، وفي جهات أخرى من الفرات .. ونقول زيادة في الايضاح أنه كان يكره الأتراك لأنهم زجوه في السجن مدة من الزمن ، ولذلك انحاز الى الانكليز حالما احتلوا العراق انحيازاً مشيناً وأفادهم فائدة جلي خلال الحرب . ومما ترويه المس بيل في رسائلها بالنسبة لوضعه هذا أن المرحوم السيد عبد الرحمن النقيب رئيس الوزارة العراقية الموقته كلفه يوماً بمهمة لدى شيوخ الفرات الأوسط فلم يمثل لذلك الا بعد أن ذهب الى المس بيل والمستر فيلي ليتأكد منها ان هذا العمل سيرضي السريبرسي كوكس ، وقال لها انه لا يعرف من هي الحكومة العربية وانما يعرف كوكس وحده . وتذكر المس بيل كذلك انه حضر يوماً مع سائر شيوخ الدليم للسلام على الملك فيصل الأول عند أول زيارته للرمادي ، وكانت المس بيل نفسها حاضرة ، وحينما تكلم فيصل ينصح الشيوخ بالالتفاف حول الحكومة العراقية الجديدة أجابه فهد يقول « نحن معك طالما كنت مع الانكليز » .

(٢) جاء في (دليل الجزيرة العربية) أن الدليم هم قبائل ذات دم مختلط ، وتشير رواياتهم الى أنهم جاءوا من نجد الى بادية الشام . فقد جاء جدهم ثامر ، وأخوه جبار جد الحبور ، بمعرفة دليل صلبلي فاستولوا على آبار « المحيور » في وادي حوران . وهم يتجولون في البادية الممتدة في جانبي الفرات من الفلوجة الى عانة تقريباً ، فيشتركون بالقسم الشرقي من بادية الشام مع العمارات =

الحكومة البريطانية ، وأعرب فهد بك بن هذال شيخ مشايخ عنزة عن تأهبه لمساعدتنا ، ثم وعد شيوخ شمر جربا الدليم بالتعاون معهم .

وكان الامير فيصل يومذاك في باريس ، لكنه عندما أخبر بالحركات التي جرت في دير الزور أبرق الى أخيه ، ووكيله في دمشق ، الامير زيد مستنكراً بلهجة شديدة ما فعله رمضان الشلاش وطالباً الى الموظفين العرب الانسحاب من دير الزور . وكتب بالاضافة الى ذلك ان جميع الذين كانوا مسؤولين عما حدث سوف يعاقبون بشدة ويعتبرون بحكم الثوار . فرمت طياراتنا هذه الرسالة في الدير بتاريخ ٢٢ كانون الاول مع كتاب من قائدنا العام يُطلب فيه من رمضان الشلاش ان يبعث الضباط البريطانيين ومن كان في معيهم من الرجال الى البوكمال سالمين ، والا تتخذ الاجراءات ضد دير الزور . وكان رمضان بلا ريب على علم بأن الاستيلاء على دير الزور لا يمكن ان يُبرر ، مع انه كان يبني ذلك على قوله ان الدير كانت قد اعطيت الى الحكومة العربية في مؤتمر الصلح . ومما لا ينكر انه كان قلقاً كذلك مما قد يصدر من الاتراك من حركة ، وكان قلقه ذاك شيئاً طبيعياً بالنظر لانه كان من الفارين من الجيش العثماني . حيث انه قال

= (عنزة) الذين يحالفونهم محالفة وثيقة . ولا يعد الدليم من العشائر التي تربى الابل ، حيث ان ما عندهم منها لا يزيد الا قليلا على ما يحتاجونه لأنفسهم . وهم يخاضعون شمر الجزيرة ، ويختلفون دائماً مع القبائل الشيعية مثل بني حسن الذين ترعى أغنامهم في البادية المحيطة بكر بلا . كما أنهم لصوص معروفون حيث أنهم كانوا يقلقون على الدوام طريق الفرات العام ويسلبون القوافل غير المحمية فيه . ولذلك أدبهم ناظم باشا بشدة سنة ١٩١٠ فاستطاع المسافرون والتجار خلال مدة حكمه القصيرة ان يسافروا بأمان .

وكانت لعلي السليمان ، شيخ مشايخ الدليم ، صداقة مع الوالي جمال باشا الذي أعقب ناظم باشا في الولاية فظل يحظى برعاية الحكومة العثمانية والتفاتها . وهو يملك داراً وبساتين في الرمادي ، ولذلك يمكن ارغامه على السلوك الحسن . وهو رجل لا يتصف بالكثير من الذكاء ، ويفضل الحياة الهادئة والتمتع بالمنزلة التي ورثها عن أبيه سليمان الشرقي الذي كان من الشخصيات المرموقة في العراق .. ونقول علاوة على ذلك أنه انحاز الى الانكليز حالما احتلوا العراق وخل مثل صديقه فهد هذال منحازاً اليهم ومستفيداً منهم طوال مدة وجودهم فيه .

للكابتن كامير في ١٩ كانون الاول بأن الاتراك كانوا يتحشدون في رأس العين ، وأنه لم يكن يرغب في محاربة الحكومة البريطانية ، ثم تساءل فيما اذا كنا سنمده بالمال في حالة إغارة الاتراك عليه . وقد عومل الكابتن كامير خلال مدة أسره من قبل رمضان معاملة طيبة من دون انقطاع .

وفي ٢١ كانون الاول وصل من حلب ضابطان عريان هما رؤوف بك وتوفيق بك^١ ، وكان الاخير مرافقاً لجعفر باشا^٢ حاكم حلب العسكري . وكان رؤوف بك يحمل كتاباً من جعفر الى الكابتن كامير ، ولم يُسمح بأبصاله اليه الا بعد يومين من وصول الضابطين . وقد طلب جعفر فيه الى الضابط البريطاني ان يتشاور مع رؤوف حول أنجع الطرق التي تؤدي الى المحافظة على الأمن . وكان مما صرح به رؤوف الى الكابتن انه مزود بتعليمات في عزل رمضان من منصبه كقائم مقام في الرقة وبارساله مخفوراً الى حلب . لكنه بالنظر لان ممثلي الحكومة العربية لم تكن عندهما القوة الضرورية لتنفيذ التعليمات ولما كان رمضان وحده هو الذي كان يحول بين الضباط البريطانيين وبين تعصب القبائل المحلية اقترح الكابتن تأجيل عمل شيء وذهاب الملازم توفيق مع احد الضباط البريطانيين الى البوكمال للمذاكرة مع السلطات البريطانية . فصادف ذلك وجود الحاكم الملكي العام في البوكمال ، فأخبره الملازم توفيق ان رمضان الشلاش قد خلع عن نفسه ولاء الحكومة العربية . وطلب الملازم توفيق من الادارة البريطانية إخراجهم ، لكنه أُجيب بأننا لم نكن في يوم من الايام راغبين في التمسك بدير الزور الا لحفظ الامن ، ولما كان رمضان هو الذي سبب حالة الفوضى هذه فان من واجب الحكومة العربية إصلاح الوضع . وكانت أوامر حكومة صاحب الجلالة في هذا الوقت قد وصلت بانسحابنا الى الحابور ، فأعطي الملازم توفيق كتاباً الى رمضان مآله ان الاتفاقية بين الحكومتين

(١) أي رؤوف الكبيسي وتوفيق الدملوجي .

(٢) أي جعفر باشا العسكري .

العربية والبريطانية تنص على جعل الخابور حدوداً مؤقتة ، وان هذه الحدود ستكون موضع اعتبارنا . فوعد الملازم توفيق ان يبذل جهده في اقناع رمضان بالانصياع الى قرار السلطات العليا هذا . وكذلك أسقط كتاب بنفس المال من الطائرة في دير الزور ، وقد أخبر فيه رمضان كذلك بأن الضباط البريطانيين وغيرهم من الرجال اذا ما سلموا سالمين في البوكمال خلال ٤٨ ساعة فان الدير سوف لا تُمس بشيء . فأطلق سراح الأسرى في ٢٥ كانون الاول وتركوا بعد ان قبلوا التطمينات بأن سكان البلدة المسيحيين سوف لا يمسون بأذى . لكن الحكومة العربية في الشام احتجت برقياً الى القاهرة في ١٢ كانون الثاني على حدود الخابور المؤقتة ، مقدمة نفس الحجة التي قدمت من بغداد قبل ستة أشهر ، وهي حجة تقسيم الوحدات العشائرية . فطلبوا إدخال ميادين والبوكمال في المنطقة العربية . غير أن الاساليب التي اتبعها رمضان الشلاش كانت على جانب اكبر من الصراحة . فقد تحدى منذ البداية أوامر الامير فيصل ، وصرح بوجوب انسحاب البريطانيين الى وادي حوران الواقع على بعد خمسين ميلاً من جنوب عانة وادعى ان هذه الحدود كانت هي الحدود التي عينها مؤتمر الصلح . وأعلن عن نواياه عرضاً بتوسعه الى الموصل . وجبى الضرائب بقدر ما يمكنه ذلك من الاهالي في داخل الحدود البريطانية ، ثم شجع القبائل على السلب والغزو ، كما بعث رسائل تهديدية الى الحكام السياسيين في البوكمال وكتباً حماسية مهيجة الى شيوخ المناطق البريطانية . لكنه تسلم ردوداً غير مشجعة على هذه الكتب ، الا انه صادف نجاحاً اكبر في مساعيه التي بذلها لاثارة فروع العقيدات التي التي انضمت اليه . حيث ان مطعم السلب غير المحدود وقطع الطرق كان يروق لأذواقهم ، وكانوا على درجة من الاستعداد بحيث كانوا يضربون على اية نغمة سواء أكانت دينية أو سياسية ، تبرر السلب . على ان الوضع كان ينظر اليه تجار بغداد من ناحية مختلفة ، اولئك التجار الذين كانوا منشغلين في شراء الذهب من سورية ونقله الى العراق بأرباح مفرطة . وكانت قصصهم التي تروى عن مخاطر الطريق والخسائر التي تعرضوا اليها تنتهي عادة بوصف امتنانهم القلبي

للحالة الآمنة بعد وصولهم الى البوكمال ، حيث توجد الحامية البريطانية ومعها السلم والهدوء .

وقد نقلت الطائرات الى ميادين ودير الزور الاحتجاجات الرسمية ضد الاعمال العدوانية التي كان يرتكبها رمضان . فانذر بأنه اذا استمر على اجتياز الحدود في المنطقة البريطانية فان القائد العام سيضطر الى اتخاذ تدابير مقابلة ، وان أية اعتراضات لديه حول الحدود يمكنه ان يعرضها على حكومته التي كانت داخلة في مباحثات ودية مع الحكومات المختصة . لكنه أجاب منكرأً إنجباره بالاتفاقية التي تم الاتفاق عليها ، ثم



مولود باشا مخلص

أعقب التهديدات التي أنهى بها كتابه باغارة قبائله على البوكمال في يوم ١١ كانون الثاني ، فدخلت القبائل ضواحي البلدة ونهبت بيوت العرب الذين كانوا في خدمة البريطانيين واستباحوا نساءهم . ولم تتحسن الاحوال بعد ان غادر رمضان دير الزور الى حلب وعين في مكانه مولود باشا الخلف الذي سبق له ان كان قائداً لاحدى الفرق في الشام . وكان مولود العراقي الموصل كسلفه عضواً بارزاً في العهد العراقي . وكانت أول خطوة

اتخذها بعد ان تولى القيادة في دير الزور ان كتب الى القائد العام في العراق

(١) أي مولود مخلص باشا الذي كان ما يزال يومذاك يشغل في حكومة الملك فيصل في الشام ، هو وغيره من رجالات الحكم المعروفين في العراق بعد ذلك .

ينخبره بأن حدود الخابور لا يمكن مراعاتها لاسباب عشائرية ويطلب الانسحاب العاجل الى وادي حوران - وهذا تدبير آخر يخضع لنفس الاعراض لانه يتضمن انقسام قبيلة الدليم انقساماً اعتبارياً .

ولم يكن من الممكن الجواب على كتب كهذه بغير ما كتب في السابق الى رمضان ، وهو ان الحدود جرى الاتفاق عليها بصورة مؤقتة في أوربة ولا يمكن البحث فيها الا بالطرق الدبلوماسية الاعتيادية . فعززت القوة في البوكمال ، ولتخاشي الاحتكاك غير الضروري وحقن الدماء لم يجر احتلال المنطقة التي تمتد الى الخابور . وتمادينا في افراض ان الحكومة العربية لم تكن مسؤولة عما فعله ضباطها وان حالة الحرب غير موجودة بين الحكومتين ، لكن ذلك كان افراضاً تصعب مراعاته ، لأن مولوداً كان منهمكاً في الدعاية المناوئة الفعالة كما كان سلفه . وقد وصلت كتبه الى الشيوخ في جميع الانحاء حتى الى العمارة في الجنوب ، والظاهر انه كان مزوداً بالمال الكافي الذي كان يوزعه على رؤساء العشائر ممن كان يعتقد بمقدرتهم على احداث القلاقل في داخل منطقة احتلالنا . ولا ريب ان تحملنا هذا قد ضغط على ولاء مؤيدينا الذين كانوا لا يستطيعون ان يفهموا لماذا لا تقوم الحكومة البريطانية بانزال ضربتها بعدو تافه مثل مولود وحفنة من أتباعه السلايين ، ولماذا لم تمتد اولئك الموجودين في داخل منطقة احتلالنا بالعون والحماية وهم على استعداد للوقوف بجانبنا اذا طمناهم على حمايتهم ضد الانتقام منهم . ولأجل تثبيت هذا الوضع تقدمنا في نهاية كانون الثاني الى الصالحية الكائنة في منتصف الطريق بين البوكمال والخابور . فاتخذ مولود من هذه الحركة حجة للقيام بحركات عدائية جديدة مصرحاً بأنه غير قادر على كبح هياج القبائل . وعلى هذا الأساس هاجمت القبائل البوكمال بقيادة ضابط عربي في منتصف شهر شباط ، بينما تعرضت خطوط المواصلات البريطانية جنوباً حتى القائم الى غارات مستمرة .

وقد أخبرنا بأن مولوداً ترك الى حلب قبل الهجوم على البوكمال ، لكن القائد العام بعث اليه او الى وكيله الرسالة التالية في ٢٠ شباط :

« اكتب لأبين لكم أن قوة تعود اليكم قد احتلت ميادين ووقعت القلاقل في المنطقة الممتدة الى النهر في جنوب ذلك المكان ، ويمكنني ان استنتج من لهجة كتابكم اليّ ومن ادلة اخرى ان هذه الحركة قد وقعت بتحريض منكم او من اشخاص آخرين يخضعون لأوامركم ، وقد تم هذا برغم ان الحدود الموقفة التي عينتها الحكومتان تعبر النهر فوق ميادين ، لكنني اوعزت لجيشي بعدم مهاجمة ميادين واعادة احتلالها برغم ان ذلك المكان داخل في المنطقة التي امرتني حكومتي بالاحتفاظ بها والمحافظة على الامن فيها لاننا لا نرغب في خلق حالة حرب بين الحكومتين البريطانية والعربية . ورغبتى الوحيدة هي المحافظة على السلم والصداقة مع ممثلي الحكومة العربية ، والمحافظة على الامن داخل منطقة احتلال جيوشي ثم التعاون معكم للغرض نفسه داخل منطقتكم بينما نترك قضايا البلاد والحدود لتحسم بين حكومتينا . على انه ثبت بوضوح ان عشائر تخضع لسيطرتكم وجنوداً تتسلم أجورها بالفعل من الحكومة العربية قد هاجمت قوافل وجنوداً بريطانية في داخل المنطقة التي خصصتها لي حكومة صاحب الجلالة . وعلى هذا فاني اعلمكم بأن ميادين ستهاجم من الجو اذا وقعت اية قلاقل من قبل او بتحريض من العشائر او الجنود الذين يرسلون من دير الزور او من ميادين . وسوف يتعرض أي تحشد تقوم به العشائر لغايات عدوانية في المنطقة الكائنة في اسفل ميادين الى مهاجمتنا له ، واذا ما اطلقت النار على اية طائرة فانها سوف ترد على هذا العمل العدواني بالنار والقنابل . وقد اوعزت لقائد جيشي في الفرات بعدم التعرض بميادين قبل السابع والعشرين منه » .

واخبرت حكومة صاحب الجلالة في الوقت نفسه الشام بأن الحكومة العربية ستكون مسؤولة عن اي اعتداء على الحدود الموقفة قد تقوم به العشائر او الضباط التابعون لمولود ، وان الهبة المالية التي تدفعها بريطانية العظمى الى الحكومة العربية سوف تكون متوقفة على قابلية الحكومة في فرض الامن في البلاد .

على ان تعنيف هؤلاء لم يكن مجدياً مثل ما كان عديم الجدوى مع اسلافهم في هذا الشأن . فقد سمح لرمضان السلاش بالعودة الى دير الزور أو أمر بذلك .

وعاد مولود من حلب مع قوة نظامية صغيرة ، ثم عين عراقي معروف بشعوره المعادي للبريطانيين حاكماً في ميادين . وقد وصلت الى كربلا والنجف من هذين المركزين دعاية ذات صبغة تعصبية .

وبينما كان مولود يحرّض الفراتيين على الجهاد عاد الأمير فيصل من باريس الى الشام . وكان في أوائل مارت قد أرسل كتباً الى القاهرة يعرب فيها عن أسفه لما كان قد وقع في دير الزور مقروناً بتطمين مؤداه انه سوف يتخذ التدابير اللازمة للحيلولة دون وقوع حوادث من هذا القبيل . لكنه أشار الى ان خط الحدود الموقّعة يقطع الأراضي العشائرية بصورة غير طبيعية ، وان ذلك هو الذي يسبب وقوع القلاقل وسوء التفاهم . ثم اقترح بناء على هذا تعيين لجنة مختلطة تتألف من اعضاء بريطانيين وعرب لتعديل الترتيبات التي كان الفريقان قد توصلا اليها في كانون الثاني . فوافقت السلطات البريطانية في العراق على هذا الاقتراح على الفور في الوقت الذي كان موقف مولود مخلص يبدو انسه أصبح اكثر تعقلاً . وقد استدعي رمضان السلاش ، وكان قد عاد الى مدائن ، الى دير الزور بناء على طلب من القائد العام وهناك اختلف مع مولود وعاد الى قبيلته في تبني الكائنة فوق الدير . وفي اوائل مايس أرجع الموقع الأمامي البريطاني الى البوكمال بعد ان فرضت الغرامات والأتاوى على القبائل المعادية حول الصالحية .

وقبل ان يعقد الاجتماع في الفرات اجتمع المؤتمر السوري في الشام ونادى بفيصل ملكاً على سورية في يوم ١١ مارت ، كما اجتمعت هيئة أخرى قصد بها ان تكون ممثلة للعراق لأنها كانت تضم الضباط العراقيين الموجودين في سورية فعينت أخاه الشريف عبد الله أميراً على العراق . وكان العراقيون الموجودون في جيش فيصل ، الذين كانوا أساس التحريكات الوطنية ، يجدون انفسهم بلا شك في وضع صعب في سورية . فقد كان السوريون يظهرون ميلاً متزايداً الى المطالبة لأنفسهم بالمناصب المهمة التي كان يشغلها أناس يعتبرونهم أجانب عنهم ، كما كان العراقيون يجدون ان نفوذهم في سورية أخذ يتضاءل من دون

ان يكون لهم أمل في قبول خدماتهم في بلادهم اذا ما عهد الى الحكومة البريطانية بالانتداب عليها . وعلى ذلك كان يبدو لهم ان عراقاً متحرراً من السيطرة البريطانية هو الأمل الوحيد الذي تنفتح لهم فيه أبواب المناصب .

وقد جرى الاجتماع الذي اقترحه الامير فيصل في العشرة الواقعة على بعد خمسة عشر ميلاً من جنوب صدر الخابور بتاريخ ٥ مايس . وادعى مولود بانحراف صحته فمثله في الاجتماع ضابطان من الجيش العربي . فحصل الاتفاق على وجوب عودة البوكمال الى متصرفية دير الزور التي كانت تابعة لها من قبل ، ثم عينت الحدود بصورة مؤقتة فوق القائم مباشرة أي على بعد ٧٠ ميلاً من جنوب الخابور وخمسين ميلاً من شمال عانة . وقد أبلغت وزارة خارجية الدولة العربية في الشام الفيلد المارشال اللورد اللوبي ان إخلاء الجنود البريطانيين لالبوكمال كان له وقع حسن جداً في نفس الحكومة العربية ، وان ذلك سيعتبره أهالي سورية دليلاً على حسن النية والصداقة لدى حكومة صاحب الجلالة ، لكن روحية كهذه لم تظهر في جهات الفرات . لان الغارات العشائرية والهجمات التي كانت تشن على القوافل بقيت مستمرة من دون رادع يردعها ، وظلت مصحوبة بدعاية سياسية من اشد الانواع واكثرها تهديداً ، وبطلبات تدعو الى زحزحة الحدود الى وادي حوران . فأخبر فيصل من جديد بوضع حكومة صاحب الجلالة هذا ، ثم أُنذِر بأن الغارات والغزوات اذا ما استمرت في أسفل الحدود المتفق عليها فاننا سنحتفظ لأنفسنا بالحق في اتخاذ تدابير مقابلة .

سقوط تلعفر وتهديد الموصل

ان استعداد الادارة البريطانية للنزول عند رغبة الحكومة العربية ، والانصياع الى اي مقترح ينبعث منه أمل معقول في تطمين ادعاءاتها في الفرات ، قد أسقطته من الحساب جمعية العهد العراقية - ووكلائها - حينما لاحظت صعوبة الواضحة في المحافظة على خط مواصلاتنا الطويل ضد هجمات القوات غير النظامية عليه . ثم اعتبرت موقفنا الاسترضائي المسالم دليلاً على ضعفنا

العسكري ، وعلى هذه الشاكلة كان موقفنا هذا شيئاً محفزاً وليس مهدئاً لها . وكانت كتابات الصحافة السورية المحلية عن المناوشات التي جرت معنا ، مهما كانت لهجتها غير معقولة ، تقابل بالتصديق من الجميع . فقد كتبت تقول ان الجيش البريطاني طرد من دير الزور ، وان القوات العربية قد أجبرته على إخلاء البوكمال ، وانه ينتظر الضربة الاخيرة التي سوف تنزل به في عانة على يد الامير عبد الله وقوته التي لا تقهر . وفي الوقت الذي كانت هذه الاشاعات تتردد في مقاهي بغداد بدأ العمل في البادية .

فلم يكن شمر الجزيرة ، قطاع الطرق الوراثيون في طريق الموصل ، يحتاجون الا الى قليل من التشجيع ليعودوا الى أعمالهم التقليدية في هذا المضمار . وقد انضمت اليهم فروع الدليم الشمالية النازلة على الفرات . وفي شهر مارت بدأت تشن غارات^١ صغيرة على سكة حديد بغداد - الموصل وطريقها . وفي ٢١ نيسان وصلت الى الموصل عن طريق دير الزور أول قافلة^٢ من حلب ، فدخلت ووصلها هذا حلول فترة جديدة مليئة بالشغب والفتن في الموصل نفسها . فقد عقدت الاجتماعات الوطنية وعلقت على الجدران في الليل الاعلانات المناوئة للبريطانيين وهي تحمل ختم جمعية العهد العراقية . كما ازدادت الغارات على خطوط مواصلاتنا وبلغت ذروتها في ٢٤ ميس بحرق القطار فيما يقرب من عين الدبس^٣ ، فكانت جميع المعلومات تدل على قرب وقوع هجوم على

(١) كانت القبائل التي اشتركت في شن الغارات على سكة حديد بغداد - الموصل ، الى جانب شمر ، جماعة نجرس الكعود من الدليم الشماليين ، وقبيلة ابو حمد التي أغارت على طريق الشرقاط - حمام العليل . فسلبت الكثير من البغال والخيول العائدة للبريطانيين . وفي خلافة شهر ميس شنت القبائل هجوماً على طريق السكة الكائن بين بيجي وحمام العليل فنمت غنائم أخرى . وكانت القبائل التي اشتركت في هذا الهجوم تتألف من العكيدات برئاسة مشرف الدندل ، والبو محل برئاسة المغير بن عفان الشرجي ، والبو نمر ، والجغايفة .

(٢) تقصد المؤلف أول وجبة من العراقيين ، الضباط وغيرهم ، الذين عادوا الى وطنهم بعد

الحرب .

(٣) تقع عين الدبس في جنوب الشرقاط بالقرب من البلايج . وملخص الحادث ان مجموعة من =



جميل بك المدفعي باللباس العسكري

الموصل ، ثم وصلت الاخبار
منبئة بوقوع تحشيدات في الفدغمي ،
على الحابور بقيادة جميل بك^١
احد الضباط الموصلين في
الحيش السوري العربي . وقد
قيل انه كان ينقل العتاد بواسطة
الحابور من المناطق التركية ،
كما دلت الكتب التي وقعت في
أيدينا بعد ذلك بأنه كان على اتصال
وثيق بقائمقام^٢ جزيرة ابن عمر
السابق . حيث ان هذا القائمقام
كان من الدعاة المعروفين الذين
كانوا يبثون الدعاية المعادية
لنا ، وكان نشاطه بين القبائل

= المقاتلين الذين نظمهم حزب العهد العراقي في دير الزور ، باشراف مولود مخلص ، أو عزها
بالتعرض لسكة حديد بغداد - الموصل فوصلت الى عين الدبس في ٢٤ ايار ١٩٢٠ . واستطاعت
هناك ان ترفع قضبان سكة الحديد وتقلب أحد القطارات المحملة الصاعدة من بغداد فتفتم ما فيه وتحرق
قارنرته . وكان يقود المجموعة الشيخ فهد البطيخ من رؤساء شمر طوقة في لواء الكوت ، وكان قد
انسحب عند مجيء الانكليز فالتحق بالجيش العربي في الشام ، كما كان معه الاستاذ محمد فتیان
الراوي الذي كان يومذاك اماماً عسكرياً في (لواء الفتح للخيالة) المرابط في حلب .

(١) أي جميل بك المدفعي . هذا ويفهم مما نشر في الصحف عن حملة تلغفر هذه أنها كانت
تتألف من أربع سرايا يقودها أربعة من الضباط العراقيين المعروفين وهم : محمود نديم السنوي ،
ومحمود أديب ، وسليم الجراح ، ومصطفى شوقي آل سلمان . وكان في الحملة ضباط آخرون من
ابناء الموصل عرفوا بوطنيتهم ونشاطهم فيما بعد من مثل محمد علي سعيد ، ورؤوف الشهباني ،
ومحمود ابراهيم الشهباني ، ويونس عبد الله ، وفائق بابان ، وحسن السليمان ، وحلمي البيطر ،
وعلي غالب البيطر ، وعبد الله صالح .

(٢) كان قائمقام جزيرة ابن عمر التركي في وقت نشوب الثورة في تلغفر حماد بك بن سلطان
محمد أمين الملحم ، وقد التجأ اليه بعض الثوار العراقيين بعد فشل الثورة فأحسن لقاءهم .

الكردية موضع احتجاج رسمي قدم الى الجهات التركية . وعلى هذا الاساس اخرجته الحكومة التركية في استانبول من الوظيفة ، لكنه استمر على قيامه بالواجب .

وفي يوم ٢ حزيران كتب معاون الحاكم السياسي يقول أن اجتماعاً وطنياً قد عقد في تلعفر ، القرية المنعزلة في غرب الموصل التي يسكنها خليط من الاكراد والتركمان والعرب . وبعد يومين دخلتها خيالة القبائل المحيطة بها ، فكان ذلك بمثابة اشارة تدل على وقوع الثورة . فقد وضعت خطة المؤامرة بعناية ، وكان في نية جميل بك ان يقضي الدرك الموجود هناك على جميع الضباط والموظفين البريطانيين قبل وصوله الى تلعفر ، ومع ان وجوه البلدة وسكانها لم يشتركوا في قتل الضباط فقد كانوا على علم بما كان يجري هناك . فقتل ضابط الدرك الكابتن ستبوارت من قبل الضباط^١ التابعين اليه . ثم حصر الموظفون البريطانيون الثلاثة الباقون ، وهم مدرب وكاتب وجندي رشاش ، في سطح الدار التي كانوا فيها حتى وصلت عصابة جميل وعندئذ قتلوا بقبيلة هناك . كما قبض على الكابتن بارلو^٢ معاون الحاكم السياسي الذي كان يتجول في المنطقة وجيء به الى تلعفر . وعندما قارب البلدة أبصر من بعيد سيارتين مصفحتين كانتا قد ارسلتا من الموصل للاستطلاع ، فحاول الفرار للحاق بهما غير انه اطلق عليه الرصاص فقتل ثم اختبأ قسم من قوة جميل في كمين للسيارتين فانقضت عليهما القوة وقتل من كان فيهما من دون أن يسلم منهم احد .

وكان سقوط تلعفر اشارة الى القبائل بقيام الثورة . فقد كانت شمر وقبائل الحدود الاخرى مشتركة في المؤامرة . وانجرفت القبائل^٣ شبه المستوطنة الأخرى

(١) قتله ضابط درك موصل كان يشتغل في معيته ، يدعى الملازم محمد علي الحاج حسين النعيلند .

(٢) وجدنا في قائمة أرنولد ويلسن ان الميجر (لا الكابتن) جي أي بارلو عين معاون حاكم

سياسي في تلعفر بتاريخ ٥ / ١ / ١٩٢٠ .

(٣) ان أهم القبائل التي اشتركت في حملة تلعفر كانت شمر برئاسة عجيل الياور ، والجبور =

مع التيار فهو جمت القرى اليزيدية والمسيحية الكاثنة في الجانب الشرقي من دجلة وتكررت الغارات على سكة الحديد والطرق ، لكن المغيرين في كل مرة كانوا يصدون ويتكبدون خسائر لا يستهان بها . وقبل ان يسمح الوقت لجميل بالتحشد استعداداً للزحف على الموصل فوجيء برتل بريطاني ففر مع ضباطه الى ديسر الزور . ثم تفرقت القبائل من غير مقاومة تذكر فاحتلت تلعفر مفرزة قوية من الجنود واعيدت الادارة المدنية اليها ثم عوقب المشتركون بالاضطرابات عقاباً كافياً . وقد نخست السهولة التي تفرق فيها الثوار فقاعة الفتنة في الموصل حيث كانت تعلق اهمية كبيرة في الفتنة على ضعف الحكومة البريطانية بالنظر لما كان يزعم من عدم أهمية الحامية ونقص الذخيرة والعتاد . لكن الضربة المقابلة لو لم تكن سريعة وموفقة معاً لغطست المدينة والولاية بأجمعها في عباب الفوضى ولتعرضت الاقليات المسيحية الكبيرة الى خطر كبير .

وعندما وصلت أنباء هذه الحوادث الى الشام اعربت الحكومة العربية برقية برقية الى المندوب السامي عن أسفها لاحتراق القطار وتنصلت تنصلاً تاماً عما قام به العراقيون المتطرفون . واستطرد رئيس الوزارة الذي وقع على البرقية قائلاً ان رمضان الشلاش استدعي الى الشام وقدم تظمينات بأن الحكومة السورية بوسعها ان تتخذ جميع التدابير الممكنة لمنع وقوع الحركات الثورية . وفي اوائل تموز نقل مولود باشا من دير الزور وعين في محله موظف ذو آراء معتدلة .

= برئاسة مسلط باشا الملحم ، والجيش برئاسة صالح أحمد الخضير ، وطبي ، والكركرية برئاسة سليمان آغا آل سعدون ، والبومتيوت ، والبو حمد ، والحسينان (عشيرة كردية) برئاسة الحاج عبد العزيز . و اشترك كذلك العوجان برئاسة سلمو الخليف .
اما بالنسبة لمهاجمة القرى المسيحية واليزيدية ، فان بعض القبائل التي لم تكن تابعة للحملة استغلت الفرصة فعبرت دجلة من جهات زمار ، وشنت غارات على بعض قرى القوش والشيخان ، ثم عادت الى أماكنها .

الحركة الوطنية في بغداد

لكن مركز اندعاية قد انتقل قبل هذا من سورية والقرات الى بغداد . حيث ان العنصر الناقم الذي كان يتألف من موظفي العهد التركي الزائل قد ازداد عدده خلال الثمانية عشر شهراً التي مرت على بداية عهد الهدنة . وكان بينهم موظفون كانوا قد أسهموا في أعمال الجيش العربي وشاهدوا مجرى الحوادث في سورية . وسواء أكانوا مبالغين للاتراك ام للعرب فانهم كانوا يناوئون السيطرة الاجنبية على كل حال . وكانوا يتقاضون في ظل الادارة البريطانية قسماً من تقاعدهم لا يقل عن رבעه ، وفي بعض الحالات عن جميع التقاعد الذي كانوا سيستحقونه لقاء خدماتهم فيما لو استمر وجود الحكومة العثمانية . ولم يكن دفع التقاعد اليهم شيئاً إلزامياً معترفاً به في البلاد المحتلة الأخرى ، وكان هؤلاء في العراق والحالة هذه أحسن حالاً من زملائهم في فلسطين ، لكن المبلغ الذي كانوا يتقاضونه كان مبلغاً زهيداً لا يمكنهم من تقويم إودهم بالنسبة للارتفاع العام في اسعار الحاجيات . وكان يمكن ان تحل المشكلة الناجمة عن وضعهم هذا حلاً جزئياً لو كان في الامكان تأسيس جيش وطني ، يمكن ان يجدوا فيه مجالاً للاستخدام ، بصرف النظر عن تأخر عقد الصلح مع تركية ومنح الانتداب لاحدى الدول كما حدث في سورية تحت ظروف مختلفة تماماً . ولاغرو فان المقابلة بين الولاياتين العربيتين المتحررتين من ربة الحكم التركي كانت تعطي شيئاً من الاهمية لتذمرات الناقمين ، الذين أدت بهم نقتهم الى عدم تصديق ما كان في البيانات والتصريحات الرسمية من صحة . فانهم كانوا يصرحون عند المناقشة بان تأسيس الدولة السورية كان سببه نجاح الثورة العربية وان الحصول على الشيء نفسه في العراق لا يمكن ان يتم الا بالالتجاء الى السلاح ايضاً . وهكذا كان اجتهاد المنهج السيامي الخاطيء لجمعية العهد العراقية^١ ،

(١) يرجع تاريخ تأسيس « جمعية العهد » الى ما قبل الحرب العالمية الاولى ، حين أقام فريق من شباب العرب الواعي في استانبول ، يرأسهم عزيز علي المصري ، على تأسيس جمعية سرية تسمى =

وقد تأصلت جذوره كلما اتضح للناس ضعف الحماية البريطانية .

= الى تحقيق الاستقلال الداخلي للبلاد العربية المرتبطة بالدولة العثمانية . وكان معظم أعضاء هذه الجمعية من الضباط السوريين والعراقيين ومن غير الضباط ، ومن انتمى اليها من العراقيين ياسين الهاشمي ومولود مخلص وجميل المدفعي ونوري السعيد وطه الهاشمي واسماعيل الصفار وعلي جودت الايوبي وعبد الله الدليمي وعلي رضا الغزالي وأمين لطفي الحافظ وجعفر العسكري وناجي السويدي وتوفيق السويدي وشريف العمري وابراهيم كمال وعبد الله الدمولوجي وثابت عبد النور وأمين العمري وتحسين العسكري وعبد الرزاق منير والدكتور حسين حسني . غير أن حكومة الاتحاديين في استانبول سرعان ما اكتشفت أمر هذه الجمعية ، فقررت في أوائل ١٩١٤ تشييت أعضائها والتنكيل بهم .

وحينما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، واشتركت الدولة العثمانية فيها ، توقفت أعمال الجمعية تماماً وتفرق أعضاؤها ، غير أن الأعضاء من الضباط العراقيين الذين انضموا الى الثورة العربية الكبرى في الحجاز اجتمعوا في شتاء ١٩١٧ - ١٨ ، حين كانت حركات الجيش العربي تجري بالقرب من معان بقيادة الأمير فيصل ، وقرروا تأسيسها من جديد فسموها « جمعية العهد العراقي » ، وجعلوا من أهدافها الأولى العمل على استقلال العراق من السيطرة الأجنبية واتحاده مع سورية في ظل أسرة الملك حسين الهاشمية الحاكمة . وعند تأسيس الدولة العربية في الشام جعل مقر الجمعية فيها ، وأخذت تستأنف أعمالها برئاسة ياسين الهاشمي لتحقيق الغرض الذي تأسست من أجله . وكان من أبرز أعمالها النشاط الذي أبدته في دير الزور وغيرها بالشكل الذي تذكره المس بيل في هذا الكتاب ، والحملة التي سبقت الى تلعفر بقيادة جميل المدفعي فاحتلتها .

وقد تأسس للجمعية فرعان : أحدهما في الموصل برئاسة الاستاذ محمد رؤوف الغلامي ، والثاني في بغداد برئاسة الشيخ سعيد النقشبندي . وكان فرع الموصل على جانب كبير من النشاط والاستعداد للعمل ، وعلى اتصال دائم بمقر الجمعية العام في دمشق فضلاً عن اتصاله المستديم بالعشائر والجهات المعنية بالحركة الوطنية . وكان مما فعله المقر العام في الشام في تهيئة الجو للثورة في العراق ، عدا حملة تلعفر ، ترأسه مع شيوخ العشائر وعلماء الدين وغيرهم في هذه البلاد وحثهم على القيام في وجه الانكليز ، فضلاً عن ايصال صوت العراق الى حكومات الحلفاء والمحافل الدولية وتبيان ما كانت تقترفه سلطات الاحتلال من تشدد وأعمال تعسفية تناقض في روحها الوعود التي قطعتها على نفسها عند أول احتلالها للبلاد . لكن أعضاء فرع بغداد اختلفوا فيما بينهم ، فانفصلت عنه جماعة فعالة من الشباب وأسست في أواخر شباط ١٩١٩ جمعية « حرس الاستقلال » السرية بالاتفاق مع جماعة أخرى من المشتغلين بالحركة الوطنية أيضاً . وقد حاولت الجمعيتان العمل سوية فلم يكن التوفيق حليفهما في هذه المحاولة ، وبذلك أخذت جمعية حرس الاستقلال المبادرة بيدها وظلت تعمل وحدها ، كما سيأتي في هامش آخر .

وفي خلال شتاء ١٩١٩ - ٢٠ قام جماعة من شبان بغداد ، ممن كان قسم منهم قد تعلم في استانبول وأوربة ، بحركة تستهدف نشر التعليم على أساس ان الادارة البريطانية لم تُعر هذه الناحية من الخدمة العامة اهتماماً كافياً . وكان هدفهم هذا لا يمكن ان يؤخذوا عليه فجمعوا مبلغاً محدوداً من المال من وجوه بغداد وأثريائهم واسسوا مدرسة^١ ثانوية أهلية في كانون الثاني ١٨٢٩ . وكانت هيأتها التعليمية تتألف من الشبان الوطنيين المتحمسين الذين كانت اكثريتهم من الموظفين السابقين ، وبلغ عدد طلابها ستين الى سبعين طالباً . فكان مستواها أرفع بقليل من مستوى مدارس الحكومة الابتدائية ، لكنها بالنسبة لسيرها كانت شيئاً لا اعتراض عليه ، ولذلك لم تجد الحكومة بأساً من مدها بمنحة مالية عندما طلبت لها بعد ذلك . لكن أهميتها السياسية سرعان ما أصبحت أكثر من أهميتها التعليمية ، وما حل الربيع حتى كانت مقراً للوطنيين المتطرفين .

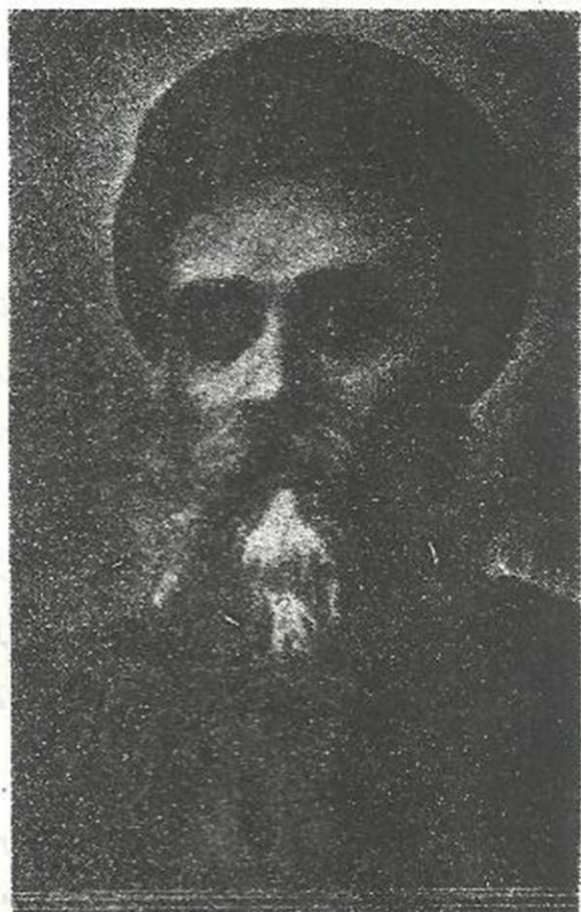
وقد أذيع قبول بريطانية الانتداب على العراق في ٣ مايس . وكان نشر الخبر مقروناً بتفسير لواجبات الدولة المنتدبة أكد فيه على ان الهدف النهائي هو تقدم المؤسسات الحكومية واستقلالها . فأنار ذلك في الوطنيين نشاطاً جديداً . إلا ان فكرة المطالبة بالاستقلال التام الناجز على نمط الاستقلال السوري لم تتقدم كثيراً بين سواد الشعب برغم للعطف الذي كان يبيده تجاهها أفراد الطبقات العليا من الناس الذين كانوا يطمحون الى الاضطلاع بدور بارز في الدولة العربية عند تشكيلها ، وبرغم عطف العاطلين عن العمل الذين كانوا يأملون ان يحصلوا على معيشتهم منها . ولأجل تقريب دعوة المطالبة بالاستقلال التام الناجز الى افهام الرأي العام الجاهل وجد من الضروري الالتجاء الى التعصب الديني . فقد وضحت للوطنيين خلال مدة من الزمن الحاجة الى تكوين جبهة متحدة من الطائفتين الاسلاميتين وتغلبت المساعي بصورة مؤقتة على التعصب الشديد الذي يفرق بين الطائفتين السنية والشيعية ، ثم ظهرت أول

(١) مدرسة التفيض الاهلية المعروفة ، وقد عين السيد علي الباررگان مديراً لها .

أعراض هذا التقارب في صيف ١٩١٩ عندما حضر السنة اجتماعين دينيين عقدا لتأبين المجتهد السيد محمد كاظم اليزدي^١. لكن الاهدية السياسية لهذا التقارب لم تظهر بصورة جلية الا في شهر رمضان الذي بدأ في ١٩ مايس ١٩٢٠. حيث أخذت حفلات « المولد » التي تعقد احتفاءً بولادة النبي تقام في الجوامع السنية والشيعة بالتناوب ، واخذ أبناء الطائفتين يحضرونها بدعوة من المكلفين بالاشراف على هذه الجوامع او من رؤساء « المحصلات » التي تقع فيها . وكانت في بعض الاحيان تعقب قراءة قراءة المولود ، وهي من المراسيم السنية البحتة ، قراءة « التعزية » وهي من المراسيم الشيعة التي تقرأ في تأبين الحسين وتقدیس استشهاده . لكن الطابع البارز على هذه الحفلات الدينية كان في جميع الحالات لقاء الخطب السياسية وإنشاء الشعر الوطني متلوّاً بالمراسيم الدينية المعتادة . ولما كان العربي سريع التأثر بالخطب الرنانة على الانحصر ، فقد أثارت المناشدة المهيبة باسم الدين والوطنية والامير عبد الله ، وكانت تستحثه في التعجيل بتأسيس الدولة المقدسة ، حماسه المتناهية . وقد حدث في إحدى حفلات المولد الاولى ان القى موظف^٢ شاب من موظفي دائرة الاوقاف خطاباً حماسياً اعتبرته السلطات خطراً على الامن العام . فكان توقيفه سبباً في عقد اجتماع كانت الغاية منه إجراء الترتيبات اللازمة لاطلاق سراحه عنوة . ومن اجل هذا ارتوئي ارسال سيارتين مصفحتين تدوران في شوارع المدينة الرئيسية ؛ وعندما هوجمت إحداها اضطرت لاطلاق الرصاص فوق رؤوس الجماهير المحتشدة التي تفرقت بأقصى خفة مستطاعة . وقد قتل بنتيجة ذلك شخص واحد أعمى^٣ سقط عرضاً فدهس.

-
- (١) توفي العلامة اليزدي مساء يوم ٢٧ رجب ١٣٣٧ المصادف ٣٠ نيسان ١٩١٩ ، فانتقلت الرعاية الدينية بعده الى المرزا محمد تقي الشيرازي الذي تزعم الثورة العراقية .
 (٢) وهو السيد عيسى عبد القادر الذي اشتغل موظفاً في مديرية الاوقاف العامة مدة من الزمن ، وقد القى أبياناً من الشعر ليلة ٦ رمضان ١٣٣٨ الموافق ٢٤ مايس ١٩٢٠ .
 (٣) كان المعروف يومذاك أن رجلاً أخرس لا أعمى اسمه عبد الكريم بن رشيد هاجم إحدى =

وكان فادة الحركة^١ ومنظمو حفلات المولد رجال مختلف مبرلتهم الاجتماعية وقابلياتهم وكان اكفأهم واكثر هم قدرة رجالان شيعيان هما السيد محمد الصدر



سماحة السيد محمد الصدر

احد ابناء أسرة شيعية دينية معروفة، وجعفر ابو التمن وهو تابع شيعي. كما كان ابرز السنة في هذا الشأن يوسف افندي السويدي والشيخ أحمد الداود وعلي افندي البازركان.

وقد انذرت هذه الجماعة ولفت نظرها الى ان تعكير السلم والامن سوف لا يسمح به، لكن الادارة المدنية ارتأت من جهة اخرى أنه ليس من المناسب ان تلتجىء الى اتخاذ تدابير متطرفة في الكبيح والارهاق. فسحح لحفلات المولد بان تقام: اما العراقيون

الذين كانوا غير مرتاحين من عقد اجتماعات سياسية في الجوامع فقد كانوا انخبشون

= السيارتين وهي السيارة التي كان فيها الحاكم العسكري بلفور فدهسته، وقد اكبر الناس تضعيته وشيعت جنازته تشييعاً حماسياً.

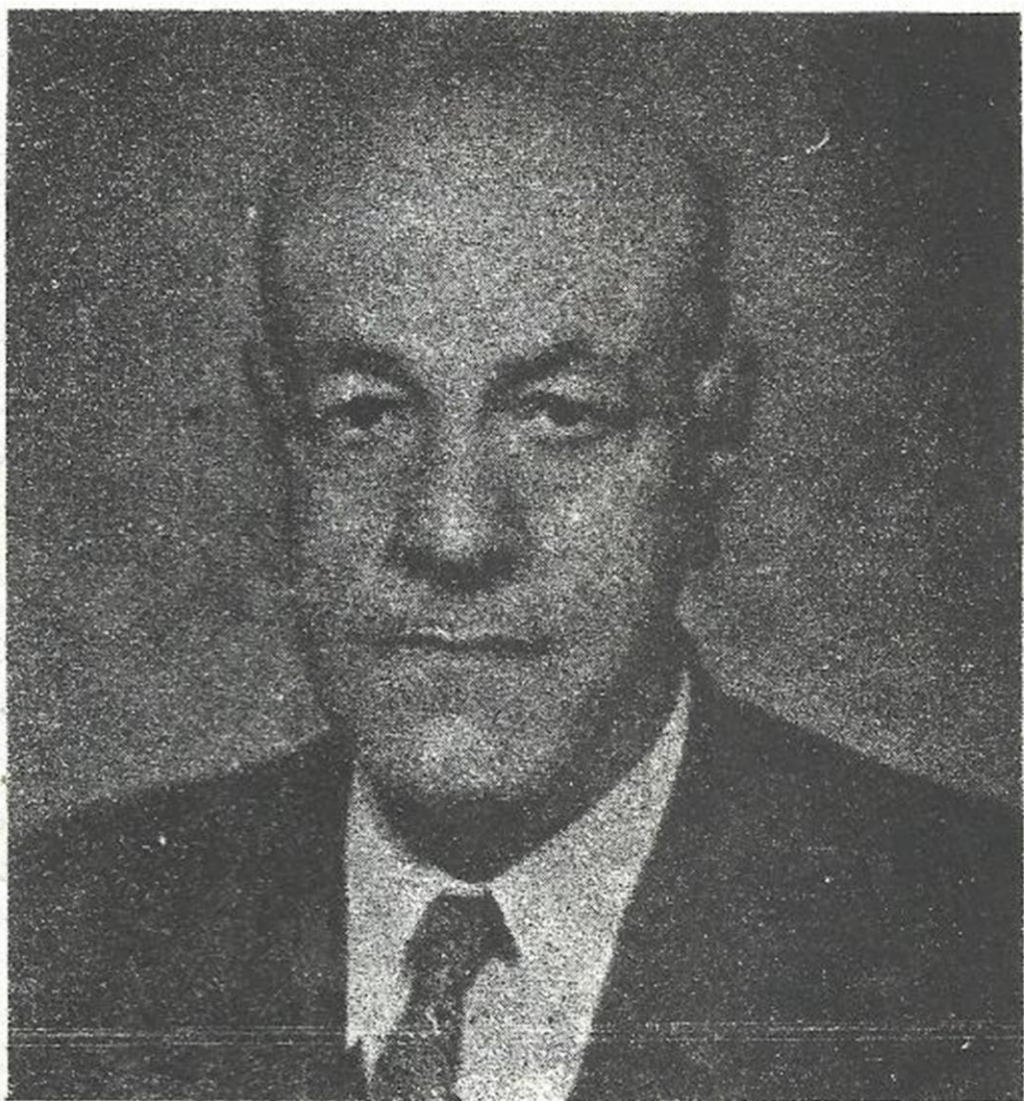
(١) كان يقود الحركة الوطنية في بغداد باديء ذي بدء، عدا الزعماء المعروفين من أمثال جعفر أبي التمن والسيد محمد الصدر ويوسف السويدي وعلي البازركان، جمعيات وكنل مختلفة تعمل بصورة سرية خوفاً من بطش السلطات البريطانية. لكن أول من باشر العمل منها بالاتفاق مع الزعماء المذكورين جمعية العهد العراقي التي كان مقرها العام في الشام، وكان فرعاها المهان في الموصل وبغداد. وقد انشق اعضاء فرع بغداد على أنفسهم: فانفصلت عنه جماعة متحمسة وأسست في أواخر شباط ١٩١٩ (أواخر جمادى الثانية ١٣٣٧) جمعية «حرس الاستقلال» السرية. =

رفض التبرع لتلافي مصاريف هذه الاجتماعات كما كانوا يخشون الانقطاع عن حضورها لتلايعدون من المارقين او من خونة حرية العرب. وكان معلمو المدرسة الاهلية ومدرسوها في الدرجة الاولى يقومون ببث الشائعات عن توقع حدوث الاضطرابات والقلاقل ، فأدى ذلك الى تكرار غلق الدكاكين في الاسواق

= بعد ان اشتركت مع عناصر فعالة أخرى . وبعد ان تعمّرت جمعية الحرس في سيرها في بداية الأمر نشطت للعمل بهمة الاستاذ علي البازركان وصارت تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الزعماء المذكورين فتجتمع في كثير من الأحيان برئاسة السيد محمد الصدر في الكاظمية أو برئاسة جعفر ابي التمن في بغداد . وكان من بين المتحمسين للعمل في هذا الشأن جلال بابان وعارف حكمت وياقر الشيبيني وجعفر الشيبيني والحاج محمود رامز وصادق حبة وأحمد زكي الخياط وأنور النقشلي وسامي النقشلي والحاج محيي السهروردي وشاكر محمود والحاج اسماعيل كنه والشيخ أحمد الداود وصادق البصام وصادق الشهرستاني .

وقد اقترن نشاط جمعية الحرس بتأسيس « المدرسة الأهلية » أو « مدرسة التفيض الأهلية » التي أصبحت مركزاً لهذه الحركة نظراً للنشاط الذي كان يبديه في هذا الشأن الأستاذ علي البازركان مدير المدرسة والعضو البارز في جمعية الحرس في الوقت نفسه . وقد تركّز عمل الجمعية في إقامة حفلات « المولد النبوي » وطبعتها بالطابع الحمامي السياسي ، على النحو الذي تذكره المس بيل في هذا الكتاب . وكانت أبرز حفلات المولد تقام في جامع الحيدرخانة والسيد سلطان علي والكاظمية وجامع الأحمدية والحضرة الكيلانية وغير ذلك . كما كان أشهر شعراء وخطباء هذه الاجتماعات الدكتور محمد مهدي البصير ، والسيد عبد الرزاق الهاشمي وعبد الرحمن البنا ، والملا عثمان الموصللي ، والسيد محمد عبد الحسين ، ومحمد الحداد الكاظمي ، وتوفيق المختار . هذا فضلاً عن مطالبة السلطات المحتلة بحقوق البلاد ورغبتها في نيل الاستقلال التام ، وفي الاتصال بالحركة الوطنية الثورية التي كان يضطلع فيها بنطاق أوسع في الفرات الأوسط علماء الدين الأعلام بزعامة العلامة محمد تقي الشيرازي ، ومن يلوذ به ويتعاون معه من رؤساء القبائل المعروفة وشباب المدن المقدسة ورجالها البارزين . وما يذكر ان حلقة الوصل بين الحركة الوطنية في بغداد والنشاط الثوري الملتهم في الفرات الأوسط كان الأستاذ باقر الشيبيني وأحياناً السيد هادي زوين والشيخ كاطع العوادي الذي كان منتسباً لجمعية الحرس هو ورؤوف الأمين عن الحلة .

وقد ظلت هذه الحركة المتسعة ناشطة للعمل ، وعاملة على الاتصال بجهات العراق الأخرى ، حتى اندلعت نيران الثورة العراقية في الفرات وغيره خلال صيف ١٩٢٠ فتفرق شمل زعماء بغداد والحرسيين والتحق قسم منهم بها . كما نفي قسم آخر منهم الى خارج البلاد ، وانحلت جمعية الحرس بتاريخ ١٣ آب ١٩٢٠ المصادف ٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨ .



الاستاذ علي البازرگان

وتعكير حياة المدينة الاعتيادية . يضاف الى ذلك ان انسحابنا المستمر وتقلص جبهتنا في الفرات الأعلى ، والهجمات التي شنت على تلعفر وعلى طريق الموصل قد ادت كلها الى تقوية الاعتقاد بان وضعنا العسكري كان على درجة من الضعف بحيث لا يمكننا الصمود تجاه القبائل اذا ما امكن تحريضها على الثورة. وفي اوائل حزيران بعث اليها احد شيوخ القبائل القريبة من بغداد المتقلقين بنا يندرننا بخطورة الحال ، كما صرح لنا في الوقت نفسه شيخ مشايخ الدليم في منطقة الفرات : وكان يعطي الدعاية الوطنية اذنأ صماء ، بانه لم يعد يستطيع

كبح جماح قبائله ما لم نصب نجاحاً واضحاً في عدد من القضايا . وقد حدثنا على إعادة احتلال دير الزور ، لكن هذه الخطة على ما فيها من حسنات كانت بعيدة جداً عن قدرتنا على تنفيذها ، وبينما كان يريدونا قلقين حول تقصيرنا في وضع حد للاضطرابات العشائرية ومزعجين من تعرض الوطنيين بهم ، كانت مناقشات مجلس العموم البريطاني ومقالات الجرائد تتخذ من قبل الوطنيين دليلاً على ان الانتداب كان شيئاً غير مقبول في لندن وبغداد .

تقرير المصير

وفي مثل هذه الظروف غير المؤاتية أعلن عن سياستنا المقبلة في البلاد . فان لجنة صغيرة متألّفة من بعض الحكام السياسيين ، يرأسها السكرتير العدلي ، كانت قد وضعت في نيسان خطة لتأسيس المؤسسات الحكومية العربية . وكانت هذه الخطة تقضي بسن دستور مؤقت يوجب تأسيس مجلس دولة يتألف من اعضاء بريطانيين وعرب برئاسة رئيس عربي يعينه المندوب السامي ، ومجلس تشريعي ينتخب اعضاءه الشعب . وكان من المقروض ان يقوم هذا المجلس التشريعي خلال مدة سنتين بوضع قانون اساسي يستهدف استقرار البلاد استقراراً دائماً . ولم يكن وكيل الحاكم الملكي العام^١ يجهل كيفية مقابلة الوطنيين المتطرفين لهذا المشروع . لكنه كان يقصد ان يؤدي اعلان هذه الخطة الى تقوية مركز المعتدلين (كذا) في البلاد كما كان متلهفاً لاعلانها قبل ان يزيد حلول شهر رمضان في توتر الوضع . على ان حكومة صاحب الجلالة لم تر ما يوجب نشر تصريح من هذا القبيل قبل ان تكون شروط الانتداب قد وضعت .

لكن هذه الخطة وان لم تعلن رسمياً فان تفاصيلها قد عرفها الجميع قبل

(١) السر أرنولد ويلسن

منتصف رمضان ، ولم يخل الوضع من ظهور المعارضة التي تكهن بها أولو الامر مقدماً . فقد تألفت لجنة من خمسة عشر عضواً ، انتخبوا أنفسهم^١ بأنفسهم وتسموا باسم « المندوبين » ، عن بغداد والكاظمية من اجل مقاومة الانتداب ، وطلبوا مواجهة الحاكم الملكي العام ليعرضوا عليه آراءهم . الا ان قسماً كبيراً من ذوي الرأي الرزين كان يخالفهم الشك في حكمة المنهج الموضوع واستنكروا الطرق التي اتخذت للاعلان عنه ، وعندما دعى الكولونيل ويلسن المندوبين لمقابلته بتاريخ^٢ حزيران (١٤ رمضان) دعى معهم أيضاً خمسة وعشرين شخصاً^٣ آخرين من ابرز وجوه بغداد ، بينهم عدد من اليهود والمسيحيين ، ولم يمثل الأقليات المذكورة أحد بين المندوبين .

وقد افتتح الاجتماع بخطاب عبر فيه عن أسفه بان ظروفًا خارجة عن قدرتنا قد حالت دون تأسيس حكومة مدنية في العراق ، غير انه أنذر المندوبين بانهم اذا شجعوا الناس على الاضطرابات والقلاقل وحرصوهم على القيام في وجه النظام القائم فانهم يثيرون بذلك قوى سوف لا تقوى المؤسسات الحكومية على الصمود لها وهي في دور طفولتها . ثم اشار الى المقترحات الدستورية التي عرضت على حكومة صاحب الجلالة والتي سبق ان عرف بها الكثيرون من

(١) لقد انتخب هؤلاء الجمهور المحتشد الذي اجتمع في جامع الحيدرخانة ، وكانت اسماؤهم كما يلي : الحاج محمد جعفر ابو التمن ، السيد ابو القاسم الكاشاني ، السيد محمد الصدر ، الشيخ أحمد الظاهر ، السيد عبد الكريم السيد حيدر ، يوسف افندي السويدي ، فؤاد افندي الدفري ، عبد الوهاب النائب ، الشيخ سعيد النقشبندي ، السيد محمد مصطفى الخليل ، رفعت الجادرجي علي الباركان ، الشيخ احمد الداود ، عبد الرحمن الحيدري ، الحاج ياسين الخضير .

(٢) نذكر فيما يلي اسماء عشرين منهم : السيد محمود النقيب ، عبد القادر الخضير ، الحاج علي الألوسي ، محمود الشايندر ، جميل الزهاوي ، السيد صالح الملي ، الحاج محمد حسن بلوهر ، الشيخ شكر الله ، السيد جعفر عطيفة ، الحاج عبد الحسين الجلبي ، محمود الأطرقجي ، محمود الأسترابادي ، عبد الكريم الجلبي ، عبد المجيد الشاوي ، مناحيم دانيال ، عبد الجبار الخياط ، خسرو قيوچيان ، ساسون حسيقل ، عزرة مناحيم دانيال ، يهودا زلوف . وقد اعتذر الحاج علي الألوسي عن الحضور .

الحاضرين ، كما تعهد بأن ينقل الى لندن أية مطالب يتقدم بها المندوبون .
فرفع المندوبون مذكرة^١ طالبوا فيها بتأليف مؤتمر عراقي عام ينتخب
بموجب قانون الانتخاب التركي ليضع أسس الحكومة العربية الوطنية التي
وعدت البلاد بها في التصريح الانكليزي - الافرنسي المنشور في تشرين الثاني
١٩١٨ . وقد ذكروا ان سكان العراق قد يستطيعون بهذه الوسطة بلوغ
الاستقلال ، وطالبوا في النهاية بحرية النشر .

ورداً على هذه المذكرة وعد الكولونيل ويلسن بانه سيطلب الى حكومة
صاحب الجلالة ان تعجل في الامور على قدر الامكان ، وعند ابصال مقررات
الاجتماع الى لندن اقترح صرف النظر عن فكرة تأسيس حكومة مؤقتة واتخاذ
ما يلزم لجمع المجلس التأسيسي واستشارته حول شكل الحكومة المقبل حالما يتم
وضع شروط الانتخاب .

(١) وفيما يلي نذكر نص المذكرة :

سعادة الحاكم الملكي العام المحترم

تعلمون ان الشعب قد انتدبنا بمظاهرة التي أقامها ليلة ٧ رمضان الحالي الموافق ليلة ٢٦ مايس
للتعبئة عنه في مطالبة السلطة المختصة ومفاوضة رجالها بشأن تنفيذ ثلاثة مطالب جوهرية يرى جمهور
الشعب ومعظم قادة آرائه اليوم ضرورة تطبيقها وتنفيذها حالا ، وهي :
اولاً - الإسراع في تأليف مؤتمر يمثل الأمة العراقية ليعين مصيرها فيقرر شكل ادارتها في
الداخل ونوع علاقاتها بالخارج .

ثانياً - منح الحرية للمطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وافكاره .

ثالثاً - رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين انحاء القطر اولا وبينه بين الاقطار
المجاورة له والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم مع بعضهم ومن الاطلاع على سير
السياسة الراهنة في العالم .

فبصفئتنا نواباً عن أهالي بغداد والكاظمية نطلب اليكم ان تصادقوا حالاً على تنفيذ هذه المطالب
الثلاثة بكل سرعة ممكنة . وان تهتموا بمراجعة حكومة جلالة الملك في ما تلزمكم مراجعتها به من
تنفيذ المطالب المذكورة .

ولا يغرب عن بال سعادتكم ما في قبول هذه المطالب وإحلالها محل الأجراء والتنفيذ من صيانة الأمن
وحفظ النظام والسلام العام ، واننا ننتهز هذه الفرصة فنقدم لسعادتكم فائق الاحترام والاكبار .

وبعد مصادقة السر بيرسي كوكس ، الذي بقي مدة يومين في بغداد عندما كان في طريقه من طهران الى لندن ، بعث الى المندوبين في ٢٠ حزيران بالبيان التالي :

« حيث ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى قد تقرر وكالتها في خصوص العراق فنتوقع ان سيكون من الشروط المزبورة ، اولاً - جعل العراق حكومة مستقلة تضمن استقلالها جمعية الامم وتوكل بريطانيا العظمى وكالة بها . ثانياً - تكليف الحكومة البريطانية بالمسؤولية عن حفظ السلام الداخلي والامن الخارجي . وثالثاً - ازامها بتشكيل قانون اساسي وبان تستشير اهالي العراق في مسألة تشكيله مع ملاحظة حقوق الاجناس المختلفة الموجودة في بلاد العراق وورغائبها ومنافعها ، فتحوي الوكالة المذكورة على شروط لتمهيد مسالك الرقي للعراق بصفة حكومة مستقلة الى ان تتمكن من الوقوف على نفسها ، فحينئذ تنتهي مدة الوكالة فقررت حكومة جلالة الملك تكليف السر بيرسي كوكس بتنفيذ هذه المهمة وعليه سيرجع سعاده الى بغداد في موسم الخريف ويتقلد وظيفة الممثل الاعلى للحكومة البريطانية في العراق بعد انقضاء الادارة العسكرية الموجودة الآن . وستعطى السلطة السر بيرسي كوكس حق لتنظيم الوقت ، اولاً - مجلس شوري تحت رئاسة عربي ، وثانياً - مؤتمر عراقي ممثل جميع اهالي العراق ينتخب اعضاؤه باختيارهم فيكون مما يجب عليه تجهيز القانون الاساسي المار ذكره باستشارة المؤتمر العراقي » .

وكان رد المندوبين على هذا في ٣٠ حزيران ان كرروا طلبهم في تأليف مجلس عوام للعراق . وليلاحظ ان هذه المناسبة كانت آخر مناسبة ظهوروا فيها كهيئة واحدة متحدة . حيث ازدادت الاختلافات بينهم . وقد أدى تعاظم الاضطرابات القبائلية الى انفصال المعتدلين الذين كانوا

(١) نشر النص العربي الاصلي عن جريدة العراق بعددها ١٧ المؤرخ في ٢١ حزيران ١٩٢٠ و ٤ شوال ١٣٣٨ .

يتخوفون من عواقب التحريكات التي بدأوا بها ولم يعودوا متمكنين من السيطرة عليها . وحتى في أيام اتحادهم كان ادعائهم بتمثيل العراق ، او بتمثيل أكثر من طبقة خاصة من الرأي العام البغدادي ، شيئاً غير حقيقي بصورة واضحة . فان أعضاء « مجلس منطقة البصرة » قد استنكروا^١ في ٢٢ حزيران أعمالهم بالاجماع واعربوا عن ثقتهم بالحكومة البريطانية . وبذلت المساعي في العمارة لاستحصال عريضة تؤيد المطالبة بالاستقلال لكن الوجوه لم يوقع احد منهم عليها فمزقت العريضة . ولم تمثل الموصل ايضاً بين المندوبين . وعندما كانت تجري الاستعدادات للبحث في قانون الانتخاب الذي اعترف الجميع بعدم امكان تطبيقه أصدر منشور آخر في ١٢ تموز ، فكانت من منافعه مبادرة العناصر التي كانت مهمة في بادئ الامر الى العمل . وهذا هو نص المنشور^٢ :

« قد أعلنت اجازة حكومة جلالة ملك بريطانيا في تكوين مؤتمر عام منتخب من اهالي العراق بمنشور مؤرخ ١٧ حزيران ١٩٢٠ . واذ يجب قبل تكوين المؤتمر المذكور سن قانون للانتخاب وتنظيم الامور المتعلقة بذلك فقد فوضت حكومة جلالة ملك بريطانيا الحاكم المالكي العام ان يدعو الاشراف من مندوبي الامكنة المختلفة الى الاشتراك مع الحكومة المحلية في تشكيل المشاريع اللازمة للانتخابات المقرر اجراؤها وتخطيط الساعات^٣ الانتخابية وإعداد سجلات المنتخبين واحضار مقتضيات الانتخابات .

ولما كان يوجد في العراق رجال انتدبوا فيما سبق من الايام عن هذه البلاد للمجلسين العثمانيين مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين وكان لهم سابق معرفة بالامور العائدة الى الانتخابات والمصالح العامة فقد دعاهم جميعاً الحاكم

(١) لاشك ان اعضاء هذا المجلس كانوا من المياليين للانكليز المياليين لهم ، وان هذا الاستنكار جرى بتحريض من الانكليز أنفسهم .
(٢) نقل النص الاصيل عن جريدة العراق بعددها المرقم ٣٥ والمؤرخ في ١٢ تموز .
(٣) المقصود هو المناطق الانتخابية

الملكي العام للحضور الى بغداد في يوم غير بعيد لكي تشكل لجنة تشترك مع الحكومة المحلية في وضع المشاريع اللازمة للانتخابات المقرر اجراؤها، وسيطلب من أعضاء اللجنة المذكورة تعيين احد منهم للرئاسة وانتداب أعضاء زيادة على عددهم من الساحات التي لم يحضر منها عضو لموت بعض الذين انتدبوا سابقاً وغياب بعضهم او لتعذر حضوره لاسباب اخرى » .



الشهيد عبد المجيد كنه

وكان ابرز المبعوثين السابقين أقوى شخصية في البصرة وربما في العراق كله . وهو السيد طالب باشا اكبر انجال نقيب البصرة . وكان قد عاد الى وطنه في شباط ١٩٢٠ بعد تقضية سني الحرب في نفي اختياري في الهند ومصر . وكانت شهرته متأية في الدرجة الاولى من شدة بأسه في تحقيق أهدافه السياسية في زمن الأتراك ، لكنه كان يلا ريب المعبر الاول عن الاماني الوطنية ، وكان الحزب الوطني الموجود في سورية ينظر اليه

بهذا النظر . ومنذ عودته الى بلاده لم يفوت فرصة يثبت فيها اقتناعه بان مصلحة العراق متوقفة على قبول الانتداب البريطاني . وعلى هذا لم يتردد هو وزملاؤه مبعوثو البصرة وغيرها السابقون من قبول الدعوة التي وجهت

(١) لعل المقصود هنا جمعية العهد العراقي التي كان مركزها العام في الشام يومذاك .

اليهم . كما لم يمتنع مبعوثو بغداد السابقون عن حضور اللجنة برغم ان اثنين منهم كانوا قد وقعوا على عريضة ٢ تموز كمندوبين .

وعقدت اللجنة جلستها الاولى في ٦ آب ، وبعد ان افتتحها الحاكم الملكي العام بصورة رسمية انتخب السيد طالب باشا رئيساً لها ، وفي الجلسة الثانية المعقودة في اليوم التالي تقرر اضافة اعضاء آخرين ، فاضافت بين من اضافوهم يوسف افندي السويدي والسيد محمد الصدر وآخرين معروفين بأرائهم المتطرفة ، ولما كانت اللجنة قد تألفت على هذه الشاكلة لم يكن من الممكن اتهامها بكونها لا تمثل جميع الاتجاهات .

لكن رئيسي المندوبين رفضا قبول الدعوة ، فصار معلوماً في الوقت نفسه انهما يعتزمان الالتجاء نهائياً الى سواد الشعب البغدادي بعقد حفلة مولد في احد الجوامع الكبرى يعقبها القيام بمظاهرة في البلد . ولم يستبعد وقوع اضطرابات خطيرة وتفشي العنف بنتيجة عقد مثل هذه الحفلة ، وعلى هذا صدر امر بتوقيف يوسف السويدي والشيخ احمد الداود وجعفر ابي التمن وعلي البازرگان . لكنهم كلهم عدا الشيخ احمد تمكنوا من الفرار^١ ، غير ان عمل

(١) تمكنت سلطات الاحتلال في هذه الحركة من القاء القبض على الشيخ أحمد الداود وحده ، ففني الى جزيرة هنجام ، لكن الزعماء الثلاثة الآخرين استطاعوا الإفلات والتوجه الى الفرات الأوسط معقل الثورة .

فقد استطاع جماعة « السوامة » برئاسة صبار في محلة خضر الياس ، الذي يقع فيها مسكن آل السويدي ، ان يقاوموا الشرطة التي حضرت لاعتقال يوسف السويدي ويقدمون عدداً من القتلى ، وتمكن خلال ذلك من ان يهرب الى الكاظمية فيختبئ في دار العلامة السيد حسن الصدر والد السيد محمد . ومن هناك استطاع التسلل الى اليوسفية ، ثم الى قبيلة البو محيي ، وهي من قبائل الغرير ، والى الوند فكريلا .

اما جعفر جلبي ابو التمن فقد استطاع التسلق من سطح بيته الذي كان يقع في الدربونة المسماة باسم جده « دربونة الحاج داود » في محلة صبايغ آل الى دار جيرانه الخلي وهي دار آل حبة التي تقع في محلة السويديان . ومن هناك انتقل سراً الى دار خاله محمود جلبي الأطراحي في صبايغ آل فلم يوافق على إبقائه في بيته ، ثم انتقل منها الى دار والدنا المرحوم مهدي الخياط في المحلة =

الحكومة هذا المقرون باصدار بيان يمنع اقامه حفلات المولد وتوطيد السلم والامن اعاد الثقة الى النفوس في الحال . وربما كان احتلال الفرنسيين للشام وحلب في ٢٥ تموز قد ساعد بعض الشيء على انهيار الحركات في بغداد ، لكن تأثيره النهائي لم يكن من الممكن قياسه بعد .

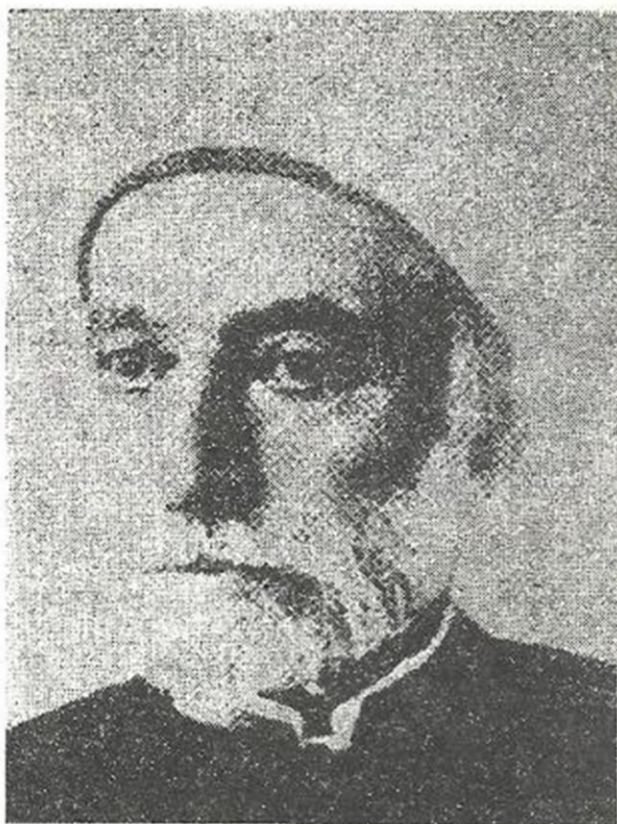
على ان فرار الزعماء الثلاثة كانت عاقبته في غير صالحهم . لان اتباعهم كانوا يتوقعون انهم سوف يتشرفون بدخول السجن من أجل الحرية ، ولذلك فشلوا في تقلد تاج التضحية . وعندما فتشت بيوتهم وبناية المدرسة الاهلية

= نفسها . وفي هذه الدار رسمت خطة اخراجه من بغداد وايصاله الى كربلاء ، ونفذت الخطة باشراف عبد المجيد كنه الذي جلب معه نخبة مسلحة من الشباب الجريء الممتلئ بالحمية الوطنية .

فقد أخرج من الدار المذكورة في مساء يوم ١٩ آب عند الغروب ، وقبيل حلول فترة منع التجول ، وهو يرتدي الملابس العربية وفي رأسه عقاب لف والى جنبه الوالد مهدي الخياط . وكان يباريه عن بعد وبشكل متفرق عبد المجيد كنه وزمرته حتى أوصل الى شريعة السيد سلطان علي . وكان في معية عبد المجيد كنه عمنا المرحوم علي الأحمد وابن عمنا عباس وغيرهما من أفراد الزمرة المسلحة مثل حسن شنگرة (الشبلاوي) ، والسيد خليل ، وحمودي المنلاوي وقدوري مريج .

وكان المرحوم عبد المجيد كنه في الوقت نفسه قد بعث بشخصين ، هما رزوقي وجواد من محلة صبايخ آلال ، الى حيث كان الاستاذ علي البازركان مختفياً في محلة الحيدر خانة ، ليأتيها به الى شريعة السيد سلطان علي التي كان ينتظر الجميع فيها زورق يقوده « بلام » جريء شهم . وبعد شيء من التأخر المخطر وصل الاستاذ البازركان فاستقل الزعيمان الزورق ، يصحبهما عبد المجيد كنه نفسه ، وانحدر بهم الى بستان تقع في منطقة كركره من جانب الكرخ . وقد كان سير الزورق مخفوقاً بالخطر لأن فترة منع التجول كانت قد حلت ، فنودي على البلام بالتوقف والعودة الى الساحل ، ولما استمر في انحدره من دون ان يلتفت الى ذلك انهم عليه الرصاص من الخائنين . لكن الله سلم ووصل الزورق الى بقيته . وقد احتفى بها في تلك المنطقة شيخ الجبور وتمكن هذا من ايصالها الى الشيخ سلمان الشلال شيخ البومحبي بالقرب من المحمودية . ثم دبر سلمان ايصالها الى كربلاء عن طريق جرف الصخر .

(١) لقد شاع في تلك الأيام ان السلطة المحتلة عثرت في دار يوسف السويدي حينما فتشته على وثيقة تثبت تعهد المرحوم عبد المجيد كنه بتنفيذ بعض مقررات جمعية الحرس ، ومنها قتل السيد طالب باشا النقيب الذي كان يماشي الإنكليز يومذاك وظل يماشيهم حتى غدروا به فنفروه الى خارج البلاد مرة أخرى ، فقبضت على عبد المجيد وأعدم . وشاع كذلك ان عضواً من أعضاء جمعية الحرس أصبح وزيراً خطيراً فيما بعد ، وادعى الوطنية ، أخبر السلطات البريطانية بوجود هذه الوثائق ومحلها ، =



سماحة السيد يوسف السويدي

عثر على وثائق تثبت ان
الاموال التي جمعت باسم
المدرسة كانت تستعمل لتأجير
القتلة من أجل القضاء على
الشخصيات العربية البارزة التي
كانت تخالفهم في آرائهم
السياسية . وكان الموقف المتين
الذي وقفه رجال الشرطة
العرب في بغداد ، مع جدية
أكبر الموظفين العرب في
الادارة المدنية ، من أشد
العوامل تشجيعاً لنا في تلك
الايام الصعبة ^١ .

= ونذكر فيما يأتي البيان الذي نشرته السلطات البريطانية يومذاك في هذا الشأن :
حوكم عبد المجيد كنه من أهالي بغداد في محكمة عسكرية في يوم ١٦ أيلول بتهمة ارتكابه جريمة
ضد السلطة العسكرية بسعيه وراء إثارة الحواطر على جيش الاحتلال . ولقد ثبت لدى المحكمة ثبوتاً
بيناً من المكاتيب الموقعة منه التي وجدت في بيت يوسف السويدي بان عبد المجيد كانت له يد دموية
في تأليف عصاية من القتل ترمي الى ارهاب وقتل كل من لا يجاري المبادئ المتطرفة التي اتخذها
حزبه . وقد ثبت عليه الحكم فحكمت عليه المحكمة بالاعدام شنقاً ، وشنق ليلة السبت ٢٥ أيلول
١٩٢٠ . وقد رثته بعد استشهاده شاعرة من شاعرات الرميثة بقولها :

البغداد يلطارش تمنه	من اسمعت باعدام ابن كنه
كلها الرميثة اجذبت ونه	حنت الكتلتة فرد حنه
مجيد يا ليث الحنه	حيد ويشهد التاريخ عنه

الوطن ما خيب ظنه

(١) يلاحظ القارئ الكريم ان المس بيل تؤكد على الطعن في الحركة الوطنية بكل وسيلة ،
ولا سيما بالخط من قدر الذين اشتغلوا فيها ، وتثني في الوقت نفسه على النفعيين الذين تعاونوا مع
الانكليز .

الثورة العراقية

على ان خطر التعبئة الثورية التي وضعت لم يكن يكمن في بغداد وانما كان منطقياً في تأثيرها على القبائل . فان سكان العراق في خارج حدود المدن يتألفون من جمهرات بدوية ونصف بدوية كانت تبدي مقاومة مستديمة للحكومات المنظمة . وما التشكيلات العشائرية سوى قوة جاذبة الى المركز مضادة لتشكيل حكومة موحدة . وقد اقنع الاتراك انفسهم في السابق بحفظ التوازن بتحريك جمهرة على أخرى ، فنجحوا في الحيلولة دون وقوع تجمع مخطر ضدهم . اما السياسة التي اتبعناها نحن فهي ان نعيد للشيخ نفوذه وسلطانه ونؤازره بحيث نجعله مسؤولاً لقاء ذلك عن سلوك قبيلته . لكن مقدار الطاعة للسلطة المركزية التي كنا نتطلبها كان اكثر بكثير مما كان اسلافنا يتوقعونه منهم . وقد بذلنا جهدنا في الوقت نفسه في لم الشعث وتسوية النزاعات القديمة التي كانت تهرق السلم المحلي . وبذا انطقت العداوات الوراثية ، التي كان الاتراك يستفيدون منها استفادة جلي ، بصورة موقته على الاقل .

لكن سياسة التزام الشيخ وتعضيده لها مساوئها . فهو لا يخرج عن كونه طاغية مصغراً تنعكس أفعاله الشائنة على الحكومة التي تعضده . وهو يستاء من أي تدبير يتخذ للحد من الجشع الذي كان يجد مجالاً واسعاً لممارسته من قبل ، ويمتنع هو وأفراد عشيرته من أية محاولة تبذل لفرض واجبات المواطنة عليهم ، أو اجبارهم على المحافظة على الأمن ودفع الضرائب التي كانوا ينجحون في التهرب منها سابقاً . ومع هذا فان طبيعة تشكيلاتهم تجعل من المستبعد قيامهم بعمل متفق عليه من تلقاء انفسهم . فتحتم على الوطنيين والحالة هذه ان يصهروا سوية ظلاماتهم الشخصية وغرائزهم الافتراضية ويصبونها في قالب مبدأ عام واحد . وقد سهلت المهمة بما اصاب من النجاح المسلح في عدة وقائع جرت في بداية الأمر . فقد شاهدت القبائل بأمر رأسها انسحاب الادارة البريطانية واقتنعت بان مساعيها سوف تكلل باخراج البريطانيين من العراق كما قيل لها

من قبل . وبهذه القناعة استنهضت همم الذين بدأوا بالثورة وكُسب المترددون الذين لم يعودوا يستطيعون المجازفة بالبقاء مع الفريق الخاسر .

وكان هدف الحركة تأسيس دولة اسلامية ، الا ان هذا الهدف ، فضلاً عن الشعور الوطني الذي انتشر في العالم بعد الحرب والذي لا يمكن التقليل من شأنه ، كان يعني مختلف المعاني بالنسبة لمختلف طبقات السكان . فانه كان في نظر المجتهدين الشيعة تأسيس دولة دينية تسير بموجب الشرع الشيعي ، ولذلك لم يترددوا في اعلان الجهاد من أجله . كما كان يعني في نظر السنة والمفكرين الاحرار في بغداد إنشاء دولة عربية مستقلة برئاسة الأمير عبد الله . اما بالنسبة للقبائل فان الهدف كان يعني عدم وجود حكومة بالمرّة . ومن الجدير بالذكر هنا ان عشائر دجلة عندما ضغط عليها بالانضمام الى الحركة أجابت انها يجب ان تظمن بأنها سوف لا تطالب في ظل العهد الجديد بدفع أية رسوم للحكومة . وهناك أدلة تبرهن على انه كانت هناك جمعية متأمرة ، أسسها البولشفيك بالتعاون مع الوطنيين الاتراك ، وكانت منذ مدة طويلة تتصل بالجمعيات العراقية السياسية المتطرفة لاستغلال الرابطة الدينية المشتركة بين الاتراك والعرب وإخراج وضع البريطانيين في الشرق الأوسط^١ .

وقد ظهر أول تأثير للدعاية المنبثة من سورية وبغداد في منطقة الشامية ، حيث يكون تأثير المدن المقدسة الديني على أشده . فقد أربكت الشائعات المنبثة عن قرب تأسيس دولة عربية برئاسة الأمير عبد الله ، وعن قرب جلاء البريطانيين عن البلاد ، التوازن السياسي وحسنت لشيوخ القبائل والسادة الملاكين الامتناع عن دفع الرسوم والضرائب الحكومية الى حكومة أصبح اختفاؤها على قاب قوسين أو أدنى . وأدى الشعور بعدم الاستقرار نفسه الى

(١) يستبعد جداً وجود علاقة للثورة العراقية بالبولشفيك ، وان ما تصرح به كاتبة هذا التقرير وغيرها من الانكليز في كتب أخرى يحتاج الى دليل . حيث لم تنشر حتى الآن وثائق مثبتة تؤيد هذا الزعم .



استقالة أعضاء
المجلس المحلي
الذي تشكل
حديثاً . وقبل
ان تبدأ القلاقل
العلنية في بغداد
كان . العنصر
الديني الشيعي
في المدن المقدسة
منهمكاً في حبك
الدسائس . فان
وفاة السيد محمد
كاظم اليزدي
قد أدت الى
انتقال السلطة
الدينية في العالم
الشيعي الى
المرزا محمد تقي

ساحة المنفور له حجة الإسلام المرزا محمد تقي الشيرازي

المتقدم في السن ، وكان يقوده في جميع الشؤون ابنه المرزا محمد رضا .
إذ كان هذا الابن رجلاً سياسياً فعالاً لا يستقر على حال ومعارضاً
للاتفاقية الإيرانية - البريطانية معارضة مرة ، وعلى هذا فقد كرس
جهوده ومساعيه لمناوأة الحكومة البريطانية في العراق . وكان يقبض المال
كذلك من الاتراك . ومع انه لم تكن له منزلة دينية ، وحتى لم يكن يعترف
به كعالم ، فانه كان يتمتع بالاحترام الذي كانت تعامل به أسرة المجتهد الأكبر ،
وقد جعله تأثيره على أبيه مرجعاً أعلى للرأي . وفي خريف ١٩١٩ أدى اكتشاف

مؤامرة لقتل الضباط البريطانيين والموظفين في كربلا الى توقيف بعض الاشخاص ، لكن اولئك المشبوهين أطلق سراحهم بكفالة المرزا محمد تقي نفسه ، فعادوا في الحال الى سيرتهم الاولى . وبذا فقد شجع الحادث حبك الدسائس بدلاً من ايقافها عند حدها . وفي اوائل مارت ١٩٢٠ قيل ان المرزا محمد تقي أصدر فتوى يحرم فيها توظيف المسلمين في الادارة البريطانية . وكتب الحاكم السياسي في الديوانية يقول ان جثة أحد افراد الشبانة لم يسمح بدفنها حسب الاصول الشيعية المتبعة ، وأن الاستقلالات من خدمة الحكومة أخذت تزداد يوماً بعد يوم . وبعد ان نوذي بملوكية الامير عبدالله^١ في دمشق في اليوم التاسع من مارت طُلب الى شيوخ جميع القبائل الفراتية ان توقع على وثيقة يطلب فيها منه ان يتوجه لتسلم زمام مملكته ، والمعتقد ان عريضة بهذا المعنى بعثت اليه من الشامية . وعندما بلغت حركات بغداد أشدها ازدادت جهود الوطنيين في كربلا . فوصلت الى القبائل وسكان المدن كتب^٢ لا يحصى عددها مذيلة بتوقيع المرزا محمد تقي تنبؤهم بان الوقت قد حان للقيام بحركة متناسقة

(١) نادى بملوكيته في العراق الضباط العراقيون الذين كانوا في الشام وغير الضباط .

(٢) وهذا هو نص الكتاب المشار اليه :

الى اخواننا العراقيين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . اما بعد فان اخوانكم في بغداد والكاظمية والنجف وكربلا وغيرها من انحاء العراق قد اتفقوا فيما بينهم على الاجتماع والقيام بمظاهرات سلمية . وقد قامت جماعة كبيرة بتلك المظاهرات مع المحافظة على الأمن طالين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق ان شاء الله بحكومة اسلامية ، وذلك بان يرسل كل قطر وناحية الى عاصمة العراق وفداً للمطالبة بحقه متفقاً مع الذين سيتوجهون من انحاء العراق عن قريب الى بغداد . فالواجب عليكم بل على جميع المسلمين الاتفاق مع اخوانكم على هذا المبدأ الشريف ، واياكم والاخلال بالامن والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض ، فان ذلك مضر بمقاصدكم ومضيع لحقوقكم التي صار الآن أو ان حصولها بأيديكم . و اوصيكم بالمحافظة على جميع المثل والنحل التي في بلادكم في نفوسهم واموالهم واعراضهم ، ولا تنالوا أحداً منهم بسوء ابدأ . وفقكم الله جميعاً لما يرضيه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأحقر محمد تقي الخايري الشيرازي

١٠/٩ رمضان ١٣٣٨

تسير على الخطوط الدستورية لتأسيس حكومة إسلامية ، وتدعوهم الى ارسال ممثلين عنهم الى بغداد . ولم يخل الوضع من عوامل مهيجة للشوره . فقد صمد شيوخ منطقة الحلة البارزون امام هذه التحريكات لكنهم أعربوا عن خوفهم الشديد وبينوا أن الحاله اذا استمرت على ما كانت عليه فسوف لا يكون بوسعهم السيطرة على قبائلهم . ثم أخذت بالظهور أعراض القوضى والاضطراب حيث وقعت في ١٦ تموز محاولة غير ناجحة لقلب القطار بالقرب من الحلة . وبعد يومين هاجم فريق من بني تميم فيما يقرب من بغداد قافلة من قوافل اصدقاءنا الدليم الذين كانت لهم خصومة قديمة معهم . وقد بين شيخ بني تميم ان هذا الخرق لحالة السلم يجب عدم السكوت عنه فرافق هو نفسه الخيالة التي ارسلت للقبض على العاشين . وفي اليوم نفسه هوجم الزوار الايرانيون وسلبوا في طريق الحلة بجوار المحمودية . فقاوم رجال القبائل الذين عبثوا هذا الغيث رجال الشرطة وتغلبوا على مفرزه من الشبابة سقت ضدهم من الحلة ، غير ان الجنود النظامية فرقتهم أخيراً . وازداد وقوع حوادث السلب على طريق ايران في منطقة ديالى ، لكن محاولة مقصودة لتحريك بعقوبة بنفس الاساليب التي اتبعت في بغداد قضي عليها في مهدها بتوقيف السيد صالح الحلي ، كان قد ارسل الى بعقوبة لاقامة حفلات المولد^١ .

وفي نهاية رمضان علفت على جدران السوق في الحلة اعلانات تدعو الناس الى القيام في وجه الحكومة ، وتحمل حملة شعواء على جميع المتصلين بالبريطانيين وفي احتفال عام عقد هناك أعلن خطيب متصل اتصالاً وثيقاً برجال بغداد ان البريطانيين سيجلون عن البلاد في عيد الفطر ، ونشرت معلومات مماثلة بين القبائل التي طلب اليها التعجيل باعلان الثورة والنهب^٢ . واتبعت في كربلا

(١) كان السيد صالح الحلي من خطباء المآتم الحسينية المعروفين وليس من قراء المولد كما لا يخفى .
(٢) ليس من المعقول أن تعرض العشائر على النهب بالنسبة للشعور الوطني الذي كان موجوداً وللوصية التي اوصى بها المرزا محمد تقى ، وقد اوردناها في الشرح الاخير .

نفس الاساليب التعبوية ، مقرونة بالمساعي المضنية التي كانت تبذل للحصول على التواقيع على العهد الذي ارتبطت به جميع العشائر العراقية وتعهدت بالوقوف صفاً واحداً للحصول على حقوقها . وكان الوضع يزداد حرجاً بسرعة ، وفي ٢٢ حزيران أوقف المرزا محمد رضا ، مع تسعة^١ من أتباعه في كربلا بعد ان أوقف في الحلة قبل بضعة ايام ستة^٢ من الشخصيات غير البارزة التي كانت على رأس التحريكات التي وقعت هناك . وقد عومل المعتقلون بغاية الاعتبار ثم أرسلوا الى هنجام حيث اتخذت الترتيبات بعناية لراحتهم . وكان معظم العلماء قد رفضوا الاشتراك مع المرزا محمد رضا في الحملة التي وضع خططها . وقد تسلمنا بعض كتب الاحتجاج أو التوسط له منهم ، لكنه أطلق سراحه بتوسط الحكومة الايرانية^٣ بعد ان قضى حوالي الشهر في المعتقل وسمح له بالسفر الى ايران . ومن المهم ان نذكر هنا ان المرزا محمد رضا ورد اسمه مذكوراً في برقية صدرت من البولشفيك في رشت بانه « يشغل للدعوة البلشفية في كربلا » .

-
- (١) ان كتاب العراق في دوري الاحتلال والانتداب يذكر اسماء (١٢) شخصاً بما فيهم المرزا محمد رضا ، وهم : المرزا محمد رضا ، وعبد الكريم العواد ، ومحمد شاه الهندي ، واحمد القنبر ، وعمر الحاج علوان ، وعثمان الحاج علوان ، والسيد محمد علي الطباطبائي ، والسيد أحمد البير ، والشيخ كاظم ابو اذان ، وعبد المهدي القنبر ، والشيخ هادي كونة ، وإبراهيم ابو والده .
- (٢) وهم : رؤوف الامين ، وعلي الحمادي الحسن ، والسيد خيرى الهنداوي ، وجبار علي الحسافي ، والسيد عبد السلام ، والسيد أحمد سالم .
- (٣) وقد نشرت الادارة المدنية بياناً بتاريخ ٣١ تموز ١٩٢٠ و ١٥ ذي القعدة ١٣٣٨ في العدد (٥٢) من جريدة العراق الصادر في ٣١ تموز ، وهذا نصه :
- فاوضت حكومة ايران الادارة الملكية في العراق بواسطة سفير جلالة ملك بريطانيا في طهران في مسألة توقيف المرزا محمد رضا بن آية الله المرزا محمد تقي الشيرازي وتعهدت اذا اخلي سبيله بان يرسل الى طهران من الخليج العربي المقيم فيه الآن ويمكث هناك . فأعطيت الأوامر حالاً في اطلاقه وسلم في ٢٨ تموز الموافق ١١ ذي القعدة الى نائب بندر عباس . وقد بلغنا انه متمتع بصحة رائعة . وقد اعرب للقنصل البريطاني عن تقديره للعناية التي بذلت في المدة التي تضاهاها هناك .

وقد أدى اعتقال بعض الأشخاص الى زوال التوتر في منطقة الحلة . فجاء أهم شيخ من شيوخ بني حسن الشماليين ، وهو الشيخ عمران ^(١) ، الى معاون الحاكم السياسي بالعهد الذي كان قد وقع عليه بالاكراه فمزقه امامه . لكن الوضع في الشامية أصبح دقيقاً جداً . على ان شرارة الثورة قد قدحت لأول مرة في الرميثة التابعة لمنطقة الديوانية .

فقد كانت مجموعة قبائل بني حنظل الممتدة من الرميثة الى السماوة ، وعلى طول الفرات الى الدراجي ، غير خاضعة بالمرّة لاية سلطة مدنية . وعندما استولينا على السماوة في كانون الاول ١٩١٧ كانت هذه المجموعة مثلاً للتفكك القبائلي . ولم تكن معظم هذه الجماعات متخصصة بعضها مع بعض فقط بل كانت متجزئة الى أقسام يحارب بعضها بعضاً . وكانت تتحدى السلطات العثمانية مدة سنين عديدة قبل الحرب ، واذا كنا قد نجحنا في فرض بعض التهذئة هناك فان الامن لم يستتب استتباً تاماً . ومع ان جباية الواردات الحكومية كانت بمقياس أخف هنا بالنسبة لنواحي الديوانية الاخرى فان عملية تخمين الحاصلات وقياسها كانت تقاوم ، وكثيراً ما كانت تراكم بقايا الدينون الحكومية في هذه الجهات . وكانت بعض أسباب القلاقل التي وقعت في جنوب السماوة ناجمة عن الاحوال الطبيعية . فقد احتل الصفران وآل بركات من بني حنظل الاراضي التي توقفت الزراعة فيها بسبب تبدل مجرى النهر . وكانت التشكيلات العشائرية من ناحية أخرى في دور التفكك ، فأخذت العشائر هناك ، كما هو مألوف في مثل هذه الظروف ، تعتمد في معيشتها على نهب جيرانها . وكان نهبهم هذا موجهاً في الدرجة الاولى نحو الزراع المسلمين ومربي الاغنام النازلين في بزايز جدول عفيف وفي أطراف منطقة الغراف . ولذلك فقد تحتم على الادارة ان تحمي مصالح اولئك الناس وتحافظ عليها .

(١) أي عمران الحاج سعدون هم موسى العلووان من شيوخ بني حسن .

لكن الشيخ معجون^١ شيخ الصففران رفض المجيء الى السماوة أو تلبية مطالب الحكومة . وكان الحاكم السياسي هناك يخشى وقوع اضطراب بين القبائل يكون من الصعب إخماده ، ولذلك قامت الحكومة في ايلول ١٩١٩ بتأديب قري معجون . فأدى هذا الى انقسام القبيلة . وكان على رأس المعارضين لمعجون أخوه ناهي ، فحاولنا تجربة الاعتراف به شيخاً على القبيلة ، الا انه برهن على عدم سيطرته عليها . وبقيت أغلبية القبيلة تتحدى الحكومة بالامتناع عن دفع الواردات الحكومية وتسليم غرامة الخمسمائة بندقية التي فرضت عليها . ثم التجأ ناهي الى الحكومة وطلب مؤازرتها له بارسال نفر من الشبان العرب للمبيت في خيامه . فدفعت الحمية الحاطة الضابط العربي الى الاسهام في جمع البنادق من فرع القبيلة الذي بقي موالياً لمعجون ، فوقع بسبب ذلك اضطدام أدى الى قتل اثنين من الشبان . ومع ان هذا الحادث استدعى استحصال الدية عن القتيلين فقد عجل معجون بارسال ولده في شباط ١٩٢٠ مبدئياً قبوله لشروط الحكومة فتقرر إرجاعه للمشيخة . على ان الاحوال بقيت على حالتها ، لان معجوناً لم يحضر في مركز الحكومة ولم يظهر أية رغبة جدية في جمع البنادق . وقد جعل تورطنا في جهات أخرى معالجة موقفه هذا شيئاً غير ممكن ، فانعكس ذلك على القبائل المجاورة انعكاساً سيئاً . حيث سرت الفوضى الى ديرة آل بركات المجاورة للصففران ، ومن هناك الى بني عنتر ، وهم فريق من البوجياش ، ثم الى ديرة البوجياش انفسهم . فهاجموا معاون الحاكم السياسي عندما كان منهمكاً بتقدير الحاصلات ؛ بينما ازداد السلب وأعمال العنف في مخيمات السكك والمحطات . وقد تشكى شيخ البوجياش الأكبر من انه لا يستطيع كبح جماح قبيلته اذا ما ترك الصففران من غير تأديب . ثم توسعت الاضطرابات فوصلت الى الرميثة حيث هاجم الاعاجيب ، الذين لم يعبأوا بأوامر نزع السلاح الصادرة في السنة السابقة ، من يجاورهم من البوحسان يعد أن كانوا قد سلموا

(١) اي والد الشيخ عزارة المعجون الذي كان نائباً في المجلس النيابي العراقي فترة من الزمن .

سلاحهم بصورة تامة تقريباً .

ولم تتيسر لنا السيارات الا في نهاية مايس . وقد توفي معجون قبل ان نبدأ بالحركات اليومية وكانت وفاته بصورة طبيعية ، الا ان ذلك لم يعرف عندنا الا في تاريخ متأخر . وبعد أيام قلائل من القصف المتقطع الذي سبب عشرين إصابة وجرح وقتل حوالي المائة رأس غنم نخضع الصفران والبوجياش ، لكن تسوية دائمة لم تتم وظلت الحالة غير مرضية . لأن الاعمال التأديبية من الجو لم تحسم الموقف ، ولم تتيسر طرق أخرى لذلك .

وكانت الدعاية الشديدة في الوقت نفسه تبث من كربلا وبغداد وتنتشر في الديوانية عن طريق الشامية . ويبدو أن خطة معينة قد وضعت للثورة ، فقد زار كربلا في العيد ، الذي صادف وقوعه في منتصف تموز ، عدد كبير من الشيوخ والوجهاء . وعقد في اواخر تموز اجتماع عشائري في الشوملي^(١) الكائن على الفرات في شمال الدغارة حضره كبار الرؤساء من الحلة الى الشامية فقرروا بالاجتماع السير وراء يوسف السويدي والسيد محمد الصدر . وكان اكثر الاشخاص نشاطاً في تنفيذ المنهج في الديوانية الحاج محيف ، وهو ملاك ثري من عفج الواقعة على نهر الدغارة . وقد كان رجلاً ذا مقدرة لا يستهان بها وشهرة واسعة كمسلم من المسلمين الاخيار . كما كان يسيطر على منطقة عفج في زمن الترك ، فوجد نفسه منذ بداية الاحتلال محروماً من السلطة التي كان يمارسها في غير صالح جيرانه الأقل قوة منه . وعندما تأكدنا من نشاطه في الدعوة الى المقاومة المسلحة ضد الحكومة القائمة اعتقل وأرسل الى البصرة حيث ترك مطلق الحرية بكفالة .

وربما كان من سوء الطالع ان نخطر على بال مردينا في منطقة الديوانية ،

(١) وهو مقر آل الهيصم في لواء الحلة

بمناسبة العيد ، فكرة تأييد التصريح الرسمي^١ الذي كالتوا قد أعطوه في السنة الفائتة بتأييد الحاكم البريطاني . وكانت تواقع أربعة من الوجهاء البارزين غير موجودة في المضابط التي قدمت في هذه المناسبة ، إلا أن نشر المضابط الواردة من الديوانية وعفج وآل بدير وما أعقبه من انتشار الاضطرابات والقلق في الحال يؤيد الشك الذي كان يخامر النفوس في تلقائية مثل هذا الشعور المعرب عنه . على أن شيوخ عفج وآل بدير قرنوا الأقوال بالأفعال . فقد وقفوا بجانب معاون الحاكم السياسي إلى حين انسحاب القوات البريطانية من الديوانية ، حتى أن أبرز^٢ شيوخ آل بدير رافق الرتل الانكليزي إلى الحلة ، وكان موقفهم هذا ناشئاً لدرجة كبيرة عن خوفهم من عودة الحاج مخيف إلى سطوته ، لأنهم لم يجدوا حماية من تعسفه إلا في ظل الإدارة البريطانية .

على أن توقيف الحاج مخيف لم يؤد إلى وقف الحركة الثورية . فقد شجع الناس على الثورة تطمين رجالها لهم بأن شروط الانتداب تمنع بريطانيا العظمى من استخدام القوات المسلحة ، وأنها في الحقيقة قد سحبت جيشها من العراق . فوَقعت هذه الاخبار في أرض خصبة بين بني حجي . وكان السبب المباشر للثورة هناك شيئاً طفيفاً . فقد استدعى معاون الحاكم السياسي^٣ في الرميثة في اليوم الثاني من تموز شيخ^٤ الظوالم الذي تأخر عن دفع دين زراعي للحكومة يعود للسنة الفائتة ، فأبدى كثيراً من الشراسة بحيث اضطر معاون الحاكم

(١) المعروف عند المشتغلين بالثورة العراقية أن النيجر دايلي الحاكم السياسي في الديوانية قد استدعى لفيماً من الشيوخ وحملهم بالاكراه على توقيع مضبطة يطلبون فيها وصاية بريطانيا العظمى على العراق ، وقد بعث بها إلى الحاكم الملكي العام الذي اتخذها وسيلة يكيد بها لزعماء الثورة .
(٢) أي الشيخ صكبان « أبو جاسم » ، أما معاون الحاكم السياسي فقد كان الكاين ويوب ، الذي عين في ١٩/٤/١٩ .

(٣) الملازم هيات الذي عين في ١٩/١٠/١٣ .

(٤) أي المرحوم الشيخ شعلان أبو الجون والد الشيخ جواد الشعلان نائب الديوانية في يوم من أيام الحكم الملكي الزائل . وتعد قبيلة الظوالم فرعاً من فروع بني حجي . ويقول المر ارنولد ويلسن في كتابه أن الدين الزراعي الذي كان بذمة الشيخ شعلان كان سلفة زراعية يقل مبلغها عن مئة دينار .



المرحوم الشيخ شعلان أبو الهجون

السياسي الى حجزه وتوقيفه في السراي بقصد ارساله الى الديوانية . وجرياً على ما كان قد وقع قبل اسابيع قلائل في السماوة هاجم الظوالم السراي فأطلقوا سراحه . وقد بذلت القبائل المجاورة جهودها للحيلولة دون دخول الظوالم الى ديارتهم ، غير ان الظوالم كانوا قد تسلموا أوامر قاطعة من الشامية بالثورة . فقطعت سكة الحديد في اماكن ثلاثة ، اي في جنوب السماوة وفي شمال الرميثة وجنوبيها .

وبذلك انعزلت البلدتان عن سائر أنحاء اللواء . وقد أمكن اسعاف السماوة عن طريق النهر بسهولة ، لكن قطاراً أرسل من الديوانية لانجاد الرميثة أسر فأحرق ، ومع ان سرية من المشاة تمكنت من شق طريقها الى البلدة الا انها لم تتمكن من عمل شيء سوى ان تنضم الى المحاصرين من موظفي السكك ودائرة معاون الحاكم السياسي . وقد أسيء تقدير قوة القبائل فسبق رتل صغير من الحلة الا انه أجبر على التقهقر من دون ان يكون بوسعه احتلال الرميثة . ولم يقع شيء بعد ذلك الا في ٢٠ تموز حينما تمكنت قوة كبيرة من شق طريقها بعد ان صادفت مقاومة خطيرة منظمة . حيث كانت القبائل متخذة جيداً ، كما كانت تعبثها تدل على معرفة بالاساليب العسكرية التركية ، الامر الذي كان يكشف عن وجود ضباط سابقين اشتغلوا في

(١) كان السادة التالية أسماؤهم من الضباط الذين اشتركوا في الثورة : حسين علوان ، الحاج محمود =



الشيخ عبد الواحد الحاج سكر
من قادة الثورة العراقية البارزين

الجيشين التركي والعربي
والتحققوا بالشوارع من بغداد
ودير الزور . وكان سير
الحوادث في الرميثة يراقب
باهتمام وجدية من الشامية .
لأن كل يوم يمر في التماهل
كان يزيد في خطورة الموقف
هناك ، وفي الاخير زحفت
قبائل المشخاب في يوم ١٣
تموز بقيادة عبد الواحد على ابي
صخير الواقعة في جنوب
الكوفة مباشرة . وفي اليوم
التالي نزل بنو حسن الجنوبيون

= رامز ، اسماعيل الأغا ، الحاج طالب العزاوي ، جميل رمزي قبطان ، عبد الحميد (كزنجي) ،
شاكر محمود ، سامي النقشلي .
ويذكر السر أن تولد وينسب أن الرميثة بعد أن حاصرتها القبائل الثائرة ، وعزلتها عن سائر المدن
بقطع سكة الحديد ، أنجذت بقوات عسكرية ثلاث مرات فلم يمكن فك الحصار عنها وإنما حوصرت
قوات النجدة نفسها في الداخل أيضاً بعد أن انضمت إلى قوة الرميثة الأولى . فقد أنجذت من السامرة
في أول تموز ، وأنجذت من الديوانية في اليوم الثاني من تموز ، كما أنجذتها في اليوم الثالث سرية من
فوج المشاة التاسع والتسعين بقيادة الكابتين براك الذي انضم إلى الحامية وأصبح قائداً لها . وبذلك يبلغ
تعداد الذين حوصروا في حامية الرميثة من البريطانيين أربعة ضباط إنكليز ، وثلاث مئة جندي
هندي ، ومئتي هندي غير محارب يعود أكثرهم إلى دائرة السكك الحديدية . ولم يمكن فك الحصار عن
هذه القوة ، التي أخذ منها الجوع مأخذه وأنهكها الأعياء ، إلا في يوم ٢٠ تموز حينما وصل إليها
رتل قوي من بغداد بقيادة أمير اللواء كولينغهام ، بعد قتال عنيف شق طريقه على أثره . وكانت
ضحاياه ٣٥ قتيلاً و ١٥٠ جريحاً ، لكن حامية الرميثة المحاصرة خسرت ثلث عددها أيضاً . وفي اليوم
الحادي والعشرين من تموز تراجعت القوة بأجمعها إلى الديوانية ، ولم تستطع الوصول إليها إلا في اليوم
الخامس والعشرين لأنها اشتبكت مع الثوار خلال ذلك في اشتباكات معوقة عنيفة .

الى الميدان بقيادة علوان الحاج سعدون ، أخو الشيخ عمران ، فأشار شيوخ
الخزاعل المتنفذون الذين كانوا قد طمنوا معاون الحاكم السياسي في أم
البحرور بانهم سيقفون بجانبه - اشاروا عليه بانه من الافضل له ان يغادر
مكانه ويوصل بسلام الى الكوفة . لكنه صمد يوماً واحداً او يومين حتى اقتنع
بانه لم يكن بوسعه الوقوف ضد التيار فرحل الى الكوفة . وكذلك وصلت حامية
ابي صخير سالمة الى الكوفة وكان ذلك بمساعدة بعض فروع القبائل .

وكان يبدو ان القبائل ما زالت مترددة . حيث ان عمران لم يكن قد اشترك
بعد مع الثوار ، وقد رافق في يوم ١٩ تموز معاون الحاكم السياسي في طويريج
الى المخيم في الجانب الثاني من الكوفة فأجريت الترتيبات هناك لوقف القتال .
لكن الشيوخ اشتطوا في مطالبتهم في اليوم التالي وانقطعت المفاوضات . وقد
اخليت السدة والمسيب في ٢٤ تموز عندما علم بان ولاء عمران غير الأكيد قد
انهار في الاخير . ووقع في اليوم نفسه انتكاس مؤلم . حيث ان ثلاث سرايا من
فوج مانجستر كانت قد ارسلت لتأخذ موقعاً في الطريق بين الكوفة والكفل
فنضب ماؤها وأنهكت حرارة الجوعى افرادها واضطرت الى التقهقر في
وجه هجوم^٢ كبدهم أخذ نصف عددهم أسرى . وكانت هذه الموقعة التي

(١) كان معاون الحاكم السياسي يومذاك الكاتبان مان ، الذي عين في أم البحرور بتاريخ
١٩/٨/١٥ . وقد قتل بعد ذلك في يوم ٢٢ تموز ١٩٢٠ في الكوفة حينما كان يقف الى جنب الميجر
نوربري في أثناء مقاومة الحامية للحصار الذي فرضه عليها الثوار .

(٢) كانت هذه موقعة الرارنجية المشهورة ، التي انتصر فيها الثوار انتصاراً مدوياً . ويذكر
السر أرنولد ويلسن عن هذه الموقعة أن رتلا من الجيش يتألف من ثلاث سرايا ، مصحوبة ببطارية
واحدة من مدفعية الميدان ، قد اقتضى تجريده من الخلة لارهاب القبائل التي هبت ثائرة في تلك الجهات ،
واحتل فريق منها يعوّد الى بني حسن بلدة الكفل ، بعد ان شجعها نجاح الثوار في منطقة الرميثة . وقد
سار الرتل من الخلة في جوحار وشمس محرقة فوصل الى معسكره في الرارنجية قبيل الساعة الواحدة
ظهراً ، وهو منهك القوى . فهاجمت القبائل الثائرة هذا المعسكر بعد ظهر اليوم نفسه ، وبالنظر لخطأ
حصل في توزيع القوة ومعالجة الموقف استطاع الثوار ان يقتربوا جداً منه عند الغروب . وعند ذلك
قرر القائد أن يتراجع الى الخلة لئلا يضطر الى الاشتباك مع قوات تفوقه قواته في العدد ، لكن قواته =

بالغت الشائعات بأخبارها كثيراً بمثابة إشارة لجميع البلاد الواقعة غربي شط
الحلة للقيام بثورة مسلحة ، اما في الجانب الأيسر فقد بقيت القبائل مترددة -
وقد بذل الشيخ عداي شيخ البوسلطان على الاخص جهوده في المحافظة على
السلم - بينما حوفظ على التوازن في منطقة دجلة .

وقد استحال القيام باتخاذ تدابير فعالة حتى تمكن رتل الديوانية من التقهقر
الى الحلة ، وهو الرتل الذي كان يؤلف جميع القوة التأديبية المتيسرة عندنا
عملياً . وكان تراجعهم عملاً باهراً بالنسبة للوضع ، حيث ان خط السكة كان
يصالح شيئاً فشيئاً فتنقل عليه الدوارج والدخائر الحربية ، كما نقل بواسطته
الرجال غير المحاربين والجرحي وغير ذلك ، فضلاً عما أنزل الرتل المتراجع
هذا من الحسائر الفادحة بالعشائر التي كانت تهاجمه . ولم يُضغَط على حامية
الكوفة ضغطاً شديداً ، وقبل ان يرفع الحصار عنها استوفت المواصلات مع
بغداد وأعيد احتلال السدة .

= لم تكن في وضع تستطيع فيه التراجع فاستحال التقهقر الى هزيمة وانحياز . فقد أضاع قسم من القوات
طريقه في الظلام ، ولم يستطع العودة الى الحلة في صباح اليوم الثاني الا أقل من نصفه .
وقد كبدت هذا الواقعة الانكليز (١٨٠) قتيلاً و (٦٠) جريحاً ، وحوالي (١٦٠) أسيراً ، وأسره
الثوار ، مع خسائر فادحة في وسائل النقل من عربات وحيوانات . وعومل الاسرى البريطانيون معاملة
حسنة ، فلم يمض من بين (٧٩) أسيراً انكليزياً سوى أسير واحد فقط ..

والمعروف أن مدفع الميدان المذكور أخذ الى الكوفة واستفاد منه الثوار في اغراق الزورق المسلح
« فاير فلاي » الذي كان يحمي بنيرانه من النهر الحامية الانكليزية المحاصرة في بناية كانت تطل عليه .
وكانت العشائر التي اشتركت في الهجوم من بني حسن وآل قتله والعباد . اما الرارنجية فهي موقع يقع
في مقاطعة الرستمية الكائنة ما بين الحلة والكفل في طريق الحلة - النجف .

(١) وبالرغم من هذا الاعتراف بعدم ضغط الثوار على حامية الكوفة نشطت الطائرات في تلك
المنطقة . وكان أهم ما قامت به ، مما لا بد من ذكره هنا ، انها قصفت من الجو مسجد الكوفة المشهور
في يوم ٨ ذي القعدة ١٣٣٨ فقتلت بعض النساء والاطفال . وفيما يلي بيان الثوار في هذه المناسبة :

الى العالم المتمدن

« لقد اتضح للملأ ان حكومة الاحتلال في العراق من بقايا الحكومات الظالمة في القرون المظلمة كما
دلت على ذلك صرامة احكامها وتنوع اعتداءاتها . فكم ارهقت نفوساً وازهقت ارواحاً كان ذنبها
المجاهرة بحقوقها والمطالبة باستقلال بلادها فاستعملت سلطتها العسكرية واطلقت يدها في الحركات الحربية =



الكولونيل جيرارد أي. أليجمن باللباس العربي

ومع هذا فقد استسلمت الفوضى وضربت أطنابها في البلاد . فلم يكن

أرغاماً للامة العراقية على قبول وصايتها والتسليم بنظام وكالتها والرضوخ الى حكم قوتها ...
لا نريد الآن ان ننشر كافة السيئات والجنائيات التي اقترفتها حكومة الاحتلال في العراق . ولكننا
نكتفي بذكر عمل واحد من اعمالها ليقف العالم المتبدن على كنه هذه الحكومة وعلى درجة مدنيته =

الامن مستتباً في خارج حدود بغداد . لان القبائل خرجت تطلب السلب والنهب واخذت تهاجم التجار الوطنيين والضباط البريطانيين من دون تفريق بينهم . ووقع الكولونيل ليجمن فريسة للتحقق الذي كان يحز في نفس ابرز شيوخ العشائر النازلة على طريق الفلوجة الذي كان ليجمن يزوره في مخيمه . حيث كمن له ابن^٢ الشيخ فقتله سالماً خرج من الخيمة . لكن عشائر الدليم برئاسة الشيخ علي السليمان وعزة برئاسة فهد بك وابنه محروث : الذين تمكن الكولونيل ليجمن بواسطتهم من السيطرة على منطقة الفرات من الفلوجة الى عانة ، ظلوا مواليين للحكومة التي كان يمثلها هو . أما في ديارى فان شردمة من رجال قبيلة الكرخیة غير المهمة قطعت سكة الحديد وأغارت على بعقوبة^٣ . وقد ادى

= الكاذبة او على مبلغ ما انتهت اليه من معاداة الانسانية . فقد حلفت طياراتها صبيحة أمس ، ٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ ، والقت قذائفها النارية على مسجد الكوفة وهو غاص بالزهاد والمعتكفين متلى بالنساء والمتعبدين فقتلت جملة من الابرياء وجرحت اكثر من عشرين ناسكاً في محاريبهم . وقد سقطت احدى القذائف على امرأتين فتمزقت اعضاؤهما وتقطعت اوصالهما ، وفشكت بثلاثة اطفال وخربت المقام المشهور بمقام القضاء . فلم يكن مشهد افظع من هذا المشهد ، فقد بلا القضاء انين جرحى الزهاد فمزق القلوب والاكباد ... »

النجف ٩ ذي القعدة ١٣٣٨

وكان السلطات البريطانية شعرت بالوقع السيء الذي أحدثته غارة الطائرات على هذا المسجد التاريخي المشهور فأذاعت بتاريخ ٧ آب و ٢٢ ذي القعدة البيان التالي :

« وافت الأنباء منذ بضعة ايام من مصدر ذي شأن يمتد على صحته ان جامع علي في الكوفة يستعمله الشيوخ العصاة مركزاً لأعمالهم . وبينما كانت الطائرات محلقة فوق الكوفة أطلقت عليها النار من هذا الجامع ، فقتلها طائرات بالمثل غير عالة انه جامع والقت قنابلها بجواره . ومع ذلك وان كان هذا الجامع وغيره من الجوامع قد استعمله العصاة لأغراض عسكرية فقد صدرت الاوامر بان لا تلقى عليها القنابل حتى وان كانت بمثابة مواقع لاطلاق النار منها على جنودنا وعلى طياراتنا . »

(١) انه المرحوم الشيخ ضاري المحمود شيخ قبيلة زوبع ، وقد قتل ليجمن لان الاخير اهانته وأسمه قارص الكلام ، ولا غرو فان الشيخ ضاري يعد من ابطال الثورة العراقية .

(٢) راجع عن تفصيلات قتله التي يرويها الابن المشار اليه (الحاج سليمان) كتاب « الشيخ ضاري » لعبد الحميد العلوجي وعزيز الحجيبة ، الص ٤٩ الى ٥٥ . بغداد ١٩٦٨ .

(٣) يفهم مما جاء في كتاب أرنولد ويلسن والمراجع المحلية ان عشائر العزة

تقصيرنا في الاقتصاص منهم الى اقتناعهم واقتناع العشائر الاخرى بان ضعف البريطانيين العسكري لم يكن شيئاً مبالغاً فيه ، فهبت المنطقة عن بكرة أبيها للنهب والسلب . وانعزلت القرى الكائنة في أعلى النهر . اما مذبحه الموظفين الاداريين في شهربان ، بعد ان دافعوا عن أنفسهم مدة أيام ثلاثة وقف خلالها الشبان العرب موالين لضباطهم وسقطوا صرعى معهم ، فقد تكررت في كفري^١ أيضاً . وعندما اتسع نطاق الثورة بقي الحكام السياسيون في الجهات الأخرى في قبضة الثوار من دون ان يمسوا أو يعتدي عليهم .

وقد أحدثت الثورة في ديالى انطباعاً سيئاً في نفوس وجهاء بغداد الذين

= بزعامه الشيخ حبيب الخيزران ، وبني تميم برئاسة حميد الحسن ، والكرخية برئاسة الشيخ مخير ، هي التي قطعت سكة الحديد وهاجمت بعقوبة فحررتها من الاحتلال الانكليزي وليس قبيلة الكرخية وحدها كما تذكر المس بيل للتقليل من أهمية الحركة . وكان ذلك في الوقت الذي كان الكابتن لويد (لويد رئيس المحاكم ومدير جمعية التموالعام بعد ذلك) يتوكل في بعقوبة نيابة عن الحاكم السياسي الميجر هير ، فأمر لويد وأمر معه المستر ستر اخن ضابط الري فأبقاهما الشيخ حبيب عنده في دلي عباس . وقد بدأت الحركة في يوم ٦ آب ١٩٢٠ ، وفي ١٢ آب قطعت سكة الحديد بينها وبين المقدادية (شهربان يومذاك) ، فثار أهالي المقدادية في اليوم التالي واستولت العشائر على البلدة .

وقد قتل من كان في المقدادية من الانكليز وهم : الكابتن ريگلي معاون الحاكم السياسي والكابتن برادفيلد قائد الشبانة - وكان عددهم خمسين - ومدربا الشبانة نيوتن ونسبيت ، والكابتن بوكانان ضابط الري الذي نجت زوجته المسز بوكانان من الموت بعد أن أصيبت بجرح طفيف لأن أحد الملاكين بادر الى حمايتها في بيته وأبقاها عنده الى يوم ٩ أيلول حينما أعيد احتلال المقدادية . وقد كتبت المسز بوكانان بعد هذا كتاباً خاصاً سمته باسم (في أيدي العرب) ، وروت فيه القصة بالتفصيل . وكان هناك بالإضافة الى هؤلاء المستر جون بينز مدير المزرعة العسكرية ، الذي جرح جرحاً خطيراً وألقي القبض عليه لكنه لم يقتل .

(١) هاجم كفري فريق من عشيرة الدلو ، يقوده ويس بك و ابراهيم خان ، فاحتلها بتاريخ ٢٤ آب ١٩٢٠ . وفي يوم ٢٨ منه قتل الحاكم السياسي الكابتن سالون الذي كان مودعاً في السجن منذ يوم ٢٢ على أثر القبض عليه في أثناء تداوله مع رجال الحركة في خارج البلدة . لكن الأهالي أنقذوا زوجته المسز سالون وأوصلوها الى أقرب معسكر بريطاني .

يملك معظمهم مقاطعات زراعية واسعة على جداول ديارى . حيث ان القبائل
لم تتردد في وضع يدها على مخازن حبوبهم وعلى حاصلات بساتينهم ، فأدى
هذا الى انقلاب غريب في شعور اولئك الذين اشتركوا في الحركة الوطنية في
مراحلها الاولى . ولم يكن نقيب بغداد بعيداً عن الافصاح عن الرأي العام
عندما قال : « لقد رأينا ما لم نره من قبل ، وقد تعلمنا من ذلك اشياء كثيرة » .



الشيخ نور الياسري من قادة الثورة البارزين،
الباذلين لها من مآطهم



الشيخ ضاري المحمود قاتل ليجين



الشيخ حبيب الحيزران ، من قادة الثورة
في لواء ديالى



الشيخ عجيل الياور شيخ مشايخ شعر ، من الذين
أسهموا في احتلال تلعفر وقطع طريق الموصل

الفصل الحادي عشر

الحكم الذاتي في العراق

كان نشر التصريح الانكليزي - الافرنسي في العراق ضرورة يؤسف لها ، مهما كانت اهميته السياسية في الجهات الاخرى من العالم . فمع ان هذا التصريح جاء مكرراً للنوايا التي كانت قد اذيعت^٢ على العراقيين عند احتلال بغداد فانها تتميز عنه بميزة هامة واحدة ، وهي ان البيان الذي اذيع عند احتلال بغداد قد صدر في وقت كانت فيه مصائر الحرب محفوفة بالشك والريبة وبذا كان يعتبر ضرورة عسكرية ، بينما نشر التصريح الانكليزي الافرنسي بعد انتصار الحلفاء فقبول والحالة هذه بالتصديق . وكان اهالي العراق قبل نشره قد سلموا بأن البلاد ستبقى خاضعة للسيطرة البريطانية المباشرة ، واقتنعوا جميعاً بقبول ما قرره الحرب بعد ان شهدوا نجاحنا فيها . وقد كشف لهم التصريح عن احتمالات اخرى كان ينظر اليها في كل مكان تقريباً بقلق وتلهف ،

(١) هذه مذكرة سرية كتبها المس بيل في شباط ١٩١٩ ، وهي غير التقرير الذي تكون فصوله هذا الكتاب . وهذه المذكرة وان كان فيها تكرار لبعض المعلومات التي ذكرت في الفصل الاخير الا انها تحتوي على تفاصيل مهمة رأينا من المفيد ان نوردها هنا كذلك .

(٢) المقصود هنا بيان الجنرال مود الذي مر ذكره في الفصول السابقة .

لكنها افسحت المجال امام العناصر المتعصبة غير المستقرة لحبك الدسائس السياسية . ومن المدهش حقاً ان التصريح لم يسبب سوى حركة ضئيلة مثل هذه . لكننا يجب ان نتذكر ان نشره جاء بعد ان عاد الى بغداد ، بموجب شروط الهدنة ، نفر غير مرغوب فيه من الأشخاص الذين يعتبر وجودهم مضرّاً بالاستقرار العام في البلاد . فقد عاد من الموصل في أوائل تشرين الثاني العرب الذين كانوا منخرطين في سلك الخدمة التركية ، العسكرية او المدنية ، وانحازوا الى الاثراك بعد الاحتلال ، والبعض من اعضاء حزب الاتحاد والترقي الفعالين (أي الحزب المسؤول عن دخول تركية الحرب ضد بريطانيا العظمى) وأناس آخرون لم يتجرأوا على البقاء في بغداد عند احتلالها لميولهم التركية المعروفة ، فانشغل الكثيرون منهم في الحال ببث الدعاية المناوئة للبريطانيين . والظاهر أن تأثيرهم المباشر كان منحصراً في بغداد والكاظمية ، الا ان المتطرفين منهم قصدوا بعقوبة والنجف ومنطقة الشامية فكان لهم بعض التأثير فيها ، ومن المعتقد ان الشريف كان له وكلاء منذ عدة اشهر خلت في بلدة بعقوبة ومنطقة الشامية . ولا شك ان تأثير التصريح قد ازدادت شدته حينما نشرت وكالة رويتر ان الشريف فيصلاً ذهب الى مؤتمر الصلح ممثلاً عن الدولة العربية . على ان الشائعات التي كانت تشيع عن حقيقة الحال في سورية كان لها تأثير مختلف لدى مختلف الجهات . فقد تخوف مسيحيو الموصل مثلاً من مثل هذا الحكم العربي الذي اصبح شيئاً ملموساً ، ولم يتشجع اصحاب الثروة والمنزلة من الناس على اختلاف أديانهم بالقليل الذي كانوا يسمعون في هذا الشأن . ونرى من جهة أخرى ان رفع الاعلام العربية في كل مكان ، وتعيين الحكام العسكريين من العرب ، لا يمكن الا ان يكونا قد ألها افكار السياسيين المحترفين أو محترفي السياسة المقبلين في بغداد .

اما في جهات العراق الاخرى فان التصريح لم يحدث شيئاً اكثر مما كان يفصح عنه الناس بين حين وآخر بكونهم يفضلون تنصيب أمير في رأس الدولة يخضع للحماية البريطانية ، لكن الموقعين على المضابط الاستفتائية منهم قد

اضافوا الى هذا الرأي بكل عناية ما يفهم منه انه لا يمكن ايجاد الشخص اللائق لهذا المنصب في الوقت الحاضر . ولم يكن هناك إجماع عام في البلاد على نوع واحد من انواع الحكم . فقد طلبت منطقة العمارة العشائرية الزراعية العظيمة . على دجلة مع منطقة القرنة الصغيرة ، والعناصر العشائرية التي تقطن في اراضي منطقة بعقوبة الغنية ، ومنطقة كفري الواقعة في شمالها ، وجميع منطقة خانقين ، وجميع منطقة الحلة بما فيها بلدة الحلة على الفرات ، إبقاء نظام الحكم القائم والتوسع به . وكانت بلدة الحلة على الاخص ، وهي مركز تجارة الحبوب في الفرات ، متشددة في طلبها هذا . فان أهالي الحلة لم يكتفوا بالمضابط الواردة من الحلة والهندية والناصرية والديوانية التي وقع عليها كبار شيوخ العشائر والوجوه بل قدموا مضبطة أخرى تحمل (٤٠٠) توقيع بينها توابع كل رجل معروف في البلد تقريباً . وكان الداعي لتنظيم المضبطة الثانية هذه محاولة شخص معروف بميوله التركية تنظيم مضبطة مناوئة للبريطانيين في مقابل المضبطة الاولى .

اما بالنسبة للعشائر العراقية فليس هناك شك ان سياسة الادارة البريطانية تجاهها كانت قد قوبلت بالتأييد . فان شيوخ العمارة والقرنة يرغبون بكل وضوح في أن لا تحال النزاعات العشائرية الى المحاكم وانما يريدون ان يبت فيها الشيوخ انفسهم بمساعدة الحكام السياسيين ، اي بموجب الترتيبات الموجودة حالياً . كما ان طلب شيوخ العمارة بعدم عرض التزام المقاطعات بالازاد طالما يقوم الملتزمون بخدمة الحكومة خدمة صادقة يدل على انهم يؤيدون النظام الذي

(١) ان سلوك أهالي الحلة هذا - ان صح وقوعه - لا بد من انه كان متأثراً لدرجة كبيرة بالفظائع الشنيعة التي ارتكبتها الأتراك في الحلة قبيل الاحتلال (موقعة عاكف بك) . حيث ان الأتراك كما ذكر في الفصول السابقة ، وكما هو معروف الآن لدى الجميع ، اعدموا كثيراً من الوجوه وسبوا الكثير من العائلات الكريمة سبياً مخزياً ، فضلاً عن النهب والسلب اللذين وقعا في البلدة مع هذا الحادث . وحادث مثل هذا لا بد من ان يكون له رد فعل متطرف في نفوس الاهالي المفجوعين ، ذلك الرد الذي استغله الانكليز استغلالاً جيداً .

ادخلناه نحن ويقدرونه حق قدره . ومما يلاحظ ان المناطق التي يعرف فيها السر بيرسي كوكس معرفة جيدة ، ومنطقة الحلة ايضاً ، برغم انه لم يكن يُعرف فيها شخصياً ، ترشحه كلها لمنصب المندوب السامي في العراق ، وفي حالة واحدة او حالتين ، وخاصة في منطقة الناصرية ، كانت المضابط ضد تنصيب الشريف أميراً في العراق بصورة جازمة .

وفي بغداد ، حيث يكون الرأي العام السياسي اكثر نضجاً وتقدماً من سائر المناطق ، أدى نشر التصريح الانكليزي - الافرنسي الى نتائج عاجلة . فقد كان الجميع يعتبرون ان فكرة تنصيب أمير عربي هي حل معقول لمشكلة الحكم الذاتي في العراق ، لكن اختلافاً لا يستهان به كان موجوداً حول الشخص الذي ينتخب لهذا المنصب ، فكان أبرز المرشحين بين الناس أحد أنجال الشريف ، لكن كثيراً من الناس كانوا يفضلون هادي العمري رئيس الاسرة العمرية المعروفة في الموصل وكان قد أشغل منصباً رفيعاً في استانبول وقد اقترح البعض على سبيل التجربة احد ابناء سلطان مصر او غيره من المصريين . اضيف الى ذلك ان نقيب بغداد ذكر مرتين من قبل زوار المكتب السياسي .

على ان موقف النقيب كان يختلف عن موقف المرشحين الآخرين . فانه كان يصرح جازماً في أحاديثه الخاصة مع الحكام السياسيين بانه ضد تعيين أمير على رأس الحكومة في العراق على أساس ان البلاد لم تكن على درجة من النضج تؤهلها لأي نوع من انواع الحكم العربي . ولذلك فانه كان يدعو الى استمرار الادارة البريطانية التي يتحتم عليها أن تتعاون مع سكان البلاد وتكثر من استخدامهم بصورة تدريجية . وكان يؤكد على الحاجة الى وجود الحاميات البريطانية في البلاد للمحافظة على السلم ، ويعرب في كل وقت عن تعجبه وأسفه لاستفتاء الرأي العام عن مستقبل البلاد .

وكان من المستبعد جداً ان يؤدي أي ضغط عليه ، في اقناعه هو أو أي فرد من أسرته بقبول مسؤوليات رئاسة الدولة العربية ، الى النجاح المطلوب .

وكان أحد أحفاده ، الذي كان يعتبر مما يحتمل ان يرثوه في النقابة ، ينظر الى هذا المطمح برعب وفزع . لكن الالتجاء الى الضغط في هذا الشأن ، مهما كان شيئاً معقولاً^١ ، سيكون عرضة الى الشكوك الخطيرة .

وكانت حملة التحريكات السياسية في الوقت نفسه في دور التنظيم في بغداد . وكان قادة الحركة من الشبان^٢ الذين تقل أعمارهم عن الثلاثين ، وكان اثنان منهم ينتميان الى عائلات عريقة ، بينما كان الباقيون من أسر لا منزلة اجتماعية لها ولا اقتصادية . وكان أكثرهم قد عادوا مؤخرأً من الموصل ، كما كانت نسبة لا يستهان بها منهم من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي السابقين ، حتى ان واحداً منهم على الأقل كان تركياً في عنصريته . وكانت أول أعراض التحريكات أنهم عمدوا الى تقديم طلب الى الحكومة باصدار جريدة ، وهو طلب تطور الى مشروع تأسيس نادٍ تكون الجريدة المذكورة لسان حاله . وبينما كان هذا المشروع بانتظار اجراء ما يقتضي من الترتيبات للبداية به وقعت حادثة في النجف . فقد زار بلدة النجف وكيل الحاكم الملكي العام الذي كان قد زار الشريف ، فقابل هناك وفداً يمثل العلماء وشيوخ القبائل وشرح لهم بان رأيهم سيؤخذ حول النقاط الثلاث التي ستعرض على البلاد بوجه عام ، وهي هل يرون ان الدولة العراقية يجب ان تضم ولاية الموصل اليها ، وهل يترأس هذه الدولة أمير من الامراء ، وأي شخص سينتخبونه لهذا المنصب . فاجتمع المجتمعون على تحييد^٣ استمرار الحماية البريطانية على البلاد من الموصل^٤ الى

(١) اذا كانت المس بيل تقصد بهذه الحجة الاقلال من شأن المشتغلين بالحركة الوطنية فما قولها بالكلونيل ويلسن وكيل الحاكم الملكي العام الذي كان عمره في الوقت نفسه لا يتجاوز الخمسة والثلاثين سنة ، وفي قسم غير قليل من الحكام السياسيين الذين كانت اعمارهم تقل عن الثلاثين يومذاك .

(٢) كان هذا الرأي بلا شك رأي المماليك للسلطة البريطانية .

(٣) اما سبب إدخال ذكر الموصل في الاستفتاء فهو ان الجيوش البريطانية لم تكن قد دخلت الموصل حينما أعلنت الهدنة ، ولم تكمل احتلال منطقتها الا فيما بعد . ولما كانت تركية قد أصرت على المطالبة بمنطقة الموصل رأت بريطانيا ان استحصال رأي العراقيين بهذه الطريقة قد يفيد في دحض ادعاء تركية فكان لها ما أرادت . ومع هذا فلم تحل المشكلة الا بعد ان أوقدت عصبة الأمم في ١٩٢٥ لجنة دولية للتحقيق في الأمر كما هو معروف .

الخليج العربي من غير تنصيب أمير عليها ، على ان احد الشبان الشيعة في بغداد زار النجف بعد يومين بحجة الاشغال الخاصة ، وشرع بتنفيذ خطة مقصودة كانت غايتها اقناع أهالي النجف والشامية بالعدول عن التوقيع على المضبطة المتفق عليها باللعب على شعورهم الديني وعلى كرامة بعض الشيوخ الشخصية . وكان مشير هذه الفتنة رجلاً ذا شهرة لا يستهان بها ككاتب وأديب . كما كان مستخدماً عندنا في دائرة الشرطة فأخرج بسبب خشونته قبل ما يقارب السنة الواحدة . ولما كان هو نفسه قد وقع بعد ذلك على إحدى مضابط بغداد التي تفضل استمرار السيطرة البريطانية فان توقيعه مع الجهة المقابلة لا قيمة له . وعند وصوله الى النجف ادعى بأنه « وكيل سري » من وكلاء الحكومة فحكم



العلامة السيد محمد كاظم اليزدي

عليه حاكم الشامية السياسي بناء على هذا بالحبس لمدة اسبوعين أعيد بعدهما الى بغداد . وبنتيجة النشاط الذي أبداه لم ترسل المضبطة الاصلية من النجف والشامية ، وانما أرسلت بدلاً عنها سلسلة من المضابط تختلف عملياً عن المضبطة الاولى اختلافاً طفيفاً في الرأي . فقد طالبت المضابط الاخيرة بتنصيب أمير على رأس الدولة يستظل بظل الحماية البريطانية ريثما تكون البلاد مستعدة لاجراء تبدل

في وضع حكومتها لكنها لم تخصص أي شخص للامارة . ويجب ان يلاحظ ان السيد محمد كاظم اليزدي ، اكبر العلماء الروحانيين ،

(١) من المرجح انها تقصد بهذا الاستاذ كاسم الدجيلي الشاعر المعروف

كان يحمل افكاراً تشابه افكار نقيب بغداد . حيث انه بالرغم من الضغط الذي تعرض اليه رفض ان يدلي بشيء يكون في غير صالح التدخل الاجنبي في العراق ، حتى انه جعل الناس يعرفون انه ميال الى الجانب الآخر . وهذا أقصى ما يمكن ان يؤمل من رجل متفرغ للشؤون الدينية تمام التفرغ . ولو تخطى هذا الحد لتعرض تأثيره كرئيس ديني للخطر فتقل بذلك قيمة تأييده الضمني الينا . ولم تكن حادثة النجف وحدها هي التي كشفت لنا عن خطط الجماعة البغدادية في اثارة الفتن : لان النقيب واشخاصاً آخرين اندرونا بصورة خاصة أيضاً عن غاياتها وخططها : وعلى هذا رُد طلب تأسيس النادي واصدار الجريدة ، وبعد ان حبس الرسول الذي أوفد الى النجف لم يحدد الطلب بشأنهما .

على ان التحريكات بقيت مستمرة فاصابت نجاحها الجزئي الآخر في كربلا . فقد أصدر العالم الايراني في البلدة فتوى بتكفير^١ أي شخص يرغب في تأسيس حكومة غير اسلامية . فتردد رجال البلد البارزون ، تجاه هذه الفتوى ، في الافصاح عن رأيهم كتابةً في الوقت الذي كانوا يطمنون معاون الحاكم السياسي بصورة شفوية عن موالاتهم لنا . أما العشائر التي لا يمكن تضليلها بسهولة فقد طالبت بأبقاء الادارة البريطانية من دون تبديل .

وكان أبرز شخصية على الاطلاق في حركة كربلا ابن المرزا محمد تقي المسن . وكانت منزلة محمد تقي في العالم الشيعي لا تفوقها الا منزلة محمد كاظم اليزدي ، لكنه كان يكاد أن يكون خرفاً^٢ يستولي عليه بالكلية ابنه محمد رضا الذي كان على اتصال وثيق بمشاغي النجف . والمرزا محمد تقي ايراني مثل

(١) اوردنا الفتوى المشار اليها في شروح الفصل السابق ، وهي ليست باللهجة المتطرفة هذه ، ونرجو ان يلتفت القارئ الكريم هذا الى غمز المس بيل للعلامة محمد تقي ومحاولة الطعن في منزلته عند العراقيين عن طريق نعته بالايروانية .

(٢) ان في هذا الحكم تجاوزاً من المس بيل لا يبرره إلا حقدنا البريطاني لأن ساحة العلامة وقف حجر عثرة في سبيل الخطط الاستعمارية .

جميع مجتهدى العراق البارزين ، وقد كان حتى الوقت الحاضر على وئام تام معنا^١.

وقد وصلت قصص مبالغ فيها عما كان يجري في النجف وكربلا الى اهالي الكاظمية المدينة الشيعية المقدسة الثالثة حيث كان الشعور الوطني آخذاً في الطغيان . وهناك أدلة تثبت ان الكاظمية كان يشتغل فيها وكلاء من استانبول بعد ان وجدوا فيها مادة تناسب أغراضهم . وعلى هذا ، عندما طلب الى بلدة الكاظمية ان تعطي رأياً حول النقاط الثلاث التي مر ذكرها هدد العلماء أي شخص يصوت للاحتلال البريطاني بالمروق عن الدين والطرده من الجوامع . وبالرغم من التحريم الوشيك صمد عدد من المواطنين البارزين والشيوخ المحليين ، ولم تكن شجاعتهم تلك شيئاً هيناً . وقد اخذت المضبطة^٢ المناوئة للبريطانيين الى الجامع الاكبر في الليل فكُسب عدد من المحجمين عنها ، لكن الفصاحة والبيان المتناهي لم تغيرا من رأي رئيس البلدية^٣ ، وهو أبرز تجار البلدة في الوقت نفسه ، ولم يحولا دون اشتغاله في تهيئة مضبطة مقابلة في صالح الحكم البريطاني . فقد استحصل لها توافيق التجار الآخرين ومعظم الشيوخ المحليين

-
- (١) لا ندري كيف يمكن التوفيق بين زعم المؤلفة هذا ، وبين تنديدها هي وزملاؤها من أمثال ويلسن بالعلامة الشيرازي لأنه كان على رأس الثورة ضد الانكليز .
(٢) ندرج فيما يلي نص المضبطة المشار اليها نقلاً عن كتاب « القضية العراقية » للدكتور محمد مهدي البصير :

بسم الله الرحمن الرحيم

بناء على الحرية التي منحتنا اياها الدول العظمى وفي مقدمتين الدولتان الفخيمتان انكلترة وفرنسة ، وحيث اننا مثلوا جمهور كبير من الامة العربية العراقية المسلمة فاننا نطلب ان تكون للعراق الممتدة اراضيها من شمال الموصل الى خليج فارس حكومة عربية اسلامية يرأسها ملك عربي مسلم هو احد انجال جلالة الملك حسين ، على ان يكون مقيداً بمجلس تشريعي وطني ، والله ولي التوفيق .

حرر يوم الاربعاء ٥ ربيع الثاني ١٣٣٧

عبد الحسين آل الشيخ ياسين

وتوافيق كثيرة اخرى

ابراهيم السلمي

السيد حسن الصدر

محمد مهدي الصدر

احمد آل السيد حيدر

- (٣) اي السيد جعفر عطيفة الذي انحاز الى الانكليز واستفاد منهم .

ورعايا الهند البريطانيون . وينتمي الاخيريون الى أسر كانت تقيم في الكاظمية منذ مدة طويلة وتتمتع بسمعة طيبة . واذا اعتبر هؤلاء من الاجانب بالنسبة لوجهة النظر العراقية فان العلماء الايرانيين الذين اصدروا الفتوى لا يمكن ان يتملصوا من نقد كهذا أيضاً .

وقد اتخذ القرار في بغداد بعد أيام قلائل . فطلب الى النقيب والى قاضي الشيعة ان ينتقي كل منهما خمسة وعشرين شخصاً من اشراف طائفتيهما ، كما طلب الى الحاخام الاكبر ترشيح عشرين من وجهاء اليهود ، والى رؤساء الطوائف المسيحية ان يرشحوا عشرة من المسيحيين . فكان هذا التمثيل في صالح المسلمين الذين بلغت نسبة ممثليهم ثلاثة اخماس المجموع بينما لا يزيد عدد نفوسهم في المدينة على خمسة اثمان السكان فيها . غير ان النقيب ، جرياً على عادته التي لا يمكن ان يشذ عنها بالامتناع عن التدخل في الشؤون السياسية العامة ، رفض تلبية الطلب ووافق على ان يستبدل بقاضي السنة . وعندما دعت السلطات المدنية البريطانية القاضي للعمل كانت تحدوها الرغبة في جعل عملية ترشيح الاشراف الذين يمثلون البلاد بأيدي اناس يعترف بهم الجميع كرؤساء رسميين للطوائف المسلمة ، ولا يمكن في الوقت نفسه ان يتهموا بالتحيز للبريطانيين . وكانت وظيفة القاضي الجعفري من خلق الادارة البريطانية ، لان الاقرار لم يكونوا ليعترفوا بوجود قاضٍ شيعي ، لكن الذي كان يشغل هذا القضاء شخص ضعيف لا لون له ، وكانت ابرز صفاته التي تميزه لاشغال هذا المنصب قديته المقعم بنكران الذات ...

وبدلاً من ان ينتخب القاضيان الممثلين بحسب ما طلب اليهما ان يفعلوا جمع

(١) لقد خرج النقيب على عادته هذه ، بالنسبة لما عندنا من المعلومات ، مرة واحدة فقط . فعند تقدمنا الاول الى سلمان باك في ١٩١٥ عقد احرار العرب اجتماعاً في دار النقيب ليقرروا فيما اذا كان من الواجب ارسال تعليمات لقائد الجيش البريطاني بالمؤازرة . فخالف النقيب هذا الاقتراح على اساس انه كان من رعايا السلطان التركي طول عمره ولا يستطيع ان يخلع ولاءه هذا في مثل هذا الوقت المتأخر . (تعليق المؤلف)

كل منهما رجال طائفته لينتخبوا الممثلين المطلوبين . وفي كلا الاجتماعين القيت الخطب النارية المتطرفة ، ثم أخذ العهد من المندوبين المنتخبين بان يطلبوا تأسيس حكومة عربية غير خاضعة للحماية الاوربية . وقد أحضرت هذه الالتزامات من قبل فعرضها القاضيان عند انعقاد الاجتماعين . فذكر في العهد الذي تعهد به ممثلو السنة ان العرب لهم الاهلية التامة ليحكموا أنفسهم بانفسهم ، وقد ذيل بخمسة وأربعين توقيعاً على رأسها توقيع القاضي فوق الختم الرسمي للمحكمة الجعفرية التي ترأس الاجتماع فيها . على ان اجتماع الممثلين السنة لم يمر من دون وقوع حادث ما . فان موسى الباجه جي عميد احدي الاسر الكبيرة في البلد ومن اكبر ملاكيها ترك الاجتماع متذمراً ومصرحاً انه لا يمكن ان يشترك في حماقات مثل هذه ، وان اثنين من الاشراف احتجا على كيفية تسيير الاجتماع والانتخاب ، فقبولاً بعاصفة من الصباح وأجلسا بسيل من نعوت الخيانة والكفر ، ومن الخمسة والعشرين ممثلاً الذين انتخبوا عن السنة رفض بعد الاجتماع سبعة ممثلين الاضطلاع بالمهمة . وكان بين هؤلاء السبعة اثنان من أسرة النقيب زاده واثنان من أسرة جميل زاده ، وعلى هذا لم يمثل هاتين الاسرتين أحد في المضبطة النهائية .

ولاجل ملء شواغر المنسحبين أضيفت اسماء خمسة الى القائمة الاصلية ، لكن نصاب عدد السنة بقي ناقصاً باثنين . وكان عدد تواقيع الممثلين الشيعة اربعة وعشرين توقيعاً بدلاً من خمسة وعشرين لان أحد الممثلين وهو انسحب في اللحظة الاخيرة ، وكان من ملاكي بغداد المعروفين ، وقد كانت له صداقة وثيقة مع الحكام السياسيين الذين تعرف عليهم . وكان هو نفسه يفضل أو لا يجد ضرراً بتنصيب امير عربي على رأس الحكومة لكنه كان يعد تأسيس إدارة وطنية تسلم كلها بأيدي العرب شيئاً سخيفاً . على انه أخبر الحاكم العسكري انه لا يستطيع مجابهة التعنيف الديني الذي كان سيؤدي اليه احتجاجه بصورة صريحة على الوضع ، ولذلك قرر الانسحاب من دون ان يعطي اي تفسير لعمله هذا .

ومن الصعب على المرء ان يبالغ بمقدار الخصومة والذس اللذين رافقا وقوع هذه الحوادث ، وبالعامل الجدي الذي اخذته على عاتقها الجماعة المناوئة لبريطانية في احراج موقفها في مختلف المراكز خارج بغداد وفي مقاهي بغداد التي كانت تلقى فيها الخطب الرنانة ، وكانت أصدااء هذه الخطب تتردد في دوائر الحكومة السياسية لانه كما قال النقيب بحق : « ان الحكومة البريطانية تستطيع أن تستغني عن الجواسيس في هذه البلاد لان طبيعة كل عربي ان ينقل الى السلطات ما يفعله جميع العرب الآخرين » .

ويقال ان جماعات الثائرين المسلمين في المدينة لم يتباطأوا في اخبار مواطنيهم من ابناء الطوائف الدينية الأخرى ان الاهمية غير الطبيعية التي اكتسبتها تلك الطوائف في ظل الادارة البريطانية ، في نظر المسلمين ، سوف تقف عند حدها وقوفاً مفاجئاً . وكان اليهود ، قد رفعوا فور نشر التصريح الانكليزي - الافرنسي الذي سبب لهم قلقاً لا يستهان به ، عريضة يطلبون فيها ان يسمح لهم بأن يصبحوا رعايا بريطانيين . اما الآن فقد اجتمعوا بالطوائف المسيحية واتفقوا على القيام بعمل مشترك^٢ ، وعلى هذا الاساس امتنعوا عن التوقيع على المضبطة التي نظمها المسلمون عندما اجتمع في يوم ٢٢ كانون الثاني المندوبون السبعة والسبعون . وقد صيغت هذه المضبطة بحيث لم يكن من الممكن بموجبها اجراء اي استثناء لو لم تكن الظروف التي رافقت مخاض ولادتها معروفة عند الجميع . اذ أعرب السنة والشيعة عن رغبتهم في تأسيس دولة عربية تمتد من

(١) ان هذا القول ، مهما كان مبلغ صحته أو وقوعه ، يؤيده مع الأسف ما كان شائعاً بين الناس في ذلك الوقت من ان شخصيات واسراً كثيرة لها منزلتها الاجتماعية وحتى الدينية في المجتمع كانت معروفة بكونها محسوبة على السلطات البريطانية ومنسوبة لها .

(٢) يفهم مما يذكره الاستاذ علي البازركان في (الوقائع الحقيقية) ان الانكليز أنفسهم كانوا يروجون في تلك الأيام اشاعات فحواها ان المسلمين يريدون تكوين حكومة اسلامية بحته وأبعاد اليهود والنصارى عن البلد ، وقد فعلوا ذلك ليدفعوهم الى الهجرة ببقاء الاحتلال البريطاني في العراق لحمايتهم من تعصب المسلمين .

حدود ولاية الموصل الشمالية الى الخليج العربي ويرأسها ملك مسلم يجب ان يكون أحد أنجال الشريف . وتستطرد المضبطة قائلة ان الملك يجب ان يسترشد بمجلس محلي ويجب ان يقيم في بغداد . ولم تلمح الى أي نوع من انواع الحماية الاجنبية ، لكنه كما قال واحد من رجال البلد البارزين القلائل الذين وقعوا على المضبطة في حديث خاص له مع الحاكم السياسي الذي زاره بعد ظهر اليوم نفسه ليشرح له موقفه من المضبطة التي وقعها : « لم نسأل عن إبداء رأينا في موضوع الحماية الاجنبية . وقد تصورت انه من المسلم به ان تقوم الحكومة البريطانية بإبداء مشورتها لنا وتقديم مساعدتها الينا ، وهما أمران ضروريان لسعادتنا وفلاحنا » .

وقد بذلت الجهود العظيمة في الاجتماع لاقتناع المندوبين اليهود والمسيحيين بالاتفاق مع المسلمين . وقد خاطب المسيحيين متسائلاً عن الشيء الذي يخشونه في الوقت الذي سيكون فيه لكل من الطائفتين ممثلوها في المجلس المقترح . فأثارت كلماته قلقاً إضافياً في صدور المندوبين الذين وجه خطابه اليهم ، وقد قال أحد المندوبين اليهود انه : « كان من الواضح عندنا ان المسلمين كانوا يفكرون بخطة كاملة لتأسيس دولة مسلمة » . وانبرى يصب بياناً على اليهود ، فكانت خاتمة خطابه : « ألم يقدمكم النبي موسى مدة اربعين عاماً في التيه من أجل ان يطهركم ؟ ونحن ، جرياً على منواله ، سنأتي اليكم بخليفة مطهر من البادية يبعث فيكم الحياة من جديد » . الا ان مستمعيه رفضوا ، وهم يرتجفون هلعاً ، الموافقة على ما عرض عليهم . ثم وقعوا مضبطة اخرى يشيدون فيها بالادارة البريطانية ، وحذا المسيحيون حذوهم .

ولم يغلب المسلمون على امرهم بعنفهم في هذه المناسبة وحدها . حيث كان قسم كبير من السنة والشيعة الذين لم يوقعوا على مضبطني الكاظمية وبغداد يترددون في الايام القليلة التالية على الدوائر السياسية ويصرحون بعزمهم على

رفع احتجاجات بشكل مضابط^١ مقابلة . وقد أشار البغداديون من هؤلاء بحق الى ان الوثيقة التي قدمت لا يمكن بأي حال من الأحوال ان تكون ممثلة لرأي الاشراف في المدينة ، حيث ان نسبة كبيرة من اسماء الموقعين كانت اسماء أناس غير معروفين ، بينما العائلات الكبيرة لم تمثل فيها او قام بتمثيل قسم منها أناس من الشبان المستجدين . وكانت عدة مضابط مقابلة قد احضرت . فكانت الاولى تحمل في الدرجة الاولى توابع التجار السنة ، لكنها كانت تحمل ايضاً توقيع رئيس مختاري المدينة وتوقيع احد افراد الاسرة السويدية التي يرأسها يوسف السويدي ، الذي كان الاتراك قد نفوه الى استانبول . وهذه الاسرة تنحدر من نسل العباسيين ، ويوسف السويدي يتمتع باحترام الجميع وتقديرهم . وقد طلب موقعو المضبطة الاولى هذه بقاء الحكم البريطاني لا غير . كما طلبوا ان يصبحوا رعايا بريطانيين ، مثل ما طلب اليهود ، اذا كان بقاء الحكم البريطاني غير ممكن . وطلب في المضبطة الثانية تأسيس حكومة عربية محلية تحكم في البلاد الممتدة من شمال الموصل الى الخليج العربي بمساعدة البريطانيين وارشادهم ، على ان يكون السر بيرسي كوكس اول مندوب سام لها . وان تطبق في البلاد القوانين التي قبلت في السابق ، وان تراعى المساواة في الحقوق بين جميع الطوائف ، على ان تعطى الحرية التامة الى الحكومة المحلية في معالجة

(١) يروي الاستاذ علي البازركان (في كتابه) في هذا الشأن القصة الآتية :

.. ان في بغداد كما في غيرها من المدن العراقية من كان يود ان يبقى الانكليز في العراق ، وان يكون السر بيرسي كوكس ملكاً متوجاً عليه . ولا ازال اذكر ذهابي الى جانب الكرخ .. ومشاهدتي السيد قاسم الخضير في رأس الجسر من جانب الكرخ وهو يصيح بأعلى صوته : من يريد الحرية فليوقع هنا ، ويشير الى ورقة كانت بيده . فقلت له ما هذا يا أبا جميل وأخذت الورقة من يده واذا فيها « نحن أهالي بغداد نريد السر بيرسي كوكس ملكاً على العراق وأن يكون استقلالنا تحت حماية بريطانيا » . ولما سألته باستغراب عن عمله هذا قال لي : اما تعرف كيف عاملني الأتراك ؟ فأنت الذي عملت على اطلاق سراحني من السجن .. فقلت له ان الأتراك قد ذهبوا وعملك هذا لا يمكنهم مطلقاً ولكنه يضر بمصالحنا نحن العراقيين ، ثم انصرفت .. وكان يستغل جهل العامة للقراءة والكتابة فيأخذ توابعهم .

الشؤون الداخلية والمالية . وكانت هذه تحمل سبعة تواريخ فقط ، لكن عدد التواريخ يتزايد يوماً بعد يوم . وكان أول ستة من الموقعين السبعة رجالاً من الوزن الثقيل في المدينة ، اما السابع فمع انه كان من الطبقة نفسها لكنه شخصياً اقل أهمية من الآخرين ، ومن الأهمية بمكان ان جميع هؤلاء السبعة كانوا قد عبروا عن رأيهم بعد نشر التصريح الانكليزي - الافرنسي مباشرة بتنصيب أمير على رأس الحكومة يستظل بالحماية والسيطرة البريطانيتين . وقد ازعجتهم التحريكات المناوئة للبريطانيين التي كانت متفشية ازعاجاً شديداً بحيث تخلوا عن الفكرة لثلاث تواريخ الى خلق وضع مخطر . وقدم المضبطة المقابلة الثالثة شيعة بغداد الغربية (الكرخ) وفي ضمنهم شيوخ من القبائل المحلية ... وهذه المضبطة تنص على ان فكرة تأسيس حكومة عربية هي فكرة غير عملية ، وطولب فيها ببقاء الادارة البريطانية برئاسة السير بيرسي كوكس .

وقبل انتهاء هذا التاريخ العجيب لا بد من اضافة ان الاشراف الذين وقعوا على المضبطة المقابلة الثانية بينوا لوكيل الحاكم المالكي العام ان دعاية عنيفة ما تزال تبث في المقاهي من قبل الجماعة المناوئة للبريطانيين . وقد استرحموا تسفير بعض الزعماء لانهم كانوا خطراً ، لا على الحكومة البريطانية ولكن على استقرار العراق وهدوئه ، فأوقف عشرة من اعضاء حزب الاتحاد والترقي ، وبعض من كان قد عاد مؤخراً من الموصل ، وآخر ينظر بأمره الآن .

وليسمح لي بانهاء المذكرة ببعض الآراء والافكار : فلو اعطينا فترة قصيرة كهذه وسمح لنا باثارة القلاقل والفتن فيها لكان يصعب علينا ان نثير خلالها صخباً وهيجاناً فضلاً عن الدس والضعينة ، اكثر مما اثير منهما في بغداد على اثر اعلان التصريح الانكليزي - الافرنسي واستفتاء الناس عن رأيهم بمقتضى هذا التصريح . وان التبرير الوحيد الذي يمكن ان نقدمه على ضوء الخبرة لاتخاذ التدابير هو انها اعتبارات دولية غريبة عن العراق استدعت الاقدام عليها . فليس هناك شك في ان تأليف حزب وطني ذي مطامح عربية كان سيظهر للوجود ان عاجلاً او آجلاً ، لكن نشر التصريح

ولإجراء الاستفتاء قد عجلوا بولادته قبل الاوان . وكان عدم نضجه واضحاً بحيث لم يجد تعصيدها من العناصر الرزينة في المجتمع وانما بالعكس ، حيث انه أخاف تلك العناصر ودفعها الى التعاون الأشد مع الادارة البريطانية . وان التجاءهم الى مؤازرتنا لهم خلال هذه الايام العصبية سوف لا ينسى بسهولة من قبلهم ومن قبلنا نحن . كما ان الذين اشتركوا منا في الدراما سوف لا ينسون . العضد والموازية اللذين قدمهما لنا كل من النقيب والسيد محمد كاظم اليزدي . على ان فائدة الدرويش مثل فائدة المجتهد في هذا الشأن لها حدودها . حيث لم يكن بوسع كل منهما ان يكون في المقدمة او ان يجازف يتحمل النقد الذي يعقب اقدام المنحاز الى جهة ما على العمل بصورة جدية ، لكن الاحكام التي كانت تصدر من فيهما بصورة شخصية مقنعة بلغة قد تبدو غامضة بالنسبة لافهامنا سوف تكون لعدة أجيال تأتي ثقيلة الوزن في ميزان الرأي العراقي المتناقض .

الفصل الثاني عشر

آراء نقيب بغداد السياسية

ذهبت بموعد لزيارة النقيب في اليوم السادس من شباط لأودعه بمناسبة سفري الى انكلترا في الثامن منه. وقد وصلت الى الدار بوقت أبكر مما كان يتوقعه ، فاستقبلني ابنه السيد هاشم وجلست أتحدث اليه لعدة دقائق قبل ان يدخل النقيب . وكان النقيب منذ وقت الاحتلال يسكن في داره المقابلة لتكية عبد القادر التي يرأسها هو ، حيث ان الدار^٢ التي كان يشغلها في العادة على النهر بالقرب من « المقيمة » كانت قد اخذت منه لسكنى الضباط بموافقته . وبيته مرتب ترتيباً بسيطاً باعتناء . وتقع الغرفة التي يستقبل فيها زواره في الطابق الاول ، ولها مشابيك تطل على حديقة صغيرة زرعت فيها أشجار البرتقال . وقد صفت حول جدران الغرفة أرائك صلبة مستقيمة مغطاة بالخام الابيض .

(١) وهذه ايضاً مذكرة أخرى كتبها المس بيل في ١٩١٩ ، وقد آثرنا نشرها لما فيها من الطرافة والمعلومات التاريخية المهمة . وقد ترجمت عن صورتها المنشورة بين ملحقات كتاب آرنولد ويالن .

(٢) تقع هذه الدار في الشريعة المجاورة لمبنى المصرف الزراعي اليوم . اما « المقيمة » فيقصد بها المقيمة البريطانية في بغداد على عهد العثمانيين ، وقد كانت في بعض السنين تشغل المبنى الكبير المطل على النهر الذي ظلت تشغله فيما بعد - اي في عهد الحكم الوطني - مديرية كمرك ومكوس بغداد عدداً من السنين . وهو اليوم من الأبنية العائدة الى مديرية السياحة والاصطيف .



ساحة السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب بغداد

وهناك في إحدى الزوايا بالقرب من الشباك حيث يجلس النقيب منضدة صغيرة مغطاة بالخام الأبيض يوجد فوقها على الدوام كتاب أو كراس . والجدران مطلية بالبورق الأبيض ، والغرفة غير مزدانة بزينة ما الا بنظافتها الناصعة . والنقيب رجل متقدم في السن أحنث ظهره السنون ، وقد أقعده مرض الروماتيزم بعض الشيء . ويتألف لباسه من جبة طويلة تصل بطولها الى قدميه ذات ردين طويلين ، تصنع من الكتان الأبيض في الصيف ومن القماش الاسود في الشتاء ، وتحتها « صاية » من الكتان الأبيض مخزومة في الوسط بطيات نطاق ابيض عريض . وهو يعم بعمامة بيضاء ملفوفة حول طربوش احمر .

وعند دخوله انسحب السيد هاشم ، ثم أمر النقيب بان لا يسمح لاحد من الزائرين في الدخول عليه . فأخبرته باني تاركة بغداد بأبكر مما كنت أتأمل لاني كنت قد استدعيت الى باريس ، ثم أضفت قائلة انه ربما كانت هناك تفصيلات طفيفة ، مثل القرارات المتعلقة بالحدود ، قد تدعو الحاجة الى تقديم معلومات محلية عنها هناك . وضربت مثلاً على ذلك قضية متصرفية دير الزور التي وصل رئيس بلديتها مؤخراً ومعه طلب بالحق المتصرفية بالدولة العراقية ، وسألت النقيب رأيه في الموضوع .

فأجاب انه كان قد قابل الرجل المذكور وانه كان يعرف أخاه الذي كان من مواطني دير الزور المهمين . وكان زائرونا من هذه المنطقة قد استشاروا النقيب عن مستقبل المنطقة . على ان بعض الناس كانوا موجودين في مجلس النقيب فطلب من السائل ان يعود اليه في اليوم التالي عندما يكون الوقت قد سمح له بالتفكير في الموضوع ، لانه جرياً على عادته لم يشأ أن يبدي رأياً ما امام الناس . فقال لي : « انه ينتظرنى الآن ، ولما كان حديثنا الحالي حديثاً سرياً سأخبرك الآن بالحوار الذي كنت أقصد ان أجيبه به : حيث سأقول له : « اي ولدي ، ان احسن ما تعملونه هو ان تستظلوا بظل الحكومة البريطانية ، لان البريطانيين معروفون في العالم أجمع بالعدل والانصاف » . ثم استطرد قائلاً : « واني سأوضح لك ما في فكري في هذا الشأن . انني لا أحب الافرنسيين

(وليفهم بانه كان يسلم على سبيل الفرض بان الفرنسيين سيسيطرون على سورية الى حدود الدولة العراقية) نعم انني معجب بثقافتهم وعقولهم النيرة ، لكنني لا أحب حكومتهم . اذ لا يخفى علينا ان المسلمين في الجزائر قد كابدوا الارهاق تحت حكمهم فيها . وهذه أمور معروفة لدى الجميع . ورغبتني هي ان يبتعد الافرنسيون عن بغداد على قدر الامكان . نخاتون صاحب ، انا أفضي الآن بهذا الحديث من أجلك فقط وارجو ان تعذرني عما أبوح به . انني انخشي ان يحدث تصادم لا بد منه بين الافرنسيين والبريطانيين . لان البريطانيين اذا وضعوا قدمهم في مكان لا يرفعونه عنه ، وهم اذا تمسكوا بشيء احتفظوا به الى الابد . وسوف يجابههم حسد الافرنسيين وأطماعهم ، ولو وقعت الحرب بين الفريقين من اجل ذلك واستدامت خمسين عاماً سوف لا يتراجع البريطانيون . انا درويش ، ولا اهتم بشؤون هذا العالم الفاني ، لكنني لي خبرة طويلة بالرجال وبشؤون الناس وها انني اكشف لك عن هواجسي .

وبعد تزويق هذا الحديث لعدة دقائق (لان النقيب غير مطرد ومتنقل في حديثه) سألتني ، جرياً على عادته التي لا يشذ عنها كلما زرته ، عن عودة السر بيرسي كوكس ومتى ستكون . ثم قال : « نخاتون ، هناك الف ومائة رجل في انكلتره بوسعهم ان يشغلوا منصب السفارة في ايران ، لكنه ليس هناك من يليق للعراق سوى السر بيرسي كوكس . فهو معروف ومحبوب وموضع ثقة اهالي العراق ، كما انه رجل حنكته السنون » . وقد أكد ذلك بأقوى العبارات وبقناعة انخشي ان تكون بعيدة التبرير ، ثم أردف قائلاً : « وسوف لا يذهب بالطائرة الى الموصل مطلقاً حتى يوم الحشر . وانما سيسافر بواسطة السيارة . اضف الى ذلك ، انه رجل ذو اعتبار كبير في لندن ، وسيكون محامينا المتكلم باسمنا . فاذا ارادت الحكومة هناك ان تعرف افكارنا سيكون بوسعه تزويدها

(١) كان السر بيرسي كوكس قد نقل يومذاك سفيراً في ايران بعد احتلال العراق وانتهاء الحرب فيه ، على انه عاد بعد ذلك مندوباً سامياً فعمل على تشكيل الحكومة الوطنية .

بالمعلومات الضرورية وستكون كلمته مقبولة . واني اشهد الله ان السر بيرسي
كوكس لو كان موجوداً في بغداد لكننا في غنى عن حماقة استفتاء الناس عن
رأيهم في مستقبل البلاد . حيث ان ذلك كان سبباً للاضطراب والقلق ، ولم
تحمد سورة الفتن في المدينة بعد : وانت تعلمين اني لم اشترك فيما جرى ، وقد
منعت افراد اسرتي عن التدخل في ما لا يعينهم من هذه الامور . فكان ولدي ،
السيد محمود ، اول من استقال من مندوبية المجلس ، فقد اشرت عليه ان يبتعد
عن هذا الامر . لكن الكثيرين من الناس جاءوا الي طالبين مشورتي ومالحين
علي بقبول وجهة نظرهم . فأجبتهم ان الانكليز فتحوا هذه البلاد وبذلوا
ثروتهم من أجلها كما اراقوا دماءهم في تربتها . حيث ان دماء الانكليز
والاستراليين والكنديين ومسلمي الهند وعبداء الاصنام قد خضبت تراب العراق
ولذلك فلا بد لهم من التمتع بما فازوا به . ان الفاتحين الآخرين فتحوا البلاد
وتنعموا بها ، وكما وقعت فريسة بيدهم كذلك وقعت بأيدي الانكليز وسوف
يوطدون حكمهم فيها . خاتون ، ان امتمكم أمة عظيمة وثرية قوية : فاين
قوتنا نحن ؟ واني اذ اقول مثل هذا القول أريد ان يدوم حكم الانكليز فاذا
امتنع الانكليز عن حكمنا ، فكيف أجبرهم على ذلك ؟ واذا ما رغبت في
حكم امة اخرى وقرر الانكليز البقاء في العراق فكيف اخرجهم منه ؟ واني
اعترف بانتصاركم ، وانتم الحكماء وانا المحكوم وعندما أسأل عن رأيي في
استمرار الحكم البريطاني اجيب بأني من رعايا المنتصر . انكم ، ايها الخاتون ،
تفهمون صناعة الحكم . واني لا اتردد في القول اني كنت احب الحكومة
التركية عندما كانت بالوضع الذي عرفتھا فيه . واذا كان بوسعي ان اعود
للخضوع الى حكم سلاطين الاتراك كما كانوا في الزمن الغابر فاني لا اختار
غيرهم . لكنني اعاف واكره الحكومة التركية الحالية وألغنها . (كان النقيب
يشير الى الاتحاديين) وقد مات الاتراك اليوم وتلاشوا ، وانا راض بأن اكون
من رعاياكم .

» انت ذاهبة الى لندن : وسوف تواجهين العظماء وتتحدثين اليهم ، فقولي

لهم هذا : ليعاد السر بيرسي كوكس الى العراق ، ولينته الحكم العسكري . حيث ان دوامه غلط فاحش واني لا اتكلم بهذا ضد القائد العام ، فان نبه ظاهر في وجهه . وقد زرته مع انني غير معتاد على مثل هذه الزيارات . لكن السر بيرسي كوكس طلب اليّ زيارة السر ويليام مارشال (كان النقيب يتعثر بلفظ اسم القائد العام) فوافقت على ذلك . فلم يكن من اللياقة بشيء ان أرفض طلبه . وكذلك زرت الجنرال مود . ان بلادكم مدينة الى مود ، كما اننا مدينون له بعرفان الحميل . وقد كان محبوباً في بغداد . لكن القوة يجب ان تكون في ايام السلم في أيدي رجال الدولة وليس في أيدي العسكريين . وعليكم ان تحتفظوا بجيش في هذه البلاد للمحافظة على الامن ، لكن الجيش يجب ان يبتعد عن الحكم . وهذا ما يجب عليك ان تقوله في لندن : « اننا نرغب في ان يحكمنا السر بيرسي كوكس » . ثم اضاف قائلاً بدهاء : « انك يجب ان لا تقولي انك نفسك قد اصبحت بغدادية وان تفكيرك منصرف بكليته الى سعادة العراق ورفاهيته ، فان ذلك مع صحته سيقلل من أهمية ما تقولينه في لندن وسوف تقل فائدتنا منك » .

وبعد كلمة التحذير هذه عاد النقيب الى موضوع الحكم الذاتي ، فقال : « ما معنى كل هذا الكلام ، وما قيمته ؟ اني أعزو ذلك الى أميركة وكأني اسمع صوت (الرئيس) ويلسن منه^١ . هل يعرف الشيخ ويلسن الشرق وشعوبه ؟ وهل يعرف هو طرق حياتنا وأصول تفكيرنا ؟ اتم الانكليز حكمتم في آسية ثلاثمائة سنة ، وحكمكم هو مثال تقتدي به جميع الشعوب . فسيروا في طريقكم ، ولا تخضعوا الارشاد الشيخ ويلسن . فالمعرفة والخبرة هما دليلكم » . وبعد هذه الديباجة لم يكن من الصعب عليّ ان أرجع بالنقيب الى البحث في حوادث بغداد الاخيرة . فقال :

(١) لعله يقصد بنود ويلسن الأربعة عشر .

يكن بين اولئك الذين كان في النية اعتقالهم ، الا ان النقيب طلب الي ان اخبر
وكيل الحاكم الملكي العام عن لسانه هو ان لا يسمح لـ بالبقاء في
بغداد . فطويت الورقة بعد ذلك قائلة ان جميع هؤلاء الرجال كان معروفاً
عنهم انهم ألقوا خطباً حماسية في مقاهي المدينة ، ومع ان منزلتهم غير كبيرة
بحيث لم يسمع باسمهم النقيب مطلقاً فانهم قد سببوا أضراراً لا شك فيها . على
انني اضفت الى ذلك انه كان ثمة اثنان آخران كانا أشد ضرراً لانهما كانا من
ذوي السمعة الكبيرة . وقد اشرت الى وبالنسبة
لمنزلهما ... لم يكن من الممكن لنا ان نتخذ خطوات لاسكاتهما بصورة فعالة .
وكان النقيب ينصت للحديثي بانتباه ، وقد بقي مطرقاً لحظة ما . فقال اخيراً :
« كلا ، لا يمكنكم حبسهما ولا نفيهما ، لان الفضيحة ستكون بالغة الاثر .
لكنني لو كنت متيقناً من تأييد الكولونيل ويلسن لعملي لبعثت عليهما وأعربت
لهما عن استنكاري لسيرهما ، حيث انني على علم بأنهما مندفعان بدوافع دينية
وان الاعتبار الدينية هي التي تكون اسس حججهما . وأنني كما لا يخفى
أتكلم عن جميع ما له علاقة بالدين بثقة وحجة » .

فشكرت النقيب بحرارة على تطوعه هذا قائلة ان الكولونيل ويلسن سيقبل
ذلك منه بمنة . وقد ارسل في اليوم التالي كتاب بهذا المعنى الى النقيب .

وقد وصلت المحادثة الآن الى حد المودة والوثوق بحيث تجرأت معتذرة لما
أبدية وألقيت على النقيب سؤالاً شخصياً فاحصاً . وكان قد قاد الحديث هو
بنفسه من دون تقصد الى ما كنت أعنيه بتطرقه الى قضية ترشيح الشريف او
احد أنجاله لمنصب الامارة في العراق .

فقال : « انني من أقارب الشريف ، واتحدر من نفس السلالة ، وأشاركه
في مذهبه الديني ولذلك فاني ارجو ان تفهموا اني لست مدفوعاً بدافع الاختلاف
في الدم او العقيدة عندما أقول لكم اني سوف لا أوافق ولن أوافق على تعيين
الشريف او احد أنجاله اميراً في العراق . فان الحجاز غير العراق ، وليس هناك

علاقة بينهما غير علاقة العقيدة . فسياستنا وتجارتنا وزراعتنا كلها تختلف عن سياسة وتجارة وزراعة الحجاز » . فقاطعته قائلة انني أرى ان ذلك يعني وصل الاموات بالاحياء . فأيد النقيب هذا التشبيه و اضاف قائلاً : « ان الحجاز هي بلاد الاسلام المقدسة . ويجب ان تبقى دولة مستقلة لوحدها يستفيد منها المسلمون كلهم ، وهي أشبه بالقدس التي تعد بلداً في غاية القدسية بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين ايضاً . (ولم يلمح بشيء عن المصالح اليهودية ، كما أنني لم أرَ من المناسب ان أتطرق الى هذا الموضوع الشائك) . وان حقوق المسلمين والمسيحيين على السواء يجب ان تصونها الدول لاجل ان يجني الجميع المنافع من مدينتهم المقدسة . اما عن حكومة العراق فان كرهى للادارة التركية الحاضرة معروف لديك ، لكنني افضل الف مرة عودة الترك الى بغداد على ان أرى الشريف او أبناءه ينصب أحدهم هنا » .

وعند هذا قلت له « اذا اقتضت الضرورة لاسباب سياسية لا يمكن التكهّن بها مقدماً ، ان ينصب على رأس الدولة العراقية أمير من الامراء فهل يسعكم قبول هذه المسؤولية بمعونتنا وتعزيدنا لكي نتجنب انتخاب احد الامراء من الحجاز ؟ » .

وكانت يدي موضوعة على ذراع أريكته الخشبية . فنقرها بنقرتين او ثلاث نقرات تعنيفية باصابعه ثم انحنى باتجاهي وقال ضاحكاً ، ولكن بتأكيد شديد :

« كيف يمكنك إلقاء مثل هذا السؤال عليّ ؟ انا درويش فهلا تعصمني عادتي هذه ؟ » ثم اخذ يوشر بالإشارة المعروفة بتحريك جبته السوداء . وأردف قائلاً : « ان صيرورتي رئيساً سياسياً للدولة هي ضد أشد مبادئ عقيدتي تأصيلاً ، ففي أيام جدي عبد القادر اعتاد الخلفاء العباسيون استشارته كما تطلبين انت وزملاؤك مشورتي الآن ، لكنه لم يكن يوافق على الاشتراك في الشؤون العامة . وسوف لا أوافق انا ولا أي احد من أحفاده على ان تفعل ذلك .

هذا جوابي من الوجهة الدينية ، لكنني سأعطيك جواباً يستند على أسباب شخصية . فإني متقدم في السن ، وأرغب في أن أقضي الخمس أو الست سنوات التي بقيت من حياتي في الدرس والتأمل . حيث انهما مشغوليتي المستديمة » ...

ثم انقطع عن الحديث وبقيت انا صامته أيضاً ، لأنني تحسست تحسناً عميقاً بكلماته هذه لكنه كان ما يزال غير مكتفٍ بالجواب الذي أجابني به ، فقال بأناة رافعاً صوته :

« وسوف لا أراجع عما قلته الآن حتى اذا كان في ذلك انقاذ العراق من الدمار التام » .

وقد استغرق الحديث ساعة ونصف الساعة ، وبعد ان اعتذرت ببعض الكلمات عن سؤالي الأخير اعتذاراً أشار الى عدم الحاجة اليه ترخصت بتركي له . وقبل ان يسمح لي بالذهاب تفضل بالاعراب عن مودته الشخصية لي وبتذكيري بصداقتنا القديمة التي ترجع كما قال ، الى ما قبل الحرب بعدة سنين . فأخبرته عن اعتزالي العظيم بهذه الصداقة ثم شكرته للثقة التي وضعها فيّ بتكلمه بمثل الصراحة التي أبدأها خلال حديثنا الذي انهاء الآن . فرد علي طالباً ان اعتبره بمنزلة الوالد ، وبعد ان تأمل لقاءً عاجلاً بيننا سمح لي بالذهاب ترافقني السلامة .

(١) جاءت المس بيل الى العراق قبيل الحرب بصفة سائحة على ما يستفاد من كتبها التي كتبها .

مراجع التعليق

المراجع العربية

- ١ - أسد خان ، الحاج مصطفى - سيرة آل أسد خان - بغداد ١٩٦٧ .
- ٢ - آل طعمة ، الشيخ عبد الحسين الكلیدار - بغية النبلاء في تاريخ كربلاء .
بغداد ١٩٦٦ .
- ٣ - آل فرعون ، فريق المزهري - الحقائق الناصعة في الثورة العراقية . بغداد
١٩٥٢ .
- ٤ - البازرگان ، علي - الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية . بغداد ١٩٥٢ .
- ٥ - باقر ، طه وسفر ، فؤاد - المرشد الى مواطن الآثار والحضارة ، المرحلة
الثانية . بغداد ١٩٦٢ .
- ٦ - البديسي ، الأمير شرف خان - الشرفنامه ، ترجمة ملا جميل رورثياني .
بغداد ١٩٥٣ .
- ٧ - البكري ، الدكتور عادل - تاريخ الكوت . بغداد ١٩٦٧ .
- ٨ - الحسيني ، عبد الرزاق - تاريخ الثورة العراقية ، صيدا ١٩٣٥ .
- ٩ - الحسيني ، عبد الرزاق - تاريخ الوزارات العراقية .
- ١٠ - الحسيني ، السيد أحمد - الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري ، بغداد
١٣٨٦ هـ .

- ١١ - الشيخ خزعل ، حسين خلف - تاريخ الكويت السياسي ، بيروت ١٩٦٢ - ١٩٦٥ .
- ١٢ - زكي ، محمد أمين - خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، القاهرة ١٩٣٦ .
- ١٣ - السويدي ، توفيق - مذكرياتي ، بيروت ١٩٦٩ .
- ١٤ - الطعمة ، سلمان هادي - تراث كربلا ، النجف ١٩٦٤ .
- ١٥ - السيد عبد الله ، محمد يونس - أهمية تلغفر في ثورة العراق الكبرى ، الموصل ١٩٦٧ .
- ١٦ - عبوش ، قحطان احمد - ثورة تلغفر ١٩٢٠ ، بغداد ١٩٦٩ .
- ١٧ - العلوجي ، عبد الحميد ، وعزيز الحجية - الشيخ ضاري قاتل الكولونيل لبيحمن . بغداد ١٩٦٨ .
- ١٨ - الغلامي ، عبد المنعم - بقايا الفرق الباطنية ، الموصل ١٩٥٠ .
- ١٩ - الغلامي ، عبد المنعم - ثورتنا في شمال العراق ١٩١٩ - ١٩٢٠ . بغداد ١٩٦٦ .
- ٢٠ - الغلامي ، عبد المنعم - الضحايا الثلاث ، الموصل ١٩٥٥ .
- ٢١ - فيضي ، سليمان - في غمرة النضال ، بغداد ١٩٥٢ .
- ٢٢ - لودر ، ج - القول الحق في تاريخ سورية وفلسطين والعراق ، ترجمة نزيه المؤيد العظم ، دمشق ١٩٢٥ .
- ٢٣ - محبوبة ، جعفر الشيخ باقر - ماضي النجف وحاضرها ، النجف ١٩٥٨ .
- ٢٤ - النبھاني ، الشيخ محمد - التحفة النبھانية في تاريخ الجزيرة العربية ، القاهرة ١٣٤٢ هـ .
- ٢٥ - الهلالي ، عبد الرزاق - تاريخ التعليم في العراق ، في العهد العثماني ١٦٣٨ - ١٩١٧ ، بغداد ١٩٥٩ .
- ٢٦ - الهلالي ، عبد الرزاق - معجم العراق ، بغداد ١٩٥٣ .
- ٢٧ - مجلة لغة العرب ، بغداد .
- ٢٨ - مجلة الأقلام ، بغداد .

المراجع الاجنبية

1. Admiralty & War Office -- A Handbook of Arabia (ID 1128), 1916.
2. Burgoyne, Elizabeth -- Gertrude Bell From Her Personal Papers, 1914-1926, (London 1961).
3. Edmonds, C. J. -- Kurds, Turks, & Arabs (London 1957).
4. Graves, Philip -- The Life of Sir Percy Cox.
5. Hollister, John Norman -- The Shi'A of India (London 1953).
6. Ireland, Philip Willard -- Iraq, a Study in Political Development (London 1937).
7. Kelly, J.B. -- Britain & the Persian Gulf 1795-1880, (London 1968).
8. Longrigg, S.H. -- Iraq 1900-1950 (London 1953).
9. Philby, H. St. John -- Arabian Days, (London 1948).
10. Sykes, Sir Percy -- A History of Persia (London 1951).
11. Wilson, Sir Arnold -- Loyalties, Mesopotamia, 1914-1917 -- 1917-1920 (London 1936).

فهرس الاعلام

- ١ -
- أحمد السالم ٤٤٣ .
 أحمد طالياني ، الشيخ ١٤٦ .
 أحمد الظاهر ، الشيخ ٤٣٠ .
 أحمد عزت (الطابو) ٣٧١ .
 أحمد علي الصوفي (الزراعة) ٣٧٦ .
 أحمد القنبر ٤٤٣ .
 آدموندز ، المستر ٢٠٢ ، ١٤٦ .
 أرسطو ، الدكتور ١٤٠ .
 أسد خان ، الحاج ١١٨ .
 أسعد رؤوف (كربلا) ٩٥ .
 اسماعيل الأغا ٤٤٩ .
 اسماعيل بك (رواندوز) ٢٢٩ .
 اسماعيل حقي (جد الداودة) ١٤٧ .
 اسماعيل الصفار ٤٢٣ .
 اسماعيل كنه ، الحاج ٤٢٧ .
 أغا خان ٣٨٤ ، ١١٨ .
 آخوب جوبانيان ، الدكتور ٣٢٩ .
 إقبال الدولة ٤٠ .
 اللنبي ، الجنرال ٤١٧ ، ٢١١ ، ٢٠٨ ، ١٥٢ .
 أليكساندر ، المستر (الدلية) ٣٧٧ .
 أمجد الزهاوي ٣٠٤ .
 أمهرست ، اللورد ٩٢ .
 أمين افندي الملا رشيد ٣٠٥ .
 أمين بدرخان ٢٠٥ .
- ابراهيم (شيخ الزبير) ٨٢٤٩ .
 ابراهيم باشا الملي ١٨١ .
 ابراهيم خان (الدلو) ٤٥٤ .
 ابراهيم الراوي ، الشيخ ٣٠٥ .
 ابراهيم العثمان ٣١٣ .
 ابراهيم فوزي (الضابط) ٩٩ .
 ابراهيم كمال ٤٢٣ .
 ابن رشيد (أمير شمر) ١٣٥ ، ١٢٩ ، ٨٦ ، ٨٠ ، ٤٤ ، ٨٣ ، ٨١ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٣ .
 ابن سعود ٨٦ ، ٨٤ ، ٨٣ ، ٨١ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٣ ، ٢٨٥ ، ٣٨٤ ، ١٣٢ ، ١٢٩ .
 ابن قعشيش ١٣٠ .
 ابن مرشد ١٣٠ .
 أبو القاسم الكاشاني ، السيد ٤٣٠ .
 اتكن ، الميجر ٣٢٣ .
 أحمد أغا (السلجانية) ٢٠٥ .
 أحمد البرزاني ، الشيخ ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ١٤٠ .
 أحمد بك صاحبقران ٢٠١ .
 أحمد البير ٤٤٣ .
 أحمد بك توفيق طابور أعاسي ٢٠٥ .
 أحمد جودت (قائد تركي) ٢١٨ .
 أحمد خانقاه ، السيد ١٨٥ .
 أحمد الداود ، الشيخ ٤٣٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٦ ، ٣٠٤ .
 ٤٣٥
 أحمد زكي الحياض ٤٢٧ .

بريستد ، الاستاذ ٣٢٢ .
 بريسكوت ، الكولونيل ٣٣٢ .
 بشير سرهم ، الدكتور ٣٣٩ .
 بلفور ، الكابتن ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ٤٠٠ ، ٤٢٦ .
 بليبل آغا ١٦٦ .
 بوكافان ، الكابتن والمزرع ٤٥٤ .
 بولي ، الميجر ١١٦ .
 بومن ، الميجر ايج اي ٣٠٩ .
 بهاء الدين نوري ٣٨ .
 بهجت بك (قائم مقام النجف) ٩٣ .
 بيتي ، الدكتور ٣٧٣ .
 بير محمد نواز خان ٣١٦ .
 بيرسون ، الكابتن ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ .
 بيز ، الكابتن ٣١٣ .
 بيل ، المس ٦١ ، ٩٥ ، ١٣٧ ، ٢٢٥ ، ٣٨٩ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٧ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٦٣ ، ٤٧٢ .
 بيل ، الكولونيل ٢٢٦ .
 بيل ، المستر (عميد كلية الحقوق) ٣٠٣ .

- ت -

تاج الدين ، الشيخ ٢٢٢ .
 تحسين العسكري ٤٢٣ .
 تحسين بك (اليزيدي) ١٦٠ .
 تراجان الروماني ، الامبراطور ١٥٥ .
 تروب ، العريف ٢١٩ .
 توفيق الدمولوجي ٤١١ ، ٤١٢ .
 توفيق السويدي ٣٠٣ ، ٣٩٧ ، ٤٢٣ .
 توفيق المختار ٤٢٧ .
 تنش ، المستر ٣٥٤ .
 تيمورلنك ١٦٢ .

أمين الجرجسي ، الحاج ٣٩ .
 أمينة شكورة خاتم ٣١٧ .
 أمين علوش ، الحاج ٩٩ .
 أمين العمري ٤٢٣ .
 أنستاس ماري الكرمل ، الأب ٤٢ .
 أنور باشا ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
 أنور النقشلي ٤٢٧ .
 أوكازر ، الكولونيل ١٤٠ .
 أوليفر ، الدكتور ٣٧٣ .
 أيتويل ، المستر ٣٤٥ .
 أيدي ، الميجر ٣٢٣ .
 آيرلاند ، فيليب ١٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
 أيفانز ، الكرنل (الزراعة) ٣٧٦ .

- ب -

بابا علي ٣٦ .
 بابكر آغا الزيباري ٢٢٦ .
 بارابي ، المستر ٣٥٦ .
 بارلو ، الكابتن ٤٢٠ .
 باقر حيدر ، الشيخ ١٣ .
 باقر الشبيبي ، الشيخ ١٣ ، ٤٢٧ .
 بدر ، شيخ (شمر) ١٦٣ ، ١٦٤ .
 برادفيلد ، الكابتن ٤٥٤ .
 براون ، الكابتن (الطابو) ٣٧١ .
 براهام ، الدكتور ٣٧٣ .
 برافور ، المستر ٣١٦ .
 برزان ١٤٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
 برسيما (الخضر) ١٥٥ .
 بركات ، الشريف ٧٠ .
 برهان الدين ، الأمير ٣٨٤ .
 بري ، المستر ٣٤٩ ، ٣٧٠ .
 بريجاد ، المستر (العدلية) ٣٧٧ .

- ث -

- ثابت السويدي ٣٩٨ .
- ثابت عبد النور ٤٢٣ .
- ثامر (جد الدليم) ٤٠٩ .
- ثامر السعدون ٧٠ .
- ثريا بك ٩٥ .
- ثويني العبد الله ٧٠ .

- سعودي قنبر أغا ، الحاج ٣٩ .
- سودي ناجي ١٢٤ .
- سول بك ١٦٠ .
- سوي اللازم ، الشيخ ١٠٠ .
- سويد الشمال ، الشيخ ٤٤٧ .
- سيزمان ، الميجر (الزراعة) ٣٧٧ .

- ح -

- حافظ أفندي (الطابو) ٣٧١ .
- حبيب الخيزران ، الشيخ ٤٥٦ ، ٤٥٤ .
- حاجم ، الشيخ (شمر) ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٣ .
- الحسن ، الامام ٨٧ .
- حسن ، الشريف ٧٠ .
- حسن البصري ، الشيخ ١٥٨ .
- حسن بك (مدير السنية) ١٦٧ .
- حسن رضا ٣١٣ ، ٣٠٤ .
- حسن شكوه ٤٣٦ .
- حسن فائق بك ١٧٥ ، ١٦٧ .
- حسن القطيبي ، الشيخ ١٣ .
- حسني عبد الهادي ٤٤ .
- الحسين ، الامام ٤٧٨ ، ٤٢٥ ، ٨٨ ، ٨٧ .
- حسين خيوكه ، الحاج ٣٨ -
- حسين رفي أفندي ٤٤ ، ٤٣ .
- حسين علوان ٤٤٩ .
- حسين المازندراني ، الشيخ ١١٦ .
- الملك حسين (مكة) ٤٢٣ ، ٤٠٢ ، ٣٨٥ ، ٧٠ .
- حكمت سليمان ٤٤ .
- حماد بك بن سلطان الملحم ٤١٩ .
- حمدي الأعظمي ، الحاج ٣٠٤ ، ٤٤ .
- حمدي باشا (وائي البصرة) ٦١ .
- حمدي بك بابان ٤٢ .
- حمزة بك (كربلا) ٩٥ .

- ج -

- جابر الصباح ، الشيخ ٨١ .
- جاديك ، الميجر ٣٧٢ .
- جاويد باشا ١٢ .
- جبار (جد الجبور) ٤٠٩ .
- جعفر جلبي أبو التمن ٤٤٠ ، ٣٨٠ ، ٤٢٦ ، ١٣ ، ٤٤٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٦ .
- جعفر الحلبي ١٢٦ .
- جعفر الشيخ راضي ١٤ .
- جعفر الشيبيني ٤٧٨ ، ٤٢٧ .
- جعفر عطيفة ، السيد ٤٣٠ .
- جعفر الشيخ عبد الحسين النجفي ١٣ .
- جعفر باشا العسكري ٤٢٣ ، ٤١١ ، ٣٨٥ .
- جعفر علوش ، الشيخ ٣٧٧ ، ٢٧٦ .
- جعفر السيد هاشم ٣٩ .
- جلال بابان ٤٧٨ ، ٤٢٧ .
- جمال باشا ٤١٠ .
- جميل رمزي قفطان ٤٤٩ .
- جميل صدقي الزهاوي ٤٣٠ ، ٤٢٧ .
- جميل عبد الكريم ٣٠٤ .
- جميل المدرس ٣٨ .
- جميل بك المدفعي ٤٢٣ ، ٤٢١ ، ٤٢٠ ، ٤١٩ .
- جواد الجزائري ، الشيخ ١٢٦ ، ١٢٤ .

حمزة صالح بك ٢٠٥ .

حمو شير ١٦١ .

حمودي المتدلاوي ٤٣٦ .

حميد الحسن ٤٥٤ .

حميد خان ١١٨ .

حميد الطالباني ، الشيخ ١٥٢ ، ١٤٧ ، ١٤٦ .

حميد كونة ١١٦ .

حميدي ، الشيخ (شمر) ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٣٣ .

حنا خياط ، الدكتور ٣٣٩ .

حيدر بك ٢٢٦ .

درويش عبد الله ٢٢٥ .

دنسترفيل ، الجنرال ١٤٩ .

دنلوب ، الدكتور ٣٧٣ .

دوبس ، المستر هنري ٧٥ ، ٧٤ ، ١٧ .

دهام ، شيخ (شمر) ١٦٥ ، ١٦٣ .

ديلامين ، الجنرال ٤

- ٥ -

ذهبي ، الدكتور ٣٤٣ .

- ٦ -

- ٧ -

رايت ، المستر ٣٥٤ .

راويح العطية ، الحاج ١٢٤ .

رجب النعمة ٤٠٠ .

رديف باشا (الوالي) ٣٨ .

رشدي رياض الحسن ٤٧١ .

رضا شاه بهلوي ١٤٩ ، ٦٨ .

رضا الطالباني ، الشيخ ١٤٦ .

رفعت بك (الداودة) ١٤٧ .

رفعت بك (مدير المعارف) ٤٤ .

رفعت الجادرجي ٤٣٠ ، ٩٨ .

رمضان الشلاش ٤١٤ ، ٤٠٩ ، ٤٠٦ ، ٤٠٤ .

٤٢٠ .

روبين بضاظ ٣٧٧ .

روثيرا ، المستر ٣٤٥ .

رؤوف الأمين ٤٤٣ ، ٤٢٧ .

رؤوف الجادرجي ٣٠٣ .

رؤوف الشهواني ٤١٩ .

رؤوف العطار ٣٨ .

رؤوف الكبيسي ٤١١ .

رينغرو ، المستر ٣٤٥ .

ريكلي ، الكابتن ٤٥٤ .

سحائم فخرة ١٥٨ .

سحائم النقشبندی ٢٢٢ .

سحائم افندي (مدير معارف) ٤٤ .

سحائمات ، المستر ٣٤٥ .

سحائم ، الشيخ ٣٨٤ ، ١٢٦ ، ٩٩ ، ٦٨ ، ٥٠ ، ٣ .

سحائم قيوچيان ٤٣٠ .

سحائم السيد ٤٣٦ .

سحائم باشا ١٠١ ، ٩٨ ، ٦٣ .

سحائم المتدلاوي ٤٤٣ .

- ٨ -

دارا بك (داوده) ١٤٧ .

داود أبو التمن ، الحاج ٤٣٥ ، ٤٠٤ ، ٣٩ ، ١٣ .

داود السعدي ٤٨٥ ، ٤٤٤ .

داود سمر ٣٧٧ .

داود نيازي ٤٤٤ .

داود يوسفاني ١٦٨ .

داوس ، المستر (الزراعة) ٣٧٧ .

دايلي ، الميجر ٤٤٧ .

داور ، المستر (العدلية) ٣٧٧ .

- ز -

- زيد ، الأمير ٤١٠ .
زين العابدين الخاوري ، الشيخ ١١٦ .
زينوفون ٢٤٣ .

- س -

- ساركن ، الكابتن ٣٣٣ .
ساسون حصيل ٤٣٠ ، ٣٨٥ .
سالم الصباح ، الشيخ ٨١ .
سالار الدولة ١٣٦ .
سالمون ، الكابتن والمعلم ٤٥٤ .
سامي بك (مدير المعارف) ٤٤ .
سامي النقشلي ٤٤٩ .
ساندرين ، الدكتور ٣٧٣ .
سايكس ، السر بيرسي ٩٠ .
سايكس ، مارك ٢٠٥ .
سبنسر ، الدكتور ٣٧٣ .
سبيلا خانم ٣١٧ .
ستراخن ، المستر (الري) ٤٥٤ .
ستيوارت ، الكابتن ٤٢٠ .
سركيس أفندي ١١٨ .
سعد الحاج راضي ١٢٥ ، ١٢٤ ، ١٢١ ، ٩٤ ، ١٢٦ .
سعد صالح ٤٣ .
سعدون آل محمد ، الشيخ ٧٠ .
سعدون باشا ٦ .
سعدون بك الشاوي ٣٠٥ .
سعيد البرزنجي ، الشيخ ١٣٦ ، ١٣٦ .
سعيد النقشبندي ، الشيخ ٤٣٠ ، ٤٢٣ ، ٤٠٥ .
سعيد بك (اليزيدي) ١٦١ ، ١٦١ .
سكوت ، الكابتن (البيطرة) ٣٧٢ .
سكوت ، الكابتن كي آر ٢٢١ .

سلطان بن صقر ٣ .

- سليمان أبو النعمان ، الحاج ٣٩ .
سليمان آل فاضل ، الشيخ ١٢٤ .
سليمان الشيخ داود ٤٤ ، ٤٢ .
سليتر ، العقيد ٣٥٦ .
سليم الجراح ٤١٩ .
سليمان الزهير ٦١ .
سليمان السعدون (تلغراف) ١٧٧ .
سليمان الشرقي (الدليم) ٤١٠ .
سليمان شفيق (والي البصرة) ٨٢ .
سليمان عسكري بك ١٢ - ١٥ - ٧٢ .
سليمان فائق بك ٤٠ .
سليمان فيضي ، الاستاذ ٣٧٧ ، ٤١ .
سليمان نظيف باشا ٢٢٥ .
سمرفيل ، المستر ٤١٦ .
سميدت ، الكولونيل (البرق والبريد) ٣٤٨ .
سنطروق الثاني ١٥٥ .
سنطروق الملك ١٥٥ .
سنوي زادة ، سليمان أفندي ٢٧٦ .
سنيل ، المستر ٣١٩ .
سوان ، الملازم ٣٥٦ .
سيتو أغا ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
سيف رايت ، المستر ٣٤٥ .
سيفي أغا محيي أغا ٩٩ .
سيمكو ، اسماعيل أغا ١٨٣ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ .
٢٢٥ ، ٢١٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٦ .

- ش -

- شاهور الأول ١٥٥ ، ١٥٦ .
شاكر محمود ٤٢٧ ، ٤٤٩ .
شبيب (جد آل شبيب) ٧٠ .
شخبوط بن ذياب ، الشيخ ٣ .

- ض -

- ضاري المحمود ، شيخ ٤٥٤٤٤٥٣٤١٥٣ .
ضياء بك (نائب از مير) ١٤ .
الضيمن (الحضر) ١٥٥ .

- ط -

- طالب العزاوي ، الحاج ٤٤٩ .
طالب النقيب ، السيد ٣٨٤٤٨٢٤٧٤٦٤٥ .
٤٣٥٤٤٣٤٤٤٠٥٤٣٨٥ .
طاويزند ، أمير اللواء ١١١٤١٠١٤٦٣٤١٥ .
طفار ، السيد ١٢٠ .
طليغ الحسن ٣٨٨ .
طه الراوي ٤٤٤٤٢ .
طه شمدينان ، السيد ٢١٢٤٢١١٤٢٠٢٤١٩٤ .
٢٢٧٤٢٢٥٤٢١٥ .
طه الهاشمي ٤٢٣ .

- ع -

- عادل بك (مدير دار المعلمين) ٣٨ .
عادلة خاتم ٢٠٢٤٢٠١ .
عارف حكمت ٤٢٧ .
عارف السويدي ٤٧٨ .
العاصي (شيخ شمر) ١٦٥٤١٦٣٤١٣٣ .
عاكف بك (الحلة) ٩٨٤٩٧ .
عباس الخليلي ١٢٦٤١٢٤ .
عباس الرفيعي ، السيد ١١٩ .
عباس الرواحي ١٢٦٤١٢٤ .
عباس فضلي (الطابو) ٣٧١ .
عباس العلي (الكوت) ١٠٠ .
عبد آغا مزوري ٢٢٥ .
عبد الله أفندي (مدير دار المعلمين) ٣٨ .

شرف الدين ، الشيخ ١٥٨ .

- شريف باشا ٢١٦٤٢٠٥٤١٨٨ .
شريف العمري ٤٢٣ .
شعلان أبو الجون ، شيخ ٤٤٧ .
شكر الله ، الشيخ ٤٣٠٤٣٨٩٤٣٧٨٤٣٩ .
شكري أفندي الألوسي ٤٢ .
شكري باشا الأيوبي ٤٠٤ .
شكشير ، الكابتن ٨٣٤٨١٤٨٠ .
شلال ، الشيخ (شمر) ١٦٣ .
شمس ، الشيخ ١٥٨ .
شمس الدين الألوسي ٣٠٥ .
شوانيس ، المسيو ٤١ .
شوكت باشا ، الفريق ٣٤٣ .
شيخان بن خصيفة ، شيخ ٧٠ .
شيخ الشريعة ١٣ .

- ص -

- صادق البصام ٤٢٧ .
صادق حبه ٤٧٨٤٤٢٧ .
صادق الشهر بانلي ٤٢٧ .
صادق الشيخ عبد الحسين ٩٩ .
صالح الباجه جي (العدلية) ٣٧٧ .
صالح الجباري ، السيد ٤٤٢ .
صالح شمیل ٤٤٤٣٨ .
صالح الملي ، السيد ٤٣٠٤٣٠٥٤٣٠٤١١٣ .
صبري مراد ، الدكتور ٣٣٩ .
صديق مظهر ٣٧٧ .
صفوت بك (قائم مقام عسكري) ٢٢٥٤٢٢٤ .
صكبان ، شيخ (أبو جاسم) ٤٤٧ .
صموئيل أداتو ، الدكتور ٣٣٩ .
صون ، الميجر ١٩٩٤١٩٨٤١٩١٤١٤٨٤٦١ .
٣١٥٤٢٠١٤٢٠٠ .

عبد الله (بن الشريف حسن) ٧٠ .
 الأمير عبد الله ٤٤٢٥٠٤١٨٠٤١٦٠٣٨٥
 . ٤٤١٤٤٣٩
 عبد الله الدليمي ٤٢٣ .
 عبد الله الدملاجي ٤٢٣ .
 عبد الله عبد السلام الاعظمي ٣٧٧ .
 عبد الله الفالح السعدون ١٤٤١١ .
 عبد الله فيضي (مدير المعارف) ٤٤ .
 عبد الله السيد وهب ١٧٧ .
 عبد الجبار افندي (باشكاتب الاوقاف) ٤١ .
 عبد الجبار الخياط ٤٣٠ .
 عبد الجبار فهمي ٣٨ .
 عبد الجليل العواد ٩٥ .
 عبد الحسين البحراني ، الحاج ٣٩ .
 عبد الحسين جلبي ٤٣٠ .
 عبد الحق افندي ٢٧٦ .
 عبد الحميد العلوجي ٤٥٣ .
 عبد الحميد الكلبدار ١٣ .
 عبد الحميد مدحت ٣٧٧ .
 السلطان عبد الحميد ١٢٠٤٢٣٠٤١٠٦٠١٣٧
 . ٣٢٠٠٣٠٣٠٢٦٥٠٢٤٦٠١٨٢٠١٨١
 عبد الرزاق الخلو ، الشيخ ١٣ .
 عبد الرزاق شريف ٩٩ .
 عبد الرزاق الهاشمي ٢٢٧ .
 عبد الرحمن آغا ١٩٤ .
 عبد الرحمن البنا ٤٢٧ .
 عبد الرحمن الحيدري ٤٣٠ .
 عبد الرحمن العواد ١٥ .
 عبد الرحمن النقيب (الكيلاني) ٣٨٤٠٣٨٥
 . ٤٨٠-٤٧٢٠٤٦٠٤٠٩
 عبد الرضا الشيخ راضي ١٣ .

عبد السلام البرزاني (الاول) ٢٢٤٠٢٢٢ .
 عبد السلام البرزاني (الثاني) ٢٢٢٢٠١٤٠
 . ٢٢٥٠٢٢٤
 عبد العزيزك (شمر) ١٦٣٠١٣٤٠١٣٣ .
 عبد العزيز مظفر ٣٣٩ .
 عبد سيا (الحضر) ١٥٥ .
 عبد الغني كبه ٤٠٠ .
 عبد القادر الخضير ٤٣٠ .
 عبد القادر شمدينان ١٨١٠١٨٥٠٢٠٢٠٢٠٦٠٢٠٦
 . ٢١٦٠٢١٢
 عبد القادر الشوشي ٢٢٧ .
 عبد القادر الكيلاني ، الشيخ ١٠٦٠٤٧٢
 . ٤٨٠
 عبد الكريم الجزائري ، الشيخ ١٣ .
 عبد الكريم الخيطري ٤٣٠٠٢٣٩ .
 عبد الكريم بن رشيد (الاخرس) ٤٢٥ .
 عبد الكريم العواد ١١٤٠٣٨٨٠٤٤٣
 . ٣٤٣ عبد الكريم قاسم
 عبد اللطيف آغا (العمادية) ٢٢٩ .
 عبد انجيد زيدان ٤٤٤٠٤٢ .
 عبد المجيد الشاوي ٣٠٤٠٣٩٩٠٤٠٠٠٤٣٠
 . ٣٩ عبد المجيد المطار ، الحاج
 . ٤٣٧٠٤٣٦ عبد المجيد كنه
 . ٧٠ عبد المحسن بك السعدون
 . ٣٧٧ عبد الملك الشواف
 . ١٣٧ عبد المنعم الغلامي
 . ٩٥ عبد المهدي الحافظ ، الحاج
 . ٤٤٣ عبد المهدي القنبر
 . ٤٤٩ عبد الواحد الحاج سكر ، شيخ
 . ٩٩ عبد الوهاب بك (الخلة)
 . ٤٣٠٠٣١٣ عبد الوهاب النائب
 . ٩٩ عبود الملا ابراهيم

عبيد الله شمدنينان ٢١٢٤١٩٤ .

عثمان باشا جاف ٢٠١ .

عثمان العلوان ٤٤٣ .

عجمي السعدون ٧٧٤١٤٤١٢٤١١٤٨٤٦ .

١١٧٤٩٩٤٩٧٤٨٦٤٨٤٤٨٣٤٨٢٤٨٠ .

١٢٥-١٢٠ .

عجيل السمرمد ، الشيخ ١٠٩ .

عجيل الياور ، الشيخ ١٦٤٤١٦٣٤١٣٤٤١٣٣ .

٤٥٦٤٤٢٠ .

عداي الجريان ، الشيخ ٤٥١ .

عدي ، الشيخ ١٥٨٤١٥٧ .

عذار ، الحاج ١٠ .

عريبي باشا ، الشيخ ١٥ .

عزت بك ٩٣ .

عزت بك عثمان باشا جاف ٢٠١ .

عزرة مناحيم ٤٣٠ .

عزيز عباس (داودة) ١٤٧ .

عزيز علي المصري ٤٢٢ .

عطية أبو كلل ، الحاج ١١٧٤١٠٧٤٩٦٤٩٤ .

١٢٦٤١٢٢٤١٢١٤١١٩ .

علي افندي الألوبي ، الحاج ٣٧٧٤٢٧٧٤٢ .

٤٣٠٤٣٨٩ .

علاء الدين الألوبي ٣٧٧ .

علي ، الشيخ (اليزيدي) ١٦١٤١٦٠ .

علي بن أبي طالب ، الامام ٨٨٤٨٧ .

علي أكبر خان ١٤٨٤١٤٢ .

علي الأحمد ٤٣٠ .

علي إحسان بك (باشا) ١٥٣٤١٤٢٤١٥٤١٤ .

٢٠٨٤٣٠٦٤٢٠٥٤١٩٤ .

علي الباز ركان ٤٤٢٦٤٤٢٤٤٤٠٠٤٣١٣٤٣٩ .

٤٦٩٤٤٦٧٤٤٣٦٤٤٣٠٤٤٢٧ .

علي البغدادي ، السيد ٣٩ .

علي جودت الأيوبي ٤٢٣ .

علي الشيخ حسن ، الحاج ٩٩٤٩٨ .

علي حمزة النصر الله ١٢٦ .

علي الحمادي الحسن ٤٤٣ .

علي الداماد ، السيد ١٣ .

علي رأفت ٣٥١ .

علي رضا الغزالي ٤٢٣ .

علي سرحان أغا ٣٧١ .

علي السليمان ، الشيخ ٤٥٣٤٤١٠٤١١٢ .

علي السمرمد ، الشيخ ١٠٩ .

علي الشرقي ، الشيخ ٦٩ .

علي العينه جي ، أوسطه ٣٩ .

علي محمد أغا مزوري ٢٢٥ .

علوان ، الشيخ (بنو لام) ١٠٠ .

علوان الرماحي ١٢٦ .

علوان الحاج سعدون ٤٥١٤٤٥٠ .

عمر حفطي الملي ٣٠٤ .

عمر الحاج علوان ٤٤٣٤٣٨٨ .

عمران الحاج سعدون ٤٥١٤٤٥٠٤٢٤٤٤٢٤١ .

عنزة بن أسد ١٣٢ .

عيادة العاصي ، شيخ ١٦٤ .

عيسى روجي (مدير المعارف) ٤٤ .

عيسى عبد القادر ٤٢٥ .

عيسى غياث الدين (مدير المعارف) ٤٤ .

عيسى كمال الدين ، السيد ١٤ .

عيسى نوري ، الدكتور ٣٣٩ .

-- غ --

غاربت ، المستر ٣٧٦٤٢٤٩٤٢٣٤ .

غازي الدين حيدر (ملك إوده) ٩١ .

غالب توماس ٣٧٧ .

غامبلي ، الميجر ٣٤٨ .

٤٣١٤٤٠٩٤٣٨٨٤٣٨٥٤٣٣٧٤٣٣٥

٤٧٧-٤٧٥٤٧٠٤٦٩٤٦٠

كولديوي ، البروفسور ٣٢١ .

كونينغهام ، أمير اللواء ٤٤٩ .

كيرك ، الكابتن ٢٢٧ ، ٢٢١ .

كيلمن ، أمير اللواء السريبي ٢٧٥ .

كيلى ، البروفسور أي تي ٣٢٢ .

كيلى ، المس ٣١٨ .

- ل -

لايارد ، هنري ١٥٧ .

لايل ، المستر (الطابو) ٣٧١ .

لطيف ، الشيخ ١٣٦ .

لوبوك ، الكرنل ٣٥٤ .

لوريمر ، المستر ج ١ .

لوريمر ، المستر ٦١ .

لونكريك ، المستر ٣٨٤ .

لويد ، الكابتن (التمور) ٤٥٤ .

لويد جورج ٢٠٩ .

ليجمن ، الكولونيل ١١٨ ، ١٣١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ .

٤٥٣ ، ٤٥٢ ، ٢٢٦ ، ٢٠٧ .

- م -

مار شمعون ١٩٣ ، ٢١٢ .

مارشال ، الكابتن ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ - ١٢٦ .

مارشال ، السر ويليام ١٥١ ، ٢٧٥ ، ٤٧٧ .

ماكدونالد ، الملازم ٢١٩ ، ٢٢٠ .

ماكوف ، أمير اللواء السر جورج ٢٧٥ .

ماكوتا ، الميجر ٣٤٩ .

مامندي ، الدكتور ٣٣٩ .

مان ، الكابتن ٤٥١ .

مبارك الصباح ، الشيخ ٨١٤٣ .

مجيد الخليفة ، شيخ ١٥ .

مجيد دعييل ١٢٦ .

محروث الهذال ، شيخ ١١٤ ، ١٣٠ ، ٤٥٣ .

محسن الحكيم ، حجة الاسلام ١٣ .

محسن غنيم ١٢٤ ، ١٢٦ .

محمد أبو ذياك ١٥٨ .

محمد أمين أفندي (قائم مقام الكاظمية) ١٣ .

محمد أمين أغا بابسيني ٢٢٥ .

محمد أغا هيشي ٢٢٥ .

محمد البرزاني ، شيخ ١٤٠ .

محمد تقي الشيرازي ، حجة الاسلام المرزا ١٣ ،

٤٤٣ - ٤٤٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٥ ، ٣٨٨ ، ١٢٦

٤٦٣

محمد باشا جاف ٢٠١ .

محمد أفندي الجركسي ، الملازم ١١٣ .

محمد أفندي الجميل (مدير المعارف) ٤٤ .

محمد الحداد الكاظمي ٤٢٧ .

محمد حسن الجوهر ٣٩ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٣٠ .

محمد حسين خان (النواب) ٩٢ .

محمد حسين كاشف الغطاء ١٣ .

محمد الخالصي ١٤ .

محمد خورشيد ، الشيخ (العدلية) ٣٧٧ .

محمد رضا الشبيبي ، الشيخ ١٣ .

محمد رضا الشيرازي ١٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٣ .

محمد رؤوف الغلامي ٤٢٣ .

محمد سعيد الجبوني ، العلامة السيد ١٣ ، ١٤٤ .

محمد سعيد عبد الله أغا ٣٠٤ .

محمد سعيد خليل ٤٤ .

محمد باشا الصابونجي ١٣٧ .

محمد صالح شريف (الحلة) ٩٩ .

محمد الصدر ، السيد ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥

٤٤٦

محمد صديق البرزاني . الشيخ ٢٢٢ .
 محمد عارف الطالبياني ١٤٦ .
 محمد عبد الحسين ٤٢٧ .
 محمد عبد العزيز ٤٤٤ .
 محمد عبد الرحمن (شيخ طي) ١٦٠ ، ١٦٦ .
 محمد علي (باشكاتب السنية في البصرة) ٦١ .
 محمد علي ابو الحب ٣٨٨ .
 محمد علي بحر العلوم ، السيد ١٢٤ ، ١٢٦ .
 محمد علي الحاج حسين النعماني ٤٢٠ .
 محمد علي سعيد ٤١٩ .
 محمد علي الشامي ، الشيخ ١٢٤ .
 محمد علي الطباطبائي ٣٨٨ ، ٤٤٣ .
 محمد علي قاضل ١٧٥ .
 محمد علي القزويني ، السيد ٩٧ ، ٩٨ ، ٣٧٨ .
 محمد علي كمال الدين ٣٤ .
 محمد علي كونه ، الشيخ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٤ -
 ١١٦ .
 محمد فاضل باشا الداغستاني ١٤ ، ٢٢٤ .
 محمد فتان الراوي ٤١٩ .
 محمد فهمي ٣٨ .
 محمد شاه القاجاري ١١٨ ، ١٣٦ .
 محمد كاظم اليزدي ١٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٩ ،
 ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٥ ، ٤٤٠ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧١ .
 محمد كافي بك ، الدكتور ٣٤٣ .
 محمد المشري ، الشيخ (الزبير) ٨٢ .
 محمد نجيب أبو شويلية (الكوخ) ١٠١ .
 محمد التجيني ١٦٤ .
 محمد مصطفى الخليل ٤٣٠ ، ٤٧٨ .
 محمد مهدي البصير ، الدكتور ٩٩ ، ٤٢٧ .
 محمد مهدي المولوي ٣٨٨ .
 محمد اليزدي السيد ١٣ ، ١٤ .

محمود ابراهيم الشهواني ٤١٩ .
 محمود أديب ٤١٩ .
 محمود الاستربادي ٤٣٠ .
 محمود الأطرقي ٤٣٠ ، ٤٣٥ .
 محمود باشا جاف ١٣٨ .
 محمود حفيد زادة ، الشيخ ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ،
 ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٦ - ٢٠٣ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٩ ،
 ٤٤٨ ، ٤٢٧ ، الحاج ٤٤٨ .
 محمود جلبي الشابندر ٤٣٠ .
 محمود شوكت باشا ٢٢٤ .
 محمود باشا آل عبد الواحد ٦١ .
 محمود نديم السنوي ٤١٩ .
 محمود النقيب (الكيلاني) ، السيد ٤٣٠ .
 محيي السهروري ، الحاج ٤٢٧ .
 محيي بن نور الدين ٩٩ .
 مخبر ، شيخ ٤٥٤ .
 مخيف ، الحاج ٤٤٦ ، ٤٤٧ .
 مدحت باشا ٣١٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥٥ ، ٢٤٩ ،
 ٣٤٣ .
 السلطان مراد الرابع ١٠٣ .
 مرزا مهدي (نجل الآخوند) ١٣ .
 مرزا حسن الشيرازي ، العلامة الحاج ٩٠ .
 مرزوق العواد ، الشيخ ١٢٤ .
 مسرور ، الشريف ٧٠ .
 مسلط باشا الملحم (الجبور) ٤٢٠ .
 مشرف الدندل ، الشيخ ٤١٨ .
 مصطفى باشا (باجلان) ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤١ -
 ١٤٤ .
 مصطفى البرزاني ، ملا ١٤٠ ، ٢٢٢ .
 مصطفى شوقي ، آل سليمان ٤١٩ .
 مصطفى فهمي بك ٤١ .
 مصطفى الكاشاني ، السيد ١٣ .

- فاجي السويدي ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٢٣ .
 ناصر الدين شاه ١٢٧، ٨٩ .
 ناصر باشا السعدون ٧١، ٤٠ .
 ناظم باشا ١٣٣، ١٣٧، ٢٢٢، ٣٠٣، ٤١٠ .
 نامق باشا (الوالي) ٤٠، ٣١٧، ٣٤٣ .
 نامق باشا الصغير (الوالي) ٣٨ .
 ناموس (شيخ جصان) ١٠٢ .
 نجرس الكعود ٤١٨ .
 نجم البقال ، الحاج ١٢٤، ١٢٦ .
 نجم الدين الملا (الوالي) ٣٤٣ .
 نشأت بك ابراهيم ٣٤٨ .
 نشأت السنوي ٣٧٧ .
 نظام الدين ، الدكتور ٣٤٣ .
 نعم أفندي تاجر ٣٤٥ .
 نويل ، الكابتن ١٨٦، ١٨٩، ١٩١، ٢٠٧،
 ٢١١، ٢١٤-٢١٨ .
 نور الياسري ، السيد ٤٥٦ .
 نور الله ، الدكتور ٣٣٩ .
 نور بري ، الميجر ٤٥٠، ٤٥١ .
 نورمان ، الدكتور ٣٧٣ .
 نورة (بنت الشريف حسن) ٧٠ .
 فوري البرزنجي ، السيد ٤٤ .
 فوري السعيد ٤٢٣ .
 فوري الشعلان ، الشيخ ١٣٠ .
 فوري أفندي الشيرازي ٣٨ .
 فوري فتاح ٤٧٨ .
 فولدر ، الكولونيل ٢٢٨، ٢٩٠ .
 فيكسون ، الفريق السرجون ١٤ .
 فيل ، الماستر (السجون) ٣٧٤ .

- مصطفى كبة ، الحاج ٣٩ .
 مصطفى كمال ٢١٧، ٢١٨ .
 مصطفى بك المميز (الحلة) ٩٨ .
 مطلق الفرحان ، الشيخ ١٦٥ .
 مظفر الدين شاه ١٣٦ .
 مظهر باشا الجركمي ٧٧ .
 مهاوية (اليزيدي) ٨٧ .
 معجون ، شيخ ٤٤٥، ٤٤٦ .
 معروف الرصافي ٤٣ .
 معروف التودهي ١٣٧ .
 مكفارسون ، الميجر ١١٢ .
 « ملك طاووس » ١٥٧، ١٥٨ .
 ملا ابراهيم (الحلة) ٩٩ .
 ملا عثمان الموصل ٤٢٧ .
 ملا محمود (جد الطالمانية) ١٤٦ .
 مناحيم دانيل ٤٣٠ .
 مند ، الشيخ ١٥٨ .
 منير القاضي ٤٤٢، ٤٤٤ .
 موجيل ، الميسو ٤١ .
 مود ، الجنرال ١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١٤١، ١٥١،
 ٢٧٤، ٣١١، ٣٤٠، ٣٨٦، ٤٥٧، ٤٧٧ .
 موسى الباجه جي ٤٦٦ .
 مولود مخلص باشا ٤١٣-٤٢٣ .
 مهدي الخاصكي ، الحاج ٤٩ .
 مهدي الخالصي ، الشيخ ١٣، ١٤٤ .
 مهدي السيد حيدر ، العلامة ١٣ .
 مهدي الخياط ٤٣٥، ٤٣٦ .
 مهدي السيد سلمان (النجف) ٩٤، ١٢١، ١٢٦ .
 مهدي القزويني ، العلامة السيد ٨٨ .
 مهنا ، الشريف ٧٠ .
 مير اسماعيل (زنكنه) ١٤٦ .
 ميلز ، الدكتور ٣٧٣ .

- هاشم الألويسي ٤٤٤٤٢ .
 هاشم سليم ٣١٦ .
 هاشم النقيب (الكيلافي) ٤٧٤٤٧٢ .
 هاول ، الكولونيل ٢٦٥٤٢٦٤٤٢٦٣٤٢٥٥
 ٢٧١٤٢٧٠ .
 هدرن ، الكابتن ١٦٠ .
 هنيل ، الكابتن ٣ .
 هول ، المستر أيج آر ٣٢٢ .
 هيات ، الملازم ٤٤٧ .
 هير ، الميجر ٤٥٤ .
 هيوسن ، المستر ٣١٦ .

- ي -

- ياسين الخضير ٤٣٠ .
 ياسين باشا الهاشمي ٤٢٣٤٤٠٢ .
 ياقوت الحموي ١٥٥ .
 يحيى بك ، الدكتور ٣٣٩ .
 يحيى القوي ، السيد ٣٨ .
 يوسف السويدي ٤٠٥٤٣٩٨٤٣٩٧٤٣٠٣ .
 ٤٦٩٤٤٤٦٤٤٣٧٤٤٣٥٤٤٣٠٤٤٢٦ .
 يوسف عبود ، الدكتور ٩٩ .
 يوسف قريشي ٣٤٨ .
 يوسف كركوكلي ، الخواجة ٤٠ .
 يونس بك الحليلي ١٧٥ .
 يونس عبد الله ٤١٩ .
 يونس آل عزيز ، الحاج ١٧٧ .
 يونس أفندي الفخري ١٧٥ .
 يونس أفندي المفتي ، الحاج ١٧٥ .
 يونغ ، جورج ٢٨٤٤٢٨٢ .
 يهودا زلوف ٤٣٠ .

- واتكنز ، المستر (كرك) ٢٥ .
 وارد ، الكولونيل جي سي (الميناء) ٣٤٧ .
 وارد ، الدكتور ويليام هيز ٣٢٢ .
 واطسون ، الملازم (السجون) ٣٧٤ .
 ووكر ، العقيد (الطابو) ٣٧١ .
 وهيب الشيخ حسن ٩٩ .
 ويب ، الكابتن ٤٤٧ .
 ويست ، الكابتن (الزراعة) ٣٧٧ .
 ويس بك ٤٥٤ .
 ويكنفورد ، المستر ٣٤٩ .

- ويلسن ، السر ارنولد ٨٢٤٦١٤٤٢٤١٠٤٩
 ٤١٩٠٤١٥٣٤١٢٧٤١١٨٤١١٢٤٩٢
 ٤٤٢٩٤٣٨٦٤٣٣٧٤٣٣٦٤٣٣٥٤٢٥٦
 ٤٤٧٧٤٤٧٢٤٤٥١٤٤٤٧٤٤٣١٤٤٣٠
 ٤٧٩ .

- ويلسن ، الرئيس وودرو ٤٧٧٤٣٨٢٤٢٠٨
 ويلسن ، الميجر دبليو ١١٠ .
 ويلكنس ، الكابتن ٣٣٣ .
 ويلكنسون ، الكابتن ٣٣٣ .
 ويلكوكس ، ويليام ٢٤٣٤٢٤١ .
 ويلي ، الكابتن (العمادة) ٢٢٠٤٢١٩ .
 ويمهرست ، الميجر (الزراعة) ٣٧٧ .

- ه -

- هادي ، الشيخ (شمر) ١٦٣ .
 هادي زوين ، السيد ٤٢٧ .
 هادي كوفية ، الشيخ ٤٤٣٤١١٦ .
 هادي مكوطر ، السيد ٩٩ .
 هاردينج ، القورد ١٠ .

دمشق ٤٢٣٤٤١٠٤٠٢٤١٣١٤٦٧٤٢٣
. ٤٤١

دهوك ٢٢٨٤٢٢١٤١٧٧٤١٥٦٤١٣٧

ديار بكر ٢٠٨٤٢٠٦٤٢٠٥٤١٨٣٤١٥٩
. ٢١٧٤٢٠٩

ديالى ١٨٧٤١٤٥٤١٤١٤١٣٦٤١١٤١٠٨
٢٩٩٤٢٦٧٤٢٤٥٤٢٤٢٤٢٣١٤١٩٠
٤٥٥٤٤٥٣٤٤٢٤٤٠٠٣٢٨

دير الزور ٤٠٢٤٣٣٠٣٢٥٤١٦٥٤١٣٢
٤٤٩٤٤٥١٤٤٩٤٤٢٣٤٢١٤٤١٩
. ٤٧٤

الديوانية ٢٩٥٤٢٣٩٤٢٣٣٤١١٧٤١١٢٤٩٩
٤٤١٨٤٤٠٠٣٢٨٤٣٢٦٤٣٢٥٤٣١٩
. ٤٥٩٤٩٥١٤٤٤٤٤٤٤١

- ز -

الزارنجية ٤٥١٤٤٥٠

رأس الخيمة ٣

رأس العين ٤١١٤٤٠٦

رافية ٢٢٩٤١٩٢

الرزازة ٤٠٩

الرستمية ٣١٩

رشت ٤٤٣

الروادي ٤٠٩٤٤٠٠٣٢٥٤٢٣٣٤١١٢

الرميشة ٤٥٠-٤٤٤٤٤٣٧

الرقعة ٤٠٧٤٤٠٦

رواقدوز ١٩٢٤١٩١٤١٨٩٤١٨٢٤١٤٠

. ٢٢٨٤٢٢٦٤٢٢٢٤٢١٥٤٢٠٢

الروز ١٤٥

الزباب الأصفر ١٨٧٤١٥٣٤١٥١٤١٣٦

الزباب الكبير ٢٢٨٤٢٢٤٤٢٢٢٤١٩٠٤١٥٦

زاخو ٢٠٧٤١٩٥٤١٩٤٤١٧٧٤١٥٦٤١٥٣

٤٣٩١٤٣٨٢٤٣٥٤٣٥٢٤٣٤٤٣٣٠

٤٤٤٦٤٤٤٤٤٤٤٣٤٤٤٢٤٤٠١٤٤٠٠

٤٤٥٩٤٤٥١٤٤٥٠٤٤٤٧

الحجاد ١٣٢

الحمار (بحيرة) ٦٩٤١٥

حمام العليل ٤١٨

الخويزة ١٤

الخويش، محلة (النجف) ١٢٦٤٩٤

الخابور ٤٠٦٤٤٠٥٤١٥٦٤١٣٢٤١٢٩

. ٤١٨٤٤١٧٤٤١٤٤٤١٢

خان الحجاد ٩٥

خان النقطة ١٥٣

خانقين ١٨٠٤١٥١٤١٤٨-١٣٩٤١٣٦٤٢٦

٣٢٥٤٢٣٩٤٢٣٣٤٢٠١٤١٩٨٤١٨٥

. ٣٤٤٤٣٤١

خربوط ١٨٣

الخليج العربي ٣٥٢٤٣٣٥٤٣٣١٤٦٨٤٤-١

. ٤٧٨٤٣٦٨٤٣٨٦

- د -

دبي ٣

دجلة ٤٨٧٤٧٩٤٧٢-٦٧٤١٥٤١١٤٩٤٧

٤١٥٦٤١٥٤٤١٥٣٤١٠٩٤١٠٧٤١٠٠

٤٢٢٩٤٢٠٧٤١٦٤٤١٦٢٤١٦١٤١٥٧

٤٣٢٨٤٣٢٤٤٢٥٩٤٢٤٥٤٢٤٣٤٢٣٨

. ٤٥٨٤٤٥١٤٣٤٩٤٣٥٣٤٣٥٢

الدراجي ٤٤٤

دربند بازيان ٢٠٣

دشي حرير ٢١٥

الدغارة ٤٤٦٤٢٤٢٤٢٣٩

دلي عباس ٤٥٤

الكوت ٤١٠٠٤٩٦٤٨٧٤٧٩٤٦٨٤٦٤٣
٤١٢٦٤١٢٣٤١١١٤١١٠٤١٠٢٤١٠١
٤٢٦٨٤٢٥٩٤٢٢٨٤٢٣٦٤٢٣٣٤١٣٩
٣٥٣٤٣٥٢٤٣٢٨٤٣٢٥٤٣٢٤

كوت الزين ١٠٦٧
الكوفة ١٢١٤١١٩١٤١٨٤٩٩٤٩٥٤٨٨٤٨٧
٤٥١٤٤٥٠٤١٢٧٤١٢٦٤١٢٢

الكويت ١٠٣٤٨٣٤٨١٤٨٠٤٦٣٤٥٠٣
كويستنجق ٢٢٩٤١٩٢٤١٤٦
كيل ١٤٧٤١٤٦
كينكر بان ٣٥٣
لبنان ٣٣

لندن ٤٧٧٤٤٧٦٤٤٣٢٤٤٣١٤٢١١٤١٢٧

-م-

ماردين ٢١٧٤٢٠٩٤٢٠٦
المجيدية ٣٤٣
الخمرة ٨٣٤٦٨٤١٥٤١٤٤١٠٤٨٤٧٤٥٠٣
٤٨٥٤٣٨٤٤١٢٦

المحودية ٤٤٢٤٤٣٦
المحيور (آبار) ٤٠٩
محلة الخيدر خانة ٤٣٦
محلة خضر الياس ٣٣٥
المدينة ٣٧

المدينة المنورة ٩٢٤٨٣٤٧٠٤٢٩٤٢٤٤٢٣
٣٠٦٤١٣٢

مريوان ٢٠١٤٢٠٠٤١٣٦
مزيرة ١٣
مسقط ٢

المسيب ٢٦٥٤٢٤٧٤٢٤٠٤٢٣٩٤١١٢
٤٥١

المشخاب ٤٤٩
المشراق ، محلة (النجف) ١٢٥٤٩٤

ونيه ٣٥٢٤٣٠٣
قيتول ١٤٦

-ك، ن-

الكاظمية ٤١٢٥٤١٢٢٤٨٨٤٣٢٤١٤٤١٣
٤٤٣٥٤٤٣١٤٤٣٠٤٤٢٧٤٣٨٨٤٣٤٢
٤٤٦٥٤٤٦٤٤٤٥٨٤٤٤١

الكباسي ٨٢
كبيسة ١١٤
كرار ٤٣٦

كربلا ٤١٠٦٤٩٧٤٨٩٤٨٨٤٣٢٤١٣٤٧
٤٣٣٤١٣٠-١٢٧٤١٢٥٤١٢٠-١١٣
٤٣٤٢٤٣١٨٤٣١١٤٢٩٥٤٢٩٣٤٢٣٩
٤٤٦٣٤٤٤٦-٤٤١٤٤٣٥٤٤١٦٤٣٨٨
٤٦٤

الكرخ ٤٧٠٤٤٣٦٤٤٠٤٣٤٣٤٣١١
کردستان ٤١٤٥٤١٤٣٤١٤٠٤١٣٩٤١٣٦
٤١٨٩٤١٨٣٤١٨١٤١٥٢٤١٤٩٤١٤٧
٢١١٤٢٠٨٤٢٠٧٤٢٠٤٤١٩٧٤١٩٠
٣٢٩٤٢١٨

کردستان الجنوبية ٤١٩٩٤١٩٨٤١٩١-١٨٥
٢٢٩٤٢٠٢

کردستان الشمالية ٢٢٩٤٢٢٨٤٢٠٥
كر كوك ٤١٥٣٤١٥٢٤١٥١٤١٤٦٤١٣٧
٤٢٠٣٤٢٠١٤٢٠٠٤١٩١٤١٨٩٤١٨٧
٤٣٢٧٤٣٢٥٤٣١٦٤٢٩٤٤٢٣٣٤٢٠٤
٤٣١١٤٢٠١٤٢٠٠٤١٩١٤١٨٩٤١٨٥
٤٥٤٤٣٥٢

كر منشاء ١٦٣٤١٤٨٤١٤٥٤١٣٩
كفري ٤١٥١٤١٤٧٤١٤٦٤١٤٢٤١٤١
٤٢٠١٢٢٠٠٤١٩١٤١٨٩٤١٨٥٤١٥٢
٤٥٤٤٣٥٣٤٣١١

الكفل ٤٥١٤٤٥٠٤٣٥٤٤٢٤٢٤١١٢

فهرس العشائر والاسر

- البدرخان ٢١٧٠٢١٧٠٢١٦٠١٨١ .
 البرزانيون ٢٢٧٠٢٢٤ .
 البرواري ٢٢٦٠٢٢١٠٢٢٠ .
 بنو تميم ٤٥٤٠٤٤٢٠٦٧ .
 بنو حجيم ٤٤٧٠٤٤٤٠١٢٠ .
 بنو حسن ٢٤٢٠٢٤١٠١٠٧٠٩٧٠٩٥٠٩٤ .
 ٤٥١٠٤٥٠٠٤٤٩٠٤٤٤٠٤١٠ .
 بنو خالد
 بنو سعيد ٣٩١ .
 بنو العبيد (الخضر) ١٥٦ .
 بنو عنتر ٤٤٥ .
 بنو لام ١١٠٠١٠٠٠٧٣٠٦٨ .
 بنو ياس ٣ .
 تغلب ١٣٤ .

ج، ح، خ

- الجاف ٢٠١٠١٤١٠١٤٠٠١٣٨٠١٣٦ .
 ٢٠٢ .
 الجباري ١٤٧ .
 الجبور ٤٣٦٠٤٢٠٠٢٤٧٠١٦٧٠٦٧ .
 الجحيش ٢٤٧٠١٦٦ .
 الجربا ١٣٥٠١٣٣٠١٢٩ .
 الجنابيون ١١٤ .
 الجواسم (القواسم) ٣ .
 الحسنة (عنزة) ١٣٢ .
 الحميدات ١٢٤ .
 الحواتم ١٢٤٠٩٥ .
 الخزاعل ٤٥١٠٤٥٠٠٢٤٢٠١٠٧٠١٠٠٠٩٩ .
 الخزرج ٦٧ .

- ١ -

- الأعاجيب ٤٤٥ .
 آل أجود ٧٠ .
 آل بدير ٤٤٧ .
 آل بركات ٤٤٥٠٤٤٤ .
 آل جعفر (شمر) ١٣٤ .
 آل الزهير ٨٢ .
 آل الرشيد ١٣٤ .
 آل السعدون (السعدونيون) ٧٠٠٦٩٠١١٠٦ .
 ٢٥٧٠٢٥٦٠٨٤٠٧٧٠٧٤٠٧٣٠٧٢ .
 ٢٥٨ .
 آل شبل ٢٤٢ .
 آل شبيب ٧٠ .
 آل علي (السعدون) ٧٠ .
 آل عواد ١١٤ .
 آل القزويني ٨٨ .
 آل كونة ١١٦٠١١٣٠٩٧٠٩٥ .
 آل الهيص ٤٤٦ .
 أبو جياش ٤٤٦٠٤٤٥ .
 أبو حسان ٤٤٥ .
 أبو محمد ٤٢٠٠٤١٨٠١٦٧ .
 أبو سرايا ٤٠٩٠٣٠٤ .
 أبو سلطان ٤٥١٠٢٤٧ .
 أبو ميثون ٤٢٠٠١٦٦ .
 أبو محيي ٤٣٦ .
 أبو محمد ١٠٠٠٧٦٠٧٣٠٦٨٠١٥ .

ب، ت

- الباجلان ١٤٦٠١٤١٠١٣٦ .
 الباحديتان ١٥٩ .

فهرس الاقوام والاسماء الاخرى

- ١ -

باب عشار ٣٢١ .

البريطانيون ٤١٣٤٤٠٩٠٣٩٩٠١٥٢٠١٤٩

. ٤٧٨٠٤٣٩٠٤١٨

بريطانية العظمى ١٠٣٠٩٦٠٨٩٠٦٨٠١٧٠٣

. ٤٣٢٠٤٩٥٠٣٩١٠٣٣٧٠٢٩١٠١٨٤

. ٤٨٥٠٤٤٧

التركان ٤٢٠٠٣٢٩٠١٦٣٠١٦٢

تركية ٢٠٧٠٢٠٢٠١٨٥٠١٨٤٠١٨٠٣

. ٤٢٢٠٢٥٥٠٢١٧٠٢١٦٠٢٠٩

التجار ١٧١ .

التيلارية (الآثوريون) ٢١٨٠١٩٤٠١٩٣

ج - ز

جامع الأحمدية ٤٢٧ .

جامع الحيدر خانة ٤٣٠٠ ٤٢٧ .

جامع السيد سلطان علي ٤٢٧ .

الجامعة الامريكية في بيروت ٣٣ .

جامعة شيكاغو ٣٢٣ .

جامعة ييل ٣٢٢ .

جريدة الأوقاف البصرية ٦٢٠٦١ .

جريدة البصرة ٦١ .

جريدة دجلة ٣٨٥ .

جريدة الدستور ٦١ .

جريدة العراق ٤٤٣ .

جمعية الائتلاف (البصرة) ٦١ .

الاليانس الاسرائيلية ٣١٢٠٤٠٠٣٧٠٣٣

. ٣٧٠٣٦٠٣٤

الآثوريون ٢٢٠-٢١٨٠١٩٣٠١٨٣٠١٨٢

الأرمن ٢٠٧٠١٩٣٠١٨٤-١٨٢٠١٨٠٠١٦٠

. ٣٣٨٠٢٨٤٠٢١٧٠٢١٤-٢١١

أغوات مكة ٢٩ .

الأكراد ١٣٥٠١٠٩٠٦٤٠٥٦٠١٤٠١١٠٢

. ١٥٩٠١٥٧٠١٥٤٠١٥٢-١٤٦٠١٤٣

. ١٩٤-١٨١٠١٨٥-١٨٠٠١٦٧٠١٦٣

. ٢٤٨٠٢١٩-٢٠٦٠٢٠٣٠٢٠٠-١٩٧

. ٤٢٠٠٣٥٥٠٣٢٩٠٣٢٣

الألمان ١٨٢٠١٤٨٠١٣١٠١٢١٠١٠٩٠١٠٣

. ٣٥٤٠٣٥٢٠٢١٢

الانكليز ٨٢٠٧٦٠٥٨٠٤٠٠٠١٤٠١٢٠٧٠٣

. ١٩٤٠١٤٩٠١٢٤٠٩٨٠٩٥-٩٢٠٨٣

. ٣٩٠٠٣٨٩٠٢٨٨٠٣١٦٠٣٠٣٠٢٠٩

. ٤٣٣٠٤٢٣٠٤١٩٠٤١٠٠٤٠٩٠٤٠٨

. ٤٧٦٠٤٥١٠٤٣٣

الامبراطورية العثمانية ٢٠٨٠٢٠٧٠٧٠٣٠٢٠١

ب، ت

باب الطلمس ١٠٣ .

« الباب العالي » ٢٨٤٠٢٢٤٠١٣٧٠١١٤

مكتب الترقى الجمعري المئاني ٣٩ .
 المسيحيون ١٦١٠٣٩-١٦٣-١٧١٠١٧٨
 ١٨١-١٨٢-١٨٣-١٩٣-١٩٥-٢٠٥
 ٢٠٨-٢١٣-٢١٦-٢١٧-٢٢٠-٢٢٨
 ٢٨٤-٣١٢-٣٩٩-٤٢٠-٤٣٠-٤٥٨
 ٤٦٨-٤٦٥ .
 المديون ١٨٠ .

ن - ي

نظام ساندلمان ١٨٠٥٠ .
 وقعة عاكف ٩٧٠٩٨٠٩٩٠٤٥٩ .
 وقف إوده ٩١٠٩٢٠٩٦٠٩٣١ .
 اليزيدية ١٥٧-١٦٣-١٧١-١٧٨-٢٠٤
 اليعاقبة ١٦٢٠١٧٧ .
 اليهود ٣٩٠٤٠٠٤٤٠٤٤٠٤٤٠٤٤٠
 ٣١٢-٣١٥-٣١٦-٣٥٥-٣٩٩-٤٣٠
 ٤٦٥-٤٦٧-٤٦٨ .

مدرسة باب الشيخ ٤٤ .
 مدرسة البارودية ٤٤ .
 مدرسة التجارة ٣١٩ .
 مدرسة التقيض ٣١٣-٣١٨-٤٢٤-٤٢٧ .
 مدرسة الحقوق ٣٨-٤٠-٤١-٤٢-٣٠٤-٣٠٤
 ٣١٨ .
 المدرسة الخيدرية ٤٤ .
 مدرسة رأس القرية ٤٤ .
 مدرسة الزراعة ٣١٩ .
 مدرسة السلطاني ٣٨-٤٠ .
 مدرسة الصناعة ٣٨-٤٠-٣١٩ .
 المدرسة العلية ٤٠ .
 مدرسة الفضل ٤٤ .
 مدرسة الكاظمية ٤٤ .
 مدرسة الكرخ ٤٤ .
 مدرسة المساحة ٣١٩ .
 المطبعة المممودية ٦١ .

ملاحظة : لم تدرج بعض الكلمات التي يكثر ورودها في صفحات الكتاب ، مثل الكلمات التالية :
 العراق ، بغداد ، البصرة ، الموصل ، العرب وما أشبه .

محتويات الكتاب

الصفحة	المحتوى
٤٦	الدين العثماني
٤٧	القضاء
٤٩	دعوى الجشائر
٥٣	الطابو
٥٦	الصحة العامة
٥٨	الشبابة
٦١	الطباعة والصحافة
٦٣	شؤون الحصار والعمال
	الفصل الثالث
٦٥	تهدة القبائل وعلاقاتنا بالشيعة الى حين سقوط بغداد
٦٥	نظرة في أحوال القبائل العربية
٧٤	منطقة العمارة
٧٦	منطقة الناصرية
٨١	شؤون الجزيرة العربية
٨٦	الشيعة
٨٨	العلماء والمدن المقدسة
	الفصل الأول
	المقدمة
	محتويات الكتاب
١	احتلال البصرة
١	العراق والخليج قبل الحرب
٤	الزول الى البر واحتلال البصرة
٩	الشيوخ المحليون
١٠	موقعة الشعبية
١٥	بعد موقعة الشعبية
	الفصل الثاني
١٧	تنظيم الادارة
٢٠	الشؤون المالية
٢٥	الكمارك
٢٧	الأوقاف
٣٣	المعارف

الصفحة		الصفحة	
١٦٨	الشؤون الزراعية	١٠٠	موقعة الكوت
١٧٢	الضرائب	١٠٢	احتلال بغداد
١٧٥	الأمن والبلدية		
١٧٧	المعارف		الفصل الرابع
١٧٨	الصحة والمواصلات		علاقاتنا بالقبائل العربية وبالمسند
	الفصل السادس	١٠٨	المقدسة بعد سقوط بغداد
١٨٠	القضية الكردية	١٠٨	الاشهر الأولى
١٨٠	لمحة تاريخية	١١٠	اعادة بناء الكوت
١٨٢	مذابح الأرمن والآثوريين	١١١	ديالى والفرات
١٨٥	کردستان الجنوبية	١١٣	حوادث كربلا
١٩٣	الغويان والمسيحيون	١١٧	ثورة النجف
١٩٦	السليمانية في حكم الشيخ محمود	١٢٨	عنزة
١٩٩	ثورة الشيخ محمود الاولى	١٣٢	قبائل شمر
٢٠٣	تحسن الحال	١٣٥	القبائل الكردية
٢٠٥	کردستان الشمالية	١٣٩	الأكراد والروس
٢١١	تهدئة الحال		الفصل الخامس
٢١٥	زعماء الأكراد	١٥١	احتلال الموصل
٢١٦	بداية الحركة الكمالية	١٥١	الطريق الى الموصل
٢١٨	وقائع العمادية	١٥٣	الاستيلاء على الموصل
٢٢١	برزان والزباريون	١٥٧	اليزيديون
	الفصل السابع	١٦١	المسيحيون
	تطور الادارة وتوسعها : شؤون	١٦٢	أقليات مختلفة
٢٣١	الواردات	١٦٣	شمر جربا
٢٣١	تعيين الحاكم الملكي العام	١٦٦	القبائل الأخرى
		١٦٧	الادارة

الصفحة	الصفحة
العامة والسكك الحديدية ، والمالية ،	التقسيمات الادارية في أيام
٣٠٩ والتأسيسات الرسمية	٢٣٣ الاحتلال
٣٠٩ المعارف	٢٣٤ الواردات
٣٢١ الآثار القديمة	٢٣٥ الري والزراعة
٣٢٣ الشبابة	٢٣٥ الضرائب
٣٣١ الشرطة	٢٤٠ تنظيم الري وجداوله
٣٣٤ الخدمة المدنية	٢٤٤ مشروع الاستثمار الزراعي
٣٣٧ الشؤون الطبية والصحية	٢٤٨ الزراعة للأغراض العسكرية
٣٤٤ دائرة التجارة والصناعة	٢٤٩ الطابو وتسجيل الاملاك
٣٥٠ الأشغال العامة	٢٥٣ تنظيم الواردات في ولاية بغداد
٣٥٢ سكك الحديد	٢٥٥ تسوية حقوق الأرض
٣٦٧ التأسيسات	٢٦٣ ضريبة الأرض
الفصل العاشر	٢٦٥ ضريبة التمور
٣٨١ الحركة الوطنية	٢٦٦ دائرة الزراعة
٣٨١ بداية الشعور الوطني	٢٦٧ ضرائب متفرقة
٣٨٦ الاستفتاء العام	٢٦٨ ضريبة الدخل
٣٩٠ استخدام الوطنيين	٢٦٨ ضريبة المزروعات
٣٩٣ البلديات	٢٧٠ استملاك الأرض ونزع الملكية
٤٠٢ حزب العهد ودير الزور	٢٧٣ خاتمة
٤١٧ سقوط تلعفر وتهديد الموصل	الفصل الثامن
٤٢٢ الحركة الوطنية في بغداد	٢٧٤ الادارة القضائية
٤٢٩ تقرير المصير	٢٩٥ تقرير عن محكمة الاستئناف
٤٣٨ الثورة العراقية	٣٠٢ مدرسة الحقوق
الفصل الحادي عشر	٣٠٤ الأوقاف
٤٥٧ الحكم الذاتي في العراق	الفصل التاسع
الفصل الثاني عشر	تنظيم دائرة المعارف ، والشرطة ،
٤٧٢ آراء نقيب بغداد السياسية	والخدمة الطبية المدنية ، ودائرة
٤٨١ الفهارس	التجارة والصناعة ، والأشغال

